مذكرات
بنڤنوتو چلليني



ترجمة وتعليق

جرجيس فتح الله

منشورات الجمل

دار آراس للطباعة والنشر

مذكرات بنڤنوتو چلليني

مذكرات
بنڤنوتو چلليني

ترجمة وتعليق

جرجيس فتح الله

دار آراس للطباعة والنشر
منشورات الجمل

مذكرات بنفنوتو چلليني، ترجمة وتعليق: جرجيس فتح الله

دار آراس للطباعة والنشر و منشورات الجمل
الطبعة الأولى 2012

دار آراس للطباعة والنشر
شارع جولان - أربيل
إقليم كردستان العراق
الهاتف: 35 49 224 (0) 00964
البريد الإلكتروني: aras@araspress.com
الموقع على الإنترنت: www.araspublishers.com

منشورات الجمل، بيروت - بغداد
تلفون وفاكس: 353304 - 01 - 00961
ص.ب: 5438 - 113 بيروت - لبنان
Website: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com
Al-Kamel Verlag
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

المقدمة

ظروف إنجاز هذه الترجمة:

في العام 1963، وبإثر إنقلاب الثامن من شهر شباط الدموي، وجدتُ نفسي مداناً بتهمة لم يُحكَم تلفيقها ـ أمام محكمة عسكرية عرفية، ثم مُساقاً إلى غرفة الإعدام. وكان عليّ أن أشغل نفسي بشيء وأنا أنتظر نهايةً لحياتي. وتشاء الصدف أن يكون أحد السجانين على استعداد للمخاطرة مقابل شيء من المال بنقل رسائلي إلى آل بيتي. فتقوم شقيقة لي بحزم كتابَيْن أو ثلاثة من مكتبتي على غير هدى وتبعث بها صحبة هذا السجّان. ولم تكن الرقابة دقيقة على ما يبدو، فقد استمرت الحال على هذا المنوال أشهراً بطولها.

ومن الكتب التي وصلتني دون يقين: مذكرات چلليني.

كنتُ قد اقتنيتُ هذه المذكرات ضمن مجموعة من الكتب أثناء رحلة لي إلى لندن، ولم تُتح لي أشغالي وقتاً لمطالعتها وبقيت منعزلةً في أحد رفوف مكتبتي، مع العلم أنّ اقتنائي إياه لم يكن بمحض صدفة، فقد عرفت إسم الكاتب لماماً من خلال مطالعاتي في أسفار التاريخ لا سيّما تلك التي تتعلق بعصر النهضة العلمية الأوروبية المسماة بالرينسانس. وإسمه بين أولئك الفنانين والرسامين والمثّالين والأدباء الذين خلّدتهم أعمالهم الفنية، لم تخلُ أية موسوعة علمية أو دائرة معارف عامة مهما صغرت عن ذكرٍ له وتنويه بمذكراته الشخصية هذه بصورة خاصة.

ولا أطيل. ما أن أنهيت بضع عشرات من الصحائف حتى قررتُ البدء بترجمته والإسترسال فيها دون أن تصدّني عنها فكرة وقوفي على عتبة دار الأبدية في كلّ ساعة

أو لحظة. وكان القلم والورق ميسورين أيضاً فشرعتُ في الترجمة، وهي تختلف عن المطالعة، لأنها تحول دون شرود الخواطر وتحثّ على التركيز الذهنيّ، وتطرد الأفكار السود والتأمل في المصير الذي يطارد المحكومين بالموت في كلّ ساعة ودقيقة ولا يقتضي له غير توقيع صغير على ورقة.

وجدتُ في ترجمة چلليني سلوى وعزاء، فأقبلتُ بدأب وعلى ضوء المصباح الكهربائي الذي لا يُطفأ قطّ وأنا بين أكثر من خمسة عشر محكوماً مثلي. وفيهم القاضي، والجنرال، والأستاذ الجامعيّ، والسائق، والجزار، والعريف، والسياسي المعروف والعامل البسيط. فتتداول الأيدي ما أنجزه ثم أقوم بإرساله إلى الأهل.

ثمّ بلغتُ في الترجمة تلك المرحلة العصيبة التي مرّ بها (چلليني) سجيناً بتهمة ملفقة أيضاً. ومحكوماً بالموت أيضاً. ولا تسل عما انتابني من شعور بل ما ساد شعور المحكومين الآخرين الذين تابعوا ترجمتي، أنّ رفيقاً لهم يترجم الآن بقلمه ـ وقبل أكثر من أربعة قرون عين ما تجيش بهم أنفسهم. وأكملت الترجمة في أشهر قلائل واستقرت في أيدٍ أمينة بانتظاري. ولم يكن الكتاب الوحيد الذي نقلته إلى العربية خلال فترة السجن، فقد تلته كتبٌ أخرى تمّ طبعها فيما بعد مثنى وثلاثاً.

إلاّ أنّ «چلليني» بقي مخطوطاً حتى هذه الساعة.

كان يختلف إختلافاً بيّناً عن الكتب التي ترجمتها أو قمتُ بتأليفها، وبالبديهة بل بالبصيرة كانت هذه السيرة أو المذكرات تتطلّب عناية خاصة جداً. فما نقلتُ عنه كان واحداً من المترجمات العديدة الإنكليزية. والمترجم الإنكليزي نفسه يعترف بالجهد الذي تكبّده في نقل بعض التعابير الإيطالية التي إستخدمها چلليني ـ ولا سيّما ما كان بلهجته الفلورنسية. ولما كانت معرفتي بالإيطالية لا تزيد عن عبارة «قتل زيدٌ عمرو»، فقد اقتضت مني الأمانة أن أدور بحثاً عن كلّ ما أمكن الوقوف عليه من الترجمات الإنكليزية والفرنسية الأخرى لأضاهي وأقارن وأثبت الأدقّ والأقرب والأصوب بهمّة المنقّب الأركيولوجي. كما أوجبت على نفسي أن أغني الترجمة بالهوامش والتعليقات والشروح لما يغمض على القارئ العربي من التعريف بأسماء الأماكن والمشاهير الذين وردت أسماؤهم في المذكرات مستعيناً أيضاً بمثيلات لها في التراجم الأخرى أو ناقلاً لها. حتى اجتمع لي منها فيه ثلاثمائة وواحد وثمانون (381) تعليقاً وحاشية.

وكان عليّ أن أقوم ببحثٍ مماثل عن آثار هذا الفنان الأديب ـ العسكريّ. وإقتناء صور لها. فإلى جانب تمثال «برسيوس» المعروض الآن ومنذ إقامته في الميدان الفلورنسي لوجيا دي لانزي Loggia dei Lanzi لملايين الأعين، هناك تحفٌ أخرى من صنع يده الحاذقة مبثوثة في عدة متاحف أوروبية.

وبقي هذا شغلي الشاغل وأنا أحمل المخطوطة معي، من الموصل إلى بغداد إلى كردستان إلى طهران إلى لندن، إلى كاترينهولم (السويد) أخيراً.

وفي طهران حكمت الصدفُ وحدها أن ينشأ بيني وبين السنيور سوردو القائم بأعمال السفارة الإيطالية هناك نوعٌ من علاقة صداقة. وذكرتُ له يوماً ما ترجمتي هذه وحاجتي إلى صور ورسوم لآثاره. وكان ممن يبرّ بالوعد. فقد أوعز لمعاونه السنيور (فاوستو) وهو صديق أيضاً ـ فتم تزويدي بكاتلوغ رائع ضمّ كلّ آثار چلليني المعروفة بتصوير ملوّن متقن إضطلعت به الآنسة سوزانا بارباليا Susanna Barbaglia وأصدرته بعنوان «آثار چلليني الكاملة» ص.opera Completa del Cellini ضمن مجموعة ريزّدولي الكلاسية ـ ميلانو 1981 وبدت الترجمة بهذا مهيأة تنتظر ناشراً.

من هو چلليني: (ملامح عصره)

ولد في العام 1500. ودوّن مذكراته على فترات متقطعة خلال ثماني سنوات (1558 ـ 1566). وكان في الحادية والسبعين عندما ادركته الوفاة. ولم تطبع مذكراته هذه الاّ في العام 1728. إلاّ أن شهرتها استطارت خارج ايطاليا في بداية القرن التاسع عشر عصر الأدب الرومانتي وما لبثت بعض عقود من هذا القرن، حتى إحتلت مكانتها الجديرة بها وعدّها رجال الأدب والنقّاد أشهر مذكرات شخصية في عالم الأدب. واعظمها إثارةً وأصدقها خبراً.

تشيع في المذكرات روح الأنانية وحبّ الذات والتحدّي، إلاّ أنها تعطينا أدق ما وصل الينا من تفاصيل واقربها إلى القناعة وصفاً لأخلاق وتصرفات حكّام القرن السادس عشر في أوروبا ـ ملوكاً وباباوات وأمراء ـ وكذلك لحياة وعادات الرجل العادي وتصرفاته.

في ذاك المجتمع وجد چلليني أعداء له وأصدقاء من كلّ طبقة، فهو لا يتركنا

فترة من الزمن مهما صغرت إلا لنلتقي بتعاقب سريع أخاذ عبر صفحات مذكراته بأصحاب الحانات والفنادق وبنات الهوى، والتجار والعسكريين والساسة والموسيقيين والصنّاع ورجال الأدب والفن والأمراء والملوك والكرادلة وأحبار الكنيسة العظام. وفي هذا العالم الصاخب تجد (چلليني) سيد الميدان وبطل الحلبة الوحيد، يطاعن بالسيف أو يرمي بالبندقية بالحذق والبراعة التي تعالج يده أدق التقاسيم في القطع الفنيّة الرائعة التي خلدت على مرّ الأجيال. وكل هؤلاء الخلق الذين تعامل معهم، نجدهم دائماً في الخلفية أو على الهامش إزاء شخصه.

مع هذا كلّه فبإمكان القارئ أن يتفهم شخصية چلليني وقصص مغامراته المثيرة وتقويمها دونما حاجة به إلى كثير معرفة بأحوال مجتمعات القرن السادس عشر. فسيرته هذه وثيقة تاريخية باهرة الضياء، تلقي نوراً كاشفاً على أوضاع إجتماعية عديدة. كأحوال السجون في روما وتصرفات المبعدين السياسيين الفلورنسيين والاستراتيجية المتبعة في حروب ذلك العهد وعلاقات الملك فرانسوا الأول بعشيقته (مدام ديتامب)، وأصول المرافعات في المحاكم الفرنسية. وأساليب الأطباء في الإرتزاق والمعالجة. الخ...

ونجد چلليني يتحاشى الحديث في السياسة أو زجّ نفسه في عبابها. ففنّه لا شأن له بها. رغم إن قلمه كثيراً ما كان يشتطّ به ويفلت منه زمامه بالتعليقات الذكيّة البارعة التي يُرغم عليها أحياناً ـ كحادث مقتل الدوق (اليساندرو مديتشي) بغضّ النظر عن ولائه لتلك الأسرة الحاكمة. فالخوض في السياسة كان سيلجئه إلى الحيدة عن موضوعه الأساس وهو كتابة قصة حياته، وليس قصة الزمان الذي عاش فيه.

في حياة چلليني كانت الجمهورية التي أقامها الراهب الدومينيكي ساڤونارولا[1] قد اسقطت بحركة إنقلابية. واعيد آل مديتشي إلى الحكم. ثم طُردوا ثم أُعيدوا ثانية. وفي زمن چلليني أصدر مواطنه الفلورنسي (ماكياڤيللي)[2] كتابه الشهير (الأمير) الذي

(1) في العام 1494 تمكن جيامكومو سافونارولا (1451 ـ 1498) من خلق جمهورية ديمقراطية. إلا أن البابا الاسكندر السادس جابهه بالحرم الكنسي في 1495. لكن أعداءه تغلبوا عليه فسجن وحوكم وأعدم شنقاً واحرقت جثته. واعيد آل مديتشي إلى الحكم.

(2) أصدر نيكولو مايكيافيللي (1469 ـ 1527) كتابه الشهير هذا في العام 1532. وقيل انه كتبه للمغامر العسكري=

أصبح إنجيل الساسة والحكام ومرجعاً يهتدون به ويطبقون نظرياته إلى يومنا هذا. وشارك چلليني في الدفاع عن روما عندما ألقت جيوش الإمبراطور شارل الخامس (شارلكان)[1] الحصار عليها. كما تزعمت البابوية حركة الإصلاح الديني المضادة التي تزعمها مارتن لوثر[2]. وضجّت القارة الأوروبية على إثرها ويسببها بالحروب الدينية وحروب الوراثة، وفي عهده إندفعت جحافل الأتراك العثمانيين إلى قلب أوروبا[3]. وقبل أن يولد بستّ سنين فقط كانت سفن كريستوفر كولومبس مواطنه الجنوي تمخر عباب الظلمات (الأطلسي) لتؤدي به إلى إكتشاف الدنيا الجديدة، وكان له من العمر ستّ سنوات عندما قام هذا المستكشف بآخر رحلاته[4].

في ذلك الزمن تقوض صرح السلم في إيطاليا بغزوة شارل الثامن الفرنسي[5] تلك الغزوة التي عجّلت برحلة الفكر والفن الإيطاليين وإنتشارهما في سائر البلاد الأوروبية، كما كانت هذه الحملة فاتحة النزاع المرير بين فرنسا وإسبانيا الذي امتد لهيبه إلى كلّ جزء من القارة الأوروبية وطال أمده بالحملات العسكرية المتعاقبة العنيفة، ومنها حملة لويس الثاني عشر[6] ثم حملة فرنسوا الأول[7].

«جيزاري بورجيا. كان في خدمة جمهورية سافونارولا. وسجن عند عودة آل مديتشي وانقطع للكتابة بعد اطلاق سراحه.

(1) ولد شارلكان في عين السنة التي ولد فيها چلليني وتوفي في 1558. نُصب امبراطوراً في 1519. وتنازل عن الحكم قبل وفاته بسنتين. كانت امبراطوريته خلافاً للمستعمرات الأمريكية تشتمل على إسبانيا وهولندا ونابولي وصقلية والنمسا.

(2) نشر مارتن لوثر (1483 ـ 1546) احتجاجه الشهير في العام 1517. وانكر في كتاب له عنوانه «نبل المسيحية عند الشعب الألماني» السلطة البابوية. وآل ذلك إلى شق العالم المسيحي الغربي وعرف اتباعه بالبروتستانت اي «المحتجين».

(3) في العام 1541 استولت جيوش السلطان سليمان القانوني (1520 ـ 1566) على بودابست.

(4) أولى رحلاته كانت في 1492. وآخرها خلال (1502 ـ 1504).

(5) (1470 ـ 1498). تولى الحكم في 1483.

(6) ولد في 1462. وتولى الحكم في 1498 وتوفي في 1515. لقّب بأبي الشعب اذ كان محبوباً وعرف بإصلاحات عدة في ميدان القضاء والأمور المالية إلاّ أنه اتجه إلى التوسع الاقليمي بتجريد حملات عسكرية على الإمارات الإيطالية.

(7) من مآثر فرنسوا الأول (1494 ـ 1547) اقراره اللغة الفرنسية لغةً رسمية بدلاً من اللاتينية وابرامه معاهدة الامتيازات الاجنبية مع السلطان سليمان الأول القانوني.

على أن إيطاليا بدويلاتها العديدة المستقلة، تحولت نهائياً لتدور في الفلك الإسباني خلال فترة حكم هذا العاهل الفرنسي، بعد ان بلغت المنافسة بينه وبين شارلكان أوجها. كانت إيطاليا مجموعة (موزاييك) من دويلات مستقلة إستقلالاً مهدداً. وظلت حتى وفاة چلليني منقسمة إلى امارات صغيرة وكبيرة. بينها مملكة البابا وعاصمتها روما. كانت فكرة الوحدة سابقة لأوانها يحول بين تبلورها السلطة البابوية وسلطة نواب الإمبراطور في كلّ من نابولي وميلان. وبعد عدة محاولات خائبة في فلورنسا لإقامة جمهورية ثابتة الدعائم، إستسلمت لحكم كوزيمو دي مديتشي الإستبدادي. وتوقف مذ الإصلاح الديني السريع في الأنحاء الأخرى من أوروبا بسبب الحرب الدينية في فرنسا ومحالفة إسبانيا للباباوية ضد الإصلاح الديني بإجراءاته العنيفة القاسية ومحاكم التفتيش السيئة الصيت. وكلّ هذا مهّد السبيل إلى قيام دول أوروبية قومية الطابع مستقلة تمام الإستقلال. وفي فرنسا لم تحل الحروب المكائد السياسية التي إعتمدها فرنسوا الأول دون توطيد ملكه وحصر السلطة في يده. محطماً نفوذ نبلاء الإقطاع بالتدريج ومجرّداً إياهم من كل سلطة. وبرعايته وحمايته الفعالة لصغار النبلاء وماليي وتجار الطبقة الوسطى، واتباع سياسة الترفيه وتوفير اسباب العمل بحرية، ضمن السبيل إلى التقدم الفكري وفتح ابواب فرنسا لحركة البعث المسماة بالرينسانس.

ولم يكن دور چلليني في حروب جيله بالقليل. فقد استخدمه البابا كليمنت السابع آمر مدفعية اثناء حصار روما. وساهم في اقامة استحكامات باريس وفلورنسا. إلاّ آن شحة النقد في خزانة البلاط الفرنسي كانت بالنسبة إليه أهم من كل هذا. ونذالة الراهب اللوثري السجين معه في قلعة سان انجلو اهم عنده من حركة الاصلاح الديني. ومن كل ما هو في عرف السياسي نظر المؤرخ والقارئ بسنوات حاسمة في التاريخ كالعام 1519 مثلاً وهو عام إنتخاب شارل الخامس امبراطوراً. والعام 1520 عام صدور قرار الحرم بحق (لوثر) والعام 1534 عام إنفصال كنيسة إنكلترا عن العالم الكاثوليكي وعام ثورة الفلاحين في ألمانيا 1525، والعام 1542 عام إنجاز ماجلاّن البرتغالي طوافه حول العالم. وعام إستيلاء الأتراك على بودابست. وأخيراً فتح آبواب الأمريكتين للهجرة الأوروبية. كل هذا وغيره لا يستدعي منه إلتفاتاً ولا يبدو مهماً بالمقارنة إلى وصف إنتصاراته الشخصية ومتاعبه ومغدوريته.

قضى چلليني السنوات التسع عشر الأولى والسنوات الست والعشرين الأخيرة من حياته في فلورنسا. وفي العام 1519 شدّ الرحال إلى روما وإستقرّ فيها بإستثناء زيارات متباعدة لفلورنسا وفترة رحلته الخائبة إلى فرنسا خدم خلالها البابا كليمنت السابع ثم البابا بولس الثالث (بين 1523 ـ 1540). وشهدت له مذكراته على تعلقه الشديد بموطنه. وفي روما كان الفلورنسيون أقرب أصدقائه وأعزهم وبقي على صلة وثيقة بالمغتربين منهم في كلّ من باريس وروما. وإجتذبته فلورنسا أخيراً إليها قبل نهاية حياته بزمن طويل فعاد إليها. ومع انه كان يشكو بحرقة من وضعه ويعبّر عن حنين للعودة إلى البلاط الفرنسي يحمله على استذكار خدمته لفرنسوا الأول معتبراً اياها الفترة الذهبية في حياته ـ لم يكنّ هذا في الحقيقة غير الشعور بالخيبة وبعامل التقدم في السنّ.

إلا أن تعلّقه بمدينته لم يحل دون هروبه عندما هاجمتها جيوش الإمبراطور انتصاراً لآل مديتشي وبهدف اعادتهم إلى الحكم. وهروبه هذا يشبه هروب ميكالنجلو منها. يقول ڤاساري[1] بمناسبة كتابة نبذة عن حياته: «ترك فلورنسا إلى البندقية سراً ضماناً لسلامته».

وما من شك في ان چلليني كان مديناً لآل مديتشي بأكثر مما هو مدين لحكومة الجمهورية، ففنّه وخلقه تكاملا ونشآ في ظل بلاط المستبدين من الحكام. في بلاط دوق فلورنسا الأكبر الطاغية (كوزيمو) الذي لا تداخل قلبه رحمة وفي ظلّ سلطان روما البابوي الذي لا يعرف حدوداً وفي بلاط باريس وحكم الملك المطلق.

بنظر چلليني ان هؤلاء الحكام هم فوق القانون بفضل سلطانهم المطلق مثلما كان يعتبر نفسه فوق القانون بسبب عبقريته ومواهبه. على ان مواقفه الجريئة منهم، بل البطولية احياناً، كانت تجعل اولئك الحكام أشبه بالأقزام امامه. واعتداده الفائق الحدّ بنفسه وتمجيده لها وايمانه الراسخ بأنه يملك من المواهب ما لا يملكها أولئك، يتسق اتساقاً تاماً والأسلوب القوي الهجومي الذي انتهجه في كتابة سيرة حياته.

---

(1) سيرد الحديث عن هذا الكاتب فيما بعد.

المذكرات:

يتفق النقاد والأدباء بأن سيرة حياة چلليني هي أثر فنيّ عظيم رائع. وكذلك هم يتفقون على أنه خلق اثره هذا دون ان يدرك نفاسته وقيمته. ومع انه كان يطلق لقلمه العنان ويرسل القول ارسالاً دون خطة مسبقة أو اهتمام بالصقل والتهذيب، فإنك لا تجد ذلك يستقيم مطلقاً وعنايته الظاهرة بحصر مادته الكتابية وسبك حكاياته وفق الضوابط والقواعد الكلاسية التي جرى عليها أسلافه من الكتّاب. إلى جانب حرص فيه على تقويم لغتها بمعرفة لغوي خبير حيثما تيسّر له ذلك.

وقد بدا منها قارئاً متتبعاً لآداب العصر إلى درجة كبيرة، ومثقفاً بتمام ادراك بالمستويات الأدبية الرفيعة التي قوّم أسسها اصدقاؤه ومعاصروه.

ويتفق المتأدبون مواطنوه، مع رجال القلم الآخرين وسائر مترجميه إلى اللغات الحيّة ـ ان اسلوبه فريد وحده ـ مثل شخصيته. ففي محاولته تحرّي الدقة فيما يصف ـ تجده يلجأ إلى الترديد والتكرار الذي يلازم الحديث الإعتيادي. وفي المذكرات فقرات طويلة تتعاقب جملها بالشكل والمنوال والنسق كتعاقب الجمل في وثيقة قانونية. هناك فقرات أخرى لا تجد فيما بينها رابطة سياق، تفاجئك من حيث لا تدري. وهناك مواقف عديدة ترى چلليني الكاتب عاجزاً عن ضبط نفسه أو إخفاء إنفعاله. فيندفع ولا يقتصد في إستخدام تعابير سوقية، كثيراً ما إعترف المترجمون بأنها بالغة التعقيد تستدق على الفهم أحياناً.

لكن چلليني هو أبداً الراوية البارع المدرك الحبكة القصصية بكلّ ألمعيّة وذكاء فيه. وبميزان قلّ أن يخطيء للشخصية التي يتصدى لها. يعرف جيداً كيف يتحرك بلباقة ورشاقة، متنقلاً بين الهزل والجد. وبين التندّر والتأسي. وكل القصص التي جاءت في السيرة. بدءاً بإنجيليكا والجنّ. ومروراً بمصرع شقيقه وهروبه من سجن القلعة وإنتهاء بالعدالة التي إقتصت من (لويجي بولجي)، تكشف عن حساب دقيق لعامليّ التشويق والإنفعال اللذين يتخلفان في نفس القارئ. ثم هناك وصفه المثير لمقابلته السيدة الرومانية بورشيا، الذي يكشف عن رقة مدهشة للأسلوب والخلق اللذين يبرزان في المذكرات اكثر من مرة. هناك أيضاً وصفه الرائع في حكاية البابا

كليمنت وهو على فراش الموت عاجز عن رؤية الميداليات التي صنعها له وكيف صار يتلمسها بأصابعه ويتنهد تنهيدات عميقة. هذه القصة بحدّ ذاتها تحدثنا عن بابوية عهد الرينسانس قدر ما يحدثنا عنها تاريخ مفصّل.

وإلى كل أنانيته وحبّه لذاته. فقد كان على قدرٍ ما من الاهتمام بالآخرين كاف لإعترافه بفضائل ومزايا من إعترض سبيل حياته. فأبوه الشديد الحبّ والرعاية لأولاده، بحديثه المثقل بمقتبسات من الكتاب المقدس، وحالته وهو شاب خاطب يد زوجة المستقبل. وغرامه بالموسيقى، بأفكاره الخاطئة وسعة حيلة وهو في سنّ متقدمة إلى جانب الصبي الأسباني (دييغو) الجميل، والساعي المراوغ (بوسباكا) و(تريبولو) الرعديد، ومحافظ القلعة المصاب بداء انفصام الشخصية، تمثل فحسب طائفة قليلة من الشخصيات ذوات الأدوار الصغيرة في المذكرات. لم يبخل چلليني عليها بإظهار الجانب الطيب فيها.

ويُحسد حقاً على طول باعه في القدح والهجاء، يقابله اقتناص ذكي للفكاهة كلما عنّت. لما طفق (تريبولو) خِلفتُه يشتكي منه وهما في رحلة العودة من البندقية، غلب على چلليني شعور بالتندّر لا قبل بمقاومته، لينقلب أحياناً إلى تهكم وسخرية. وفي اكثر الأحيان إلى إنفجار صاعق يتحول إلى كآبة. وعلى سبيل الفكاهة تراه يلجأ إلى التورية واللعب بالألفاظ فيعبث بإسمه وبإسم (فِليجي كُواديني) وبإسم (دورانتي). ويثير الأطباء بكوامن سخريته اللاذعة كـ(بانكلوس) الذي «فقد عيناً واحدة فقط وأذناً واحدة بنتيجة المعالجة» وكـ(چلليني) نفسه الذي «تطبب بكلّ شيء يعرفونه وبقيت حالته تزداد سوءاً يوماً بعد يوم»!

ولحسن الحظ وصلتنا المذكرات كما دوّنت. دون نقصان أو رمج أو خَرم أو عبَث. بدأ چلليني يكتبها بخط يده ثم عدل في سنواته الأخيرة ربما لقلة صبر على الكتابة، فصار يمليها على صبيّ في الرابعة عشرة. وكان معظمها بخط يد هذا الكاتب خلا صحائف قلائل لكاتب آخر.

وفي العام 1559 أرسل المخطوطة إلى صديقه الأديب (بنديتو فاركي) لمراجعتها

لغوياً وتصحيحها وفقاً لما طلبه منه. فلم يفعل بل ذيّلها ببعض الملاحظات وأجرى تصحيحات طفيفة ثم ردّها اليه.

رحلة المذكرات والتراجم:

جلليني مدين بخلوده إلى هذه المذكرات أكثر بكثير مما تركه من آثار فنية. وقد تقلّبت عليها صروف من الدهر كادت تفقدنا إياها. ظلّت هذه المخطوطة في حوزة آل كافالكانتي Cavlcanti حريصة عليها طوال القرن السابع عشر ثم إنتقلت إلى المكتبة اللورنتية الجديدة ويرى في فهرست المكتبة هذه العبارة حولها: (كتاب أندريه دي لورنزو كافالكانتي de lebri di Andrea de Lorenzo Cavalcanti). ويشهد على اعتزاز (اندريه) هذا بالمخطوطة وحرصه عليها ما دوّنه ابنه (لورنزو ماريا) على صفحة بيضاء منها. فقد كتب:

«كان ابي السنيور اندريه كافالكانتي صاحب الذكرى الغالية عندي يُنزل هذا الكتاب في نفسه أرفع منزلة. فلم يسمح لأحدٍ باستنساخه ولم يحوّله عن موقفه هذا الطلبات المتكررة والرجاء الملحّ الذي جاءه من صاحب السمّو والنيافة الكلّي الإحترام الأمير الكردينال ليوبولد أمير (توسكانيا)».

إلاّ أن (لورنزو) بالأخير نزل عن المخطوطة إلى دار النشر الإيطالية «ريدي Redi» فطبعت منها طبعة رديئة غير منقحة في العام 1728[1]. بعد هذا لقيت المخطوطة الأصلية ما لقيت من تصاريف القدر العجيبة وإختفت مراراً في رفوف المكتبات. ثم ظهرت عند الورّاق (جكينو دال سيميناريو Cecchino dal Simenario). اذ عثر عليها عنده واحدٌ من جمّاعة الكتب فإبتاعها وأوقفها بعد وفاته على مكتبة (مديتشيا لورنزيانا) وهي التي نقل عنها النص الإيطالي المعتمد وسائر الترجمات الأخرى.

في العام 1771 ظهرت لها ترجمة انكليزية من عمل (نوجنت N. Nugent

(1) ورد في ترجمة فرنسية للمذكرات، نقلاً عن طبعة إيطالية حديثة ان النسخة التي اعتُمدت في هذه الطبعة نقلت عن المخطوطة الأصلية نقلاً سيئاً بقلم نسّاخ مجهول قليل الإلمام باللغة.

واجتذبت انظار الكاتب والشاعر الالماني الكبير «ولفكانك كوته»[1] فقام بأول ترجمة لها إلى الالمانية وهو شرف عظيم لم تنله مذكرات قبلها أو بعدها ينيله واحد من اعظم القصصيين والمفكرين العالميين ـ وكان ذلك في العام 1796.

وظهرت اولى التراجم الفرنسية لها في العصر الرومانتي وذروة الحركة الرومانتية في العام 1822.

في هذا العام بالذات ظهرت بالإنكليزية ترجمة جديدة للكاتب الاديب توماس روسكو. واعقبتها ترجمة ثالثة لسايموندز G.A.Symonds بفاصل اربعين عاماً عن روسكو Thomas Roscoe. وفي العام 1903 اصدرت الآنسة مكدونل Macdonell ترجمة رابعة محكمة. واوضحت في مقدمة لها وجه امتياز ترجمتها على باقي التراجم الأخرى ببعض اوجه المقارنة والمضاهاة. ومما قالته في هذا الصدد:

«انه لسوء حظ كبير لشهرة چلليني في إنكلترا وخسارة لا تُعوض في عالم الأدب هنا إن بقيت مخطوطة مذكراته منسية قابعة في رف إحدى المكتبات الإيطالية طوال قرنين. وها نحن أولاء في عصرنا الجليل عصر الترجمة والنقل الذي اتحفنا بترجمة (فلوريو) لمونتين، وترجمة سير بلوتارك لـ(نورث). في هذه المنقولات يتجلى المثال الدقيق والمظهر المتقن لأساليبهم البليغة المشرقة ووصفهم الرائع. وقد فقدنا هذه الملامح كلّها. فقدنا فنهم الجذاب وبساطتهم في التعبير وقلة إحتفالهم بالجزئيات والتفاصيل وفقدنا حذرهم من الدقة الرتيبة. فهم يكشفون عن عبقرية خاصّة سلسة تضاهي الأصل بقوتها».

ثم تنتقل إلى مدرسة المترجمين الإنكليز الحديثة وإلى التراجم التي سبقتها من چلليني فتقول:

«والمقاييس ـ إن كان ثمة مقاييس في الترجمة ـ تختلف إختلافاً بيناً. فهي عملية

---

(1) ما زالت ترجمة غوته (1749 ـ 1832) افضل التراجم واحبها إلى الالمان رغم صدور ترجمات اخرى لها، بسبب الاسلوب الرائع الذي نقله بها. رغم ان بعض النقاد كانوا يجدون فيها ثغرات. (يعرف قراء العربية هذا الاديب الكبير من ترجمة لـ(فاوست) و(آلام فرتر) و(الديوان الشرقي للمؤلف الغربي)». هذا وقد طبعت ترجمته هذه عدة طبعات وبقيت لها مكانتها في عالم الأدب الالماني.

المنحى دقيقة اللغة لا تتوخى الفن ولا تُعنى بجمال الأسلوب، ومع نفاستها وقيمتها في معظم الأحيان توهم المرء بأنها لم تُعمل لخدمة الأدب قدر ما عُملت لتوضع أمام عينيّ الناقد المدقق. وفي الترجمتين اللتين سبقتا ترجمتي لمذكرات چلليني - حسناتٌ وميزات لا تمتُّ إلى الصنفين من الترجمة اللتين أتيت إلى ذكرهما. فترجمة (نوجنت) ترجمة تكاد لا تعدُّ الآن من الترجمات المعتمدة. وأمّا (روسكو) فأسلوبه ذو طابع خاص قد لا يبدو في أحيان كثيرة سلساً جذاباً وهو عموماً لا يرضي أدنى معايير الدقة والأمانة. وقرّاء الإنكليزية مدينون لسايموندز بالكثير شأنهم في ذلك شأن من عقبه من المترجمين. وعليّ أن أقرّ هنا بفضله شاكرة. وترجمته ليست بحاجة إلى إطراء. إذ ما على المرء إلاّ أن يضطلع بما أنجزه من عمل ليتبين مبلغ أمانته في النقل مع طول معاناة وكَلَفٍ بتحري الدقة التامة بكلّ ما تقتضيه من جهد. فإذا ما وجدته مخالفاً غيره في ترجمة عبارة فثق انه ما تقصد ذلك إلاّ بعد تفكير طويل وتقليب وجوه الرأي وتغليبه بتأمل وبحث شاق. وليس في وسع مترسم خطاه ان يكون مهملاً قليل الإحتفال بالتفاصيل. بيد أن الأسلوب العصري لا يخلو من نقائص وعيوب لا يستطيع أيّ منا ان يتحاشاها. فالحرص العظيم على إيلاء كلّ فقرة ما تستحقّ من عناية تدعو إلى إنتقاء تعابير لغوية خاصة. ويتطلب منا تقريب اللغة الدارجة في ذلك العصر إلى مفهوم عصرنا فضلاً عن المصطلحات اللغوية الأجنبية. وربما امتازت ترجمة (ألكساندر سايموندز) بتلك الجاذبية التي تشيع من كلّ آثاره، لا سيما تلك التي تتناول بلاط أمراء إيطاليا. فچلليني سايموندز هو چلليني زائداً صفة أخرى تكسو تلك المذكرات حلّة أكثر بهاء وإشراقاً من النص الإيطالي بما يتخلله من تعابير سوقية كثيرة».

هذا جملة ما قالته الانسة آن مكدونلّ في صدر ترجمتها. وهي الترجمة التي اعتمدتها انا اصلاً. ثم وقعت بيدي بعدها ترجمة اخرى لروبرت كوست Robert Cust نشرت في 1910 ثم ترجمة أخيرة تمّت في العام 1972 لروبرت بالديك Robert Baldick . وقد افدت من كليهما أيضاً فضلاً عن الترجمة الفرنسية التي أشرت إليها لا

سيما بخصوص فترة بقاء چلليني في خدمة الملك فرانسوا بباريس. واليك ما قاله المترجم اوجين بلون Eugene Plon عنها:

«لهجة چلليني، هي لهجة فلورنسا. نقية للغاية، خالصة أصيلة تشيع في جوانبها روح فكاهية تتحدّى الترجمة أحياناً».

ويتحدث بالديك عن ترجمته (هي الأخرى من سلسلة التراجم بحسب علمي ومتابعتي):

«حاولت في ترجمتي إبراز فخامة الأصل وتنقلاته المتعددة في اللهجة وسرعة الحركة. وصعب عليّ مجاراة أوصاف چلليني وتعابيره الدارجة في صبّها بقالب انكليزي. ولم يكـن ثمّة بدّ والحالة هذه من ضياع كثير من شتائمه وأوصافه الشنعاء. ولم أتردد في تقصير الفقرات وتقطيعها لازالة الغوامض حيثما امكن».

كان عليّ بعد هذا ـ وقد بقيت ترجمتي لا تفارقني ـ ان اتفهم تلك التعابير الدارجة والشتائم عن طريق المقارنة والمضاهاة بين ستّ تراجم اجتمعت لي خلال ذلك لأجد لها أقربها في لغة الضّاد. وقد افدت بالكثير منها مثلما افاد مترجمو چلليني الذين سبقوني أحدهم من الآخر.

چلليني: (آخر سني حياته) ومكانته الفنية:

تنقطع المذكرات بصورة مفاجئة. وتختم بهذه العبارة «ثم انطلقت إلى بيزا». هذه العبارة دونت في صدر صحيفة بيضاء لا تحتوي على كتابة أخرى. وانه لدليل على أن چلليني كان عازماً على الإستمرار. وقف بقصة مغامراته ووقائعه وأعماله حتى العام 1562 مؤكداً في فاتحتها بأن الغرض الذي توخاه منها هو «رفع شكره لله فحسب» إلاّ أنه كان يكتب ويملي وعينه يقظة على جمهور قرائه. وما مذكراته هذه إلاّ دفاعاً عن نفسه وتزكية لمواقفه الحذّية الجريئة. اراد أن يثبت للدنيا ايّ معدن من الرجال الصناديد كان وأي مبلغ من العبقرية الفنية بلغه.

كان چلليني في الثانية والستين عند إنقطاعه عن الإسترسال في التدوين. وقد أخرجت يداه افضل آثاره الفنية. وهو معتلّ الصحة في أغلب الأحيان، يشكو بعض

العسر المالي وقد إستقرّ نهائياً في فلورنسا. ولذلك وبسبب ما عُلم عن حياته الأخيرة ـ لنا أن نستنتج بأنه لو واصل الكتابة بعد العام 1562 فكلّ ما نظفر به سيكون عرضاً مملاً وشكوى ممضة للمعاملة السيئة وسوء الحظ الذي لازمه دون ان يستحقه.

في العام 1554 وضع اسمه رسمياً في قائمة طبقة نبلاء فلورنسا. إلاّ انه قضى ردحاً من الزمن في السجن لإعتدائه بالضرب على أحد زملائه الصاغة ويبدو انه قضى فترة سجن اخرى بتهمة ممارسة فعل مخلّ بالآداب مع أحد مساعديه الصبيان. وفي العام 1558 قبل نذره بالترهب. ولم يعتم إلاّ وطلب حلّه من الواجبات التي يفرضها هذا النذر فأجيب إلى طلبه.

وبعد سنوات قلائل عقد زيجته بالمرأة المدعوة (بييرا سلفادوري باريجي Piera di Salvadore Parigi) ثم بدأ بكتابة رسالته في النحت والصياغة المسماة تراتاتي Trattati وفي العام 1564 انتخب عضواً في الوفد الرسمي لحضور تشييع جنازة (ميكالنجلو) وتأبينه ـ وكان الوفد يضمّ خلافه كلاً من (برونزينو، وڤاساري وآمّاناتي) إلاّ أن مرضه الذي اشتد عليه اقعده عن المشاركة.

لم يقنع چلليني بأن يكون أباً لثمانية أولاد شرعيين وغير شرعيين من صلبه. ففي العام 1556 تبنى رسمياً إبناً لإمرأة اسمها (دوروثيا) كان يتخذها نموذجاً له بمعرفة زوجها (دومينيغو باريجي) ابيه الحقيقي. ولمّا لم يعش اي واحد من أولاده فقد قرر أن يجعل الصبي المتبنّى (انطونيو) وريثه. إلاّ ان ظنه فيه خاب. إذ لم يكن يسوى شيئاً. كما راح الأب الحقيقي يثير له المتاعب بالتدخل في شوون التبني، فحرمه چلليني من الميراث لكنه اضطر إلى دفع نفقة إعاشته حتى أدركته الوفاة بمرض ذات الجنب.

كان في العام 1571 ودفن بإحتفال مهيب في كاتدرائية الأنونزيانا. وكرّم الفلورنسيون ذكراه. مثلما قدّروه حق التقدير في حياته بوصفه أحذق من عرفه العالم في فن الصياغة والتكفيت. وان إنقسمت آراؤهم في حينه حول كفاءته وعبقريته كمثّال. والحكم الحديث على هذا الفنان من هذه الناحية قد يكون اضيق من ان يحشر في زمرة المثالين العظام أمثال ميكالنجلو ودوناتللو.

مهما يكن من أمر فمن الأغراض التي توخاها بكتابة مذكراته هي تزكية نفسه كفنان. إن تعلقه الشديد بالجمال - ولا سيما جمال الإنسان وواكبته لجاجة ورغبة جائحة في تحقيق الصعب من الفن كما بلغت به الأوج في فنّ الصياغة. كان يكتب عن فنه كأنما يكتب عن عشيقة متولّه بحبها، أحياناً يخونها (مثلما حصل أثناء حصار قلعة سان أنجلو) عند مثار النقع وفي دخان المدافع وقصفها ولعلعة الرصاص وقراع السيوف أثناء المعارك ضاعت منه تصاميمه ودراساته وموسيقاه الرائعة. كانت الحرب والقتال متعة روائية له واثراً رائعاً من آثاره.

يعدّ چلليني نفسه تلميذاً أميناً لـ(ميكالنجلو بوناروتي) العظيم. مردداً ذلك دون كلل أو ملل معدّداً أفضاله، وكم هو مدين له. بقوله «من ميكالنجلو العظيم ومنه وحده وليس من غيره تعلّمت كلّ ما أعرفه». وبالفعل كان تأثير هذا العبقري الخالد في أسلوبه قوياً ومتواصلاً اثناء وجوده معه في روما وفلورنسا. وقد بدا هذا التأثير بأجلى صوره وبصورة خاصة في أشهر أثرين له هما «المملحة الذهبية» التي صنعها لفرنسوا الأول والقاعدة التي نصب فوقها تمثال (برسيوس).

ان تقدير (چلليني) المفرط لعبقريته لايمكن رفضه لمجرد صدوره من إنسان طُبع على الخيلاء والإعجاب بالنفس. فقد أقرّ إثنان من كبار أدباء وخبراء عصره بمكانته في عالم الفنّ، هما (فاركي) و(جيورجيو ڤاساري). قال هذا» انه صنع ميداليات فاق بها الأقدمين، وهو اشهر صائغ في عصره ومثّال يُشار إليه بالبنان».

ولدينا شواهد أخرى على هذه العبقرية في الصياغة وصناعة الميداليات فضلاً عن المملحة الذهبية. فهناك المسكوكات النقدية والميداليات التي صنعها للبابا كليمنت السابع وللدوق أليساندرو دي مديتشي وفي دراساته التخطيطية لعروة زنّار البابا وفي طبعات أختامه المختلفة. لكن مسألة مكانته في عالم الفن بقين بالأخير تدور كما أراد هو نفسه حول آثاره كمثّال.

في الوقت الذي حلّ چلليني في باريس (1540) كان التأثير الإيطالي قوياً في مجال الفنّ. وبدا له وكأنه قادر على إستخدام سخاء فرنسوا وكرمه الذي فاق الحدود لعرض مواهبه كمثّال. وكانت أعماله المنجزة في (فونتنبلو) نموذجاً للأسلوب

المعروف بالمانرزم Mannerism[1] وقد ساهم جلليني في إنشائه مساهمة بارزة ولا سيما في تفاصيله ودقائقه الفنية التي اتاحت له ابراز براعته التقنية وفق نهجه الخاص. فتمثال (مارس) العملاق الذي تحدث عنه في المذكرات إنما ينمّ عن رغبته الشديدة في إنجاز أثر بالغ الجرم والضخامة يلفت إليه الأنظار ويثير العجب والدهشة. إلاّ أن أثره الباقي من اسلوب المانرزم هو (حوريّة فونتنبلو) المعروض الآن في متحف اللوفر.

وكان جلليني عند عودته إلى فلورنسا قد عقد العزم على ان يثبت للفلورنسيين بأنه أصبح مثالاً فريداً يشار إليه بالبنان. ومن آثاره الباقية لهذه الفترة تمثال (برسيوس) البرونزي. والكلب السّلاقي، وتمثال كوزيمو النصفي وكلاهما معروض في المتحف الوطني. وتمثال (بِنْذو ألتوفيتي) النصفي في الولايات المتحدة. (متحف إيزابللا ستيوارت كاردنر في بوسطن). والصليب (في الاسكوريال بإسبانيا).

وما يزال حكم (سايموندز) عليه في هذا الصدد مقبولاً عند دائرة واسعة من خبراء هذا الفن. وهو ان جلليني مَلَكَ مواهب الفنان المحترف الكاملة إلاّ انه يفتقر إلى خيال الفنان الملهم. ولذلك خلت آثاره من العمق والجلال والتناسق.

وفي أيامنا هذه، وبالتأكيد على أن من حقّ أسلوب المانرزم في الأداء الفنّي - أن يعدّ نمطاً فنياً ذا طابع مميز لا فناً ثانوياً عادياً. صار الناقدون وخبراء الفنّ يدرجون (جلليني) في عداد مشاهير المثالين ويقومون آثاره تقويماً عالياً.

عن أسرة مديتشي:

إرتبطت حياة جلليني وحظوظه وأسباب شهرته بل ومتاعبه بهذه الأسرة الشهيرة التي حكمت فلورنسا. وقد رأيت أن لا أختم هذه المقدمة إلاّ بعد عرض نبذة قصيرة عن هذه الأسرة.

---

(1) يطلق على الأسلوب الفنّي والمعماري الذي تخلل أسلوبي الرينسانس والباروك. كانت بولونيا وفلورنسا وروما مهده ومواضع نشأته وتطوره في اوائل القرن السادس عشر وشاع امره وازدهر طوال ذلك القرن حتى نهايته. ويتميز بتصوير دقيق المعالم لأوضاع الجسم البشري مع تآليف متحاشدة متساوقة وهو بمثابة ردود فعل مضادة لمبادئ وانماط الرينسانس الكلاسيّة.

إنها أسرة إيطالية من الماليين والمصرفيين والأمراء ورعاة للفنون حكمت دويلة فلورنسا بصورة مستمرة تقريباً من حدود العام 1420 حتى 1737. وأنجبت مما أنجبت أمراء للكنيسة (كرادلة). وباباوات ثلاثة هم البابا ليون العاشر (1513 ـ 1521) وكليمنت السابع (1523 ـ 1534) وليون الحادي عشر (1605). وملكتين لفرنسا هما كاترين دي مديتشي (1519 ـ 1589) زوج هنري الثاني. وأم ثلاثة ملوك (فرانسوا الثاني، شارل التاسع، هنري الثالث). وماري دي مديتشي (1573 ـ 1642) زوج هنري الرابع الفرنسي وام لويس الثالث عشر. اقام اركان هذا البيت (جيوفاني دي بتشي دي مديتشي) (1360 ـ 1429) وأمره على فلورنسا ابنه كوزيمو الاول (1389 ـ 1464). الذي كان يحكم فلورنسا فعلياً منذ العام 1434. ونظراً لما اتصف به من خصال كريمة، خصّه الفلورنسيون بعد وفاته بلقب (أبو البلاد) وقد امتاز بثقافة عالية وبحبّ العلم والمعرفة واهتمام ورعاية لأهل الفنّ من أمثال (دوناتللو) الشهير. وهو الذي أسس المكتبة اللورنتية العظيمة في فلورنسا. ومنهم حفيده لورنزو الأول (1449 ـ 1492) الذي لهج چلليني بذكره وأكثر إشتهر بلقب الممتاز أو المفخم بوصفه أشهر امراء إيطاليا وأعظمهم شأناً في عصر الرينسانس Reaissance وكان هو نفسه من الشعراء المجيدين. رعى كلاً من الرسام الشهير بوتشيللي، وجيرالانديو والشاب الموهوب «ميكالنجلو» وغيرهم من الفنانين الكبار وبسط عليهم حمايته.

في العام 1494 طُرد ابنه بييرو (1471 ـ 1503) من فلورنسا على إثر الثورة الشعبية التي تزعمها الراهب الدومينيكي (سافوناررولا) إلا أن الأسرة ما لبثت ان اعيدت إلى الحكم في العام 1521 بشخص لورنزو الثاني (1492 ـ 1519) بقي منذ 1513 تحت وصاية عمّه جيوڤاني الذي أصبح فيما بعد بابا بإسم ليون العاشر.

مما يذكر عن لورنزو هذا ان ماكياڤيللي اهداه كتاب «الأمير». وانه كان ضعيف الإرادة «نكرة» خامل الشأن. لم يكلّف ميكالنجلو نفسه عناء اتقان صورته وإعطاء شبه حقيقي له في التماثيل التي صنعها له وهي قائمة الآن في كنيسة دي مديتشي. مصرحاً بأن لا أحد سيتذكرها أو يتذكر صاحبها بعد قرنٍ من الزمن!

واجتهد خلفه كوزيمو الثاني (القاسي) 1519 ـ 1574 بتوسيع رقعة دولته إلى

الضعف وجعلها من الدول التي يحسب لها الحساب. واعلن دوقاً اكبر على توسكانيا في 1569.

لم ينبه شأن أحد من امراء آل مديتشي الذي عقبوه ولم يسجّل لهم التاريخ مأثرة تذكر. ومات خطّ الأسرة بوفاة جيان كاستوني دي مديتشي (1671 ـ 1737).

تفخر مدينة فلورنسا اليوم بالآثار الفنية التي خلفتها هذه الأسرة.. وتجتذب إليها مئات الألوف من السياح وعشاق الفن.

جرجيس فتح الله

بِنْفِنوُتو جِلليني

ولد في فلورنسا في الثاني عشر من تشرين الثاني للسنة (1500). ونال شهرة عظيمة وذاع صيتهُ نحاتاً وفناناً في شغل المعدن. وكان مختصاً بالبابا وبعدد من الأمراء والملوك. توفي في مدينة فلورنسا في الرابع عشر من شهر شباط للعام 1572.

نصّ رسالة بنفنوتو جلليني الموجهة إلى (بِندتّوفاركي Benedetto Varchi) مع قسمٍ من مخطوطة مذكراته.

«يقول سيادتك. إن قصّة حياتي البسيطة وهي في هيئتها الأولى، تعجبك وانت تفضّلها أن تبقى كما هي ولا ترى ان يتولى آخرون صقلها وتهذيبها لأن الحقائق التي دوّنتها قد يُطمس وضوحها.

لقد حرصت الاّ أذكر أمراً في نفسي منه شك، أو يشوبه نسيان. وثق اني ما دوّنت غير الواقع. ولهذا أغفلتُ حوادث كثيرة عجيبة قد تحتل مركز الصدارة عند غيري. كما أسقطت وقائع عظيمة خطيرة لا تحصى خشية أن أبلغ بالمذكرات مجلّداً ضخماً وللسبب عينه أسقطت بعض صغائر الأحداث. وها أنذا أبعث إليك بخادمي لتسلّمه المحفظة والكتاب ويغلب على ظني أن ضيق وقتك لم يتسع لقراءة الكتاب كله. على أني لا أرغب في أن أثقل عليك بشيء تافه كهذا، بعد أن ظفرتُ منك ببغيتي ورضيتُ بالذي ظفرتُ. فشكراً لك من أعماق قلبي. لذلك أرجو منك ألاّ ترهق نفسك بمطالعة المزيد منه، وأن تُعيده اليّ بجملته وتستبقي القصيدة لأني طامع في أن يُجري مِبردُك العجيب بعض الصقل والتهذيب فيها.

سأقوم بزيارتك في القريب العاجل. وسأبقى دائماً رهن إشارتك على قدر ما تسعفني قواي ومواهبي. وأرجو لك دوام العافية ولاتحرمني لطفك».

فلورنسا في 22 أيار 1559

حاشية: لو تلطف سيادتك فخصّ أخي الصغير بشيء من فضله وجعله في ذاكرته فسأبقى أسير كرمك منتظراً اوامر سيادتك.

بنفنوتو جلليني

القصيدة الفاتحة

من نظم

بنڤنوتو چلليني

هذه هي قصة كفاحي في الحياة،

أنشرها هنا شاكراً ربّ العالمين الذي ما زال يرعى روحاً نفخها في جسمي.

فبإرادته عزّ وَجلّ بقيت حيّاً، أسيئة كانت أعمالي أم حسنة.

عبثاً حاولت الأقدار القاسية النيل منيّ.

فقد جمعت المجد من أطرافه وتمتعت بطيب العيش

وملكت المال والجمال والرفعة والعبقرية الفذة وبها حققتُ تفوقي على الكثيرين وبلغت ما أصبو إليه

إلاّ أن أفكار الانسان الضعيفة تبددها الريح كما تبدد ذرات الرمل.

والآن علمتُ أن كُلّ ما جمعت هو هباء وقبض ريح. وأنا الآن أطلق الزفرات الأليمة متحسراً على الوقت الثمين الذي ضيعتُه في الجري وراء الصغائر والتوافه.

ومع هذا، وبما أن الأسف لا يجدي فسأقنع بما كسبتُ «قدمتُ أهلاً»[1] مثلما نزلتُ سهلاً في مروج أزاهير هذه الأرض الطيّبة، أرض التوسكانيين[2].

(1) هي الترجمة الحرفية لإسم الكاتب الأول: Benvenoto والمجاز لا يخفى هنا.

(2) التوسكان شعب كان يسكن هذا الجزء من إيطاليا قبل الرومان وهي بلاد أتروريا في الزمان الغابر نشأت فيها الدوقية الكبرى على عهد آل مديتشي (1569 ـ 1738).

باشرت في كتابة وقائع حياتي هذه بقلمي كما يتضح من بعض الصحائف المصححة في المخطوطة. على أني وجدت ذلك مضيعة للوقت الكثير وأنّ عملي هذا ما هو إلا إعتداد بالنفس مفرط. فاستقدمتُ ابن (ميكيلي دي گورو Michele di Goro من كُورة (پيڤي أگروبنيّ Pieve a Groppine)، وهو صبيّ رقيق الحال في حدود الرابعة عشرة. ليقوم بتدوين ما أمليه عليه من وقائع حياتي أثناء تفرغي لعملي، ولم تكن متعتي التي أجنيها من هذا بالقليلة. فقد رفعت معنوياتي، وزادت من انتاجي ولهذا السبب القيت بعبء الكتابة إلى الفتى واني لآمل في المضيّ قدماً بها على قدر ما تساعفني الذاكرة.

صورة لصحيفة من المخطوط الأصلي



سيرة حياة بنڤنوتو
ابن الأستاذ جيوڤاني چلليني الفلورنسي
دونّها بنفسه في تلك المدينة

مهما اختلفت أحوال أولئك الذين حققوا من المآثر ما يستوجب التقدير أو بالأحرى ممن هو جدير بالتقدير فعلاً، فالواجب يحتّم عليهم إن كان للصدق والصلاح مكانة عندهم - أن يكتبوا سيرة حياتهم بأنفسهم. ويفضلْ أن لا يباشروا هذا العمل الطيب إلاّ بعد تجاوزهم سن الأربعين.

وقد خطر ببالي وأنا هاهنا في فلورنسا أن أقوم بهذا بعد بلوغي الثانية والخمسين أو أكثر. وكسائر أبناء آدم، كثيراً ما وجب عليّ أن أُكافح الأقدار كفاحاً مريراً. لكني الآن أقل تعرّضاً للشدائد ومعاكسة الحظ من أي وقت مضى من عُمري. كما أعتقد في الواقع بأني أتمتع بصحة وبكثير من راحة البال أفضل مما كنت افتقده قبلاً. إني لأتذكر أحداثاً طيبة، واستحضر في ذهني أموراً مخفية تجلّ عن الوصف حصلت لي، فأرتجف رعباً كلّما استعدت ذكراها وأتساءل كيف بلغتُ الثامنة والخمسين فعلاً وانا ماض في حياتي مُفلحاً آمناً.

ليس ثمّة شك في أن الرجال الذين كدحوا وأظهروا شيئاً من المواهب، قد أثبتوا للدنيا قيمتهم، وبرهنوا على أنهم من الأكفاء، وذوي الشهرة والصيت وربما كان هذا الكسب كافياً لهم. ومع ذلك أراني ملزماً أن أفعل ما يفعله الآخرون، ولذلك اعتزم أن ادوّن قصة حياتي بقدرٍ من الفخر والاعتزاز. وهناك عدة أشكال للفخر والعزّة، إلاّ أن اوّلها هو اهتمام المرء بتعريف الناس بالعائلة العريقة الموهوبة التي أُنحدرُ منها.

اسمي (بنفنوتو چلليني) وانا ابن الأستاذ الموسيقار (جيوڤاني) وجدّي هو (اندريه Andrea) وابوه هو (كريستوفانو چلليني Cristofano Cellini) وأمّي هي مادونا (اليزابيتّا Elisabetta) ابنة (ستيفانو كراناجي S. Granacci). وكلاهما مواطن فلورنسي.

نجد الآن بين المؤرخين الفلورنسيين الغابرين، أناساً موثوقين إلى آخر حَدّ - ومنهم (جيوڤاني ڤيلاّني G. Villani) يذكرون أنّ مدينة فلورنسا بنيت بلا ريب على خُطط وهيئة مدينة روما الجميلة وما زال يشاهد فيها آثار من الحمّامات والكوليسيوم Calesseum[1] وبالقرب من (سانتا كروچي Santa Croce)[2]. كان يقوم الكابيتول حيث السوق العتيق اليوم، و(الروتوندا Rotunda) التي بنيت بمثابة هيكل الإله (مارس) ما زالت قائمة إلى يومنا هذا وهي اليوم كنيسة للقديس يوحنا شفيع المدينة. إن الأبنية التي ذكرتها هي أصغر من مثيلاتها في روما بكثير. إلاّ أن أصل تخطيط مدينتنا واضح جداً ولا سبيل لأحد إلى نكرانه.

يقولون إن (يوليوس قيصر Juluis Caesar)[3] هو المسؤول عن بنائها وإنه إعتزم بمشاركة طائفة من اشراف روما بعد سقوط (فيسولي Fiesole)[4] بناء مدينة يضطلع كل واحدٍ من هؤلاء الأشراف ببناء واحدٍ من الصروح المشهورة والأبنية العامّة فيها. وكان من بين كبار قادة (يوليوس قيصر) ضابط مقدام يدعى (فيورينو) من أهالي (چلليني) وهي مزرعة تقع على بعد ميلين أو نحوهما من جبل (فياسكوني Fiasconi). إتخذ (فيورينو Fiorino) هذا مقره في موضع يلي (فيسولي) وهو الموضع الذي تقوم عليه فلورنسا اليوم - ليكون قريباً من نهر (آرنو) تيسيراً لحاجة الجيش من الماء.

---

(1) الملاعب الرومانية المدرّجة المعروفة. كان يشيدها حكام روما تخليداً لهم في المدن الرومانية لإقامة الألعاب والإحتفالات العامة بما في ذلك المصارعة. والمبارزة والقتال مع الوحوش.

(2) كنيسة للاباء الفرنسسكان سيرد ذكرها وصفتها فيما يلي من المذكرات.

(3) كايوْس يوليوس (110 - 44 ق.م) رجل دولة روماني وقائد ومؤرخ حقق لروما انتصارات عديدة ولا سيما في شمال أوروبا وغزا بريطانيا واحتل الجزء الجنوبي منها. واصبح قنصلاً (60 ق.م): وقضى على منافسه الأكبر بومبي في مصر. إلاّ أنه راح ضحية مؤامرة اعضاء مجلس الشيوخ بزعامة بروتوس. حيث طُعن حتى الموت.

(4) ضاحية لفلورنسا. وهي اقدم منها عهداً. سيأتي ذكرها فيما بعد. إكتشف فيها مرسح يونانيّ الطرز روماني البناء في 1809، يعود بناؤه إلى عصر الدكتاتور (سوللا) 80 ق.م.

وإتخذ كل الجنود وسائر من له أرتباط بهذا القائد عادة القول «ألا فلنقصد (فيورنزي) عندما يريدون التوجه إلى المعسكر لزيارته». كانوا يقولون هذا لأن القائد يدعي (فيورينو)، وكذلك لأن الخصوبة التي تتمتع بها تلك الأرض ساعدت على نموّ الزهر بكثرة وبصورة طبيعية. لذلك بدا الإسم مناسباً جداً للمدينة الجديدة وجميلاً عندما إختاره لها (قيصر) إسم فلورنس (فيورنزي)(1). فهو فأل حسنٌ لأنه مشتق من كلمة (الزهرة)، فضلاً عن أنه كان يريد أن يعبّر عن المنزلة الرفيعة التي يحتلها هذا القائد الباسل عنده. وخصوصاً لأنه هو الذي رفّع (فيورينو) من جندي بسيط إلى مرتبة القائد الكبير وإليه يعود الفضل في عِظم شأنه(2).

أما العلماء الباحثون وذوو المعرفة المنقّبون عن أصول الكلمات الذين يقولون إن اسم (فلورنسا) مشتق من fluente ولا يعني أكثر من أنها تقع قرب (مجرى) الأرنو، فهم يدّعون المحال وما علينا إلاّ أن ننظر إلى روما التي تقع على مجرى نهر التيبر Tiber، أو فيّرارا على مجرى نهر البو أو ليون على مجرى نهر السّون أو باريس على مجرى نهر السين لنجد أن كلّ هذه المدن أخذت أسماءها من مصادر مختلفة أخرى لا علاقة لها بالأنهار التي تجاورها.

هذا بالجملة ما وجدته من أسباب ودلائل. ولذلك أعتقد أن أسرتي إنحدرت من صلب هذا الرجل الكبير الشأن نفسه، زد على هذا، هناك من آل چلليني فرع في

---

(1) فيورنزي Fiorenzi هو اسم المدينة باللغة الإيطالية.

(2) قد لا يجد القارئ ضرورة تدفعنا إلى القول بأن مزاعم (چلليني) حول أصل نشوء مدينة فلورنسا هي مختصراً مجرد أقوال يتناقلها الناس ولا سند تاريخي لها. وإن قصته التي أوردها عن أصل المدينة ما هي إلاّ مثال من أمثلة المبالغة في المباهاة التي قال عنها هو نفسه بأنها ظاهرة طبيعية عند من يكتبون سير حياتهم. أمّا عن (الكوليسيوم) فأغلب الظن أنه كان قائماً على مقربة من ميدان (بيروزي) الحالي. ولا تختلف المراجع التاريخية القديمة عن مآل هيكل (الروتوندا) الذي قُلِبَ إلى بيعة عماد القديس يوحَنا. فقد كان بالأصل مخصصاً للإله (مارس) إله الحرب. بناه الرومان تخليداً لانتصارهم على (فيسوبي) الاتروسكانية. والمتفق عليه الآن أن القسم الرئيس في البناء الحالي يعود بناؤه إلى القرن الرابع الميلادي. وقد صمم على غرار البانثون. أما الأجزاء الأخرى فتعود إلى القرنين 11 و12 هذا الاحتمال لا يبتعد عن الأسطورة الخاصة بمنشأ المدينة. راجع كتاب ڤيلاني: I piani due scoli della soria di Firenze ط: فلورنسا (1895). وكتاب دافيدسن (تاريخ فلورنسا ط. برلين 1896 وكتاب كاردنر (قصة فلورنسا ط 1900). (لها تراجم إنكليزية).

(رافنا Ravenna) المدينة التي تفخر ببعض الأسر الارستقراطية العريقة جداً وهي من أعتق مدن إيطاليا. وهناك من آل (چلليني) في (بيزا). وأنا نفسي عثرتُ على أفراد من آل چلليني في كلّ بقاع المسيحيّة. وفي توسكاني بعض المحاربين الممتازين يحملون اسم چلليني. فمنذ زمن غير بعيد وقع هناك نزاع بين شاب لم يخطّ شاربه يدعى(لوكا چلليني) واضطر هذا الشاب إلى قتال عسكريّ جسور مجرّب ولاعب سيفٍ ماهر يدعى (فرانشسكو فيكوراتي F. Vicorati) كانت المبارزة الفردية قد جرت عنده مجرى العادة. ومع هذا فقد تصدى له (لوكا) والسيف في يده وتغلب عليه وجندله قتيلاً مظهراً شجاعةً ومهارة أثارتا إعجاب الناس جميعاً لأنهم كانوا يتوقعون عكس المآل. لذلك فخرتُ بتعقيب سلالتي وأصلي إذ كنت خريج رجال عرفوا بالبأس وشدّة المراس.

أمّا ما ظفرت أنا به للأسرة من مجد طارف في مجال الحياة التي نحياها اليوم وما نلته بفضل منّي وهو ليس بالكثير، فسأتحدث عنه في موضعه المناسب. ومما يزيدني فخراً أني ولدت لأسرة متواضعة فبنيت مجد البيت الذي أنتمي إليه ولم أنحدر من بيت عريق شريف النسب فلطخت سمعته وألبسته عاراً بإرتكاب الآثام والمعصيات. إذن سأبدأ بالحديث عن الظروف التي ولدت فيها بحول الله ورضاه.

كان أسلافي قد اتخذوا (فال دامبرا Val d'ambra) موطناً، هاجروا إليه بسبب الصراع السياسيّ الذي إستعر آنذاك. وكانوا في رغد من العيش يملكون الكثير ويعيشون عيشة صغار النبلاء. وكلهم كانوا يعشقون الجندية وكلهم من الشجعان المغاوير. في حدود تلك الفترة أجج كريستوفانو Cristofano الشاب الأصغر في الأسرة نار فتنة مع بعض جيرانهم وأصدقائهم. فشارك فيها ربّا الأسرتين وتصاعدت ألسنة النار التي أشعلها رهيبةً عنيفةً حتى بدا وكأنها ستأتي على الأسرتين معاً. ولما واجه الطرفان هذا الخطب الجلل تدخل كبار السن من الأسرتين واتفقوا على حَلّ، إذ قام أسلافي بإبعاد ابنهم ونفت الأسرة الأخرى الشاب الذي كان البادئ بالنزاع إلى مدينة (سيينا Siena) وأرسل الفتى (كريستوفانو) إلى مدينة (فلورنسا) حيث ابتاعت[1]

(1) في ركن المنزل المرقم (6) في زقاق كيارا يرى الزائر هذه العبارة I questa casa nacque Beuvento

له أسرتي منزلاً صغيراً في زقاق (كيارا Chiara) بالقرب من (سانتا اورسولا Orsola) وعقاراً ممتازاً في (بونتي آريفِردي Ponte a Rifredi)، وإقترن بفتاة فلورنسيّة أنجبت له بنيناً وبنات، ضمن لهنّ عيشاً مرفهاً وأمّنهن شرّ الفاقة بعد موته في حين قسّم الأبناء ما تبقى من التركة. فآل المنزل الواقع في زقاق (كيارا) مع قليل من المال إلى أحدهم وهو المدعو (اندريه). وإتخذ اندريه له زوجةً وأنجب ذكوراً أربعة بكرهم (جيرولامو) يليه (بارتولوميو)[1] ثم والدي (جيوڤاني) ثم (فرانشسكو) وهو الرابع.

(اندريه)[2] هذا كان مرجعاً في فن الهندسة المعمارية المعاصرة وإتخذ منها حرفةً ومورد رزق، وأولاهما (جيوڤاني) اهتماماً يفوق ما أولاهما اخوته. واتبع قول (ڤيتروفيوس)[3] الذي نصح من يريد أن يضرب بسهم وافر في هذا الفنّ. أن يُلمّ بالموسيقى ويتقن الرسم. فواظب (جيوڤاني) على تلقي فنّ التصوير وغدا رساماً ضليعاً. ثم راح يتدارس فنّ الموسيقى فأتقن مع نظرياته العزف على الكمانجة عزفاً رائعاً واللعب بالزرناي لعباً في غاية الإبداع. وكان رجلاً مجدّاً فقد لازم المنزل لا يبرحه إلاّ لماما.

وكان له جار يدعى (استفانو گراناچي Stefano Granacci) له عدة بنات جميلات للغاية، وشاءت إرادة الله أن يقع نظر (جيوڤاني) على واحدة منهن وهي الصبيّة المدعوة (اليزابتّا) فوقعت من نفسه موقعاً فخطبها. ولما كان الأبوان على معرفة تامة أحدهما بأحوال الآخر بحكم الجوار، فقد سهّل تحقيق الزواج إذ وجد أنه في صالح الطرفين. وبعد أن تمّ أتفاق الأبوين العجوزين على المصاهرة، أخذا يتداولان في

Cellini il di Primar Novembre del 1500 evie fasso iprimi anni وترجمتها: في هذا المنزل ولد بنڤنوتو چلليني في الأول من تشرين الثاني 1500 للميلاد. (وهذا خطأ في التأريخ لأن چلليني ولد في 2 تشرين الثاني).

(1) هو بارتولوميو باجيو چلليني. كان نقّاشاً بارعاً على الخشب. ومن الغريب أن لا يذكره ابن أخيه أو ينوه بشهرته في حين ذكره ڤاساري أكثر من مرّة.

(2) الظاهر أن (اندريه) كان بناءً لا مهندساً معمارياً. أنظر طبعة باكي، ص 8، للمذكرات.

(3) ماركوس ڤيتروڤيوس بولّيو: مهندس معماري روماني نبغ في القرن الأول قبل الميلاد، وربما كانت ولادته في فورميس (كامپاني) وتعزى إليه رسالة في الهندسة. تتضمن أحوال هذا الفن في ذلك العصر.

مقدار مهر البنت. فأسفر ذلك عن خلاف ودّي ومناقشة حبيّة فبدأ (اندريه) يقول لإستيفانو:

ـ ليس من يداني ابني هذا نظير لا في فلورنسا وحدها بل في إيطاليا كلها. ولو اني أردت تزويجه قبل هذا لظفرتُ بأكبر مهر تمهر به عروس في فلورنسا من مستوى طبقتنا.

فأجابه ستيفانو بقوله:

ـ إنك لعلى حقّ ألف مرة. ولكن ماذا ترى بيدي؟ وها أنذا كالحصان مُسرج إلى خمس صبايا. وإلى مثل عددهنّ من الصبيان. لقد حسبتُ حسابي وهذا غاية ما أتمكن من دفعه.

وهنا نهض (جيوڤاني) الذي كان يصغي إلى حديثهما دون أن يلحظا وجوده وقال:

ـ أبت! إني مغرمٌ باليزابتّا وهي التي اروم الزواج بها لا بالمال. ومن إطّلب الغنى من مهر زوجة ساء حظّه من الدنيا، وما دمت أنت تفاخر بذكائي وقابلياتي فلا أخالك تراني عاجزاً عن إعالة زوجة، وتأمين حاجاتها حتى ولو مهرت بمبلغ أقل مما تريده؟ دعني أوكد لك بأن الصبية هي لي وأما المهر فإني لأرغب في أن أتركه لك.

كان يغلب على طبع (اندريه) بعض الحِدّة وسرعة الغضب. فأظهر استياء مما سمع. إلاّ أن (جيوڤاني) جاء بعروسه إلى المنزل بعد بضعة أيام. ولم يسأل قطّ عن أي مهر أكثر مما تسلّم. ومرّ عليهما ثمانية عشر عاماً وهما يستمتعان بحبهما المبارك وشبابهما الغضّ إلاّ أن سعادتهما كانت تشوبها نغصة وحسرة إلى الذريّة. فقد أسقطت (اليزابتّا) جنينين إثنين بسبب جهل الأطباء. ثم حملت ووضعت طفلة سمّياها (كوزا Cosa)[1] على أسم جَدّتي لأبي. وبعد سنتين حبلت مرة أخرى. ولما كان الوحم الذي أحست به هذه المرّة (وهو ما يلازم الحبالى عادةً) يشابه بالتمام الوحم الذي إنتابها في فترة الحمل السابق. فقد استقرّ رأي الجميع أن الجنين هو الآخر أنثى واتفقوا على

(1) هو مختصر لاسم نيقولوزا Nicolosa.

أن تدعى (ريَبارانا Reparata) وهو اسم جدّتي لأميّ. وجاء أميّ المخاضُ في الليلة التالية لعيد جميع القديسين في الساعة الرابعة والدقيقة الثلاثين بالضبط[1] من العام (1500). وما إن أتمتّ القابلة غسل الوليد ووضعته في أقمطةٍ من الكتان الأبيض (وكانت على علم بأن الأهل يتوقعون أنثى) حتى إنسلّت بخفّة وأقبلت على الوالد وأسرّت في أذنه:

- جئتك بهدية ثمينة ما كنت تتوقعها.

كان أبي فيلسوفاً حقيقياً، فردّ على القابلة وهو يروح ويغدو في الغرفة:

- كل ما يرسله الله لي ثمين.

وبعد أن أزاح القماط والأغطية وتأكد من أن المولود ذكر خلافاً لما كان متوقعاً ضم يديه العجوزتين معاً ورفع نظره إلى السماء معها وقال:

- «يا ربِّ إني أحمدك من أعماق قلبي على عطيتك هذه. فهي غالية لا تقوّم. ألا ألفَ «مرحباً به».

وسأله الحاضرون والفرح يغمرهم أن يختار له أسماً فكان لا يجيب إلاّ مردداً كلمة.

- مرحباً به Benvenoto!

فقرّ الرأي على اختيار هذا الأسم للوليد. وكان اسمي الذي كنيت به في العماد وهو الذي أعرف به اليوم بنعمة الله.

كان جَدي (اندريه) حَياً عندما بلغت الثالثة أو كدت. وقد أناف هو على المائة. وفي ذات يوم كنا نستبدل برُبخ صهريج القاذورات في دارنا فخرج منه عقربٌ ضخم وراح يسعى على الأرض دون أن يلحظه أحدٌ ثم انزوى تحت التخت. فلمحته وأسرعت إليه وأمسكت به. وكان كبيراً حتى إني عندما أطبقت عليه بقبضي الصغيرة

---

(1) كانت الساعات يومذاك تحسب من الغروب إلى الغروب ولذلك يتعذر تماماً تعيين الساعة بحسابنا الحالي إلاّ إذا كان الفصل معروفاً لدينا.

أبقيت ذيله خارجاً من جانب وفكيه بارزين من الجانب الآخر، وقد روي لي فيما بعد أني أخذت أعدو مسرعاً إلى جَدّي والدنيا تكاد لا تسعني فرحاً وصحت:

- أنظر ياجدّاه. أنظر إلى سرطاني الصغير!

ما أن تبين فيه عقرباً حتى إنتابه رعبٌ قتّال كاد يفقده صوابه قلقاً عليّ. فأخذ يحاورني ويداورني بمعسول القول متوسلاً بأن أسلّمه الدويبة. لكني زدت من قبضتي شداً على العقرب وأنا أبكي واردد القول بأني لن أعطيه لأحدٍ. وكان أبي في المنزل فأسرع على صوت بكائي فما رآني ممسكاً بالعقرب حتى طاش عقله وشل الرعب تفكيره وحار في إيجاد وسيلة تمنع الحشرة السامة من لدغة يكون فيها القضاء عليّ، ووقعت عيناه فجأة على مقصّ واستطاع بالهائي وببعض المراوغة فغافلني وقطع الذيل والفكين، واعتبرت الحادثة فألاً حسناً بعد زوال الخطر عني.

ومرة أخرى وأنا في الخامسة من عمري، كان أبي معنا في غرفتنا بالطابق الأرضي حيث كانوا يقومون بالغسيل والتنظيف والنار العظيمة من خشب البلوط متقدة، ثبّت (جيوڤاني) كمانجته إلى صدره وأنشأ يعزف ويغني لنفسه بالقرب من النار، ثم حانتْ منه إلتفاتة فلمح في وسط اللهب حيواناً صغيراً يشبه سام أبرص يتقلّب ظهراً لبطن وسط الحرارة الشديدة فناداني أنا وشقيقي وهو يتطلع إلى النار مشير الينا بالنظر وما أن وجّهتُ نظري إلى حيث أشار حتى أهوى على خدي بلطمةٍ شديدة ابكتني بكاءً مرّاً. لكنه شرع رأساً يهدئ من روعي بكلمات رقيقة إذ قال:

- صغيري العزيز. إني ما ضربتك لذنبٍ اتيته. بل لأني أردتك أن تتذكر باللطمة أن الحيوان الذي شاهدتَه يتقلب في النار دون أن تؤثر فيه هو (سام ابرص) وهي ظاهرة لم يرها أحدٌ من قبل بدون شك.

ثم إنه قبلني ومنحني قليلاً من المال.

بدأ الوالد يعلمني النفخ بالزرناي ويدربني على غناء بعض المقطوعات والتلاحين. ومع أني كنت في سنّ الطفولة وهي فترة من العمر يولع فيها الصغار أمثالي بالصفارات وأمثالها من اللعب. فقد شعرت بكره خاص لا يحدّ لهذه الآلة الموسيقية. ولم أكن أغنيّ أو العب على الزرناي إلاّ إمتثالاً لأمر الوالد ونزولاً عند

رغبته. في تلك الأيام صنع الوالد أراغين (ج: أرغن) عجيبة التركيب بأنابيب خشبية، وبيانات قيثارية (ج: بيانو) Harpsichords بأجمل ما يمكن أن يجده المرء من صناعة في تلك الأيام فضلاً عن عيدان (ج:عود) وقيثارات وكمانجات بأشرف صنعة وأدقها وأظهر في فنون الهندسة مهارة لا تضارع واخترع آلات غريبة لإنزال الجسُور والمعابر وغيرها من المكائن مثلاً: لتشغيل الطواحين. وكان أيضاً أول من إشتغل بنحت العاج.

إلاّ أنه عشق الموسيقى، فأصبحت له زوجة ثانية، ولعلّ زرناه الصغير ذاك الكثير اللعب به، كان السبب الذي دفع عازفي الناي المختصين بالبلاط إلى أن يطلبوا منه الإنضمام إليهم فلبى طلبهم وصار يعزف معهم على آلته حيناً من الزمن إشباعاً لهوايته. ثم أخذوا يلحّون عليه كي يصير عضواً في جوقهم ففعل. لكن (لورنزودي مدتشي)[1] وابنه (بييرو)[2] اللذين كانا شديدي التعلق به، عزلاه عن هذه الوظيفة حين وجداه منصرفاً بكليته إلى العزف مهملاً فنّه الرائع ومهنته الخلاّقة. فآلمه ذلك وأمضه وعَدّ عملهما إساءةً كبيرةً بحقّه. إلاّ إنه عاد دون توقف إلى عمله الأصليّ. فصنع مرآة من العظم والعاج يبلغ قطرها نحواً من قدم ونصف قدم مزدانة بتهاويل وزخارف نباتية دقيقة التخريم وبإبداع تصميم. كانت علَى شكل دولاب دائري يحيط بالمرآة يتألف من حلقات سبع صنعت من العاج الأبيض والعظم الأسود وحُفرت حفراً دقيقاً بتهاويل. كلّ حلقة تمثل واحدة من (الفضائل السبع) وقد ركبت المرآة وحلقات (الفضائل) بشكل ما أن يدور الدولاب حتى تدور الفضائل معها. ولما كانت هذه الأشكال السابقة مربوطةً بأثقال فإنها لا تتحرك ولا تنقلب إلى أسفل مهما دار الدولاب. وكان الوالد يلّم باللاتينية فحفر حول المرآة هذا البيت الشعري: Rota sum:

---

(1) وهو الملقب بالقانوني أو العظيم (1449 ـ 1492). دعاه الفلورنسيون إلى تولي الحكم بعد والده. وقد كان مثقفاً، شاعراً، ساحر الشخصية. إحترم نظام فلورنسا الجمهوري إلاّ ان مؤامرة حيكت ضده بزعامة فرانشسكو سالفياتي (شُنق هذا بعد أن أحبطت المؤامرة) أدى إلى قيام البابا بحرم لورنزو في (1479). وهو والد البابا ليون العاشر.

(2) (1472 ـ 1504) تولى الحكم بعد وفاة أبيه. أبدى عجزاً في الحرب التي شنها شارل الثامن ملك فرنسا (1494) فثار ثائر الفلورنسيين عليه وهاجموا قصره ونهبوه ونفوه وأعادوا النظام الجمهوري. توفي غرقاً وتلته فترة أعيد بها النظام الجمهوري لفلورنسا حتى 1521.

semper, quaquo verto stat sirtus ومعناه: «كيفما دارت عجلة الحظ فالفضائل ستبقى ثابتة منتصبة». وبعد زمن يسير اعيدت إلى الوالد وظيفة العازف وضم مجدداً إلى جوق نافخي الناي.

بعض هذه الأحداث وقع قبل مجيئي إلى هذه الدنيا إلاّ أني أذكرها جيداً عن طريق السماع فلم أشأ إغفالها. في تلك الأيام كان أعضاء هذا الجوق من ذوي الوجاهة والمهن الرفيعة. بل بعضهم كان أعضاء في الإتحادات النقابية الكبرى لتجار الصوف والحرير[1] ولهذا السبب لم يكن احترافه الموسيقى عيباً فيه أو منقصة له وهذا الذي جعله يرى في إتقاني النفخ بالزرنا اعزّ أمنية عنده في الحياة. ومما كان يورثني أشد الغمّ والضيق هو ترديده القول بأني ساكون أعظم موسيقار في العالم لو بذلتُ جهداً صادقاً في هذا المضمار، إذ كان يتوهم فيّ الكفاءة العظمى.

كما قُلت، كان الوالد من أعظم الناس إخلاصاً لآل مديتشي وأحفظهم للعهد. بدليل أن (بييرو) استودعهُ اموالاً ومقتنيات ثمينة جداً عندما نفي من فلورنسا لا تعُدّ ولا تحصى بكثرتها. وعندما انتخب بعد ذلك (بييرو سودريني Piero Soderini)[2] العظيم، بقي الوالد في وظيفته كموسيقي. وكان (سودريني) على علم بكفاءة الوالد ومواهبه الجمّة، فراح يستخدمه في أعمال هامة عديدة ذات طابع هندسيّ، وظلّ هذا الحاكم الجليل يغمر أبي بالعطف والرعاية بكلّ ما وسعه ذلك طوال مدة حكمه.

في ذلك الزمن وأنا صبيّ صغير أمر الوالد بحملي إلى القصر وجعلني أنفخ في الزرناي على طبقة (الصّياح) بمرافقة موسيقيي القصر. وكان يحملني طوال العزف واحدٌ من موظفي القصر. وبعد نهاية العزف طاب لـ(كونفالونير Gonfalonier)، أي (سودريني) أن يتحدث إليّ وقد سُرّ بثرثرتي ودفع اليّ ببعض الحلوى وقال للوالد:

---

(1) أنشئت الإتحادات النقابية السبعة الكبرى، والإتحادات الأربعة عشر الأصغر منها في أوائل القرن الثالث عشر. ويضمّ الصنف الأول مزاولي مهن الطب والقانون وغيرها فضلاً عن الصناعات الهامة الأخرى. بقيت هذه الإتحادات تقوم بدور رئيس في السياسة والحياة الإجتماعية في فلورنسا.

(2) كان سودريني الكونفالونير الوحيد الذي انتخب رئيساً مدى العمر في العام (1502) إلاّ أنه عزل في العام 1512 بمسعى من البابا يوليوس الثاني زعيم (الحلف المقدس) المقام ضد ملك فرنسا (لويس الثاني عشر) الذي أخلصت جمهورية فلورنسا في تحالفها معه.

- إلى جانب الموسيقى، عليك يا (جيوڤاني) أن تعلمه طرفاً من فنونك الرائعة التي تحذقها.

فأجاب الوالد:

- لست أريده أن يتعلم شيئاً آخر غير الموسيقى عزفاً وتأليفاً، فلو مَدّ الله في عمره فإني آمل أن أجعله أعظم موسيقار في العالم.

فتدخل واحد من المستشارين الكبيري السن قائلاً:

- لا يا أستاذ (جيوڤاني) أطع الكونفالونير وأعمل بما يقترح. ما ضرّ الغلام أن يكون ضليعاً في صناعة أخرى إلى جانب مهارته في العزف؟

ومَرّ الزمن، وعاد آل مديتشي إلى الحكم. وما أن استقرّ بهم المقام حتى بدأ الكردينال الذي انتخب بابا فيما بعد بإسم (ليون)[1] يخصّ الوالد بالرعاية ويشمله بالعطف الخاص. والآن، ولما كان آل مديتشي مبعدين رُمجت من شعار القصر[2] وهو شعارهم الخاص الكراتُ المنقوشة عليه ورُسم في محلّها صليب أحمر كبير وهو شعار وعلم الجمهورية (الكوميون Commune)[3] فلما عاد آل مديتشي، مُسح الصليب الأحمر فوراً وأعيد نقش الدرع بكراته الحمراء فوق أرضيّة مذهبة، بتنظيم في غاية الجمال.

فما كان من الوالد وهو شاعر بالسليقة على نحوٍ ما، كما كان يملك مقدرةً على التنبؤ بالغيب وهي هبة سماوية بلا شك - أن نظم الأبيات التالية وأثبتها تحت الشِعار عند إزاحة الستار عنه:

---

(1) جيوڤاني دي مديتشي: تبوأ العرش البابوي بإسم ليون العاشر. ولد في فلورنسا 1475 وتسنم العرش البابوي في 1513 وتوفي في 1521. كان من هواة الفن والأدب والعلم وقد قرب أصحابها وشجعهم. عاد إلى فلورنسا مع أخيه (كوبانو) الذي أصبح دوقاً في العام 1512 لكنه نزل عن الحكم في عين السنة.

(2) هو الآن قصر ريكاردي (نسبة إلى اسم الأسرة التي إبتاعته في 1659). أمر ببنائه كوزيمو الأكبر دوق فلورنسا وكلّف ميكيلوزو ميكولوزي به فأتمه في ست عشرة سنة (1444 - 1460). وهو آية من هندسة الرينسانس المعمارية. أصبح ملكاً للدولة في 1814 وهو الآن مقر حكومي.

(3) وهو عبارة عن صليب أحمر على أرضية بيضاء.

شكة السلاح هذه قد دفنت

منذ زمن طويل تحت الصليب المقدس الرقيق

وهي الآن تنتظر بفرح ومجدٍ

ظهور عباءة بطرس الرسول[1]

قرأ الأبيات كلّ الفلورنسيين. وما مضت ايّام حتى اعلن نبأ وفاة البابا يوليوس الثاني[2] فرحل الكردينال دي مديتشي إلى روما. وجاء انتخابه للكرسي الرسولي مفاجأة لم يتوقعها أحدٌ وتسمّى بإسم البابا ليون العاشر، تلك الشخصية العظيمة الكريمة وأرسل إليه الوالد رباعيته التي نظمها متنبأ فيها بما حصل فعلاً.

فكتب البابا رداً له يقول فيه بأنه يحبّذ ان يأتي إلى روما ليصيب حظاً وينال حظوة. ولم يكن الوالد يرغب في ترك فلورنسا، في الواقع إنه بدلاً من مكافأته على إخلاصه، أقدم (جاكوبو سالفياتي Jacobo Salviati) على إقالته من وظيفته في جوق البلاط الموسيقى يوم نُصّب كونفالونيراً[3] ذلك هو الذي دفعني إلى تعلّم فن الصياغة. وقسمت وقتي بين هذا وبين التمرّن على الموسيقى والنفخ في الناي ضد رغبتي تماماً.

لما زاد إلحاح الوالد على وجوب تفرّغي للموسيقى واحترافي لها، رجوتُه أن يسمح لي بساعات قليلة من اليوم أقضيها في عمل التصاميم. ووعدته متوخياً رضاه أن أخصص البقية كلها لدراسة الموسيقى. فإذا به يقول:

ـ إذن فأنت لا تلتذّ بالعزف.

فأجبته بالنفي، وقلت إني أرى الموسيقى فناً تافهاً بالقياس إلى ما صحّ عزمي على إتخاذه حرفةً.

(1) بما أن البابا خليفة الرسول بطرس أحد تلاميذ المسيح الأثني عشر. فالنبوءة المقصودة هي أن الكردينال جيوفاني سينتخب عما قريب بابا أي يرتدي بُردة بطرس.

(2) كويانو دللأريفري (1443 ـ 1513) تسلّم عرش البابوية في 1503. وللرسام الشهير رافائيل صورة له.

(3) هو زوج ابنة لورنزو دي مديتشي الكبير، رُقّي إلى منصب الكونفالونير في العام 1514 ولم يبق شاغلاً هذا المركز غير شهرين.

فلم يجد الوالد الكريم بدأ وقد تملكه اليأس - من إرسالي إلى دكان والد ميكالانيولو(الفارس باندِنللو Cavalire Bandinello) الذي كان يعرف بإسم (ميكالانيولو Michelagnolo). وهو من (بنزي دي مونتي Pinzi de Monte) صائغ قدير واقف تمام الوقوف على أسرار الصنعة. إلاّ أنه انحدر من أسرة وضيعة خاملة جداً وأبوه كان فحّاماً. وهذا ليس بالذي يحطّ من قيمة (باندنللو) الذي بنى حظوظ أسرته. لكن مما يؤسف له أنه لم يبنها على دعائم الشرف والنزاهة. ولاحاجة بي هنا إلى الكلام عنه بأي شيء.

بعد أن إختلفت إلى دكان (ميكالانيولو) بضعة أيام، أمسكني الوالد عنده لأنه لم يكن يصبر على فراقي أو يحلو له العيش دون أن يراني بإستمرار. فعدت إلى ممارسة النفخ بالزرناي مرغماً كارهاً حتى بلغتُ الخامسة عشرة. ولو أني عمدت إلى تدوين كلّ ما مرّ بي من أحداث حتى بلوغي هذه السنّ وجئت إلى وصف الأخطار المميتة التي تعرضت لها، لأدرك القارئ العجب. ولكن لما كان عَليّ التزام الإختصار وتحاشي الكتابة الكثيرة وبما أن عندي الكثير مما اقول فسأهمل التطرق إليها.

عند بلوغي الخامسة عشرة تحديت رغبة الوالد وتتلمذت للصائغ (أنطونيو دي ساندرو Antonio di Sandro) المعروف عند الناس بإسم (ماركوني) وكان حاذقاً ماهراً في الصنعة مستقيماً نزيهاً راجح العقل كريم المعاملة وأبى الوالد أن أتقاضى منه اجراً أسوة بالتلاميذ الآخرين كي ابقى حرّاً استمر أو أنقطع كما أشاء ذلك لأني إنما إخترت هذه الصنعة إشباعاً لهواية ورغبة في النفس فحسب وليكون بإمكاني معالجة تخطيط التصاميم بحرية وبقدر ما أشاء من الوقت. وكان سروري بهذا التدبير عظيماً.

ورضي أستاذي الممتاز الذي كنت أخدمه بما أحققه من عمل إلى درجة كبيرة. حتى إنه كان يكلف إبنه الوحيد غير الشرعي بمهام لا تتعلق بالعمل يقضيها بمكاني ليبقيني قريباً منه. إن رغبتي في تعلم هذا الفن، أو بالأحرى موهبتي الطبيعيّة فيه أو كلاهما في الواقع تعاونا إلى الحد الذي وجدت نفسي بعد أشهر قلائل أنافس لا الصائغين الجيدين وحدهم بل خير من وجد منهم من الشبّان. وبدأت أجني ثمار كدّي وإجتهادي. وحرصت على إبهاج الوالد الحبيب الشيخ بالنفخ على الناي أو

الزرناي بين الفينة والفينة. وكنت أستدر الدموع والآهات منه كلما عزفت له وهو جالس يصغي بكلّ جوارحه. ولذلك كنت بدافع من الحبّ البنوي كثيراً ما أدخل المسرّة إلى قلبه بهذه الوسيلة، حتى بتظاهري بأني التذّ بها أنا الآخر.

كان لديّ آنذاك شقيق يصغرني بعامين. فتىً عُرف بالإقدام وعلو الهمّة إنخرط فيما بعد في مدرسة جيوڤاني دي مديتشي المعجزة والد الدوق كوزيمو[1]. وأصبح واحداً من أقدر ضباطه. كان شقيقي آنذاك في الرابعة عشرة وأنا في السادسة عشرة. وفي يوم أحد وقع شجار بينه وبين شاب في العشرين أو نحوها قبل حلول الظلام بساعتين في موضع يقع بين باب (سان كاللو San Gallo) وباب (بنتي Pinti). فتقارع سيفاهما وحمل أخي على غريمه ببسالةٍ وجرأة فأصابه بجرح بليغ وكاد يجهز عليه. وكان بين المتفرجين عدد غير قليل من أقرباء الجريح وأصحابه فلما وجدوا الدائرة تدور على صاحبهم فزِعوا إلى سلاحهم واستعانوا بالحجارة يقذفونها على أخي فأصيب بواحدةٍ صرعته. وظل مطروحاً فاقد الوعي كأنه ميّت. وإتفق أني كنت ساعتئذ واقفاً بين المتجمهرين أعزل وحيداً لا صديق بقربي يشدّ أزري. وكنت أحث أخي قبل إصابته على الفرار بعد أن نال بغيته من الخصم. فلما رأيته بمحض الصدفة يسقط مجندلاً التقطت سيفه ووضعت جسمي بينه وبين السيوف المسددة إليه وحلت بينه وبين السيل المقذوف من الحجارة ولم أبرح حتى أقبلت ثلة من المقاتلين الأشداء من جهة باب (سان كاللو) وأنقذتني من هياج الغوغاء. وكان إعجاب هؤلاء بالشجاعة التي أظهرها حدث صغير لا حدّ له. فحملت أخي المغشي عليه إلى المنزل وكل اعتقادي أنه ميت. وبعد أن إحتوانا المنزل بذلنا جهداً كبيراً حتى أفاق.

بعد أن عوفي حكم علينا مجلس الثمانية[2] بالنفي لمدة ستّة اشهر محرّماً علينا

---

(1) هو جيوڤاني دللأباندي أشهر من أن يُعرّف. انحدر من الفرع الأدنى لاسرة دي مديتشي وكان شقيق (كوزيمو) الملّقب (بأبي الوطن Pater Patria) وأمه كاترينا سفورزا. من شهيرات نساء زمانها. وابنه (كوزيمو) الذي صار أول دوق أكبر لفلورنسا. مات قتيلاً في 1526 في كوفرنو ولم يتعد الثامنة والعشرين في معركة مع جيوش الإمبراطور ـ بعد عمرٍ حافلٍ. وقد كتب چلليني مرثية في ذكراه (أنظر بلليني ريمي، ص 215).

(2) الثمانية (qli Otto) هو مجلس قضاة مسؤول عن الأمن وتطبيق القانون داخل مدينة فلورنسا.

الإقتراب من المدينة بمسافة عشرة أميال. وقد سبق له أن حكم على خصومنا بالنفي عدة سنين. قلت لأخي:

ـ إذن فلنرحل معاً.

وفارقنا والدنا المسكين بعد أن زوّدنا ببركته عوضاً عن المال إذ لم يكن يملك منه شيئاً. وكانت وجهتي (سيينا) لأبحث عن رجل في غاية اللطف أعرفه وأسمه (الأستاذ فرانشسكو كاستورو Maestro Francesco Castoro) كنت معه مرّة عندما هربت من والدي. فبقيت بصحبته عدة أيام نشتغل في الصياغة حتى بعث الوالد بطلبي. وعرفني (فرانشسكو) حالما حططت رحلي وأعطاني عملاً، فضلاً عن إيوائي طوال إقامتي في (سيينا). فانتقلنا إليه أنا وأخي. وتفرغت لعملي عدة أشهر. كان أخي يعرف قليلاً من اللاتينية إلاّ أنه كان أصغر مِنّا من أن ينمي قابلية تذوق الدرس والتحصيل فكان ينفق أيامه متلهّياً متسكعاً.

الأمر الثاني الذي وقع هو أن الوالد توسط في قضيتنا عند الكردينال دي مديتشي (البابا كليمنت فيما بعد)[1] فعدنا إلى فلورنسا. إلاّ أنّ أحد تلاميذ أبي بدافع من سوء خلق فيه زيّن للكردينال بأن يبعث بي إلى (بولونيا) للتتلمذ على أستاذ من جهابذة فن الموسيقى يدعى (أنطونيو) لأتقن العزف على خير وجه. والحق يقال كان هذا الرجل موسيقاراً عظيماً. وأبلغ الكردينال والدي بأنه في حالة إرسالي إلى (بولونيا) فسيزوّدني برسائل توصية مفيدة. فكاد الفرح يقضي على والدي وزال كل تردده في إرسالي. وكنت أنا نفسي راغباً أيضاً بدافع الشوق إلى رؤية المزيد من الأماكن في الدنيا.

وفي (بولونيا) وجدت عملاً عند رجل يدعى الأستاذ (أركولي دل بيفّيرو Arcole del Peffero). فربحت شيئاً من المال. كما كنت أواظب يومياً على دروس الموسيقى فحققت تقدماً جيداً في هذا الفن اللعين. إلاّ أني جنيت فائدة أكثر بكثير بإحترافي الصياغة. فمهرتُ فيها ووقفت على أسرارها.

---

(1) كليمنت السابع (1478 ـ 1534) صار فيما بعد من أعظم نُصراء چلليني. وهو كوبليو الإبن غير الشرعي لكوبليانو شقيق لورنزو الثاني الكبير. انتخب بابا في 1523. رفض هذا البابا رجاء الملك هنري الثامن الإنكليزي السماح له بطلاق زوجته. فكان ذلك سبب إنفصال كنيسة انكلترا عن المذهب الكاثوليكي.

ولمّا لم يزوّدني الكردينال بأية مساعدة مالية فقد سكنت مع مُنَمنِم[1] بولوني يدعى (سكيبيوني كافاليتي Scipione Cavalletti). ويقع منزله في شارع (سيدتنا العذراء شفيعة باراكان Baracan). وهناك بدأت أعمل تصاميم فنيّة. وأشتغل لحساب يهودي يدعى (كرازيا دِيوُ Grazia Dio) بكسبٍ مال وفير.

بعد نهاية الأشهر الستة عدت إلى فلورنسا. ولم يرتح لعودتي تلميذ الوالد المدعو (بييرينو) عازف الناي. وحباً في إرضاء أبي صرت أختلف إلى داره لممارسة النفخ بالناي أو الزرناي مع أخيه (جيرولامو Girolamo) الأصغر منه ببضع سنين. وكان يختلف تمام الإختلاف عن (بييرو) فهو شاب مستقيم محبوب.

وفي يومٍ ما قصد الوالد منزل (بييرو) ليسمعنا ونحن نؤدي دوراً. وبلغ من فرط إعجابه بأدائي أن هتف قائلاً:

- لأجعلنّ منك عازفاً يشار إليه بالبنان وسأتحدّى كل من يحول بيني وبين عزمي.

فردّ (بييرو) بقولةٍ أصاب فيها كبد الحقيقة إذ قال:

- إن عزيزك (بنفنوتو) سيثري وينال شهرةً وشرفاً لو درس فن الصياغة بدأب أكثر من معاناته شغلة التزمير السخيفة هذه.

فاستشاط الوالد غيظاً ولا سيما حين وجدني أشاطره الرأي، وقال وقد بلغ به الإنفعال أقصاه:

- كنتُ دائماً على علمٍ بأنك تعمل على إحباط مسعاي العظيم. وإنك أنت الذي سعيت في اعفائي من وظيفتي في القصر. لقد كافأتني بشر الجزاء وهو النوع من نكران الجميل الذي تُقابل به عادةً الأفضال الكبيرة. عَينتك في وظيفتك فأفقدتني وظيفتي[2] علمتك كلّ ما تعرفه من الموسيقى فحلت دون قيام أبني بتحقيق رغبتي فيه. والآن تذكّر هذه الكلمات القليلة من النبوءة: لن تمرّ أسابيع قليلة، ولا أقول

---

(1) النمنمة هي شغل التطريز على القماش بأسلاك الذهب والفضة.

(2) باجي (المرجع السالف: ص12) يثبت نصاً من وثيقة في سجلات فلورنسا الرسمية، تعطي سبباً أو صورة أخرى غير التي جاءت في المتن. فقد ذكرت أن جيوڤاني مُنح راتباً تقاعدياً وسُرّح نظراً لطول خدمته Senex et inhabilis del sonodum.

أعوام أو أشهر إلا وستكبو بك حظوظك كبوةً لا قيام لك من بعدها بسبب نكران الجميل هذا الذي قابلتني به.

أجاب الأستاذ بييرينو:

- معظم الناس يا أستاذ جيوڤاني يزدادون خَرَفاً كلما تقدّم بهم العمر. وأنا لا أستغرب منك هذه الأقوال فأنت مخرف، ولاعجب إذ أراك تبدد كل ما لديك في هذه الدنيا دون أن تفكر بحاجة أولادك. أمّا أنا فقد نويتُ عكس ذلك، وصممت على أن أخلّف لأولادي ما يجعلهم قادرين على مدّ يد العون لأولادك.

فكان جواب الوالد على هذا قوله:

- ألا فاعلم أن فاسد الشجر لا يحمل طيب الثمر، والعكس هو الصحيح. وأضيف إلى هذا قولي: إنك إنسان نذل وإن أبناءك سيخرفون ويصابون بالعته والفقر وسيأتي يوم يقصدون فيه أولادي الأذكياء الأغنياء ليتصدقوا عليهم.

واستمرا يتبادلان جارح القول وكاد أحدهما يمسك بخناق الآخر ثم ترك الوالد منزل (بييرينو) وخرجت معه وقد لزمت جانبه قائلاً: إني سأنتقم منه ولن أدع الإهانة التي الحقها به هذا الوغد تضيع هباء، لو تركني أواصل تماريني في التصاميم والرسم. فأجابني قائلاً:

- بورك فيك يا ولدي العزيز. وأنا أيضاً كنت رساماً مجيداً. لكن أرجوك بعهدٍ تقطعه على نفسك أن تواصل التمرين في الزرناي بين آن وآخر بعد إنتهائك من عملك. ففي ذلك تسرية عن نفسك لأن صنعتك شاقة مرهقة أولاً وحبّاً بي أنا والدك الذي جاء بك إلى هذه الدنيا وربّاك ولقّنك أصول هذه الفنون وزرع فيك بذور هذه المواهب الرائعة، أفلا تعدني بأن تمسك زرناك أو تلك الناي البديعة فتسلّي نفسك بأنغامهما أحياناً؟

فأجبته: «أجل فإمتثالاً لرغبته سيسرّني جداً أن أقوم بذلك». وعندها قال لي هذا الوالد الشيخ الصالح إن انتقامه الأكبر من إهانات أعدائه هو في إشتهار أمري ونبوغي في فن الموسيقى.

ما مَرّ شهر على هذه الحادثة إلاّ وتحققت نبوءة أبي. فقد شرع (بييرو) المذكور

في بناء قبو بمنزله الواقع في زقاق (دللو ستوديو Dello Studio) وفيما كان يقف مع عدد من أصحابه في الغرفة التي تعلو القبو وهو يغتاب أبي أستاذه السابق مردداً العبارات التي تفوه الوالد بها عن خرابه المتوقع، في تلك اللحظة بالذات مادت به الأرض وانخسفت تحت قدميه ربما بسبب خطأ في بناء القبو أو بقدرة القادر على كلّ شيء الذي لم ينتظر نهاية الأسبوع ليعطي ما هو مستحق، فهوى من حالق وإنهالت فوقهُ الحجارة والآجرات فكُسرت ساقاه في حين لم يصب أحد من الواقفين على الحافة بأذى وتسمّروا في مواضعهم ذاهلين مشدوهين بسبب ما كان يحدثهم به ساخراً متهكماً قبل لحظة.

ما أن سمع الوالد بالنبأ حتى شدّ سيفه إلى وسطه وذهب لعيادته وقال له بمحضر من أبيه (نيقولايو دي فولتيرا Nicolaio die Volterra) بوقيّ البلاط:

- تلميذي العزيز بييرينو! إني لا أدري كيف أعبّر عن حزني وأسفي لما أصابك. لكن لو تذكرت قولي وما أنذرتك به عن سوء العقبى قبل زمن ليس ببعيد. لو تذكرت ما تنبأت به آنذاك عن مستقبل أبنائي وأبنائك فإن علاقتهما أيضاً ستكون كما توقعت.

بعد فترة وجيزة قضى (بييرو) ناكر الجميل هذا نحبه بسبب السقطة. وخلّف زوجة سيئة السمعة. وولداً واحداً. هذا الولد قصدني بعد مرور سنين يطلب مني عوناً مالياً وأنا في روما فنفحته بشيء لأن التصدق على الفقر جانب من طبعي، كذلك تذكرت وعيناي مغرورقتان بالدموع النعيم الذي كان يرفل فيه ابوه عندما نطق الوالد بنبوءته وهي أن أبناءه سيقصدوننا مستجدين طالبين إحساناً.

والآن بعد أن أوفيت هذه الحادثة حقّها من التفصيل بقي عليّ أن أوصي بألاّ يستهين أحد بنبوءة إنسان طاهر الذيل يُساء إليه بغير حق. إذ ليس لسانه هو الناطق بل الله هو المتكلم الموحي.

تفرغت إلى فن الصياغة وأخلصتُ له. وصرت بفضله قادراً على إعانة أبي مالياً. قلتُ إن شقيقي الأصغر (جكينو Cechino)[1] كان على بعض الإلمام باللاتينية. وقد

---

(1) تصغير اسم فرانشسكو.

رسم والدي أن أكون موسيقاراً نظرياً ومحترفاً شهيراً. وأن يغدو ابنه الأصغر قانونياً ضليعاً. إلاّ أنه لم يفلح في صدّنا عن السبل التي سلكتها ميولنا الطبيعية، تلك الميول التي شذّتني إلى فن الزخرف على المعادن ودفعت بأخي المتين الألواح المتناسق الجسم إلى احتراف الجندية. وفي يوم من الأيام جاء إلى المنزل ـ وكان بعد صبيّاً يافعاً ـ بعد أن تلقى أول تدريب عسكري في المدرسة الحربيّة التي أنشأها السيد العظيم (جيوڤاني دي مديتشي) ولم أكن في الدار آنذاك. كانت ثيابه غير لائقة فشكا أمره إلى شقيقاتنا فقمن إلى ثيابي من دون علم أبي ودفعن إليه بمعطف وسترة وهما من خير ما أملك (كان في مقدوري إقتناء هذه الثياب الغالية بفضل مكاسبي من عملي الذي جعلني قادراً على مساعدة الوالد والأخوات الكريمات الصالحات). ولما اكتشفت فقدان ثيابي بهذه الطريقة غير الأمينة وتعذر عَليّ إيجاد شقيقي لإستعادتها منه. شكوت الأمر للوالد متسائلاً كيف يسمح أن يُساء اليّ، وها أنه يرى بعينيه كيف أكدح وأرهق نفسي لمساعدته بكلّ طيب خاطر. فأجابني: إني بمثابة الإبن الصالح. وإن أخي هو الإبن الضّال الذي فقده ثم عاد إليه بعد أن يئس من عودته[1] وزاد قائلاً إن ما أوصى به الله هو أن على من يملك الكثير أن يعطي الذي لا يملك شيئاً. ورجاني أن أتحمل هذا التصرف المشين إكراماً له وأن الله لا شك سيزيد من حلالي ويبارك فيه.

وكأي شاب غرير قليل التجربة كان جوابي للوالد المسكين المحزون ـ مشوباً بالحدّة والعناد ـ حزمت ثيابي القليلة القديمة وبالنزر اليسير المتبقى لديّ من المال توجهت إلى واحدٍ من أبواب المدينة. ولما كنت أجهل أيا منها يفضي إلى طريق روما فقد سلكت السبيل المؤدية إلى (لوكا)، واستأنفت السفر من (لوكا) إلى (بيزا).

كنت في السادسة عشرة من عمري عندما وطئت قدمي (بيزا). توقفت بالقرب من الجسر الوسطاني حيث تقوم دكة السمك الحجرية(*) ودنوت من دكان صائغ مجاورة وبدأت أرقب باهتمام صاحبها وهو ماضٍ في عمله. فحانت منه التفاتة اليّ والقى

---

(1) وَرَدَ مثلُ «الإبن الضال» في أنجيل لوقا (فصل 15).

(*) دكة السمك الحجرية كانت تستخدم بمثابة سوق السمك وهي على رصيف الضفة الحجري.

بعمله وخرج ودنا مني يسألني عن هويتي وحرفتي. فأجبته أن لي بعض الإلمام بصناعته فدعاني الرجل الكريم إلى دكانه ودفع اليّ بعمل فوراً وهو يقول:

- إني اتوسم في وجهك الموحي بالأمانة ما يؤيد لي بأنك فتى مستقيم حسن الخلق.

ثم أناط بي أعمالاً لحليّ من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، وبعد إنقضاء اليوم أخذني إلى بيته وكان في خفضٍ من العيش؛ يحيا حياة ناعمة مع زوجته الجميلة وأولاده. فكرت في مبلغ قلق الوالد وألمه لفراقي فبادرت الكتابة إليه. وذكرت له إني أقيم في منزل رجل كريم عالي الخلق يدعى (اوليفيري ديللاّ كيوسترا Uliviere della Chiostra) وإني مستخدم عنده وقد كلفت بأعمال دقيقة وهامة جداً. ورجوته ألاّ يستسلم إلى القلق إذ إني أروم الإستزادة في موضوعات فنيّ فإذا تمكنْتُ منه ومهرت فيه خلال زمن قصير فإني سأظفر بما يعود عليه بالفائدة ويخلع عليه شرفاً.

أسرع الوالد العزيز بكتابة الرسالة التالية جواباً:

«ولدي. إن الحبّ الذي أكنّه لك يحفزني على القدوم إليك لولا ما يمنعه شرفنا الذي أضعه فوق كل إعتبار. في الواقع وبدون مبالغة ان عدم رؤيتك يومياً كما اعتدتُ؛ صيرني مثل ذلك الذي فقد نور عينيه. إن لقياك هي أمنيتي الكبرى. على أني سأبقى ماضياً في إدارة شؤون الأسرة وقيادتها في طريق الصلاح وعليك في الوقت نفسه أن تضاعف جهودك للوصول إلى حدّ الكمال بفنك. ووصيتي لك أن تبقى حافظاً هذه الكلمات القليلة البسيطة ولتكن دليلاً يهديك إلى الطريق السوية دوماً:

في أي دار حللتا　　　كن أميناً مستقيماً.

وقعت رسالة أبي هذه بيد أستاذي (أوليفيري) فقرأها دون علم مني واعترف لي بذلك فيما بعد قائلاً:

- الحقّ يا بنفنوتو إني لم أكن مخدوعاً بوجهك السمح. وقد أثبتت ذلك رسالة أبيك التي وقعت بيدي صدفةً ومنها يظهر كم هو رجل صالح مستقيم. ولك أن تعتبر نفسك من الآن فصاعداً وكأنك في بيتك تعيش مع أبيك.

كنت أديم التردد إلى (كامبوسانتو Campo Santo) طوال إقامتي في (بيزا) إذ إكتشفت هناك عدداً كبيراً من التحف الأثرية الجميلة وأعني التوابيت الرخامية. كما وقفت في (بيزا) نفسها على آثار قديمة كثيرة في أماكن أخرى وكنت أتدارسها بدقة وتمحيص منفقاً كل ما توفر لي من أوقات الفراغ بعد ساعات العمل في تأملها وتحرّي وجوه الفنّ فيها. وزاد من تعلق أستاذي بي عندما كان يزورني في الغرفة الصغيرة التي خصّصها لي فيجدني مكبّاً على العمل وصار يحبني حبّ الوالد لإبنه. وكانت السّنة الواحدة التي قضيتُها معه مثمرة للغاية. وصُغت عدداً من الحلي الذهبيّة والفضيّة الجميلة الهامة. وقد أثار فيّ هذا الرغبة في المواصلة والمثابرة. وأبي في أثناء ذلك يمطرني برسائله متوسلاً ضارعاً لأعود إليه مذكرا إياي أبداً بممارسة الموسيقى التي بذل قصارى جهده في تعليمي إياها فما أقرأ هذا حتى تزايلني كل رغبة في العودة. إلى هذا الحَدّ بلغ كرهي لمعالجة الموسيقى بهذا الزرناي اللعين. والواقع أني كنت في فردوسٍ طوال إقامتي في (بيزا) حيث لم تمسك يدي قط بزرناي.

بإنتهاء العام سنحت لأستاذي فرصة للسفر إلى فلورنسا لبيع مقدار من برادة الفضة والذهب تخلّفتْ له من العمل. وكان هواء (بيزا) غير الصحي قد أسلمني إلى مسّ من الحمى فعدت إلى فلورنسا معه وبي من آثارها. ورحب الوالد به ترحيباً حاراً وصار يلح عليه في غفلةٍ مني بالأ يأخذني بل يبقيني. فنزل عند رجائه وتركني ولازمت الفراش مقدار شهرين وأبي ساهر على علاجي بحنانٍ وحدب يجلاّن عن الوصف، وكان لا يَني يردد قوله إن فترة مرضي هي عنده بمثابة ألف سنة وإنه ليتطلع إلى اليوم الذي سأكون فيه قادراً على تطريبه بألحاني. وكان على معرفة بالطب والكتب اللاتينية. فيجس وهو ممسك برسغي التسارع الفجائي في ضربات قلبي كلما طرق موضوع الموسيقى! فيدرك رِدّة الفعل وينأى عني وجلاً باكياً. لم تفتني ملاحظة تلك الكآبة، فطلبت من أحدى شقيقاتي إحضار الزرناي لأنها أقل الملاهي إجهاداً للعازف، والحمى لم تزايلني ـ ورحت أنفخ بحركات بارعة من الشفتين والأصابع، فأسرع الوالد اليّ وأخذ يمطرني بوابل من دعائه وبركاته. وقال إني تقدمت كثيراً خلال الفترة التي قضيتها بعيداً عن فلورنسا، ورجاني الإستمرار في التمرّن واستحلفني بالاّ أهمل هذه المَلَكة العظيمة فتضيع منيّ هدراً.

بعد أن استرددت صحتي، عدت إلى صديقي الشهم الكريم (ماركوني) الصائغ فساعدني على كسب بعض المال وبذلك أمكنني مساعدة الوالد والأسرة. وفي تلك الفترة من الزمن قدم إلى فلورنسا نحّات يدعى (بييرو تورّيجياني P. Torrigiane)[1] كان قد عاد من انكلترا بعد زيارة إمتدت سنوات غير قليلة. وبما أنه صديق حميم لأستاذي فقد كانَ يزُوره يومياً، وبعد أن القى نظرة على رسومي وتصاميمي قال:

- إن السبب في مجيئي إلى فلورنسا هو لإستخدام ما أمكن من الصناع الحاذقين لأن هناك عملاً هاماً جداً كلفني به ملكي (يقصد هنري السابع). وطريقتك في العمل ووضع التصاميم أقربُ إلى النحت منها إلى الصياغة. وأنا أرغب في إسداء العون لأبناء جلدتي الفلورنسيين فإن عاونتني في صبّ تمثالٍ برونزي ضخم كُلِّفتُ به هناك فسأجعل منك نحاتاً بارعة، وسأغنيك.

كان (توريجياني) هذا رجلاً متين البنيان متناسق الأعضاء في غاية الوسامة؛ يحسبه المرء من جبابرة المحاربين لا من النحاتين، أضف إلى هذه الهيئة حركاته الآمرة وصوته القوي الرنان تقطيبته التي كانت توقع الرعب في أشجع القلوب. وكان يتحفنا كلّ يوم بحكاية عن مآثر إقدامه ومغامراته بين أولئك الإنكليز الوحوش. ومَرّة بدأ يتحدث عن (ميكالنجلو بوناروتي) بعد أن وقعت انظاره على رسم من رسومي كنت قد استنسختها[2] من صورة حائطية لذلك الفنان الخالد. وهي أول أثر فني تجلت فيه عبقريته السماويّة. رسمها منافساً بها فناناً آخر يدعى (ليوناردو دافنشي

---

(1) إشتهر بأنه مهشّم أنف ميكالنجلو الشهير، وهو نحات فلورنسي معروف. ذاع أمره في إنكلترا بسبب النصَب التذكاري الذي صنعه لهنري السابع في كاتدرائية (ويستمنستر آبي). غادر انكلترا إلى إسبانيا، وأحس هناك بأنه لا يلقى المعاملة التي تليق به فما كان منه والعهدة على الراوي إلاّ وأضرب عن تناول الطعام حتى مات جوعاً. والوصف الذي قدمه چلليني له يطابق وصف (ڤاساري) ج: 6.

(2) لم يثنِ چلليني عن ولائه لميكالنجلو ولم يتحول عن أعجابه به. والصورة الحائطية المشار إليها أتمها بين عامي 1504 و1505 لقاعة المستشارين في قصر ڤيكيو. والآن يكاد لا يبين لها أثر. وقد جرت محاولة أخيراً لإستنقاذ صورة ليوناردو المنوه بها دون جدوى فقد تلفت هي الأخرى. مثّل ميكالنجلو في الصورة جانباً من معركة كاجينا في الحرب مع بيزا. أما ليوناردو فقد صور مشهداً من موقعة أنكياري Anghiari.

(Leonardo da Vinci)[1] وقد رسمت لقاعة المستشارية بقصر السنيوري والموضوع هو فتح جيوش فلورنسا مدينة (بيزا). إختار (ليوناردو دافنشي) المُعجز أن يصور هجوم الفرسان وإستيلاءهم على الرايات والبيارق. فأتى بالعجب العجاب الذي يقف عن وصفه القلم. أما ميكالنجلو فقد صور سريةً من المشاة أفرادها يستحمون في نهر الأرنو والوقت صيف والمنظر يمثل حالة إستنفار وإنذار فترى الجنود العراة يهرعون إلى سلاحهم ثم إلى المعركة. وقد رسمت الفكرة بدقة وإبداع فاقت بالإعجاز كل ما رسمه القدماء والمحدثون. وكما قلت كانت لوحة ليوناردو بالغة الروعة أيضاً. واحدة من هذه اللوحات في قصر مديتشي، والأخرى في قاعة البابا. وقد صارتا وقبل أن يعتورهما التلف مثل مدرسة تقصدان من جميع الأرجاء.

ومع أن ميكالنجلو الموهوب رسم بعدها صور البيعة الكبرى للبابا يوليوس[2] إلاّ أنه لم يبلغ بها نصف الكمال الذي بلغه في هذه الصورة. ولم تفصح عبقريته مرة أخرى عن نفسها بمثل هذه القوة في أولى دراسته تلك.

ولأعد إلى (بيرو توريجياني)، فقد قال وهو ممسك بصورتي:

ـ إعتدنا أنا وبوناروتي وكنا صبياناً أن نذهب لدراسة الرسم في جناح (ماساجيو Masaccio)[3] بكاتدرائية (كارميني Carmine)[4] وكان من طبع بوناروتي أن يتخذ من أي أحد يرسم هناك مادةً للسخرية والمناكدة. وفي ذات يوم خصني بمناكدته

---

(1) دافنشي (1452 ـ 1519) نحات ورسام ومهندس ومعمار وفيلسوف. وواحد من العبقريات المعدودة في كل زمان ومكان غنيّ عن التعريف. وهو صاحب لوحة الجيوكندا المشهورة.

(2) هي الكاتدرائية الشهيرة بإسم سيستين Sistini. في روما.

(3) توماسوّ دي سرجيوڤاني (1401 ـ 1429) هو أوّل من أوجد الأسلوب الإمتلائي القوي في رسم الإنسان. والرسم الوحيد الذي وصلنا له هو لوحته الجصيّة في الكنيسة المشار إليها، وأبرز ما فيها صورة آدم وحواء بعد الخطيئة.

(4) هذا الجناح من الكنيسة يخصّ آل برانكاجيّ في فلورنسا وقد تولى ماساجيو المذكور زخرفتها برسوم تمثل جوانب من حياة بطرس الرسول. والكاتدرائية نفسها وتدعى اليوم (سانتا ماريا دِل كارميني) كانت قد بُنيت في أواخر القرن الثالث عشر دمرتها النار في 1771 وأعيد بناؤها وسلم منها لحسن الحظّ جناحا برانكاجي وكورسيني. وقد اضطلع ماساجيو بزخرفتها (1424) وترك أجمل أثر لديه فيها.

واستفزني حتى إني فقدت السيطرة على نفسي بشكل غير مسبوق مني فجمعت قبضتي وسددت لكمة إلى انفه بلغت من الشدة بحيث شعرتُ وكأن العظم والغضروف يسحقان تحت قبضتي مثل قطعة بقسماط هشة وسيبقى هكذا يحمل (توقيعي) حتى مماته.

ملأتني هذه القصّة إشمئزازاً أنا الذي اعتدت مشاهدة روائع ميكالنجالو العبقري كل يوم، وزرعت كراهة (توريجياني) في نفسي بحيث ما عدت أطيق النظر إليه فكيف بالذهاب معه إلى إنكلترا؟ كنت أحاول طول إقامتي في فلورنسا تشرّب أسلوب (ميكالنجلو) واحتذاءه ولم أنثنِ عن ذلك أبداً.

في تلك الأيام نمت صداقة وثيقة جداً بيني وبين شاب صائغ عالي الأخلاق ساحرها في مثل سني يدعي (فرانشسكو ابن فيليبّو). ووالده هو الرسام البارع فرا فيليبّو[1] ولم نكن نفترق إلاّ لماماً للمودة العظيمة التي يكنّها أحدنا للآخر. كذلك كان منزله غاصّاً بالدراسات الرائعة التي كان والده قد رسمها وثمّة أيضاً عدة دفاتر منها بريشته نقلها عن آثار روما القديمة. فعلقتُ بها بل جننت جنوناً. هذه الصداقة إستمرت سنتين تقريباً.

في تلك الفترة من حياتي أتممت صياغة حلية فضيّة ذات زخرف بنصف بروز لايُزيد حجمها عن كَفّ طفل. وهي ابزيم لحزام رجل. وكان الشائع أن تتخذ بهذا الحجم. نقشت عليها مجموعة من أوراق النبت المعروفة مع رؤوس ملائكة صغار (كروبيم) وغير ذلك من التهاويل البديعة. وقد أنجزتها في دكان (فرانشسكو سالمبيني F. Salimbene). ولما عرضتها على أرباب الصنعة أعضاء نقابة الصاغة أبدوا إعجابهم بها وأعترفوا بأني أحسن فنان بين تلاميذ الصناعة. وكان ثمّة حفّار على الخشب يدعى (جيوڤانباتستا Giovonbatista) المعروف عادة بإسم (تاسّو Tasso)[2] وهو في مثل

---

(1) فيليو ليبي Filippo Lippi (1457 ـ 1554) رسام معروف. وابن الرسام الأبعد منه شهرة فر افيليبو (1406 ـ 1469). ما زالت آثارهما تزين كنائس فلورنسا. أمّا صديق چلليني فقد عرف بإسم (جيوڤانباتستا) ونال شهرة كبيرة في فنه الذي عالجه.

(2) إل تاسو (1500 ـ 1555) مهندس ونقّاش خشب. صمم اللوجيا التي هي في السوق الجديدة. (أنظر ڤاساري ـ ميلانيزي ـ المرجع المفصّل في الفهرست).

سنيّ. أسرّ لي يوماً برغبته في التوجه معي إلى روما إن خطر لي ذلك. كنا نتحدث في الأمر بعد تناولنا الغداء مباشرةً. وبما أني كنت أشعر باستياء من أبي - والسبب هو الموسيقى بالطبع - فقد قلت لـ(توماسو):

- أفٍّ لك! إنك رجل أقوال لا رجل أعمال.

أجاب:

- إسمع. أنا كذلك حانق على أمي ولو كان عندي ما يكفيني من المال للوصول إلى روما لفعلت دون أن أتوقف لحظة لإدارة المفتاح في قفل دكاني الحقير.

فقلت: إن كان هذا العائق الوحيد الذي يقفك، فلديّ من المال ما يكفي إثنين واستأنفنا السير يحدث بعضنا بعضاً بهذا الشكل. وعلى حين غرّة وجدنا أنفسنا ونحن نواجه باب (سان بيترو كاتوليني San Pietro Gattolini)[1]. قبل أن ندرك أين نحن. وهنا قلت:

- تاسو! إنها إرادة الله. لم يكن أحد منّا قد لاحظ إلى أين نتجه. والآن وأنا هنا أشعر وكأني قطعتُ نصف الطريق.

وتم القرار وانطلقنا نغذّ السير ونحن لا ننفكّ نتساءل:

- ماذا سيقول عنّا أبوانا العجوزان في هذا المساء؟

واتفقنا على أن لا نفكرَ فيهما حتى نبلغ روما، وشددنا متزرينا كلّ خلف ظهره وانطلقنا نحو (سيينا) نكاد لا ننطق بلفظةٍ واحدة طول الطريق. وبعد بلوغنا المدينة شكا (تاسوَ) آلاماً في قدميه وقال إنه لن يخطو خطوة أخرى، وصارحني برغبته في العودة من حيث أتى وطلب مني قرضاً فقلت:

- الباقي عندي لا يكفي لإكمالي الرحلة. وكان عليك أن تفكر في الأمر مليّاً قبل أن تترك فلورنسا. فإذا كان السبب في عدولك آلام قدميك فسنجد لك حصان بريدٍ عائداً إلى روما ونكتريه وبذلك يزول عذرك.

إكتريتُ حصاناً. ولما لم أجده ينطق بكلمة واحدة ألويتُ عنان جوادي شطر

(1) إتخذ الباب اسمه هذا من الكنيسة الشهيرة (ماريا دللاّ روتوندا) في روما وكانت قبلاً البانثون الروماني.

الباب الروماني فلَمّا تبين فيَّ العزم لحق بي ضالعاً، يبذل أقصى مجهود لجرّ نفسه جرّاً وهو يلعن ويدمدم ساخطاً على مسافة مني. وعندما بلغت البابَ أدركتني به الشفقة فتوقفت أنتظره حتى إذا وصلني أردفته خلفي وأنا أقول له معاتباً:

ـ لو علم أصدقاؤنا بأننا قررنا الوصول إلى روما ثم خار عزمنا ولم يتبق منه ما يكفينا إلى أبعد من (سيينا) فماذا سيقولون عنا.

فأقرّ صديقي (تاسو) بصواب قولي وكان بطبيعته مرحاً فبدأ يضحك ويغني ودخلنا روما وكان غناؤنا ودعاباتنا لا تنقطع طول الطريق. وكنت آنذاك في السادسة عشرة من عمري، أي بعمر القرن الذي نحن فيه.

ما أن حططت رحلي في روما حتى وجدت لي عملاً عند أستاذ في الصناعة يدعى (فيرانزولا Firanzuala) واسمه الأصلي (جيوڤاني) ومسقط رأس (فيرانزولا) من أعمال (لومبارديا)[1] وقد أصاب شهرة عظيمة لخبرته التامة بصنع الصحاف الكبيرة وما شاكل ذلك. فأطلعته على تصميم لمشبك صنعته في فلورنسا عند (سالمبيني) فأعجب به كثيراً والتفت إلى خَلفةٍ من صنّاعه المتتلمذين وهو فلورنسي يدعى (جيانوتوّ جيانوتيّ Gianotto Gianotti) كان قد سلخ عدة سنين في خدمته وقال له بلهجة تأنيب:

ـ دونك واحداً من الفلورنسيين العارفين. وأنت؟ ما أنت إلاّ واحداً من أغبيائهم الجهلة.

في هذه اللحظة عرفت فيه صديقي جيانوتو فأسرعت إلى التحدث اليه. كنا قبل نزوحه إلى روما نعالج الرسم معاً. وقد عقدنا فيما بيننا أواصر الود، إلا أن وقع تأنيب أستاذه على نفسه كان من الشدّة بحيث حمله على إنكار أيّ معرفة سابقة بي. فآلمني ذلك وصحت به وقد بلغ إنفعالي أقصاه:

ـ ويحك يا جيانوتو. يا أصدق خِلٍّ من الأيام الخوالي. ألم نكن سويّة في موقع كذا ومحل كذا ألم نأكل ونشرب معاً. أوَلَمْ أبت ليلةً في منزلكم الريفيّ؟ على أني لا

---

(1) بليدة تقع على بعد نحو ثلاثين كيلومتراً شمال فلورنسا.

أهتم. فسواء لديّ أتكلمت عني بالخير أمام هذا الرجل الكريم أستاذك أم لم تتكلم فإني اؤمل بأن تبرهن يداي هاتين على مقدرتي بما تنتجان من أعمال دون مساعدة منك.

كان (فيرانزولا) إنساناً صريحاً، عصبياً سريع الغضب إلى آخر حدٍ. فما إن فرغتُ من قولي حتى التفت إلى (جيانوتو) وصاح به مُنتهراً:

- قبّحك الله من لئيم حقير! أما تخجل من هذا التصرف إزاء من كان بالأمس صديقك الحميم؟

وبعين الشعور الذي ملكه التفتَ اليّ وأضاف قائلاً:

- أدخل الدكان وبرهن على ما قلتَ. دع يديك تشهدان بكفاءتك.

ثم دفع اليّ بتحفة فضيّة دقيقة للغاية تعود لأحد الكرادلة. هي عبارة عن علبةٍ صغيرة صُممت على شكل الناووس الرخامي الأحمر الذي يقوم أمام باب الروتوندا[1].

فإلى جانب ما استنسخت أضفت إليه بعض التهاويل والأقنعة الصغيرة الجميلة من إختراعي. وبنتيجة هذا أخذ أستاذي يدور به على الصاغة متباهياً فخوراً بالشغل الدقيق الذي أنتجه دكانه. وكان يقارب نصف (كوبيت) حجماً والغرض هو أن يستخدم كمملحة، وإلى هذه المملحة يعود الفضل في أول كسبٍ لي في روما. وقد أرسلت جانباً من المال إلى الوالد الكريم مساعدة مني واحتفظت لنفسي بالبقية. وعلى ضوء ما كسبته من مال إنطلقت في أرجاء روما أتدارس آثارها وأتملاّها مدققاً فاحصاً حتى أشرفت نقودي على النفاد فعدت إلى الدكان أشتغل مجدداً. ولم تطل إقامة صديقي (باتستا دل تاسوّ) فقفل راجعاً إلى فلورنسا.

عُهد اليّ بعمل جديد على أني قررت أن أشتغل لأستاذ آخر بعد فراغي منه وقد أغراني بذلك مواطن ميلانيّ يدعى الأستاذ (باكولو آرساكو Pagolo Arsago) وما حصل بعد ذلك أن (فيرانزولا) اشتبك في شجار عنيف مع (آرساكو) هذا وانهال عليه

(1) هي بيعة القديسة سانتا ماريا دللاروتوندا وكانت قبلاً البانثيون الروماني.

شتماً. وكنت موجوداً آنذاك فانحزت إلى جانب أستاذي الجديد وصرت أدافع عنه وقلت لفيرانزولا محتجاً: إني ولدت حُراً وسأعيش حراً وإنه غير محق بالشكوى من تصرّف (آرساكو) ولا بالتظلم من عملي وإنه ما زال مديناً لي ببضعة كراونات هي بقية أجري. وكصانع حرّ ليس ثمّة ما يمنعني من التوجه حيث شئت، وأنا مدرك تماماً بأن عملي هذا لايلحق إساءة أو ضرراً بأي إنسان. وحانت لأستاذي الجديد فرصة الكلام فتدخل قائلاً إنه لم يطلب مني الإلتحاق بخدمته. وسيكون مسروراً لو عدت إلى (فيرانزولا) فأجبت إني لم أخطئ بحق (فيرانزولا) ولا علم لي بإيّ شيء من هذا القبيل مطلقاً. على أني أريد أن أبقى سيّد نفسي. ومن يطلب خدمتي عليه أن يراجعني شخصيّاً. وإني أنجزت العمل الذي كلفني به (فيرانزولا) ولم تعد تربطني به علاقة. فصرخ فيرانزولا قائلاً: إنه لا ينوي أن يستخدمني وأضاف:

- إياك أن تريني وجهك بعد اليوم.

وعندما ذكرته ببقية أجري المستحق، ضحك ساخراً فقلت:

- إني لقادر على استخدام سيفي بنفس البراعة التي استخدمتها في استعمال العدد والأدوات لصياغة الحلي كما رأيتني.

وبينما نحن في أخذٍ وردٍ إتفق أن مَرّ رجل مسنّ يدعى السيد (أنطونيو دي سان مارينو) وكان أستاذاً (لفيرانزولا) وهو خير صائغ في روما. فسمع حجتي التي بذلت جهدي لوضعها أمامه بأوضح صورة، فحكم لي ونصح (فيرانزولا) بأن ينقدني بقية أجري. إلاّ أن الخصام اشتدّ وتسعّر بسبب ما ظهر من أن (فيرانزولا) كان مبارزاً بارعاً أكثر منه صائغاً. إلاّ أن العقل تغلّب أخيراً بتمسكي وإصراري الذي أدى دوره فدفع أجري بالأخير. وبعد زمن عادت العلاقة بيني وبين فيرانزولا كما كانت وبقينا أصدقاء حتى إني صرتُ عرّاباً لوليده عندما طلب ذلك.

واصلت العمل مع الأستاذ (باكولو آرساكو) وكسبت مالاً كثيراً كنت أرسل معظمه إلى الوالد الكريم. وبعد أن أكملت سنتين رضخت لتوسلاته وعدت إلى فلورنسا وإلى دكان (فرانشسكو سالمبيني) مرة أخرى. وكان ربحي كثيراً وركّزت جهودي لإغتراف المزيد من أسرار الفن وجددت علاقتي (بفرانشسكو دي فيليبو)

وصرنا نخرج معاً. وقد أغرتني تلك الموسيقى اللعينة على تبديد الكثير من الوقت جرياً وراء اللهو والعبث. على أني كنت دائماً أحرص على تخصيص ساعات قليلة من الليل أو النهار للتتبع والدراسة.

في ذلك الزمن صنعت ما كان يطلق عليه في ذلك العهد إسم (مفتاح القلوب) وهو نطاق فضي عرضه نحو ثلاثة أصابع تشده المتزوجة حديثاً في وسطها. وكان نقشه بنصف بروز ورصعته بصور لطيفة على طوله. ومع أن الموصي به (رافايللو لاباجيني Raffaello Lappaciun) لم يكن سخياً في دفع أجوره إلاّ أن الشهرة التي نلتها من ورائه كانت أكبر من أجزل العطاء عنه. وإشتغلت مع عدد كبير جداً من الصاغة في فلورنسا. ووجدت بينهم أناساً مستقيمين مثل أستاذي الأول (ماركوني) إلاّ أنني وجدت آخرين ممن تمتعوا بخير السمعة - يحاولون مع هذا دماري ولم يتعففوا على سرقتي بأخسّ الطرق كلما تسنح لهم الفرصة. فجانبتهم وتحاشيتهم ما وسعني ذلك وأنزلتهم منزلة اللصوص والعيّارين. على إن صائغاً وهو المدعو (جيوفانباتستا سولياني Giovanbatista Sogliani) تفضّل مشكوراً فأخلى لي جانباً من دكانه في السوق الجديدة بالقرب من ضفة (لاندي). وفيه أنجزت صياغة حلي وتحف كثيرة في غاية الجمال ومكنتني أرباحي من رفع مستوى عيش أسرتي وقد أثار ذلك حقد إثنين من الأوغاد اللذين كنت قد تتلمذت عندهما من قبل وهما (سلفادوري Salvadore)[1] و(ميكيلي كواسكونتي Michele Guasconti). كانا يمتلكان ثلاثة دكاكين صياغة كبيرة مع أشغال رائجة رابحة. وعندما أدركتُ انهما يبيتان لي شراً قصدت رجلاً كريم الخصال أعرفه - شاكياً له الأمر وقلت أما كان عليهما أن يكتفيا بما سرقا مني تحت ستار الطيب الكاذب والتظاهر بالسماحة؟ وبلغهما هذا الكلام فراحا يتهددانني علناً قائلين إنهما سيرغماني على ابتلاع كلماتي، وبما أني كنت أجهل معنى الخوف فلم أبال بتهديدهما.

وإتفق مَرّة إنّي كنت واقفاً مسنداً جسمي إلى دكان واحدٍ من هذين الصائغين فناداني وبدأ يشتمني ويتوعدني. فأجبت لو أنهما أحسنا معاملتي لحسن كلامي عنهما

---

(1) في رسالة جلليني عن الفن (ص4) يتكلم عن سلفادوري هذا بغاية الطيب.

بين الناس وأشدت بصلاحهما واستقامتهما إلاّ أنهما أقدما على شيء يخالف هذا وليلوما أنفسهما اذ لست انا الملوم. وفيما انا مسترسل في اقوالي اقبل فرد من اسرتهما يدعى (جيراردو كواسكونتي) كان يسوق بغلاً محمّلاً بالآجر - ربما جاء بتحريض منهما فوجهه نحوي وما أن أصبح محاذياً لي حتى أمالَ بالحِمْل عليّ فأناخت الآجرات فوقي ونالني منها كبير أذى. واستدرت في الحال فوجدته يضحك مقهقهاً فما كان منيّ إلاّ وسددت إلى صدغه لكمة فسقط كالميت غائباً عن الوعي. ثم واجهت ابن عمه قائلاً:

- تلك هي الطريقة المثلى للتعامل مع أمثالكم أيها اللصوص الجبناء.

وباعتمادهم على قوتهم العددية تظاهروا بالحملة عليّ. فغلى الدم في عروقي ومددت يدي إلى خنجر صغير في حزامي وصحت بهم صيحةً راعدة:

- لو أقدم أحدكم على الخروج من الدكان، فعلى الآخر أن يذهب لاستدعاء الكاهن إذ لن تدرك الحاجة إلى طبيب.

وأشاع قولي هذا الخوف فيهم فسمّرهم في مواضعهم ولم يجسر أحد على الخروج من الدكان ثم إني انصرفت. فأسرع الأب وأبناؤه إلى (مجلس الثمانية) وقدموا شكوى ضدي زعموا فيها أني قمت بهجوم مسلح عليهم في دكانهم وهو أمر لم يسمع به في فلورنسا.

فطلبني مجلس الثمانية للمثول امامه وراح اعضاؤه يوسعوني توبيخاً. وربما كان السبب في ذلك هو أني كنت أرتدي معطفاً[1]. في حين كان غرمائي يلبسون العباءات والقلانس المدنية. أو لعلهم راجعوا أيضاً القضاة كلاً في منزله وتكلموا معهم بصورة خاصّة سراً، لا مثلي أنا القليل الخبرة الطاهر الذيل فإني لم أحاول مثلهم التكلم مع أي عضو ثقة مني بعدالة قضيتي ووضوح حقي.

فأجبت المجلس قائلاً إن الغضب أعماني وقتما إستمر جيراردو في إهانتي وكان

---

(1) إن لم يكن الشخص عسكرياً أو محارباً محترفاً فإن إرتداءه معطفاً بدلاً من العباءة وهي زي المدنيين النهاري - يدخله في عداد الأشقياء والمستهترين.

كل رذي أني لطمته لا غير ولا أظنني أستحق مثل هذا الزجرَ الشديد. ما ان خرجت من فمي كلمة (لطمة) حتى قال (برنزيفالي دللاّ ستوفي Prinzivalli della stufe)[1] أحد القضاة مصححاً:

- إنك لكمته بقبضتك ولم تلطمه.

ثم دق الجرس فأمروا الجميع بالخروج. وتكلم (برنزيفالي) للمجلس مدافعاً عني فقال:

- فكروا أيها السادة بسذاجة هذا الرجل. فهو يتهم نفسه بأنه لطم أحدهم متوهماً أنها أخفّ عقوبة من اللكمة. إذ في الواقع ان عقوبة اللطمة إن وقعت في السوق الجديد هي خمسة وعشرون كراوناً، في حين أن اللكمة شيء بسيط وعقوبتها خفيفة. إنه شاب موهوب ذكي ويعيل أسرته بمثابرته على العمل. وإني أرجو من الله أن يكثر من أمثاله في مدينتنا فهم قليلون.

كان يوجد بين القضاة عدد من أولئك الجمهوريين ذوي القلانس المفتولة إنحازوا إلى خصومي بالتوسطات والشفاعات الكاذبة. ولأن خصومي من حزب الراهب سافونارولا[2] وكان يسرّهم جداً إرسالي إلى السجن بحكم ثقيل. إلاّ أن (برنزيفالي) الشهم النبيل أحبط تدبيرهم. فبدلاً من ذلك فرضوا عليّ دفع غرامة صغيرة مقدارها أربع وزنات[3] من الدقيق تدفع إلى دير (موراتي Murati)[4]. وعندما طلبت للمثول

(1) واحد من أنصار آل مديتشي الأقوياء. دبّر مؤامرة لصالحهم ضدّ الكونفالونير سودريني. وأسند إليه اليساندور دوق فلورنسا منصباً في عضوية مجلس الشيوخ في 1532 وكانت وفاته في 1561.

(2) جيرولامو سافونارولا (1452 ـ 1498) مصلح ديني إيطالي. ورئيس دير الدومنيكان في فلورنسا منذ 1491. كان يعظ بحماسة ضدّ التفسخ الخلقي في الكنيسة والدولة. دبّر ثورة في مدينة فلورنسا طرد على اثرها آل مديتشي السنة 1494 بعد أن أبدى دوقها بييرو عجزاً عن مواجهة الحرب التي شنها شارل الثامن الفرنسي. وهوجم قصره ونهب. أسس سافونا رولا الجمهورية التي كرّهت الناس بها لقوانينها القاسية جداً. وأصدر البابا الكساندر السادس قرار حرمان بحقه (1497) ففقد ثقة المواطنين وحوكم وشُنق ثم أحرقت جثته.

(3) في الحقيقة كان مقدار الغرامة إثنتي عشرة وزنة كما جاء في السجلات. أنظر باجي ص32.

(4) دير شهير في فلورنسا عرفت راهباته بشدة التحفظ والتعبد. وفيه توفيت السيدة الشهيرة كاترينا سفورزا أم جيوڤاني دي مديتشي وجدة كوزيمو دوق فلورنسا الأكبر.

أمامهم ثانية أمرني أن أسكت ولا أنطق بحرف لئلا أتعرض لسخطه وقال إن عليّ القبول بالحكم الصادر. وبعد ذلك وُجِه اليّ توبيخ شديد، ثم أرسلونا إلى المستشار وأنا لا انفك أردد لنفسي: «إنها لطمة وليست لكمة!» وهكذا تركنا القضاة وهم مغرقون في الضحك.

أمرنا المستشار نيابة عن مجلس القضاة بأن نقدم كفيلاً بضمانٍ مالي. وكنت أنا وحدي الذي حكم بتأدية أربع وزنات. فشعرت كمن تؤخذ منه روحُه غيلةً: ولما لم يكن باليد حيلة فقد بعثت بطلبٍ واحدٍ من أبناء عمومتي وهو طبيب جراحيّ يدعى (انيبالي Annibale) والد (ليبرودورو ليبرودوري Librodoro Librodori) ليكون كفيلاً. إلاّ أنه رفض فجنّ جنوبي وإنتفخت كالصِلّ من فرط الإنفعال. وحزمت أمري على الإتيان بعمل يائس. وما هذا إلاّ دليل على ان المكتوب لنا في النجوم لا يؤثر في مجرى حياتنا فحسب بل يحكمها حكماً شاملاً.

وكان حنقي يتصاعد كُلما فكرت في الأيادي التي أسدتها أسرتي لـ(أنيبالي) هذا ـ حتى إني عزمت عزماً أكيداً على أمر جَلل وأنا بطبعي عصبي المزاج سريع الثورة. إنتظرت حتى غادر القضاة المجلس لتناول الغداء. وما ان وجدت نفسي وحيداً، لا يقوم على حراستي موظف ما، إنسللت من القصر ونار الحقد تمزّق أحشائي وهرعت إلى دكاني فتسلّحت بخنجر صغير، وتوجهت قاصداً منزل أعدائي وكان يعلو دكّانهم. فوجدتهم يتناولون طعام الغداء. ما أن دخلت عليهم حتى لحظني (جيراردو) الفتى الذي بدأ الشجار فحمل عليّ. فما كان منيّ إلاّ وسددت طعنةً إلى صدره فغاب النصْل مخترقاً صداره وسترته حتى قميصه. لكنه لم يمسّ بشرته أو يصيبه بأي خدش في الواقع. على أني توهمت من الشكل الذي هبطت به يدي ومن النصل الغائب في طيّات ثيابه وصوت التمزّق ـ أني أصبته بجرح بليغ وسقط إلى الأرض وقد جُنّ رعباً. فصرختُ:

ـ ويل لكم أيها الغادرون. حان حَيْنُكُم وسأقتلكم جميعاً.

وخيل لهم كلهم: الأب والأم والأخوات إنه يوم الدينونة قد جاء. فخرّوا على ركبهم ركّعاً وراحوا يطلبون الرحمة دون تحفظ صارخين. لم أجد من المروءة في

شيء أن العرض لهم بسوء بعد أن تلاشت روح المقاومة فيهم وبجيراردو وهو مستلقٍ على الأرض مثل جثةٍ. قدرت على عقبيّ وتركت المنزل والغيظ يعصف بي إلى حَدّ الجنون. وفي الزقاق وجدت البقية من الأهل قد تجمعوا إثني عشر أو يزيدون في إنتظاري، هذا ممسك بمجرفة من حديد وهذا مسلّح بقضيب فولاذي وجماعة منهم بالمطارق وآخرون بالفؤوس والعصي فحملتُ عليهم وأنا أخور كالثور الهائج. فأوقعت أربعة منهم أو خمسة على الأرض وسقطتُ معهم وأنا لا أتوقف عن كيل الطعنات بخنجري، وأطبق عليّ الآخرون الذين كانوا وقوفاً بما وسعهم من عونٍ ونالوا مني بكلتا اليدين بمطارقهم وفؤوسهم، ومجارفهم إلاّ أن عناية الله التي تتولى الأمور أحياناً فتمنع المقدّر، شاءت أن لا يُحدث أحدنا بالآخر أي أذى يذكر. وكل ما فقدته هو قبعتي التي سقطت أثناء المعركة فغنمها العدو وأوسعها ضرباً وركلاً وطعناً. وإن كانوا قد نكصوا عنها خائفين في البدء. ثم إنهم صاروا يتفقدون الجريح منهم والقتيل، فوجدوا جميعهم سالمين[1].

إنصرفت سالكاً الزقاق المؤدي إلى (سانتا ماريا نوفللا)[2]. فإذا بي وجهاً لوجه والراهب (اليشو ستروزّي Alesso Strozzi)[3] ولم يكن لي به سابق معرفة. إلاّ أنني استجرت به واستحلفته بمحبّة الله التي تجمعنا أن ينقذ حياتي لأني إرتكبت إثماً عظيماً. فأجابني الراهب الشهم: «لا خوف عليك البتة. حتى لو ارتكبت أعظم معصيةٍ وكل شرّ في هذه الدنيا فإنك ستكون آمناً في صومعتي».

وبعد حوالي الساعة عقد مجلس الثمانية إجتماعاً خاصاً وأصدر لائحة إتهام مريعة بحقي لم يسبق أن أصدر مثلها من قبل مهدداً بأشد العقاب كلّ من يأويني أو يعرف مكاني ولا يخبر عني دون أيّ إعتبار لمركزه الإجتماعي أو وظيفته، ويصرف النظر عن صفة المكان الذي أختفي فيه. فقصد أبي المسكين المنكوب شأن الوالد

---

(1) هذا غير صحيح فإن چلليني أصاب (جيراردو كواسكونتي) ورجلاً آخر بجرح بليغ جداً. فحكم عليه مجلس الثمانية بالموت. (أنظر باجي ص32).

(2) سيأتي الكلام عن هذه الكاتدرائية فيما بعد.

(3) هو الذي غدر فيما بعد بالراهب (بنوتّو دي فوياتو) وسيأتي الكلام عن ذلك.

الطيب ـ دار القضاء وجثا أمام القضاء مسترحماً الرأفة بإبنه الفتى البائس. فنهض واحد من هؤلاء ذوي الرؤوس الحارة منتصباً ووجه الكلام البذيء لأبي التاعس وهو يهزّ عفيرة قلنسوته ذات التلافيف:

ـ قم! أخرج من هنا فوراً. فغداً سوف نرسل إبنك إلى ساحة الإعدام.

فأجاب الوالد المسكين بصرامة وأنفة:

ـ إنكم ستعملون بمشيئة الله لا أكثر.

فأجاب القاضي:

ـ إن ما قلتهُ هو الذي رسمه الله بالتأكيد.

بالأخير قال له الوالد «إن سلواي هي أنك لا تدري ماهي مشيئة الله» ثم خرج وبدأ يفتش عنيّ مع (بييرو ابن جيوڤاني لاندي) أحبّ أصدقائي وأقربهم، ذلك الذي ينزل في نفسي منزلة الشقيق بل وأكثر. أخفى بييرو تحت عباءته سيفاً بتّاراً وزرداً محبوكاً وبعد أن عثرا عليّ أفضى اليّ والدي الجسور بما آلت إليه الأمور وما قال له القضاة. ثم طبع قبلة على جبيني وكلتا عينيّ ومنحني بركته الأبوية قائلاً:

ـ فلتعتصم بقوة الربّ وليكن في عونك.

ثم شدّ الحسام في وسطي وساعدني على إرتداء الزرد وأضاف يقول:

ـ ولدي الحبيب. أنت بهذين صرت مستعداً إمّا للحياة وإمّا للموت.

ولم يستطع (بييرو) حبس دموعه فقد ظلّت تسيل على خديه طول الوقت وكان قد جاءني بعشرة كراونات. فطلبت منه إن ينتف شعرات من ذقني وهي بواكير لحيتي ـ جلياً للحظ. ثم ألبسني الراهب (أليسو) مسوح الرهبان وأرفق بي أحد الرهبان المقيمين دليلاً ومرافقاً. فتركت الدير واجتزت باب براتو راجلاً على طول أسوار المدينة إلى ميدان سان كاللّو San Gallo، ثم توقّلت سفح (مونتوي Montui) وفي واحد من أول المنازل بلغتها وجدت المدعو (كراسوجيو Grassucio) وهو أخٌ للسيد (بندريتّو دا مونتي ڤاركي Benderetto da Monte Varchi)[1] فأسرعت حالاً أخلع مسوح

(1) الشاعر الشهير والأديب والمؤرخ (1503 ـ 1565) ويعرف عادة بإسم (فاركي). كان صديقاً وفياً لچللني»

الرهبان وعدتُ مدنياً مرةً أخرى ثم امتطينا الجوادين المهيّأين لنا وإنطلقنا في رحلتنا الليلية إلى (سيينا) وفيها ودّعني (كراسوجيو) وعاد إلى فلورنسا مبشراً والدي بسلامة وصولي. فكاد الوالد يخرج عن طوره من الفرح. ولم يصبر بل أسرع يفتش عن عضو مجلس الثمانية الذي أهانه وأوسعه شتماً وقد خال الفترة دهراً حتى التقى به فبادره قائلاً:

- أرأيت يا أنطونيو؟ الله وحده يعلم ما حصل لابني لا أنت.

فأجابه هذا:

- صبراً صبراً. وسترى عندما نضع أيدينا عليه مرّة أخرى.

فقال الوالد:

- في خلال ذلك سأبقى شاكراً الله لأنه أنقذه منكم.

وفي (سيينا) إنتظرت ساعي بريد روما. حتى إذا وصل إنضممت إليه وبعد عبورنا باليا Paglia[1] إلتقينا بالرسول الذي كان يحمل نبأ انتخاب البابا الجديد وكان البابا كليمنت[2]. ثم بعد أن وصلت روما رحت أبحث لي عن عمل فوجدته في دكان صياغة يعود للأستاذ (سانتي Santi) الذي كان قد توفي وحَلّ محله أحد أبنائه. ولم يكن هذا الإبن يزاول الحرفة وإنما أوكل العمل بها إلى شاب من (يبزي Jesi) يدعى (لوكانيولو Lucagnolo) قدم من الريف غلاماً صغيراً وتتلمذ على الأستاذ (سانتي). كان (لوكانيولو) هذا شاباً قصير القامة متين الألواح شديد العضل. لم أجد بين الصنّاع من يدانيه في المهارة والإبداع وفي أسلوبه بالعمل الخالي من التعقيد المتميز بحسن الذوق وسموّ الخيال. إلاّ أنه قصر دائرة عمله على القطع الكبيرة كالأواني والمزهريات الجميلة والقصاع وما شاكلها.

بعد مباشرتي العمل. أوكل اليّ عمل شمعدانات لأسقف (سلامنكا Salanmanca)

=فكتب فيه مرثية عندما بلغه خبر وفاته الكاذب. ومما يذكر له بالفضل إمتناعه عن إجراء اي تنقيح في هذه المذكرات التي أرسلها له چلليني ليرى فيها رأياً.

(1) نهر يقع جنوب مدينة أورفييتو.

(2) أعني أن چلليني كان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثة وعشرين عاماً.

المواطن الإسباني. وقد أثقلتها بالزخارف والنقوش كما يقضي به الذوق السائد في ذلك الوقت. وما حصل بعدها أن تلميذاً لـ(رافائيل) يدعى (جيانفرانشسكو)[1] ويلقب عادة بـ(إل فاتوري Il Fatiore) وكان رساماً مُجيداً تعرّف بي فوقعت في نفسه موقعاً حسناً وشملني بعطفه وكان صديقاً حميماً لـ(مزكاتي) أسقف (سلامانكا) هذا[2] وبفضل ذلك كلفت بإشغال عديدة من قبل أعيان المدينة ووجهائها فزاد الله في رزقي وربحت مالاً كثيراً.

في تلك الأيام كنت معتاداً الذهاب للرسم أحياناً في كابللا ميكالنجلو وأحياناً في منزل (أغسطينو كيجي Agostino chigi) السييني[3] حيث كان ثمّة مجموعة كبيرة من اللوحات والصور الجميلة من ريشة الرسام العظيم (رافائيل الأوربيني). كنت أختلف إلى المنزل في أيام الأعياد فحسب لأن (جيزموندو Gismondo) شقيق (اكستينو) كان يسكن فيه. وكان أصحاب المنزل يتباهون ويفخرون حينما يشاهدون شباباً من أمثالي يقصدون منزلهم للدراسة.

وفي ذات يوم دنت مني زوجة السيد جيزموندو التي كانت قد رأتني أختلف إلى المنزل كثيراً. وأخذت تتأمل رسومي ثم سألتني أنحاتٌ أنا أم رسّام وكانت سيدة في غاية الجمال والظرف ولما قلت لها إني صائغ أجابت أن يدي يد رسام أكثر منها يد صائغ.

ثم أمرت واحدة من وصيفاتها بجلب حلية ذهبية على شكل زنبقة جميلة مكفتة بألماسات فعرضتها عليّ وطلبت مني تقويمها فقدّرتها بثمانمائة كراون. فقالت هذا سعرها بالضبط ثم سألتني عما إذا كنت أجد في نفسي المهارة الكافية لإعادة تكفيت الألماسات بحلية جميلة حقاً. فقلت إن ذلك ليسعدني. وشرعتُ وهي واقفة أرسمُ

---

(1) جيانفرانشسكو بني (1496 ـ 1536) رسام فلورنسي وتلميذ رافائيل المفضل ووارث جزء من تركته. اجتهد هو و(كوبليو رومانو) في إكمال بعض صور رافائيل التي تركها ناقصة. أنظر سيرته في (فاساري ج: 4).

(2) هو فرانشسكو بوبادللا قدم روما في 1517 للمشاركة في مجمع اللاتيران. وكان مع البابا كليمنت السابع في حصن سان أنجلو أثناء حصار 1527.

(3) وهي كابللا سسثيني المشهورة. أما منزل (كيجي) فقد تم بناؤه في حدود 1501 وفق تصاميم وضعها (بيروزي). وبعد العام (1580) عرف القصر بإسم ڤيلاّ فارنسينا Villa Farnesina .

مخططاً للحلية صغيراً وقد ركبني الزهو من فرط إستمتاعي بالحديث مع مثل هذه السيدة البارعة الجمال والعالية الخلق. بعد أن فرغت من الرسم إنضمت إلينا سيدة رومانية أخرى في غاية الملاحة. نزلت من الطابق الثاني وسألت (المادونا بورشيا) عمّا يشغلها[1] فأجابت وهي تبتسم:

- إني أستمتع بمتابعة هذا الشاب المهذّب وهو يرسم. إنه حسن الخلق قدر ما هو وسيم.

عادت اليّ الجرأة فجأة ومع أنها كانت مشوبة بشيء من التواضع الحقيقي فقد كسا وجهي إحمرارٌ وقلت:

- كيفما أنا ياسيدتي، فسأبقى دوماً رهن إشارتك بل وأكثر من متلهف لخدمتك.

فكسا وجه السيدة الفاضلة إحمرار الخجل بدورها وقالت:

- بالتأكيد إني أرغب في ذلك.

ثم دفعت اليّ بالزنبقة وأشارت بأن آخذها معي ثم نقدتني من جيبها عشرين كراوناً وأردفت تقول:

- صغ الحلية وفق التصميم الذي رسمته واحتفظ لي بالذهب القديم الذي ينتظم الألماسات.

فتدخلت هنا السيدة الأخرى بقولها:

- لو كانت رجلاي في حذاء هذا الفتى، فلن أتردد في أن أعدو فارّاً بهذه الغنيمة.

فردت (المادونا بورشيا) قائلة إن الفضائل يندر أن تجتمع بالرذائل في شخص واحدٍ وإن أقدمتُ على مثل هذا العمل سيكون مناقضاً تماماً لوجهي الوسيم ومظهري الموحي بالأمانة. ثم دارت على عقبيها وقد أمسكت بيد السيدة الأخرى وقالت وهي تبسم بعذوبة:

(1) إن زوج جيزموندو كيجي تدعى سوليشيا Sulpizia وهي شقيقة بورشيا (أنظر باكي ص39) والقصر في الواقع يعد آية من آيات الرينسانس المعماري. واللوحة التي يشير إليها چلليني هي لرافائيل رسمها في 1517 في سقف القاعة الأولى.

ـ مع السلامة يا بنفنوتو!

قضيت جانباً من الوقت في الرسم الذي كنت أعمله منقولاً عن صورة (جوبتر) في لوحة رافائيل الأوربيني[1] وبعد فراغي عدتُ لأصنع نموذجاً شمعياً صغيراً للحلية المقترحة لكي تكوّن السيدة فكرة حقيقية عما ستبدو به عند الفراغ منها وأخذته إليها وكانت السيدة الأخرى موجودة وقد سر كلتاهما بما عرضت ومدحتاني إلى الحدّ الذي بثّ في نفسي الجرأة على التعهد بأن تكون الحلية أجمل من نموذجها ضعفين.

شرعت في صياغتها. وبعد إثني عشر يوماً أكملتها وكانت كما ذكرتُ قبلاً على شكل زنبقة زينتها بصور أوجه وملائك صغيرة وحيوانات كلها مطعمة بالميناء لتبدو الأحجار الألماسية التي تؤلف الزهرة بأبهى مظهر من جمالها.

أظهر (لوكانيولو) الصائغ القدير الذي تحدثت من قبل عن براعته ـ الإستخفاف بعملي أثناء قيامي بصياغة الحلية، وقال إن هذا مضيعة للوقت وظلّ يردد على مسامعي بأني سأجني شهرة وربحاً يزيدان كثيراً عما أجنيه الآن لو إني واصلت معاونته في صياغة مزهرياته الكبيرة كما كنت أفعل سابقاً. فكان جوابي على هذا قولي إني قادر على الصياغة في هذا المجال عندما أشعر برغبة في مزاولته. إلاّ أن ما أشتغله الآن لا يتأتى للمرء كلّ يوم. ومهما يكن من أمرٍ فالشهرة التي تتأتى منها لا تقل عن الشهرة المتأتية من عمل مزهرياته الفضية الكبيرة. بل وإن ربحها أكثر بكثير. ووجد (لوكانيولو) ما اقوله سخيفاً ومدعاة للضحك وقال:

ـ ستدرك الحقيقة يا بنفنوتو. ذلك لأننا بدأنا العمل في وقت واحد أنت بالحلية وأنا بالمزهرية. وسأتعجل في عملي به حتى نفرغ منهما في وقتٍ واحدٍ وعندئذ سيتضح لنا النتيجة من مقدار ما سأحصل عليه من مزهريتي، ومن مقدار ما ستكسبه من حليتك.

فأجبت إن المباراة مع صائغ قدير مثله تورثني أعظم السرور وسنرى أينا المصيب في آخر الشوط.

---

(1) يبدو هذا الوجه الآن في تلك اللوحة التي تمثل (كيوبيد وبسايكي) في القصر نفسه.

وتبادلنا إبتسامة إستخفاف وانكب كل منّا إلى عمله بإصرار ومثابرة. ولم تمرّ عشرة أيام قضيناها متحرقين مشتاقين إلى الخاتمة كما تسري الحمى المحرقة في الجسم، إلاّ وأخرجنا قطعتين فنيتين في غاية الأناقة والجمال. كان ما أخرجته يد زميلي إناء كبير الحجم أوصى بصنعه البابا كليمنت ليوضع على مائدة طعامه لترمى فيه العظام وقشور الفاكهة والفضلات المتخلفة وهو للمظهر والزينة أكثر منه للحاجة. وقد زين بيدين جميلتين ودارت حوله صور صغيرة وكبيرة وزخارف نباتية مُتشابكة. كان عملاً رائعاً دقيقاً إنتزع منيّ إقراراً بأنه أجمل ماوقعت عليه عيني من نوعه. وخيّل لـ(لوكانيولو) بعد هذا الثناء أني إعترفت بخطئي ونزلت عن رأيي فقال:

ـ حليتك في نظري لا تقلّ جمالاً عن إنائي. إلاّ أننا لن نلبث أن نتبين الفرق بين الأثنين.

ثم حَمَل إناءه إلى البابا، فحاز رضاه التام وأمر أن تدفع له أتعابه في الحال مقدراً بحسب التعرفة المصطلح عليها في السوق. أما أنا فأخذت حليتي إلى المادونا (بورشيا) فذهلت حين وقعت أنظارها عليها وأكدت لي أن عملي فاق وعدي بمراحل. ثم أردفت تقول:

ـ أطلب ما تشاء من أجر. فما تستحق في إعتقادي كثيرٌ ولو منحتك قلعة لما كانت كافية. وعليك أن تطلب شيئاً لا أعجز عنه.

وإبتسمت وإستطردت تقول:

ـ على أي حال أطلب ما أستطيعه.

فأجبتها إن أفضل مكافأة عندي هي أن أرى كم هي راضية. ثم ابتسمتُ وانحنيتُ باحترام وقلت وأنا أهمّ بالإنصراف:

ـ حسبي هذا الجزاء.

فالتفتتْ إلى صاحبتها وقالت لها:

ـ أرأيت الآن أيّ نوع من الخلق رافق الفضائل التي حكمنا بأنها تكمن فيه؟ هذا الخلق لا يمت إلى الرذيلة في شيء.

لقد أدهشهما مسلكي حقاً. وأضافت مادونا بورشيا تقول:

ـ عزيزي (بنفنوتو) أسبقَ لك أن سمعت القول المأثور؟ عندما يتصدّق الفقير على الغني، يضحك إبليس؟!

فأجبت:

ـ مع هذا فقد واجه إبليس كثيراً من المتاعب وسوء الحظّ، وإني لأريد أن أراه يضحك هذه المرّة فحسب.

على أنها عقّبت على قولي وأنا أهمّ بالإنصراف أنها لا تعتزم هذه المرّة أن تعطف عليه.

عدت إلى الحانوت فوجدت (لوكانيولو) ومعه المبلغ الذي دفع له ثمن الإناء في صرّةٍ وما أن دخلت حتى ابتدرني بقوله:

ـ تعال هنا ودعنا نقارن ما دفع لك عن حليتك بما دفع لي عن إنائي.

فطلبتُ منه إبقاء نقوده حيث هي حتى يوم الغد قائلاً إن حليتي في إعتقادي هي بين أمثالها تعادل في الجمال إناءه بين إضرابه. ولذلك فأنا أتوقع أن لا أنال من الأجرة ما يقلّ عن أجرته.

في اليوم التالي أرسلت (مادونا بورشيا) واحداً من رؤساء خدّامها إلى حانوتي فدعاني إلى خارجه ووضع في يدي صرّة مفعمة بالمال. مصحوبة برسالة من سيدته فيها تقول إنها لا تقبل أن يضحك إبليس لنفسه. ومن بين الثناء المستطاب الجدير بمثل هذه السيدة قالت إن ما أرسلته لي لا يوازي الأجر الذي أستحقه بل يسوى أكثر. ومرت الدقائق كالدهر على (لوكانيولو) قبل أن يغدو وفي وسعه مقارنة مكسبي بمكسبه. وإندفع إلى داخل الحانوت حيث إجتمع أكثر من عشرة من الجيران والشغيلة بداعي الشوق إلى نتيجة الرهان ورفع صرته وهو يضحك ضحكة الهازئ ويصيح «بخ، بخ، بخ» ثلاثاً أو أربعاً. ثم أخرج النقود وأنشأ يقلبها ظهراً لبطن وأسقطها على المنضدة برنين وضوضاء. وقد بلغ مجموعها خمسة وعشرين كويليو Guilio، ظانا بأن ما حصلت عليه لا يتعدى أربعة أو خمسة كراونات كبيرة[1].

---

(1) يطلق على العملة الرائجة إصطلاح di Maneto وهو المقصود هنا.

وببرودة دم لم تؤثر فيها صيحاته أو إبتسامات المتفرجين وأنظارهم الحديدة. إختلست نظرة إلى محتويات صرتي فوجدتها تغصّ بالنقد الذهبيّ. فسرتُ الهوينا إلى المنضدة ونظري مصوّب إلى الأرض ثم رفعت صرتي بكل هدوء وتركت قطع الذهب تتساقط على المنضدة كما ينسكب الدقيق من فم الطاحونة. وأحصى المبلغ فإذا به ضعف ما نال (لوكانيولو) وبنتيجة هذا تحولت كلّ الأنظار التي كانت ترمقني بإستخفاف إلى (لوكانيولو) حالاً. وراح الجميع يقولون:

- لقد دفع أجر (بنفنوتو) بالذهب. وهي تعادل ضعف ما تقاضيته من أجور. يا لمنظرها المهيب الذي يفوق منظر نقودك!

خيّل لي أن صاحبي المسكين سيسقط ميتاً من فرط الخجل والغيرة. في الواقع أن ثلث أجري هذا، هو له بحكم وجودي في حانوته فالعادة جرت أن ينال الصائغ ثلثي الأجر ويذهب الباقي إلى صاحب الحانوت. إلاّ أن حسده المحرق تغلّب على طمعه في حين كان منطق الأمور يقضي بعكس ذلك، إذا أدخلنا في حسابنا أن (لوكانيولو) هو ابن لفلاّح من (ييزي) ليس إلاّ. راح يلعن صنعته ويشتم الناس الذين لقنوها له. قائلاً إنه سيكفّ بعد اليوم عن صنع هذه الصحاف الكبيرة وسينصرف بكلّيته إلى عمل هذه التوافه القذرة الصغيرة التي أقوم أنا بصنعها ما دام ربحها كثيراً بهذا الشكل. ولم يكن غضبي من كلامه بأقل منه فرددت عليه بقولي: كل طائرٍ يصدح بأنغامه الخاصّة. وكلامه إنما يدل على منبته الوضيع. وتحديته مؤكداً بأني قادر على تحقيق أعظم النجاح في صنع توافهه الفاجرة التي تخصص فيها في حين يتعذر عليه مجاراتي أو بلوغ مهارتي في صنع توافهي الفاجرة الدقيقة. قلت هذا ودرت على عقبي غاضباً ومتوعداً إياه بما سيرى مني في القريب العاجل وأنشأ الحاضرون ينحون عليه باللوم ويرمونه بالتقصير في حقي وبأنه لا يسوى شروى نقير في حين أثنوا عليّ لأني برهنت على إني الرجل الجدير بالإعتماد.

توجهت إلى زيارة (مادونا بورشيا)[1] في يوم التالي لشكرها. وقلت لها إنها

---

(1) كان زوج هذه السيدة مصرفياً شهيراً لا في إيطاليا وحدها بل في أوروبا والشرق. فضلاً عن كونه من هواة الفنّ المتحمسين وقصره هذا الذي بُني بتصميم وإشراف بيروزي (1508 ـ 1511). كان متجعاً للباباوات والكرادلة.

فعلت بعكس قول المثل. فحين أردت أنا إضحاك إبليس، جعلته هي ينكر ربه ثانية. وضحكنا سوية بنفس راضية. ثم إنها عهدت اليّ بالمزيد من العمل في صياغة حلي جميلة لها.

في عين الوقت تمكنت عن طريق تلاميذ (رفائيل) من حمل أسقف (سلامانكا) على تكليفي بطست كبير للماء وهو من النوع الذي يطلق عليه (اكويريجيا Acquereccia) ويستعمل كحلية لخزانة أدوات المائدة. ورسم الأسقف أن يصنع له أثنان بحجم واحد وعهد بالثاني إلى (لوكانيولو) واليّ بالأول. وقد زوّدنا بالتصميم الرسام (جيانفرانشسكو) الذي نوهت بذكره.

تكرّم عليّ مواطن ميلانيّ يدعى (جيوڤان بييرو تاكّا Giovan Piero Tacca) بزاوية في حانوته. وباشرت العمل في الطست ببالغ الحماسة. قمت بحساب لنقودي فأخرجت منها ما يكفي لسدّ حاجاتي وأرسلت الباقي مساعدةً مني لأبي المسكين في فلورنسا.

وتشاء الصدف أنه التقى وهو يتسلمها بواحد من أولئك المجانين أعضاء مجلس الثمانية عندما أثرتُ تلك الزوبعة الصغيرة. وهو عين الرجل الذي أهان الوالد وجرح شعوره وأقسم أنه سيصر على إرسالي إلى ساحة الإعدام. وكان أباً لأولاد لا نفع يرجى منهم ولهذا قال له الوالد ملمّحاً بما يقرب من التصريح:

ـ البشر معرّض دائماً للسقطات ولا سيما للسريعي الغضب الذين هم على حق كإبني. إلاّ أن حياته منذ ذلك الوقت برهنت على أني أحسنت تربيته. وإني لادعو الله لأجلك، ليكون سلوك أبنائك تجاهك لا أسوأ ولا أفضل من سلوك أبنائي معي. لقد علمني الله كيف أربيهم وأنقذهم من يدك الغاشمة من حيث لم تتوقع ذلك وحفظهم لي بعد أن خانتني قواي.

وبعد أن تركه كتب لي يخبرني بكلّ ما وقع له، واستحلفني بحبّ الله أن أُمارس قليلاً من الموسيقى بين آن وآخر كيلا أُضيع هذا الفن الرفيع الذي عانى الأمرّين في تلقينه لي. وكانت رسالته حافلة بعبارات رقيقة للغاية يُعرب فيها عن حُبّه الأبوي حتى أن عينيّ إخضلّتا بالدموع وصممت على أن أُسعده فيما يتعلق بالموسيقى قبل أن

يحين أجله. والله لا يتوانى عن تحقيق الرغبات النبيلة للبشر حين تطلب منه بإيمانٍ راسخ وإخلاص.

لم يكن معي أثناء إشتغالي بطست (سلامانكا) الجميل غير صبيٍّ مساعدٍ. إتخذته خِلفةً نزولاً عند إلحاح بعض الأصدقاء، وخلافاً لرغبتي وكان يدعى (باولينو Paulino) لايتجاوز عمره الرابعة عشرة. وهو ابن رجل من أهالي (روما) يعيش على مدخولاته الخاصة. كان (باولينو) هذا يتمتع بأعلى خلق، وبإستقامة لانظير لها، وصورته في غاية الوسامة مما لم اقع على مثيل له من قبل. إن دماثته وحسن تربيته، وجمال صورته وحبّه الشديد لي، دفعني إلى التعلق به إلى درجة صعب عليّ إحتمالها. أحببته حُبّاً جنونياً بحيث وجدتني مدفوعاً إلى مزاولة الموسيقى مجدداً لأجله فقد كان ذلك يسعده ولكي أتمتع بالتأمل في قسمات وجهه وهي في العادة حزينة صارمة. فما أن يصدح الناي بأنغامي حتى يشيع البشر في وجهه وتنفرج قسماته عن إبتسامة خلاّبة عذبة. فلا أعود أستغرب الأساطير السخيفة التي كتبها الأغريق عن آلهتهم. والواقع لو أن (باولينو) ظلّ في قيد الحياة اليوم لأوحى بالمزيد والعجيب من أمثالها.

كان له شقيقة تدعى (فاوستينا Faustina) لا أظنّ (فاوستينا)[1] الأقدمين التي نقرأ عنها في كتبهم بكثير من الضجّة، تفوقها جمالاً. وكنت معتاداً زيارة بستان كرومهم بين آن وآخر ومما إستنتجت أن أباها وهو رجل فاضل في غاية النبل ما كان يتردد في أن أكون خَتَنَهُ. كل هذا جعلني أزاول الموسيقى أكثر من أي وقتٍ مضى خلافاً للعادة.

في ذلك الحين إتصل بي شخص يدعى (جياناكومو Gionia Como) وهو عازف ناي من مواطني (جيزينا)[2] في خدمة البابا وكان موسيقياً بارعاً، أرسل لي رسالة بطريق (لورنزو) البوقيّ من (لوكّا) الذي هو الآن في خدمة دوق فلورنسا، يسألني

(1) فلافيا ماكسيما فاوستا (حدود 298 ـ 326م) إمبراطورة رومانية زوج قسطنطين الأول لم تكن قويمة الخلق أو عفيفة. وقد حُكم عليها بالموت. وتمّ بتنفيذه خنقاً في حوض ماء حار. (هذا إن لم يكن قصد الكاتب إمرأة أخرى غيرها).

(2) Cesena هي الآن بليدة تقع على مسافة مائة وعشرين كيلومتراً شمال شرق فلورنسا.

عما إذا كنت مستعداً لمساعدتهم في العزف بمناسبة عيد الفيراكوستو Ferragosto[1] لبعض الأدوار الدينية من الموتيت Motet[2] الجميلة جداً مما اختاروه ـ على أن أتولى النفخ بطبقة الصَيّاح[3] في زرنايَ. فأبديت كامل استعدادي للإنضمام إليهم مع أني كنت أتحرق شوقاً للفراغ من طست الأسقف. فالموسيقى فن رائع على أية حال وإني لأرغب كذلك في مسرّة الوالد. وقضينا ثمانية أيام في التمرين معاً قبل حلول العيد، كل يوم مقدار ساعتين. وفي اليوم المعين توجهنا إلى (بلفديري Belvedere)[4] ورحنا نعزف أدوار الموتيت التي كنا قد تمرنّا عليها ـ أثناء ما كان البابا كليمنت يتناول الغداء. وقد أتقنا الأداء بشكل دفع قداسته إلى الإقرار بأنه لم يسمع قط أداة موسيقياً بمثل هذه البراعة والتناسق بين الآلات. ثم استدعى (جيانا كومو) إليه وسأله كيف وأين عثر على نافخ حاذق بالزرناي مثلي واستفسر منه عن هوّيتي فأفضى إليه جياناكومو بكامل اسمي. فقال البابا مستغرباً:

ـ إذن فهو ابن الأستاذ جيوڤاني؟

فأجاب (جياناكومو) بالإيجاب فأبدى البابا رغبته في أن انضمّ إلى الجوق. فأجاب (جياناكومو) على هذا بقوله:

ـ بهذا لا أستطيع أن أعدك يا صاحب القداسة. لأن حرفته ومورد رزقه هو الصياغة وهي تستغرق منه كل وقته. وأضيف إلى هذا أنه صائغ من الدرجة الأولى وربحه من صنعته يزيد كثيراً عما قد يكسب من مزاولة الموسيقى.

ـ وإني لهذه الصنعة التي لم أكن أتوقعها أزداد رغبةً في ضمّه إلى خدمتي. أدفع له عين الأجر الذي يدفع للبقية. وقل له عنّي أني مستخدمه وسأكلفه في حرفته الأخرى ما يجعله مشغولاً طول وقته.

---

(1) والأصل فيراي أوكستا Feriae Augsta وهو من أعياد روما المعروفة ويقع في الأول من آب كل سنة. ولايُعدّ الآن من الأعياد الشعبية الهامة.

(2) قطعة غنائية تصاحبها الآلات الموسيقية وتُعزف أثناء القداس.

(3) أي اللحن العالي الرفيع ويطبق عليه إصطلاح Soprano.

(4) مقصورة الفاتيكان بنيت على عهد الباباوين أنوسنت الثامن ويوليوس الثاني (1484 ـ 153).

ثم دفع إليه بصرّة في منديل فيها مائة كراون ذهبي من سكة البابا الخاصّة وقال له:

- وزّعها بالتساوي لينال (بنفنوتو) حصةً كاملةً.

وانصرف (جيانا كومو) من لدنه وأقبل عليّ ينقل لي كلام قداسته عني. ثم قسّم المبلغ بين ثمانيتنا وأضاف وهو يسلمني أجري:

- سأثبت اسمك في عداد جوقنا.

فأجبته بقولي:

- فلنرجئ القضية الآن، وسأعلمك بقراري غداً.

وافترقنا، وسرت في سبيلي وأنا أقلّب الأمر منْ شتى وجوهه. هل أقبل أم أرفض. وصرت أفكر كم سيربكني الأمر لو أني أنصرفت عن دراساتي الفنية. وفي الليلة التالية ظهر لي الوالد في حلم: وكان يبكي بلوعةٍ ويتوسل بي أن أمضي في هذا السبيل الجديد حُبّا بالله وإكراماً له. وقد قلت له كما خيل لي ليس ثمة قوّة تحملني على ذلك. فتبدلت سحنته فجأة فامتلأتُ رُعباً وأنا أسمعه يقول:

- إن لم تطعني فإنك تعلم عواقب لعنة الأب وإن أطعت فإني سأصبّ بركاتي عليك صبّاً.

عندما إستيقظت من نومي استولى عليّ خوف شديد فأسرعت لإثبات إسمي في الجوق وكتبت للوالد الشيخ بذلك. واستطار فرحاً وصار يهذي واعتلّ حتى أشرف على الموت. وكتب لي بأنه هو الآخر حلم حلماً مشابهاً.

بعدما أرضيت الوالد الكريم بتحقيق ظنّه فيّ اعتقدت أن أموري ستسير من نجاح إلى نجاح وأني سأتوقّل سلّم المجد والشهرة. فإنكببت على عملي في إناء أسقف (سلامانكا) أصِل الليل بأطراف النهار. كان هذا الأسقف إنساناً عجيباً. فهو فاحش الغنى صعب الإرضاء جداً، دأب يوميّاً على إرسال شخصٍ للاستفسار عما أعمل. وفي إحدى المرّات لم يجدني رسوله فتفجّرت كوامن غيظه وحلف بأن يسحب العمل مني ويُنيطه بغيري لإكماله وكلّ ذلك هو بسبب الموسيقى لعنة الله عليها، فقد كنت أنفق أوقاتاً فيها.

على كلٌ ثابرت على العمل به ليلاً ونهاراً حتى بلغت به المرحلة التي تمكنني من إراءته له. فكانت النتيجة أن زاد شوقه إلى الإستعجال به وكثر إلحاحه حتى أني ندمت على عرضه. وبنهاية ثلاثة أشهر تمّ الإناء، وبدا رائعاً إذ صببت فيه كلّ مهارتي. حلّيته بنقوش عجيبة لصغار الحيوانات وأوراق النبات والأقنعة. ثم بعثت به فوراً صحبة غلامي (باولينو) إلى الصائغ الخبير (لوكانيولو). فأنهى إليه رسالتي الشفوية هذه برقّته وسحره:

ـ أي سيدي (لوكانيولو) إن أستاذي (بنفنوتو) يقول: كما وعدك في السابق، دونك نموذجاً من مكوّراتك وهو الآن ينتظر منك أن تريه بعضاً من قاذوراته الحقيرة التافهة.

أمسك (لوكانيولو) بالإناء وتأمله ملياً بنظر الفاحص الخبير ثم قال لباولينو:

ـ ولدي الظريف. قل لأستاذك بأنه صائغ حاذق بارع. وإني لأرجو ان لا يبخل عليّ بصداقته ولنتناسَ الذي حصل.

فأبلغني فتاي بالرسالة فأفرحتني جداً. وأخذت الإناء إلى (سلامانكا) فأمر بأن يقوّم وشارك (لوكانيولو) في التقدير ورفع ثمنه كثيراً وامتدحه بشكل قد أعجز أنا عن مثله. ثم تناول (سلامانكا) الإناء وقال مفصحاً عن طبعه الإسباني الغليظ:

ـ قسماً بالله لأؤخرنّ دفع أجره بقدر ما تأخر في صنعه.

لما سمعت قوله هذا غُمّ على عقلي ورحت ألعن كل إسبانيا وكل من ينتصر لهذه البلاد أو ينتمي إليها.

من البدع التي اخترعتها في الإناء مقبض يتألف من قطعة واحدة أكثرت زخرفته وجعلته يقف منتصباً بواسطة نابض (زنبرك) فوق الفوهة. وفي ذات يوم كان هذا الحبر يعرض الإناء على بعض النبلاء الإسبان مزهوّاً وبعد ان ترك الغرفة عبثت يد أحدهم بالمقبض الجميل النابض الرقيق ذلك عبثاً خشناً فإنكسر. ولما إطّلع الأسقف على التلف أمر رئيس خدمه بحمله إلى الأستاذ الذي صنعه لإصلاحه فوراً ودفع الأجر الذي يسميه الصانع إن لم يتعطل فيه. وهكذا وقع الإناء في يدي ثانية ووعدت بإصلاحه على الفور وأنجزته. كان قد جيء به قبل موعد الغداء. وقبل المغرب

بساعتين دخل عليّ الرسول وهو يلعن ويصخب قائلاً إن (سلامانكا) لم يدعه في راحة وقد قطع المسافة اليّ ركضاً وتصبب عرقاً فالأسقف يريد أن يريه لبعض السادة. ولم يدعني الرسول أنطق بكلمة واحدة وكان يصيح بي ملحفاً:

ـ أسرع! أسرع! عجلّ عليّ بالإناء.

وأنا الذي كنت قد قررت إهتبال فرصتي ولم يكن لديّ رغبة في تسليمه له. قلت إني غير مستعجل. فضاقت نفس رئيس الخدم واشتدّ غضبه وأتى حركة كمن يهمّ بتجريد سيفه بواحدة من يديه، وشق طريقه إلى داخل الحانوت عنوةً بيده الأخرى فأسرعت إلى إعتراض سبيله وسددت سلاحي إليه وصحت به صيحة شديدة:

ـ لن أدعه يخرج من يدي. أذهب فقل لسيّدك الحبر أن يدفع لي أجري المستحق وإلاّ فإنه لن يراه.

وتبيّن له إن تهديده لا جدوى فيه فلجأ إلى الملاينة وأخذ يتوسل بي وكأنه يتضرع تحت قدميّ الصليب ويبذل الوعود مؤكداً إنه سيتعقب بنفسه مسألة تسديد أجوري لو اني سلمته الإناء الآن. إلا أنه لم يزحزحني عن موقفي. وظللت أردد ما قلته سابقاً بأني سأعيده عندما أتسلّم أجوري كاملةً. أخيراً يئس مني وأقسم بأنه سيعود على رأس ما يكفي من الاسبان لتقطيعي إرباً. ثم أسرع يعدو وتركني وأنا مصمم على الدفاع حتى الرمق الأخير. ذلك لأني كنت مصدقاً ما سمعته عن الروح الإعتدائية والطبيعة الفتاكة التي أُثرت عنهم. فحشوت طبنجة صغيرة ممتازة كنت أصطاد بها وقلت لنفسي:

ـ لقد سرقني ملكي وأتعابي وسأبيع منه حياتي أيضاً.

وفيما كنت على هذه الحال من القلق ظهر على المرسح أسبان جبناء يقودهم ضابط أمرهم بصلافة إسبانية أصيلة أن يقتحموا الدكان ويستولوا على الإناء ويوسعوني ضرباً. عندما سمعت هذا شهرت سلاحي الناري وصحت بهم:

ـ الويل لكم أيها اللؤماء الفجرة. أبهذا الشكل إذن تنهبون الدكاكين والمنازل في مدينة مثل روما؟ أي لصّ منكم يهمّ بالتحرك نحو هذا الباب سأرديه قتيلاً.

ثم سددت فوهة سلاحي إلى صدر الضابط كأني أهمّ بإطلاق النار وأضفت:

ـ وأما أنت يا رئيس الحرامية. فستكون أول ضحية.

فما كان منه إلاّ وأعمل مهمازيه في خاصرة حصانه. وفرّ هارباً لا يلوي. وخرج كلّ الجيران على الضجّة فضلاً عن بعض السادة من عابري السبيل واجتمعوا يتنخي بعضهم بعضاً قائلين لي:

ـ أقتل الفجرة اللئام ونحن ظهيرٌ لك.

وأحدثت اللهجة الحماسية المخلصة التي شاعت في هذه العبارة أثرها في الأسبان فامتلكهم رعبٌ عظيم ولم يسعهم إلاّ الإنسحاب. وبناء على ما وقع لم يكن ثمة بدّ من أن يقصوا على الأسقف الحكاية. وكان رجلاً سريع الغضب فإنهال على الخدم والجنود تأنيباً وتقريعاً أولاً لمحاولتهم إرتكاب مثل هذا الإعتداء. وثانياً لأنهم بعد أن أقدموا عليه لم يمضوا فيه حتى النهاية.

ثم وصل الرسام الذي كان وسيطاً في العمل وقد طلب منه الأسقف أن يقصدني ويبلغني عنه هذه الرسالة: إن لم أسلم الإناء فسيجعل مني أشلاء وأوصالاً أكبرها أذني. وإن جئته به فسينقدني أجري في الحال. إلاّ أن هذا التهديد لم يرهبني ولم يحرك شعرة في رأسي وأفهمت الرسول بأني سأعرض الأمر على البابا دون تردد.

في النهاية تلاشى غضبه وزال خوفي. وقطع لي بعض النبلاء في روما عنه عهداً بأنه سيدفع أجري ولن يُلحق بي أي أذىً. فتسلحت بخنجرٍ ماضٍ وارتديت زردي وأخذت سمتي إلى قصر الأسقف.

دخلت يتبعني (باولينو) حاملاً الإناء الفضيّ فوجدت كل من في القصر قد تجمعوا وهم في الإنتظار. دخلت وكأني أمرّ خلال دائرة البروج السماوية. أحدهم بدا كالأسد، والآخر كالعقرب وثالث كالسرطان وهكذا إلى أن وجدتني أواجه الكاهن الوغد ذاك، فأنشأ يقذف بصاقاً من الشتائم كالسيل الدافق مما يُنتظر من أي كاهن إسباني. إلاّ أني كنت أحدق في الأرض وأبيت أن أنطق بكلمة. الأمر الذي زاده هياجاً وانفعالاً. ثم أمر بأن يؤتى بأدوات الكتابة وأشار بأن أكتب بخط يدي مايفيد إني راضٍ تماماً بالأجور المدفوعة لي. وهنا رفعتُ رأسي وقلت: بكلّ طيبة خاطر سأكتب ذلك عندما أرى شكل نقوده. فغلت مراجل غيظه ونفرت الدماء من وجهه. وانثالت

التهديدات والمناورات بلا نهاية. على أني استوفيت أجري وكتبت إقراراً بذلك وخرجت راضياً مغتبطاً.

بعد هذا أبلغ البابا بالحكاية. وكان قد رأى الإناء قبلاً دون أن يذكروا له هوية صانعه. دُهش ورفعني بمدحه والثناء عليّ إلى السماء وصرّح علناً بأنه يكنّ لي وداً خاصاً. وبنتيجة ذلك أدرك أسقف (سلامانكا) الأسف على ما بدر منه تجاهي وحاول المصالحة بواسطة الرسام نفسه وإعادة علاقاتنا كالسابق ووعد بتكليفي بأشغال هامة له. فأجبت أنه ليسرّني سماع هذا القول لكن شريطة أن يكون الدفع مقدّماً. ووصل هذا الحديث أيضاً إلى أسماع البابا وجعله يضجّ مقهقهاً.

وحدّث الكردينال (جيبو Cibo)[1] الذي كان عنده في تلك المناسبة بحكاية الشجار مع الأسقف. ثم إلتفت إلى أحد موظفيه وطلب منه أن يعهد إليّ بأشغالٍ للبلاط بإستمرار. وبعث الكردينال (جيبو) في طلبي فتبادلنا الطلي الشيق من الأحاديث وفي الختام عهد اليّ بصنع إناء كبير له يفوق حجماً ذاك الذي صنعته للأسقف. كما كلفني الكردينال (كورنارو Cornaro)[2] بعمل إناء آخر مثله وتبعهما عدد كبير آخر من الكرادلة أخصّ بالذكر منهم الكردينالين (ريدولفي Ridolfi) و(سالفياتي)[3] فقد عهد اليّ بأعمال. وجنيتُ من ذلك أرباحاً كثيرة.

نصحتني (مادونا بورشيا) التي أسلفت ذكرها بإتخاذ دكان مستقلّ. فعملتُ باقتراحها. ولم أتقاعس قطّ عن خدمة هذه السيدة الكريمة الرفيعة الخصال فكانت تجزل لي العطاء. في الواقع إني على أغلب تقدير مدين لها بذيوع صيتي وإشتهار أمري. وفي تلك الفترة تعرفت بالسينور (كابريللي جيزيرينو Gabriele Ceaserino) كونفالونير (روما)[4] ونمت بيننا صداقة حميمة. فصنعت له تحفاً كثيرة، من أبرزها

---

(1) نوه چلليني بهذا الإناء وإناء سلامانكا في رسالته. وجيبو هو ابن أخ لليون العاشر.

(2) هو ابن أخ ملكة قبرص. توفي في البندقية إذ لجأ إليها هرباً من الطاعون.

(3) كلاهما من أبناء إخوة البابا ليون العاشر.

(4) كونفالونير لقب حاكم روما. وربما كانت هذه الميدالية هي عين الميدالية المحفوظة في متحف فينا (أنظر بلون، ص140).

ميدالية كبيرة من الذهب تُبّت في مقدمة القبعة. نُقشت عليها صورة (ليدا Leda)[1] وبجعتها. وكان إغتباطه بها يفوق الحدود وأصرّ على أن تُقوّم لئلا يغمط حقي ولا أنال الأجر الذي أستحقه. وبسبب دقة صنعتها غالى أرباب الصنعة في تقدير قيمتها بحيث فاق ما توقعته بمراحل. فبقيت في يدي ولم أحصل على شيء لقاء أتعابي. وعانت عين المصير الذي عاناه إناء (سلامانكا) على أني لن أتطرق إلى هذه الحكايات لئلا تأخذ الحيز الذي خصصته للأهم.

ومع أن ما أنا في سبيله قد يعتبر شذوذاً عن الحرفة التي إمتهنتها. فأنا أريد أن أكتب حول كل ناحية من نواحي حياتي. ولذلك عليّ أن أرسم بإيجاز وإقتضاب صوراً للقارئ لحوادث أخرى من حياتي دون الدخول في التفاصيل. الحاصل في صبيحة عيد القديس يوحّنا[2] كنت أتناول طعام الغداء مع عدد كبير من أهل بلدي منهم الرّسام والنحّات والصائغ وغيرهم من مختلف الصناعات الأخرى. وكان بين البارزين فيهم الرّسام روسو[3] وجيانفرانشسكو تلميذ رافائيل الأوربيني عملت على جمع سائرهم من غير دعوة رسميّة ورحنا نلهو ونمزح فيما بيننا جرياً على عادة الناس في مثل هذه الأعياد الكبيرة. وإتفق أن مَرّ بنا وسط هذا الإحتفال جندي خفيف العقل أبله من كتيبة (رينزو دا جيري Rienzo da Ceri)[4] فدنا مِنّا يتسمع إلى لهونا وأخذ يسخر مِنّا ويصبّ الشتائم على الفلورنسيين. ولما كنت صاحب الدعوة وهؤلاء السادة الموقرون ضيوف عندي فقد عددت الإهانة موجهة إليّ شخصيّاً. فخرجت بخفة ومن دون أن يلحظني أحد ثم اعترضت سبيله. وكان يقف إلى جانبه بَغيّ وهو ماضٍ في سخره السمج بقصد إضحاكها. قصدته رأساً وسألته عما إذا كان هو ذلك الفتى الذي يجد في نفسه الجرأة الكافية لسبّ الفلورنسيين؟ فأجاب في الحال:

---

(1) في أساطير الإغريق هي زوج تياندر ملك سبارطة، تعلق بها جوبتر الذي جاءها على هيئة بجعة فولدت له كاستور وبوللوس وهيلين وكليمنسترا.

(2) أهم أعياد فلورنسا. لأن هذا القديس هو شفيع المدينة.

(3) جيوڤاني باتستا دي أياكوبو دي روسّي (1494 ـ 1549) ولد في فلورنسا، وكلّفه فرنسوا الأول ملك فرنسا بزخرفة قصر فونتنبلو.

(4) واحد من رجال الحرب المغامرين المشهورين المرتزقة. وكان في ذلك الزمن قد باع خدماته من الفرنسيين.

- أنا هو ذاك الرجل.

فرفعت يدي وأهويت على وجهه بلطمة وأنا أقول:

- إذن فأنا هذا الرجل!

وبلمحة عين كان سيف كل مِنّا في يده. وما كدنا نبدأ نزالنا حتى فرق الناس ما بيننا وكلهم منحاز إلى جانبي. فقد رأوا بأم أعينهم أني صاحب الحق.

في اليوم التالي جاءتني منه دعوة للبراز. فتقبلتها بكلّ شوق قائلاً إنه لعمل أستطيع أن أنفض منه يدي بوقت أسرع بكثير من إنجاز أي عملٍ آخر يمتّ إلى حرفتي المعتادة. وقصدت لتويّ رجلاً متقدماً في العمر عالي الخلق يدعى (بيفيلاكوا Bevilacqua) أُثر عنه أنّه كان أبرع حملة السيف في إيطاليا. خاض أكثر من عشرين معركة في زمانه وخرج منها جميعاً مرفوع الرأس. هذا الرجل القويم الخلق كان من أخلص أصدقائي. وقد عرفني صائغاً إلاّ أنه كان يقوم بدور الوسيط في بعض المخاصمات العنيفة التي وقعت لي.

ما إن وقع نظره عليّ حتى هتف قائلاً:

- أي بنفنوتو العزيز لو وجب عليك أن تبارز (مارس) نفسه لما شككتُ بأنك ستخرج من النزال مشرّفاً. عرفتك منذ سنين عدة فما وجدتك تختصم على الباطل.

واتخذته شاهداً وانطلقنا إلى الموضع المتفق عليه وكلانا مسلّح. ولكن لم تُرق قطرة دمٍ فقد أقبل خصمي وأعلن انسحابه وخرجت بشكل مشرف. ولن أخوض في مزيد من هذه التفاصيل رغم طرافتها وغرابتها بين أمثالها لأني أريد أن أقتصد في جهدي حتى أخصّ به فنّي؛ فهو السبب الذي يدفعني الآن للكتابة. وفي هذا المجال لديّ الكثير الجدير بالحديث.

دفعتني روح المنافسة الشريفة في صنع شيء أضاهي به بل أتفوق حتى على ذلك الصائغ البارع (لوكانيولو)، على ألاّ أترك في الوقت نفسه مزاولة فن الجوهرية العجيب الذي تخصصت فيه. فأصبت في كلا الإتجاهين المال الكثير والشهرة التي هي أهم من الربح. وكنت أعتمد على خيالي في التصميم غير مقلدٍ أحداً.

في ذلك الزمن كان في روما مواطن بيروجي[1] يُعرف بإسم (لاوتيزيو Lautizio) تخصص في فرع من الفن لايضارعه فيه أحد في الدنيا هو صنع الأختام. والعادة جرت في روما أن يكون لكلّ كردينال ختم خاص يُنقش عليه اسمه وشعاره بحجم كف غلام في الثانية عشرة مع بعض التهاويل والصور إضافةً إلى شعاره كما أسلفتُ. والختم الجيد يسوي عادة مائة كراون وأكثر. وعاودتني حمّى المنافسة الشريفة لتدفعني إلى مباراة هذا الفنان. وإن كانت الصنعة بعيدة كل البعد عن عالم الصياغة و(لاوتيزيو) هذا لم يكن يعرف فرعاً آخر من الفن غير حفر الأختام. بدأت أتمرن على الحفر وكان يكلفني جهداً ومشقة عظيمتين إلاّ إني لم أكلّ بل مضيت قدماً ولم أقتصد في مجهودي، بحثا عن المعرفة وإستجلاباً للربح.

وكان في روما أيضاً فنان آخر من (ميلان) حاذق من الدرجة الأولى يدعى كارادسو Caradosso[2] متخصص في الميداليات، يحفرها بالمِنقَر على رقائق معدنية وغير ذلك مما يجري مجراه وكان يصنع الباكسات Paxes[3] بحفر نصف بارز وصوراً للسيد المسيح بطول اليد، يقطعها من رقائق الذهب الابريز يصنعها بمهارة فائقة جعلتني أسلّم له بالأستاذية في هذا الفن من دون قريع أو منازع. وكنت أشدّ شوقاً إلى منافسته من أي فنان آخر. وكان ثمّة أيضاً أساتذة في صنع ميداليات من الفولاذ وهذه هي مجرد تجارب ودليل صحيح يقود إلى مزاولة صناعة سكّ النقود. وقد صممتُ على أن أضرب بسهمٍ في كل هذه الفنون.

يأتي أخيراً فن الطلاء الرائع بالميناء! وفي هذا المجال لم أجد أحداً يبرز فيه على مواطن فلورنسي يدعى (أمريكو Amerigo). لم أتعرف إلى هذا الرجل قطّ. إلاّ أني كنت على معرفة تامة بعمله الممتاز. ولم أرَ في أي بقعة من بقاع الأرض عمل أي إنسان يداني كمال عمله إلاّ بمراحل طويلة. إن الطلاء بالميناء هو عملية شاقة للغاية.

---

(1) بيروجيا: مدينة معروفة تقع في نصف الطريق بين روما وفلورنسا إلى الشرق.

(2) صانع مداليات شهير يعرف عادة بإسم (أمبروجوفويا) وبخصوص حكاية چلليني عن لقبه ورأيه فيه. راجع رسالته في الصياغة (ص17 و45 و51).

(3) رقائق معدنية صغيرة تنقش عليها صور القديسين والذخائر المقدسة تعلق كإيقونات في بيوت العبادة بإيطاليا ليلثمها المصلون.

إلا أني لم أهتم وحوّلت طاقاتي إليها لإتقان الصنعة. ومع المشقة التي كنت أتكبدها فقد كنت أشعر بلذة كبيرة وأعتبر ممارستي نوعاً من أنواع التسلية والترويح عن النفس. هذا الموقف منّي هو نتيجة الموهبة الخاصة التي حباني بها الله من مزاج صحي ورجاحة عقلٍ بحيث كان بإمكاني بلوغ إربي في كلّ ما خطر ببالي عمله.

هذه الفنون التي عددتها يختلف واحدها عن الآخر إختلافاً بيّناً ومن كان متقناً واحداً منها ثم تحول إلى آخر فلن ينجح قطّ في الوصول إلى مستوى الفنّ الذي هو متقنه. على أني جاهدت بكلّ ما في وسعي لأكون صانعاً قديراً في كلها. وفي الوقت المناسب سأثبت كيف حققت هذا النجاح.

في ذلك الوقت وأنا ما زلتُ شاباً في حدود الثالثة والعشرين. إنتشر في روما وباء الطاعون وصار يفتك بالناس فتكاً ذريعاً فكان يموت به عدة آلاف يومياً[1] فذعرتُ لهذا بعض الشيء. وبدأت أنشد إزالة ما بي من قلق بممارسة رياضةٍ وجدتها ممتعة للغاية. على أن هناك أسباباً لذلك سأخبر بها، وقد تمّ ذلك على النحو التالي: كنت في أيام الأعياد أجد رغبة عندي في الخروج وإرتياد مواقع الأنصاب والآثار القديمة واعتدت أن أستنسخ عنها. إما بعمل نماذج شمعيّة أو بالرسم على الورق. كانت تلك المواقع مجرد خرائب وأنقاض مهجورة عششت فيها أسراب من اليمام. فزيّن لي فكري أن أتصيد منها بسلاحي الناري لتكون لي طعاماً فأتجنب الإحتكاك بالناس مخافة العدوى. فكنت أحمّل بندقيتي عاتق (باولينو) وننطلق معاً إلى الخرائب. وياما أكثر المرّات التي عدنا ونحن محمّلان باليمام السمين. ما كنت أرغب في حشو بندقيتي بأكثر من بندقةٍ واحدة. ولذلك فإن صيدي الناجح كان نتيجة دقة تصويبي. كان لديّ بندقية مستقيمة من صنعي، صقيلة الداخل ومن الخارج تبرق كالمرآة. وكنت كذلك أصنع بارودي بيدي وقد اكتشفت في أثناء ذلك خواصاً وأسراراً عجيبة ما زالت خفية حتى يومنا هذا. إني لا أريد التوسع في هذا الموضوع كثيراً. وحسبي أن أذكر ما أريد به إثارة الدهشة والعجب في نفوس الصيادين الماهرين والمطلعين.

---

(1) إنتشر في العام 1523 وبلغ فتكه الأوج في 1524 ومات به خلق كثير.

وإليك هو: عندما أحشو بندقيتي بالبارود وهو لا يزيد وزناً عن خُمس وزن البندقة. يكون في إمكاني أن أصيب هدفي بمقتلٍ على مسافة مائتي ياردة.

ومع أن اللذة العظيمة التي كنت أجنيها من هذه النزهات، هددت بصرفي عن عملي ودراساتي - وهذا ما نجم عنها فعلاً. إلاّ أنها أعطتني من جهة أخرى أكثر مما أخذت مني بكثير. فقد طرأ تحسن مطّرد على صحتي وكنت أتبين الفرق بين كل رحلة صيد أقوم بها وأخرى. فقد أكسبني الهواء النقي الطلق مناعةً وبث فيّ نشاطاً وأنا بطبعي من ذوي الأمزجة الصفراوية[1] ولذا أحسست بانبساط وانشراح جراء هذه الرياضة ووجدت نفسي أحسن عملي وأتقنه أكثر كما لو كنت أقضي سائر أوقاتي في الدراسة والعمل، وكيفما كان فقد وجدت بندقيتي تربحني أكثر مما تخسرني وكانت إلى جانب هذا سبباً في تعرّفي ببعض جامعي التحف الأثرية ومصادقتي لهم، هؤلاء، كانوا يحومون حول الفلاحين اللومبارديين ويلازمونهم أثناء حرثهم بساتين الكرم في موسم زيارتهم لروما. هؤلاء الفلاحون كانوا حين قلبهم التربة يعثرون دائماً على ميداليات أثرية وخواتم وأحجار كريمة كالزمرد والزفير والألماس والياقوت ويتفق للجمّاعين القناصة أن يحصلوا على هذه اللقى واللقطات بالثمن البخس فآتي أنا أحياناً - بل في كثير من الأحيان لأبتاع من هؤلاء القنّاصة وأدفع بالكراون الذهبي بقدر ما دفعوا هم بالكويلو.

بهذه الصفقات - وبصرف النظر عن الربح الطائل الذي كنت أجنيه وقد يبلغ أحياناً عشرة أضعاف الأصل - بنيت أفضل العلاقات مع كلّ كرادلة روما تقريباً وسأذكر فحسب واحدة من أبرز وأندر هذه اللُقى: وقع في يدي بين عاديات مختلفة رأس دولفين بحجم حبّة الفول. التي تستخدم للإقتراع[2] تقريباً. وكان الرأس دقيق الصنع للغاية غير أن الطبيعة أظهرت تفوّقها على الفن بنفاسةِ الزمردة نفسها وكان لونها عجيباً إلى درجة أن الرجل الذي ابتاعها مني ببضع عشرات من الكراونات جعلها فصاً في خاتم كحجرٍ كريمٍ إعتياديّ ثم باعها بمئات.

---

(1) هو الماليخوليا بتعبير الطب القديم أي السوداوي المزاج أو طبع الكآبة.

(2) كان الحجر الملون أو حبات الفاصوليا أو الفول تستخدم لإعطاء الأصوات في الإقتراعات والإنتخابات العامة، بسبب تفشي الأمية في الزمان الغابر.

وثمة حجر كريم من نوع آخر: رأس إنسان نُحت من أنفس وأندر ما وجد في الأرض من الياقوت. وفيه تستوي قيمة الفن بقيمة المعدن وحجمه بقدر البندقة الكبيرة. نُحت بشكل دقيق رائع لرأس يمثل (مينرفا)[1] وثمة أيضاً حجر آخر مختلف وهو على شكل ميدالية تمثل هرقل وهو يربط رؤوس (التنين Cerberus) الثلاثة نُحتت بشكل متقن فبدت آية من آيات الفن حتى لم يسع (ميكالنجلو) نفسه إلاّ الإقرار بأنه لم ير شيئاً بمثل هذا الجمال. ومن بين عدد من الميداليات البرونزية التي اقتنيتها، واحدة نُقش عليها رأس (جوبتر) وهي أكبر من أية ميدالية شاهدتها والرأس بالغ حدّ الكمال والدقة. بإمكاني الإسترسال إلى ما لانهاية حول هذه الشؤون إلا أني أكتفي بهذا خشية الإملال. وسأعود بالحكاية الآن إلى الوراء قليلاً. لكنني لن أشذّ عن الموضوع. كما قلتُ قبلاً كان الطاعون قد غزا مدينة روما وفي أثناء ما كان إعصاره يهبّ. ظهر على المرسح طبيب عظيم الشأن يدعى (جياكومو دا كابري Giacomo da Capri)[2]. هذا الرجل القدير إضطلع إلى جانب معالجة الأمراض الأخرى بعلاج مرضى داء السفلس(*) في أخطر مرحلة من مرضهم. واتفق أن هذا المرض كان مغرماً بالكهنة في روما ولا سيما الأثرياء منهم. فلما ذاع نبأ هذا الطبيب النطاسي

---

(1) إلهة الحكمة في الأساطيراليونانية.

(2) جياكومو برناربودي كابري طبيب وجراحي مشهور وأستاذ في جامعة بولونيا، توفي في فِرار وأوصى لدوقها بتركته (أنظر بقية حكاية الأواني فيما يلي).

(*) السفلس كظاهرة مرضية وكموضوع لقصيدة شعرية باللغة اللاتينية نظمها في العام 1530 (جيرولامو فراكاستورو Girolamo Fracastoro) الشاعر والمثال والفيلسوف المنطقي والجغرافي والطبيب ذو الشهرة. كانت نظريته الجرثومية حول الأمراض مرحلة حاسمة في تاريخ الطب الباثولوجي. قال عنه البارون فردريك فون همبولت عالم الطبيعة والنبات الألماني (1769 ـ 1859) انه سبق عصره بما ملكه من مواهب وانه وليوناردو دافنشي في هذا المقام صنوان. عنوان القصيدة «سفليادة» وهي في ثلاثة آلاف بيت من البحر السداسي. قُدمت بهذه العبارة» قصيدة إلهية بقلم ابرز شاعر منذ فرجيل مهداة إلى صديقي الفينيسي «بيترو بمبو» Pietro Bembo. في القسم الثالث من هذه الملحمة الشعرية أتى فراكاسترو إلى كيفية تعرف الأسبان على العالم الجديد متنقلاً إلى قصة وقوع الشاب الراعي المدعو سفلوس Syphilus ضحية هذا المرض بإرتكابه خطيئة الزنا في قصيدته. وبوصفه أول المبتلين به. ومن اسمه جاء إسم المرض المشهور. إلاّ أن الناظم كان له أحياناً يستخدم في قصيدته بديلاً أو تركيباً مزجياً هو «السفلس» أو «الداء الفرنسي» ومن هذا الأخير جاء اسمه الدارج عندنا «الافرنكي». وسنجد فيما بعد أن چلليني أبتلي بهذا المرض.

سارع يصرّح بأنه قادر على شفاء المرضى بهذا الداء مستخدماً طريقة مستحدثة عجيبة هي طريقة التبخير. لكنه كان يصرّ على دفع الأجر قبل أن يباشر العلاج. وكانت أتعابه لا تحسب بالعشرات بل بالمئات من الكراونات.

هذا الرجل الكفوء كان يعرف الكثير في فنّ التصميم. واتفق ذات يوم أنه كان يمر من أمام دكاني فلفت نظره بعض الرسوم مبعثرة هنا وهناك ومن بينها تصاميم لأوانٍ صغيرة جميلة من وحي خيالي وإبداعاتي عملتها لمجرد قضاء الوقت والتسلية كانت تختلف إختلافاً بيناً عن كل ما شوهِد من قبل. فسألني عما إذا كنت أرغب في صنع بعض الأواني الفضيّة وفق تلك التصاميم. واغتبطت بهذا العرض لأن اختياره كان وفق هواي ودفع لي أجوراً جيدة إلاّ أن الشهرة التي أصبتها منها كانت أعظم من الأجر بمائة مرة أو أكثر. إذ حكم جهابذة المشتغلين في الصناعة بأنها أبدع ما شاهدوا من أمثالها وأجمل صنعاً. أنجزتها له فسارع إلى عرضها لأنظار البابا ثم رحل عن المدينة في اليوم التالي.

كان من العلماء الأفذاذ. وإنك لتستمع منه السحر المبين عندما يتحدث في مسائل الطبّ. وقد رغب البابا في أن يضمّه إليه، فأجاب إنه لن يرتبط بخدمة أي إنسان في الدنيا. ومن يريده عليه أن يقصده. لقد كان شيطاناً ماكراً في الواقع إذ كان مدركاً تماماً صواب ما يفعل حين غادر روما. فبعد مرور عدة أشهر ساءت حالة كل من تولى شفاءهم إلى الدرجة القصوى ولو بقي لفتكوا به.

قام هذا الطبيب بعرض الأواني التي صنعتها له على عدد كبير من النبلاء ومنهم صاحب السموّ دوق (فيرارا). وأخبرهم بأنه حصل على الإناءين من أحد النبلاء الكبار في روما بمثابة أجرٍ إذ قال له إن وفقْتُ إلى شفائك فسأتقاضاك هذين الإناءين. فأجاب النبيل المزعوم إنهما من الآثار القديمة وإن له أن يطلب ما يشاء من المال وسيدفعه له بدلاً عن الإناءين. وقال الطبيب إنه تصرف بعد ذلك كمن لا يريد أن يحقق الشفاء للنبيل. فاضطر هذا إلى التنازل عنهما له.

قصّ عليّ كلّ هذا في (فرارا) السيد (البرتو بنديديو Alberto Bendidio) الذي عرض عليّ بكلّ مهابة واعتزاز تقليداً من الجبس لهما يطابق الأصل. فانفجرت

ضاحكاً ثم أقفلت فمي ولم أنبس بحرف. فلاحت على وجه السيد بنديديو علائم الإنفعال وكان شديد الزهو والإعتداد بنفسه وسألني بحدّة:

- أتضحك عليهما اذن؟ ثق إنه لم يولد إنسان خلال السنوات الألف المنصرمة قادر على تقليدهما فحسب.

وكتمت الأمر خشية أن أحطّ من قدرهما وأصيب سمعتهما. وأبديت إعجابي بهما وأنا ذاهل[1]. وفي روما نفسها صرح لي عدد كبير من النبلاء بعضهم أصدقاء لي، بأنهم يميلون إلى الإعتقاد بأن هذين الإناءين هما من أنفس الآثار القديمة، فجرّأني هذا على الإعتراف بأنهما من صنع يدي. ولما أبوا تصديق قولي كان عليّ إثبات ذلك الإدعاء بعمل تصاميم أخرى جديدة. لم تكن كلمتي بحد ذاتها كافيةً لأن (جاكومو) ببعد نظره وسعة حيلته أصرّ على أن يصادر مني التصاميم الأصليّة. ولقد جاءني من هذه العمليّة الصغيرة ربحٌ كثير.

إستمر الطاعون يصول ويجول عدة أشهر. وبقيت سالماً في حين توفي به كثير من أصدقائي لكنني سلمت من العدوى وتمتعت بالصحّة. وإتفق أن صاحباً لي جاء إلى داري في ليلةٍ من الليالي بصحبة بغيٍ بولونية تُدعى (فاوستينا) لتناول طعام العشاء. وكانت بارعة الحسن إلاّ أنها في حدود الثلاثين. وكان يصحبها وصيفتها الصغيرة التي يتراوح سنها بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة. ولما كانت (فاوستينا) مختصة بصاحبي فقد قررت أن لا أقربها ولو أعطيتُ ملك الدنيا مع أنها صرحت بحبها الجنوني لي إلاّ أني ما كنت لأخون ثقة صديقي. على أني بعد أن آويا إلى فراشهما، قمت إلى الصغيرة فضاجعتها وما كان أحلاها وأشهاها. ولو علمت بها سيدتها لأقامت عليها الدنيا وأقعدتها. في تلك الليلة قضيت ساعات هنيئة رائعة لا تُقاس بما كنت سأقضيه مع (فاوستينا).

في اليوم التالي عند وقت الغداء وجدت نفسي خائر القوى متهالكاً كأني مشيت أميالاً. وعندما حاولت الأكل دهمني صداع شديد وفي عين الوقت إنتبهت إلى ورمٍ

---

(1) سترد قصة هذين الاناءين فيما بعد بتفصيل. وفيها أن جللِّيني لم يكتم عن صاحب النسخة بأنه هو الصانع بل صارحه فعلاً.

دملي في ذراعي اليسرى وإلى دمل فوق رسغي اليسرى فساد الهلع ساكني الدار وفرّ صديقي وصاحبته البقرة السمينة والصغيرة لا يلوون ولم يبق معي غير صبيّ دكان بائس أبى إلاّ مُلازمتي. شعرت بإختناق وعُسر تنفس حول قلبي وأيقنت بأني هالك لا محالة. واتفق أن والد مساعدي في الدكان مَرّ أثناء ذلك بالقرب من الدكان. وكان طبيباً مقيماً عند الكردينال (ياكو كاجيّ Jaco Cacci)[1] فأسرع إليه ابنه وناداه صائحاً:

ـ تعال يا أبي والقِ نظرةً على (بنفنُوتو). فقد أصابته وعكة وهو طريح الفراش.

فدخل المنزل وهو يحسب أن ما بي عارضاً بسيطاً لا غير. وجسّ نبضي وبعد أن رأى ولمس ما كان يفضّل أن لا يرى أو يلمس، إلتفت إلى إبنه وصرخ به:

ـ قبّحك الله من ولدٍ عاق! فقد أوردتني موارد التلف. كيف أستطيعُ الدنو من الكردينال الآن؟

أجاب الغلام قائلاً:

ـ أبت، إن معلمي هذا يعادل كلّ كرادلة روما.

عند ذلك إلتفت الطبيب اليّ وقال:

ـ مادمت أنا هاهنا فسأسهر على علاجك. لكنني أنذرك بهذا، إن كنتَ قد ضاجعت أمرأة فهذا آخر عهدك بالدنيا.

أجبت:

ـ الأمر كما خمنتَ فقد ضاجعت امرأة ليلة أمس.

ـ متى كان ذلك وأيّ نوعٍ من النساء هي؟

أجبت:

ـ طوال ليلة البارحة. وهي صبية في مقتبل العمر جداً.

وشعر بأن ما يقوله هو السخف بعينه. فسارع يستدرك موقفه بقوله:

---

(1) ربما كان المقصود هو الكردينال (ياكو باجي).

- ما دامت الأورام حديثة لم تتقيح بعد وقد بدأنا العلاج في وقت مناسب، فلا يتملكك الخوف الزائد. إني سأشفيك حَتماً.

وبعد أن عالجني إنصرف عني. وما كان يغيب عن نظري حتى أقبل واحدٌ من أخلص أصدقائي وهو (جيوڤاني ريكولي Giovanui Rigagli). وشاركني الحزن على مرضي وإنفضاض الخلاّن عني وقال مؤكداً:

- إعتمد عليّ يا بنفنوتو صديقي. سأبقى هنا ولن أتركك حتى تُبلْ.

فرجوته الأ يدنو مني فأنا مقضيٌ عليّ وطلبت منه أن يقوم بعمل واحدٍ لي: أن يأخذ ما أودعتُ من كراونات في صندوق صغير بالقرب من فراشي ويرسلها إلى أبي المفجوع حالما يقبض الله روحي مع طيّ رسالة تُكتب بأسلوب رقيق بأني كنت من جملة ضحايا ذلك الوباء الرهيب.

أجاب ذاك الصديق العزيز بلهجة قاطعة إنه لن يتركني. وهو يعرف حقّ المعرفة ماذا يترتب عمله لصديقٍ عزيز مهما كانت النتيجة. وبمعونة من الله مرت الأيام متعاقبة وبفضل العلاج الناجع مرّت الأزمة وبدأت صحتي تتحسنّ بإطراد إلى أن شفيت من الداء الفتاك. ولم أصبر على الجرح ليلتئم فقد كنت ودمّلي محشوّ بالقطن واللفائف - أخرج للنتزهة على صهوة حصان قمي؛ غير مروض، حجمه لا يزيد عن حجمَ دبّ فتيّ كبير يكسو جسمه شعر بطول أربع أصابع كالدب تماماً. فأنطلق به لزيارة الرسام (روسو) الذي كان يعيش خارج روما بالقرب من (جفيتا فيكيا Civita Vecchia) في موضع يدعى (جرڤايترا Cervatera) وهو من أملاك كونت (انكويّارا Anguillara). وكان سرور صديقي برؤيتي عظيماً. فبادرته قائلاً:

- جئت لأعمل بك ما عملت بي قبل أشهر عدة.

فأغرق في الضحك وأحاطني بذراعيه وقبلني وطلب مني أن الزم جانب الهدوء بسبب الكونت. ونعمت بضيافة مريحة جداً أرفل في حلة من السعادة وأستمتع بأجود الخمر وأطيب المآكل وبإكرام الكونت وعطفه. واعتدت التوجه إلى ساحل البحر يومياً فأتجول على طوله وحدي ثم أترجل وأقوم بجمع كميّات نادرة من الحصى والأصداف والقواقع من كل شكلٍ ولونٍ. وفي آخر يوم نزهة لي هاجمني على

الساحل جماعة من الرجال الملثمين نزلوا إلى الساحل من مركبٍ شراعيّ مغربيّ وعندما خُيّل لهم إني مطوق وقد سُدّت أمامي سبل النجاة علوت ظهر حصاني الصغير بقفزة واحدة مصمماً على أن أقذف نفسي أمّا في أحضان إبليس أو في أعماق البحر الأزرق. إذ كنت في موقف خطيرٍ للغاية مدركاً بأني إمّا سأردى برصاصةٍ وإمّا سأغرق. ولكن حصاني - وحمداً لله - قفز قفزة هائلة وبهذا كتبت لي السلامة. فتوجهت بالصلاة إلى ربّ العالمين. وأبلغت الكونت بما حصل. فأطلق إنذاراً ونظمت حملة إلاّ أن المركب كان قد أقلع. وفي اليوم التالي عدت إلى روما سعيداً معافى.

خفّت حِدّة الطاعون وانحسر ظلّه وراح الناجون منه يقصد بعضهم بعضاً مهنئين بالنجاة بشوق وحنان. ومن هذا الفرح والإبتهاج انبثقت جمعية تضم نخبة الرسامين والنحّاتين والصاغة في مدينة روما. ومؤسس هذه الندوة نحّات يدعى (ميكالانيولو) وهو من أهالي (سيينا). وكان فناناً قديراً يضاهي أي فنان آخر في مجال صنعته[1]. على أنه كان فوق كلّ هذا خفيف الظلّ مؤنساً طيّب المعشر. ومن ناحية السن كان أكبرنا، إلاّ أن حيويته كانت تجعله يبدو وكأنه أصغرنا.

واعتدنا أن نجتمع كثيراً، مرتين في الأسبوع على الأقل. وعليّ أن لا أنسى بأن جمعيتنا هذه كانت تضمّ أيضاً كلاً من (كويليو رومانو Giulio Romano)[2] الرسام و(جيانفرانشسكو) تلميذي (رافائيل) الألمعيّين. ذلك الأستاذ الأوربيني العظيم. وعلى أثر تعددّ إجتماعاتنا، قررّ رئيسنا الرائع بأن يجتمع سائرنا في داره لتناول العشاء وأن يُحضر كل واحد مِنا ومعه ما أطلق عليه ميكالانيولو «غُرابه» ومن يأتي وحيداً ولا يملك عشيقة من بغايا المدينة ويفشل في العثور على واحدة يُغرّم بدفع نفقات عشاء الآخرين.

(1) ينبغي أن لايُخلط بين هذا النحات وبين ميكالنجلو بوناروتي الشهير. إن أشهر أثر خلّفه ميكالانيولو هو منحوتة قبر البابا أدريان السادس في الكنيسة الألمانية (سانتاماريا دللا انيما) وواضع تصميمه هو (بيروزّي).

(2) كويليو رومانو (1492 - 1546) رسام معروف ومهندس معماري تلميذ رافائيل ووارث تركته إستخدمه البابا كليمنت السابع وآل تشبجي. ثم قام بهندسة وزخرفة قصر (دل تي del Te) في (مانتوا)، أنظر فاساري ج 6.

وقد لقي أولئك الذين لا صاحبة لديهم المتاعب للعثور على رفيقة وبذلوا ما لا يستهان به من مالٍ كيلا يصابوا بالخزي في حفلة عشائنا الباهرة. ولم يكن هذا مشكلة بالنسبة اليّ كما خيل لي فهناك فتاة بارعة الحسن تدعى (بانتاسيليا Pantasilea) كانت تحبني حباً جماً. لكنني اضطررت إلى التنازل عنها لصديق عزيز هو (باكياكا Bachiacca)[1] الذي كان وما زال مدلّها بحبها. وقد نجم عن هذا ما ينجم أحياناً من خصام بين المحبين. إذ لما رأت (بانتاسيليا) السهولة التي تخليت بها عنها لـ(باكياكا) إستنتجت بأني لا أهتمّ بها قلامة ظفر ولا أكترث لحبّها مهما عظم وبعد ذلك بقليل. أدى عزمها على الثأر لنفسها مني بسبب هذه الإهانة إلى متاعب لا نهاية لها مما سآتي إلى ذكره في الوقت المناسب.

واقترب أجل الحفل والظهور فيه كلّ مع «غُرابه» وأنا ما زلت مفتقراً إلى واحدة. ولكني رأيت من الخطأ أن يفشل المرء في أمر سخيف كهذا. إن أشدّ ما كان يزعجني في الأمر هو كرهي أن يراني ذلك الجمع من الرجال الممتازين قادماً وتحت جناحي فزّاعة[2] قذرة عجوز. أخيراً اهتديت إلى حيلة لطيفة يستمتع بها الجميع إلى أقصى حدّ.

صَحّ عزمي على ما أنا في سبيله ثم استدعيت فتىً في السادسة عشرة هو ابنُ لنّحاس إسباني يسكن جواري كان يدرس اللاتينية مثابراً دؤوباً ويدعى (دييكو Diego). وكان وسيماً بديع الصورة ذا قسمات رائعة وبشرة عجيبة تكوين رأسه أجمل من رأس تمثال أنتينُس الأثري[3] وكثيراً ما رسمته وقد أكسبني ذلك شهرةً كبيرة. وهو منقطع لنفسه لا يخرج مع أحد ولذلك كان مجهول الهوية تماماً لا يعرفه بشر كذلك كان سيء الهندام مهمل الثياب متعلق بدراسته الثمينة لا غير. عند دخوله طلبت منه أن

---

(1) المقصود أحد إثنين: إمّا فرانشسكو وإمّا أنطونيو وهما توأمان لفردي Verdi والأول منها رسام بالفسيفساء. أمّا الثاني فقد برع في فن التطريز.

(2) وهو ما ينصب في مزرعة لتخويف الطيور وبالعامية عندنا يسمى «خرّاعة خضرة». وقد آثرنا ترجمتها حرفياً حرصاً على فكاهة چلليني.

(3) شاب أغريقي من بثينيا أشتهر بجماله كان عبداً للإمبراطور الرّوماني هادريان (76 ـ 138) ثم لقي الحظوة عنده ونحتت له عدة تماثيل في روما.

يدعني ألبسه ثياب النساء وكنت قد أعددتها لهذه الغاية. فلم يبد إعتراضاً وقبل بإرتدائها حالاً. ثم أسرعت فجمّلت ملامحه بالأسلوب الجذاب الذي صففتُ به شعره. وثبتّ قرطين في أذنيه تزينهما لؤلؤتان كبيرتان جميلتان ولما كان في القرطين فتحة فقد شبكتهما في شحمتي أذنيه فبدتا وكأنهما مثقوبتان ثم إني طوقت جيده ببعض القلائد الذهبية الجميلة المكفتة بالأحجار الثمينة تكفيتاً حاشداً. وزينت أصابعه الأنيقة بالخواتم ثم وبإبتسامةٍ على شفتي أمسكت به من أذنه برقة وجررته إلى المرآة الكبيرة فما رأى هيئته فيها حتى بُهت وصاح:

- سبحان الله! أهذا هو دييكو؟

قلت:

- أجل هو دييكو بالتأكيد. إنه دييكو الذي لم أطلب منه حتى الآن شيئاً لكني أريده الآن أن يُسدي اليّ معروفاً لا ضرر فيه، وهو أن يرافقني لتناول العشاء بعين الثياب التي تكسوه الآن مع تلك الجمعية الشهيرة التي كثيراً ما حدثتهُ عنها.

فقد الفتى تحمّسه - وكنت أعرفه شاباً بعيد النظر، متزن العقل، حديد الذكاء. وأطرق وأخذ يحدق في الأرض ملياً لا يبدي حراكاً ولا ينبس بحرف. ثم رفع نظره فجأة وأرسله اليّ وقال:

- مع بنفنوتو؟ إني مستعد لذلك فهيّا بنا.

وضعت حول رأسه وشاحاً كبيراً وهو ما يسمى في روما بـ«كفيْة الصيف» وعندما بلغنا مَحلّ الإجتماع وجدنا المجلس مكتملاً ورُحّبَ بنا وكان (ميكالاينولو) يقف بين (كويليو) و(جيانفرانشسكو). وعندما رفعت الوشاح عن رأس فتاي الجميل بسط (ميكالانيولو) ذراعيه، وكان كما قلتُ أسرعنا بديهة وأحضرنا نكتةً، ثم وضع إحداهما إلى عاتق (فرانشسكو) والثانية على عاتق (كويليو) مستخدماً كل قوته لإجبارهما على الركوع. ثم خرّ هو الآخر على ركبته راكعاً متظاهراً بطلب الرحمة ومهيباً بكلّ المدعوين:

- أنظروا إلى هذا! أنظروا إلى ملائكة السماء كيف يُصوِّرون. مع أننا نسميهم «ملائكة Angeli فإن بعضهم «نساء Angiole».

ثم شرع يغنّي:

يــــا مـــلاكــــاً ســـاحـــــاً أنـــت يـــا أبـــهـــى الـــمـــلائـــك

جـــئـــت أســـتـــجـــدي حـــمـــاكـــا فـــإحـــفـــظ الـــروح وبـــارك

وهنا أغرق مخلوقي الجميل في الضحك. ورفع يده اليمنى ومنحه البركة الرسوليّة بلهجة وقورة متزنة. ثم هبّ (ميكالانيولو) منتصباً على قدميه وقال إنه ليقبل قدميّ البابا لكنه يلثم وجنتي الملائكة ولما قرن قوله بالعمل أحمرّ وجه الشاب خجلاً فبدأ أكثر جمالاً. بعد هذه الإفتتاحية إكتشفنا أن البرنامج مليء بالقصائد التي كنا قد نظمناها وأرسلناها إلى (ميكالانيولو). فبدأ رفيقي الفتى يقرأها كافة غير تارك واحدة. وكان أثناء ذلك يزيد جمالاً بشكل غير إعتيادي أجدني عاجزاً عن وصفه، ثم تلا ذلك دور التعليقات والأحاديث لن أذكرها هنا بالتفصيل لأنها خارجة عن الصدد. وأكتفي بإثبات حديث واحدٍ لأنه من كلام ذلك الرسام الممتاز (كويليو): أدار عينه الحادة النفاذة في إرجاء القاعة متفحصاً كل الموجودين ومحّدقاً بالنساء خصوصاً. ثم إلتفت إلى (ميكالانيولو) وقال:

ـ (ميكالانيولو) أيها العزيز! إن إسم الـ«غُراب» الذي اخترعتَه اليوم يناسب هذا الجمع تماماً. إلاّ أنهن لا يملكن حتى جمال (الغُراب) عندما يجلسن إلى جنب أجمل الطواويس طراً.

عندما حضر الطعام وقُدّم هممنا بالجلوس إلى المائدة فرجا (كويليو) أن يسمح له بتعيين مواقع المدعوين. فأجيب طلبه فشرع يتناول يد السيدات كلاً بدورها ويقودها إلى الموضع الذي ارتآه لها وهو الجزء الداخلي وجعل رفيقي في الوسط ثم أجلس الرجال في الجزء الخارجي وجعلني في الوسط قائلاً إني أستحق أرفع منزلةٍ. وكان ثمّة تعريشة جميلة من الياسمين الطبيعي خلف موقع السيدات وبهذه الخلفية إنعكس جمالهن ولاسيما صاحبي. إنعكاساً أخاذاً تقصر الكلمات عن وصفه. بعد كلّ ذلك باشرنا جميعاً في تناول العشاء الفاخر الشهيّ.

بعد الفراغ من الأكل سمعنا غناءً ساحراً مع موسيقى أخاذة. كان العزف والإنشاد من المحفوظ المتداول، وطلب رفيقي المحبوب أن يُسمح له بالمشاركة، وأدى

مقطوعته ببراعة فاقت كل ما سمع قبله بحيث بهت الحاضرون جميعاً. والواقع أن (كويليو وميكالانيولو) ما عادا يتحدثان عنه هازئين مستخفين كما كان دأبهما من الأول. وانقلب هزل مديحهما جداً وأخذا يظهران ما يشعران به من إعجابٍ حقيقي. بعد أن فرغنا من الغناء والموسيقى إنبرى (أوريليو آسكولانو Aurelio Ascalono) وهو طرّاب عجيب ليتحفنا بقصيدة مرتجلة من تلحينه ونظمه تتضمن مديحاً للسيدات. وفيما كانت إيقاعاته السماوية تنحدر من فمه رائعة أخاذة، كانت السيدتان الجالستان على طرفي رفيقي مستمرتين في ثرثرتهما فقصّت إحداهما حكاية سلوكها طريق الزلل وراحت الأخرى تسأل رفيقي كيف زلّت (به) القدم. ومن هم (عشاقه) وكم من الزمن (لها) في روما؟ وما إلى ذلك من أسئلة.

وفي الواقع لو لم يكن عليّ إلاّ أن أصف ما جرى، لأعطيت تفاصيل ما لا يحصى من الوقائع الطريفة التي حصلت بسبب حنق (بانتاسيليا) عليّ. لكن هذا يخرج بي عن قصدي ولذلك سأمر بها مرور الكرام.

بدأت ثرثرة هاتين الفتاتين الوضيعتين تثقل على رفيقي الذي سميناه (بومونا) فبدأت (بومونا) وسط إنزعاجها تحاول أن تتخلص من حديثهما السخيف وأخذت تنقلب إلى هذا الجنب تارةً وإلى الجنب الآخر تارة أخرى فسألتها الفتاة التي جاءت بصحبة (كويليو) أتشعر بشيء من الألم. أجابت أجل فثمة شيء من الألم فهي تعتقد إنها حُبلى منذ أشهرٍ وهي تشعر بآلام في الرحم. وفي شعورٍ منهما بالإشفاق مدتا يديهما حالاً تتحسان بطن رفيقي لتتبيّنا إنها ذكر! فسحبتا يديهما كأن أفعى لدغتهما ونهضتا من مجلسهما وانهالتا عليه شتائم هي في العادةِ من العبارات الموقوفة على الرجال الوسيمين! وامتلأت القاعة ضجيجاً وضحكاً من فرط الذهول والدهشة. إلاّ أن (ميكالانيولو) الصارم طلب تعويضاً من الجماعة لفرض عقوبة مناسبة في رأيه وعندما منح ذلك. تقدّم مني ورفعني إلى الأعلى وسط هتافات عامة. وهتف هو بدوره:

ـ عاش بنفنوتو السيد! عاش بنفنوتو السيد!

وأضاف يقول: هذا هو العقاب الذي أستحقه لمثل هذه الحيلة المُحكَمة. بهذا الشكل كانت خاتمة حفلة عشائنا ونهاية يومنا السعيد فانصرف كلّ إلى منزله.

لو أقدمت على وصف مفصّل لما أنجزتُ من أعمال وكم عدد الأشياء التي أخرجتها يدي ولمن صنعتها فسيقتضي ذلك مني وقتاً طويلاً جداً. ولأخلص إلى القول بأني كافحتُ وناضلتُ وبذلت قصاراي لإتقان كل ما أتيت إلى ذكره من الفنون. إشتغلت فيها دون توقف. إلاّ أن الفرصة لم تعنّ لي بعد لوصف أهمّ وأبرز ما صنعته وسأنتظر الوقت المناسب لذلك، ويخيل لي أن الفرصة أضحت قريبة.

في ذلك الحين كان (ميكالانيولو) النحّات الذي نوهت به آنفاً، يعكف على العمل في قبر البابا المتوفى (أدريان). وتركنا (كويليو رومانو) الرسام ليشغل وظيفة عند ماركيز (مانتوا Mantua). وتفرّق باقي أعضاء ندوتنا، بعضهم هنا وبعضهم هناك، وانصرفوا إلى أشغالهم. وهكذا إنفرط عقد الندوة الرائعة التي تحدثت عنها وأصبحت أثراً بعد عين.

في حدود ذلك الزمان وقع في يدي عدد من الخناجر التركية مقابضها ونصالها من الفولاذ بل حتى أغمادها. وقد تفنن حفارو الحديد في زخرفتها بنقوش على الأسلوب التركي الرفيع، وملأوا النقوش النباتية المتشابكة المحفورة بالذهب، فتملكتني رغبةٌ محرقة لتجربة يدي في هذا الفن الذي يختلف تماماً عن الفنون الأخرى ووضعت مهارتي موضع إمتحان وعملت عدداً من الخناجر فحققت نجاحاً باهراً بها إذ كانت أدق صنعة وأقوى من مثيلاتها التركيات وثمة أسباب لذلك منها اني أقطع في المعدن قطعاً أعمق وأوسع في القاعدة من قطع الصانع التركي. ومنها أن أساس الزخرف التركي هو ورق نبتة الليف مع عدد من زهرات عُبّاد الشمس الصغيرة، وهي في الواقع لطيفة إلى درجة كبيرة، لكن المرء يدركهُ السأم من النظر إليها خلافاً لتصاميمنا الإيطالية. فالعين تملّ المنظر الرتيب بأسرع مما تملّ من دوام النظر إلى الزخرف الهندسي العربي (أرابيسك Arabesque). عندنا في إيطاليا تُرسم الزخارف النباتية بمختلف الأوضاع والأشكال والأنواع. وللومبارديين أسلوب طريف في التأليف بين نبتتي اللبلاب والفاشرا[1] هو مما ترتاح له العين ولا تشبع من النظر إليه. وللتوسكان والرومان أساليب أبدع تقدموا بها على السابقين وأحسنوا لأنهم

(1) نبات من الفصيلة القرعية ذو أوراق عريضة.

ينقلون أوراق الأقنتس Acanthis[1] المعروف عند العامة بنبات (مخلب الدب) ويبرزون براعمها وأزاهيرها ملتوية متعاطفةً. ويكون وقعها في النفس ساحراً لو حشر بينها مختلف أنواع الحيوانات وبعض الطيور. ومما يختاره الفنان هنا، يظهر ذوقه وإتجاهاته.

إن الفنانين ينقلون تصاميم عن الطبيعة فيجدونها في الأزهار البريّة. مثلاً الأزهار التي تسمّى بـ(أنف العجل). والفنان الحاذق يستمدّ أفكاراً جميلة من أزهار أخرى. والناس الذين يجهلون هذه الأمور يطلقون على تلك الأخيلة الفنية مصطلح (التهاويل grotesque) سُميت بهذا الأسم في عصرنا الحالي لأن التلاميذ عثروا على أشباهها في كهوف تحت الأرض في روما. هذه الكهوف كانت في قديم الأزمان تستخدم للسكنى كالغرف أو الحمامات أو أماكن دراسةٍ أو قاعات أو ما شاكل وهي تحت سطح الأرض وقد بقيت حيث هي في حين كان مستوى الأرض يرتفع بمرور السنين. وفي روما يطلق على هذه الكهوف والمغاور أسم grottos وهو أصل كلمة grotesques (تهاويل) إلاّ أن هذا ليس الاسم الموافق للمسمّى. فمثلما كان الأقدمون مُغرمين بخلق الغيلان، بالتهجين بين العنز والبقر والخيل، فيطلقون على الهجين المولود إسم الغول كذلك يخلق فنانونا غيلاناً من نوع آخر بالتأليف والمزج بين أنواع مختلفة من النبات. ولذا فكلمة (غيلان) هي المصطلح الصحيح وليس التهاويل. وقد ألفت تصاميمي النباتية بهذا الشكل وبعد أن كُفّت، بدأ عَملي أجمل وأكثر إثارةً من صنوها التركي.

في حدود تلك الفترة وقع بيدي بعض المزهريات وهي جرار أثرية مملوءة رماداً وقد عثرت في هذا الرماد على عدد من الخواتم الحديدية القديمة مكفتةً بالذهب وقد رصع كل خاتم منها بصَدفَة بحرية صغيرة. وسألت الخبراء الملمين فقالوا كان يتحلى بهذه الخواتم كلّ من يريد أن يبقى في حالة إتزان ورباطة جأش مهما صادفه في حياته من أحداث جسام حسنةً كانت أم سيئة. وعندما انكشف لي سرُها وبناء على طلب بعض السادة من أصدقائي الحميمين، بدأت بصنع عدد قليل منها بعين الشكل. إلاّ أن

(1) نبات ذو زهر أبيض أو أصفر أو قرمزي Snapdsagon.

خواتمي كانت من الفولاذ الجيد المطاوع. ويبدأ منظرها في غاية الجمال بعد أن نقشتها وكفتها بالذهب وكنت أحصل في أكثر الأحيان على ما يزيد عن أربعين كراوناً ثمناً لمجرد عملي الخاتم الواحد.

كانت موضة العصر تقضي باقتناء طغراءات ذهبية صغيرة تثبت في مقدمة القبعة. وكان النبلاء والسادة يفضلونها أن تحفر بنقش أو شعارٍ وقد عملت عدداً لا يُستهان به منها وشغلها متعب كثيراً. وكنت قد ذكرت أن (كارادوسو) ذلك الرجل القدير تخصص في صنعها وقد تضمنت تصاميمه لها أكثر من صورة واحدة، وبسبب ذلك لم يكن يرضى بأقل من مائة كراون ذهبي ثمنا للطغراء الواحدة. ولهذا ولأنه بطيء العمل فضّل بعض النبلاء مراجعتي. فعملتُ لهم من بين أشياء أخرى ميداليةً نافستُ بها الفنان الكبير. حفرت فيها أربعة شخوص وعانيت فيها مشقة وجهداً خارقاً واتفق بأن الأشراف الذين كنت أشتغل لهم عمدوا إلى مقارنة ميداليتي بتلك التي أنجزها ذلك الفنان الحاذق (كارادوسو) فقالوا إنها أبرع صنعةً وأجمل. وتركوا لي أمر تحديد الأجر لأنهم يريدون إرضائي بالقيمة مثلما أرضيتهم بعملي. فقلت إن خير مكافأة أنشدها هو مضاهاتي الرجل الذي يعدّ إمام الصنعة بلا منازع. فإذا شاطرني السادة النبلاء رأيي هذا فأنا أعدُّ نفسي متقاضياً أجراً سخياً لقاء أتعابي. قلت هذا وانصرفتُ إلا أنهم أرسلوا لي حالاً أجراً سخياً أرضاني تماماً. إن طموحي في أن أبلغ بعملي درجة الإتقان أصبح عظيماً بحيث كان السبب في كل ما تلا بعد ذلك.

ولأنحرف الآن قليلاً عن أمور الفن. لأني أريد تسجيل بعض الأحداث الخطيرة التي اعترضت حياتي المضطربة الحافلة بالمآزق. سبق لي وأن أثبتُّ بعض التفاصيل عن ندوة الفنانين الرائعة التي كنت أحد أعضائها وما أسفرت عنه علاقتي بالمرأة (بانتاسيليا) من مفاجآت طريفة. وكيف أن حبّها الزائف أصبح موضع إحتقاري. لقد زاد حقدها عَليّ بسبب مزحتي بإصطحابي (دييكو) الفتى الإسباني إلى مأدبة العشاء. فأقسمت أن تثأر لنفسها مني. وحانت فرصتها عندما تهيأت الظروف لها من حادث معين سأصفه وبنتيجة ذلك تعرضت حياتي لخطر عظيم.

وما حصل هو هذا: قبل كلّ شيء قدم إلى روما شاب يدعى (لويجي بولجي

(Luigi Pulci)[1] وهو ابن ذاك الـ(بولجي) الذي قُطع رأسه لإقدامه على جريمة الزنا بابنته. هذا الشاب كان من الموهوبين. فهو شاعر وعالم جيد باللاتينيّة، حسن الكتابة والتأليف، وهو في عين الوقت حسن الصورة بل في غاية الوسامة والجاذبيّة. كان قد ترك لتوّه الخدمة عند أحد الأساقفة وجاء روما وداء السفلس ينخر فيه نخراً.

جرت العادة في أيام الصيف أن يجتمع الناس مساءً في شوارع فلورنسا وكان لويجي هذا أيام صباه يؤدي في هذه المناسبات أدواراً غنائية إرتجالية دائماً مع نخبة من أبدع الأصوات وأشذاها سحراً. حتى أن (ميكالنجلو بوناروتي) الملهم أمير الرسامين والنحاتين كان يندفع متلهفاً إلى أي محل يغني فيه ليستمتع بالأصغاء إليه وكنت أرافقه مع صائغ آخر يدعى (بيلوتو Piloto) وهو فنان موهوب. فنتبع (لويجي) نحن الثلاثة أينما كان وبهذه الطريقة نشأت العلاقة بيني وبينه.

جاء روما بعد مرور هذه السنين العديدة وهو في هذه الحالة السيئة التي ذكرتها، باحثاً عنّي وتشبّث بي راجياً مساعدتي لوجه الله. فنازعتني عوامل الشفقة بسبب مواهبه العظيمة ووفاءً لحقوق المواطنة ولكوني رقيق القلب بطبعي. فآويته في بيتي وأمنّت له المعالجة الطبيّة فإستعاد عافيته بسرعة نظراً لكونه في مقتبل العمر وكان مكبّاً على دراساته أثناء العلاج فساعدته في تأمين طائفة من الكتب بقدر الإمكان. فأثّرت فيه معاملتي الحسنة وأدرك كم هو مدين لي وراح يلهج بشكري ويهتبل كلّ فرصة ليظهر مدى إمتنانه وهو يرسل دموعه مردداً: «لو فتح الله عليه بنعمة فإنه سيجازيني بقدر حسن صنيعي معه». وكنت أجيبه بأني لم أفعل كل ما رغبت في أن أفعله وإنما قمت بما أمكنني فحسب ومن واجب البشر أن يُعين بعضهم بعضاً. على أني ذكرته بأن يردّ عطفي بعطفٍ منه على المحتاج كما احتاج هو اليّ. وقلت له: اعتبرني صديقك الآن وعلى الدوام.

ما لبث هذا الشاب أن راح يغشى محافل روما وأوساطها الإجتماعية العليا فوجد ملجأ لنفسه بأن دخل في خدمة أسقف سن يبلغ الثمانين من العمر يدعى

---

(1) وهو كذلك حفيد لويجي بولجي (1432 ـ 1484) الشاعر الفلورنسي مؤلف الكتاب الشهير في الأدب الإيطالي (موركانتو Morganto).

(كورجنسيس Gurgensis)، وكان لهذا الأسقف ابن أخ من سادة البندقية يدعى (جيوڤاني). الذي تظاهر للناس بأنه شديد الانجذاب بمواهب (لويجي) واتخذ من هذا الإعجاب والإفتتان تعلّةً ليفتح له أبواب منزله على مصاريعها ويطلق له العنان يسرح ويمرح ويأمر وينهي كأنه ربّ البيت. واتفق أن حدّث السيد جيوڤاني عني وذكر له المعروف الكبير الذي أسديته له وكم هو مدين لي فكانت النتيجة أن السيد جيوڤاني رغب في لقائي.

وفي ذات يومٍ كنت قد هيأت بعض عشاء لـ(بانتاسيليا) ودعوت مجموعة من الأصدقاء الممتازين معها. إذ بنا ونحن نهمُّ بالجلوس ـ نُفاجأ بدخول (جيوڤاني ولويجي) وبعد التعارف بقيا لمشاركتنا العشاء. ما أن وقع نظر المومس الصفيقة الوجه على هذا الشاب الوسيم حتى قررت إقتناصه ولم تفتني ملاحظة ذلك. وبعد أن فرغنا من الأكل مباشرةً إنتحيت بلويجي جانباً وقلت: لما كان يصرّ بأنه مدين لي بالكثير، فعليه أن لا يحاول مطلقاً التقرّب من تلك الساقطة. فأجاب:

ـ عزيزي بنڤنوتو. أتظنني بهذه الدرجة من الجنون؟

أجبت:

ـ كلاّ لستَ مجنوناً، بل أنا شابٌ فحسب. وأما عني فقسماً بالله إنيّ لا أكترث بها ولا أحفل لكن سآسف إذ أراك تسقط سقطةً عنيفة بسببها.

عندما وعى كلامي رَدّ بحميّة وإخلاص انه يتمنىٰ من الله أن يهوي من حالق وتُدقّ عنقه إن وجه إليها كلمة واحدة.

لا بدّ أن الفتى النكود قد صلى لربّه بحرارةٍ فاستجاب إليه وكسر عنقه فعلاً كما سأروي هذا الآن:

ما لبث أن اتضح للملأ أن حُبّ جيوڤاني له كان حُبّاً قذراً شاذاً وليس علاقة حبّ بريء. كان (لويجي) يشاهد كُلّ يوم في حُلّةٍ تختلف عن جلّة أمسٍ وكلها من الحرير والمخمل، وكان جليّاً أنه سلك سبيل الرذيلة وانحطّ إلى الدركِ الأسفل من الخلق مهملاً مواهبه الرفيعة. ثم صار يتحاشاني ويتظاهر بعدم رؤيتي أو التثبت من شخصي

بعد أن أنبّته ولمتهُ على سلوكه سبيل هذه الرذائل الحيوانية التي ستدق عنقه يوماً ما كما حذرته من قبل.

ودفع خليله (جيوڤاني) مائة وخمسين كراونا ثمناً لجواد أسحم أصيل له. كان الجواد مرَوّضاً ومدرباً إلى آخر حدّ يركبه (لويجي) يومياً متباهياً طروباً ليقوم بزياراته للبغي (بانتاسيليا). وقد بلغني هذا فلم أحفل مثقال ذرة. إذ رأيت أن كلّ أمرئ يتصرف بحسب طبعه، وحصرت اهتمامي بدراساتي.

ثم وفي ذات يوم وكان الوقت صيفاً واليوم يوم أحدٍ، دعاني (ميكالانيولو) النحّات لتناول العشاء وكان (باكياكا) الصديق الذي ذكرته سابقاً مدعواً أيضاً وقد جاء مصطحباً (بانتاسيليا) رفيقة فراشه السابقة. فجلست إلى المائدة بيني وبين (باكياكا) وبعد أن مضى نصف مدة العشاء نهضتْ واستأذنتْ بالخروج قائلة إنها تشعر بضيق ولن تلبث أن تعود. ومضينا في تناول الطعام وتبادل الأحاديث الودّية. إلاّ أن غيابها طال دون داعٍ. وكنت قد أرهفت أذنيّ. وخيل لي أني سمعت ضحكة خفيفة في عرض الشارع. فقمت إلى النافذة القريبة إلى محّلّ جلوسنا والسكين الذي أستعمله في الأكل بيدي وبمجرد أن رفعت نفسي قليلاً، أمكنني أن أشاهدهما معاً في الزقاق: (لويجي بولجي) و(بانتاسيلبا) وسمعت الأول منهما يقول:

ـ لو شاهدنا هذا الشيطان (بنڤنوتو) لكانت عاقبتنا وخيمة.

فأجابته:

ـ لا داعي للخوف. أسمع الضجة التي يحدثونها. نحن آخر من يفكرون فيه.

لم يكن لديّ شكّ في هويتهما. عندما سمعت أقوالهما إندفعت من النافذة وقبضت على (لويجي) من معطفه. وكنت سأقضي عليه بالسكين التي في يدي إلاّ أنه كان ممتطياً جواداً صغيراً أبلق فلكزه بمهمازيه وانطلق تاركاً معطفه في قبضتي ناجياً بجلده. ولجأت (بانتاسيليا) إلى الكنيسة المجاورة. وفي عين الوقت خرج الجميع يتراكضون وراحوا يتوسلون بي أن اهدأ وأكبح جماح غضبي ولا أزعج نفسي وأزعجهم بسبب مومس رخيصة. فأجبت إني غير مهتم بها ولكني مهتم بأمر هذا الفتى الوغد الذي هزأ بي وازدراني. ورفضت أي تبرير وأصممت أذني عن

المحاولات التي كانت تبذل لإقناعي بإهمال القضية. والتقطت سيفي وانطلقت بمفردي باتّجاه (براتي Prati) ولم يكن المنزل الذي تناولنا فيه العشاء بعيداً عن باب القلعة المؤدي إلى (براتي).

ما لبثت الشمس بعد مسيري أن اذنت بالغرْوب. عدت إلى داخل روما وأنا أسير الهوينا. وكان الظلام قد ساد إلاّ أن أبواب المدينة لم تُغلق بعد. بعد الغروب بحوالي ساعتين بلغت منزل (بانتاسيليا). وكنت قد صممت على أن أنزل البلاء الأعظم بكليهما إن وجدت (لويجي) هناك. وبعد أن أكد لي سمعي وبصري أن المنزل خالٍ إلاّ من خادمة حقيرة صغيرة السن تدعى (كانيدا Canida) عدتُ أدراجي إلى منزلي وتخلصتُ من معطفي وغمد سيفي وكررت راجعاً إلى المنزل الذي كان خلف الضفة على نهر التيبر. كان ثم عوسج شائك كثيف هو سياج لحديقة تعود إلى Bamchi صاحب حان يدعى (روملو Romolo) تقع مقابل المنزل فأخفيت نفسي فيه منتظراً عودة المرأة مع لويجي. وبعد برهة مارأيت إلاّ و(باكياكا) يقف إلى جانبي لا أدري كيف؟ أكان حدساً منه أو أنّ أحداً دلة على مخبئي. همس في أذني بصوت حفيض:

ـ أهذا هو ثرثاري؟ (بهذا كان ينادي أحدنا الآخر تحبباً وعلى سبيل المزاح) ثم راح يتوّسل بي وهو يكاد يبكي ويستحلفني بمحبة الله أن لا ألحق أذىً بالفتاة المسكينة فهي غير ملومة قطّ.

فأجبته:

ـ إن لم تنصرف فوراً فإني سأهوي بسيفي على رأسك.

وإستبدّ الرعُب بـ(ثرثاري) صديقي القديم عند سماعه ما قلت بحيث قُلقلت أمعاؤه وشعر بإسهال لا قبل بدفعه فانسحب يقذف ما في جوفه. كانت الليلة صافية الأديم متلألأة النجوم مُقمرة. وسمعت فجأة وقع سنابك خيل كثيرة تدنو من الجهتين، كان (لويجي) بعينه تصحبه (بانتاسيليا) مع السيّد (بنفنياتو Benvegnato) المواطن البيروجي أحد حجّاب البابا كليمنت وأربعة ضباط بيروجيين ممتازين وبعض الجنود الفتيان الأشداء وكانوا بجملتهم يبلغون إثني عشر سيّافاً.

ما أن أبصرت هذا وأدركت بألاّ سبيل للنجاة بالفرار. قررت التراجع والاستتار

بالعوسج. إلاّ أن الألم برّح بي من جراء وخزات الشوك التي كانت تنال من جسمي كما ينال الشوك من جسم الثور فوطدْت العزم على الوثوب خارجاً والفرار بجلدي وفي تلك اللحظة سمعت (لويجي) يقول وهو يطوق عنق (بانتاسيليا) بذراعه:

ـ قبلة أخرى نكايةً بذاك الخائن الدساس (بنڤنوتو).

اجتمعتْ وخزات الشوك وكلمات الشاب لإشعال النار في أحشائي فما وجدتُ نفسي إلاّ وأنا أهم شاهراً سيفي وأنا أصيح:

ـ إني قاتلكم لا محالة.

وهوى سيفي بقوة هائلة على كتف (لويجي) إلاّ أن أصدقائه الصعاليك كانوا قد صفّحوه بزردٍ أو ما أشبه، فانحرف السيف وطاشت الضربة لتصيب أنف بانتاسيليا وفمها وسقط كلاهما على الأرض معاً. أما صاحبي (باكياكّا) الذي انسدل سرواله نصف المنزوع وتكوّر على قدميه فقد صرخ وأطلق ساقيه للريح. وحملت على الآخرين حملة عنيفة والسيف في يدي. وفي عين الوقت صدر ضجيج هائل من الحانة فخيّل للجنود البواسل أن سريّة من الجند تزيد على المائة في طريقها للإطباق عليهم. على أنهم انتضوا سيوفهم كافةً إلاّ أن زوجاً من الخيل أجفلت وأوقعت الخلل في صفوفهم وشاهدوا اثنين من أشجعهم قد سقطا على الأرض بسبب ذلك فما وسعهم إلاّ أن يلوذوا بالفرار. ولما رأيت النتيجة في صالحي قنعت بالإنسحاب بأسرع ما يمكن ولكن بصورة مشرّفة. إذ لم أشأ إستغلال حظي أكثر مما تحتمه الضرورة. في ذلك الإضطراب أصاب بعض الضباط والجنود أنفسهم بجراح. وسقط حاجب البابا (بنڤنياتو) الذي ذكرته برضوض وكدمات بعد أن رَمَحهُ البغل الذي كان يركبه ووطِئه وكال له بعض الرفسات. وسقط فوقه واحد من خدمه وكان منتضياً سيفه فأصابه بجرح نافذٍ في يده. وبنتيجة ما لقي من سوء حظ راح يشتم ويلعن أكثر من الآخرين ويصرخ متوعداً بالطريقة البيروجية المعهودة:

ـ قسماً بالله! سأنظر في أن يتولى بنڤنياتو تلقين بنڤنوتو درساً لن ينساه.

ثم أمر واحداً من ضباطه بأن يتعقبني ويلقي القبض عليّ. وربما كان هذا الفارس أشجع من الآخرين إلاّ أنه شاب صغير يفتقر إلى بعد النظر والحصافة. أقبل هذا

الفارس إلى المَحلّ الذي انسحبتُ إليه وكان منزلاً لنبيل من (نابولي) قدّر بعض أعمالي كلّ التقدير وأعجب بشخصيتي العسكرية وطابعي الحربيّ. فمال اليّ ميلاً شديداً وكان هو نفسه مغرماً للغاية بالفنون الحربيّة. وشجعتني الحفاوة التي لقيتها في منزله حتى لكأني سيد بيتي. فرددت على الضابط جواباً جعله يشعر بالندم بلا ريب على تعقيبي.

بعد بضعة أيام اندملت خلالها جراحهم ـ وأقصد جراح لويجي وبغيّه والآخرين وانفثأ غضب (بنڤنياتو) وهدأ قليلاً فقصد صديقي النبيل الذي كنتُ في ضيافته ليحاول إقناعي بمصالحة (لويجي). وأضاف يقول ان الفرسان البواسل الآخرين لا شأن لهم معي ولايضمرون لي سوءاً وأنهم يريدون التعرف بي ليس إلاّ. فأعلمهم النبيل المذكور بأنه سيأتي مصحوباً بي أينما شاؤوا وسيكون من دواعي سروره أن يقنعني بالصلح. إلاّ أنه اشترط أن لا يكون ثمّة عتاب وجدال من كلا الجانبين لأنه من الأمور المخزية جداً البعيدة عن اللياقة، ويكفي أن تجرى المراسيم المعتادة في مثل هذه المناسبات من معانقة وشرب الخمر معاً. وأنه سيكون المتكلم الوحيد وإنه لمسرور جداً لوضع نفسه في خدمتهم.

وهذا ماحصل: في أحد أيام الخميس أخذني هذا النبيل ليلاً إلى دار (بنڤنياتو) وكان جميع الجنود المنهزمين هناك وقد جلسوا حول المائدة. كان ثمّة شيء لن يتوقعه (بنڤنياتو) وهو أن صديقي جاء على رأس ثلاثين رجلاً صنديداً مدججين بالسلاح. دخلنا القاعة هو في المقدمة وأنا بعده وقال:

ـ حيّاكم الله أيها السادة! هذا بنڤنوتو الذي أعتبره كأخٍ، وهذا أنا جئنا هنا مستعدين لتنفيذ رغباتكم.

فأجاب (بنڤنياتو) وهو يواجه رجالنا قائلاً:

ـ نحن نريد السلم والصلح لا غير.

ثم تعهد بأن لا يزعجني بتعقيبات من شرطة روما. فتصالحنا وتصافينا. ثم عدت مباشرةً إلى دكاني وصديقي النبيل النابُليتاني يكاد يلازمني ملازمة الظلّ، لا تمر ساعة إلاّ وهو عندي أو مرسل أحد إتباعه يستدعيني.

أثناء ذلك شفي (لويجي) واستأنف تسكّعه على ظهر حصانة الأسود الفاحم الحسن الترويض. وفي ذات يوم كان يعرض فروسيته خارج باب بانتاسيليا تحت وابل من المطر فزلت بجواده القدم وسقط وحصانه فوقه فكسر فخذه الأيمن. وبعد أيام قلائل قضى نحبه في منزل (بانتاسيليا) وبهذا حقق نذره الذي شدّد عليه أمام الله. وهكذا يمكننا أن نرى كيف يجزي الله الصالح والطالح ويعطي كلّ إنسان ما يستحق.

في ذلك الحين شبّت نار الحرب الشاملة[1] وفزع الناس إلى السلاح. كان البابا كليمنت قد أرسل يطلب جنوداً من السيّد جيوڤاني دي مديتشي[2] وما وصلوا حتى انطلقوا في إرجاء روما يعيثون فساداً وعمت الفوضى حتى لم يعد يأمن المرء على نفسه من البقاء في دكان عمومي. وهذا ما دفعني إلى الإنزواء في منزل صغير لطيف خلف الضفة، مواصلاً أشغالي فيه لجميع الذين عددتهم أصدقاء لي. في ذلك الوقت لم يكن بيدي شيء ذو أهمية كبيرة. ولذلك لا سبب يدعوني هنا إلى التحدث عن عملي وقد وجدت سلواي العظمى في مزاولة الموسيقى وما جرى مجراها من وسائل التسلية.

اتبع البابا كليمنت نصيحة السيد (جاكوبو سالفياتي) فاستغنى عن الأفواج الخمسة التي أرسلها له السيد (جيوڤاني) الذي أدركه الأجل المحتوم في لومبارديا. وما أن بلغ الأمير البوربوني[3] ان روما خالية من قوة تحميها حتى زحف عليها بجيشه بأسرع ما أمكنه وهبّ أهل روما للدفاع عن أنفسهم بسلاحهم، ودرء الخطر عن مدينتهم.

كنت صديقاً حميماً (لاليساندرو) ابن (بيرو دل بيني Piro del Bene) وعندما هاجم

(1) بدأت الحرب بين الامبراطور شارل الخامس (شارلكان) وبين فرنسوا الأول ملك فرنسا في العام 1521 والفترة التي ينوه بها چلليني تتعلق بنقض البابا معاهدته مع الإمبراطور الذي قام بدوره بإرسال نائبه امير البوربون لمهاجمة روما في 1527.

(2) هو جيوڤاني دللاّ باندي المار ذكره وقد توفي متأثراً بجراحه كما جاء في حاشية سابقة.

(3) إنفصل شارل دي بوربون عن قريبه فرانسوا الأول في العام 1523 وتحالف مع الإمبراطور شارلكان وزحف على روما بجيش قوامه عصابات من المرتزقة الألمان وغيرهم من بلدان أوروبا. وفيما هو يضرب الحصار على المدينة أصابته رصاصة من المدافعين عن الأسوار بمقتل فقضى نحبه. وقد ادعى چلليني كما نرى بهذه المأثرة لنفسه إلاّ أن إدعاءه لم يؤيده أحدٌ.

(الكولونّيسي Colonnesi)[1] روما طلب مني في الواقع أن أتولى حراسة قصره وبناء على هذا رجاني الآن بأن أنتقي خمسين رجلاً أكون على رأسهم لأجل حراسة القصر مجدداً في هذه المناسبة التي تفوق سالفتها خطورةً. فانتقيت خمسين من الشبان الشجعان واتخذنا القصر مقرّاً حيث عوملنا خير معاملة ونُقدنا أجراً سخياً.

بلغت طلائع الجيش البوربوني في المدينة وعسكرت امام الأسوار فرجا منّي (اليساندرو دل بيني) أن أرافقه للإستكشاف. فاخترت واحداً من رجالي المخلصين وانطلقنا وانضمّ إلينا ونحن سائرون فتى يدعى (جكينو دللاّ كاسا Cecchino della Casa) ولما بلغنا اسوار (كامبو سانتو Compo Santo) لاحت لأعيننا جحافل ذلك الجيش المهيب وهو يبذل محاولات مستميتة لخرق السور والنفوذ إلى المدينة. واعتلينا ناحية من السور كان القتال فيها على أشدّه فشاهدنا عدداً كبيراً من جثث الشبان الذين فتك بهم المهاجمون وكان الضباب يغطي الموقع بصورة كثيفة لايتصورها العقل. التفت إلى اليساندرو وقلت:

ـ ألا فلنسرع بالعودة إلى القصر جُهدنا. فليس ثمة ما نعمله هنا والعدو الآن يتسلق الأسوار ورجالنا يطلقون سيقانهم للريح يبغون النجاة.

فشاع الخوف في اليساندرو وطفق يصيح:

ـ ليتنا لم نأت.

ودار على عقبية وهمّ بالفرار كالمجذوب. فصددته عن ذلك وصرخت به:

ـ أنت الذي جئت بي إلى هنا. وعلينا أن نثبت بأننا رجال.

وفي عين الوقت صوبت بارودتي إلى أكثف بقعة من صفوف العدو وأطلقتها مستهدفاً شخصاً مبرزاً يرتفع عن سائر المتحلقين حوله. وما أدري أكان فارساً أم راجلاً فقد حالت سحابة الدخان بيني وبين التثبت منه، ثم استدرت بعجلةٍ شديدة

---

(1) نسبة إلى (كولونا) وهي أسرة شهيرة إيطالية تداني شهرتها آل مديتشي وفارنيزي وبورجيا وغيرها. ظهر منهم الساسة والقادة والباباوات. وقد تحالفت هذه الأسرة مع الإمبراطور وفي العام 1526 خاصموا البابا كليمنت. وكان يرأس مسلّحيهم (بومبيو كولونا Pompeo Colona) فأشاعوا الرعب بين الأهلين وأجبروا البابا كليمنت على اللجوء إلى قلعة سانت أنجلو، إلى أن عقدت معاهدة 1526 وكانت في صالح الإمبراطور.

نحو (اليساندرو) و(جكينو) وأشرت عليهم بإطلاق بواريدهم مرشداً إياهما إلى كيفية إطلاقها بحيث يتحاشون نار المهاجمين. ورمى كلّ مِنّا بندقتين متتاليتين ثم تطلعت أمامي مختلساً النظر من فوق السور فوجدت اضطراباً عظيماً يسود جحافل العدوّ ذلك لأن واحدة من بندقاتنا قد أصابت أمير البوربون بمقتل. ومما استنتجت فيما بعد لا بُدّ وانه كان ذلك الرجل الذي استهدفته بندقتي لبروزه عن جماعته.

بعد هذا انسحبنا فقطعنا (كامبوسانتو) ودخلنا من باب (سان بيترو) ثم درنا من خلف لنخرج ونحن عند كنيسة (سانت أنجلو) وبذلنا أقصى جهدٍ للوصول إلى باب القلعة إذ كان كلّ من (رينزو دا جيري Rienzo da Cerie) و(أورازيو باليوني Orazio Baylioni)[1] منهمكين في قتل أو جرح كل من هرب من القتال فوق الأسوار. وفي الوقت الذي بلغنا المدخل. كان بعض قوات العدو قد إقتحم روما فراحت تجدّ في اثرنا. وكان قائد الحصن يهمّ بإنزال الأبواب الوقائية وسدّ المدخل فأخلى طريقاً وهذا ما مكننا من شقّ طريقنا إلى الداخل.

ما أن أحتوتنا القلعة حتى أمسك بي القائد (باللوني دي مديتشي Pallone de Medici) وإستبقاني لأني كنت من موظفي القلعة. وأجبرني آسفاً على مفارقة (اليساندرو) وفيما كنت أصعد إلى البرج دخل البابا القلعة من الأنفاق السرية وكان قد أبى مغادرة قصر سانت بيتر مستبعداً أن يقوى العدو على إقتحام أسوار روما ودخولها فاتحاً.

وهكذا وجدت نفسي في القلعة. دنوت من بعض المدافع التي كانت بإمرة مدفعيّ يدعى كوبانو الفلورنسي. فرأيته واقفاً يتطلع من فوق السور إلى منزله وهو في يد الأعداء ينهبون ما فيه ويعتدون على امرأته وأولاده. ولم يجسر على إطلاق المدافع خشية أن تصيب أسرته، فرمى بفتيلة القدح وأنشأ يلطم وجهه وينتحب بحرقةٍ ولم تكن حال المدفعيين الآخرين بأحسن من حاله فقد أصابهم شلل. عندما رأيت هذا

---

(1) من افراد أسرة بيروجية شهيرة عرف رجالها بشدة المراس. كان سجين البابا في قلعة سانت أنجلو فأطلق سراحه لأجل الدفاع عن الحصن والمدينة. صار فيما بعد قائداً للباندنيزي وقُتل وهو يخوض معركة في نابولي (1528).

أمسكت بقادح ورحت بمعونة من بقي محتفظاً برَباطة جأشه، أوجه بعض المدافع الثقيلة والخفيفة وأطلقها على تجمعات العدوّ حيثما اقتضت الحاجة. وبهذا الشكل جندلت عدداً كبيراً من أفراد العدو ولولا صنيعي هذا لاستطاعت القوات الغازية التي دخلت روما صباحاً وزحفت على الحصن مباشرة، أن تقتحمه بسهولة لأن المدافع كانت عاطلة. واصلت إطلاق القذائف دون توقف بمصاحبة بركات الكرادلة وتشجيع رهط النبلاء فشدّ ذلك من عزمي ورفع معنوياتي بحيث صرتُ أحاول المستحيل. وعلى كلْ يكفي القول إن ما قمت به كان العامل الوحيد الذي أنقذ الحصن صباح ذلك اليوم وإن عملي أدى إلى عودة المدفعيين إلى واجباتهم. ولم أتوقف لحظة واحدة طول اليوم حتى حلّ الظلام.

ثم، وفي أثناء ما كان جيش العدو يتدفق إلى داخل روما من جهة (تراستيفيري Trastevere) عيّن البابا (أنطونيو سانتا كروجي Antonio Santa Croce) وهو نبيل روماني عالي القَدْر قائداً للمدفعيّة. فكان أول ما عمل أن جاء إليّ وأظهر لي عطفاً لا مزيد عليه ونصبني آمراً لبطارية تتألف من خمسة مدافع ممتازة في (الانجيل: البرج Aingel) وهي أعلى موضع في القلعة. تلك باحةٌ تدور على طول القلعة وتشرف على (براتي) وسائر أحياء روما. ووضع تحت إمرتي فصيلاً من الجند لمعاونتي في معالجة المدافع ودفع مخصصاتي مقدماً وأجرى عليّ خبزاً وخمراً، ثم رجاني الإستمرار بالشكل الذي بدأتهُ. وكنت شديد الشوق والرغبة في الواقع ربما لأن طبعي يميل إلى الحرب والقتال أكثر من مزاولتي صناعتي الحقيقية. وبنتيجة ذلك كان إنجازي هنا أعظم بكثير من إنجازي في صنعة الصياغة!

أرخى الليل سدوله وبه أتمّ العدوّ إحتلال روما. ووقفنا نحن المدافعين عن القلعة وأنا بالذات الذي كان لا يملّ من الإستمتاع برؤية الأشياء غير الإعتياديّة ـ وقفنا نتأمل في الحرائق والمنظر الذي لا يصدق الممتد أمام أعيننا. لقد بلغ من الغرابة بحيث لا يمكن أن يتصوره أو يتميزه أحدٌ إلاّ أولئك الموجودين في القلعة. على أني لن أعمد إلى وصف هذا المشهد. وسأقصر الكلام عن وقائع حياتي وما يتعلق بها من أحداث مباشرةً.

لم أتوقف مطلقاً عن إطلاق مدافعي خلال شهر كامل كُنّا خلاله محاصرين داخل

القلعة. وقد جرّ هذا إلى مختلف الأحداث والوقائع وكلها يستأهل الذكر. إلاّ أن كرهي الإطالة سيجعلني أهمل التفاصيل حول ما لا يتعلق بحرفتي. وسأترك معظمها وأصف فحسب ما لا بُدّ لي منه ـ أعني الوقائع التي تمتاز بأكثر الطرافة والغرابة. وأوّلها هو أن السيد (أنطونيو سانتا كروجي) طلب مني النزول من البرج لأوجّه بعض القذائف إلى بعض المنازل القريبة من القلعة كان قد احتلها بعض رجال العدو. وفيما أنا أصليهم بقنابري، سددت قذيفة مدفع موجهة اليّ إلاّ إنها أصابت السور وهدمت جزءاً منه. ولم أصب بسوء إلاّ أن الانقاض إنهالت من الأعلى وسقطت على صدري فألقتني على الأرض مبهور الأنفاس جثة هامدة كالمغمى عليه. لكن كان في وسعي أن أسمع أقوال الناس الواقفين حولي. وسمعت (أنطونيو سانتا كروجي) يصرخ بألمٍ:

ـ وا أسفي عليه! فقدنا فيه خير ما لدينا من عضيد.

واجتذبت الضجّة إلينا صاحباً لي وهو الزّامر (جيانفرانشسكو) وبصرف النظر عن أسمه الذي ينم عن حرفته فقد كان إطلاعه في أمور الطب يفوق تمكنه من الموسيقى. شاهد ما وقع وأسرع وهو يبكي وجاء بقارورة من أجود الخمور اليونانية ثم سخن آجره حتى احمرّت من فرط الحرارة. ووضع فوقها ملء كفّ من الأفسنتين وسكب فوقه محتويات القارورة. وعندما تشبعت الأعشاب بالخمر وضع الآجرة على صدري فوق الرضّ الظاهر وضغط عليها. وأحدث الأفسنتين أثره في الحال فعاد اليّ رشدي وحاولت أن أقول شيئاً لكن صوتي احتبس في حلقي ولم أستطع النطق بشيء. والسبب هو أن بعض الجنود الأغبياء بادروا إلى حشو فمي بالتراب معتقدين أنهم يمنحونني بذلك الأسرار الأخيرة. في حين أنهم كادوا يقضوا عَليّ بالحرمان الكنسي بقدر ما يتعلق الأمر بحياتي! وعانيت الأمرين حتى عدت إلى حالتي الطبيعية. فما أصابني من التراب كان أشدّ مما اصابني من الضربة؛ بعد أن تمالكت نفسي تماماً عدتُ إلى أتون المدافع أطلقها بكلّ حماسةٍ ومثابرة.

لجأ البابا إلى طلب العون من دوق أوربينو[1] الذي كان يقود جيش البندقية.

---

(1) هو (فرانشسكو ماريا دللاّ روفيري) القائد العام لجيوش البابا والتعريض الذي يخصه به جلليني لا شكّ يستأهله لعدم كفاءته أو ربما لخيانته.

وأرسل له من يعلمه بخطته وهي: تضرم القلعة ثلاث نيران تحذيرية من أعلى بنائها بصورة متواصلة كل ليلة وتطلق ثلاث قذائف معاً ثلاث مرات. طالما ترسل القلعة هذه الإشارة. فمعناه أنها ما زالت صامدة. وكان من ضمن واجباتي إشعال النيران وإطلاق المدافع. وواصلت أثناء النهار توجيه قذائف مدافعي حيث تحدث أكثر ما يمكن من الضرر وارتفعت مكانتي عند البابا بعد أن شاهد بنفسه كيف أقوم بواجبي. ولم تأت النجدة من الدوق ولا أريد الخوض في الحديث عن العلل والأسباب فهذا ليس من شأني واللبيب تكفيه الإشارة.

وبينما كنتُ مثابراً في أعمال إبليس هذه، اعتاد بعض الكرادلة المقيمين في القلعة أن يختلفوا اليّ ويراقبوني. ولا سيما كردينال رافنا وكردينال دي كادّي de Gaddi[1] وقد رجوت هذين الاثنين أكثر من مَرّة بأن لا يقتربا كثيراً مني لأن طاقيّتيهما الحمراوين البغيضتين يمكن مشاهدتهما من مسافةٍ بعيدة، ونجم عن ذلك إننا تعرضنا إلى خطرٍ كبير من البنايات المجاورة مثل قصر (توزي دي بيني Torre de Bini) ولما لم يؤثّر قولي فيهما أمرت بقفل غرفتيهما عليهما، وبذلك خلقت لي منهما عدوّين لدودين.

فضلاً عن هذا كثيراً ماكنت أحظى بزيارة (أورازيو باليوني) الذي كان شديد الحبّ لي. وذات مَرّة بينما كان يبادلني الحديث لاحظ تجمعاً ولغطاً في حانة كانت تقع خارج مدخل القلعة في محلة تدعى (باكّانللو Baccanello) ولافتة الحانة كانت على شكل شمس حمراء اللون رُسمت بين إثنين من النوافذ. وكانت النافذتان مسدودتين الأمر الذي استنتج منه (أورازيو) وجود جمع حاشدٍ من الجنود خلفها ووراء اللافتة بالضبط يعاقرون الخمر ويحتفلون. فقال لي:

- بنفنوتو! لو أنك انحرفت عن سبيلك وأطلقت قذيفة مدفعك الصغير بمسافة

---

(1) وضع هذا الكردينال بمثابة رهينة عند حلفاء الإمبراطور، وأرسل إلى نابولي ولما قُتل اليساندرو دي مديتشي (أنظر الحواشي السالفة) قام بمحاولة فاشلة لإعادة النظام الجمهوري في فلورنسا. ورد ذكره أكثر من مَرّة في هذه المذكرات وكانت وفاته في العام 1552.

ذراعٍ من اللافتة فأغلب ظني أنك ستحقق عملاً مأثوراً. هناك ضجيج ولغط عظيمان يصدران من الحانة ولا بُدّ وأن فيها بعضٌ من ذوي الشأن والمكانة.

قلت:

ـ اني قادر على إصابة الهدف في القلب. إلاّ اني قلق بسبب برميل مليء بالحجارة كان قائماً بالقرب من فوهة المدفع فقد ينقلب ويسقط إلى الأسفل بتأثير قوّة الإطلاق.

فأجاب يقول:

ـ لا تضع الوقت يا بنفنوتو فأولاً لا يمكن أن يسقط بقوة إندفاع القذيفة وموضعه كما ترى. وثانياً لو سقط فالضرر الناجم سيكون بسيطاً لا كما تعتقد وان كان البابا نفسه يتمشى تحته. أطلق مدفعك.

كان في هذا فصل الخطاب. وأطلقت مدفعي وأصبت الشمس في الصميم مثلما وعدتُ. لكني كنت قلقاً حول البرميل فقد سقط كما قدرتُ بين الكردينالين فارنيزي[1] وجاكوبو سالفياتي ولولا الصدفة البحتة لقضي عليهما وسُحقا تحته. فقد كان الكردينال في تلك اللحظة يلوم زميله لأنه تسبب في حصار روما ونهبها ولهذا أخذا يتبادلان السباب فابتعد أحدهما عن الآخر ليكون أقدر على التعبير عن آرائه. وبهذا التباعد أخطأهما البرميل. وسمع السيد الطيب (أورازيو) الدوي فاندفع إلى تحت، واختلستُ نظرةً إلى الصحن في الأسفل حيث سقط البرميل فسمعتهما يقولان:

ـ لا بدّ من قتل المدفعي.

وعندها وجهت فوهة مدفعين نحو الدرج عازماً على أن يتلقى أوّل القادمين كائناً من كان كلّ القوة الضاربة لواحد منهما. ولا شك في ان بعض اتباع الكردينال (فارنيزي) أُمروا بالصعود والهجوم عليّ فوقفت عند المدفع وبيدي فتيل القدح مشتعلاً وصرخت بالمهاجمين وقد عرفت بعضاً منهم:

ـ إياكم أيها الحمقى الحقراء أخاطب! إن أجترأ أحدكم على ارتقاء هذه الدرجات

---

(1) فيما بعد انتخب بابا وتسمّى باسم بولس الثالث.

فلديّ مدفعان مهيآن وسأجعل اشلاءكم تتطاير. انكُصوا على اعقابكم. عودوا ادرجكم وخبروا الكردينال باني كنت أنفذ أوامر رؤسائي. وكل ما فعلنا وما سنفعل هو في سبيل الدفاع عن هؤلاء الكهنة لا إلحاق الأذى بهم.

فعادوا من حيث أتوا وأقبل (اورازيو باليوني) على أثرهم يعدو ويصعد الدرج نهباً فصحت به محذراً وأنا على علم تام بهويته. الاّ يتقدم والاّ فهو هالك. فتأخر قليلاً وفيه بعض خوف ثم قال:

- بنفنوتو! أنا صديقك.

فأجبت:

- طيب. لا بأس يا سيدّي تفضلْ ولكن بمفردك.

كان ذا كبرياء وعزّة نفس. فوقف ساكناً هنيهةً ثم قال بلهجة غاضبة:

- تحدثني نفسي بأن لا أتقدم وأن أفعل بعكس ما أنوى عمله بك تماماً.

فأجبته:

- مثلما كان وجودي هنا لغرض الدفاع عن الآخرين وحمايتهم. كذلك إني لقادر على الدفاع عن نفسي وحمايتها.

وعلى أثر هذا قال إنه جاء بمفرده. وعندما بلغ القمّة رأيت سحنته منقلبة. فوقفت هناك منتظراً ويدي على قبضة سيفي أصوب إليه نظراً حاداً. وما أن تلاقت أنظارنا حتى بدأ يضحك وانفرجت أساريره وعادت إلى هيئها الطبيعية ثم قال متلطفاً:

- عزيزي بنفنوتو. اني لأشعر نحوك بأعظم الحبّ. وسأثبت لك ذلك بمشيئة الله. كنت أتمنى من صميم قلبي لو قضيت على هذين الوغدين. فأحدهما هو علّة كلّ هذه البلوى. ومن المحتمل جداً أن الثاني سيأتي بما هو أدهى وأمرّ.

ثم طلب مني (في حالة السؤال مني) أن لا أذكر وجوده معي عندما أطلقت المدفع. وأن لا أهتم أو أقلق بعد هذا.

انجرّت هذه الحادثة إلى مضاعفات عظيمة. ولم يسدل عليها الستار إلاّ بعد وقت طويل جداً. إلاّ اني لا أريد التعقيب على ذيولها وسأقتصر على القول بأني كدت أثار

للوالد من (جاكوبو سالفياتي) الذي على حدّ قوله قد أساء إليه مرات ومرّات. ونكّل به. على اني ولو بدون قصدٍ؛ أرعبتُه وأريته الموت شاخصاً أمامه[1] أما عن (فارنيزي) فلا أقول عنه الآن شيئاً. وسيتبين من السياق كم كان من الخير لي لو قتلته[2].

واصلت القتال بمدافعي. لا يمرّ عليّ يوم إلاّ وأسجل فيه مأثرة جديدة ونجاحاً باهراً لا ينقضي يوم عليّ ان لم اجندل فيه بعض المحاصِرين فيرتفع رصيدي عند البابا بإطراد.

واتفق ذات يومٍ أن البابا كان يتمشى حول الحصن ولمح في (براتي) كولونيلاً إسبانياً كان في خدمته قبلاً. وعرفه من ميزات جسمانية معينة فيه. وبينما كان يخزره ببصره من فوق طفق يتحدث عَنه. وبدون علم مني بهذا كنت في نفس الوقت أتطلع وأنا في أعلى نقطة من البرج فشاهدت شخصاً يشرف على حفر الخنادق كان يحمل رمحاً ويرتدي بزة عسكرية ورديّة اللون. صرت أفكر كيف أناله فتناولت مدفعاً صغيراً كان بالقرب مني ونظفته ـ إن المدفع الصغير هو في الواقع أكبر وأطول من البندقية ذات الحامل الدائر على الركيزة والشبيه جداً بالبندقية القصيرة. بعد أن نظفته حشوته بقدر كبير من البارود الناعم مخلوطاً بالخشن. وصوبت إليه باحكام رافعاً السبطانه في الهواء. لأنه كان على مسافة بعيدة ولا ينتظر من هذا الطراز من المدافع إصابة الهدف بدقة من هذا المدى. ثم أطلقت النار فأصبته في وسطه بالضبط. كان قد شد سيفه بتلك الخيلاء الإسبانية المعهودة لا إلى الجنب بل إلى أمام فأصابت القذيفة السيف وشطرت حامله شطرين. بلغ العجب بالبابا منتهاه فضلاً عن سروره بما حصل وقد فوّجئ بالأمر وهو ما زال يتحدث عن الرجل. إذ كان يستبعد جداً أن يصيب أي شكل من المدافع هدفه من هذه المسافة البعيدة، بل يراه ضرباً من المحال. ولم يستطع أن يفهم كيف قُطع الرجل بالقذيفة إلى قسمين ولذلك أرسل بطلبي وسألني الإيضاح.

فخبرته بما تكلفته من عناءٍ في التصويب وأما عن قطع الرجل إلى نصفين فهذا

---

(1) أنظر ما سبق حول محاكمة چلليني.

(2) يلمح چلليني بهذا إلى إعتقاله الطويل الأمد في قلعة سانت أنجلو بأمر من البابا بولس الثالث فارنيزي وسيأتي ذكره في القسم الثاني من المذكرات..

أمر لا أستطيع تعليله ولا يستطيع هو نفسه. ثم خررت راكعاً على ركبتي طالباً غفران خطيئة القتل هذه وأمثالها التي اقترفتها دفاعاً عن الكنيسة في القلعة. فرفع يده ورسم شارة صليب كبيرة على رأسي وقال إنه يمنحني بركته ويغفر لي كلّ القتول التي ارتكبها في خدمة الكنيسة الرسولية. بعد ان انصرفتُ من لدنه صعدت إلى البرج وواصلت إطلاق قذائفي بإحكام. ولم تضع قذيفة واحدة عبثاً. وملك القتال عليّ كلّ مشاعري فنسيت دراساتي، رسومي، موسيقاي المحبوبة ضاعت كلها بموسيقى المدافع كلّها. ولو أني أوردت تفاصيل العظائم التي صنعتها في جهنم الحمراء هذه لأدهشت العالمين إلاّ اني سأمرّ بها مَرّ الكرام خشية الإطالة. بإستثناء بعض الأحداث الهامة الأخرى التي لا يسعني اغفالها.

أجل كان كل أفكاري يتركز ليلاً ونهاراً فيما يمكنني عمله شخصياً للدفاع عن الكنيسة. ولعلمي أن العدو عندما يبدّل الحرس اعتاد المرور من باب (سانتوسبيريتو) الكبير وهو ضمن مدى مدافعي تماماً. فبدأت أوجه ناري إلى تلك الجهة. إلاّ اني لم أوقع بالعدوّ الخسائر التي كنتُ أرجوها لأن الرمي كان منحرفاً. وإن كان عدد القتلى الذي ينجم عن قذائفي مما لا يُستهان به. ولما تبين العدو أن طريقه معرض للخطر قام في احدى الليالي بتكديس أكثر من ثلاثين برميلاً فوق سقف بنايةٍ وبذلك حجب عني خطّ الروية. فبدأت أفكرّ ملياً في وسيلة لمعالجة الموضوع فاهتديت إلى حَلّ. حولت اتجاه مدافعي الثقيلة الخمسة إلى البراميل مباشرة ثم انتظرت إلى الساعة الثانية قبل المغرب وقتما يتم تبديل الحرس مباشرةً.

ولأن الحرس كانوا يتصورون بأنهم غير معرضين لخطرٍ ما فقد أقبلوا على هونهم بنفوس مطمئنة وبصورة متحاشدة وصفوف متقاربة أكثر من المعتاد. فلما أطلقت مدافعي لم أنسف البراميل التي كانت تعوقني بل قتلتُ أكثر من ثلاثين رجلاً دفعة واحدة نتيجة سقوط هذه البراميل عليهم وحققت عين القدر من الخسائر مرتين أخريين، وأوقعت خللاً كبيراً في صفوف العدو. وبنتيجة هذا وكذلك لأنهم أثقلوا بالأسلاب جراء النهب العظيم ورغبتهم في التمتع بما كلفهم الغالي من التضحيات، فقد سادتهم روح العصيان والهروب من الخدمة على أن قائدهم المقدام جيان دي

أوربينو Gian di Urbino[1] سكّن ثائرتهم. وأضطروا كارهين إلى استبدال طريقهم، وسلوك سبيل دائرية بطول ثلاثة أميال عوضا عن نصف الميل السابق.

بعد هذه المأثرة صرت موضع إحترام وتكريم خاص من قبل جميع النبلاء في القلعة وقد أدى ذلك إلى نتائج كنت أريد أن أذكرها وأنفض يدي منها لكنها أُمور لا علاقة لها بصناعتي وهي الدافع الحقيقي لما أدوّنهُ. ولو شئت تزيين قصة حياتي بأحداث من هذا القبيل لأطلت الكتابة كثيراً. إلاّ أن ثم حادثاً واحداً ينبغي لي أن أذكره.

وسأغفل الكثير وأجيء إلى الوقت الذي استدعاني البابا كليمنت وقد استبدّ به القلق والحرص على إنقاذ التيجان البابوية والأكداس المكدسة من الأحجار الكريمة والحلي الرائعة التي تعود إلى الكرسي الرسولي. أخذني إلى غرفته وأغلق علينا الباب وكان ثالثنا (كافاليرينو Cavalierino) فقط، وهو في السابق سائس خيل النبيل (فيليبو ستروزي)[2] فرنسي المولد وضيع المنبت لكنه خادم مخلص للغاية وأهل للثقة دون حدّ، وكان البابا كليمنت قد صبّ النقود في جيبه واعتمد عليه اعتماده على نفسه. لم يكن في الغرفة المقفلة غيرنا نحن الثلاثة: البابا، كافاليرينو، أنا. وضعا التيجان البابوية، وأكداس الجواهر العائدة للسدّة الرسولية أمامي وأُمرت بنزاع الأحجار الكريمة من مواضعها في الحلي الذهبية. فقمت بما طلب منّي. وبعد أن لففتها بالكاغد خِطناها ببطانة ثياب البابا وثياب كافاليرينو، بعد فراغنا من هذا دفعاً اليّ بكل الذهب المتخلّف وتقدر زنته بحوالي مائتي باوند وطلبا مني أن أصهره وأجعله سبائك بنهاية ما يمكن من السريّة. فصعدت إلى البرج حيث أمنت من دخيلٍ أو رقيب وكان لديّ غرفتي الخاصة ومفتاحها في يدي وبإمكاني إقفالها. بنيت داخل الغرفة كوراً من الآجر ووضعت في قعره وعاء كبيراً مما يستخدم لإحتواء نفاية المعدن على شكل

---

(1) قائد إسباني شهير كان في معية أمير أورانج الهولندي أثناء الحصار.

(2) ورد ذكره في حاشية سابقة. تزوج بابنة بييرو دي مديتشي إلاّ أنه كان أشدّ خصوم هذه الأسرة. بعد موقعة مونتيمورلو الذي هزم فيها سجن. وإما قتل نفسه أو إنه قتل داخل السجن بأمرٍ من الدوق كوزيمو دي مديتشي في 1539.

صحفة طعام وبدأت أضع الذهب فوق الفحم فأخذ يذوب ويسيل شيئاً فشيئاً في الصحفة. وكنت طوال الوقت والكور متقدٌ ـ لا أفوّت فرصة واحدة في الحاق الخسائر بالعدو. أتابع تحركاته وأستطلع من علٍ. وكان مخندقاً تحتنا على مرمى حجر منّا. فقررت أن أطلق عليهم بعض نفايات وكسارات من الذخيرة من أكداسٍ وجدتها هناك كانت فيما مضى تستخدم بمثابة عتادٍ فتخيّرت مدفعاً صغيراً وآخر متوسطاً كلاهما معطوب السبطانة. وحشوتهما بالعتاد الفاسد وأطلقتهما. فانهالت مقذوفاتي عليهم كالحمم وأصابت العدو بضربات قاصمة لم تكن داخلةً في حسابه، وفي أثناء انهماكي بهذا واصلت عملية صهر الذهب. وقبل صلاة الغروب بقليل لمحت شخصاً يمتطي بغلاً يخبّ به بسرعةٍ على طول الخنادق والراكب يكلّم المخندقين. وكنت مستعداً بمدفعي قبل أن يصير مقابل خطّ ناري. فصوبت بدقةٍ وأصبته في وجهه بقطعة من الذخيرة التي كنت أستخدمها وأصابت بقية القذائف البغل فسقط ميتاً تحته. وعلى إثر ذلك سمعت ضجّة وصيحات هائلة من الخنادق، فأطلقت المدفع الثاني ناشراً الخراب والدمار.

الرجل الذي أصبتهُ كان أمير اورانج[1] وقد حُمل من الخنادق إلى الحانة القريبة. وبعد قليل من الوقت توافد إليها كلّ القادة وأمراء العسكر واجتمعوا معاً. ولما سمع البابا بما حصل أرسل بطلبي وسألني كيف حصل هذا فقصصت الحكاية وزدت قائلاً: لا بد وأن الجريح عالي المقام لأن كل قادة الجيش أسرعوا إلى الحانة التي نقل إليها وهم الآن فيها مجتمعون.

كان البابا كليمنت سريع الخاطر ذا ذكاء متوقدٍ فاستدعى قائد المدفعية (أنطونيو سانتا كروجي) وهو السيد الذي كنت قد ذكرته قبلاً وطلب منه أن يأمر سائر مدفعييه بتوجيه مدافعهم (وكان لدينا منها عدد يفوق الحصر) إلى هدفٍ واحد وهو الحانة. وأن يصبّوا قذائفهم عليها في وقت واحدٍ عندما يسمعون الإشارة وهي اطلاقة بندقية.

---

(1) هو فيلبرت دي شالون Philbrert de Chalons نقض حلفه مع فرانسوا الأول وإنحاز إلى الامبراطور، ولذلك خلف أمير البوربون في قيادة الجيش الذي هاجم روما. وافاه الأجل و1530 أثناء معركة كافينانا Cavinana.

وكان بذلك يتوقع القضاء على كلّ القادة. ومن نتيجة ذلك أن يتمزق الجيش وينحلّ بعد أن كانت الفوضى قد دبت فيه. وزاد قائلاً:

ـ ربما سمع الله صلوات أولئك الذين لم ينفكوا عن التوجه إليه بضراعتهم فيكون هذا هو السبيل لتحررهم من الصعاليك الكفرة هؤلاء.

تهيأنا بمدافعنا طِبق أوامر (سانتا كروجي) وصرنا ننتظر إشارة البدء. وسمع الكردينال (أورسينو Orsino) بما يجري فهرع إلى البابا يحتجّ. وقال انه محض جنون تنفيذ هذه العملية، بَعد أن أشرفوا على عقد الصلح. فلو قضي على القادة الكبار فإن الجنود الذين سيصبحون بدون ضابطٍ سيهاجمون القلعة ويقتحمونها ويلحقون الدمار التام بكلّ شيء. فهو مهددٌ من الداخل قدر ما هو مهدد من الخارج. وفي لحظة يأسٍ ترك القرار لهم فألغيت الأوامر السابقة. ولإدراكي بأننا سنؤمر بالتوقف عن الإطلاق. فقدتُ السيطرة على نفسي وأطلقت أحد المدافع الصغيرة فأصبت أحد أعمدة باحة البيت الذي كان ثمة تجمع فيه. وأحدثت قذيفتي تخريباً كبيراً بحيث همّ العدوّ بإخلاء المكان. وأراد كردينال (اورسينو) أن أشنق أو أرمى بالرصاص فوراً لولا دفاع البابا الحار عني. ومع أني أتذكر جيداً العبارات الخشنة الغاضبة التي تبودلت بينهما إلاّ اني لن أثبتها لأني لا أكتب تاريخاً وسأقصر الموضوع على شووني الشخصيّة.

بعد إذابتي الذهب حملته إلى البابا فشكرني بحرارة على حسن صنيعي ثم أمر كافالييرينو بإعطائي خمسة وعشرين كراوناً معتذراً بأنه لا يملك أكثر لمكافأتي. وبعد بضعة أيام تمّ إعلان الصلح[1].

انطلقت باتجاه (بيروجيا) برفقة كتيبة تتألف من ثلاثمائة رجل للإنضمام إلى (اورازيو باليوني). وهناك صار يلحّ عليّ بقبول قيادة الكتيبة. فرفضت وقلت إني أريد أولاً الذهاب لرؤية الوالد. وثانياً لرفع عقوبة النفي المفروضة عليّ في فلورنسا. وهنا

---

(1) سُلمت القلعة في الخامس من حزيران إلاّ أن البابا كليمنت ظلّ حتى الثامن من تشرين الثاني معتقلاً ولا شبهة في أن چلليني ساهم في الدفاع عن الحصن حتى الأخير. على أن وصفه لبطولاته ومآثره يجب أن يؤخذ ببعض التحفظ. وللوصول إلى أوثق الروايات عن حصار روما، أنظر باكي (المرجع السالف ص71).

بُلّغ بأمر تسلمه قيادة قوات فلورنسا. وكان على إتصال بالموفد الفلورنسي (بييرماريا دي لوتو Pier Maria di Lotto) وقد زكّاني أمامه خير تزكية باعتباري واحداً من رجاله.

وهكذا بلغت فلورنسا مع عدد من الرفاق والطاعون يفتك بأهلها فتكاً ذريعاً ووجدت أبي الشيخ الصالح. وكان موقناً بأني إما قتلت في أثناء حصار روما أو سأعود إليه في أسوأ حالٍ. فكان عكس ماقدّر. إذ جئته حيّاً ومعي المال الكثير وخادم وجواد مطهّم أصيل. وغمرنا الفرح الطّاغي في هذا اللقاء ووقع عليّ الوالد الشيخ يقبلني ويحتضنني حتى خيل لي أنه سيسقط ميتاً. حدثته بكلّ ما تعرضت له من الأخطار الجسام التي عانيتها في حصار روما ثم دفعت إليه بمبلغ كبير من المال حصلت عليه في خدمتي العسكرية. واعتنقنا وتلاثمنا عدة مرات. ثم انطلقنا فوراً إلى مجلس الثمانية لرفع قرار النفي الصادر بحقي.

وتشاء الصدف أن يكون أحد الذين أصدروا الحكم عليّ عضواً في المجلس مرّة ثانية. وهو عين الرجل الذي خاشن الوالد وأنذره بأنه سيسعى إلى إعدامي الحياة. وهكذا نال الوالد ثأره ببعض عبارات التعريض مدعماً بالمكانة التي نلتها عند (أورازيو باليوني).

هكذا كان الوضع عندما صارحت الوالد بأن السيد (أورازيو باليوني) قد اختارني ضابطاً عنده وإنّ عليّ الآن التفكير في تعبئة جنودي وتنظيم الكتيبة. فاضطرب المسكين إضطراباً عظيماً وأنشأ يتوسل بي مستحلفاً بمحبة الله أن أعدل عن هذا المسلك وإن كان يدرك جيداً أن ما في نفسي من مَلَكات يجعلني كفوءاً لذلك بل ولأمور أعظم. وأضاف يقول انّ ابنه الآخر شقيقي، يقوم بأعمال بطولية بوصفه عسكريّاً. وأما أنا فعليّ أن أكرّس نفسي إلى فني العجيب الذي أفنيت في إتقانه والدرس فيه السنوات الطوال. ومع اني وعدته بإطاعة أمره إلاّ أنه أدرك بذكائه المعهود وحسّه المرهف بأني ـ حال ظهور أورازيو على المرسح وبسبب الوعد الذي قطعته له وغير ذلك من أسباب كثيرة أخرى ـ سأنضم إليه في حملته العسكريّة. ثم تفتق ذهنه عن أفضل تحليل لإقناعي بترك فلورنسا والتوجه إلى (مانتوا) فقال لي:

ـ ولدي الحبيب هاهنا الطاعون قد استشرى وإني لأرتعد فرقاً إذ أتصورك دائماً

وأنت قادم إلى البيت تحمل هذا الوباء. وأذكر أني رحلتُ في شبابي إلى (مانتوا) حيث أصبت الربح والشهرة وبقيت عدة سنين فيها. لذلك أتوسل بك بل آمرك مستحلفاً إياك بمحبتك لي أن ترحل إليها. وسفرك اليوم خير من سفرك في الغد.

كنت دائماً مغرماً بالتنقل ورؤية الدنيا. ولأني لم أكن قد رأيت (مانتوا) قبلها فقد سرّني التوجه إليها. تركت لأبي معظم المال الذي حملته إلى البيت. وتعهدت بأن أبقى في عونه أينما كنتُ وتركت أختي الكبرى للعناية به. كانت تدعى (كوزا) وكانت قد عزفت عن الزواج وترهبت في دير (سانتا اورسولا) إلاّ انها أجّلت دخولها الدير ومراسيم التكريس لتتولى العناية بالوالد المسنّ المسكين. ولرعاية أختنا الصغرى المتزوجة بنحّات يدعى (بارتولوميو).

امتطيت جوادي الرائع الأصيل وانطلقت نحو (مانتوا)[1] مزوّداً ببركة الوالد. ولو أني عمدت إلى وصف هذه الرحلة القصيرة بتفصيل لأخذت كتابته مني وقتاً طويلاً. كانت الدنيا إذ ذاك تجثم تحت غيوم الحرب والطاعون، فلم أبلغ المدينة هدفي إلاّ بشق الأنفس. إلاّ اني رحت أبحث عن عمل حالما وطئتها قدمي.

وجدت ضالتي عند صائغ ميلانيّ يدعى (نيقولو) وهو صائغ دوق مانتوا الخاصّ. مامرّ عليّ يومان في المدينة إلاّ وتوجهت لزيارة (كويليو رومانو) الرسام المبدع الذي سبق لي ذكره وكان من أعزّ أصدقائي. فرحّب بي ترحيباً حاراً. إلاّ انه امتعض جداً مني لأني لم أنزل في داره فور قدومي. وكان يعيش عيشه السادة العظام وقد استخدمه الدوق في عملٍ بمحلّ خارج أسوار المدينة يعرف بإسم (دل تي del Te)[2] وهو مشروع ضخم على مقياس واسع كما أتوقع أن يبدو اليوم. ولم يضع (رومانو) وقتاً في التوصية بي عند الدوق بعبارات ثناء حارة. وبنتيجة ذلك كلّفني بعمل موديل وعاء لدم المسيح الذي جاء به لونجينس[3] على زعم أهالي مانتوا ـ وعندما عهد اليّ

(1) تبعد هذه المدينة عن فلورنسا زهاء مائة وخمسين كيلومتراً إلى الشمال.

(2) يقع خارج باب بوستريا في مانتوا. وقد أشرف رومانو على بنائه وزخرفه مع فنانين آخرين.

(3) فيلسوف وخطيب يوناني (213 ـ 273). كان وزيراً لزنوبيا ملكة تدمر ونفي معها إلى إيطاليا عندما قهرها الرومان.

بالعمل التفت إلى (كويليو) وطلب منه أن يتولى تخطيط التصميم لي فأجابه (كويليو):

- مولاي إن (بنفنوتو) ليس بالرجل الذي يحتاج إلى تصاميم الآخرين. وسيرى سموكم رأيي هذا عندما يعرض عليكم تصميمه.

بدأت العمل بالانموذج بحيث جعلت الحُقّ الأصلي يدخل في الوعاء بكلّ تساوق وانسجام ثم صنعت نموذجاً صغيراً من الشمع للغطاء وهو عبارة عن تمثال للسيد المسيح جالسٌ يرفع يده اليسرى القابضة على صليب كبير وهو متكئ عليه وصَورت يده اليمنى كأنها تهم بفتح الجرح في جنبه باصبعه.

إنتهيت من النموذج وكان سرور الدوق به عظيماً بحيث جعلني أفهم بأنه سيحتفظ بي في خدمته بشروط تجعلني أحيا حياةً مرفهة. وفي خلال ذلك ذهبت للسّلام على أخيه الكردينال[1] الذي كان قد رجا سموه أن يسمح لي بصنع ختمٍ له. فباشرت به إلاّ اني أصبت بحمى الرُبع أثناء عملي فيه، وكنت أهذي وأفقد الوعي عندما تعاودني. وفي هذه الحالة أروح ألعن (مانتوا) ومن يحكمها وكلّ من يسكن فيها مختاراً لا مجبراً.

كل ما قلته نقله إلى الدوق صانعه الميلاني بعد أن أدرك جيداً أن الدوق يرغب في استخدامي. وعندما أبلغ الدوق بهذياني هذا غضب غضباً شديداً ولما كنت حانقاً على مانتوا، فقد ضاهى انفعاله انفعالي. على أي حال انتهيت من ختم الكردينال وقد صرفت فيه مع أشياء صغيرة أخرى له على حساب الدوق زهاء أربعة أشهر. وكان نيافته كريماً جداً في مكافأتي ورجاني أن أعود إلى روما حيث كان مبدأ تعرفي به.

تركت (مانتوا) وجيبي مملوء وحللت في (كوڤنولو Govenolo) وهو الموضع الذي شهد مصرع البطل المغوار النبيل جيوڤاني[2] وفيه عاودتني الحمّى فترةً قصيرة إلاّ انها لم تعوّقني عن مواصلة السفر. وقد طردتها عني بسرعة وكان هذا آخر هجمة

---

(1) هو كردينال أركولي Arcole واسمه فردريكو كونزكا. كان أسقف مانتوا ثم نصب كردينالاً في 1527، وتولى الوصاية بعد وفاة أخيه الدوق. توفي أثناء ترأسه مجمع ترنت في 1563.

(2) جيوڤاني دي مديتشي (دللا باندي) وقد سبق التعريف به في حواش سابقة.

لها وآخر عهدي بها. وصلت فلورنسا مشتاقاً لرؤية الوالد. وجدت باب الدار مغلقاً فطرقته فبدا لي من النافذة عجوز حدباء عجفاء، وراحت تنثال عليّ بالشتائم وطردتني قائلة إن النظر إلى وجهي يصيبها بالغثيان فصحت بها:

ـ عونك اللّهم أليس ثمّة شخص آخر في البيت غيرك أيتها الشمطاء الشوهاء؟

ـ كّلاّ لعنك الله لا أحد هنا.

قلت:

ـ كلّ ما أتمناه هو أننا لن نستبقيك عندنا طويلاً.

وسمعت الضجة جارة لنا فخرجت وأخبرتني بأن والدي وكل من كان في الدار قد أدركهم الأجل المحتوم بالطاعون[1] وبما أن قلبي كان يحدثني ويهجس لي بهذه الفاجعة فقد خفّف ذلك من لوعتي واضطرابي. ثم أضافت الجارة تقول: لم يسلم من الموت إلاّ أختي الصغيرة ليبراتا وإنها الان تحت رعاية امرأة صالحة تدعى (اندريه دي بيلاّجي).

توجهت إلى الفندق ولقيت وأنا في طريقي صديقاً عزيزاً يدعى (جيوڤاني ريكولي Giovanmi Rigogli). فترجلت عند منزله وانطلقنا إلى الميدان الكبير وسمعتُ هناك ان أخي أيضاً ما زال في قيد الحياة. فرحت أبحث عنه ووجدته في دار صديقه (برتينو آلدو براندي Bertino Aldo Brandi). ولا تسل عن فرحنا وعن عواطفنا المتدفقة. فقد كان كل منا يعتقد أن أخاه ميت. وتعانقنا وتحاضنّا بشوق لا يحدّ. ثم إنه قبض على يدي وهو يقهقهه ضاحكاً طوال الوقت وقال:

ـ هيا بنا يا أخ. سآخذك إلى مكان ما لن تحزره. عليّ أن أخبرك بأني زوّجتُ شقيقتنا ليبراتا ثانيةً. وهي تحسبك في عداد الأموات.

وفي طريقنا إليها صار بعضنا يخبر بعضاً عن التجارب العجيبة التي مرّت بنا. ثم عندما وصلنا دار ليبراتا ووقع نظرها عليّ سقطت متهالكة بين ذراعيّ وقد انعقل

---

(1) مات في فلورنسا حوالي أربعين الف نسمة بوباء الطاعون الذي اجتاح المدينة مابين أيار وتشرين الثاني 1527.

لسانها بهذه الزيارة المباغتة وأغمي عليها. ولو لم يكن أخي معي لساورت زوجها الظنون في أن أكون أي شخص خلا أخاها، بسبب غشيتها وإنعقال لسانها. والواقع أن الشك بدأ يساوره إلاّ أن (جكينو) شرح كل شيء. وعالج ليبراتا حتى أفاقت. وبعد أن ذرفت بعض الدموع لذكرى أبيها وأختها وزوجها وابنها الصغير بدأت تهيئ لنا عشاء. وقضينا بقية الأمسية بانشراح ولم نأت إلى ذكر الموتى ثانية. بل تحدثنا عن الزيجات والأعراس وتمتعنا بهذا الإحتفال الصغير.

ومع قيام الرغبة عندي في العودة إلى روما. إلاّ أن رجاء أخي وأختي نجح في ابقائي. حتى (بييرو دي جيوڤاني لاندي) نفسه ذو الأيادي البيضاء والذي بذل العون الكبير لي في محنتي السابقة كما ذكرتُ ـ فقد نصحني هو الآخر بالبقاء في فلورنسا فترةً من الزمن. ولما طرد آل مديتشي[1] (أعني النبيلين: ابوليتو Ippolito وألساندرو. وأولهما نصب فيما بعد كردينالاً وثانيهما اختير دوقاً). أشار عليّ الصديق (بييرو) بالتريث والبقاء ترقباً لما سيحدث. لذلك بدأت أزاول صنعتي في السوق الجديد وراجت أعمالي في تكفيت الأحجار الكريمة وربحت مالاً كثيراً.

في ذلك الحين قدم من سيينا شخص يدعى (جيرولامو ماريتّي Girolamo Marretti) كان خارق الذكاء ذا حيوية، قضى شطراً من حياته في تركيا. جاء إلى دكاني ذات يومٍ وكلفني بعمل طغراء من الذهب لمقدمة قبعته. وأوصى أن يمثل النقش المحفور صورة (هرقل) وهو يعالج فتح شدقي الأسد قسراً. وفي أثناء اشتغالي بها؛ كنت أحظى بعدة زيارات من (ميكالنجلو بوناروتي). عانيت مشقة كبيرة في هذه

(1) انتهز الجمهوريين فرصتهم بحصار روما وإعتقال البابا كليمنت (1527) في قلعة سانت انجلو فثاروا بزعامة (آل بانبوني) على حكامهم وطردوهم وأعيد النظام الجمهوري وأنتخب نيقولو كابوني Niccolo Capponi كونفالونيراً. وفي العام 1529 عقد الصلح النهائي بين البابا والإمبراطور وكان من شروطه اعادة آل مديتشي إلى الحكم فسبق جيش إلى المدينة وألقي عليها الحصار ولم تستلم إلاّ بعد أحد عشر شهراً. وعاد (اليساندرو) لتولي الحكم بموافقة الإمبراطور. ومع أن سعة عقل هذا الدوق وإدراكه الواسع أكسباه محبة الفلورنسيين إلاّ أن قوته وخشونته وفرضه الضرائب والأتاوات والعمل على الاثراء الشخصي أسخطت الناس عليه. وانتهز قريبه وعشيره لورنزو هذه النقمة فاغتاله ظاناً انه سيرتفع في نظر الجمهور الساخط على القتيل وتنشب ثورة في المدينة فيها غنم كبير له. فلم يحصل هذا واضطر إلى الهروب.

الطغراء. وفتحت فتحاً جديداً في تصميمي للصورة وفي طريقة تعبيري لشراسة الأسد. وكان (ميكالنجلو) الخالد يجهل تماماً أسلوبي الذي كان جديداً بالنسبة إليه. وقد أدى ذلك به إلى امتداح عملي والإشادة به حتى شعرت وكأن نار الطموح للإجادة والسمو بالعمل تحرقني حرقاً. على أنه لم يكن لديّ ما أعمله سوى تكفيت الجواهر ومع أن ربحي من هذا كان كبيراً إلاّ أني لم أقنع به. ولم يرو غلّتي فقد كنت أريد أن أجرّب خطي في فنون أسمى من فن تكفيت الجواهر. ثم ظهر المدعو (فيدريكو جينوري Federego Ginori) في أفق حياتي. كان شاباً يتدفق حيوّية قضى جانباً من حياته في نابولي حيث أكسبته وسامته وقامته الممشوقة وحضور بديهته شهرة داوية حتى أن إحدى الأميرات عشقته وأصبحت خليلته. واتفق انه رغب في ان تُصنع له طغراء يظهر فيها (أطلس) وهو يحمل الدنيا على كتفيه، فرجا من (ميكالنجلو) ان يخطط له رسماً تقريبياً. فقال له:

- اذهب، ابحث عن صائغ شاب يدعى (بنفنوتو) وسيرضيك عمله بالتأكيد، ثق انه لن يحتاج إلى نموذج مني. ولكي لا تظنّ اني أُمسك نفسي عنك في أمرٍ بسيط كهذا فساخطّ لك تصميماً وفي عين الوقت اتصل ببنفنوتو وأطلب منه نموذجاً صغيراً أيضاً. وسيكون في وسعك عندئذ اختيار أفضلهما.

فجاءني (فيدريكو جينوري) وفاتحني بمطلبه ونقل لي الثناء العاطر الذي أغدقه عليّ (ميكالنجلو) ورغبته في أن أصنع نموذجاً صغيراً من الشمع في حين وعده (ميكالنجلو) العظيم بعمل مخطط.

كان لأقوال (ميكالنجلو) عني تأثيراً الإلهام والوحي في نفسي، وبدون أن أضيع دقيقة واحدة باشرت متلهفاً بصنع النموذج. وبعد فراغي منه جاءني رسام يدعى (كويليانو بوجيارديني Giuliano Bugiardini) من أخلص أصدقاء (ميكالنجلو) يحمل لي الرسم، فأطلعت (كويليانو) على نموذجي الشمعي الصغير في عين الوقت وكان يختلف تماماً عن المخطط. وكانت النتيجة أن (فيدريكو) فضلاً عن (بوجيارديني) حكماً أن أتخذ نموذجي الشمعي أساساً. فبدأت بصنعه وشاهده العليم الخبير (ميكالنجلو) فلم يجد عنده غير الثناء العظيم عليّ. وكما ذكرت في الأول كان ثمة

صورة أطلس[1] محفورة في صفحة رقيقة من الذهب ومثلث قبة السماء بكرة بلورية حُفرت فيها دائرة البروج في حقلٍ من اللازورد وأكملنا بنقش عبارة Summa tulisse في الأسفل فخرجت تحفة يجلّ جمالها عن كل وصف. وحازت رضا (فيدريكو) ونقدني عنها أجراً عالياً. وكان أثناء تردده إلى دكاني يأتي مع صديقه الحميم (آلويجي آلاماني Aluigi Alamanni)[2] وهو آنذاك في فلورنسا. فكان ذلك سبباً في نشوء صداقة متينة بيننا.

أعلن البابا (كليمنت) الحرب على فلورنسا. ووضعت المدينة في حالة الدفاع وعبئت المليشيا في كل ميدان من المدينة. وكان عليّ أن أنتظم فيها أيضاً. فتجهزت بشكةِ سلاح وعدةِ حربٍ فاخرة وانضممت إلى فريق أرفع النبلاء الفلورنسيين وكان يبدو على كلّ فردٍ منهم الحماسة والشوق للمساهمة في الدفاع. وكالعادة راح الخطباء في الميادين العامة والساحات الكبرى يستنهضون الهمم وإلى جانب هذا بدأ شبان فلورنسا يتجمعون سوية ولا حديث لهم غير الحرب. وفي ذات يوم إلتأم في دكاني جمع من الأشخاص بينهم رجال شجعان في عنفوان رجولتهم وشبان أشداء في مقتبل العمر ينتمون جميعاً إلى أعرق وأهم أُسر المدينة. وكان الوقت ظهراً وفي أثناء ذلك تسلّمت رسالة من روما أرسلها اليّ رجل من تلك المدينة يدعى (الأستاذ جاكوبينو دللاّ باركا Maestro Jaiobino della Barca). واسمه الحقيقي في الواقع هو (جاكوبو دللاّ باركا). لأنه كان يملك عبّارة للنقل في نهر التيبر بين (بونتوسيستو Ponto Sisto)[3] وبين (بونتو سانت أنجلو) رائحة غاديةً. كان (جاكوبو) هذا إنساناً ذكياً ومحدثاً بارعاً ذا فكاهة وسرعة خاطر. وكان إلى زمن غير بعيد مصمماً لحائكي السجّاد في فلورنسا. وهو الآن من خاصّة البابا كليمنت المقربين وكان هذا يأنس جداً بأحاديثه. ويبدو أنّ

---

(1) في أساطير الإغريق. أحد العمالقة الذين حاربوا الألهة. حكم عليه زفس (جوبتر) زعيم الآلهة أن يحمل قبة السماء على كتفيه .

(2) أديب وشاعر فلورنسي وواحد من أبرز معارضي أسرة دي مديتشي ومقاومي إستبدادهم. نفي إلى فرنسا وعاش في حماية فرنسوا الأول وتوفي في 1556 .

(3) اي بين الجسرين اللذين ذُكرا في المتن. اي سيستو وسانت انجلو.

البابا كان يجاذبه ذات مرّة أطراف الحديث فانجرّ بهما إلى أحداث حصار روما ودفاع القلعة. فتذكرني البابا بالكتابة الىّ ودعوتي.

وتضمن الكتاب ضرورة الإنضواء في خدمة البابا وما سيصيبني من خيرٍ أن لبيتُ الدعوة. كاد الشوق يقتل الشباب المجتمع عندي لمعرفة محتويات الرسالة. وكان عليّ أن أكتم الأمر عنهم ما وسعني. بعد ذلك كتبت لجاكوبو راجياً منه أن لا يراسلني بأي شكل كان وفي أيّ ظرفٍ شراً كان أم خيراً. وهذا ما جعله أكثر عزماً وتصميماً فكتب اليّ ثانيةً باسهاب وتفصيل وتهويل قد يلحقني منه أذىً كبير لو انكشف فحوى رسالته. قال: ان البابا خوّله بأن يأمرني بالتوجه إلى روما فوراً، وانه ينوي تقليدي منصباً في غاية الأهمية فإن أردتُ أن أحقق نجاحي في الحياة وأعيش في بحبوحة فعليّ أن أترك كل شيء دون تأخير والاّ أبقى أقاتل البابا مع ارهاط من الثوار المجانين. قرأت الرسالة فامتلأتُ خوفاً ولجأت إلى صديقي العزيز (بييرو لاندي) وما أن وقع نظره عليّ حتى سألني ماذا حصل لي ودهاني لأبدو بهذه الحالة من القلق. قلت اني لا أستطيع مصارحته بالسبب الذي أدى بي إلى هذه الحالة. وكل ما أرجوه منه أن يتسلم مفاتيحي وأن يعيد الجواهر والذهب إلى فلان وفلان المثبتة أسماؤهم في دفترٍ صغيرٍ. ثم ينقل كل مقتناي من داري ويحافظ عليه بلطفه وكرمه المأثورين. واني سأعلمه بمكاني خلال بضعة أيام. إن هذا الشاب ذا الفكر الثاقب والنظر النفاذ ربما حزر ما أضمره أو كاد فقد أجابني قائلاً:

ـ عزيزي الأخ، اذهب حالاً ثم أكتب لي. وأمّا عن أشيائك فثق أنها ستكون في حرز حريز.

نفذت ما نصحني به وتركت فلورنسا وعند وصولي روما كتبتُ له. فيا رعاه الله من صديق صدوق! أشدّ وفاء وأرجح عقلاً وأعلى خلقاً وأعظم إيثاراً وأكبر قلباً من أي صديق آخر عرفته!!

حال وصولي روما رحت أفتش عن أصدقائي وكان استقبالهم وترحيبهم بي حاراً. وشرعت في مزاولة صنعتي فوراً لأتزود بشيء من المال ولم أصنع شيئاً هاماً يستحق الذكر والوصف. كان ثمّة صائغ كبير السنّ ذو سمعة عالية في النقابة معروف بأمانته

وإستقامته يدعى (رافايلو دل مورو Raffaello del Moro) طلب مني هذا الرجل بأدب أن أشتغل في دكانه ان شئت. فقد كُلف ببعض الأشغال الهامة يضيق بها وقته وفيها ربح كبير. فأسرعت بالقبول مسروراً.

مَرّ أكثر من عشرة أيام دون أن أفكر في التوجه إلى (جاكوبو دللاّ باركا) وفي ذات يوم إلتقى بي بمحض الصدفة فرحب بي أجمل ترحيب وسألني كَمْ مَرّ عليّ وأنا هنا فقلت حوالي أسبوعين فاستاء جداً وقال إنيّ تصرفت بشكلٍ خالٍ من اللياقة تجاه البابا الذي سبق فأصرّ على أن يكتب لي ثلاث مرات ملحفاً. ولما لم أكن أقلّ انزعاجاً منه فقد كظمتُ ما أشعر به من غيظ ورفضت أن أنطق بحرف.

وعندها شرع (جاكوبو) الذي عرف بالحذلقة والثرثرة يرتجل خطبة وتدفقت العبارات من حلقه كصيب الغيث.

فصبرت عليه حتى أفرغ ما في جوفه. وقلت: بإمكانه أن يأخذني إلى البابا متى شاء ولم أزد. فأجاب: الآن نذهب اذن. فأجبت اني لعلى أتم استعداد وانطلقنا معاً إلى القصر. وبالإتفاق كان اليوم (خميس الغُسل Maunday) عندما وصلنا جناح البابا سمح لنا بالدخول رأساً لأن رفيقي كان معروفاً ولأن قدومي كان متوقعاً. فوجدنا البابا قد أوى إلى فراشه بسبب وعكة بسيطة. وكان عنده كلّ من السيد (جاكوبو سالفياتي) ورئيس أساقفة كابوا Capua[1] ما أن وقعت أنظار قداسته عليّ حتى انبسطت أسارير وجهه وبان عليه السرور فقبلت قدميه بكلّ خشوع وإتضاع ثم دنوت منه وجعلته يدرك بأني أريد التحدث معه في أمرٍ هام. فأتى بإشارة من يده تقهقر على إثرها كلّ من جاكوبو ورئيس الاساقفة إلى مسافةٍ عنا فبادرت فوراً إلى القول:

ـ أيها الأب الكلي القداسة. منذ أيام حصار روما وأنا لم أعترف بخطاياي ولم أتناول القربان المقدس. إذ لا أحد يمنحني الحَلّة والغفران. وما حصل هو هذا. عندما صهرت الذهب وقمت بكلّ ما ينبغي عمله من نزع الأحجار الكريمة أمر قداستك (كافالييرينو) بأن يدفع لي مكافأة صغيرة لقاء أتعابي. ولكن كُلّ ما نلتُ منه هو

---

(1) مدينة تقع على مسافة 28 كيلومتراً من شمال (نابولي).

الإساءة. وبعد أن عدت إلى غرفتي حيث قمت بإذابة الذهب عمدتُ إلى غسل الرماد ووجدت فيه ما تبلغ زنته باوند أو نصف الباوند من حبّات الذهب الصغيرة بحجم بذرات الدّخن. ولما كنت خالي الوفاض لا أملك ما استعين به على السفر إلى مسقط رأسي والوصول إليها بشكل لائق![1] فقررت أن أستعين بهذا الذهب على أن اردّه إليك عند سنوح الفرصة لي. وها أنذا الآن عند قدمي قداستك الغافر الذنوب الحقيقي. اناشدك بأن تجيز لي الإعتراف وتناول القربان المقدس، لأستطيع برضاك نيل رضى الله.

وأطلق البابا تنهيدة خافتة - ربما لتذكره كلّ ما عاناه ثم قال:

- بنفنوتو! بالتأكيد أنا هو ذاك الذي قلتَ فيّ إني لقادر على حلّك من جميع الخطايا التي اقترفتها. وأكثر من هذا إني لراغب في ذلك كن مطمئناً ولا تخشى مصارحتي بكلّ شيء ولا تكتم عني حتى ولو كان ما أخذت يعادل تاجاً باباوياً: Tiara اني أكثر من مستعدٍ لأمنحك الغفران.

فأجبته:

- يا صاحب القداسة. لقد أعترفت بكلّ ما أخذتُ. وقد بلغت قيمته عند صرفه في دار الضرب بـ(بيروجيا) ما لا يزيد عن مائة وأربعين دوقية. أخذت النقود وذهبت لأصلح بها حال والدي الشيخ المعدم.

قال البابا:

- أثبت أبوك بأعماله إنه انسان فاضل مستقيم ذو ملكات ومواهب لم تلد أمّ من هو بمثل طينته وأنت شبيهه بالضبط. ويؤسفني أنّ كانت النقود قليلة. وأنا أقدمها لك هبةً خالصة وأمنحك الغفران الكامل. قُل هذا لمعرفك إن كان ضميرك خالياً من أي شيء يتعلق بي. ثم بعد أن تعترف وتتناول القربان، عد اليّ ثانيةً. وسيكون الخير ذلك في هذا.

بعد إنصرافي من لدنه دنا منه جاكوبو سالفياتي ورئيس الأساقفة فأنشأ يتكلم عني

---

(1) هذا القول يناقض ما رواه عن نفسه عند بلوغه فلورنسا بعد الحصار.

لهما بحرارة تفوق الحرارة التي يمدح بها أي انسان آخر. وقال بأني إعترفت له وأنه منحني الغفران. وأمر رئيس الأساقفة بأن يرسل في طلبي ويسألني عما إذ كان هنا كأمر آخر يقلقني وأن يمنحني المغفرة الكاملة وأعطاه السلطان المطلق لذلك وزاد بأن أوصاه أن يعاملني بما يسعه من لطف.

واستولى على (جاكوبينو) ونحن في طريقنا عائدين نوع من الفضول فظلّ يسألني عن محتوى حديثي الطويل الذي تمّ بمثل هذه السرية مع البابا. وظلّ يلحّ في السؤال فقلت بالأخير: اني لا أعتزم إخباره إذ ليس في الحديث ما يهمّه شخصياً. وليكفّ عن السؤال.

أنجزت كلّ ما تمّ ترتيبه مع البابا من المراسيم الدينية. وما أن خرجنا من يومي العيد حتى ذهبت للسلام عليه. وكان في ترحيبه بي أكثر لطفاً من المرة الأولى وقال:

- لو وصلت روما قبل هذا بقليل لعهدت إليك بإعادة صنع هذين التاجين العائدين لي اللذين أذبناهما في القلعة. ولكن لما كانت قيمتهما بذاتهما وبدون الجواهر - غير كبيرة. فإني سأسند إليك عملاً في غاية الأهمية، سيتيح لك الفرصة لإظهار كفاءتك. إنها عرُوة لغفارتي[1] أريدها بحجم صحفة صغيرة وباستدارتها، قطرها ثلث كوبيت (ستة إنشات). النقش سيمثل صورة الله الأب بنصف بروز وعليك أن ترصع في الوسط هذه الألماسة الدقيقة القطوع، فضلاً عن عدد كبير من الأحجار الكريمة. كان قد بدأ بها رجل يدعى (كارادوسو Caradosso) ولم يتمّها وأنا أريدك أن تنتهي منها بسرعة لأنعم قليلاً بلبسها. فاذهب واصنع لي نموذجاً جيداً. ثم أمر بعرض كل الأحجار الكريمة عليّ. وبعدها انطلقت إلى داري كالقذيفة.

توفي (فيدريكو جينوري) بداء السِلّ أثناء حصار فلورنسا. وآلت الطغراء التي صنعتها له إلى (لويجي آلاماني). وهذا بدوره أخذها وقدمها مع طائفة من أروع آثاره القلمية هدية إلى ملك فرنسا (فرانسوا الأول). فسرّ بها الملك سروراً لا حدّ له وقام

---

(1) هذه التحفة الشهيرة من أعمال چلليني نزعت من الغفّارة وأضيف ثمن ذهبها وأحجارها الكريمة إلى مبلغ الغرامة الحربية التي فرضها نابليون بونابرت (أنظر بلون ص 145).

بعد مرور أسبوع لم يطرأ على صحتي تحسّن كبير. حتى ضقت ذرعاً بنفسي فقد تحملت العذاب الرهيب أكثر من خمسين يوماً.

لذلك صحّ عزمي على السفر وتأهبت لذلك فإنطلقت إلى فلورنسا انا وعزيزي (فيليجي) بمحفتين. ولم أكتب لأحدٍ بنيتي فلما وصلت منزل أختي أخذت تضحك وتبكي في آن واحدٍ.

وتقاطر عدد كبير من الأصدقاء لزيارتي يوم وصولي، وفي مقدمتهم (بييرو لاندي) أعزّ صديق عندي وأقربهم إلى نفسي في هذه الدنيا.

وفي اليوم التالي حظيت بزيارة صديق آخر وهو (نيقولو دا مونتي أكوتو). وكان قد سمع الدوق يقول:

- كان خيراً لبنفنوتو لو قضى نحبه. فقد جاء هنا ليضع حبل المشنقة في عنقه. فلن أغتفر له ما فعل أبداً.

وبعد أن أنذرني نيقولو أردف يقول بلهجة اليائس:

- قل لي ما الذي دفعك إلى المجيء يا بنفنوتو؟ الا تدري كم أحفظت الدوق عليك باستصغارك له؟ وبأذني هذه سمعتُه يقول مقسماً بأنك تضع الحبل في عنقك.

فأجبت:

- أي نيقولو! أرجوان تذكّر سموّه بأن البابا كليمنت أراد مرّةً أن يفعل عين الشيء بي وكان مخطئاً بقدر ما كان الدوق مخطئاً. قل له بأني أحتاج إلى العناية والتمريض وأن يدعني أستردّ عافيتي. وعند ذلك سأبرهن له أنه لن يجد مثلي خادماً مخلصاً طول حياته. لا بدّ وأن عدّواً حسوداً أوغر صدره عليّ، ألا فلينتظر حتى اتعافى وعندئذ سأكون في موقف أستطيع به تقديم حسابٍ عن نفسي سيصيبه بالدهشة.

فعلاً كانت هذه الوقيعة من عمل وسعي الأريزي[1] جورجيو ڤاساري ربّما ردّاً للجميل الذي صنعته له. فقد إستضفته في روما ودفعت عنه مصاريفه ولأقل الحقيقة إنه قلبَ منزلي رأساً على عقب. ذلك لأنه كان يشكو حكّة جلديّة مزمنة كاد لها يمزّق

(1) نسبة إلى (أريزّو Arizzo) وهي بلدة تبعد حوالي 85 كيلومتراً عن فلورنسا وتقع إلى الجنوب الشرقي منها.

البابوية (تريانو Traiano). هذان الصائغان أعني بومبيو وميكيلي أبلغا البابا بأنهما شاهدا نموذجي ومنه يبدو أني غير كفوء لإنجاز مثل هذا العمل البالغ الدقة.

فأجابهما البابا بأنه يريد الإطلاع عليه أيضاً، فإن وجدني قاصراً عن الأمر حقاً فسيعهد بالعمل إلى آخر من الأكفاء. فبينا له أن في حوزتهما الآن نماذج جميلة وهي كاملة. فأجاب البابا إنه مسرور لسماع ذلك. إلاّ أنه يفضل أن لا يتفحص النماذج قبل فراغي من نموذجي، وعندئذ سيفاضل بين الجميع. فرغت من نموذجي في بضعة أيام وأخذته إلى البابا في صباح يوم فأعاقني السيد (تريانو) وسارع في إستدعاء (ميكيلوتو وبومبيو) فحضرا مع نماذجهما. ثم دخلنا جميعاً وخفّ الصائغان إلى عرض الرسوم وكان شوق البابا لرؤيتها لا يقل عن لهفتهما إلى عرضها.

إن المصممين الذين لا يمارسون صنعة التكفيت بالأحجار الكريمة لا يدرون كيف ينسقون الجواهر في الحلية أو يضعونها في اماكنها المناسبة. إذ لم يتلقوا درساً على يد خبراء مُجربين قضوا وقتاً في مجال الممارسة. ومن الطبيعي أيضاً أن يكون الجواهري بارعاً في التأليف بين ما يرسمه من تهاويل وصور على المعدن وبين توزيع الأحجار الكريمة في ثنايا رسومه على الحلية وإلاّ لا يعود لعمله قيمة فنية. لذلك كنت تجد الألماسة الرائعة في كل الرسوم المعروضة وقد جُعل موضعها وسط صدر الله الأب. هذه الهفوة لم تخف عن عين البابا الناقدة. وهو صاحب الذوق السليم ومتذوق الفن الرفيع. فلم يحفل بها. إذ بعد أن تفقد عشرةً منها القى بالباقي على الأرض واستدار نحوي وكنت واقفاً عن كثب وقال لي:

- ألا فلنلق نظرةً على أنموذجك يا بنڤنوتو. ونأمل الاّ تكون قد وقعت في الغلط نفسه.

فتقدمت منه وفتحت علبة صغيرة مستديرة. وهنا أضاءت عينا البابا بنور مفاجئ وهتف يقول:

- ما كنت ستعملها بأفضل من هذا حتى ولو تقمصتَ نفسي. وهؤلاء الآخرون ما كانوا ليجدوا وسيلةً يحطون بها من قدرهم أفضل مما فعلوا.

ثم تجمع عدد كبير من كبار الأشراف حولنا وراح البابا يشير إلى الفرق بين

نموذجي والنماذج الأخرى. وارتفع بمدحه إلى السّماكيْن. في حين سُمّر الصائغان في مكانهما فَرَقاً وذهولاً وهما منتصبان أمامه. ثم إنه التفت اليّ وقال:

- إني لا أرى إلاّ عقبة واحدة. إلاّ إنها هامّة جداً يا بنفنوتو. فالشمع مادة لينة مطواعة ومن السهل الإشتغال بها. والإمتحان الحقيقي هو عندما يشتغل المرء بالذهب.

فأسرعت إلى الإجابة بحرارة:

- أيها الأب الأقدس. هذا عهدُ بيني وبينك إن لم أصنع الحلية بشكل يفوق عشرة أضعاف النموذج دقةً وجمالاً فإني لن اتقاضى منك دانقاً واحداً.

فشاع لغط عام وارتفعت أصوات من بعض رجال الحاشية المحيطين بنا. وقال منهم قائل: إني أسرف في الوعود. إلاّ أن أحدهم وهو فيلسوف كبير جداً التزم جانبي وتكلم في صالحي إذ قال:

- من سيماء هذا الشاب وتناسق أعضاء جسمه، أجدني واثقاً من أي شيء يعد به بل وأكثر.

فأضاف البابا قائلاً:

- لهذا السبب أتفق معك.

ثم استدعى أمين سرّه (ترايانو) وأمره أن يأتي من الخزانة بخمسمائة دوقيّة ذهبية وفيما نحن ننتظر عاد قداسته يتأمل طريقتي الفذّة في براعة التأليف بين الألماسة وبين صورة الله الاب. كُلّ ما فعلتُ هو أني وضعت الألماسة في المركز تماماً. وصورة الله الأب وهو ملتفت برشاقة إلى جهةٍ - يجلس فوقها. وكان تأليفاً في غاية الأناقة والجمال لا ينقص من تأثير الألماسة. وجعلت تحتها ثلاثة من صغار الملائكة يسندون الحجر الكريم بأيديهم مرفوعة إلى الأعلى وجعلت الملاك الأوسط بارزاً تماماً في حين نقشت الآخرين بنصف بروز وأضفت عدداً آخر من الملائكة الصغار بتناسق مع الأحجار الكريمة الأُخرى وألبست صورة الأب جبة فضفاضة تتطاير في الهواء ويخرج من حناياها عدد من الملائكة الصغار (الكروبيم) وكان ثمّة زخارف

أخرى جميلة تزيد في الصورة العامة روعةً وكلها عملت بالجص الأبيض على الحجر الأسود.

عندما جيء بالمال قام البابا بتسليمه اليّ بنفسه ثم رجاني بلطفٍ ساحرٍ أن أنجزها بأسرع ما يمكن وهو في قيد الحياة ليسرّ بها وأضاف يقول إني لأنفع نفسي بذلك.

أخذت المال وانصرفت ومعي نموذجي وبلهفتي إلى البدء بالعمل خلت أن دهراً إنقضى قبل الوصول إلى الدكان. وبعد ثمانية أيام من العمل الشاق المتواصل أرسل البابا أحد أمنائه وهو نبيل من أهل (بولونيا) رفيع القدر. وطلب مني أن آخذ العروة إلى البابا وأعلمني هذا السيد الذي لا يدانيه أحد في البلاط لطفاً ورقةً ان الغرض من استدعائي هو رغبة صاحب القداسة في القاء نظرة على ما أنجزته فيها فضلاً عن تكليفي بعمل آخر لا يقل عنها أهمية وهو حفر قوالب لسكة دار الضرب في روما. وأوصاني بأن أستعد للإجابة عن إستفسارات البابا وأسئلته بهذا الشأن. فأدخلتُ إليه وعرضت عليه الصحيفة الذهبية الرقيقة ولم يكن فيها غير صورة (الأب) إلاّ أن دقة التصوير فاقت النموذج الشمعي فلم يتمالك البابا نفسه وهتف مشدوهاً:

ـ إعتباراً من الآن سأصدق كلّ ما تقول.

وبعد أن أمطرني بوابل من الثناء اردف يقول:

ـ أريد أن أوكل إليك مهمّة ثانية لا تقل أهميتها عندي عن الأولى وربما فاقتها وأملي أن تنجح فيها.

ثم بسط لي رغبته في أن يكون لسكّته قوالب خاصة وسألني عن مبلغ خبرتي وهل سبق لي أن مارست مثل هذه الصناعة. وكم أراني أهلاً للاضطلاع بها. فأجبت أني راغبٌ وأن لي ثقة بمقدرتي. وقلت إني قد تابعت الطريقة وشاهدت كيف تجري لكني لم أطبقها عملياً بنفسي.

كان المدعو (توماسوّ دا براتو Tommaso da Prato) الداتاريو البابوي[1] حاضراً في هذه المقابلة. ولكونه صديقاً لخصومي فقد تدخل بقوله:

---

(1) الداتاريو Datario البابوي هو السكرتير الأول لدائرة المظالم والشكاوى والاسترحامات. ويتولاهما من هو في درجة أسقف أو كردينال.

- أبانا الأقدس إنك تُغرق هذا الشاب بثقتك إغراقاً وهو شديد التلهف إليها بحيث بات مستعداً للوعد بخلق دنيا جديدة. لقد أوكلت إليه عملاً خطيراً وأنت تعهد إليه الآن بعملٍ أخطر وستكون النتيجة أن يعوق أحدهما الآخر.

التفت البابا إليه وهو حانق تماماً وأمره ألاّ يتدخل فيما لا يعنيه. ثم طلب منيّ أن أعمل له نموذجاً لدوبلون ذهبي[1] يُشاهد فيه السيد المسيح عارياً موثق اليدين من الآية (هوذا الرجل Ecce Homo) وعلى الظهر بابا وإمبراطور كلاهما ممسكان بصليب قائم مع إنحراف قليل وعبارة «وكان فيهم روح واحدة وإيمان واحد Unus spiritus et una fides erat in eis». ما أن أكمل البابا توصياته لي بشأن هذه العملة الجميلة حتى دخل (باندنللو) النخّات وكان ذلك قبل أن يمنح لقب (فارس). وبمزيج من جهله وإدعائه الفارغ المعهود قال معقباً:

- يجب أن يزوّد الصاغة بتصاميم عندما يعهد إليهم بأشغال في مثل هذه الدقة والجمال.

فاستدرت نحوه وأجبته في الحال إني في غنىً عن تصاميمه في مجال صناعتي، كما إني على ثقة بأنه لن يمرّ طويل زمن حتى تصيب تصاميمي تصاميمه بضربة موجعة. طرب البابا لقولي ثم مال نحوي وقال:

- والآن اذهب بسلام يا عزيزي بنفنوتو وضع كلّ طاقاتك في خدمتي ولا تهتم بما يقوله هؤلاء الحمقى المغفلون.

فخرجت وعملت بسرعة لا تصدق قالبين فولاذيين. ضربت بهما عُملةً ذهبيّة. وفي عصر يوم أحدٍ بعد الغداء حملت قطعة النقد مع القالبين إلى البابا فأدهشه الأمر كما سَرّه لا لدقة الصنعة وحدها وهو ما خلف فيه إنطباعاً عظيماً بل لأني كنت سريعاً في إنجاز الطلب بشكل غير متوقع أبداً. ولكي أزيد من إعجاب البابا جئت بمسكوكات عتيقة من عمل أولئك الفنانين البارعين الذين كانوا في خدمة الباباوين (يوليوس وليون). وبعد أن تأكدت من إعجابه بقالبي وتفضيله إياه على ما رآه.

---

(1) الدوبلون هو اسم العملة الذهبية الإسبانية الرائجة في ذلك العصر.

أخرجت من جيبي طلباً مكتوباً رجوته فيه إسناد منصب مراقب دار الضرب لي. وكان الراتب الشهري لهذه الوظيفة ستة كراونات ذهبية. عدا أجرة القوالب التي تدفع من قبل المدير العام لدار الضرب بنسبة دوقية واحدة لكلّ ثلاثة. فأخذ البابا عريضتي والتفت وناولها للداتاريو وأمره أن يبتّ في الطلب بالايجاب على الفور. فأخذ الداتاريو العريضة وقال وهو يدسّها في جيبه:

ـ أيها الأب الأقدس أرى أن لا يستعجل قداستك بهذا القدر. فهذه الأمور تستدعي كثيراً من المداولة والتمحيص.

فأجاب البابا:

ـ سمعتَ ما قلتُ. والآن هات العريضة.

أمسك بها ووقعها باندفاع ثم أعادها مشفوعة بهذه العبارة:

ـ لا أظنك تملك الآن أي جواب على هذا. فعجّل بالإجراءات وتلك مشيئتي إن حذاء (بنفنوتو) أغلى قيمة من أعين كل أولئك المغفّلين.

شكرت فضل قداسته وعدت إلى عملي والدنيا لا تسعني من فرط السرور.

لم أترك دكان (رافايللو دل مورو) وبقيت أزاول عملي عنده. كان لهذا الرجل الفاضل إبنة فتية في غاية الجمال. وكان يضعني نصب عينه كُلما فكر في أمر مستقبلها متمنياً في سِرّه أن أتزوجها. وقد هجست نيته بعض الشيء فرحبت بها ووقعت من نفسي موقعاً حسناً. إلاّ أني لم أظهر ما ينمّ عما أضمره وأشعر به. في الواقع كنت شديد التحفظ والانطواء مما أثار دهشته. واتفق أن داءً خبيثاً أصاب يد الفتاة المسكينة اليمنى وسرت الأكلة في عظمتي خنصرها وعظمة بنصرها وتسبب إهمال أبيها أن يتولى علاجها دَجّال مشعبذ قال إن لم يحصل الأسوأ فإن الشلل هو المتوقع للذراع كلها. وهصر الألم قلب الوالد المسكين ولما وجدته في هذه الحالة المفجعة صارحته بأني لا أثق بقول هذا الطبيب الجاهل أبداً. فقال إنه لا يعرف طبيباً ولا جراحياً وليس من أصدقائه من يمتهن الطب ورجاني أن آتي بطبيب إن كنت على معرفة بأحدهم. ولم أضع وقتاً واستدعيت طبيباً اسمه (جاكوبو) وهو جراحي من بيروجيا ذو سمعة وشهرة. لا تسل عن الرعب الذي كان مستولياً على الفتاة إذ لا بدّ وأنها حدست أقوال

الدجال في عاقبة المرض. إلاّ أن الطبيب النطاسي الذي استقدمته قال بعد فحصها أن لا خطر ثمّة يتهددها مطلقاً. وستكون قادرة على استخدام يدها بأحسن ما يمكن وإن كان أصبعاها الأخيران سيظلان أضعف قليلاً من البقية. إلاّ أن هذا لن يكون عائقاً قط.

وبدأ بعلاجه وبعد أيام قلائل عندما إرتأى أن يستأصل العظام المتسوّسة من الأصبعين. استدعاني أبوها لأشاهد شيئاً مما كان ستعانيه الفتاة المسكينة. كان الطبيب يريد استخدام عددٍ من الأدوات الجراحية البدائية المصنوعة من الحديد ورأيت انه لا يحقق أي تقدم في عمليته وأنه سيسبب لها آلاماً فظيعة. فطلبتُ منه أن يتريث لمدة خمس دقائق حتى أعود. ثم هرعت إلى دكاني وصنعت شفرةً فولاذية صغيرة معقوفة رقيقة ماضية كحدّ الموسى ثم عدتُ وبدأ الطبيب عمليته بها فأنجزها بيسر ولطف ولم تشعر الفتاة بألم ما وتمت العملية والعلاج بمدة وجيزة. ولهذا تزايد حبّ الرجل لي ففاق حبّه لولديهِ وبذل الغالي والنفيس لكي تستردّ ابنته الجميلة صحتها.

في تلك الأيام ارتبطت بحبل الودّ مع السيد (جيوڤاني كادي G. Gaddi)[1] وهو موظف في بيت المال البابوي ومن عشاق الفن ومشجيعه. وإن كان هو نفسه عاطلاً عن مواهبه. وكان يشاطره السكن عالم متبحّر بالآداب اليونانية يدعى (جيوڤاني)، وباحث آخر أيضاً يدعى (لودوفيكو دا فانو Lodovico da Fano) والسيد (أنطونيو الليكريتي Antonio Allegretti)[2] والسيد (أنيبال كارو Annibal Caro)[3] وهو بعد شابٌ في مقبل العمر. وكنت أنا وذاك الرسام الممتاز (باستيانو Bastiano) البندقي[4] نستمتع بصحبتهم. وكنّا نجتمع بهم عند جيوڤاني كل يومٍ تقريباً. شاءت المقادير أن

---

(1) مواطن فلورنسي من أشد مشجعي الأدب والفن تحمساً. كان مديراً لبيت المال البابوي.

(2) شاعر فلورنسي.

(3) أحد أعاظم كتاب زمانه (1507 ـ 1566) ومن الشعراء المعدودين عرف بترجمة الاينياد وكان في ذلك الحين سكرتيراً لجيوڤاني كادي. وهو من أعز أصدقاء چلليني وعلى معرفة تامة بطبعه الناري الذي لا صلاح له (بلون ص95).

(4) هو سباستيان دل بيومبو Sebastian del Piombo. رسام بندقي معروف (1485 ـ 1547) ولد في البندقية وامتاز بألوانه.

تكون صداقتي لجيوڤاني السبب في أن يسعى إليه الصائغ الفاضل (راڤايللو) ليقول له:

- سيدي العزيز جيوڤاني أظن أنك تعرف أي نوع من الناس أنا. ولي الآن رغبة في تزويج ابنتي الصغيرة من (بنڤنوتو) ولما كان يشقّ عليّ أن أجد وسيطاً أفضل من مقامك الشريف فقد قصدتك بهذا الأمر راجياً عونك. وإني أترك لك تحديد صداقها.

ما كان الرجل الطيب يختم كلامه حتى اندفع الأحمق المأفون يجيبه بلهجة جازمة وعبارات خرقاء لا طعم لها:

- أقفل هذا الموضوع ياراڤايللو. فأنت بعيد عن مرامك هذا بُعد كانون الثاني عن ثمر العلّيق.

صُدم الرجل المسكين وخابت آماله فيّ، فحاول تزويج ابنته بآخر وحقدت عليّ الأم والبنت نفسها وبقية أفراد الأسرة وأنا لا أدرك السبب. وما استنتجت هو أنهم يقابلون إحساني بالإساءة وعطفي بالموجدة. فقررت أن أفتح لي دكاناً في عين الحيّ. ولم يخبرني (جيوڤاني) بشيء إلاّ بعد أن تمّ تزويج الفتاة. وقد حصل هذا بعد بضعة أشهر.

كنت في تلك الأثناء أعمل بجدّ لإنهاء القطعة وفي نفس الوقت أقوم بوظيفتي في دار الضرب ذلك لأن البابا أمرني بعمل تصميم لقطعة نقد أخرى بقيمة كارلينين إثنين[1] في وجهها تُنقش صورته. وفي ظهرها يُنقش منظر سير السيد المسيح فوق الماء مادّاً يده إلى تلميذه بطرس مع عبارة «Quare dubitasti لماذا داخلك الشك؟». وقد أعجب بها الكلّ حتى أن واحداً من أمناء سرّ البابا يدعى (إل سانكا Sanga) وكان من أحسن الناس ثقافة وإطلاعاً قال لقداسته:

- فليفخر قداستك بهذه العملة فهي تفوق كل ما ضربه القدماء لأنفسهم مع ما كانوا يتمتعون به من عزّ وما يحفّ بهم من مظاهر الرفعة والعظمة.

فردّ عليه البابا بقوله:

(1) مفردها (كارلين) عملة إيطالية عتيقة متغيرة القيمة.

ـ وكذلك فليفخر بنڤنوتو بخدمته امبراطوراً مثلي يقدّر قيمته.

وكنت أوالي عرض الحلية الذهبيّة الهامّة على البابا كل يوم بناء على طلبه فيزداد إعجاباً بها بازدياد رؤيته إياها.

في ذلك الحين كان أحد اخوتي في خدمة الدوق أليساندرو وجاء إلى روما بمعيته وكان الدوق الذي منحه البابا مؤخراً دوقية (بنّا Penna) قد استخدم عدداً كبيراً من المقاتلين الأشداء الممتازين الذين تلقوا تدريبهم في معهد جيوڤاني دي مديتشي. وقد برزوا كلهم بالإقدام والشجاعة. إلاّ أن الدوق كان يعدّ أخي واحداً من أشجع شجعانهم.

في ذات يوم بعد الغداء توجهنا إلى دكان المدعو (باجينو دللاّ كروجي Baccino della Croci) ويقع بالقرب من الضفة حيث اعتاد هؤلاء العسكريون النجباء الإختلاف إليه. فانطرح على ضفة منه وأدركته سِنةٌ من النوم. وفي تلك الأثناء مرت دورية من الشرطة تقود موقوفاً وهو كابتن سابق في جيش جيوڤاني دي مديتشي من لومبارديا يدعى (جستي Cisti) ولم يكن آنئذ في خدمة الدوق. واتفق أن كابتنَ آخر وهو (كاتيفانزا دلكي ستروزي Cattivanza delgi Strozi) كان يقف عند باب الدكان. فلما رآه (جستي) صاح قائلاً:

ـ كنت في طريقي إليك لأفيك ما بذمتي لك من نقود قليلة. فإن أردتها فعليك أن تفعل شيئاً قبل أن يقفلوا عليها وعليّ باب السجن!

كان الكابتن (كاتيفانزا) من أولئك الذين يدفعون الآخرين لخدمتهم ولا يزجون أنفسهم في مكامن الخطر. فوجد عدداً من الشبان ذوي البأس والإقدام. لا يحجمون عن أمثال هذه المغامرة، فتوجه إليهم وطلب منهم أن يلحقوا بالكابتن (جستي) ويتسلموا منه النقود. فإن اعترضت الشرطة سبيلهم فعليهم أن يثبتوا لهم ويبرهنوا على معدنهم باستخدامهم القوة. وكانوا أربعة كلهم مرد لم تنبت لحاهم إن لم تعوزهم الشجاعة فهم يفتقرون إلى الخبرة ولا يصلحون لمثل هذا الأمر الكثير التعقيد. أحدهم كان يدعى (برتينو آلدو براندي) والآخر (اكويلوتّو دا لوكا) أما الآخران فلا أتذكر اسميهما. كان أولهما تحت إمرة أخي وهو الذي دربه وبينهما مودّة وإخلاص.

أجل، اندفع هؤلاء الشبان الأربعة يتعقبون الشرطة الذين كانوا يزيدون عن الخمسين وهم مسلحون بالبندقيات والحراب والسيوف الثقيلة ذات المقبضين. لم يطل الحديث بين الفريقين ووضع الأربعة أيديهم على سلاحهم وكان هجوماً عنيفاً صاعقاً فلو أظهر (كاتيفانزا) وجههُ في تلك الساعة لولى الشرطة الأدبار دون حاجة منه إلى امتشاق سيفه.

وبعد معركة قصيرة أصيب (برتينو) بجرح بليغ وسقط على الأرض وأصيب (أكويلوتو) بجرح في ذراعه الأيمن أقعده عن إستعمال سيفه فانسحب ناجياً بجلده وحذا الآخران حذوه. ثم حُملَ (برتينو) وهو في حالة خطرة.

كل هذا جرى ونحن جلوس حول المائدة إذ قد جيء بوجبة الظهيرة متأخرة ساعة واحدة عن الموعد المعتاد. سمع (جيوڤاني) الإبن الأكبر الضجة فنهض يريد أن يخرج لإستطلاع الأمر فناديته قائلاً:

ـ ناشدتك الله لا تذهب ففي مثل المسائل لا بدّ وأن تخسر شيئاً وليس ثمة ربح فيها قطّ.

وتوسل به أبوه كيلا يخرج بقول مشابه. إلاّ أنه انطلق مسرعاً إلى تحت غير ملتفت إلى أقوالنا. وما أن بلغ الضفة حيث وقع القتال حتى رأى (برتينو) محمولاً. فكرّ راجعاً بسرعة. وفي طريقه لقي أخي (جكينو) فاستوقفه وسأله ما الأمر. ومع أن بعض المستطرقين والمتفرجين أشار إلى الفتى من طرفٍ خفيّ أن لا يخبره بما وقع ويقفل فمه. إلاّ انه كالاهبل الأخرق ـ راح ينفض الحكاية برمتها وختمها بقوله ان الشرطة قتلت (برتينو) فأطلق أخي المفجوع صرخة عظيمة لاتخطئها الأذن عن مسافة عشرة أميال ثم سأل جيوڤاني:

ـ أيمكنك أن تصف لي قاتله؟

فأجاب (جيوڤاني):

ـ أجل. هو رجل يحمل سيفاً ذا مقبضين وثمة ريشة زرقاء في قبعته.

فاندفع أخي المنكود وأدرك القاتل متعرفاً عليه من الوصف وبإقدامه المعهود قذف بنفسه إلى وسط الدوريّة وفاجأ غريمه غير معطيه فرصةً وطعنه طعنةً نجلاء

وجندله على الأرض والسيف غائب في بطنه حتى المقبض، ثم إستدار نحو البقية وهاجمهم بعنفٍ وشراسة وكاد يهزمهم جميعاً لولا أن واحداً من حملة البندقيات أطلق النار عليه دفاعاً عن نفسه فأصيب الفتى البائس السيء الحظّ بجرح في أعلى ركبته اليمنى. وفيما هو على الأرض مسجى تفرق الشرطة مسرعين خشية أن يهاجمهم مقاتل في مثل إقدامه.

ولما استمرّ الضجيج تركت المائدة أنا الآخر وتمنطقت بسيفي (في تلك الأيام كلّ رجل كان يحمل سيفاً) وتوجهت إلى جسر سانت انجلو، وهناك وجدت تجمعاً لعدد كبير من الناس وعرفني بعضهم فأفسح لي بشكل يلفت النظر إلى شيء ما كنت لأرغب قطّ في تكبد العناء لرؤيته لو عرفت مسبقاً ماهو. في مبدأ الأمر لم أتبينه، لأنه كان يرتدي ثياباً غير الثياب التي رأيتها عليه قبل ساعات فكان هو الأسبق إلى معرفتي وإلى مخاطبتي قال:

- يا أعزّ أخٍ. لا تحزن لما نزل بي من نكد طالع فصناعتي تحث خطاي إلى ذلك. خذني من هنا بسرعة فما بقي لي من الحياة قليلٌ.

وفي أثناء ما كان يتكلم أطلعني بعض الواقفين بالإختصار الذي يتطلبه الموقف على ما وقع، واجبته قائلاً:

- أخي إنه لأعظم مصابٍ بي. إنها الفاجعة الكبرى والقارعة القاصمة فلتطمئن نفسك بأني سأنتقم لك بيدي ممن أصابك قبل أن تغمض عينيك.

كانت كلماتنا ذات دلالة واضحة لكنها شديدة الإيجاز.

في تلك اللحظة كان فصيل الحرس على بعد خمسين خطوة مِنّا، ذلك لأن ضابطهم (مافيو Maffio) أمر قسماً منهم بالعودة لنقل العريف الذي قتله أخي فخففت الخطى نحوهم. وقد لممت أطراف معطفي حول جسمي لمّا محكماً. قصدت (مافيو) حتى صرت أمامه وكنت قاتله لا محالة لو لم أجدني محشوراً بين الجمع المحتشد حوله. ثم وبسرعة البرق إنتضيت سيفي حتى منتصفه ألاّ ان برلنكيير برلنكييري (Berlinghier Berlinghieri) أسرع فكتفني من خلف. كان صديقاً عزيزاً جريئاً باسلاً لا شك في بسالته وكان معه أربعة من الفتيان من عياره.

فصاحوا (بمافيو):

- أمض لطيتك. فقد كاد هذا الرجل يصرعكَ وهو بمفرده.

فسأل «من هو؟»

فأجابوه:

- هو شقيق الرجل الذي تراه هناك.

كان هذا كل ما يريد سماعه فانسحب إلى (توزّي دي نونا Torre di Nona)[1] برجاله فوراً. والتفتوا اليّ قائلين:

- حلنا دون ما ترغَب يا بنفنوتو مستخدمين القوة وما فعلنا هذا إلاّ حرصاً عليك والآن فلنذهب لمداراة الجريح أخيك فحاله تسوء بسرعة.

عدنا إلى أخي فحملناه إلى منزلٍ قريب وتشاور الأطباء الذين جيء بهم أثناء قيامهم بعلاجه إلاّ انهم لم يتوصلوا إلى رأي قاطع في بتر ساقه - ربما كان فيه نجاته - على كلٍ، ما أن ضمّد الجرح حتى أقبل الدوق السّاندرو وأخذ يوجه إلى (جكينو) عبارات ملأى بالعطف والمواساة وهو ما يزال مالكاً وعيه. فأجابه أخي:

- مولاي! إني لن آسف على شيء قدر أسفي على فقدانك خادماً قد لا يكون أشجع كل جنودك لكنه غير قابل للتعويض بأيّ شخص آخر يخلص لك ويمحضك الودّ مثلي.

فقال له الدوق: «عليك أن تفكر في إنقاذ حياتك فحسب. وأمّا عن الأمور الأخرى فأنا لا أجهل أبداً إخلاصك وبسالتك». ثم التفت إلى أحد مرافقيه وأوصاه بأن يلبوا كل طلب للفتى الباسل ويكفوه كلّ حاجة.

وبعد أن انصرف بدأ جرح (جكينو) ينزف بشدة وتعذر ايقاف النزف ولم يكفّ عن الهذيان طول الليل التالي، إلاّ عندما همّوا بمناولته الأسرار الأخيرة، فقد قال:

---

(1) هو سجن المجرمين العاديين في روما.

ـ عليكم أن تعرّفوني أولاً ثم تناولوني القربان. والآن أصبح يتعذر أخذ القربان المقدس على هذا الجسم الفاني. ألا دعوني أخذه روحياً من خلال عينيّ وسيفيىء روحي الخالدة التي لا تطلب منه غير الرحمة والغفران.

بعد هذا القول نُحي القربان جانباً. وعاد يهذي مرّةً أخرى وخرج من فمه أقبح القول وأهول الهرف الشنيع. واستمر هذا طول الليل دون إنقطاع. وببزوغ شمس اليوم التفتَ اليّ وقال:

ـ أخي العزيز. لا أريد أن أبقى هنا بعد الآن. لأنهم يرغموني على القيام بعملٍ يائس بحيث يجعلهم يأسفون لاعتراضهم سبيلي.

ثم باعد ما بين رجليه ورفع الجريحة منهما إلى أعلى وكانت مستقرّة داخل صندوق ثقيل جداً، كأنما يهم بامتطاء جوادٍ. أخيراً ادار وجهه نحوي وردد العبارة التالية ثلاث مرات:

ـ وداعاً وداعاً.

بهذه الكلمات خرجت روحه الشجاعة[1] في الوقت المناسب وهي الساعة الثانية والعشرين مساءً. دفنتهُ بإحتفال مهيب في كنيسة الفلورنسيين[2] ثم شيدت له ضريحاً من الرخام في غاية الجمال ونقشت فيه مجموعة من الرايات والبيارق وأعلاماً ولا أنسى أن أذكر هنا أن رفيقاً له كان قد سأله أي واحد من حملة البندقيات أصابه وهو يستطيع تشخيصه فأجاب بالإيجاب ووصفه له. وقد حاول أخي بكلّ ما في وسعة أن يحول دون سماعي هذا، لكني أبلغتُ به وبشكل مفصل وسأبين ما أسفر عنه ذلك في الوقت المناسب.

أعود إلى شاهد القبر الرخامي، فأقول تكرّم عليّ بعض الأدباء اللامعين الذين يعرفون أخي بقطعة تأبينية قالوا إن الفتى الشهم النبيل يستأهلها وإليك هي:

---

(1) هناك وصف لمقتل جكينو چلليني في كتاب (قصص العنف: فاركي الص 11 ـ 50).

(2) أصل إسمها (كنيسة سان جيوڤاني فلورنتيني) بوشر ببنائها في أيام البابا ليون العاشر وتم ذلك تحت إشرافه وساهم في هندستها وزخرفتها كل من ميكالنجلو وجاكوبو داساناڤينو وسان كاللو.

Francisco Cellino Florentino, qui quad in teneris annis ad Joannem Medicem ducem plures victorias retulit et signifis fuit, Buit, facile documen tum dedit quantae fortitudinis et consilii vir futurus erat ni Crudelis foitarchibuso tronsfurus quintre besto jaceret Bevenutus frater posuit. Obiit die xxvi, Maii ,MDXXIX[1].

قضى نحبه وهو في الخامسة والعشرين وقد رغبت أن أثبت تحت شعار أسرتنا اسمه الذي به يناديه الجنود وهو «جكينو أبن الزامر Cecchino del Piffero»[2] (أما أسمه الحقيقي فهو (جيوڤانفرانشسكو چلليني) فأمرت بحفر هذا الإسم بأحرف عتيقة الطراز في غاية الجمال كلها مكسورة عدا الحرفين الأول والأخير فقد جعلتهما مستقيمين. فسألني الأدباء الذين كتبوا التأبين عما ترمز إليه الحروف المتكسرة فأجبت أنها جسمهُ تلك الآلة العجيبة قد تفسخت وتحللت أما الحرفان السالمان فالأول منهما يرمز إلى عطية الله العظمى وهي روحه المتقدة بالقوة الربّانية الروح التي لا يعتريها إنكسار. أما الحرف الأخير فقد أبقيته على حالة لأخلّد المجد والشهرة التي نالتها شجاعته الرائعة. فوجدوا هذا التدبير في غاية السمو والنبل وصار بدعة يقلّدها الآخرون.

وحفرتُ شعار أسرة چلليني[3] على الرخامة أيضاً إلاّ أني غيرتُ فيه قليلاً. ففي (رافنّا) وهي مدينة عتيقة جداً، حيث تحظى أسرة چلليني بمقام رفيع جداً وشعارها هناك يمثل رِجل الأسد الأمامية بلون ذهبي على أرضية زرقاء فاتحة. والمخلب الأيمن من الرجل الممسك بزنبقة حمراء وفوقها خطّ وثلاث زنابق ذهبية صغيرة. وهذا هو شعار آل چلليني الصحيح. والشعارِ الذي أطلعني عليه الوالد ليس فيه غير

(1) هذه ترجمتها التقريبية:
«في هذا الموضع يثوي جثمان فرانشسكو چلليني الفلورنسي. الشاب اليافع الذي حقق إنتصارات باهرة وكتبت له شهرة فائقة وأعطى البرهان على الشجاعة والقوة والمقدرة وعلى حسن المشورة منذ ان بلغت سنه الخامسة عشرة. أصيب بطلق ناري من بندقية إخترقت جسمه وهو يرقد هاهنا في الضريح الذي أعدّه له شقيقه بنڤنوتو چلليني.كانت وفاته في 27 من ايار 1529.

(2) ومعنى الإسم «الصادق ابن العازف على الناي».

(3) في المكتبة الوطنية بفلورنسا رسم لشعار الأسرة من عمل چلليني نفسه.

المخلب دون زنابق مع بقية الرموز الأخرى. إلاّ اني فضلت شعار چلليني فرع (رافنا) كما وصفتهُ آنفاً.

ولأعد إلى ما نقشت منه على قبر أخي فقد جعلت في مخلب الأسد بلطةً حربية بدلاً من الزنبقة. ولم أغير من حقل الشعار. وإني ما أقحمتُ البلطة إلاّ لأذكر نفسي دائماً أبداً بواجب الثأر من قاتله.

وإنهمكت في شغلي محاولاً الفراغ من حلية البابا الذهبية. فقد كان شديد الاهتمام بإنجازها واعتاد أن يرسل بطلبي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع الواحد ليلقي نظرة عليها. ويزداد إعجابه وسروره بها كل مرّة يشاهدها. لكنه كان يكثر من لومي وتأنيبي أحياناً بغضبٍ، بسبب حزني العظيم لوفاة أخي. وفي إحدى المرات قال لي وقد راعه مني كآبتي وضعف حالي:

- بنفنوتو! أفّ لك يا بنفنوتو ما كنت أعتقدك مغفلاً إلى هذا الحدّ. الم تكن تعرف ان الموت لا علاج له؟ انك تبذل قصارى جهودك لتلحق به.

تركت مجلس البابا وعدت إلى بيتي لأشتغل في الحلية وأعمالي في دار الضرب إلاّ اني بدأت في عين الوقت أتعقب البندقيّ الذي قضى على أخي وأراقبه مراقبة دقيقة كأنه فتاة هُمتُ بحبّها. كان هذا الرجل حيناً من الزمن جندياً في كتيبة الخيالة الخفيفة. ثم دخل مسلك شرطة البارجللو في فوج حملة البندقيات. ومما زاد في حقدي عليه أنه كان يتبجح ويفاخر بما قدمت يداه فيقول:

- لولا فتكي بذاك الشاب لألحق بنا هزيمة نكراء وصرع مِنّا عدداً كبيراً. لقد أصبته وقد كاد يقضي علينا.

أدركت بأن حالة الهمّ التي تلازمني لِكثرة رؤيتي له قد حرمتني الأكل والنوم وإني أصبحت حُطاماً. لذلك كَبَتُّ السؤال الذي ظلّ يساورني فلا أجد له جواباً قاطعاً: أمخِلٌ بالشرف ومهين للسمعة ما أنا مصمم عليه أم لا؟ وفي أمسيةٍ حزمت أمري على التخلص من عذابي.

كان الرجل يسكن في منطقة تسمّى توزّي سانكونجينا Torre Sanguigina) وداره ملاصقة لدار غانية من أشهر غانيات روما تدعى (سنيورا آنتيا Signora Antea). أعلنت

الساعة الرابعة والعشرين ليلاً. ووجدت البندقي واقفاً على عتبة منزلة بعد أن فرغ من عشائه. فزحفت إليه وبيدي خنجر بستويِّ. وكان هو مسلحاً بسيف ووجهت إليه طعنةً من الخلف قاصداً ان أفصل بها رأسه عن جسده لكنه إستدار فجأة فوقعت الضربة في أعلى كتفه الأيسر وقطعت العظم.

فقفز وقد طاشت الضربة بعقله من فرط الألم المبرح فأفلت السيف من يده ثم أطلق ساقيه للريح فجددت في إثره حتى أدركته وبيني وبينه خطوة أو إثنتين ثم هوت يدي بطعنة أخرى في عنقه. وغاص النصل عميقاً حتى باءت محاولاتي لإقتلاعه بالفشل. في تلك اللحظة وأنا أستخدم كل قوتي لجذبه ـ اندفع من بيت (آنتيا) أربعة جنود وبأيديهم السيوف مجرّدة. فاضطررت إلى تجريد سيفي لأدافع عن نفسي. وتركت الخنجر في موضعه ووليت الأدبار خشية أن يُفتضح أمري وتُعرف هويتي. وقصدت منزل الدوق الساندرو دي مديتشي ويقع بين ميدان (نافونا Navona) والروتوندا. ما ان إحتوتني جدران الدار حتى أفضيت للدوق بما حصل. وذكر ما فهمت منه ان لا حاجة بي إلى التواري عن الأنظار إن كنتُ وحدي. وطمأنني قائلاً: «واصل عملك في حلية البابا فهو يكاد لا يصبر حتى تنهتي منها». ونصحني بأنه يفضل أن أشتغل في داري لمدة أسبوع. أضف إلى كلّ هذا أن الجنود الذين فاجأوني، ظهروا الآن على مرسح الأحداث ومعهم خنجري ووصفوا ما وقع وكيف انهم حاولوا ما يشبه المستحيل لإنتزاع الخنجر من عنق القتيل الذي لا معرفة لهم به. وفي أثناء ذلك لقيهم جيوڤاني بانديني وكشف لهم أن الخنجر هو خنجره واني قد استعرته منه بقصد الإنتقام به من قاتل أخي. وعندما فهم الجنود ذلك راحوا يعتذرون لاعتراضهم سبيلي وان كنت قد أصبت ثأري كاملاً.

مَرّت ثمانية أيام ولم يرسل البابا في طلبي كعادته. بالأخير أرسل لي عن طريق أمين سِرّه وهو النبيل البولوني الذي ذكرته آنفاً والذي أخطرني بلطف أن قداسته قد علم بكل شيء. إلاّ أن مكانتي عنده باقية كما كانت وما عليّ إلاّ أن أمضي قدماً في عملي وأن أبقى ساكناً. عندما لقينا البابا عبس بوجهي وبَسَر.

وكانت نظرات التهديد الحادة التي يرسلها كالنصال المرهفة تكاد تنزع عني

روحي ولكن ما كاد يتفحص شغلي حتى إنفرجت أساريره وأضاء وجهه بالبشر وأطنب في مدحي قائلاً إنه لإنجاز رائع في وقت وجيز جداً. بعد هذا نظر اليّ شزراً وقال:

ـ الآن وقد شُفيت فاعطِ لحياتك حقها. واعرف كيف تضع قدمك أي بنفنوتو!

حزرت المعنى الذي يكمن في عبارته واجبته أني سأفعل حتماً. وسارعت ففتحت دكاناً ممتازاً جداً على الضفة مقابل دكان (رافايللو) وهناك أكملتُ حلية البابا في غضون أشهر قلائل.

كان البابا قد بعث اليّ بكلّ الأحجار الكريمة المختارة لوضعها في الحلية ماعدا الألماسة فقد ارتهنها في ساعة الضيق لدى بعض الصيارفة الجنوبيين. فكفّتُ الجواهر في أمكنتها. وأنزلت نموذجاً للألماسة في الموضع المخصص لها. كانت أشغالي وقتذاك رائجة جداً والناس يقصدونني متزاحمين ولذلك إستعنت بخمسة من الصاغة القديرين الجوّالين. وكان دكاني يضيق بما يحوي من النفائس بين الحلي الثمينة والأحجار الكريمة والذهب والفضة. فاقتنيت كلباً ضخم الجثة كثيف الشعر جميل الشكل هو هدية من الدوق (اليساندرو) كان بالأصل كلب صيد دُرِّب على قنص كل أنواع الطيور وما دبّ من الحيوان وهذا ما تأيد لي عند خروجي للصيد. على اني وجدته حارساً يقظاً لا تغفل له عين وبذات الكفاءة في الصيد. إذ ما يسقط الطير بعد إصابتي له حتى يعدو إليه ويأتيني به.

واتفق وقد بلغت التاسعة والعشرين من العمر ـ أن اتخذت لي خادمة بيت رائعة الجمال بديعة التكوين واستفدت منها كنموذج. كما كنت أستمتع بها جنسياً موفّياً حق نزوات الشباب. ولهذا حرصت أن تكون غرفة نومي بعيدة بمسافةٍ عن غرف نوم الصنّاع وعلى مدىً من دكاني أيضاً. وأبقيت الفتاة في عِليّةٍ صغيرة متداعية مجاورة لي. وكنت أختلي بها كثيراً وأستبقيها عندي حتى الصبح. وفي هذه الأحوال يثقل نومي أحياناً بعد ممارسة الجنس خلافاً للأحوال الإعتيادية. فأنا بالأصل أخف الناس نوماً.

في إحدى الليالي تشاء الصدف أن يقتحم لصٌ دكاني. سبق أن استعد للأمر بأن

انتحل صفة الصائغ واستطلع الموقع وتعرّف جيداً إلى الجواهر والحلي التي تحتويها دكاني فدبّر خطته للسطو عليها. دخل الدكان ولم يجد غير القليل التافه من الحلى الذهبيّة والفضيّة. وبينما هو منهمك في كسر بعض الإدراج بحثاً عن الجواهر التي شاهدها، هجم عليه كلبي فدافع عن نفسه بسيفه دفاعاً يشوبه الإرتباك. ثم ان الكلب شرع يجري هناك وهنا في أرجاء المنزل. فاقتحم غرفة نوم الصنّاع التي كان بابها مفتوحاً لحرارةٍ في الجوّ. ولم يوقظهم نباحه القوي فبدأ يسحب أغطيتهم عنهم بأنيابه ويجرهم من ثيابهم فلم يلقوا عليه بالاً وتجاهلوه. وعندئذ راح يعضّ الواحد بعد الآخر من ذراعه حتى أرغمهم على النهوض. ثم أطلق نباحاً شديداً محاولاً جرّهم إلى اقتفاء أثره. إلاّ ان الاوغاد الملاعين لم يشاؤوا مرافقته وحمي غضبهم منه وراحوا يقذفونه بالحجارة والعصي وكان ذلك سهلاً بالنسبة اليهم لأني كنت قد أوصيتهم بإيقاد النور طوال الليل. بالأخير أحكموا إغلاق الباب وحالوا بين الكلب وبينهم. فيئس مِن تلقي أي عون منهم ومرق إلى الطابق الأسفل فلم يجد اللص في الدكان فانطلق في إثره. ولما أدركه صال عليه وأمسك بتلابيه ومزق معطفه وسحبه من ظهره. ما كان أحد يدري مآل هذا اللص مع الكلب لو لم يستنجد ببعض الخياطين ويستحلفهم بمحبة الله أن يدفعوا عنه غائلة الكلب المسعور. فصدقوا قوله وإنبروا النجدته ولم يفلحوا في ردّ الكلب عنه إلاّ بشق الأنفس.

في صباح اليوم الثاني دخل صُنّاعي الدكان فشاهدوا أقفاله مكسورة والأدراج مفتوحة والإضطراب يسود جوانبه فبدأوا يتصايحون:

ـ النجدة! اللصوص!

فأيقظتني صيحاتهم واندفعت إليهم وقد تملكني الفزع. وما أن شاهدوني حتى بدأوا يصرخون:

ـ كان الله في عوننا. لصٌ سطا على الدكان وسرق كل ما فيها!

بلغ إرتعادي وهلعي حداً ما عدتُ بعده أملك الشجاعة للدنو من الخزانة وتفقد جواهر البابا، غشي الرعب على باصرتي فما عدت أرى شيئاً. وإستبد بي القلق العظيم فأمرت الصناع أن يفتحوا الأدراج بأنفسهم ويحصوا ما فُقد من الجواهر.

ولأذكر هنا قبل أن يفوتني أن صنّاعي كلهم كانوا اشباه عراياً لا تكسو أجسامهم إلاّ قمصان نومهم. ففتحوا الخزائن والأدراج ليجدوا الأحجار الكريمة والحلية الذهبية كاملة لم ينقص منها شيء.

فعادوا حالاً يصرخون جذلين:

ـ كلّ شيء على ما يرام. أشغالك مع الجواهر هاهنا كلّها. إلاّ أن اللص ذهب بكلّ ثيابنا ولم يُبق لنا غير القمصان التي تكسو أجسامنا.

وبعدها بيّنوا لي انهم خلعوا ثيابهم كلها بسبب الحرارة الخانقة وتركوها في الدكان ليلة أمس. تمالكت نفسي حالاً وأفرخ روعي وبدأت أشكر اللّه ثم قلت لهم:

ـ إذهبوا كلكم وإبتاعوا لكم ثياباً جديدة وسأدفع ثمنها عندما أسمع منكم ما وقع بالضبط.

إن أكثر ما كان يقلقني أو بالأحرى يريعني، هو أن أجد نفسي الآن في حالةٍ ذعر مخيفة ـ وهذا ضدّ طبيعتي وما جُبلت عليه نفسيتي، وان اكون هدفاً للشك أيضاً إذ سيفكر الجميع بأني اخترعت قصة اللصّ لتغطية سرقتي أموالهم وجواهرهم. في الواقع إن واحداً من أقرب موظفي البابا وأوثقهم (فضلاً عن غيره مثل فرانشسكو دي نيرو F. del Nero، وزانا دي بيليوتي Zana di Biliotti محاسب البابا وأسقف ڤازونا Vasona)[1] كان قد قال البابا:

ـ أيها الأب الأقدس كيف تستأمن شاباً متهوراً ناري الطبع على هذه الجواهر العالية القيمة. شاب لم يبلغ الثلاثين بعد وميله إلى القتال يفوق ميله إلى الفنّ؟

فيجيب البابا بالسؤال التالي:

ـ هل يعلم أحد منكم بأنه أقدم على شيء يؤيد ظنونكم ويبررها؟

فيجيب مدير ماله (فرانشسكو دل نيرو) بسرعة:

ـ كلاّ أيها الأب الأقدس، لأن الفرصة لم تسنح بعد.

---

(1) اسمه جيرولاموسكيو وهو كاهن إعتراف البابا. وڤازونا (ڤيزون بالفرنسية) تقع بالقرب من مدينة (آڤيون).

فيردُ البابا بقوله:

- إنّ لي كلّ الثقة بأمانته ولو زلّت به القدم فعلاً لكذّبت نفسي.

عندما تذكّرت هذا فجأة إرتعدت فرائصي وأدركني الخوف فعلاً. وبعد أن أوصيت عمالي بشراء ثياب لهم، أخذت الحلية الذهبية ورتّبت الأحجار الكريمة بخير ما يمكن من التنظيم وحملتها لساعتي إلى البابا. لم يضع (فرانشسكو دي نيرو) وقتاً في إبلاغ قداسته بشيء مما ذاع من الروايات حول ما وقع في دكاني. فأيقظ في نفسه شكّاً فجائياً. ثم تسرّع في إستنتاجه بأن ما حدث هو أسوأ المتوقع. نظر اليّ نظرةً صاعقة تنبئ بشرّ مستطير. وسألني بلهجة صارمة:

- ما الذي جاء بك؟ ما الأمر؟

- أنظر! هاهي ذي كل جواهرك وكذلك ذهبك. لم يفقد منها أي شيء.

فإنبسطت أساريره وقال:

- الآن إسمك على المسمّى فحافظ عليه. ألا «مرحباً بك».

وأريته ما عملته فيها وكنت أثناء تفحّصها أروي له قصّة اللص ومبلغ قلقي وما كان يحزّ في نفسي أكثر من أي شيء. وكان يتطلع اليّ بإستمرار ولا يحول أنظاره عني طوال حديثي. وكان (فرانشسكو دي نيرو) موجوداً ولهذا إعتوره بعض الضيق لما ساوره من شكٍ فيّ.

بالأخير إنفجر ضاحكاً بسبب الخطبة الطويلة العريضة التي ألقيتها وقال وهو يبتعد:

- بنفنوتو! فلتبق ذاك الرجل الأمين الذي عرفته بك.

وضاعفت جهودي في سبيل إنجاز اشغال البابا. في ذلك الزمن أيام كنتُ موظفاً ثابتاً في دار الضرب، إنتشرت في روما عملة مزيفة تحمل أشكال قوالبي. فجيء ببعضها إلى البابا حالاً، وحامت الشكوك حولي وشدّد البابا على (جاكوبو بالدوجي Jacobo Balducci) الذي كان في حينه مدير دار الضرب بالسعي بكلّ الوسائل للقبض

على المزيّف الحقيقي. لأنه واثق من أمانتي واستقامتي. إلاّ أن النذل الخبيث الذي كان من خصومي أجابه:

- أرجو الله أيها الأب الأقدس أن يصدق فيه قولك. فلدينا أسباب تحملنا على الشك فيه.

وعندها التفت البابا إلى حاكم روما وأمره بأن يستعجل في العثور على الفاعل. وفي عين الوقت أرسل قداسته يستدعيني وراح بكلّ لباقةٍ يدير دفة الحديث متدرّجاً إلى موضوع العملة حتى جاء إلى بيت القصيد. قال:

- بنفنوتو! أتراك قادراً على سكّ عملة مزيفة؟

أجبته في الحال إني لقادر على سكّ نقود متقنة الصنع أبزّ بها كل ممارسٍ لهذه العملية القذرة. ذلك لأن أولئك الذين اتخذوا هذا العمل الدنيء وسيلة رزق ومصدر عيشٍ هم ممن لا يحذقون صنعةً ما تعينهم على الكسب والعيش الحلال ولا يملكون مؤهلات ومهارة حقيقية. وأنا بمواهبي ومهارتي المتواضعة أكسب من المال أكثر مما أستطيع إنفاقه. ومنذ ان بدأتُ أعمل القوالب لدار الضرب وأنا أتسلّم كل صباح قبل تناول الفطور ثلاثة كراونات على الأقل. وتلك هي العادة المتبعة دائماً في دفع هذا المبلغ. وإن المحتال مدير دار الضرب يكرهني لأنه يريد أن يحصل على القوالب بسعر أقلّ. ثم ختمت كلامي بالقول:

- إن ما يسمح الله والبشر لي به من رزقٍ، فيه الكفاية وأكثر. وسيكون مكسبي أقل من هذا بكثير لو إنصرفت إلى سكّ العملة الزائفة.

ووضح للبابا قصدي جيداً. ففي حين كان قد أصدر أمراً بفرض المراقبة الدقيقة عليّ في حالة إعتزامي الرحيل عن روما أمر الآن بإجراء بحث دقيقٍ شامل عن الفاعل الحقيقي. وأن أُترك لحالي ولا أُضايق لأنه لا يرغب في أن يجرح مشاعري خشية تركي الخدمة عنده. وأُعطيتْ هذه التعليمات المشددة لبعض موظفي القصر الرسولي. وبعد تنفيذ تلك الأوامر ووضعها موضع الإجراء الدقيق. توصلوا إلى الرجل الذي يبحثون عنه فوراً تقريباً. وكان سكّاكاً يعمل في دار الضرب اسمه (جيزاري ماكاروني

Cesare Macharone) وهو مواطن روماني. وقبضوا أيضاً على شريك له وهو سبّاك في دار الضرب أيضاً.

في ذلك اليوم بالذات اتفق اني كنت أمرّ بميدان (نافونا) وكلبي الجميل يدبّ في أعقابي. وما أن بلغت مدخل المقرّ العام للبارجلّو (صاحب الشرطة) حتى بدأ الكلب ينبح بناحاً مسعوراً. ثم وثب وثبة كبيرة وإندفع من فتحة الباب وهجم على شابٍ كان هناك. أوقف هذا الشخص بتهمة سرقةٍ بناء على شكوى صائغٍ من أهالي[1] (بارما Parma) يُدعى (دونينو Donnino) كان سابقاً من تلاميذ (كارادوسو). وحاول الكلب مستميتاً تمزيق الشاب ارباً ارباً لو لم تأخذ الشرطة الرحمة به. وقد زاد شعورهم بالرأفة نحوه أنه كان يدافع عن نفسه بكلّ جراة وذلاقة. وأظهر دونينو عجزاً عن الإتيان بأدلة إثبات كافية ضدّه. زد على هذا إن أحد عرفاء الشرطة كان من جنوا وعلى معرفةٍ بأبي الشاب. فبين حادث الكلب وبين ما ذكرته بدا وكأن السلطة لن تتردد في إخلاء سبيله. ما ان عدوت في إثر الكلب وصرت بينهم حتى هاج هائجه مرة أخرى وهجم على الشاب غير عابئ بالسيوف والعصي. فهددني الشرط بأنهم سيعمدون إلى قتله إن لم أبعده عن الشاب. فأمسكت به وعقرته متشبثاً جهد إمكاني وفي تلك اللحظة وأثناء ما كان الشاب يجرّ معطفه ـ سقطت من القباء لفافات ورقٍ. فشخصها (دونينو) قائلا إنها تعود له ثم وقعت أنظاري على خاتم صغير يعود لي فصرخت:

ـ هذا هو اللصّ الذي سطا على دكاني وسرقني، ولهذا عرفه كلبي.

أطلقت الكلب من عقاله وفيما هو يهم بالوثوب بدأ الشاب يتوسل ويطلب الرأفة قائلاً إنه سيعيد اليّ كل ما أخذه مني. فأمسكت بالكلب بينما راح يعيد الذهب والفضّة والخواتم الصغيرة التي تعود لي فضلاً عن خمسة وعشرين كراوناً. ثم عاد يطلب الرحمة. قلت إن أراد الرحمة فعليه أن يتوجه بصلاته إلى الله لأني لن أساعده ولن أقف في سبيله.

---

(1) من المدن الكبيرة الهامة في إيطاليا تقع شمال فلورنسا على بعد حوالي 170 كيلومتراً.

عدت إلى داري مستأنفاً أعمالي. وبعد بضعة أيام شُنِق (جيزاري ماكاروني) مزيف العملة على الضفة أيام دار الضرب وحُكم على شريكه بالتجديف في السفن[1] وشنق اللصّ الجنوي في ساحة (كامبودي فيوري). وخلصت سمعتي وزاد إعتباري بشكل لم أحلم به.

وكنت أشارف على الإنتهاء من الاشغال التي كلفني بها البابا. وقع فيضان عظيم غمر روما كلها بالماء عندما أعلنت دقات الساعة الثانية والعشرين (قبل الغروب بساعتين) وأخذ الليل يرخي سدوله وراح منسوب المياه يرتفع بإطراد وبسرعة. وبقيت لأرى ما سيحدث. كانت واجهتا منزلي ودكاني تطلان على الضفة. وظهرُ المنزل الذي يواجه (مونتي جيوردانو Monte Gierdano) أعلى بعدة أقدام من الواجهة. كان أول همي هو سلامتي، يليها شرفي وسمعتي. فبادرت إلى حشو جيوبي بكل الأحجار الكريمة، وتركت حلية البابا عند صناعي. ثم علوت الشباك الخلفي للدار حافي القدمين وقفزت منه وأنا أخوض في الماء حتى بلغتُ (مونتي كافاللو Monte Cavalle) وهناك لقيتُ (جيوڤاني كادي) الموظف في البلاط البابوي ومعه الرسام البندقي (باستيانو). كان جيوڤاني شديد التعلّق بي وكنت أعدّه بمثابة أخٍ لي. فلما كان اللقاء بيننا قمت بإيداع كلْ الجواهر عنده وطلبت منه المحافظة عليها.

بعد أيام قلائل هبط مستوى الماء وزال الخطر وصار بإمكاني العودة إلى الدكان وإكمال الحلية. شاكراً الله ومجهودي فقد بلغت بها قمة النجاح وقال عنها كلّ من رآها إنها قطعة فنيّة رائعة لم ير مثلها في روما. ولم يجد البابا العبارات الكافية للثناء عليّ عندما حملتها إليه. وقال:

ـ لو كنت من الملوك الأغنياء. لأقطعتُ عزيزي بنڤنوتو من الأرض قدر ما يمتد إليه بصره. إلا أننا في هذه الأيام أمراء فقراء مفلسون. مع هذا فسنضمن له الحصول على الخبز الذي يسدّ حاجته المحدودة.

---

(1) عقوبة قاسية لم يبطل العمل بها إلى مفتتح القرن التاسع عشر. بموجبها يؤخذ المحكوم إلى سفينة تعود للسلطة وتقيد رجلاه في الموضع الذي خصص للتجديف مع سائر المحكومين لا يزاوله إلا لقضاء حاجاته الجسمية.

تركته يمضي في الحديث على رسله حتى يفرغ ما في جعبته منه. ولما كان منصباً من مناصب حملة الصوالج شاغراً فقد سألته هل يمكنه تعييني فيه؟ فأجاب انه انتوى إكرامي بشيء أهم من هذا بكثير. فأجبت قداسته: لعله ينعم عليّ في الوقت الحاضر بما طلبته كشيء أشبه بضمان.

فأطلق ضحكة عالية وقال إنه لشديد الرغبة في تحقيق مطلبي هذا لكنه لا يريدني في وظيفة لها واجباتها الفعلية وإن عليّ التفاهم مع حملة الصوالج الآخرين ليتوزعوا واجباتي. وفي الوقت نفسه مَنَحهم ما كانوا قد طلبوه منه وهو تمكينهم من استحصال أجورهم المتأخرة قضائياً. وصار يدخلني من هذه الوظيفة زهاء مائتي كراون سنوياً.

واصلت خدمة البابا وعملت له أشياء صغيرة في أوقات مختلفة. ثم طلب مني يوماً أن أهيء له نموذجاً لكأس القربان كثير الزخارف. فقمت بعمل نموذج وتصميم تخطيطي. الأول منهما صنعته من الخشب والشمع وفي مكان العقدة صممت ثلاثة مجسّمات تامة البروز رمزتُ بها لفضائل الرجاء والإيمان والمحبة. ولإحلال الموازنة والمساوقة فيه جعلت في القاعدة ثلاث دوائر صغيرة في داخلها مشاهد بنصف بروز: مشهد يمثل ميلاد يسوع المسيح، ومشهد يمثل قيامته وبعثه، ومشهد يمثل بطرس الرسول مصلوباً ورأسه في الأسفل[1] إذ كانت هذه وصية البابا.

وكان قداسته لا يفتأ يلحُ في رؤيته وأنا أشتغل به. وقد بدا لي في حينه أن قداسته نسي تحقيق ما أنعم عليّ به قبلاً. ولما كانت قد شغرت وظيفة في دائرة (البيومبو Piombo)[2] فقد طلبتها منه ذات مساء. فوجدته قد غسل ذاكرته من كل المديح والحماسة التي أظهرها لي عندما إنتهيت من حليته. إذ أجابني قائلاً:

- وظيفة البيُومبو تعود على متقلدها بأكثر من ثمانمائة كراون سنوياً. فإن عينتك

---

(1) عندما حُكم على الرسول بطرس بالصلب في روما، أبى أن يُصلب ورأسه في الأعلى قائلاً إنه لا يستحق أن يموت بالشكل الذي مات سيده المسيح.

(2) دائرة في بلاط البابا فيها تختم البراءات البابارية بأختام رصاصية (Piombo) ويتقلدها مدنيون أحياناً. ومن أشهر من عين فيها المهندس المعماري العظيم براماني. وسباستيانو الذي ورد ذكره هنا. ولم يكن هذا الآخر ليستحقها إذ ما أن نالها حتى قعد ولم ينجز بعدها أعمالاً تذكر.

فيها فلن تعمل شيئاً سوى حَكّ بطنك طول اليوم. وبذلك تفقد مهارتك العجيبة وتلومني شخصياً.

فأجبته قائلاً:

ـ إن اصائل القطط تحسن قنص الفيران وهي سمينة أكثر مما تحسنهُ وهي جائعة. وكذلك الصناع الأمناء فإنهم يكونون أكثر إجادةً واتقانا لأعمالهم عندما يوسع لهم في الرزق. وليتذكر قداستك أن الأمراء الذين يرفهون عن الفنانين ويفسحون لهم سبل العيش الهنيء إنما يسقون جذور العبقرية التي تولد عادةً ضعيفة ومريضة. وليكن قداستك على علم أيضاً بأني ما طلبت هذه الوظيفة بفكرة الظفر بها فأنا قانع بالمنصب المتواضع منصب حامل الصولجان وأما الأخرى فأنا أراها في أحلام اليقظة فحسب.[1]

ثم أنهيت كلامي بقولي:

ـ وما دام قداستك لا ينوي إسنادها اليّ فإنك لتحسن صنعاً إن أنعمت بها على فنان جديرٍ بها لا على دعيّ خامل لا يفعل شيئاً غير حَكّ بطنه كما ذكر قداستك.

وأطلقت قذيفة الوداع فذكّرته بأن يحتذي حذو سلفه الفاضل البابا يوليوس الذي أسند مثل هذه الوظيفة إلى المهندس المعماري الألمعي (برامانتي Bramanti). ثم انحنيت وانصرفت وأنا أتقدّ غيظاً.

بعد إنصرافي تقدم منه (باستيانو فينيزيانو) الرسام وقال له:

ـ أيها الأب الأقدس، لماذا لا تسند المنصب إلى من أوقف كل وقته على فنه؟ لقد تفرغتُ بكلّيتي إلى عملي وإني لأرجو منك أن تحكم إن كنتُ جديراً به.

أجاب البابا:

ـ هذا الشيطان بنفنوتو! إنه لا يتحمّل أيّ شخصٍ يرفض له طلباً. ولقد كنت في

(1) في جواب جلليني تعريض لا يخفى بكلام البابا. فمن عادة القطط عندما تكون عاطلة متخمة البطن أن تحك بطنها بأظافرها وقتاً ملياً.

الواقع أميل إلى تقليده إياها. لكن ليس من الأدب أن يظهر المرء صلافتهُ أمام البابا لذلك فإن رأيي لم يستقر على ما سأفعله.

وأسرع أسقف (فازونا) يهتبل الفرصة مزكياً (باستيانو) ومتوسطاً له فقال:

ـ أيها الأب الأقدس. إن (بنفنوتو) شاب مندفع وهو يبدو والسيف في عاتقه أفضل مما يبدو مرتدياً مسوح الرهبان الذي يتحتم عليه إرتداؤها إذا ما أسندت إليه وظيفة في (البومبو)، إلا فلتتكرم بمنح هذا المنصب للرجل الموهوب باستيانو وسيكون بمقدورك في مناسبة أخرى أن تجد لبنفنوتو وظيفة حسنة قد تكون أكثر لياقة به.

فالتفت البابا إلى النبيل (بارتولومو فالوري B. Valori)[1] وقال له:

ـ إن لقيت بنفنوتو. فبلغه عني بأنه هو الذي أعطى المنصب للرسام باستيانو. إلا انه يمكنه أن يعتمد على الفوز بأوّل منصب مناسب يخلو. وفي أثناء ذلك عليه ان يحسن عمله وينجز ما يشتغل به لي.

في مساء اليوم التالي بعد حلول الظلام بساعتين لقيت السيد (بارتولومو) في منطقةٍ قرب دار الضرب وهو في عجلة من أمره على إثر إستدعاء البابا له وكان يتقدمه إثنان من حملة المشاعل لكنه توقف عندما حييتُه وأشار عليّ بالدنو. ثم أبلغني بغاية اللطف والحرارة ما أمره البابا بإبلاغي. فأجبت اني سأنجز العمل بأكثر دقة وتفرغاً من أي عمل قمت به قبلاً ولكن ذلك كله سيكون بروح خالية من أقل أملٍ بالحصول على أي شيء من البابا. فأنبني على قولي هذا واردف قائلاً ليس هذا بالأسلوب الذي يُرد به على وعود البابا. فقلت: لعلمي بأني لن أظفر بشيء، فلأكونن مجنوناً إن إعتمدت على ما قال، أو أجبت بغير هذا الجواب. ثم تركته وانصرفت لشأني.

لا بُدّ أن (بارتولومو) نقل خطبتي الصغيرة الغاضبة. وربما زاد فيها شيئاً من عنده لأن البابا لم يستدعني إليه طوال شهرين أو أكثر. ولم يكن لديّ طول هذه المدة أقل

---

(1) فلورنسي. ظل مخلصاً لآل مديتشي حتى شبع من غدرهم. فانضم إلى (فيليبو ـ ستروزي) وساهم في مؤامرته ضدهم. فقطع رأسه في 1537.

رغبةٍ للذهاب إليه مختاراً. إلاّ أنه كان يتحرق لإلقاء نظرة على الكأس التي أقوم بعملها له ولذلك طلب من السيّد النبيل (روبرتو بوجي Roberto Pucci)[1] أن يتحرى ويستعلم عما يجري. إعتاد هذا السيد الماجد زيارتي يومياً وكنّا دائماً على صفاء ومودة. وكان الزمن يقترب لموعد سفر البابا إلى بولونيا[2] ولما أيقن أخيراً بأني لن أقصده من تلقاء نفسي، جعلني أفهم عن طريق السيد (روبرتو) بأنه يريدني ومعي الكأس ليرى التقدم الذي جرى في العمل به.

فأخذته إليه ووجد أن أهمّ قسم فيه قد تمّ. ثم رجوت منه أن يدفع لي خمسمائة كراون منها كأجور ومنها لأني كنت في حاجة ماسة إلى ذهب لأكمل به الكأس. فلم تخرج من فمه غير هذه العبارة:

ـ عجّل به، أكمل العمل!

فإنصرفت وأنا أقول بأني سأكمله حتماً إن زودني ببعض المال.

عندما سافر البابا إلى (بولونيا) ترك الكردينال سالفياتي نائباً باباوياً في روما وأمره أن يحثني في العمل وما قاله له عني هو هذا:

ـ بنفنوتو قليل التقدير لمواهبه، وهو أقل تقديراً لنا، فاحرص على متابعة عمله في الكأس واجعله يعكف عليه ليكون كاملاً عند عودتي.

فلم يكن من الكردينال البهيمة إلاّ وأن أرسل بعد ثمانية أيام من رحيل البابا يستدعيني مع الكأس. فقصدته بدون الكأس. وما أن وقع نظره عليّ حتى قال:

ـ أين لحمك المَفروم ذاك، هل كمُل طبخهُ؟

أجبت:

---

(1) من أشياع آل مديتشي لكنه كان أكثر إخلاصاً لهم من بارتولومو فالوري. وقد حاول كثيراً إقناع البابا بالعدول عن محاصرة فلورنسا.

(2) القصد من رحلته هو الإجتماع بالإمبراطور شارل الخامس للمداولة معه في إقامة حلف ضدّ الدولة العثمانية ولحضور مجمع ديني هناك. وبولونيا مدينة كبيرة تبعد عن روما زهاء 400 كيلومتراً إلى الشمال وعلى القارئ أن لا يخلط بينها وبين بلاد (بولندا).

- سيدي الجزيل الإحترام. اللحم لم يكمل طبخه ولن يكمل حتى أزوّد ببعض الخضراوات أضعها فيه.

كان هذا الكردينال أشبه بالحمار منه بالبشر. وقد زاد حيوانيّةً عندما وعى كلامي فإنفجرت كوامن غيظه وصرخ بي:

- لأبعثنّ بك إلى السفن العقابية. وعندها ربّما ستتكرم وتنجز العمل.

وهنا لم أر مناصاً من النزول إلى مستواه الحيواني فأجبته:

- عندما أرتكب جريمة تستحق الحكم عليّ بالتجذيف في السفن فبإمكانك يا سيدي إرسالي إليها. إلاّ أن ما أقدمتُ عليه حتى الآن لا يكوّن عندي سبباً للقلق من هذا. ودعني أضيف: بسببك أنت، لم تعد لديّ نيّة في إكماله. فلا ترسل في طلبي مرة أخرى لأنك لن تراني إلاّ باللجوء إلى القوة.

بعد هذا لجأ الكردينال (المهذّب) إلى أسلوب الملاينة والمسايرة لحملي على مواصلة العمل في الكأس وحمله إليه ليراه. إلاّ أني كنت أردّ عليه بقولي: إذا رغب في أن يرى طبخة اللحم المفروم، فيجمل به أن يزوّدني بشيء من الخضراوات. كان هذا الردّ الوحيد الذي وجده عندي، فيئس بالأخير ونفض يده من الموضوع نهائياً.

لم يكد يستقرّ المقام بالبابا بعد عودته من (بولونيا) حتى أرسل بطلبي وكان الكردينال قد كتب له بشرّ ما يمكنه الكتابة عني، ولذلك كان قداسته في أقصى حالة من الإنفعال والعصبيّة وحدة المزاج.

في فترة غياب البابا أصيبت عيناي بالتهاب خطير حتى خيّل لي أني مشرف على الموت من فرط تباريح الألم. وكانت هذه العلّة الأساس في عدم إكمالي العمل بالكأس. في الواقع أن ما كابدتهُ جعلني أعتقد بأني سأعيش بقية عمري ضريراً، وحملني هذا الاعتقاد على الإستعداد بهذا النمط من الحياة الذي ينتظرني فحسبت كم أحتاج من المال لأستعين به على العيش إن وقع هذا. ولذلك كنت أحاول وأنا في طريقي إلى البابا - التفكير في أسلوب إعتذار لنفسي عن تقاعسي في إنجاز كأسه الذهبي. وقررت أن أنتهز فرصة عرضه وقيامه بفحصه لأشرح له ما أصابني من الضرّ غير أني لم أحسن التقدير إذ ما أن وجدت نفسي أمامه حتى صاح بخشونة:

ـ ضع شغلك هنا! هل هو كامل؟

فأزحت عنه اللفائف فعاجلني بصرخةٍ أخرى وقد فقد السيطرة على نفسه:

ـ أقول لك والله شاهد، ديدنك أن لا تهتمّ قلامة ظفر بأيّ إنسان ولولا مركزي وقدسية هذا الشيء لقذفت بك وبه من النافذة.

وجدته وقد خرج عن طوره فكان همي الوحيد أن أنجو بنفسي منه. وبينما كان ماضياً في صولته. وضعت الكأس تحت معطفي وتمتمت لنفسي.

ـ ما من قوة في العالم ترغم رجلاً أعمى على عمل دقيق كهذا.

وعندما صاح وقد زاد إرتفاع صوته:

ـ تعال هنا! ماهذا الذي تقوله؟

نازعتني فكرتان: هل أثب وثبة جنونية إلى الدرج؟ أم أبقى؟ ثم إتخذت قراري فركعتُ وصرخت (لأنه لم يكف هو نفسه عن الصياح):

ـ إن أسلمني مرضي إلى العمى. فهل يترتب عليّ مواصلة العمل؟

فأجاب:

ـ كان بمقدورك أن تبصر طريقك جيداً إلى هنا. لا أصدق حرفاً مما تقول.

لكني لاحظت إنخفاض صوته قليلاً فأسرعت أقول:

ـ لو سأل قداستك طبيبك الخاص فإنك ستجد الحقيقة عنده.

فقال:

ـ عندما أجد متسعاً من الوقت سأتحقق من مدى إنطباق إدعائك على واقع الأمور.

وجدت أنه صار الآن مستعداً للإصغاء التي فبدأت أقول:

ـ بالتأكيد أن السبب الوحيد لإبتلائي بالمرض هو الكردينال سالفياتي إذ ما أن ترك قداستك روما حتى استدعاني وعندما جئته وصف شغلي باللحم المفروم وهددني بأنه سيرغمني على اتمامه وأنا في سفينة العقاب. وأثرت فيّ معاملته الفظّة فهاجت أعصابي هياجاً شديداً وشعرت وكأنّ وجهي يلتهب ناراً، وعيني تحرقاني المأ

بحيث عجزت عن تلمس سبيلي إلى منزلي. وبعدها بيومين نزل الماء الأبيض على كلتا عينيّ فلم أعد اتبين خيطاً من النور. ولذلك لم أكن قادراً على مد يدي إلى عملٍ منذ رحيل قداستك.

ثم نهضت من ركعتي وإنصرفت. وأبلِغتُ فيما بعد أن البابا قال معقباً على القضية:

- بإمكان المرء أن ينقل المسؤولية إلى عاتق آخر ولكن ليس بالإمكان نقل حكمتها وتعقلها معها. لم أطلب من الكردينال تعقيب الأمر بمثل هذه الصرامة والعنجهية. وإن كان إدعاء بنڤنوتو بمرض عينيه صحيحاً وهو ما سأتحققه من طبيبي، فعلينا أن نأسوه ونتألم له.

وكان في مجلس البابا وقتئذ رجل نبيل من كبار القوم تربطه بالبابا صداقة متينة فسأل عن هويتي. وقال شارحاً غرضه من هذا:

- أيها الأب الأقدس، إن السبب في سؤالي هو رؤيتي لك الآن وانت تنتقل من أقصى حالة غضبٍ عليه إلى أقصى حالات العطف. فقل لي من هو؟ إن كان يستحق المساعدة بحثُ له بسرِ دواء يشفيه من مرضه.

فأجابه البابا:

- إنه أعظم أساتذة صنعته طراً. لا يُعرف أحدٌ يباريه فيها. وفي المرة القادمة اذ نكون معاً سأريك شيئاً من أعماله الرائعة بل سيمكنك أن تشاهد الشخص بالذات في عين الوقت. وسيكون من دواعي سروري إن صنعت فيه معروفاً.

بعد هذا بثلاثة أيام إستدعاني البابا بعد أن فرغ من غدائه. فوصلت لأجد هذا النبيل معه بالذات. فأمر قداسته بإحضار حلية الزنار التي صنعتها له.

في الوقت الذي أخرجت الكأس وعرضته فأعجب به النبيل إعجاباً لا حدّ له وقال إنه لم ير تحفة بمثل هذه الروعة.

ولما أحضرت الحلية ونظرها تضاعف إعجابه ثم إنه صعّدني بأنظاره ملياً وقال:

ـ إنه لأصغر سِنّا بكثير من سعة وقوفه على أسرار هذا الفن. وإنه ما زال على استعداد للإستزادة والتحليق في أجوائه.

وسأل عن أسمي فقلت: بنفنوتو. فقال:

ـ سترى الآن بأني (بنفنوتو)[1] أيضاً. خذ نبتة سَوْسَن، أزهاراً وساقاً وجذوراً وأوراقاً. ضعها جميعاً في قدر واغلها على نارٍ بطيئة ثم أغسل عينيك بمائها عدة مرات يومياً وستبرأ بالتأكيد. لكن عليك أن تتطهر بتناول مسهّل قبل مباشرة العلاج.

وكان حديث البابا معي في غاية من اللطف. وخرجت وأنا أشعر بنوع من الرضا. في الواقع إن عدوى المرض إنتقلت اليّ وأعتقد أنها جاءتني من الخادمة الصغيرة الجميلة التي كانت عندي وقت حادث السطو على دكاني. بقي داء السفلس كامناً لا يظهر حوالي أربعة أشهر ثم انطلق فجأة من مكمنه وإنتشر في كلّ أنحاء بدني ولم يظهره بطوره الإعتيادي المعروف فقد غطى جسمي بطفح أحمر كل واحدة منها بحجم الصولدي. ورفض الأطباء أن يشخصوه بالأفرنكي. مع اني شرحت السبب الذي يحملني على الإعتقاد بأنه هو بعينه. مهما يمكن فقد واصلت العلاج بحسب ما رسموه فلم يطرأ تحسن على حالي بالمرّة. وبالأخير ورغم تحذير أحذق أطباء روما قررت تعاطي (خشبة الحياة Lignum Vitae)[2] وتعاطيت ذلك ببالغ ما يتصور من العناية وباتباع أدقّ الحمية. وما مرت أيامٌ حتى بدأت أشعر بتحسن كبير. وبنهاية خمسين يوماً على مرضي برئت تماماً أو بتُّ أكثر حيوية ونشاطاً من سمكة النهر. وفي سبيل التعويض عن العناء الكبير الذي كنت ارزح تحته. وبدنو فصل الشتاء ـ قررت أن أسرّي عن نفسي قليلاً بالخروج للصيد. وهذا ما أدّى إلى تعرضي إلى كل تقلّبات المناخ وخوض المستنقعات. فأصبت بإنتكاسة وتردّت صحتي في أيام قلائل وساءت حالي أكثر من الأول بكثير فأسلمت نفسي للأطباء مجدداً. وصارت حالتي تزداد سوءاً بازدياد علاجهم. ولمّا ركبتني الحمّى قررت العودة إلى تعاطي خشبة الحياة. وكان

---

(1) جاء ذكر التورية المقصودة والمستمدة من معنى إسم بنفنوتو في أكثر من موضع من المذكرات.

(2) اسم لاتيني يطلق على أي شجرة استوائية من فصيلة الـ: Guaiecum وهو من جملة الادوية النباتية التي كان يعتمد عليها الطب في ذلك الزمن.

الأطباء ضدّ ذلك تماماً وقالوا لو اني عالجت نفسي بها مع وجود الحمّى فسأهلك في غضون أسبوع. وصممت على تجاهل رأيهم وبعد أن داومت متبعاً عين القواعد كالسابق. تركتني الحمّى بعد أربعة أيام من تناول هذا المنقوع المقدّس، ولم يبق لها أثر وشعرت بتحسن كبير. في الواقع ما انقطعت قطّ عن تناول هذا المنقوع وأنا أتقدم حثيثاً في نماذج قطع الكأس. وفي خلال فترة الحمية أبدعت من النماذج والتصاميم ما لم أوفق لمثله طوال أيام حياتي.

بنهاية خمسين يوماً شُفيت تماماً. وشرعت أتولى بناء صحتي بغاية الجدية والاهتمام. وشعرت بعد ذلك الصيام الطويل بتحرري تماماً من ذلك الوهن والسقم حتى لكأني ولدت من جديد. ومع كلّ المتعة التي كنت أجنيها من قيامي ببناء صحتي الغالية، أبيت أن أهمل صناعتي وأوقفت من وقتي غاية ما وسعني على العمل في الكأس وفي دار الضرب.

واتفق أن نصب الكردينال سالفياتي الشديد الكره لي كما بيّنتُ ـ نائباً رسولياً في (بارما). وما حدث بالمناسبة هو أنه قبض في هذه المدينة على صائغ من أهل (ميلان) اسمه طوبيا Tobia بتهمة تزوير وبعد أن حكم عليه بالشنق وحرق جثته. تقدم بإسترحام بطلب التخفيف إلى الكردينال بسبب كونه صانعاً حاذقاً جداً. فعمل الكردينال على منع العدالة من أن تأخذ مجراها وإيقاف تنفيذ الحكم وكتب للبابا يقول لقد وقع بين يديه أعظم صائغ حاذق في الدنيا كلها. وإنه محكوم عليه بالشنق والحرق وتزييفه العملة، إلاّ انه انسان ساذج ومستقيم، إدعى بأنه استشار معرفة حول سك العملة فأجازه الكاهن بعمل ما حُكم عليه من جرّاه. وأضاف الكردينال إلى كل هذا قوله: «لو إستقدمت هذا الرجل إلى روما فإن قداستك سينجح في إرغام أنف بنفنوتو وتحطيم غروره المفرط. وإني لواثق بأن عمل (طوبيا)، سيرضيك أكثر من عمل بنفنوتو بكثير».

وبنتيجة هذا أرسل البابا بطلبه في الحال. وما وطئت رجله روما حتى جمعني وإياه في مجلسه وطلب منّا أن نصمم كلّ على حدة نموذجاً لحلية تزين قرن حيوان

(اليونيكورن)(1) وهو أجمل ما في نوعه كان قد كلّف قداسته سبعة عَشر ألف دوقية من العملة البابوية. وكان قداسته يريد أن يقدمه هدية لملك فرنسا إلاّ انه رغب قبل هذا أن يزينه بالتهاويل والزخارف الذهبيّة.

بعد أن صنعنا نموذجينا حملناها إلى البابا. كان الشكل الذي إختاره طوبيا على هيئة شمعدان. والقرن البديع مثبت في الرأس ليقوم مقام الشمعة والقاعدة تتألف من أربعة رؤوس صغيرة لليونيكورن. وهو بمجموعة خيال ساذج ومخالف للذوق السليم إلى درجة مقرفة حتى لم أتمالك من الإبتسام في سِرّي وأنا على مبعدة فلم تفت ابتسامتي الساخرة ملاحظة البابا وناداني حالاً وقال:

- ألا دعنا نشاهد ما عملتَ.

كان نموذجي مجرد رأس اليونيكورن بالحجم الطبيعي المناسب للقرن صورته بأبدع شكل يخطر بالبال. ذلك لأني نقلت التصميم عن رأس حصان ورأس أيل وزينته بعُرف بديع وعدد آخر من الزخارف الأخرى. والنتيجة أنه ما أن شوهد حتى أسرع الجميع يقولون بتفوّق تصميمي. وكان في المجلس بعض ذوي الوجاهة والنفوذ من الميلانيين فوجدوا الفرصة السانحة ليقولوا:

- أيها الأب الأقدس، إن قداستك سيرسل هذه الهدية الثمينة إلى فرنسا. ولا يخفى أن الفرنسيين قوم غلاظ لم تصقلهم المدنية. ولن يتبيّنوا الفن الرفيع الذي يتجلى في موديل بنفنوتو. وشمعدانٌ كالذي عمله (طوبيا) وهو ما نراه هنا، سيعجبهم كثيراً. وعمل كهذا لن يأخذ وقتاً طويلاً. ثم إن بنفنوتو سيكون إذ ذاك متفرغاً إلى إنجاز العمل بكأسك. وسيتم عمل شيئين في وقت واحد. فضلاً عن إنك ستفتح باب رزقٍ للرجل المسكين بمنحه فرصته للعمل.

---

(1) Unicorn أي وحيد القرن. وهو حيوان خرافي يُرسم عموماً بجسم ورأس حصان وبقوائم الإبل الخلفية وذيل أسد مع قرن في جبهته. وعلى ذلك يكون القرن الذي يصفه چلليني هو للخرتيت وإسمه العلمي Rhinoceros Unicornis.

ولا شك في أنه كان نادراً في ذلك الزمان لأن وطن هذا الحيوان في مجاهل أفريقيا ولم يكن معروفاً من العالم الأوروبي آنذاك. فمن يحصل على قرن خرتيت لا شك يعتقد انه فاز بقرن ذلك الكائن الخرافي.

كان موضوع الكأس في اليوم التالي شغل البابا الشاغل. فسارع بإتباع نصيحة الميلانيين وعهد في اليوم التالي بصنعه إلى (طوبيا) وأبلغني عن طريق مدير المخازن[1] والمستودعات بوجوب إتمام الكأس. فكان جوابي اني لا أريد إلاّ أن أنتهي من مثل هذه التحفة الفريدة في جمالها. ولو كان معدنه غير الذهب لأمكنني إتمامه بسرعة دون مساعدة أحدٍ. ولكن لما كان من الذهب فعلى قداسته ان يزوّدني بشيء منه إن كان يريد مني إتمامه وجواباً على الرسالة التي أبلغتها لرجل البلاط الوضيع النسب ـ قال:

ـ عونك اللهم! إيّاك أن تطلب من البابا ذهباً وإلاّ دفعه الغضب إلى تدميرك.

فأجبت:

ـ هل يتفضل سمّوك في هذه الحالة. فيعلّمني طريقةً لصنع الخبز دون دقيق؟ ذلك لأن هذا العمل يا سيدّي المبجّل لا يتمّ قط بدون ذهب؟

بدأ هذا الموظف يدرك بأني أعبث به وأسخر. فقال إنه سينقل كلماتي بحذافيرها إلى البابا. وقام بذلك فعلاً فهاج هائج البابا وقال إن سيصبر ليرى إلى أي مدى يبلغ الإستهتار والجنون بي فلا أتمه. ومرّ أكثر من شهرين، ومع أني قلت بأني لن أمد يدي إليه، فقد واصلت الوقت العمل به بكل رغبة واشتياق وبدأ البابا يحمل ضغنا لي وزادت نقمته عندما وجد أني لا أنوي حمله إليه. وهدد بإنزال عقابه بي مهما كانت النتائج. وقد سمع قوله هذا جوهريّه الميلاني (بومبيو) الذي يمتّ بصلة قرابة إلى المدعو(ترايانو) أقرب وأحبّ موظفي البابا كليمنت. فأقبل كلاهما على البابا وقالا له:

ـ لو قداستك عزلته من وظيفته في دار الضرب، فربما حفّزه ذلك على إكمال الكأس.

فأجاب البابا:

---

(1) هذه الدائرة تشمل مستودعات السلاح والذخيرة العامة في البلاط البابوي.

ـ سيتأتى من هذا نتيجتان سيئتان. أولاهما أني سأفتقد العمل الجيد في دار الضرب وهو بالنسبة لي أمر هام جداً وثانيهما أني لن أحصل على الكأس مطلقاً.

إلاّ أن هذين الميلانيين وقد تبينا مبلغ سخط البابا مني ـ نجحا بالأخير في حمله على عزلي[1] من وظيفتي وإسنادها إلى فتى (بيروجي) يعرف بإسم (فاكيولو Fagiuolo) وجاءني (بومبيو) يبلغني بأمر العزل قائلاً إنه سيعمل على حرماني من أشياء أخرى إن لم أفرغ من صنع الكأس. فأجبته بقولي:

ـ قل لقداسته إنه قد سلب نفسه بعزلي، ولست أنا المسلوب. وكذلك الأمر بالنسبة للأشياء الأخرى. وإن أراد إعادتي فلن أقبل قط.

خيّل لهذا النذل المنحطّ أن قدميه لا تسرعان به إلى البابا كما يجب وما أن مثل امامه حتى أفضى إليه بما قلت مُضيفاً أكاذيب من عندياته. وبعد أسبوعٍ جاءني هو نفسه يحمل لي رسالة من البابا. قال ان قداسته لا يريدني اكمال الكأس بعد الآن. وانه يطلب اعادته إليه بالهيئة التي آل إليها بالضبط. فأجبت هذا الرجل لا يمكنه أخذ الكأس مني كما فعل بأخذ وظيفتي في دار الضرب. وزدت قائلاً:

ـ كما ترى: الوضع هو هذا في ذمتي خمسمائة كراون تعود إلى البابا وسأعيدها إلى قداسته فوراً أمّا الكأس فهي ملك حلال لي أتصرف بها كما أشاء.

أسرع (بومبيو) لإبلاغ أقوالي هذه فضلاً عن عبارات مُرة قذفته بها شخصياً لإقتناعي بأنه يستأهلها.

بعد مضي يومين أو ثلاثة على هذا وكان يوم خميس جاءني إثنان من أمناء سِرّ قداسته أحدهما السيد (بيير جيوڤاني) وهو بعد في قيد الحياة وقد أصبح أسقفاً وكان وقتها أمين مستودعات البلاط البابوي. والثاني وهو أرفع منه منزلة ـ غاب اسمه عن ذاكرتي. وابتدراني بقولهما:

ـ أي بنفنوتو، نحن قادمان بأمر البابا لنبلغك بعد إخفاق كلّ المحاولات الرقيقة إمّا أن تسلمنا الكأس أو أن نأخذك أنت إلى السجن.

---

(1) كان ذلك في العام 1533 على الارجح.

فتطلعت إليهما باسماً وقلت:

- يا سيديّ الموقرين. لو أعطيت قداسته الكأس فإني أنزل له عن ملكي الخاص، لا عن شيء يملكه هو. وهذا ما ليس في نيتي ولن أعطيه إياه فبعد الجهود العظيمة والمشاق التي تكبدتها للوصول به إلى المرحلة النهائية. يعزّ عليّ أن يقع بيد حيوان جاهل لن يضيّع وقتاً في إتلافه.

كان (طوبيا) الصائغ حاضراً عندما نطقت بهذا. فبلغت به الصفاقة أن يطلب مني تسليمَ تصاميم الكأس أيضاً. وأوثر هنا أن لا أدون ردّي على طلبه. على أي حال كان الرد من النوع الذي يليق بمثل هذا المنحطّ.

وألحّ عليّ أمينا السرّ بحزم رأيي على ما انتويه بسرعة. قلت لهما إني مستعد وتناولتُ معطفي. ثم وقبل أن أترك دكاني رفعت رأسي إلى صورة السيد المسيح بكلّ إحترام - وقبعتي في يدي:

- أنت أيها الرب الأقدس الحيّ، العادل الرحيم. كل ما تفعله نابع من عدالتك التي لا تسمو إليها عدالة. ربّ أنت تعلم أني بلغت الثلاثين من عمري، ولم اهدد بالسجن لأي عمل اتيتهُ. والآن وقد شاءت إرادتك أن أُقاد فأنا أشكرك من أعماق قلبي.

ثم التفت إلى أميني السرّ وبواحدة من التعابير الصارمة التي كانت تشيع في وجهي - قلت:

- رجل من وزني يستأهل أن يخفره حرس لا يقلّ رفعةً عن سيادتكما فاجعلاني بينكما وخذاني إلى حيث شئتما فأنا سجينكما.

فانفجر السيدان الجليلان ضاحكين ووضعاني في الوسط. وسرنا ونحن نتبادل طليّ الأحاديث حتى بلغنا حاكم روما ويدعى (ماكولوتو Magolotto) وكان ينتظر مقدمي ومعه المدعي العام. وعند وصولنا قال أمين السر للحاكم وهما مستمران في الضحك:

- إننا نعهد إليك بهذا السجين. كن شديد العناية به. كان من دواعي سرورنا العظيم أن نقوم بمهام شرطتك لأن (بنفنوتو) قال لنا إنه بمناسبة اعتقاله لأول مرة في

حياته ـ لايستحق حرساً أدنى منا. وعادا إلى البابا رأساً وقصّا عليه ما وقع لهما فبدا لأول وهلة وكأن مراجل غيظه ستنفجر إلاّ أنه كظم ما به وأطلق ضحكة مقتضبة. فقد كان في مجلسه عدد من وجهاء القوم والكرادلة أصدقائي ممن أعتمد على مكانتي عندهم.

في تلك الأثناء كان الحاكم والمدعي العام يستخدمان معي أسلوباً هو مزيج من التهديد والتحذير والتجريح والنصيحة. قالا: من البديهي أنه يحق للشخص الذي عهد إلى آخر بالقيام بعمل شيء له أن يستعيد ذلك الشيء عندما يشاء وبالكيفية التي يشاء. فكان جوابي ان تصرفاً كهذا لا ينطوي على ذرة من العدالة. وبالتأكيد ان البابا لا يمكن أن يسلك مثل هذا السلوك، لأنه ليس واحداً من أولئك الأمراء الصغار الطغاة الذين يستغلون رعاياهم بأبشع ما يمكن من استغلالٍ غير آبهين للعدالة أو القانون. إن نائب المسيح لا يمكن أن يقدم على شيء كهذا. عندئذ إتخذ الحاكم الوضع الذي تتسم به وظيفته بوصفه شرطياً وقال:

ـ بنفنوتو! بنفنوتو! أنت تدفعني إلى معاملتك بما تستحق. عليك أن تحترم منزلتي ومركزي. وابعث في طلب الكأس. أجبت:

ـ لو أنت تعاملني بما استحق فسيكون ذلك بالتجلّة والكياسة الواجبين لي.

قال مرة أخرى:

ـ ابعث بطلب الكأس فوراً ولا تنتظر مني تكرار ذلك عليك.

فأجبتُ:

ـ تكرّما عليّ بالسماح لي بإضافة كلمات قليلة دفاعاً عن نفسي.

فالتفت المدعي العام الذي كان أهدأ طبعاً بكثير من الحاكم وقال له:

ـ دعه ياسيدي يتكلم مائة كلمة. فما نريده هو أن يسلّمنا الكأس فحسب.

قبدأت أقول:

ـ هب يا سيدي أن شخصاً ما يبني له قصراً أو داراً. وجد من حقه أن يقول للبناء «اني ما عدت أريد أن تشتغل عندي في قصري أو داري» فيسرّحه بعد أن يدفع له لقاء

عمله. انه يكون قد إستعمل كامل حقه في ذلك. أو أن نبيلاً دفع بجوهرة ثمنها ألف كراون إلى صائغ لتكفيتها فوجد ان الجوهري لا يقوم بالعمل كما أراده هو. فمن حقه أن يقول له «لا حاجة لي بعملك فأعد اليّ الجوهرة». إلاّ أن قضيتي لا تشبه أيّا من هاتين. إنها ليست قضية دار أو جوهرة. كل ما يمكن أن أؤمر به هو إعادة الخمسمائة كراون التي تسلمتها كمقدم لأتعابي. ولكما يا سيدي أن لا تدخرا وسعاً أو طاقة فكلّ ما يمكنكما الحصول عليه مني هو الكراونات الخمسمائة. فأبلغا البابا بذلك. إن تهديداتكما لا تخيفني أبداً، فأنا رجل مستقيم السيرة. ولا يثقل ضميري جرم أخشى منه. فنهض الرجلان وقالا إنهما سيقصدان البابا ويعودان منه بتوصيات قد لا أجدها مبعثاً للسرور. بقيت موقوفاً ورحت أقطع القاعة الواسعة ذهاباً وإياباً ومرّت ثلاث ساعات قبل أن يعودا وفي أثناء غيابهما توافد عليّ كل كبار التجار الفلورنسيين زائرين وشرعوا يتوسلون بي بحرارة أن أضع نهاية لهذا الخصام مع البابا أو سيكون فيه دماري. فكان جوابي إني قد قررت قراراً لا رجعة فيه على ما أنويه.

ما أن عاد الحكم والنائب العام من القصر حتى استدعياني للمثول أمامهما وتكلم الحاكم بما يلي: - يؤلمني يابنفنوتو أن أعود من نائب المسيح الأقدس بهذه الأوامر، إما أن تجلب الكأس في الحال أو أن تتدبر أمر نفسك.

فأجبت: ما كنت أصدق حتى هذه الساعة أن يصدر من نائب المسيح الأقدس مثل هذا الظلم. وإني لأنوي أن أراه واقعاً قبل أن أصدقه قولاً. ثم أردفت:

- فافعلا إذن ما يمكنكما بي.

قال الحاكم:

- بقي شيء قليل مما حملته من البابا وعليّ أن أصارحك به ثم أقوم بتنفيذ الأوامر التي تلقيها، يقول: عليك أن تأتي بالكأس إلى هنا. وعليّ أن أودعه صندوقاً وأختمه ثم أحمله إليه. إنه وعد بشرفه أن لا يكسر الختم، وأن يعيده إليك دون تأخير وهو يريد أن يتمّ كل ذلك حفظاً لماء الوجه. فضلاً عن شرف كلمته.

فأجبت ضاحكاً يسرني جداً أن أنزل له عن الكأس بالشكل الذي رسمه لأني أريد التأكد كم تسوي كلمة البابا.

ثم بعثت بطلب الكأس فختم عليه بالشكل الذي رسم وسلمته للحاكم فأخذه إلى البابا تحت هذه الشروط. وبحسب ما أنبأني الحاكم أن البابا تسلّم الصندوق وصار يقلبه عدة مرات ثم سأله هل شاهد ما بداخله فأجاب الحاكم بالإيجاب وان الختم عليه جرى بحضوره ثم أردف يقول إن الكأس في رأيه تحفة رائعة. وعند هذا قال البابا:

ـ خبِّر بنفنوتو أن الباباوات يملكون سلطان الحَلّ والعقد في أمور أخطر وأعظم بكثير من هذا. قال هذا وبحركة خفيفة تنمّ عن الغضب فتح الصندوق وحَلّ الخيط وكسر الختم.

ثم راح يتفرس فيه ملياً. وعلمت فيما بعد أنه عرضه على الصائغ (طوبيا) فلهج بالثناء عليه. فسأله البابا أيمكنه الإضطلاع بمثل هذا النوع من الشغل وعندما أجاب بالإيجاب أوصاه بأن يتبع تصميمي ولا يحيد عنه ثم التفت إلى الحاكم وقال له:

ـ أنظر فيما إذا رغب بنفنوتو فسأدفع له في حالة تنازله عنه لنا مايقدّره أهل الخبرة. وإذا شاء أن يتمّه لنا بنفسه فدعه يضرب لنا أجلاً محدداً. وإن وجدته مستعداً فعلاً لذلك فسأدفع له كل مايحتاج للعمل به ضمن حدود معقولة.

فأجاب الحاكم:

ـ أيها الأب الأقدس إني لأدري من أي معدن فظيع صُبّ هذا الفتى فخولني سلطةً تمكنني من تلقينه درساً بليغاً بأساليبي الخاصة.

وكان تعقيب البابا على هذا. أنه مخوّل بأن يفعل ما يشاء في حدود الكلام فحسب وإن كان واثقاً بأنه سيعقّد الأمور بهذا. وعلى أي حال إن لم يجد وسيلة لتسوية الأمور غير إستعادة النقود فليبلغني بدفع الكراونات الخمسمائة إلى جواهريه (بومبيو).

عاد الحاكم واستدعاني إلى مكتبه ونظر اليّ عابساً مقطباً كما لو كنتُ أحاكم وقال:

ـ للباباوات سلطان على حَلّ وعقد أي شيء في الدنيا وكل ما يفعلونه يكون موضع رضا السماء. هذه هي كأسك. بعد أن فتحها قداسته وفحصها.

فأسرعت أقول بصوت جهوري:

- شكراً لله. فقد صرت أعرف الآن قيمة كلمة البابا.

بدأ الحاكم يتهدّدني ويتوعّدني حتى إذا وجد ذلك لا يجديه شيئاً تحول إلى الملاينة والملاطفة. فقال:

- بنفنوتو! إني لشديد الأسف عليك لأنك لا تدري أين تكمن منفعتك. وعلى أي حال يمكنك أن تنصرف الآن. وأدفع الكراونات الخمسمائة إلى (بومبيو) متى شئت ذلك.

خرجت أحمل كأسي. وبادرت إلى دفع المبلغ. وربما خيّل لصديقي البابا الذي كان حريصاً على أن يشدّني إلى خدمته ويضع في عنقي طوق العبودية ثانية - إني لا املك المبلغ بتمامه أو اني لن أعيده لأسباب أخرى. وربما خُيّل له أني لن اسدده فوراً. فلما جاءه (بومبيو) ضاحك الثغر وفي جيبه المال. بدأ ينهال عليه بالكلام الجارح ويشكو بمرارة من النتيجة السيئة التي آلت إليها القضية. قال له:

- إذهب إلى بنفنوتو في دكانه. وكن معه لطيفاً مؤدباً بقدر ما يؤهلك له جهلك الحيواني. وقل له إن كان يرغب في إكمال الكأس وعمل وعاء للقربان المقدس أحمله عند الإحتفالات مع الكأس فسأدفع له كلّ ما يحتاجه لإكماله شريطة أن يشتغل.

ناداني (بومبيو) فخرجت إليه من الدكان. وبدأ يتبصبص لي ويتملقني هذا الأحمق الأبله وردد كلّ ما أمره البابا بانهائه اليّ. فأجبت في الحال إن أمنيتي الكبرى في هذه الدنيا هي إستعادة مكانتي عند مثل هذا البابا العظيم تلك المكانة التي فقدتها لا بخطأ منيّ بل بسبب مرضي الشديد وسوء سريرة الحسّاد الذين لا هَمّ لهم غير عمل الشرّ. ثم أردفت:

- وبما أن للبابا العديد من الخدم والأتباع. فارجو أن لا تدعه يرسلك اليّ ثانيةً، إن كنت تريد ان تبقى حيّاً. وان كانت حياتك عزيزة عليك فعليك أن تلزم جانب الحذر. إني لن اتوانى عن خدمة البابا ليلاً ونهاراً مفكراً في إرضائه. أمّا أنت فلا تنس

بعد حملك رسالتي هذه إلى قداسته أن تتحاشاني ولا تتدخل في شؤوني وان فعلت ذلك فسأنزل بك العقاب الذي تستحقه. وعندها ستدرك الذنوب التي اقترفتها.

نقل هذا الرجل كل ما قلتهُ وحرّف في كلماتي لتبدو أشد قوة. ولتخلّف إنطباعاً أسوأ. وبقيت الأمور على هذه الحال فترة كنت خلالها حاصراً اهتمامي بعملي في الدكان. في تلك الأثناء كان (طوبيا) عاكفاً على إنهاء زخرفة ونقش قرن (اليونيكورن) فضلاً عن تكليف البابا إياه البدء بالكأس على نفس القاعدة والأسلوب الذي اتخذته. لكنه أصيب بخيبة واستياء بعد أن شاهد ما أنجز فيهما. وبدأ يندم متحسّراً على قطع علاقته بي. ولم يحز العمل بالقرن رضاه فأخذ ينحى باللائمة على أولئك الذين زكّوا له (طوبياً) وبنتيجة هذا صار (باجينو دللاً كروجي Baccino della Groce) يختلف اليّ كثيراً طالباً مني بإسم البابا أن أبدأ العمل في وعاء القربان الشعاعي. فأجبت برجائي من قداسته أن يتيح لي فترة نقاهة بعد المرض الذي ألمّ بي. إذ لم أشف منه بعد بصورة تامة. على أني أضفت مستدركاً أني سأثبت لقداسته كيف ادخرت له كل ساعة وجدتني قادراً على العمل فيها. وقد باشرت بعمل صورة له من المعدن وأكملت القوالب الفولاذية لأطبعها هنا في بيتي. وقد سهل ذلك وجود شريكي (فليجي Felice) عندي وكان قبلاً تلميذي[1].

في ذلك الزمن جرياً وراء نزوات الشباب تعلّقت بهوى فتاة صقلية جميلة جداً وبدا منها أيضاً أنها تبادلني الحبّ. إلاّ ان أمّها وقفت على الأمر وبدأت تشكّ فيما سيعقب ذلك. في الواقع إني قررت الهروب مع الفتاة إلى فلورنسا والبقاء مدة سنة دون البوح بكلمة واحدة للأم. إلاّ انها سمعت بما أنويه فغادرت روما سِرّاً تحت جنح الليل سالكة طريق نابولي وأشاعت إنها ستتجه عن طريق (جيڤيتا فيكيا Civita Vecchia)[2] لكنها رحلت من طريق (أوستيا Ostia)[3] فلحقت بهما متبعاً الطريق الأولى وصيّرتني أضحوكة في محاولة العثور عليها. والقصة تطول إن فصّلت وقائعها.

---

(1) اسمه الكامل فليجي كواتدني وهو من أخلص أصدقاء جلليني وسيأتي ذكره فيما بعد.
(2) بلدة على الساحل الغربي تقع شمال روما بمسافة 60 كيلومتراً تقريباً.
(3) بلدة على الساحل الغربي تقع جنوبي روما بمسافة 30 كيلومتراً.

وكل ما أريد قوله هو اني كنت على شفا الجنون أو الموت. وبعد مرور شهرين كتبت تقول إنها في صقلية وإنها في غاية التعاسة في عين الوقت قذفت نفسي إلى أحضان الشهوات واللذائذ وعلقت بحبٍ جديد كيما أسلو الأول.

أدت سلسلة من الظروف الغريبة إلى قيام صداقةٍ بيني وبين كاهن صقلي كان في غاية الذكاء وعلى إطلاع واسع باللاتينية واليونانية. ومرة كنا نتسامر فجرّنا الحديث إلى فنّ إستحضار الأرواح السفلية. فقلت:

- كنت أرغب طول حياتي في رؤية أو سماع شيء عن هذا الموضوع. لما سمعني الكاهن أبدي هذه الملاحظة أسرع يقول:

- الرجل الذي يباشر في مثل هذه الأمور يجب أن يكون شجاعاً قوي العزم والإرادة. فأجبت: لو سنحت لي الفرصة فسأبرهن بأني أملك الكثير من الشجاعة والعزم، فقال:

- لو كنت حسن العدّة من هاتين الصفتين فسأملأ جوفك من هذه الأُمور. واتفقنا على إجراء تجربة في استحضار الأرواح معاً. وفي أمسيةٍ أكمل القسّ استعداداته وطلب مني أن أدعو أثنين لا أكثر. فأخذت صديقي العزيز (فنجنزيو رومولي Vincenzio Romoli) وجاء القس برجل من بستويا[1] من الذين يمارسون عمل إستحضار الأرواح. فانطلقنا إلى الكوليسيوم[2] وهناك إرتدى القس الجبة التي يرتديها مستحضرو الأرواح. وبدأ يرسم على الأرض دوائر ويأتي بمراسيم وحركات مذهلة للغاية. وكان قد أشار علينا بجلب بعض البخور الثمينة ونار متقدة. ومادة كريهة الرائحة. بعد أن هيّأنا كل شيء. دخل القس الدائرة ثم أدخلنا إليها بيده الواحد بعد الآخر، ووزّع علينا الأعمال. فأعطى ذات الخماسيّة[3] زميله المستحضر. وأناط بي

---

(1) بلدة تقع شمال غرب فلورنسا بمسافة أربعين كيلومترا.

(2) أهم آثار روما وهو بناء ضخم ذو أربع طبقات ذات مقاعد مدرجة وفي وسطه ساحة لألعاب المصارعة بدأ ببنائه الأمبراطور فسبيان في 72 ميلادية وانتهى منه بعد ثماني سنوات وهو على شكل بيضوي أطول قطر فيه بطول 188 متراً. ومحيطه 527 متراً وكان يسع حوالي خمسين الف متفرج. وهو في وقت جلليني خرائب كما يبدو الآن تقريباً.

(3) أداة على شكل نجمة مخمسة أو مخمس اعتيادي مما يستخدمه السحرة والمنجمون.

وبرفيقي العناية بالنار وإحراق البخور. ثم بدأ يُهمهم ويجمجم أكثر من ساعة دون إنقطاع. وظهرت فرق من الأرواح أثر فرق حتى غصّ الكوليسيوم بها وكنت منشغلاً بالبخور. فبعد أن شاهد القس هذا الجمع الحاشد من أرواح الجان التفت اليّ قائلاً:

ـ بنفنوتو! سلها عما تريد. قلت:

ـ أريد أن تجمعوني بفتاتي الصقلية أنجليكا. فلم نظفر بجواب تلك الأمسية. إلاّ ان شوقي ازداد إلى المزيد مما رأيتُ. ولكن مستحضر الأرواح أشار بأن علينا ان نعاود التجربة وسأحصل على ما يشفي غليلي تماماً من كل ما أسأل عنه. إلاّ أنه إشترط على أن أجلب معي صبياً صغيراً طاهر الذيل لم يرتكب فاحشة. أخذت معي واحداً من صبيان دكاني لا يتجاوز عمره الإثني عشر عاماً كما صحبت (فنجنزيو رومولو) السالف الذكر. ولما كان (آنيولينو كادي Agnolin Gaddi) صديقاً لكلينا فقد ضممناه إلينا. وعند وصولنا المكان السابق أخذ مستحضر الأرواح يستعد كالسابق ولكن بدقة وعناية أكثر ثم أدخلنا الدائرة التي رسمها بكثير من المراسيم والفخامة والجمجمة ثم طلب من صاحبي (فنجنزيو) أن يهتم بالبخور ووضع النجمة الخماسية في يدي وطلب مني إبقائها موجهة إلى الأنحاء التي يعينها لي. فأوقفت صبي الدكان الصغير تحتها تماماً. وكان (آنيولينو كادي) يعاون فنجنزيو في النار والبخور.

وبدأ مستحضر الأرواح بهمهمته وجمجمته المرعبة، منادياً أجواقاً من الجنّ بأسمائها آمراً إياها بسلطان الله الحيّ الأزلي غير المخلوق. مستخدماً اللغة العبرانية فضلاً عن اليونانية واللاتينية. وكانت نتيجة ذلك أن امتلأ الكوليسيوم على رحبه بعدد من الجن يزيدون مائة ضعف على أقبل منهم في المرة الأولى في خلال فترة وجيزة. وظل فنجنزيو وأنيولينو مشغولين بالنار وبأكداس كبيرة من البخور النادر. ثم أشار الساحر عليّ فعدت أطلب الإجتماع بأنجليكا. فالتفت اليّ قائلاً:

ـ أما سمعتهم يقولون إنك ستكون حيث هي خلال شهرٍ واحد؟ ثم عاد يتوسّل بي أن أصمد لأن الأرواح الموجودة تزيد بألفٍ عمّا استحضر منها وأنها من أخطر جنسٍ. وبما أنها وافقت على ما طلبناه منها فعلينا ـ حسب قوله ـ ان نعاملها بلطف وان نصرفها برقة وبكثير من الأناة. وفي تلك الأثناء أطلق الصبي الذي كان واقفاً

تحت النجمة الخماسية ـ صرخة مريعة وقال مرتعداً إن ملايين من أهول الرجال شكلاً يحفّون بنا ويهددوننا. وأضاف يقول إن أربعةً من أضخم المردة الجبابرة قد ظهروا وهم مدججون بالسلاح يهمّون بالإطباق علينا. وكان مستحضر الأرواح المرتعد فرقاً طوال الوقت يحاول بكلّ ما في وسعه اقناعهم بالإنصراف عنّا متوسلاً برقة وبلطف. وراح (فنجنزيو) الذي كان يهتز كالقصبة في مهبّ الريح يزيد في حرق البخور. ولم أكن أنا نفسي بأقل هلعاً من الآخرين إلاّ اني حاولت أن أبدو بالأقل منه. فشددت من عزماتهم وشجعتهم. وإن كنت أكاد أسقط ميتاً عند رؤيتي مدى الخوف الذي تملك مستحضر الأرواح. دفن الصبي رأسه بين رجليه وهو يبكي وقال:

ـ سأموت هكذا! كلنا سنموت!

فقلت له:

ـ كل هذه المخلوقات هي عبيد وخدم لنا ليس إلاّ. وكل ما تراه هو محض دخان وأشباح فهيّا ارفع رأسك. رفع رأسه ثم صرخ ثانية:

ـ الكوليسيوم كلهُ يلتهب والنار تندفع إلينا.

ثم حجب عينيه براحتيه، وطفق يبكي قائلاً إنه الآن ميت ولا يريد أن يرى شيئاً بعد الآن واستنجد مستحضر الأرواح بي متوسلاً راجياً أن أصمد مشيراً بأن أحرق شيئاً من بخور الحِلتَيْت[1] فتوجهت إلى (فينجنزيو) بالطلب حالاً وفيما أنا أخاطبه تطلعت إلى أنيولينو كادي الذي كان شبه ميت من فرط الخوف وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما فصحت به: ـ آنيولينو! لا داعي للخوف في موقف كهذا. عليك أن تمد يد العون لنا. أقذف بشيء من الحلتيت في النار حالاً.

وفيما كان يهمّ بالتحرك أطلق ضرطةً مجلجلة وأدركته الحاجة إلى التبرّز بشكل لا قبل له بدفعها فلم يستطع حبسها فكانت ريحها أشدّ نتانةً من الحلتيت نفسه وأفاق الصبي على الصوت الداوي والريح النتنة فرفع رأسه قليلاً ولما سمع قهقهتي زايلهُ

(1) نباتٌ يكثر في الشرق وإسمه العلمي Asafoetida وهو من فصيلة الجزريات كان يستخدم في طب القرون الوسطى لعلاج التشنج ويتعاطاه الناس أيضاً للوقاية من المرض.

شيء من الخوف. وقال إن الجان بدأ يولي الأدبار كالمجانين. وبقينا حيث نحن إلى أن سمعنا ناقوس السحر. وعندها فتح الصبي فمه ثانية ليعلن بأنه لم يبق من الشياطين غير قليل وهم بعيدون جداً عنّا. وبعد أن أكمل السّاحر مراسيمه خلع قباءه وجمع أكداس الكتب الكثيرة التي كان قد جلبها ثم خرجنا جميعاً من الدائرة واحدنا ملتصق بالآخر سيّما الصبيّ الذي حشر نفسه في الوسط متشبثاً بسروال الساحر من جهة وبمعطفي من الجهة الأخرى. وكان لا يفتأ يصيح ونحن نسير نحو منازلنا حِذاء الضفة بأن الشياطين التي رآها في الكوليسيوم تتراقص أمامنا. فتعلوا اسطح المنازل وتهبط على الأرض مرة بعد مرّة.

وقال مستحضر الأرواح إنه دخل الدوائر السحرية مرات عديدة لكن لم يتفق له أن شهد شيئاً بهذا المقدار. وحاول إقناعي بالقيام بتكريس كتاب للشيطان[1] معاً قائلاً إننا سنجني من ذلك ثروة طائلة إذ سيكون في وسعنا الطلب من الجنّ إرشادنا إلى دفائن الكنوز التي يعجّ بها جوف الأرض وبهذا سنغدو أثرياء جداً. وقال إن كلّ شؤون الغرام والعشق هو عبثٌ وحمق لا تكسب المرء شيئاً ولا تجديه. فأجبته إني لشديد الرغبة في العمل بما قال لو أني أعرف شيئاً من اللاتينية. على أنه ظلّ يحاول إقناعي قائلاً إن المعرفة باللاتينية لا نفع فيها ولو شاء لاستخدم عدداً كبيراً ممن يتقنها. إلاّ أنه لم يجد شخصاً واحداً له قوّة إرادتي وإنه لمن الحكمة أن أصغي إلى نصحه وظلّ يضرب على هذه النغمة حتى بلغنا المنزل. وفي تلك الليلة صار كل منّا يحلم بالشياطين والجان.

صرت التقي بالسّاحر كلّ يوم تقريباً وظلّ يلحّ عليّ بمشاركته في مشروعه الذي ذكرهُ. وأخيراً سألته كم يقتضي له من وقت. وأين يتعين علينا أن نذهب؟ فأجاب سنبلغ غايتنا في أقل من شهر. وأصلح موضع هو جبال (نورجيا Norcia)[2]. وأضاف يقول ان واحداً من أساتذته كرّس كتاباً في موضع قريب جداً يعرف بإسم (باديا دي فارفا Badia di Farfa)[3] إلاّ انه عانى في الحقيقة بعض الصعوبات فعلينا والحالة هذه

(1) المقصود من هذا غير مفهوم. ولم نهتد إلى أي ترجمة أو شرح ينير السبيل لنا.

(2) الجبال القريبة من بلدة نورجيا وهي على مسافة 130 كيلومتراً تقريباً شمال شرقي روما.

(3) موضع يقع في مرتفعات السابين Sabine. في ضواحي روما.

أن نتحاشى إجرائها في الجبال. هذا فضلاً عن أن الفلاحين في نورجيا أناس ذوو تجربة وممارسة وممن يوثق بهم في هذا الفنّ الأسود. وسيكونون خير عونٍ لنا عند الحاجة. لا شك وأن هذا الكاهن الساحر ذو قابليّة عظيمة على الإقناع إذ ما وجدت نفسي إلاّ وأنا أكثر من مستعدٍ إلى مشاركته في مشروعه. لكنني اشترطت أن يدعني أفرغ من عمل ميداليات البابا. وقد أفضيت للكاهن بسرّي هذا فكان الأوّل في الوقوف عليه ورجوته أن يكتمه في نفسه. في عين الوقت بقيت أسأله هل يعتقد أني سألتقي بالفتاة الصقليّة خلال الوقت الذي وُعدت به فقد استغربت كثيراً لدنوّ اليوم المضروب للقاء وأنا لا أسمع شيئاً عنها. فأجاب مؤكداً بأني سأجد نفسي في المكان الذي هي فيه لأن الجنّ لا تنكل عن وعودها قط وستفي بالعهد الذي قطعته لي. إلاّ أنه ينبغي أن أكون على حذر وأبقي عيني مفتوحتين لخطبٍ أو مصيبة محتملة. وأضاف يقول: يجب عليّ أن أرغم نفسي على احتمال شيء يصعب الصبر عليه والسكوت عنه وفيه أعظم الخطر. وقال سيكون مفيداً لي لو رافقته لتكريس الكتاب. فهو الطريقة التي يمكنني بها تفادي ذلك الخطر العظيم والحصول على الثروة الطائلة في عين الوقت وصرت الآن مهتماً بالأمر أكثر منه. قلتُ له إن شخصاً يدعى (جيوڤاني دا كاستيل بولينزي Giovanni da Castel Bolognse) وهو خبير متضلع في عمل المداليات من النوع الذي أقوم حالياً بصنعه من معدن الفولاذ. قد حلّ الآن في روما وأن مطمحي الوحيد هو منافسة هذا الفنان لأسترعي إنتباه الدنيا وإعجابها. فبالكشف عن مهارتي بهذه الوسيلة لا بحدّ سيفي سأقضي على أعدائي قضاء مبرماً. إلاّ أنه ظلّ يلحّ عليّ بقوله:

ـ أرجوك يا بنڤنوتو، أرجوك، تعال معي واجتنب الخطر العظيم الذي أراك معرضاً له.

إلاّ أني كنت عاقد العزم على الفراغ من ميدالياتي أولاً مهما كلف الأمر. واقتربت نهاية الشهر وأنا غارق في بحر عشق ميدالياتي بحيث نسيت (أنجيليكا) وأضرابها وإستغرقت تماماً في عملي.

في ذات يوم وكان الوقت قريباً من موعد صلاة العشاء. خطر ببالي أن أقصد دكاني لسبب ما خلافاً لموعدي الإعتيادي وكان منزلي خلف الضفة في حين تقع

دكاني على الضفة. وكنت قليل الإرتياد لها إذ تركت الأشغال بعهدة شريكي (فيليجي). ومختصر القول، بعد أن مكثت هناك برهة تذكرت بأني على موعدٍ مع (السّاندرو دل بيني) فغادرت الدكان حالاً وعند وصولي الضفة التقيت (السيد بنديتو) وهو من أعزّ أصدقائي.

كان (بنيديتو) مسجلَ عقود وقد عاش في فلورنسا. وهو ابن شحاذ ضرير من أهل (سيينا) سكن عدة سنين في (نابولي). ثم انتقل إلى روما حيث كان بعض التجار السينيين قد عهدوا إليه بتمشية أعمال تجارية واختصّ منهم بأسرة كيجي[1].

وكان شريكي فيليجي يديم ملاحقته ومطالبته بمبلغ من المال له في ذمته نشأ عن شراء (بنديتو) بعض الخواتم منه. وفي يوم التقائنا بالذات كان شريكي قد لقيه عند الضفة وهو برفقة عددٍ من مخدوميه فبادر (فليجي) بصلافته المعهودة وأسلوبه الفظّ يطالبه بالدين فتهاترا. وعندما رأى مخدوموه ما يجري أخذوا ينتهرونه وقالوا انهم لا يريدون شخصاً تتعقبه الكلاب النابحة. وإنهم سيستخدمون آخر عوضاً عنه فحاول الدفاع عن نفسه دفاعاً مستميتاً قائلاً إنه سيردّ للصائغ دينه. وإنه لم يعد يستطيع ضبط نفسه ليتحاشى فورة رجال مجانين. فحزّ في نفوس التجار السيينيين تلفظه بمثل هذه العبارة. وفصلوه من وظيفته في الحال. وبعد أن تركهم. إنطلق إلى دكاني كالقذيفة ولعله كان يريد الإنتقام من (فليجي) وشاءت الصدف أن يلقاني وهو بهذه الحالة في وسط الضفة. وأنا الذي كنت أجهل الناس بالقضية بادرت فحييته بحرارة كعادتي. وكان الردّ الوحيد الذي جاءني منه رشقةً من الشتائم والسباب. وتذكرت في الحال تحذيرات الساحر كُلّها. فكظمت شعوري وغالبت نفسي مانعاً إياها عن الإتيان بعمل ترغمني عليه كلماته وقلت:

ـ سر بنيديتو أي صديقي العزيز لا حاجة بك إلى مخاشنتي فأنا لم أسئ إليك قطْ. ولا علم لي مطلقاً بما تشكو منه. وأما عن قضيتك مع فيليجي فاذهب إليه وتفاهم معه فهو أدرى بالجواب الذي يناسبك. أما أنا فلا أعرف شيئاً عن الموضوع.

---

(1) جاء ذكر اسرة كيجي ووصف مقدار نفوذها وغناها في حاشية سابقة.

أرجو الآ تسيء اليّ بشتمي على هذه الشاكلة لا سيما وأنت تدرك جيداً بأني لست من أولئك الذين يصبرون على إهانة.

فعاد يتهمني بأني على علم تام بالمسألة. وقال إنه من صنف الرجال الذين يرغموني على إحتمال الأكثر من هذا واني وفيليجي زوج من أكبر النصابين والأنذال.

كان قد تجمع حولنا عدد من المتفرجين يرقبون المباراة. إستفزني بهذه الشتائم القبيحة والحق يقال فما وجدتُ نفسي إلاّ وأنا أنحني إلى الأرض وأجمع قبضتي على كمية من الوحل (كانت الدنيا ماطرة) وبسرعة البرق لطمت بها وجهه. فانكفأ إلى الخلف فأصابت زاوية حادة من تلك الحجارة رأسه فسقط على الأرض فاقد الوعي. ولكثرة النزف منه عجل المتفرجون بالحكم بموته.

وبينما كان ممدداً على الأرض وبعض الناس يتهيأون لنقله. مرّ بهم (بومبيو) الجواهري الذي جئت إلى ذكره قبلاً وكان البابا قد استدعاه لأمر يتعلق بعمله. فشاهد سوء حال (بنيديتو) وسأل عن الضارب فأجيب:

ـ الضارب بنڤنوتو. ولكن المضروب هو المعتدي.

وما أن صار أمام البابا حتى بدأ هذره بقوله:

ـ أيها الأب الأقدس، بنڤنوتو قتل (طوبيّا) الصائغ وقد شهدتُ الحادث بامّ عيني.

وإجتاحت البابا فورة من الغضب فأمر الحاكم الذي كان موجوداً عنده بالقبض عليّ وشنقي في المحلّ الذي شهد الحادث. وأكد عليه بأن لا يترك حجراً إلاّ قلبه بحثاً عني وأن لا يريه وجهه حتى يتمّ شنقي.

لما تبيّنت المأزق الذي وقعت فيه وأنا أرى هذا الحقير ملقى على الأرض صرت أفكر في قوة خصومي وما سينجم عن الحادث من عواقب. فأسرعت عدواً ولجأت إلى (جيوڤاني كاذي) الموظف في بلاط البابا وفي نيتي أن أتهيأ على جناح السرعة لترك روما.

لكن (جيوڤاني) نصحني بأن لا أكون عجولاً بهذا القدر إذ ربما لم يكن الأمر بالخطورة التي تصورتها ثم أرسل يستدعي (أنيبال كارو) الذي يشاطره السكنى وطلب منه أن يذهب لاستطلاع الأمر وإلى أي حَدّ تطور. وفي أثناء ذلك دخل نبيل روماني

وكان من خاصة الكردينال دي مديتشي[1] وقد أرسله الكردينال إلينا. إنتحى بنا جانباً ثم أخبرنا بما نقله الكردينال له عن لسان البابا وليس ثمة سبيل والحالة هذه لطلب معونة الكردينال. ونصح بأن أحاول جهدي لأتفادى العاصفة الأولى لغضبته. وأضاف يقول إن أي منزل في روما غير مأمون. وما أن غادرنا حتى رمقني (جيوفاني) بنظرة كاسفة وبدأ وكأنه يكاد ينفجر باكياً. وقال:

- ما أتعسني وأشقاني إذ لا أرى طريقاً لمساعدتك قط.

فأجبت:

- بعون الله وحوله سأعين نفسي وكلّ ما أطلب منك هو إعارتي حصاناً.

كان قد أمر بأن يُسرجَ جواد عربي أسحم، أرشق وأبدع حصان في روما كلّها. فامتطيتهُ ووضعت بندقيّة محشوة فوق حافة السرج الأمامية مهيئة لإستخدامها في الدفاع عن نفسي. وعندما بلغت جِسر (سيستي Sisti) وجدت حرس الشرطة كلهم ينتظرون فيه راكبين وراجلين. فلكزت الجواد فانطلق بي يعدو هذباً ومرق من بينهم والشكر لله الذي أسدل غشاوة على أبصارهم، وهكذا نجوت. ثم إتجهت بأسرع ما أمكنني قرية إسمها (بالومبارا Palombara) وهي مُلك للنبيل (جيوڤانباتستا ساڤللو Giovanbatita Savello)[2] بعد هذا أعدتُ الحصان إلى جيوڤاني. ولم أعلمه بمحل إختفائي.

آواني السيد جيوڤانباتستا يومين في منزله وأراني من التكريم والحفاوة ما أعجز عن وصفه ثم أشار عليّ بمغادرة (بالومبارا) والتوجّه إلى (نابولي). حتى تمر العاصفة وأرفق معي دليلاً لإرشادي إلى الطريق. وفي أثناء سفري التقيت بصديقٍ نحّات كانت وجهته (سان جرمانو San Germano) لإكمال ضريح بييرو دي مديتشي في (مونت

(1) هو ايبوليتو الابن غير الشرعي لجوليان دوق نيمور. كان رجل حرب أكثر منه رجل دين تآمر على اليساندرو قريبه. ثم عرض خدماته على شارلكان في حملته لغزو تونس ومات على ما قيل - بالسمّ في آبوليا العام (1555).

(2) من نبلاء روما قائد كتائب الخيالة في قوات البابا كليمنت السابع. وما زالت قلعة سافيللي قائمة اليوم في بالومبارا على بعد (37) كيلومتراً من روما قرب جبل چنارو Gennaro.

كاسينو Monte Cassino)[1] وهو يُدعى (سُولُوسْمِيو Solosmeo)[2]. وقد زوّدني بماكنت أتلهّف إلى سماعه من الأخبار. روى لي كيف ان البابا كليمنت أرسل أحد أمنائه مساء يوم فراري للسؤال عن (طوبياً) فوجده يشتغل في دكانه سليماً معافى لايدري شيئاً عما يجري. وعندما أبلغ البابا بالأمر إستدار نحو (بومبيو) وقال له:

- إنك لنذل حقير. لكن دعني انذرك. لقد أيقظت الأفعى التي ستلدغك وهو ما تستحقهُ.

ثم طلب من الكردينال دي مديتشي أن يحيطني بالرعاية لأنه لا يريد أن يخسرني مهما كلّف الأمر.

في تلك الأثناء كنت أنا (وسولوسميو) في دربنا إلى جبل كاسينو ونحن نغني. ومن هناك إنطلقنا نحو نابولي بعد أن قام رفيقي بتنظيم أعماله هناك. ولما صرنا على مسافة نصف ميل من المدينة إعترضنا صاحب حانٍ فدعانا إلى حانه وقال انه عاش سنوات عدة في فلورنسا قائماً على خدمة (كارلو جينوري Carlo Ginori)[3] ولكوننا فلورنسيين فإنه سيحفنا بضروب من الرعاية والتكريم مما لا نحلم به إذا ما حللنا عنده. فأفهمناه مراراً وتكراراً بألاّ رغبة لنا في الذهاب معه فصار يتقدمنا مَرّة ويتأخر عنّا مرة مردداً الدعوة بقوله إنه ليودّ أن نزور حانه. فضايقني كثيراً ولذا سألته أيعرف محلّ إقامة امرأة صقليّة تدعى (بياتريس) وبنتها الجميلة (أنجليكا) وكلتاهما من بائعات الهوى. فظن أني أسخر به فصاح:

- لعن الله كلّ بائعات الهوى وكل عشاقهنّ!

ثم لكز حصانه بمهمازيه وإبتعد عنّا نافضاً يديه مِنّا. وحسبت أني نجوتُ أو كدتُ مِن هذا الوحش المزعج، بهذا الشكل البارع. إلاّ اني كنت واهماً لأن ذكرى حبي

---

(1) يقع جنوب شرقي روما ويبعد عنها بحوالي مائة وثلاثين كيلومتراً.

(2) وإسمه الحقيقي أنطونيو دا سيتينيانو A. da Settignano: وهو نحات متوسط الكفاءة وتلميذ سانسوفينو. لم يكن إلاّ واحداً من عدة نحاتين استخدموا في نحت ضريح (بيرو) ابن لورنزو الكبير. مات غرقاً في 1554. ان الكره لباندنللو هو الذي جمع بينه وبين چلليني.

(3) أنتخب رئيساً (كونفالونيراً) لدولة فلورنسا في 1527 وبقي في الحكم شهرين.

العظيم لأنجليكا إندفع بقوة عارمة وفيما كنت أحدث رفيقي به متنهداً متأوها تأوه الواله المغرم إذا بصاحب الحان يكرّ راجعاً بسرعة خاطفة. حتى صار بيننا وهتف:

- قبل يومين أو ثلاثة. نزلت امرأة وفتاة في منزل قريب من حانتي. وإسماهما عين ما ذكرت. لكني لا أدري هل هما من صقلية؟

فأجبت أن لإسم (أنجيليكا) معنى كبيراً عندي ولذلك صممتُ الآن على زيارة حانه وهكذا دخلنا مع مضيفنا مدينة نابولي ونزلنا في حانه. وما صبرت فقد خيّل أن دهراً مَرّ على نقل متاعي فتوجهت إلى الدار القريبة، حيث وجدت (أنجيليكا) فرحبت بي ترحيباً زاخراً بالعواطف والأشواق وبقيت معها من حوالي الساعة الثانية والعشرين قبل الغروب حتى صباح اليوم التالي في متعة لم أذق مثلها طوال حياتي.

وفي وسط لذتي وانشراحي هذه تذكرت أن هذا اليوم هو آخر أيام الشهر الذي كان قد حددته الجنّ في دائرة الساحر كموعدٍ للقائي بأنجيليكا. ألا فليفكرّ ملياً كلّ من يتدخل في أمور الأرواح بالأخطار العظيمة التي تعرضتُ لها.

واتفق إني كنت أحمل في صرتي خاتماً ألماسياً. فعرضته على صاغة نابولي وقد وجدت مع صغر سنيّ أنّ لي سمعة كبيرة في نابولي أهّلتني إلى أن أحظى بأعظم التكريم والترحيب من صاغتها. ومنهم جواهري عالي المكانة اسمه (دومينيكو فونتانا Domenico Fontana). فخلال الأيّام الثلاثة التي قضيتها في نابولي أغلقَ هذا الرجل الشهم دكانه ولم يتركني لحظة. فأخذني إلى عددٍ كبير من الآثار القديمة الرائعة داخل نابولي وخارجها. بل وصحبني للسلام على نائب الملك الذي أسرّه برغبته الشديدة في التعرف بي[1].

وعندما أفسح لنا السبيل إلى سموه رحّب بي أجمل ترحيب وفيما هو يلقي التحية إستقرت عينه على الخاتم الألماسي الذي ذكرته فطلب مني أن أسمح له برؤيته ورجاني أن لا أنساه إن خطر ببالي بيعه. وعندما استعدت الألماسة ثم عدتُ فسلمتها له ثانيةً وأنا أقول: نفسي وألماستي تحت تصرفه. فقال رداً على ذلك إنه ممتنٌ جداً

(1) هو بيترو ألفاريز دي توليدو ماركيز فيلاً فرانكا. عُيّن في 1532 وتوفي في 1553.

للألماسة، ولكنه سيكون أكثر إمتناناً لو بقيت عنده. وسيعاملني بشكل مرضٍ إلى آخر حدّ. وواصلنا حديثنا بكلّ تأدبٍ ثم عدنا إلى قيمة الألماسة وسألني سموّه أن أسمي بلا تردد المبلغ الذي أريده ثمناً لها. فقلت إن ثمنها يبلغ مائتي كراون بالضبط. فقال إنه ثمن معقول جداً. فما دمت أنا الذي قمت بتركيبها، وهو لا يجهل بأني أبرع صائغ في العالم، فقد أفلحتُ في إظهار صفاتها وكامل محاسنها. ما لا يقوى عليه آخر. فأجبت في الواقع أني لست بالذي قام بتركيبها. وأن الشغل سيئاً ومظهر الألماسة يعود إلى صفاتها وجوهرها الطبيعي ولو أعدت تركيبها لزاد بريقها كثيراً. ثم إني أدخلت ظفر إبهامي المدبب في طرف حفر الخاتم وقلعت الألماسه وبعد أن فركتُها أعدتها إلى نائب الملك فسرّ كثيراً وبانت عليه الدهشة. وبعدها كتب أمراً بدفع المائتي كراون التي طلبته ثمناً لها.

عدت إلى الفندق لأجد بعض الرسائل من كردينال دي مديتشي يحثني فيها على العودة إلى روما دون تأخير وأن أقصد حالاً منزل نيافته ولا أترجل إلاّ فيه. فقرأت الرسالة على مسامع أنجليكا فشرعت تبكي وتتوسل لي بدلال الحبّ أن أبقى في نابولي أو أن أحملها معي إلى روما. فقلت إن قررت المجيء إلى روما معي فسأعطيها الكراونات المائتين التي تسلمتُها من نائب الملك وبإمكانها أن تحفظها لنفسها. ولمحتنا الأم نتشاور معاً فدنت منا لتقول:

- بنفنوتو! إن كنت تنوي أخذ أنجليكا إلى روما فأترك لي خمس عشرة دوقية كدفعةٍ لقاء حصولك على طفلتي. وبعدها سألحق بها أيضاً.

قلت للعجوز المحتالة إني سأدفع لها ثلاثين بكلّ سرور إن تخلّت لي عن (أنجليكا). ودفعت وتمت الصفقة. ثم طلبت (أنجليكا) أن ابتاع لها ثوباً من القطيفة السوداء حيث انه رخيص جداً في نابولي. فلبيت طلبها بكل سرور.أرسلت بطلبه ودفعت ثمنه. وعندها أرادت العجوز أن أشتري لها أشياء أخرى لإبنتها. ومبالغ أخرى أكثر بكثير مما دفعت لها. وهنا قلت إليها مبتسماً وقلت:

- (بياتريس) عزيزتي! أليس فيما أعطيت الكفاية؟

أجابت:

ـ كَلاّ.

فقلت:

ـ حسناً إذن. إن ما ليس فيه الكفاية لك، هو كافٍ لي.

ثم قبلتُ (أنجليكا) وإفترقنا ـ هي تبكي وأنا أضحك. وسرت ووجهتي روما. تركت نابولي ليلاً ونقودي معي مصرورة في موضع خفي خشية أن أقع ضحية للعادة النابُليتانية المأثورة فأُهاجم وأُقتل. وبالفعل فقد اضطررت إلى خوض معركةٍ دفاع حاذقة عن نفسي عند وصولي (سلجياتا Selciata) ضِدّ عصابة من الفرسان قصدت قتلي. وبعد أيام قليلة لتركي (سولوسميو) لمباشرة عمله في (مونت كاسيِّنو). وصلت (أنياني Anagni)[1] صباحاً فقررت أن أصيب شيئاً من الطعام في حانةٍ من حاناتها. وقبل وصولي وفقت إلى صيد عدد من الطيور ببندقيتي. إلاّ ان نابض مغلاق البندقية ضرب كفي وأصابني بجرح بليغ إلى حدٍ ما، لكنّه بدا خطيراً جداً لأن النزف كان شديداً. دخلت الحان ووضعت حصاني في الاسطبل وصعدت إلى الطابق الأعلى فوجدت في الباحة جمعاً كبيراً من وجهاء القوم النابُليتان بينهم سيدة في مقتبل العمر ساحرة الصورة من أجمل ما وقع عليه نظري وهم جلوس يهمّون بالأكل.

صعدت وصعد في أعقابي خادمي الشاب الحسن السمت وبيده حربة ثقيلة في رأسها بلطة. فملكهم الرعب وصعقوا لأن المنطقة قد اشتهرت بأنها وكرٌ للقتلة والمجرمين وها هم يرون رجلين مسلحَين وتلك الدماء النازفة. كل هذا جعلهم ينتفضون وقوفاً وهم يرتجفون خوفاً ويضرعون إلى الله كي يخفّ إلى نجدتهم. فأطلقت في الحال ضحكةً وقلت لهم إن الله قد استجاب لهم فعلاً فقد أرسل رجلاً في مثل وزني ومعدني لأدفع عنهم غائلة أيّ مهاجم. ثم طلبت منهم مساعدتي في تضميد الجرح فأخرجت تلك السيدة الجميلة منديلاً مطرزاً بالذهب تطريزاً ثقيلاً. وهمّت بربط الجرح. فاعترضتُ على هذا إلاّ أنها بادرت بإندفاعٍ إلى شقّه نصفين وراحت تشده على يدي برقّة ولطفٍ كبيرين بنفسها.

---

(1) بليدة تقع على مسافة ستين كيلومتراً تقريباً جنوب شرق روما.

وهدأ بالهم نوعاً ما وتناولنا وجبة طعامنا في جوّ رائق ثم امتطينا خيولنا وانطلقنا معاً. إلاّ أن السادة الرجال لم يزايلهم الشك مني. فمهّدوا بدهاءٍ ومكر لأخلو بالسيدة الجميلة بحديث وانسحبوا هم إلى الخلف فواكبتها وأنا على صهوة جوادي الرشيق الصغير مشيراً في عين الوقت إلى خادمي من طرف خفي بالإبتعاد عنّا. وتبادلنا أحاديث ممتعة للغاية. ولم تكن تدور حول أشياء يمكنك شراؤها من السوق. ولهذا كانت سفرتي إلى روما من أبدع ما قمت به من أسفار.

بلغت روما وترجلت في قصر الكردينال. وعندما لقيتُ نيافته أخذنا نتجاذب أطراف الحديث فشكرته على مسعاه في عودتي. ثم رجوته في أن يحميني ويحول بيني وبين السجن وأن تفرض عليّ غرامة بدل ذلك وإن أمكن أن أعفى. وكان عظيم السرور برؤيتي وطمأنني بألاّ شيء يدعو إلى قلقي. ثم التفت إلى أحد اتباعه وكان سيداً من أهالي (سيينا) يدعى (بيرانطونيو بيجي P. A. Pecci) وطلب منه أن يبلغ (البارجللو) نيابة عنه بالكفّ عن ملاحقتي. ثم سألته عن حالة الشخص الذي قذفته بالحجر، فأجاب إنه في حالٍ سيئة جداً وربما ستزداد سوءاً اذا عَلِم بعودتي إلى روما وقد أقسم يميناً بأن يموت على سبيل الإنتقام مني فحسب! فانفجر الكردينال يقهقه لهذه الفكاهة وقال:

ـ بإمكانه أن يجد طريقةً أخرى ليؤكد لنا بأنه ولِد في سيينا.

ثم توجه اليّ وقال:

ـ لأجلي ولأجلك أصبر أربعة أيام أو خمسة. ولا تظهر نفسك في الضفة وبعد ذلك إذهب حيث شئت. وليمت الحمقى إن شاؤوا.

عدت إلى منزلي وإستأنفت العمل لإنجاز الميدالية التي كنت قد باشرتها. صوّرت رأس البابا كليمنت على الوجه مع صورة تمثّل السّلام[1] على الظهر، ورمزت للسّلام بأنثى ممشوقة القدّ عليها غلالة شفافة وبيدها مشعل توقد به النار في مجموعة من الأسلحة المكدّسة كما أظهرت في خلفية الصورة حائط هيكلٍ وثني يجلس فيه

(1) الغرض من هذه الميدالية هو إحياء لذكرى السلام الذي دام ستّ سنوات (1530 ـ 1536).

(فيوري) إله النار وهو مثقل بالسلاسل ونقشت حول الصورة عبارة Clauduntur belli Portea.

وفي خلال إنشغالي بالميداليّة عوفي الرجل الذي ضربتُه. وكان البابا لا يفتأ يسأل عنيّ. في عين الوقت تحاشيت الإختلاف إلى قصر الكردينال دي مديتشي لأن نيافته كان يعهد اليّ في كلّ زيارة بعملٍ هام فيعيقني عن إكمال الميدالية. على أن السيد (بيير كارنيسيكيّ Pier Carnesecchi)[1] أحد أصفياء قداسته المقربين وكان قد أُمر من لدنه بأن يتفقدني ـ قال لي بكثير من اللباقة إن البابا شديد الرغبة في خدماتي. فأجبته على هذا بأني في غضون أيام قلائل سأثبت لقداسته بأني ما تركت خدمته قط.

بعد بضعة أيام أخرى أكملت الميدالية وسككت ثلاث قطع واحدة ذهبية والثانية فضية والثالثة نحاسيّة، وعرضت السكّة على (بيير) المذكور فأخذني إلى البابا في الحال. كان الوقت بعد الغداء في يوم جميل من أيام نيسان وكان البابا في البلفديري. وعندما مثلت بين يديّ قداسته أسرعت فسلّمته الميداليات مع قالبها فأخذها منيّ وكانت لمحة واحدة منه كافية لإقناعه بالمهارة والدقة التي تجلّت في صناعتها فنظر إلى (بيترو) مليّاً وقال:

ـ لم يحظَ العالم القديم بميداليات كهذه.

وفيما كان هو والآخرون يقلّبون الميداليات مرة والقالب مَرةً قلت بكلّ تواضع وأدب:

ـ لو لم تبذّل قوةٌ عليا من سوء حظوظي فتحول بيني وبين البلايا التي يهددني بها نكد طالعي لكان قداستك سيخسر خادماً محبّاً مخلصاً لا بسبب خطأ إرتكبه أحدنا. لذا فأنا أرى أيها الأب الكلّي القدّاسة أنه لا يمكن أن يرتكب خطأ عندما يلعب المرء ورقته الأخيرة ـ إذا ما تريث على حَدّ قول البسطاء فعدّ من الواحد إلى السبعة قبل أن يقطع الورق مرّةً واحدة. إن لسان الدّ أعدائي الكاذب القذر قد أفلح في إثارة قداستك

---

(1) امين سرّ كليمنت السابع. مواطن فلورنسي وأديب كبير كانت له صلة بالعالمين المفكرين ڤالديز Valdez في نابولي وميلانكتون Melanethon في فرنسا. وتأثرت آراؤه بهما كثيراً. أتّهم بالزندقة وقطع رأسه وأحرقت جثته في روما 1567.

بسهولة حتى إنك أمرت الحاكم بالقبض عليّ وشنقي فوراً. إلاّ أن قداستك سرعان ما تبين كم كان ظالماً بحقي وكيف أنه كان سيحرم نفسه من خادم مخلص بالوزن الذي ذكرته أنت فيلحق بنفسه الضرر الفادح. إني لواثق بأنك كنت ستشعر ببعض الندم أمام الله والبشر، المخدومون الصالحون وهم مثل الآباء الصالحين يجب عليهم أن لا يدعوا أيديهم تهوي بقسوةٍ وتهوّر على رؤوس خدمهم وأبنائهم لأن أسفهم لن يجديهم نفعاً بعد أن ينفذ الأمر. وبما أن الله أحبط عمل سوء حظي ونجّاني من أجل قداستك. فأرجو أن لايُستثار غضبك عليّ بمثل هذه السهولة في المرّة القادمة.

كان البابا قد توقف عن النظر في الميداليات وأرهف أذنه إلى أقوالي. ولما كان في مجلسه عددٌ من الإشراف وعليه القوم فقد إحمرّ وجهه قليلاً وبدأ عليه الخجل. ولما لم يجد لنفسه مخرجاً من اضطرابه فقد قال إنه لا يتذكر إصداره أمراً كهذا مطلقاً. وعندما أدركت حراجة موقفه سارعت بإدارة دفّة الحديث إلى أمور أخرى لإنقاذه من حيرته.

ثم طفق قداسته يتحدث حول الميداليات وسألني بعد أن استهول حجمها كيف وفقت إلى سكّها بهذه الدقّة والاتقان إذ انه لم يجد بين الميداليات العتيقة ما يوازيها حجماً. وتجاذبنا أطراف الحديث حول الموضوع بعض الوقت. ولمّا كان يخشى أن ألقي عليه خطبةً أخرى أقسى من الأولى، قال لي إن الميدالية في غاية الجمال وقد سُرّ بها كثيراً لكنه يستحسن أن يكون لها ظهرٌ آخر بحسب ذوقه، هذا إذا كان الإستبدال ممكناً. فلما أجبتُ بالإيجاب إقترح قداسته أن أصوّر له موسى الكليم وهو يضرب الصخرة فينبجس منها الماء مع هذه العبارة: (Ut bilat populous[1] ليقرّب من أجل الشعب). وأضاف يقول:

ـ إنصرف الآن يا بنڤنوتو. وقبل أن تنتهي منها سوف أكفيكَ كلّ حاجاتك.

بعد أن غادرته بدأ يفخر أمام الجميع بأنه سيكون كريماً جداً في عطائه بحيث

---

(1) قصد بها تخليد ذكرى بئر فجره بنفسه في أورفيتو (1528). وقد عمل الجزء التذكاري أنطونيو دا سان كالّو، والقالب ما زال محفوظاً في دائرة الوثائق البابوية (الأوفيزي).

سيضمن لي عيشة مترفةً ولا يحوجني إلى أن أشتغل لغيره. وانصرفت إلى إكمال ظهر الميدالية مخصصاً لها كلّ وقتي.

بعد هذا اللقاء إعتلّ البابا وقرر أطباؤه بأنه مقضيّ عليه على أغلب الإحتمال. وأدرك الخوفُ عدوّي مما يمكن أن يحصل فاستأجر مواطناً نابوليّاً ليفعل بي ما كان يتوقع أن أفعل به. فاضطررت إلى الدفاع عن حياتي البائسة إلاّ أني مع هذا اكملت ظهر الميدالية، اخذتها إلى البابا فوجدته طريح الفراش وحالته تنذر بالخطر، إلاّ أنه إستقبلني بحرارة وشوق ورغب في القاء نظرة على الميدالية والقالب وأمر بجلب نظارتيه مع عدد من الشموع إلاّ أنه عجز عن رؤية أي شيء منها. فراح يتقرّاها بلمس أصابعه وجهاً لظهر وظهراً لوجه مدة ليست بالقليلة ثم أطلق زفرة عميقة وقال انه شديد القلق عليّ ولو مدّ الله في عمره وأعاد عافيته إليه فسيسّوي الأمور كلها.

بعد هذا بثلاثة أيام لفظ البابا انفاسه الأخيرة[1] فضاعت كلّ جهودي. إلاّ انيّ شددت من عزمي وعزّيت النفس بقولي: بفضل هذه الميداليات ذاع صيتي واشتهر أمري ولن يتردد البابا التالي في إستخدامي وربما كانت مكافأتي أكثر. وبهذا الشكل تجلدتُ، ونفضت عن رأسي كلّ الإهانات التي تلقيتها من (بومبيو) ثم لبست زردي وتمنطقت بسيفي وتوجهت إلى كاتدرائية الرسول بطرس حيث قبلت قدمي البابا الراحل دون أن أذرف دموعاً. وبعدها عدت إلى الضفة لأرقب الفوضى التي تعم عادة في مثل هذه المناسبات. وبينما كنت جالساً مع لفيف من الأصدقاء اتفق أن مَرّ (بومبيو) وكان محاطاً بعشرة رجالٍ مدججين بالسلاح وعندما صار مقابلي توقف وأتى بما يشعُر منه أنه يريد إثارة شجارٍ.

وكان من معي من الأصدقاء شباناً ذوي إقدام واندفاع. فأشاروا عليّ بامتشاق سيفي إلاّ اني فكرت بأن عملي هذا قد يصيب أناساً لا دخل لهم في القضية بضررٍ فادحٍ ولذلك قررت أن الأفضل هو المخاطرة بحياتي فقط. وبعد أن تسكع (بومبيو) فترةً من الوقت لا تزيد عن تلاوة صلاة العذراء مرتين[2] ضحك ضحكة ساخرة وهو

---

(1) كانت وفاته في الخامس والعشرين من أيلول 1534.

(2) حوالي دقيقتين.

ينظر إلى ناحيتي وشاركه الجميع فيها. ثم مضوا لطيتهم وهم يشيرون اليّ بأصابعهم ويستفزوني بغمزاتهم ولمزاتهم الوقحة.

أرادني أصدقائي أن أخوض معركة مع هؤلاء. فأجبت ببعض انفعالٍ اني لأخبر بكيفية الثأر لنفسي وأني قادر على القتال وحدي. ولا دخل لهم في المسألة فأغاظهم قولي وتركوني ساخطين وكان بينهم أعز صديق لي وهو (البرتاجيو دل بيني Albertaccio del Bene) ماعرفت شخصاً في مثل حلاوة شمائله ولا أشجع منه. وكان يحبني حبّه لنفسه وهو أخ لكلّ من (الساندرو) و(البيزّو Albiezzo) من أغنى أغنياء ليون في وقتنا هذا.

أدرك أن الموقف الذي اتخذته وسكوتي عن الإهانة ليس مبعثه الجبن بل هو نتيجة للجرأة الفائقة، ذلك لأنه كان أعرف الناس بأخلاقي. ففهم ما قصدته بأقوالي ورجا مني أن أسمح له بالمساهمة فيما أنا مزمع ومصمم إلاّ اني أجبته:

- عزيزي البرتاجيو. اني لأعزّك أكثر من الباقين. ولا شك أن الوقت سيأتي حين يمكنك أن تساعدني. ولكن دعني لوحدي في هذه القضية وانصرف لشأنك أن كنت تبادلني المودّة حقاً. أسرع واترك هذا المكان كالآخرين فليس هناك وقت أضيّعه.

قلت هذا وفارقته.

في تلك الأثناء إتجهت عصابة الأعداء ببطء نحو مايسمّونه بـ(كيافيكا Chiavica) حتى وصلوا إلى نقطة تقاطع طريقين، وكانت الطرق تؤدي إلى مختلف الإتجاهات. إلاّ أن الشارع الذي يقع فيه منزل (بومبيو) كان يؤدي رأساً إلى (كامبودي فيوري) ولسببٍ ما دخل (بومبيو) دكان صيدلي في ركن (كيافيكا) وبقي برهة هناك لقضاء حاجةٍ.

وقيل لي إنه راح يفخر بالعمل الجريء الذي تحدّاني به كما يظنّ. وفي كل الأحوال إنقلب الأمر عليه وكان هو المُبتلى، إذ ما أن وصلت المنعطف حتى خرج من دكان الصيدلي فأفسح له أشقياؤه السبيل ثم أحاطوه ووضعوه بينهم.

إستللت خنجري الصغير الشديد المضاء واقتحمت عليه الطوق من الرجال ووضعت يدي بكلّ برودٍ وبسرعةٍ على صدره بحيث عجز سائرهم عن صدّي

ووجهت طعنتي إلى وجهه لكنه لوى رأسه بدافع الخوف العظيم وغاب نصل خنجري تحت أذنه تماماً. ثم عقبتها بطعنتين أخريين فقط إلاّ أنه كان ميتاً في الثانية. ولم يكن هذا قصدي. لكن المثل السائر هو «لا سوم في الطعان والحرب لا تعرف قاعدة». سحبت الخنجر من جسمه بيدي اليُسرى وجردت سيفي باليمنى لأدفع عن نفسي إلاّ أن هؤلاء الأشقياء تحوطوا الجثة الهامدة ولم تبدر من أي واحد منهم بادرة التقدم. فدرت على إعقابي سالكاً (سترادا يوليا Strada Julia) أقلب وجوه الرأي في آمن مخبأ. سرت حوالي ثلاثمائة خطوة. فالتقاني صديقي العزيز (بيلوتو Piloto) الصائغ وقال:

- أي صديقي، بعد أن وقع المقدور علينا أن نفكر بسلامتك.

قلت:

- فلنذهب إلى منزل (البرتاجيو) فقبل فترة قصيرة كنت قد قلت له: لا البث أن آتيك ناشداً عونك.

وبوصولنا المنزل وجدنا ترحيباً حماسياً ينتظرنا وما هي غمضة عين إلاّ واجتمع لدينا كل نخبة الشباب من الضفة بإستثناء الميلانيين وعرضوا جميعاً حياتهم فداءً لي. وأرسل السيد (لويجي روجليّا Luige Rucellia) بكرمه المعهود يعرض تقديم كلّ ما أحتاج إليه وحذا حذوه عدد كبير من الأكارم أمثاله. ثم إنهم باركوا في يديّ قائلين إن (بومبيو) خرج عن كل الحدود في إهانتي وكان عجبهم أني صبرت عليه هذه المدة.

وسمع الكردينال (كورنارو Cornaro)[1] بالحادث فبادر من تلقاء نفسه بإرسال ثلاثين جندياً مدججاً بالسلاح وبكثير من حملة البنادق والحراب لنقلي إلى قصره بكلّ مظاهر الإحترام فوافقت واتجهت إليه بخفارة الجنود وعددٍ يفوقهم من الشباب أصدقائي. وفي عين الوقت كان النبيل (ترايانو) كبير أمناء السرّ في البلاط البابوي ومن أقرباء القتيل، قد أرسل نبيلاً رومانياً عالي المقام إلى الكردينال دي مديتشي يبلغه

(1) فرانشسكو كورنارو هو أخ ماركو كورنارو الذي مرّ ذكره في أول المذكرات.

بالجريمة الكبرى التي ارتكبتُها ويقول إن نيافتة مكلّف بعقابي. فكان جواب الكردينال قوله له:

- كان سيرتكب جريمة كبيرة لو لم يرتكب هذه الجريمة الصغيرة. أُشكر عني السيد ترايانو لإبلاغي بشيء لا علم لي به.

ثم التفت الكردينال - والنبيل الروماني حاضر - إلى أسقف فورلي Forli(*) أحد اتباعه المقربين وقال:

- ابحث بحثاً دقيقاً عن بنفنوتو وجئني به لأني أنوي مساعدته وحمايته - وكل من يتدخل في شؤونه يتدخل في شؤوني ومن يضاره يضارني.

احمرّ وجه الميلاني إنفعالاً وانصرف ثم جاء أسقف فورلي ليجدني مع الكردينال كورنارو وأخبره بأن الكردينال دي مديتشي أرسله بطلب (بنفنوتو) لأنه يريد أن يكون هو مجيره وحاميه. وكان الكردينال كورنارو من أولئك السريعي الإنفعال فانتفض إنتفاضة الدبّ الغاضب وردّ قائلاً إنه قادر على حمايتي كالكردينال مديتشي. فرجاه الأسقف أن يكلمني على حدة في أمر لا علاقة له بالموضوع خاص بأعمال الكردينال مديتشي. فرده عليه الكردينال كورنارو قائلاً: بقدر ما يتعلق الأمر بهذا اليوم فليحسب نفسه انه تكلم معي. فسخط الكردينال مديتشي واستبد به الغضب. إلاّ اني زرته في الليلة التالية دون عِلم من مضيفي بحراسة لا يُستهان بها وتوسلت به أن يتلطف ويدعني أبقى في ضيافة كردينال كورنارو وحدثته عن حسن ضيافته والعطف الذي شملني به وقلت لو سمح لي نيافته بالبقاء عند كورنارو فسيكون لديّ صديق آخر يدعمني وقت الشدّة. ومهما يكن من أمر فإن نيافته صاحب الأمر وما عليّ إلاّ الطاعة. فقال إفعل ما تجده مفيداً لك. فعدت إلى قصر كورنارو. وبعد أيام قليلة إعتلى كردينال فارنيزي عرش البابوية[1].

بعد أن قام البابا الجديد بتصريف الأمور الهامة أرسل بطلبي. وقال إنه لا يريد

(*) مدينة تقع على مسافة مائة كيلومتراً تقريباً شمال شرق فلورنسا وثلاثين كيلومتراً جنوب غرب رافينا.

(1) ألساندرو فارنيزي: إتخذ له اسم بولس الثالث وانتخب في 13 تشرين الأول من العام 1534.

أحداً غيري يتولى ضرب نقوده وتصميمها. وكان ذلك بمحضر من نبيل يدعى (لاتينو جوفينالي Latino Juvinole)[1] وثيق الصلة بالبابا فقال له إني مختف بسبب قضية قتل إرتكبتها بحق مواطن ميلانيّ يدعى (بومبيو) ثم بسط جميع الأسباب والمبررات التي يراها لمعذرتي. فردّ البابا بقوله:

- لا علم لي بموت (بومبيو) إلاّ اني أقدر معاذير بنڤنوتو وكلها تبرز تصرفه ولذلك صدّر له (كتاب أمان) ليكون مصوناً من أي تعقيب.

كان بين الحاضرين ميلانيّ يدعى (مسّر أمبروجيو Messer Ambrggio) وهو من أصدقاء (بومبيو) ومن المقربين إلى البابا، فتدخل بقوله:

- ليس من الحكمة في شيء إصدار قرارات عفو خطيرة كهذه في أيام جلوسك على العرش البابوي الأولى.

فأجابه البابا:

- إني أدرى منك بمثل هذه المسائل. فالأفذاذ في فنهم من الرجال مثل (بنڤنوتو) هم فوق القانون ولا سيما هو شخصياً. ذلك لأني أعرف كم أستُفزّ.

وهكذا صدر (كتاب الأمان) وبدأت فوراً بخدمة البابا ونلت حظوة كبيرة عنده.

ثم جاءني (لاتينو جوفينالي) نفسه وأبلغني رسمياً بأن البابا قد عهد اليّ بمهمة ضرب نقده. وقد أزعج هذا كل أعدائي. وبدأوا يحاولون الإيقاع بي ووضع العقبات في سبيلي. ولما سمع البابا بهذا أشبعهم توبيخاً وتأنيباً وأكد لهم إصراره على أن أقوم بالعمل. وبدأت بعمل القوالب للقطعة من فئة الكراون[2]، فجعلت فيها صورة الرسول بولس مع عبارة «تمّ انتخابه Vas electione» لقد خلفت هذه المسكوكة إنطباعاً في البابا يفوق ما خلفته التصاميم التي قام منافسيّ بعملها. وبنتيجة ذلك صرّح بأنه لا يود بعد الآن أن يسمع كلمة واحدة بخصوص العملة. فقد قرر نهائياً أن أكون

---

(1) ويعرف أيضاً بإسم جيوڤاني رامانيتي. كان شاعراً وأديباً مثقفاً عرف بعلاقته الوثيقة مع الأديب (بمبوكاستيالوني) وغيره من متأدبي العصر.

(2) بحساب ذلك الزمن الدوقية الذهب الواحدة تساوي عشرة كراونات غير ذهبية. والكراون الذهبي يعادل دوقية ذهب أو أقل قليلاً.

المسؤول عنها ولا أحد غيري. فبدأت عملي آمناً مرتاح البال وكان السيد (لاتينو جوفينالي) يهيء لي مقابلاتي مع البابا كما رسم من قبل قداسته. وأردت إستعادة وظيفتي في دار الضرب. إلاّ أن البابا ركن إلى المشورة في الأمر فقال لي أنه سيعيدني بعد أن أنال العفو عن جريمة القتل وأن أظفر به في يوم عيد سيدتنا مريم[1] الذي يقع في شهر آب، عن طريق أعضاء بلديّة روما. والسبب في هذا هو أن العادة جرت كل سنة في يوم هذا العيد الكبير أن يمنح هؤلاء الموظفون حرية إثني عشر متهماً خارجاً على القانون. وقال إنه سيزوّدني خلال ذلك بكتاب أمانٍ آخر كفيل بحمايتي حتى ذلك اليوم.

عندما وجد أعدائي فشل حيلتهم في الحيلولة بيني وبين دار الضرب فكروا في مؤامرة أخرى. كان الميت (بومبيو) قد أوصى بثلاثمائة دوقية مهراً لابنة غير شرعية له. فدبّروا تزويجها بأحد مقربيّ النبيل (بييرلويجي)[2] ابن البابا، كيما يستخدم هذا الشخص حظوته عند سيده ليطلب يدها، فتمّ لهم ذلك. كان هذا العريس فتىً من الريف ربّاه (بييرلويجي) وقيل إنه لم يقبض من مهر عروسه إلاّ النزر اليسير إذ استولى بيير عليه لسيده هذا. وأخذ الفتى الريفيّ إرضاء لعروسه يلحّ باستمرارٍ على سيده راجياً منه أن يسعى في اعتقالي. فتعهد له بذلك حالما يعلم أن مكانتي عند البابا قد اعتراها وهن.

وبقي الوضع هكذا مدة شهرين. ثم لما حاول هذا الخادم المطالبة بالمهر أوقف (بيير لويجي) مساعيه. إلاّ أنه أكد لزوجة الرجل بأنه سيثأر لها من قاتل أبيها على كلّ حال. ومع معرفتي بما يجري فقد أكثرت من زياراتي لـ(بيير لويجي) وكان يتظاهر بالود الكثير. في الوقت الذي كان قد اعتزم أحد أمرين: إمّا اغتيالي أو حمل البارجللو على اعتقالي.

---

(1) هو الإسم الفلورنسي لعيد (الحبل بلا دنس) عند الكاثوليك. ويقع في 15 آب. لقد تم إصدار العفو عن جلليني عن طريق نقابة القصابين.

(2) هو ابن البابا بولس الثالث غير الشرعي. أغدق عليه أبوه المال والجاه وأحاطه بضروب العز وفي العام 1545 نصبه دوقاً لبارما وبياجنزا. كان نذلاً ساقطاً لا يُؤمن جانبه غدّاراً لا مزية فيه ولا نفع. أقدم بعض رجال من حاشيته على ذبحه وأنقذوا رعاياه من شرّه في العام 1547. ووصف جلليني له مطابق لسيرته تماماً.

وعهد إلى شيطان كورسيكيّ صغير بمهمّة القضاء على حياتي بصورة دقيقة محكمة جهد إمكانه وفي الوقت عينه وعد أعدائي وعلى رأسهم (ترايانو) ذاك الكورسيكي الصغير، بجائزة تبلغ مائة كراون وزعم هذا أنه سيقتلني بالسهولة التي يشرب بها بيضة حديثة الوضع غير مسلوقة. وكنت على علم بما يدبّر لي فاحتطت للأمر، فإذا سرت فبرفقة عدد من أصحابي. وإذا خرجت لا أخرج إلاّ مشتملاً بزردٍ سابغ محبوك مسلحاً بغدارتين إستحصلت بهما ترخيصاً رسمياً لا تغفل عيني ولا تغمض. ولفرط طمع هذا الكورسيكي فقد ظن بأنه كفيل وحده بالمهمة لئلا يشاطره أحدٌ آخر ثمن رأسي، وإنه لن يتعرض إلى أي خطرٍ. وذات يوم أرسل يطلب حضوري نيابةً عن السيد بيير لويجي. وكان ذلك بعد الظهر فتوجهت إليه حالاً. لأن السيد كان ذات مرة قد نوه برغبته في أن أصنع له بعض الآنية الفضية الكبيرة الحجم. غادرت منزلي وأنا بكامل شكّة سلاحي كالعادة. واحتثثت الخطى في شارع (بوليا) وكلّ ظني أن الشارع خالٍ في تلك الساعة من النهار. بلغت نهاية الشارع وانعطفت نحو قصر فارنيزي وأجلت نظري كعادتي فوقع على الكورسيكي الصغير وهو ينهض من مكمنه ويتقدم ليصير في وسط الشارع. وبهذا ضاعت عليه فرصة المفاجأة ولم أؤخذ على غرّة لحسن إنتباهي. وتهيأت للدفاع عن نفسي فتباطأت في سيري قليلاً، وحاذيت الجدران لأوسع المسافة له. لكنه صار يتعقبني محاذياً الجدران، حتى قصرت المسافة بيننا. واتضحت لي نية الشرّ التي يضمرها. وقد حسب انه نائل بغيته لا محالة حين وجدني وحيداً. بدأت الكلام فقلت له:

- أيها الفتى الباسل. لو أن الوقت ليلٌ لقلت إنك اشتبهت بي وظننتني شخصاً آخر. لكن الوقت نهار وأنت تعرفني حق المعرفة. ليس بيني وبينك نزاع وما أصبتك بضرٍ ما. لكني مستعدّ تماماً لأكون تحت أمرك.

أجاب وهو يعترض سبيلي بصلافةٍ ولهجة وعيد قائلاً: إنه لا يدري عمّا أتحدث. فقلت:

- نيتك ليست بخافيةٍ عني أبداً. واني أدري بماذا تتحدث، إلاّ أن المهمة التي كُلّفت بإنجازها هي أصعب وأخطر مما تتصوّر، وربما انقلب الأمر عليك. تذكر أنك

تتصدى لرجل لا يأبه بمائةٍ إن اجتمعوا عليه، إن ما تعهدت به ليس مما يتفق ومظهر رجلٍ شجاع مثلك.

في أثناء ذلك اتخذت أنا الآخر موقفاً عدائياً وانقلبت سحنة كلينا وكأنا صرنا في حالة تأهب للإشتباك. وتكاثر المارّة حولنا وأدركوا بأن كلماتنا سيعقبها سيلان دماء. أخيراً خانته الشجاعة الكافية لمهاجمتي. وقال:

- لا بأس عليك. سنلتقي ثانية.

فأجبت:

- إني لعلى استعداد دوماً للقاء ذوي الشأن من الناس أو من يبدو أنهم كذلك.

وتركته وواصلت سيري إلى منزل (بيير لويجي) لأجد أنه لم يرسل بطلبي. وبعد عودتي إلى دكاني بعث الكورسيكي برسالةٍ عن طريق صديق للطرفين يعلمني فيها بألاّ حاجة تدعوني بعد اليوم إلى إتخاذ الحيطة لنفسي منه، لأنه يريد أن يفوز بصداقتي. ولكن ينبغي لي أن أكون على حذرٍ دائمٍ من الآخرين لأني معرّض لخطر داهم. فقد حلف على هلاكي أناس ذوو نفوذ ومقام فشكرته برسالةٍ وزدت في إحتياطاتي. ولم تمض على هذا أيام حتى أبلغني أصدقائي أن (بيير لويجي) قد أصدر أمراً بأن يُلقى القبض عليَّ في مساء ذلك اليوم. ووصلني الخبر في آخر ساعات العصر، واستطلعت رأي بعض أصدقائي فأشاروا عليّ بالفرار حالاً. ولما كان تنفيذ الأمر سيجري في الساعة الأولى من الليل فقد ركبت مع قافلة البريد القاصدة إلى فلورنسا. والذي حصل هو ان (بيير لويجي) بعد أن أظهر الكورسيكي عجزه وافتقاره إلى الشجاعة لتنفيذ ما وعد به. أعطى الأوامر باعتقالي بسلطانه الخاصّ تهدئةً لابنة (بومبيو) التي ظلّت تسأل عن مصير مهرها. وعندما فشل في كلتا المحاولتين في الثأر لها. دبّر أخرى ثالثة. سآتي إلى ذكرها في مناسبتها.

وصلت فلورنسا وتمت مقابلةٌ بيني وبين الدوق (اليساندرو) فرحب بي بحرارةٍ فاقت العادة وحاول إقناعي بالبقاء في خدمته. على اني في تلك الأثناء التقيت بواحد من أصدقاء الصبا وقد كنت أبا عمادٍ لابنه وهو نحّات يعيش في فلورنسا واسمه (إل

تريبوليتو Il Tribolino)[1] وكنا يوماً نتجاذب أطراف الحديث فذكر لي أن أستاذه الأول (جاكوبو دل سانسافينو Jacobo del Sansavino)[2] قد إستدعاه إلى البندقية ليشتغل عنده. ولما لم يكن قد شاهد هذه المدينة قبلاً فهو جدّ مشوق إلى رؤيتها متوقعاً أن يربح مالاً كثيراً. ثم سألني هل سبق لي رؤية البندقية؟ فأجبت كلاّ. فرجا مني أن أرافقه ووعدته. لذا كان جوابي للدوق (اليساندرو) أني أودّ زيارة البندقية أولاً وبعدها سأكون جدّ مسرورٍ للعودة إلى خدمته. وأخذ عليّ العهد والميثاق وأمرني أن أقصده قبل السفر لتبادل بعض الحديث. فتوجهت إليه في اليوم التالي بعد أن تأهبت للسفر - لاستأذن منه. فوجدته في قصر بازي Pazzi. الذي كان يشغله آنذاك السينور لورنزو جييو دي مديتشي[3] مع زوجته وبناته. ثم أبلغته بموعد سفري عن طريق النبيل الشاب (كوزيمو دي مديتشي وهو اليوم دوق فلورنسا) فجاءني بالموافقة من سموه وقال: عليّ أن أقصد (نيكولو دا مونتي أكوتو Nicolo da Monte Aguto) الذي سينقدني خمسين كراوناً ذهبياً وهي منحة من سموه عربوناً لحبّه وعليّ أن أعود بعد الترفيه عن نفسي لأكون في خدمته.

تسلمت النقود من (نيكولو) ورحت أبحث عن (تريبولو). وكان ينتظرني وقد أكمل إستعداده ثم سألني هل حزمت سيفي ضمن المتاع؟ فأجبت: إن من ينطلق في سفرة على ظهر الخيل لا يفعل شيئاً من هذا القبيل. فقال: إنه القانون داخل الأسوار في فلورنسا. وثم موظف يتولى مراقبة مثل هذه الأمور يدعى (سر مورتزيو Ser Maurizio) لا يتردد لاتفه الأسباب في جلد النبي يوحنا المعمدان نفسه. فعليك أن تضع سيفك بين المتاع ولا تتقلده إلا بعد خروجك من المدينة. فأطلقت ضحكة

---

(1) وإسمه الكامل (نيكولودي بيريكولي Nicolo de Pericole) (1500 ـ 1550) مهندس معماري ونحات فلورنسي تلميذ (اندريه كونتونجي دال مونتي أسانسافينو). أنجز أعمالاً هامة في روما وبولونيا ولوريتو لآل مديتشي بصورة خاصة. يؤثر عنه أنه صنع نموذجاً مصغراً لمدينة فلورنسا بطلب من البابا كليمنت أثناء القاء الحصار عليها.

(2) هو (جاكوبو تاتي) واحد تلامذة أندريه كونتونجي المار ذكره رحل إلى البندقية وقت حصار روما. وبعدها إنصرف تقريباً إلى هندسة المباني. كانت وفاته في 1570.

(3) قاتل الدوق الساندرو وقد مرّ ذكره في حاشية سابقة.

راعدة وإنطلقنا في سبيلنا، ولقينا أحد سعاة البريد القاصدين إلى البندقية فانضمّ إلينا وكان يلقّب بالنائح (Lamentone) واجتزنا (بولونيا) ثم بلغنا (فيرارا) مساء يومٍ وهناك وجدنا محلاً للمبيت في فندق يقع في الميدان. وخرج (النائح) يفتش عن بعض المبعدين السياسيين ليسلمهم الرسائل التي كان قد حملها لهم بإذن من الدوق من زوجاتهم. وخوّل الدوق الساعي أن يكلمهم وحده ولا يدع أحداً يتصل بهم وإلاّ كان عقاب المتصل بهم عين عقابهم.

في غضون ذلك، وجدنا لدينا ساعتين من الفراغ قبل حلول الظلام فخرجنا معاً لمشاهدة عودة دوق فيرارا[1] من بلفيوري Belfiore بعد حضوره حفلة المبارزة بين الفرسان. ولقينا في طريقنا عدداً كبيراً من المبعدين الفلورنسيين. فأطالوا النظر فينا كأنما يريدون حملنا على الكلام معهم. فما كان من (تريبولو) وهو أجبن مَنْ عليها، أن طفق يردد باستمرار:

- لا تنظر إليهم لا تخاطبهم بكلمة واحدة إن شئت العودة إلى فلورنسا.

إنتظرنا مقدم الدوق وبعد ذلك عدنا إلى الفندق، فوجدنا (النائح) هناك. وبعد الغروب بساعة واحدة. دخل الفندق كل من (نيقولو بنتندي N. Benintendi) ورجل مسنّ هو على غالب ظنيّ (جاكوبو ناردي J. Nardi)[2] فضلاً عن عدد آخر من الشبّان. وراحوا يمطرون الساعين بالأسئلة حول زوجاتهم وذويهم في فلورنسا. وبقيت أنا (وتريبولو) بعيدين عنهم حتى نتحاشى مكالمتهم. بعد مجاذبة (تريبولو) أطراف الحديث برهةً. قال (نيقولو بنتندي) مشيراً الينا:

- لي معرفةٌ جيّدة بالسيدين هذين. لا أدري كم بلغ بهما السخف ليستنكفا عن محادثتنا.

---

(1) هو الدوق اركولي الثاني.

(2) هو المؤرخ الفلورنسي المشهور (1476 ـ 1563) وواحد من أنزه الجمهوريين وأشدهم حماسة. كان من الحزب المعادي لآل مديتشي. أبعد إلى ليكهورن في 1530، ثم إلى البندقية وفيها دون تاريخ بلاده، وترجم تاريخ ليفي Levy من اللاتينية. أما الاخوان (بنتندي) فقد تمّ إبعادهما عن فلورنسا في 1530، وكان نيقولو أحد أعضاء مجلس الثمانية.

أشار عليّ (تريبولو) كالعادة بالصمت. عندئذ قال لهم (النائح) إننا ممنوعان عن التحدث إليهم. ولا نملك الإذن الذي يملكه هو. فقال (بنتندي) هذا هراء في هراء، وإلى سقر بهما وبئس المصير. وأضاف إلى ذلك أقوالاً لطيفة أخرى من هذا النوع وعند ذلك رفعت رأسي، وبكلّ ما أمكنني من لطفٍ قلتُ:

- أيها السادة الأماجد في وسعكم إلحاق أكبر الأذى بنا. ونحن أعجز الناس عن مساعدتكم في عين الوقت. ومع أنكم وجهتم إلينا الفاظاً خشنة جداً فليس في نيتنا أن نفقد إتزاننا.

فقال الشيخ (ناردي) إني نطقت بأقوال تليق بشابٍ مهذب طيب المنبت. إلاّ أن (نيقولو بنتندي) قاطعه قائلاً:

- فليقبّلا إستي، هما ودوقهما!

وأضاف يصفنا بأننا زوج من الحمير.

قلت إنه واهم بخصوصنا. ولا علاقة لنا قطّ بأموره. وانحاز الشيخ (ناردي) إلى جانبنا وقال لـ(بنتندي) إنه على خطأ. إلاّ انه مضى قدماً في إهاناته وشتائمه. عندئذ قلت له إني سأفعل وأقول له ما يكره وعليه أن ينصرف لشؤونه الخاصة ويتركنا. فكرر قوله إن بإمكاننا نحن والدوق أن نلثم إسته وما نحن إلاّ زوج من الحمير، وعندئذ قابلت سبابه بمثله وجرّدت سيفي. فعثر الشيخ وهو يريد ان يستبق إلى الدرج وسقط فوقه الآخرون وصاروا كومة عليه. واندفعت إلى أمام أصول بسيفي هائجاً على امتداد الجدار وأنا أصيح:

- لأبيدنكم عن بكرة أبيكم.

إلاّ اني إحتطت بأن لا أمسّ أي منهم بأذى وإن كان ذلك عندي من أسهل الأمور. وفي وسط هذه الضجّة راح صاحب الفندق يصرخ. و(النائح) معه يصيح:

- لا تفعل!

وأخذ بعضهم يطلق صرخات إستنجاد «الغوث! القاتل!» والبقية يتنادون «ألا فلنخرج من هنا»! واختلط حابلهم بنابلهم وكان منظراً عجيباً، يشبه قطيعاً من الخنازير ثم أقبل صاحب الفندق يحمل ضوءاً. وصعد إلى الطابق الأعلى وأغمدت

سيفي. وطفق (النائح) يعاتب (بنتندو) ويلومه على سلوكه السيء بينما قال له صاحب الفندق:

- إن تجريدك سيفك هنا يعني المخاطرة بحياتك. ولو سمع الدوق بعملك الطائش هذا لأمر بشنقك وأنا لا أريد معاملتك بما تستحق. لكن إياك أن تريني وجهك في هذا الفندق والاّ ستنال ما تكره.

ثم توجّه اليّ فهممت بالإعتذار منه. إلاّ أنه أسكتني وقال إنه يدري كم ضبطت أعصابي وصبرت على الإهانات. ونصحني باليقظة والحذر من هؤلاء خلال رحلتي.

بعد تناول العشاء أقبلَ النوتي ليأخذنا بمركبه إلى البندقية. فسألته أيجوز أن نكتري قاربه لأنفسنا؟ ولما وافق عقدنا الإيجار. وفي صباح اليوم التالي إمتطينا خيولنا وقصدنا الشاطئ وهو يبعد بضعة أميال أو نحوها عن فِرارا[1].

وبوصولنا ثمّ، وجدنا أخا نيقولو بنتندي مع ثلاثة آخرين يرقبون طريقي وكانوا مسلحين برمحين. في حين كنت مسلّحاً بحربة جيدة إبتعتُها من (فيرارا). فضلاً عن كامل شكّتي من السلاح. ولم أشعر ولو بقليل من الخوف في حين طفق (تريبولو) يبكي ويندب قائلاً:

- رحماك اللهم! ها هم جاؤوا لقتلنا!

التفتُ اليّ (النائح) وقال:

- خير ما تفعله هو أن تعود إلى فِرارا فالمسألة تبدو خطيرة. أرجوك يا بنفنوتو لا تثر غضبهم ولا تستفزهم فهم كالوحوش الكاسرة.

أجبت:

- هيّا بنا. فالله في عون صاحب الحقّ وعلى أيّ حال سترى كيف أكون في عون نفسي. أليس هذا هو القارب الذي اكتريناه؟

---

(1) تقع فِرارا في منتصف الطريق بين فلورنسا والبندقية إلى الشمال الشرقي وبينها وبين نهر البو بضعة كيلومترات ومنها يركب المسافر إلى البندقية قارباً يقطع به النهر حتى مصبّه في الأدرياتيك ويستأنف المسافر رحلته بحراً حتى البندقية.

قال (النائح): بلى.

- إذن فكل ما يترتب عليّ عمله هو أن أركبه رغماً عنهم.

وهمزت جوادي وعندما صرت على مسافة خمسين خطوة منهم ترجّلتُ وسرت بقدم ثابتة متقدماً وأنا ممسك بحربتي. وتخلّف عني (تريبولو) وسار ورائي لاصقاً بظهر حصانه كأنه كتلة جليد. و(النائح) ينفخ ويلهث كزفيف الريح، وتلك عادته إلاّ أن نخيره وشخيره الآن كانا أكثر بكثير من المعتاد. وقد وقف منتظراً ما سيسفر عن هذه المشادّة اللعينة. ولما بلغت القارب تقدّم النوتي مني قائلاً إن هؤلاء السادة الفلورنسيين يرغبون في الإنضمام إلينا إن لم يكن لديّ مانع.

فأجبته:

- إكترينا القارب لأنفسنا وليس لأحد آخر غيرنا حقّ استخدامه. وإنّ قلبي ليتنزّيا ألماً لعدم إمكاني إصطحابهم.

وهنا قال شابٌ صلفٌ من أسرة (ماكالوتي Magalotti):

- بنڤنوتو! سنعمل على أن يكون بإمكانك ذلك.

فأجبت:

- إن كانت لمشيئة الله، وللحقّ الذي هو بجانبي ولقوّتي أثرها، فإنكم لن تستطيعوا أن تحققوا شيئاً كهذا.

قلتُ هذا وقفزت إلى داخل القارب ثمّ سددت سنان حربتي إليهم وقلت:

- بهذا سأثبت لكم أن ما تريدون غير ممكن.

وأراد الفتى (ماكولوتي) أن يعرض فروسيته فأمسك بسلاحه وتقدم مني الاّ أني انتقلت بسرعة إلى حافة القارب وسددت إليه ضربة كادت تخرقه وتصرعه في الحال لو لم ينكفئ إلى الخلف. ولم يتقدم أحدٌ من رفاقه لمعونته بل نكصوا على أعقابهم. في هذه الحالة وجدت نفسي في موقف القادر على ازهاق روحه. إلاّ أني بدلاً من مهاجمته قلت:

- انهض أيها الصديق والتقط سلاحك وانصرف. إنك لترى الآن بكلّ وضوح بأني

لا أستطيع حمل نفسي على عمل ما لا أريد عمله، وأن ما كنت أستطيعه لا أرغب في إتيانه.

ثم ناديت (تريبولو) والتوتيّ و(النائح) وانطلقنا كلّنا إلى البندقية. وبعد أن قطعنا عشرة أميال من مجرى الـ(بو) أدركنا الشبّان بزورقٍ. ولما حاذونا صاح بنا ذاك الأحمق (بيرو بنتندي).

ـ سر في سبيلك الآن يا بنڤنوتو. لكننا سنلتقي ثانية في البندقية.

فرددت عليه قائلاً:

ـ إذن فعجّل. فأنا ذاهب إليها وسأكون مستعداً للقائك في أي وقت.

ووصلنا البندقية وتوجهت إلى أحد إخوة الكردينال (كورنارو) أستمد منه النصيحة وسألته أيمكنني أن أحمل سلاحاً في المدينة. فقال أجل يمكنك ذلك بالتأكيد فإن أسوأ ما قد تتعرض له لا يزيد عن مصادرة سيفك.

وذهبنا والسلاح في أيدينا لزيارة النحّات (جاكوبو دل سانسافينو) الذي كان قد أرسل يستدعي (تريبولو). قال له إنه ليس بحاجة إلى خدماته في الوقت الحاضر. وبإمكانه مراجعته في وقت آخر. وما سمعت هذا حتى غلبني الضحك وقلت لـ(سانسافينو) وأنا أبتسم:

ـ إن الشقّة بين منزليكما بعيدة بعض الشيء، في حالة مراجعته لك وقتاً آخر.

أما (تريبولو) المسكين فقد صُعق ولم يجد له في فمه الذاهل غير هذه العبارة:

ـ ها هي رسالتك عندي، كتبتها تطلب حضوري.

فكان جواب (سانسافينو) أن الفنانين البارزين من عياره قد يقدمون على مثل هذه التصرفات بل وأكثر! وهزّ (تريبولو) كتفه وظلّ يردد لنفسه «الصبر! الصبر!».

ورغم جودة الطعام الذي قدمه (سانسافينو) لنا. فإني إنحزت إلى جانب (تريبولو). إذ كان هو المحقّ قطعاً. ولم يكفّ (سانسافينو) عن المفاخرة بإنجازه الأعمال العظيمة مستخفاً بـ(ميكالنجلو) وغيره من النحّاتين وممتدحاً نفسه إلى درجة لا تحتمل.

فأثقل عليّ وضايقني حتى إني كنت أغصّ بكل لقمة تدخل فمي. ولم يصدر مني تعليق على أقواله إلاّ قولي:

- سيدي جاكوبو، أعلم أن الفنانين البارزين يتصرفون وفق ما يمليه عليهم فنُّهم وشهرتهم. والعباقرة الذين ينجزون الأعمال الرائعة الجيدة يبدون في أضواء أسنى وأبهى لو تركوا للآخرين أمر إذاعة مواهبهم والتغنّي بها والإشادة بأعمالهم بثقة وجرأة.

وقمنا، كلّ منّا يغلي غضباً.

في ذات اليوم كنت أتمشى بالقرب من الريالتو Rialto[1] فالتقيت بييرو بنتندي وكان بصحبة عددٍ من الرفاق. وقد أدركت أنهم ينوون بي شرّاً فانسللت إلى دكان صيدلي منتظراً مرور العاصفة. وبعد هذا سمعت أن الفتى (ماكالوتي) الذي عاملتهُ بكلّ لطفٍ وكرم قد أشبعهم تأنيباً. وهكذا إنتهت المسألة.

بعد أيام قلائل إنطلقنا إلى فلورنسا عائدين. وفي الطريق اتفق لنا أن بتنا في موضع يلي (جيوكيا Cioggia)[2] على اليسار منها وأنت تقصد الطريق إلى (فرارا). طلب صاحب الفندق أجرته مقدّماً حسب العادة التي اختطها وقبل أن نأوي إلى فراشنا. وعندما قلت إن العادة جرت في الفنادق الأخرى أن يتم الدفع صباحاً، أجاب بقوله:

- إني أريد أجرة هذه الليلة مقدّماً وفقاً للسُّنة التي أختطُها أنا.

ورددت على هذا بقولي: إن أولئك الذين يريدون أن يُدفع لهم وفق ما يرسمون هم عليهم أن يصنعوا لأنفسهم عالماً خاصاً بهم يتفق مع ما يرسمونه لأن السنّة في هذا العالم تختلف عن سُنّتهم. فأجاب صاحب الفندق قائلاً: كفاني مضايقة له لأنه لن يحيد عن سنته هذه. وكان (تريبولو) يرتجف خوفاً ويلكزني ملحّاً بأن أسكت لئلا يتطور الأمر فنلقى ما نكره. وهكذا دفعنا الأجرة صاغرين كما رسمَ وآوينا إلى فراشنا.

---

(1) جزيرة ومنطقة مشهورة في البندقية وتقع على القناة الكبرى.

(2) بلدة على ساحل الأدرياتيك بينها وبين البندقية خمسة وعشرون كيلومتراً تقريباً.

وكانت أغطيتنا وأفرشتنا ممتازة حقاً وفي غاية النظافة وكلها جديد. لكني أرقتُ ولم يغمض لي جفن طول الليل مفكراً في طريقة تنيلني ثأري. تارةً كنت أقلب في فكري إشعال النار في الفندق وتارة أفكر في ذبح الجياد الأربعة الأصيلة المربوطة في إسطبله. وكلتا الفكرتين سهلة التنفيذ. إلاّ اني ما كنت أرى وسيلة لضمان سلامتي وسلامة صديقي بعدها. أخيراً ما فعلتهُ هو أني وضعتُ أمتعتي وأمتعة (تريبولو) في القارب. ثم وبعد أن شددنا حبال الجرّ بالخيل قلت: إني نسيت خُفين في الفندق وسأذهب لإحضارهما وعليهما الاّ يحركا القارب حتى عودتي. عدت إلى الفندق وناديت صاحبه. فأجاب أن لا شأن له بنا. وبإمكاننا أن نذهب ونسلق أجسامنا في المبغى. وكان يقف بالقرب مني خادم الأسطبل وهو صبي رثّ الهيئة أثقل النعاس عينيه فقال لي:

- لن يُحرك صاحب الفندق إصبعاً واحدةً للبابا نفسه فهو يضاجع قحبةً كان يراودها منذ زمن طويل.

ثم طلب مني حُلواناً يكفي لكأسٍ من الخمر فنفحته بدريهمات من تلك النقود الصغيرة القيمة الرائجة في البندقية. وطلبتُ منه أن يذهب ويخبر الرجل المكلّف بحبال الجرّ أن ينتظرني قليلاً حتى أبحث عن خفيّ وأعود. ثم صعدت إلى الطابق الأعلى واستخدمتُ سكيناً مرهفة الحَدّ لتمزيق أغطية وفرش الأسِرّة الأربعة هناك قِطعاً قِطعاً. وأظنني أحدثت من الضرر ما يتجاوز قيمته خمسين كراوناً.

عدت إلى القارب ومعي بعض القطع الممزقة من الأغطية دسستها في جيبي وأمرت الرجل المسؤول عن حبال الجرّ بأن يقلع بنا حالاً. وبعد أن قطع مسافة قصيرة مبتعداً عن الفندق. تذكر رفيقي (تريبولو) بأنه نسي سيور (كوركي Corregge) حقيبته الصغار في الغرفة ولا مناص من رجوعنا إليها. فقلت: لا تهتم بضياع سيرين صغيرين فبإمكاني أن أعمل له قدر ما يشاء من أكبر (الكورجيّ) فوراً![1] فأجاب اني لا أنفكّ

(1) لكلمة Corregge في الأيطالية معنيان: الأول الذي قصده تريبولو: هو السير الجلدي الذي تربط به الحقائب والصناديق. والمعنى الثاني الذي قصده چلليني هو (الضرطة) أي خروج الريح من الدبر مع صوت. وبهذا يتضح المزاح الذي قصده چلليني.

قطُّ عن المزاح، وإنه سيعود لسيوره مهما كلّفه الأمر. والتفت إلى الحبّال آمراً إياه بالعودة، في حين كنت أحثّه للإسراع بنا إلى الأمام. في عين الوقت شرحت لـ(تريبولو) الضرر الذي أحدثتهُ وأريته نماذج من الضرر بإخراجي قطع الأغطية وعرضها عليه مع السكين. فامتلأ رعباً وراح يصيح بالنوتيِّ للإسراع:

- عجّل، أسرع ولا تتوان.

وأبى أن يؤمن بخروجه من دائرة الخطر حتى بلغنا أبواب فلورنسا. وما أن شارفنا الأسوار حتى التفت اليّ قائلاً:

- ناشدتك الله أن نحزم سيفينا في متاعنا فقد كفانا مغامرات كانت مصاريني تتمعج في أحشائي طوال وجودي معك.

فأجبته:

- لاحاجة بك إلى حزم سيفك في متاعك يا عزيزي (تريبولو) لأنك لم تشدّه إلى وسطك قطّ.

قلت ذلك مبادهةً وعفو خاطرٍلأني لم أره يُظهر رجولةً طوال الرحلة.

وعندها تطلع إلى سيفه ثم قال متعجباً:

- والله إنك لمصيب! فها هو ذا ما زال مشدوداً مثلما حزمتهُ قبل تركي منزلي.

كنتُ في نظر صديقي هذا رجلاً سيء الصحبة. لأني حافظت على كرامتي ودافعت عن نفسي محبطاً نيات الشرّ التي كانت تدبّر. وأنا من جهتي وجدت مسلكهُ أسوأ بكثير من رأيه في مسلكي لأنه لم يتقدم لمساعدتي وقت الشدّة. ألا فليحكم بيننا المنصف المحايد.

ما أن ترجلت حتى أسرعت لمقابلة الدوق اليساندرو لأقدم له شكري على منحة الخمسين كراوناً. وبيّنت لسموّه بأني على أتمّ إستعدادٍ لخدمته في ما أُحسنه من صناعةٍ. ففوّضني حالاً في عمل قوالب لنقوده وكان أول قالبٍ عملته هو لمسكوكة بقيمة أربعين صولدياً[1] في وجهها صوّرت رأس سموّه وعلى ظهرها نقشت صورتي

(1) الصولدي هو أصغر عملة في أوروبا.

القديسين كوزيمو وداسيانو. فأعجب بها الدوق وحازت رضاه التام واصفاً إياها بأنها أجمل قطعة نقد في سائر البلاد المسيحية وهذا ينطبق على كلّ من رآها وتعامل بها في مدينة فلورنسا وغيرها. وبنتيجة ذلك رجوت سموّه أن يعين لي مرتباً ويخصص لي مكاناً في دائرة الضرب. فأجاب: عليّ أن أستمر في خدمته وسيجزل لي العطاء فوق ما أتاملّ وأضاف يقول إنه أصدر أوامره لمدير دار الضرب وهو السيد (كارلو آجيوبوالي Carlo Accioiuali) بأن يصرف لي ما أحتاج من مالٍ. وقد تبين لي أن الأمر كما قال. إلاّ اني كنت لا أسحب إلاّ القليل. لأبدو موضع ثقة واطمئنان.

ثم اني صنعت قالباً لمسكوكةٍ من فئة (كويليو Guilio) على وجهها صورة جانبية للقديس جيوڤاني وهو جالس على مقعدٍ وبين يديه كتاب يقرأ فيه. ونقشت على الظهر منها شعار الدوق اليساندرو ولا أظني صنعت مسكوكة بمثل هذا الجمال. وعملت قالباً ثالثاً لمسكوكةٍ من فئة نصف (كويليو) صوّرت فيها وجه القديس جيوڤاني كاملاً وهو في فتوته. وهي فضية، لايقدّر وجه الصعوبة فيها إلاّ الخبراء في الفنّ. أخيراً قمت بعمل قالبٍ لقطعة الكراون الذهبي، في وجهها نقشت صليباً معقوفاً يحيط به عدد من الكاروبيم وعلى الظهر منها نقشت شعار الدوق.

بعد فراغي من هذه المسكوكات رجوت سموّه أن يقرر لي مرتباً وأن يسند اليّ منصباً في دار الضرب إن كان راضياً عمّا قمتُ به فأجابني بكلّ لطف إنه راض تمام الرضى وإنه سيرتب ذلك. وكان حديثنا يجري في مستودع سلاحه، وهو يتفحص بندقية صغيرة نفيسة أرسلتْ إليه من المانيا. ولما لاحظ أني أديم النظر فيها متمعناً. ناولني قطعة السلاح البديعة هذه قائلاً إنه يدري جيداً كم تهفوّ نفسي إلى أمثالها. وإنه على سبيل العربون لما وعدني به، يخيرّني الآن في إنتقاء أي قطعة سلاح تعجبني من مستودعه هذا. باستثناء هذه البندقية، مردفاً أن في مستودعه من قطع السلاح ما يفوقها جمالاً ويضاهيها صنعةً. فقبلت هديته وشكرتهُ. وعندما لاحظني أجيل بصري في القاعة. أمر آمر المستودع واسمه (بريتينو دا لوكا Pretino da Lucca) بأن يعطيني أي قطعة أختارها. وبعد بضع كلمات ودّ ومجاملة إنصرف وبقيت لأختار أفضل وأجمل بندقية رأيتها أو ملكتُها وحملتها معي إلى منزلي.

وبعد يومين جئت إلى سموّه بموديلات صغيرة لبعض القطع الذهبية الفنية التي أمرني بصنعها وكان ينوي إهدائها إلى زوجه التي لم تزل آنذاك في نابولي[1]. فسألت منه مرّة أخرى أن يستعجل في اتخاذ التدابير حول ما وعدني به. إلاّ أنه سموّه قال انه يريد أولاً أن أصنع له قالباً لصورة دقيقة له. مثل تلك التي صنعتها للبابا كليمنت. فبدأت الصورة بالشمع وأوصى بأن يسمح لي بالدخول عليه في أية ساعة أريدها للعمل بها. ولما أدركت أن العمل سيأخذ مني كثيراً من الوقت أرسلت أستقدم (بيترو باكولو Pietro Pagolo) من مونتي ريتوندو (Monte Ritondo) بالقرب من روما. وكنت قد ضممته إليّ في روما منذ صباه. لما علمتُ أنه كان يشتغل عند الصائغ (برناردو ناجيو Bernardo Naccio) الذي لم يحسن معاملته فأخذته منه ودرّبته تدريباً جيداً على كيفية سكّ النقود بالقوالب. في تلك الأثناء كنت منهمكاً بصورة الدوق وكثيراً ما كنت أجده مستسلماً إلى غفوةٍ بعد الغداء. مع صفيّه لورنزو[2] ذاك الذي اغتاله فيما بعد. كنت أستغرب كيف يضع الدوق ثقته في مثل هذا الرجل.

واتفق أن أوتافيو دي مديتشي[3] الذي يهيمن على كلّ كبيرة وصغيرة من الشؤون في فلورنسا، كان يريد أن يقدّم المدير الفنّي لدار الضرب العجوز (باستيانو جنّيني Bastino Cennini) خلافاً لرغبة الدوق. وكان هذا صانعاً من الطراز القديم لا يمتاز ولو بالقليل من المهارة. وفي أثناء سكّ الكراونات خلط بين أدواتي وأدواته الساذجة الخرقاء. فشكوت الأمر للدوق وعندما أدرك أني محقّ إنزعج كثيراً وقال:

- إذهب إلى أوتافيو دي مديتشي وأعلمه بما وقع.

فقصدته حالاً وبيّنت له التلف الذي أصاب عملتي من جرّاء ذلك. فأجاب بما يتوقع من الحمير أمثاله:

---

(1) هي مرغريت أميرة النمسا والأبنة غير الشرعية للإمبراطور شارلكان خطبت لألساندرو في 1530 وتم الزواج - 1536 في نابولي. وكان عمرها 14 عاماً عندما جاءت فلورنسا بعد أشهر قليلة من الزواج.

(2) جاء ذكر ذلك بالتفصيل في أول حواشي الكتاب إلاّ أن جلليني في الصفحات التالية من مذكراته يذكر سبباً آخر لقيام لورنزو باغتيال قريبه.

(3) يمت إلى الدوق بقرابة عصبية بعيدة. ولم ينسل من ظهر كوزيمو الملقب Paten Patriae.

- نحن نريدها هكذا.

فأجبت: هذا ليس بالشكل الذي يجب أن تكون وهو أمرٌ غير معقول وغير منصف.

فقال:

- وإذا كانت هذه رغبة الدوق؟

أجبت:

- إنها لن تسرّني أيضاً وأنا لا أقبل بهذا.

وأمرني بالخروج من عنده قائلاً: «فلتبتلعها وإن اختنقت بها!»

عدت إلى الدوق وأبلغتُه بفحوى المشادة الخشنة بيني وبين أوتافيو. ورجوت من سموّه أن لا يدع قطعة النقد الجميلة التي عملتها له تشوّه بهذه الصورة ثم استأذنته بالسفر.

فقال الدوق:

- لقد أشتط أوتافيو كثيراً. وسأقوم بإصلاح الأمر بالشكل الذي تريد لأن التأثير يشملني أيضاً.

في عين اليوم وكان يوم خميس - وصلني من روما كتاب أمان غير محدد صادر من البابا. ومع أمرٍ يوجب عليّ أن أسافر في الحال إلى روما لأمنح العفو الذي سيتمّ في عيد سيدتنا العذراء في أواسط آب كيما تسقط عني نهائياً تهمة القتل. فانطلقت لمواجهة الدوق، فقيل إنه راقدٌ في فراشه بعد ليلة حمراء ماجنة. وفي غضون ساعتين فقط أتممت وضع اللمسات الأخيرة على الصورة الشمعيّة ولما أطلعته عليها وهي كاملة إغتبط كثيراً. ثم اني عرضت عليه (كتاب الأمان) الذي أمر البابا بإرساله اليّ وعقّبت على هذا قولي إن قداسته قد إستدعاني لأقوم ببعض الأشغال له. وبهذا سأحتل مكانتي في مدينة روما الرفيعة. وسأقوم في عين الوقت بإكمال ميداليته.

فأجاب الدوق وهو شبه مستاء:

- بنفنوتو! أنجز ما يسرّني وابق حيث أنت الآن. سأخصص لك مرتباً وأسند إليك

الوظيفة التي طلبتها في دار الضرب، وسأعمل لأجلك أكثر بكثير مما تريد وتأمل لأنك لم تسأل إلاّ المعقول والممكن. ناشدتك الله من سينظر في أمر القوالب الجميلة التي عملتها لي؟

فأجبت:

ـ مولاي! لقد احتطتُ لكلّ شيء. فعندي هنا واحد من تلاميذي، وهو فتى روماني تعبت في تعليمه وسيخدم سموّك خدمة ممتازة إلى حين عودتي بميداليتك كاملةً، مستعداً لخدمتك أبداً. في روما لديّ دكان فيه صناع وأعماله رائجة جداً. إلاّ أني بعد أن أحصل على العفو سأترك كل أعمالي فيها بعهدة تلميذ لي هناك وسأعود بإجازة سموك الكريمة.

لم يكن معنا في هذه المقابلة غير (لورنزو دي مديتشي). الذي ذكرته آنفاً. فأوما إليه الدوق عدة مرات بأن يحثني على البقاء. إلاّ ان كلّ ما قاله هذا لي هو:

ـ بنفنوتو! خير لك أن تبقى هنا.

وعندما قلت إني مصمم على استعادة مكانتي في روما مهما حصل، سكت ولم ينطق بشيء وظلّ واقفاً يركز إنظاره في الدوق بشكل ينذر بالشرّ.

وبعد أن أكملتُ النموذج الشمعي وضعته في صندوق واقفلته وقلت للدوق:

ـ مولاي لا حاجة بك إلى القلق من جانبي، فسأصنع لك ميدالية أجمل بكثير من تلك التي صنعتها للبابا كليمنت. وهذا طبيعيّ وبديهيّ فتلك أول ميدالية حاولتها. والسيد لورنزو هنا الذي عرفته غزير المعرفة والذكاء سيقوم بعمل تصميم لظهرها جدير بسموّك.

فأسرع لورنزو يجيب:

ـ كلّ ما يشغل فكري هو كيف سأمدّك بظهرٍ جديرٍ بسموّه![1]

فارتسمت إبتسامة ساخرة على وجه الدوق وتطلع إلى لورنزو ثم قال:

---

(1) يلمّح لورنزو هنا تلميحاً قبيحاً بنية القتل التي كانت تساوره منذ زمن.

ـ لورنزو! عليك أن تتدبّر له ظهراً للميدالية وعليه أن ينجزه هنا ولا يغادر فلورنسا.

فأجاب لورنزو في الحال:

ـ سأعمله بأسرع ما يمكنني. ولي أملٌ في إنجاز شيء يكون موضع دهشة الدنيا كلّها.

أمّا الدوق الذي كان يعتبره أبله مأفوناً تارةً وجباناً رعديداً تارة أخرى، فقد انقلب في سريره وأطلق ضحكة إثر قوله هذا. فتركتهما دون أن نتبادل المزيد من المجاملات. ولم يصدّق الدوق بأني سأرحل عن فلورنسا ولذلك لم يفتح الموضوع معي بعد هذا. ولما أنبئ بأني رحلتُ فعلاً. أرسل أحد خدمه في أعقابي فأدركني في (سيينا) وأعطاني خمسين دوقية من سموّه مع رسالة قال فيها: «خذ هذا المبلغ مع حبي وعد اليّ بأسرع ما يمكنك. وعن السيد لورنزو أعلمك بأنه يتهيأ لإمدادك بالظهر العجيب للميدالية التي تقوم بصنعها».

تركت (بييترو باكولو) الفتى الروماني الذي ذكرته سابقاً مزوداً بتعليمات كاملة حول كيفية إستعمال القوالب. ولكن العمل كان أدق وأصعب من أن يصيب فيه نجاحاً كبيراً. وبقيت دائناً لدار الضرب بمبلغ يزيد عن سبعين كراوناً لقاء عمل القوالب.

صحبت في سفرتي إلى روما تلك البندقية الجميلة ذات الزند الصوّاني، هدية الدوق وإستخدمتها عدة مرات كمسلاةٍ وتلهية. والواقع اني صنعت الأعاجيب بها.

وبوصولي روما ترجّلت في منزل جيوڤاني كاذي ـ لأن منزلي الصغير في (سترادا يوليا) لم يكن مهيّأ لإستقبالي. وكنت قد أستودعتُه قبل تركي روما مجموعتي الكبيرة من الأسلحة الجميلة وغير ذلك من مقتنياتي التي كنت أعتزّ بها كثيراً وقررت أن لا أذهب إلى الدكان بنفسي بل استدعيت شريكي (فيليبجي) بدل ذلك وطلبت منه أن يرتب منزلي ويهيئه للسكنى بصورة عاجلة.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى المنزل لإعداد ثيابي وغير ذلك مما أحتاجه وبتّ فيه لأني كنت أنوى أن أحظى بمقابلة البابا في اليوم التالي لأقدم شكري على ما فعله لي.

في ذلك الحين كنت أستخدم خادمين صبيين في المنزل يسكنان فيه. وكان ثمّة غسّالة تسكن تحت الدكان وتقوم بإعداد أشهى المآكل لي.

في تلك الأمسية دعوت عدداً من الأصدقاء لتناول العشاء وبعد أن استمتعنا ببضع ساعات في أطيب مجلسٍ آويت إلى فراشي. ولم يكد الليل ينقضي - لم يبق للفجر غير ساعة - حتى طرق سمعي خبط عنيف في باب منزلي. ضربة إثر ضربة والواحدة أعنف من الأخرى. فناديت الخادم الأكبر سناً - وهو (جنجيو) الذي رافقني في عملية استحضار أرواح الجنّ - وأشرت عليه أن يذهب ليرى من هو ذلك المعتوه الذي يخبط الباب بهذه الخشونة في هذه الساعة من الليل. وعلى إثر خروجه أشعلت مصباحاً آخر غير الذي اعتدت إبقائه مضيئاً طول الليل. وعجّلت بارتداء زردٍ محكم فوق قميصي وإرتديت فوقه بعض الألبسة القديمة إلتقطتها كيفما اتفق. وعاد (جنجيو) وهو يصيح:

- سيدي العزيز! إنه البارجللو مع ثلّة من الحرس، وهو يقول إن لم تفتح الباب فوراً فسيحطمه. إنهم يحملون المشاعل ولا أدري ماذا؟

قلت:

- أنزل وأخبرهم بأني أرتدي ثيابي ولن ألبث حتى أخرج إليهم.

وتصورت أنها مكيدة دُبّرت لقتلي كتلك التي نسج خيوطها (بيير لويجي) قبلاً. فتسلّحت بخنجر ماضي الحدين ووضعت كتاب الأمان في يدي اليسرى، ثم هرعت إلى النافذة الخلفية التي تطل على بعض الحدائق وتطلعت منها فوجدت أكثر من ثلاثين شرطياً في الأسفل. ولم أستحسن محاولة فرارٍ من هذه الجهة من الدار فعدت وسرت نحو الباب يتقدمني الخادمان الصبيّان وقد أمرتهما بفتح الباب عند إشارتي لهما بذلك. وقفت مستعداً متخذاً وضع الدفاع والخنجر في يمناي وكتاب الأمان في يسراي وقلت للصبين:

- والآن لا تخافا، إفتحا الباب.

وبسرعة البرق قفز البارجللو (ڤيتوريو Vittorio) متبوعاً بإثنين إلى الداخل لا شك

ظنّ أنه سيقبض عليّ بسهولة وبسرعة. وعندما وجدوا اني متأهب لهم نكصوا على الأعقاب وصاح البارجللو:

- ليس هذا من قبيل المزاح!

وعلى إثر ذلك قذفت إليهم بكتاب الأمان وطلبت منهم مطالعته. ثم صرختُ:

- لن أدعكم تلمسوني. فكيف بإعتقالي؟

أمر البارجللو بعض رجاله بالتقدم وإلقاء القبض عليّ. وأن لا يهتموا بأمر كتاب الأمان إلاّ فيما بعد. إلا أني دفعت يدي الممسكة بالخنجر إلى أمام جواباً على هذا وصحت:

- الله في عون صاحب الحق! إن لم تدعوني وشأني فستقبضون على جثة هامدة.

وامتلأت الغرفة بهم. وبدا وكأنهم يهمّون بأخذي عنوة واقتداراً، وأظهرت إستعدادي للنزال. بالأخير أدرك البارجللو أني مصمم على ما قلتُ. فبعث يستدعي كاتبه وطلب منه أن يتلو عليه نصّ كتاب الأمان. وتظاهر أثناء ذلك بأنه يهم بالقبض عليّ مرتين أو ثلاثاً إلاّ اني لم أغفل لحظة واحدة. أخيراً عدلوا عن محاولتهم ورموا كتاب الأمان وعادوا من حيث أتوا بدوني.

عدت إلى فراشي وقد بلغ إنفعالي حَدّاً أطار النوم من عيني وبقيت مؤرقاً حتى الصباح وقررت أن أفصد عِرْقاً حالما تبدو تباشيره، إلاّ أني رأيت قبل ذلك أن أستطلع رأي (جيوڤاني كاذي) فأشار عليّ بمراجعة طبيب من معارفه. وكان أوّل سؤال طرحه هذا عليّ هو هل استولى عليّ الخوف؟ ألا تصوّر لنفسك أي نوع من الأطباء هذا ليسألني هل استولى عليّ الخوف بعد أن وصفت له بتفصيل أحداث الليلة المرعبة التي مرت بي! لم يكن أكثر من مشعبذ سخيف دائم الضحك على التوافه وبدون داعٍ. وصف لي بتكشيرةٍ ضاحكة أن أشرب قارورة من الخمر اليونانية وأريح فكري وأقوّي من معنوياتي ولا أدع للخوف سبيلاً اليّ:

فقال له السيد جيوڤاني:

- أنت نفسك كنت ستصعق رعباً يا دكتور؛ حتى لو كانت بُنيتك مصبوبة من معدن البرونز أو الرخام فما بالك برجل من لحمٍ ودم؟

فأجاب الدّجال قائلاً:

- نحن يا سيدي العزيز من طينة مختلفة. ولم نخلق وكلّنا أشباه. وهذا الرجل ليس برونزاً ولا رخاماً لكنه صُبّ من الحديد.

ثم وضع أصابعه على نبضي. وضحك ضحكته البليدة الخرقاء وأضاف يقول:

- ضع يدك هنا. إنه ليس بنبض إنسان بل نبض أسدٍ أو تنينٍ!

كان نبضي في الواقع متسارعاً عنيفاً. وقد يكون بشكل لم يقرأ عنه هذا الطبيب في جالينوس وإبقراط[1] ولذا أدركت أيّ درجة من سوء الحال بلغتُ إلاّ اني خوفاً من انتكاسةٍ، تماسكت وتظاهرت بالنشاط وطيب المزاج. وفي أثناء ذلك أمر (كادي) بإحضار الطعام وجلسنا جميعاً لتناوله. وكان معنا فضلاً عن (جيوڤاني كادي) كلّ من (لودوفيكو دا فانو) و(أنطونيو اللكريتي) و(جيوڤاني كريكو) وكلهم من رجال العلم وجهابذته. فضلاً عن فتى في مقتبل العمر يدعى (آنيبال كارو) الذي امتاز بوسامة وَحدّة ذكاءٍ وجرأة. وكان كلّ الحديث أثناء الغداء يدور حول شجاعتي. وحملوا خادمي الصغير (جنجيو) على رواية القصة مجدداً وكان صبيّاً بهيّ الطلعة خفيف الروح سريع البديهة فمثّل حركاتي وسكناتي وكيف تأهبت للنزال بأدق تمثيل مردداً عن الكلمات التي قلتها وذكرني بتفاصيل كنت قد نسيتها وكرروا سؤالهم هل أدركه خوف هو نفسه؟ فأجابهم لا وعليهم أن يطرحوا السؤال على سيّدة هل أدركه خوفٌ. ذلك لأنه كان يشعر بنفس شعوري.

بدأت أضيق ذرعاً بهذه الثرثرة. وشعرت بانفعالٍ شديد فنهضت مبدياً رغبتي في الذهاب إلى السوق لشراء ثياب جديدة وحرير أزرق لي ولجنجيو. حتى نستعدّ للإنضمام إلى الموكب الذي سيسير يومُ العيد بعد أربعة أيام. وقلت لهم أيضاً إني قررت أن يحمل (جنجيو) أثناء المسيرة مشعلاً أبيض منيراً.

---

(1) Galen (130 ـ 200) طبيب وفيلسوف من بركاموم. كتب عدة رسائل وكتب في الطب والتشريح والعلاج. وأعتمده أطباء القرون الوسطى مرجعاً. إلى جانب سلفه ابوقراط اليوناني (460 ـ 377 ق.م) الذي يعتبر أبا الطب الحديث. لوضعه هذه الصناعة على أسس علميّة.

بعد مغادرتي مجلسهم ذهبت فابتعت حريراً أزرق وأمرت بتفصيله وخياطته ثياباً. ثم أوصيت بخياطة سترة زرقاء أنيقة وصدار صغير من قماش السرسنيت[1] وابتعتُ لـ(جنجيو) صداراً وسترة من الحرير الرقيق بلون أزرق أيضاً. بعد أن فرغت من هذا، ذهبت لرؤية البابا فأشار عليّ بمراجعة (السيد أمبروجيو Messer Ambrogio) الذي كان قد تلقى منه تعليمات حول أيصائي بعمل صحن كبير من الذهب.

وجدتُ (أمبروجيو) وتبيّن لي أنه كان مطلّعاً على تفاصيل حادث البارجللو وأنه كان متآمراً مع خصومي وقد دبرّ أمر استدعائي إلى روما. وأنه أشبع البارجللو لوماً وتأنيباً لأنه لم يعتقلني. وعلمت أيضاً أن البارجللو إعتذر محتجاً بأنه وقف مكتوف اليدين أمام (كتاب الأمان) المدون بمثل هذه الصيغة. وبدأ (أمبروجيو) يبحث معي في التعليمات التي أصدرها البابا بشأن مهمتي وطلب منيّ تهيئة التصميم في حين أنه سينظر في تزويدي بكلّ ما أحتاج. وعند حلول (عيد العذراء) قمت بزيارة للبابا مرة أخرى ولما كانت العادة المتبعة هي أن يسلّم المرشحون للعفو أنفسهم للسلطة ويوضعوا في السجن، فقد بيّنتُ للبابا بأني لا أرغب في أن ألقى في السجن ورجوت منه أن يدعني طليقاً. غير أنه أجاب: هذه هي عادة متبعة وعليّ أن أطبقها. فما كان منيّ الاّ أن جثوت على ركبتيّ ثانيةً شاكراً له (كتاب الأمان) الذي أصدره لي وقلت إني لأرغب في العودة إلى فلورنسا لأخدم دوقها الذي ينتظرني بفارغ صبرٍ. فاستدار البابا إلى جهةٍ بعد سماعه قولي وأمر واحداً من رجال حاشيته الموثوقين بقوله:

- فلينل بنفنوتو العفو دون إيداعه السجن. ولتتأكدوا من تنظيم جواز مروره وفق الأصول.

بعد أن كُتبتْ الوثيقة وقعها البابا وتمّ تسجيلها في الكابيتول[2] وفي يوم العيد شاركت في الموكب الإحتفالي بأعظم ما يمكن من التشريف سائراً بين إثنين من النبلاء ونلت العفو الكامل.

---

(1) قماش من النسيج الحريري الدقيق، يُجلب من الشرق. واسمه يدل عليه فكلمة سراسين هي تصحيف من (شرقيين)

(2) دار الحكومة في روما.

بعد أربعة أيام من هذا هاجمتني حمّى خبيثة ووجدت نفسي أرتجف برداً قارساً فلازمت الفراش حالاً وأنا موقن تماماً بدنو ساعتي الأخيرة، واستدعيت خيرة أطباء روما ومنهم (فرانشسكو نورجيا F. Norcia) وهو شيخ طاعنٌ في السنّ، يتمتع بأفضل سمعة في المدينة. شرحت لهؤلاء الأطباء ما كنت أعتقده سبباً لمرضي. وأضفت اني رغبتُ في بداية المرض أن ألجأ إلى الفصد وإخراج بعض الدم، لكن أشير عليّ بالاّ أعمد إلى ذلك. ثم إني رجوتهم أن يفصدوني حالاً إن لم يكن الوقت قد فات. ولكن الأستاذ فرانشسكو أجاب: لو تمّ الفَصد في ذلك الوقت لشفيتُ تماماً. أمّا الآن فلا فائدة منه. وإنهم سيلجأون الآن إلى وسائل علاج أخرى.

وبدأوا في تطبيبي، بكلّ ما يملكون من معارف لكن حالتي كانت تزداد سوءاً يوماً بعد يوم وبعد أسبوع تردت حالتي إلى الحَدّ الذي أيأس الأطباء منيّ وقالوا فليعط كلّ ما يشتهي دون قيد، فهذا ما يجلب له الراحة في ساعاته الأخيرة. وأردف (فرانشسكو) يقول:

ـ طالما فيه نفس يتردد، فلكم أن تستدعوني في أي وقتٍ إذ لا أحد يدري ما يمكن أن تصنعه الطبيعة من خوارق لرجل في مثل تركيبه. إن غاب عن الوعي فجرّبوا هذه العلاجات الخمسة فيه، واحداً بعد الآخر بالترتيب وبعدها راجعوني وإني مستعدٌ للمجيء في أي ساعة من ساعات الليل. إني لأفضلّ إنقاذه على إنقاذ اي كردينال من روما.

وواظب (السيد جيوڤاني كادي) على عيادتي مرتين أو ثلاثاً في اليوم الواحد. ودأب حال مجيئه على تقليب وتفحص أسلحتي الجميلة، من بندقيات صيد أو دروع أو سيوف متمتماً:

ـ هذه قطعة جميلة الصنع حقاً! وهذه أبدع! وهذه.

وكان هذا شأنه أيضاً مع تصاميمي وغيرها من مقتنياتي الصغيرة، فكاد بذلك يسلمني إلى الجنون حتى ضقت به ذرعاً وكان يأتي برفقة المدعو (ماتيو فرانزيسي Mattio Franzesi)(1) الذي كان يبدو منزعجاً لأني أصارع الموت بهذه القوة وآخذ منه

(1) شاعر معروف محبوب جداً في الأوساط الأدبية آنذاك لخفة روح ولطف نكته.

وقتاً طويلاً، ليس طمعاً في مغنم من موتي بل لأنه كان يرغب في أن يحصل (جيوڤاني) على مايتمناه.

كان شريكي (فيليجي) الذي أتيت إلى ذكره قبلاً يلازم فراشي، مقدماً خدماته وباذلاً عونه بتفانٍ لا نظير له. كنت في أقصى حالات الضنى والاضمحلال جسمانياً يصعب جداً إلتقاء أنفاسي. إلاّ اني بقيت صافي الفكر، مستوفز العقل حاضر الذهن كسابق أيام صحتي. ومع ذلك ففي ذات يومٍ ظهر بالقرب من سريري رجل مسنّ مرعب الهيئة وحاول أن يسحبني بالقوة إلى سفينته الكبيرة. فصرخت مستنجداً بفيليجي وناشدته أن يدفع غائلة هذا اللئيم عني. فهرع اليّ وكان يكنّ لي أعظم الحبّ وصرخ والدموع تسيل من عينيه:

ـ أخرج أيها الخائن الغدّار، الذي يريد أن يستلب كلّ ما عندي.

فعقّب كاذي الذي اتفق وجوده آنذاك بقوله:

ـ صاحبنا المسكين يهذي! لم يبق له من الحياة غير ساعات قليلة.

وأضاف (ماتيو):

ـ لا شكّ وأنه قد قرأ (دانتي)[1]. والآن وهو مريض جداً. أفلت منه زمام عقله وراح يتجول على غير هدى.

ثم ضحك وصاح:

ـ إنصرف عنّا أيها النذل العجوز ولا تزعج صديقنا بنڤنوتو!

كانا يسخران مني في الواقع، فالتفتُ إلى (جيوڤاني كادي) وقلت له:

ـ سيدي العزيز أوكد لك أني لا أهذي فهناك رجل عجوز فعلاً يعذبني، إلاّ أن أفضل خدمة يمكنك أن تقدمها لي هي أن تخلصني من هذا الجرذ الصغير الذي يهزأ بمصابي. وإن شرفني سيادتك بزيارة أخرى فلتصطحب السيد أنطونيو الليكرتي أو

(1) يقصد ملحمته الشهيرة الكوميديا الالهية.

السيد أنيبال كارو. أو أي واحدٍ من أصحابك الغرّ الميامين ذوي المواهب وسمو الذوق الذين لا يتصرفون كالوحوش.

وعندها أمر جيوڤاني رفيقه (ماتيو) على سبيل المزاح بأن يغادر المنزل ولا يأتي بعد هذا. ولما استمرّ (ماتيو) في ضحكه وعبثه انقلب المزاح جداً وآل (جيوڤاني) على نفسه أن يقطع كل صلةٍ به. ثم أرسل يستدعي اللكريتي ولودوفيكو أنيبال كارو بدلاً عنه. وقد شعرت براحة تامة عندما احتوى مجلسنا هؤلاء الرجال الممتازين حتى إني حدثتهم بشكل معقول إلاّ إني كنت أواصل الإلحاح على فليجي بطرد الشيخ العجوز عني. وسألني (لودوفيكو) عمّا أراه أو أتخيله بالضبط وطلب مني أن أصفه. وفيما أنا أقوم باعطاء صورة له أمسك العجوز بذراعي وجذبني إليه جذبة عنيفة فصرخت مستنجداً بهم قائلاً إنه يريد القائي في قاربه الرهيب. ثم فقدت الوعي حالاً متخيلاً أني ملقى في بطن القارب فعلاً. وقد أخبروني بعد ذلك أني كنت في نوبةٍ أنتفض وأهتزّ وأسلق جيوڤاني بهجر القول والسباب قائلاً إنه لا يأتي إلاّ لسرقتي لا حباً بي. وبهذا السباب وتلك التهم إحمرّ وجهه خجلاً وعاراً. ثم قالوا إني انقطعت عن الهذيان وخمدت حركتي تماماً فظنوا أني لفظت آخر أنفاسي. ومكثوا معي أكثر من ساعة حتى بدأ جسمي يتصلّب فحسبوني ميتاً وتركوني. وعند عودتهم إلى منزلهم أبلغوا النبأ (ماتيو فرانزيسي) الذي أسرع بالكتابة إلى صديقي العزيز (بنيدتّو فاركي) في فلورنسا. قائلاً انهم رأوني أودع الحياة في الساعة كذا وكذا من الليل. فما كان من هذا العبقري والصديق الصدوق الاّ أن نظم قصيدة رثاء رائعة، أوحاها له نبأ موتي المزعوم وسأثبتها هنا فيما بعد.

مرت ثلاث ساعات بطولها ولم أعد إلى وعيي وجرّب بي (فيليجي) كلّ العلاجات التي أوصى بها الطبيب (فرانشسكو) ولما وجد أني لم أفق. هرع إلى الطبيب بأسرع ما تنقله قدماه وأنشأ يطرق بابه طرقاً متواصلاً حتى أبعده عن سريره. وطلب منه ضارعاً والدموع تجري على خديه أن يأتي معه إلى المنزل حيث كنت جثة هامدة.

فأجاب فرانشسكو بعد سماعه هذا وكان حادّ الطبع :

ـ ماتراني فاعلاً يا بنيّ وماذا يجدي مجيئي الآن؟ إن مات فإنّي حزين عليه أكثر منك. لكن أتظنّ اني لو جئت معك حاملاً كلّ طبي ـ سأتمكن من إعادة الحياة إليه، بدفع الأنفاس إلى دبُره؟

وإذ رأى الفتى البائس يبتعد عنه باكياً رق قلبه وناداه وأعطاه زيتاً ليدهن به صدري ورسغيّ. وأوصاه بأن يقرص أصبع قدميّ ويديّ الصغيرة بشدّةٍ فإن عدت إلى رشدي فعليه أن يرسل في استدعائه حالاً. ففعل (فيليجي) كلّ ما أوصي به إلاّ أن الصبح انبلج تقريباً دون أن تبدو بارقة من الأمل فيّ. فصدرت الأوامر بتفصيل الكفن ونُبّه الغاسل بالإستعداد لغسل الجثة. لكنني عدت إلى نفسي فجأة. وناديت (فيليجي) ليأتي ويطرد عني الشيخ الذي يحاول إيذائي. أراد فيليجي أن يستدعي الطبيب إلاّ أني طلبت منه البقاء بجانبي بدل ذلك لأن الشيخ يبتعد عنه خائفاً منه على ما يظهر. وعندما مسست يد فيليجي رأيت الشيخ يلوذ بالفرار وهو مستشاط غيظاً. فعدت أتوسل به أن يبقى قريباً مني.

وبعد برهة أقبل الأستاذ فرانشسكو وقال إنّه قد صمم تصميماً لا رجعة فيه على شفائي مهما كلفه الأمر! وأنه لم يجد في أي شاب قوة احتمال كتلك التي أظهرتُها. وكتب وصفةً تتضمن عطوراً ومحاليل ومروّخات ولبائخ وأنواعاً مختلفة أخرى. وأفقت لأجد أكثر من عشرين عَلَقة طبية لاصقة بظهري وشعرت وكأني أُثقب وأُكسّر وأُسحق. واجتمع حولي عدد كبير من الأصدقاء ليشهدوا معجزة عودة الحياة اليّ. وكان بينهم نفرٌ عديد من علية القوم. وفي محضرٍ منهم أعلنتُ وصيتي فأمرت بأن يعطي (ليبراتا) أختي المسكينة في فلورنسا كل ما أملكه من ذهب قليل يناهز ثمانمائة كراون بين عملة فضيّة وذهبية ومصوغات وتبرٍ. أما بقية تركتي وبضمنها سلاحي فقد أوصيت بها إلى فيليجي العزيز فضلاً عن إيصائي له بخمسين دوقية ليبتاع بها ثياب حداد. وبسماعه هذا ارتمى عليّ وأحاطني بذراعيه قائلاً إن كلّ ما يرغب هو أن أعيش، فقلت:

ـ إن كانت هذه رغبتك فامسك بي كما فعلت قبلاً وأمنع عن هذا الشيخ الذي يخشاك.

فداخل الخوف بعض الموجودين حتى كادوا يخرجون عن وعيهم. إذ كانوا على ثقة بأني مالك زمام عقلي الآن وإن كلامي صادر عن صفاءٍ في الذهن لا عن هذيان.

إمتد بي المرض إلاّ أن صحتي أخذت تميل إلى التحسن وواصل فرانشسكو الطبيب عيادتي بمعدل خمس مرات في اليوم الواحد. إلاّ أن (جيوڤاني) الذي كان يشعر بالخجل إنقطع عن زيارتي تماماً. ووصل زوج أختي (ليبراتا) إلى روما قادماً من فلورنسا ليقبض الميراث، إلاّ انه كان في غاية اللطف والطيبة إذ فرح جداً بإبلالي. وقد سررت برؤيته وشعرت براحة نفسية يقصر لساني عن وصفها. وبرهن لي على حبّه الصادق إذ أكّد أنه ما جاء إلاّ ليعنى بي ويتولى تمريضي بنفسه وقد قام بذلك فعلاً عدة أيام وبعد أن أصبح شفائي مؤكداً أعدته إلى فلورنسا.

عند سفره دفع لي بمرثية السيد بنديتو فاركي التي نظمها إثر سماعه بنبأ موتي وها هي ذي:

(في الموت الكاذب المزعوم لبنفنوتو چلليني)

أي (ماتيو)[1]! من سيعزّينا؟ من سيطلب من مآقينا

أكف عن ذرف الدموع فوق نعشه؟

آه من الحقيقة المرّة. إنه تركنا في هذه الدنيا بعجلة الشباب

ليعرج إلى السماء ويتخذها منزلاً. ايه أيتها الروح الصديقة النقية.

ليس في الفن من يباريك. فقد أصبت القدح المعلى. ولم يبذك منافس وفي هذه الدنيا التي لم تشهد لك نظيراً. يكون خير من فيها أسبق من غيره إلى وداعها.

أيتها الروح السامية أنظري إلينا من علاك واضرعي لأجلنا إن كنت

تشعرين بحبّ لنا، فنحن أقصر عن استجلاء الحقيقة من خلال الضباب الذي يحفّ بنا.

أنا لا أبكي سعادتك لكنني أبكي سقمي وأنت الآن ومجلسك في السماء

---

(1) المخاطب هو ماتيو فرانزيسي الذي كتب للشاعر ينبئه بوفاة چلليني.

تشخص بإبصارك إلى الإله القدير وتراه وجهاً لوجه

ذلك الذي أظهرت أسمى عبقريتك البشرية في تصوير خياله[1].

كان دائي عُضالاً حتى خيل لي اني لن أبرح الفراش أبداً. ولم يكلّ ذلك الطبيب الفاضل (فرانشسكو نورجيا) ولم يملّ. كلّ يوم يأتيني بعقّار جديدٍ مجاهداً في تقوية هيكلي المنهوك. ومع كل مجهوده هذا بدا وكأن الوهن لا يتطرق إلى المرض الذي إبتليت به. وبنتيجة هذا كاد كل الأطباء المعالجون يدركهم اليأس. وتحيروا فيما يفعلون. كنت أشعر بظمأ قاتل إلا اني امتنعت عن شرب الماء بناءً على أوامرهم أياماً عدةً. ولم يبرح فيليجي مكانه بقربي وكان جِدّ مغتبط لأنه وفق في إنقاذ حياتي. وقلّت مضايقة الشيخ لي وإن كان يزورني أحياناً في أحلامي. وفي ذات يوم تركني (فيليجي) لأمر ما بعد أن أوصى أحد خِلفنا وخادمة تدعى (بياتريس) بالسهر عليّ. وسألت الخلفة ماذا حَلّ بصبيّ الدكان (جنجيو) ولماذا لا أراه وأنا في حاجة إليه؟ فقال إن الصبيّ أشدّ مرضاً مني وقد أشرف على الموت. وكان (فيليجي) قد أوصاهم بكتمان ذلك عني. فزاد انفعالي وجاشت نفسي عند سماعي ذلك ثم ناديت الخادمة بياتريس التي كانت من أهل (بستويا) وطلبت منها أن تأتي بالمبردة البلورية الكبيرة المملوءة بالماء القراح الموضوعة هناك. فركضت إليها حالاً وجاءتني بها وهي ممتلئة حتى الحافة. وأمرتُها أن تدنيها مِن فمي قائلاً إن تركتني أشرب ملء فمي منها فإني سأبتاع لها ثوباً.

كانت هذه الخادمة قد اختلست من المنزل أشياء صغيرة ذات قيمة عندي ولخوفها من افتضاح أمرها كان يسّرها أن تراني ميتاً. ولذلك جاءتني بالقارورة مرتين وتركتني أشرب قدر ما أمكنني من الماء واحتسيت أكثر من قارورة ثم جذبت الأغطية عليّ وبدأت أنضح عرقاً ورحت في نوم عميق.

بعد ساعة من الزمن عاد (فيليجي) وسأل الخلفة عن حالي فأجابه:

---

(1) هنا تنويه بتصوير چلليني للذات الإلهية في عروة زنار البابا كليمنت. وفي المخطوطة الأصلية للمذكرات تجد هذه القصيدة مذيلةً بتوقيع (فاركي).

ـ لا أعلم. جاءته (بياتريس) بتلك القارورة مملوءة ماءً فأفرغ كل ما فيها تقريباً في جوفه. ولا أدري الآن أهو حيّ أو ميّت.

قالوا لي إن (فيليجي) كاد يقع مغشياً عليه من فرط الأسى. وأسرع فتناول عصاً غليظة وراح يضرب الخادمة بجنون وهو يصرخ:

ـ الويل لك أيتها الغادرة. فقد قتلته؟

فيما كان (فيليجي) يهوى عليها بالضربات الموجعة وهو تعول باكية، كنت أنا مستغرقاً في حلم. خيل لي إني أرى الشيخ وقد أقبل عليّ بحبال في يده يريد ربطي فيظهر له فيليجي ويصول عليه وبيده بلطة حرب فيفلت الرجل الأثيم منه صارخاً:

ـ أتركني الآن، ولن تراني لمدة طويلة.

في تلك اللحظة إندفعت (بياتريس) إلى غرفتي وهي تصرخ بأعلى صوتها. فأيقظتني وهتفتُ:

ـ دعها وشأنها. فبدلاً من سوء قصدها في عملها هذا، ربّما جاءني منه نفع كبيرُ والآن تعال وساعدني فقد أبتلّ كلّ جسمي بالعرق. ألا أسرع بربك.

هدأ (فيليجي) وأضاء وجهه بشراً. ثم نشّفني وأصلح وضعي. فشعرت بتحسّن كبير جداً. عاهدت نفسي على الشفاء. ولحظ الأستاذ فرانشسكو في بكاء الخادمة وجريان الصبي هنا وهناك والضحكات التي يطلقها (فيليجي). كل هذا حمل الطبيب على الإعتقاد أن شيئاً خلاف العادة قد حصل وكان سبباً في التحسن الذي طرأ عليّ. في أثناء ذلك دخل الطبيب الآخر (برناردينو) الذي رفض في البداية أن يعمد إلى فصدي وقال فرانشسكو ذلك العالِم المفضال:

ـ ألا مرحى لقوى الطبيعة. إنها تعرف ما نحتاج والأطباء لا يعرفون شيئاً.

وأضاف ذلك الطبل الأجوف برناردينو حالاً:

ـ لو شرب ملء قارورة أخرى لشفي الساعة.

إلاّ أن الأستاذ فرانشسكو الذي كان كبير السنّ والطبيب الواسع المعرفة قال:

ـ سيكون ذلك مصيبة عظيمة. وآمل من ربي أن تحصل لك.

ثم التفت اليّ وقال لي أكان بوسعي أن أشرب أكثر مما شربت. فأجبت بالنفي لأني أطفأت ما أشعر به من الظمأ تماماً. وعندها توجه إلى (برناردينو) ليقول:

- أترى كيف أن الطبيعة نالت كفايتها بالضبط لا أكثر ولا أقلّ؟ وبنفس الشكل كانت تطلب حاجتها عندما سألك هذا الشاب أن تجري له عملية فصدٍ. لو عرفت في حينه أنه بحاجة إلى شرب قارورتين من الماء ليتحقق له الشفاء فلماذا لم تشر عليه بها. فيكون لك كل الفضل؟

وانصرف هذا الدجّال وهو يكاد ينشق غيظاً ولم يرني وجههُ مرة أخرى. ثم أشار الأستاذ فرانشسكو بوجوب نقلي من الغرفة التي أنا فيها وبضرورة أخذي إلى أحد تلال روما. وسمع الكردينال كورنارو بشفائي فأمر بأن أنقل إلى واحد من منازله في مرتفعات (كافاللو) وفي مساء اليوم نفسه جرى نقلي على كرسيّ بكلّ عناية مدثراً بالأغطية. وما أن وصلت حتى بدأت أتقيأ ووجد في القيء دودة يكسوها الشعر طولها حوالي خمسة إنشات. وبدت في غاية القبح بشعرها الطويل وببقع مختلفة الألوان مع أخضر وأسود وأحمر وما إليها. فحُفظت لتعرض على الطبيب الذي صاح مشدوها بأنه لم ير مثل هذه قط، وقال لفيليجي:

- اعتن بصديقك (بنفنوتو) بعد شفائه. ولا تدعه يتعرض إلى أزمة. إذ مع انه نجا فإن أي انتكاسة أخرى قد توردِه حتفه. ها أنت ترى كيف كان مرضه شديداً بحيث لو جئنا له بالإسرار الأخيرة لما ادركناه بها. وأنا واثق الآن بأنه سيعود إلى إنجاز أعماله الجميلة بعد قليل من الصبر وبمرور فترة قصيرة من الزمن.

ثم التفت اليّ وأردف قائلاً:

- عزيزي بنفنوتو، كن معقولاً، ولا تنغمس أو تفرط في تعاطي الملذات. وعندما يتمّ شفاؤك أريد أن تصنع لي تمثالاً للسيدة العذراء بيديك. إذ اني أريد أن أصلي لها منذ اليوم بسبب حبّي لك.

فوعدته بذلك ثم سألته ألا تؤهلني حالتي للسفر إلى فلورنسا؟ فقال يجب عليّ أن انتظر حتى تزاد صحتي تحسّنا. وعندئذ سنرى فعل الطبيعة فيك.

بعد مرور أسبوع لم يطرأ على صحتي تحسن كبير. حتى ضقت ذرعاً بنفسي فقد تحملت العذابَ الرهيب أكثر من خمسين يوماً.

لذلك صحّ عزمي على السفر وتأهبت لذلك فإنطلقت إلى فلورنسا انا وعزيزي (فيليجي) بمحفّتين. ولم أكتب لأحدٍ بنيتي فلما وصلت منزل أختي أخذت تضحك وتبكي في آن واحدٍ.

وتقاطر عدد كبير من الأصدقاء لزيارتي يوم وصولي، وفي مقدمتهم (بييرو لاندي) أعزّ صديق عندي وأقربهم إلى نفسي في هذه الدنيا.

وفي اليوم التالي حظيت بزيارة صديق آخر وهو (نيقولو دا مونتي أكوتو). وكان قد سمع الدوق يقول:

- كان خيراً لبنفنوتو لو قضى نحبه. فقد جاء هنا ليضع حبل المشنقة في عنقه. فلن أغتفر له ما فعل أبداً.

وبعد أن أنذرني نيقولو أردف يقول بلهجة اليائس:

- قل لي ما الذي دفعك إلى المجيء يا بنفنوتو؟ الا تدري كم أحفظت الدوق عليك باستصغارك له؟ وبأذني هذه سمعتُه يقول مقسماً بأنك تضع الحبل في عنقك. فأجبت:

- أي نيقولو! أرجوان تذكّر سموّه بأن البابا كليمنت أراد مرّةً أن يفعل عين الشيء بي وكان مخطئاً بقدر ما كان الدوق مخطئاً. قل له بأني أحتاج إلى العناية والتمريض وأن يدعني أستردّ عافيتي. وعند ذلك سأبرهن له أنه لن يجد مثلي خادماً مخلصاً طول حياته. لا بدّ وأن عدّواً حسوداً أوغر صدره عليّ، ألا فلينتظر حتى اتعافى وعندئذ سأكون في موقف أستطيع به تقديم حسابٍ عن نفسي سيصيبه بالدهشة.

فعلاً كانت هذه الوقيعة من عمل وسعي الأريزي[1] جورجيو ڤاساري ربّما ردّاً للجميل الذي صنعته له. فقد إستضفته في روما ودفعت عنه مصاريفه ولأقل الحقيقة إنه قلبَ منزلي رأساً على عقب. ذلك لأنه كان يشكو حكّة جلديّة مزمنة كاد لها يمزّق

(1) نسبة إلى (أريزّو Arizzo) وهي بلدة تبعد حوالي 85 كيلومتراً عن فلورنسا وتقع إلى الجنوب الشرقي منها.

لحمه من كثرة الهرش المستمر بيديه. كان قد شاطر الفراش المدعو (مانّو Manno) أحد صُنّاعي وهو إنسان أنيس رقيق الطبع. فراحَ يسلخ جلد ساقي (مانو) ظانًا أنه يهرش ساقيه بمخالبه الصغيرة القذرة التي لم يكن يقلّمها قطْ.

فترك (مانو) الخدمة لديّ مقسماً بأنه سيقتله. إلاّ أني سويت الأمور فيما بينهما وصالحتهما. ثم إني سعيت له فظفرت له بمنصب عند الكردينال دي مديتشي. ولم أتوان قطّ عن مساعدته في هذا الأمر أو ذاك[1].

وبمقابل كلّ هذا سعى بي إلى الدوق قائلاً إني تخرصت بكلام السوء على سموه، وفخرت بأني سأكون أوّل من يعلو أسوار فلورنسا مع مبعدي الدوق وخصومه. وبحسب ما بلغني فيما بعد أن (أوتافيو دي مديتشي) الذي أراد أن يصيب ثأره مني بعد غضب الدوق عليه بسبب سك العملة وسفري من فلورنسا، قام بتلقين (جيورجيو ڤاساري) كل هذه العبارات ونقلها هذا إلى الدوق.

ولما كنت بريئاً من هذا تهمة الغدر التي ألصقوها بي لم أشعر بأي قدر من الخوف وعالجني الطبيب القدير (فرانشسكو دا مونتيفاركي F. da Montevarchi) بكل حذق. جاءني به صديقي العزيز (لوكا مارتيني) الذي كان يلازمني أغلب ساعات النهار.

أرسلت صديقي المخلص (فيليجي) إلى روما للإشراف على الأعمال هناك. وبعد أسبوعين عندما وجدت نفسي قادراً على رفع رأسي عن المخدّة قليلاً. وإن لم أكن أقوى على الوقوف. رتبتُ أن أُحمل بمحفةٍ إلى قصر مديتشي ووُضعت في الشرفة الصغيرة العليا وتركت هناك منتظراً مرور الدوق. وأقبل عددٌ لا يستهان به من موظفي القصر أصدقائي يجاذبونني أطراف الحديث. وقد أدركهم العجب لإصراري على تكبد مشقة المجيء وأنا في مثل هذه الحالة من السقم والهزال. وقالوا كان عليّ الإنتظار

---

(1) جيورجيو ڤاساري (1512 ـ 1574) رسّام وكاتب سير الفنانين الإيطاليين وبسفره الجليل هذا اشتهر. كانت كتابته عن چلليني (وإن لم يفرد له فصلاً خاصاً) منصفة لطيفة رغم الخلاف بينهما. كذلك ذكر الصائغ (مانو) بالخير وهو عين من جاء ذكره في هذه الحكاية الغريبة.(قمنا بنقل كثير من التعاريف بالفنانين الوارد ذكرهم هنا من كتابه)

حتى تنصلح حالي ثم أزور الدوق. وتجمع عدد كبير من الناس يتطلعون اليّ كأنما يتطلعون إلى معجزة لا لأنهم سمعوا بموتي فحسب، بل لأني كنت في ذلك الوقت أبدو كجثة ميت.

وبمحضر منهم جميعاً شرحت كيف أنّ أحد لأنَذال الأشرار أبلغ سموّ الدوق بأني فخرت بقولي: سأكون أول من يعلو الأسوار على سموّه. وإني تطاولت عليه بهجر القول أيضاً. وبنتيجة ذلك صارت حياتي وموتي سيّان عندي حتى أبرئ نفسي من هذه التهمة الشنعاء وأتوصل إلى معرفة ذاك الواشي البذيء اللسان الذي افترى عليّ بهذه الأكذوبة. وكان بين الحضور الذين أصغوا إلى أقوالي عدد كبير من وجهاء المدينة وأشرافها فعبروا عن شديد عطفهم وعقب أحدهم بشيء وعلق ثانٍ بشيء آخر. وكررت أني لن أبرح هذه البقعة حتى أكتشف هوية الشخص الذي إتهمني. وعندها شقّ خياط الدوق الأستاذ (أوكسطينو) الجمع الملتف حولي من السادة.

واقترب منيّ قائلاً:

- إن كان هذا كلّ ما تريد معرفته. فبإمكاني إرشادك إليه في هذه الدقيقة.

وفي تلك اللحظة بالذات شاءت الصدف أن يمرّ الرسام (جيورجيو)، فهتف (أوكسطينو):

- هذا هو الرجل الذي وشى بكَ. وأنت أعرف الناس بصحة التهمة أو زيفها.

ولعجزي عن الحركة سألت (جيورجيو) بأشد وأعنف لهجة: أصحيح ما قيل عنه؟ فأنكر قائلاً إنه ليس بصحيح وإنه لم يقل شيئاً من هذا لقبيل، فردّ عليه (أوكسطينو) قائلاً:

- قبحك الله يا طير المشنقة! أما تدرك بأني متأكد من كونك القائل؟

فأسرع (جيورجيو) موليّاً دبراً وهو يردد قائلاً «كلاّ إني لم أقدم على شيء من هذا» وبعد قليل مرّ الدوق فرُفعت قليلاً حتى يلحظني سموّه فتوقف. وعندما أعلمته أني جئته بهذا الوضع لتبرئة نفسي. فبحلق بي وأظهر عجبه من بقائي على قيد الحياة. ثم أوصاني أن أكون كما كنت رجلاً مستقيماً وأن أعمل على استعادة صحتي.

بعد عودتي إلى المنزل لحق بي (نيقولو دا مونتي أكوتو) وكان يبحث عني ليقول

لي إني نجوت من أشدّ عاصفة رآها، وهو يكاد لا يصدق بعد أن رأى مصيري المحزن يكتب بحبرٍ غير قابل الزوال. والآن وبعد زوال الخطر، ما عليّ الا أن أعنى بصحتي حتى إذا استرددتها عليّ أن أسرع بالرحيل عن فلورنسا لأني مهددٌ من جهة ما وهناك رجل معّين قادر على إيقاع أعظم الأذى بي وأردف يقول: يجب عليك أن تتخذ الحيطة التامّة لنفسك. ثم انتقل فجأة ليسألني:

- أي نوعٍ من الإهانة الحقتَ بذلك الوغد الكبير (أوتافيو دي مديتشي)؟

فأجبت: لم أسئ إليه قطّ غير أنه أساء اليّ كثيراً. وقصصت عليه تفاصيل ما وقع لي معه في دار الضرب.

فقال:

- ارحل بأسرع ما يمكنك، لكن لاتهتمّ فستنال ثأرك بأسرع ماتظنّ.

فركزت اهتمامي باستعادة قواي. وزودت (بييترو باكولو) بتعليمات حول سكّ العملة ثم بارحت فلورنسا قاصداً روما دون كلمة اقولها للدوق أو غيره.

قضيت في روما ردحاً من الوقت اروّح فيه عن نفسي مع الأصدقاء، ثم إستأنفتُ عملي في ميدالية الدوق. وأكملتُ الرأس في أيام معدودة وطبعته على الفولاذ فكان أدق عمل أنجزته من هذا النوع. وكان يكثر التردد إلى دكاني (مرة واحدة يومياً على الأقل) شخصٌ مغفّل كثير الحمق يدعى (فرانشسكو سوديريني)[1] وشاهد مرة أو مرتين ما بيدي من عملٍ فأبدى ملاحظته التالية:

- ما أقساك أيها الرجل إذ تريد تخليد هذا الطاغية الوحش الضّاري. وبما أنك لم تصنع شيئاً من قبل بمثل هذا الجمال. فلا بدّ وأن تكون عدوّنا اللدود بقدر ما أنت صديقهم الحميم، مع أنه هو والبابا أرادا شنقك مرتين دون سببٍ. ذلكم هو فعل الأب والإبن وعليك أن تنتظر ما سيحل بك على يد روح القدس.

والشيء بالشيء يذكر إن الإعتقاد السائد أن الدوق السائدرو هو ابن للبابا كليمنت[2] وحلف (فرانشسكو) أيضاً أنه لو إستطاع لو استطاع لسرق قوالب الميدالية.

---

(1) من خصوم آل مديتشي. نفي إلى سيللو في العام 1530.

(2) هذا هو الشائع. لكن البعض يقول إن أباه هو لورنزو دوق أوربينو.

فأجبت: حسناً فعل بمصارحتي. فسأعمل جهدي على أن لا يقع نظره عليها بعد الآن.

ثم أعلمت ذوي الشأن في فلورنسا بأن يبلغ لورنزو بوجوب إرسال تصميم ظهر الميدالية. فأجاب (نيقولو دي مونتي أكوتو) الذي كتبتُ له بأنه سأل ذلك المتفلسف السوداوي المجنون (لورنزو)، فكان جوابه أنه لم يفكر بأيّ شيء غير هذا فهو لا يبارح خياله ليلاً أو نهاراً وأنه سينجزه حالما يكون قادراً على ذلك. وأضاف نيقولو ينصحني بألاّ أعتمد على هذا الهُراء وأن أتولى عمل تصميم بنفسي. وبعد إكماله أقوم بحمله إلى الدوق بلا وجل أو تردد وسيعود عليّ هذا بالنفع الكبير.

بعد أن صنعت ما اعتقدته تصميماً مناسباً للظهر، تقدمت في العمل بما أمكنني من الدقة والعناية. ولم أكن بعد قد أبللت إبلالاً تاماً من مرضي، لذلك كنت أتلهّى بالقيام بجولات صيدٍ مع عزيزي (فيليجي) وكان بقدر ما يتعلق الأمر بمساعدتي في فني، شخصاً لا أمل فيه وقضية ميؤوس منها. لكن لما كان يُرى دائماً في صحبتي ليلاً ونهاراً فقد حسبه الجميع بأنه صانع حاذق!

كان إنساناً خفيف الظلّ طيب المعشر إلى أقصى حدّ ولذلك كنا نستوفي حظنا من الضحك على السمعة العظيمة التي نالها. وبما أنه كان يدعى (Felice) أبن كوادني (Gaudagni) فقد اعتاد أن يمزح بقوله «كنت سأسمي نفسي (فيليجي كوادانيي - بوكو) لو لم تكسبني مثل هذه السمعة العظيمة التي مكنتني من أن أطلق على نفسي (فيليجي كواداني - أسّاي)[1] لو لم تكسبني هذه السمعة العظيمة. فقلت له هناك طريقان للكسب: أولاهما أن يكسب المرء ليدّخر لنفسه وثانيهما هي أن يكسب المرء ليدّخر للآخرين. وقد مدحته لأنه اختار الثانية وفضلها على الأولى بكثير. ذلك لما ادخره لي من جهد أنقذ به حياتي. كان هذا ديدننا دائماً نتبادل الحديث الطليّ فيما بيننا. وأذكر بصورة خاصة يوماً ما في حدود عيد الغطاس[2] حيث كنا معاً بالقرب من لاماليانا La

(1) كلمة Gaudagni بالأيطالية تعني ربح أو كسب. وعليه يكون المعنى المقصود بالتركيب Gaudagni Poco = ربح ضئيل. وتركيب Gaudagni Assai = ربح كبير.

(2) ويقع في السادس من كانون الثاني. وهو يوم ذكرى غطاس السيد المسيح ومجيء المجوس إليه. والتسمية يختلف باختلاف بلاد النصرانية.

Magliana والساعة تقترب من الليل. في ذلك اليوم اصطدت ببندقتي عدداً كبيراً من البط والاوز، وعندها هممت باتخاذ القرار بالعودة وبدأنا نسلك الطريق إلى روما. ناديت كلبي (باروكو) فلم أجده أمامي. فألويت العنان لأرى هذا الحيوان الحسن التدريب يرقب سرباً من الأوز حَطَّ لتوّه في ساقية. فترجلت في الحال وحشوت بندقيتي وأطلقت النار من مسافة بعيدة وأصبت إثنين برصاصة واحدة. كنت أكره إستعمال أكثر من حشوة رصاص واحدة، وكان بإمكاني الإطلاق من مسافة ثلاثمائة قدم تقريباً لأصيب هدفي في أغلب الأحيان. وطريقتي هي الوسيلة الوحيدة للتأكد من النجاح. على كلٍّ كانت واحدة من الوزتين مشرفة على الموت. والأخرى جريحة وهي تحاول الطيران فأسرع الكلب إلى الأولى وجاء بها. ولمحت الثانية تسقط في الساقية فوثبت إليها معتمداً على حذاء الركوب الطويل، ومددت قدماً فغاصت في الطين وامتلأت رجلي بالماء رغم أني أمسكت بالأوزة. ثم رفعت رجلي إلى أعلى وأفرغت منها الماء وركبنا عائدين إلى روما بأسرع ما أمكننا. كان البرد قارصاً حتى أني أحسست بساقي وهي تكاد تتجمد فناديت (فيليجي) بقولي:

- فلنتدبر أمراً لساقي. إذ لا طاقة لي بتحمّل هذا.

فترجّل (فيليجي) وبشهامته المعهودة ومن دون أن ينطق بكلمة واحدة، راح يجمع حطباً وأعشاباً ليوقد ناراً. وفيما أنا بانتظاره دسست يدي في صدر الأوزة فوجدته دافئاً. وبملاحظتي هذا أوقفته. وبادرت إلى حشو جزمتي بريش الأوزة. فشعرت فوراً براحة عظيمة. وانتعشت نفسي.

امتطينا حيوانينا وغذذنا السير إلى روما. وكان الليل قد أدركنا وصعدنا نشزاً في الأرض وأرسلنا أبصارنا إلى جهة فلورنسا. وأطلقنا معاً هتاف عجب ودهشة:

- يا إله السماء! أي شيء هائل هذا الذي نراه فوق أفق فلورنسا؟

كان ما رأيناه يشبه شعلة نارٍ عظيمة جداً. نوراً ساطعاً في السماء. قلت لفيليجي:

- سنسمع غداً ولا شك بحدث عظيم وقع في فلورنسا.

كان الظلام حالكاً عندما احتوتنا أسوار روما واقتربنا من الضفة والمنزل وكان حصاني ينطلق بي بسرعة الريح. ولذلك لم نر لا أنا ولا الحصان أكداس الأنقاض

والجص والآجر المكسّر التي كوّمت في وسط الشارع. فاصطدم حيواني بها صدمةً عنيفة وعثر ثم كبا بي ورأسه بين أماميتيه. وكان فضلٌ من الله أن خرجت سليماً لم أصب بخدش. وأسرع الجيران يحملون المشاعل بضوضاء وجلبة. إلاّ أني انتصبت واقفاً وواصلت السير من دون ركوب حتى منزلي وأنا أضحك متعجباً كيف سلمت بعد أن كاد يدقّ عنقي. ووجدت بعض الأصدقاء في داري فجلسنا نتناول العشاء ورحت أقصّ عليهم حوادث اليوم ونجاتي وعن العلامة المشؤومة من النور التي رأيناها. فراحوا يتساءلون:

ـ ماالذي ستسفر عنه هذه العلامة غداً؟

فقلت:

ـ لا شك أنها تشير إلى حادث جلل وقع في فلورنسا.

إنتهينا من العشاء مستأنسين بعضنا ببعض. وفي اليوم التالي وردت الأنباء في ساعة متأخرة بمقتل الدوق ألساندرو. وكان من أثر ذلك أن عدداً كبيراً من معارفي أقبلوا عليّ يقولون:

ـ لقد كنت مصيباً حقاً حول وقوع حادث عظيم في فلورنسا.

وفي وسط الجلبة أقبل (فرانشسكو سودريني) وهو يترنح فوق بغل هرم متثاقل الخطى وهو كالمجنون يضحك ويقهقه حتى ليكاد فمه ينشق. وناداني بصوت مرتفع قائلاً:

ـ هذا هو ظهر ميدالية ذاك الطاغية النذل الذي وعدك به لورنزو دي مديتشي.

ثم أردف يقول:

ـ أنت تريد تخليد الدوقات. ونحن لا نريد دوقاً بعد الآن.

ثم شرع يسخر مني كأني رئيس الأحزاب التي تتولى نصب الدوقات. وجاءنا أيضاً المدعو (باجيو بتّيني Baccio Bettini) برأسه المتورم الشبيه باليقطينة وبدأ بدوره يسخر مني بخصوص الدوقات قائلاً:

- إننا جرّدناهم من دوقياتهم. ولن يكون عندنا أي دوق بعد اليوم وأنت تريد أن تخلدهم.

واستمرّ في هرائه وتخريفه هذا حتى ضاقت نفسي به فقلت:

- أيها الحمقى المجانين. ما أنا الا صائغ مسكين أشتغل لكل من يدفع أجري وأنتم تتشفون بي كأني أحد الزعماء السياسيين. ولكني ردّاً على سخريتكم البلهاء أقول لكم ولتذكروا ذلك جيداً: لن يمرّ يومان أو ثلاثة الا وسيكون عندكم دوق آخر ربما أسوأ من السلف بكثير.

في اليوم التالي قدم (بتيني) إلى دكاني وقال:

- ما الفائدة من إنفاق المال على السعاة، وأنت تدرك الأمور قبل وقوعها؟ أي جرسٍ خفيّ فائق للطبيعة يخبرك بها؟

ثم انبأني بأن (كوزيمو دي مديتشي)[1] ابن جيوفاني قد نصب دوقاً. ولكن بشروط وقيود معينة تحول بينه وبين حزّ الرؤوس والعبث بالمقدرات كما يحلو له ويشتهي.

وهنا جاء دوري في الضحك عليهم، فقلت:

- هؤلاء الرجال في فلورنسا. وضعوا شاباً على صهوة جواد مُطهم أصيل وأعطوه مهمازاً. وسلموه العنان بكلّ حرية. ثم أطلقوه يسرح في مرج جميلٍ موقر بالفاكهة حافل بالأزهار وغير ذلك مما يبهج الخاطر. ثم أوصوه بألاّ يتعدى الحدود التي رسموها له. والآن قولوا لي من ذا الذي يستطيع إيقافه عندما يصمّم على اجتياز تلك الحدود؟ إن القوانين لا يمكن أن تطبّق على من هو سيّد القوانين.

بعد هذا تركوني بسلام ولم يضايقوني قطّ.

بدأت في تصريف شؤون العمل ولم يكن عندي شغل ذو أهميّة. لأني كنت أنتظر عودة صحتي اليّ كاملةً. فما زلت أراني عليلاً، لم تزل عني آثار المرض الخطير. في

---

(1) كان تنصيبه في التاسع من كانون الثاني 1537.

ذلك الزمان عاد الإمبراطور منتصراً من حملته في تونس[1] فإستدعاني البابا لتبادل الرأي في إختيار هدية مناسبة له وسألني رأيي فقلت: خير هدية هي صليب ذهبيّ كنت قد انتهيت من تصميم نقوشه وحليته وأظنّه مناسباً جداً لجلالته. فذلك سيرفع من قدر قداسته كما يكسبني إسماً وسمعةً.

كنت في الواقع قد عملتُ ثلاثة تماثيل كاملة الجسم الواحد منها بطول الكفّ ـ صممتها قبلاً لكأس البابا كليمنت. وهي ترمز إلى الايمان، والرجاء، والمحبّة. فأضفت إليها ما يجانسها لقاعدة الصليب. وحملت النموذج الشمعي إلى البابا مع تصميم شمعي للسيد المصلوب وإضافات أخرى جميلة. فسرّ بها كثيراً وتمّ التفاهم على كلّ شيء. وجرى تخمين التكاليف قبل إنصرافي. وكان ذلك مساءً بعد الغروب بأربع ساعات. وأمر البابا (لاتينو جيوفينالي) بدفع ما أحتاج من المال في صباح اليوم التالي.

زين لـ(جيوفينالي) هذا الذي كان فيه عِرقٌ كبيرٌ من الغباء والحمق، أن يقترح على البابا نموذجاً جديداً للهدية قام هو بتصميمه والتفكير فيه. وبذلك وقع الإضطراب في الترتيب الذي قررناه. ولما جئته أطلب المال في صباح اليوم التالي أجاب بصلافته الحيوانيّة المعتادة:

ـ نحن الذين نضع التصاميم. وما عليك إلاّ التنفيذ، فقبل إنصرافي من لدن البابا مساء أمس فكرنا بشيء أفضل جداً.

ما أن سمعتُ هذا حتى ابتدرته دون أن أدعه يضيف كلمة أخرى:

ـ لا أنت ولا البابا تستطيعان ان تفكرا بشيء أحسن من عملٍ يبدو فيه السيد المسيح، والآن يمكنك أن تسمعني قدر ما تحبّ من الهراء والثرثرة.

تولى عني غاضباً دون أن ينبس بكلمة واحدة، وأخذ يسعى جاهداً لإسناد المهمة إلى صائغ آخر. فرفض البابا وأرسل يستقدمني في الحال وقال لي إني محقّ تماماً

(1) هنا يعود چلليني بذكرياته زهاء سنتين أو سنة واحدة إلى الوراء. فقد وصل الإمبراطور نابولي قادماً من تونس في 30 تشرين الثاني 1535 وزار روما في 5 نيسان 1536 أي أن ما يقصه الآن وقع قبل ابتلائه بالمرض الخطير الذي وضعه.

لكنهم يريدون الإستفادة من كتاب نوافل وأدعية للعذراء مريم بصوره الرائعة العجيبة الملّونة. كان هذا الكتاب قد كلّف الكردينال دي مديتشي ألفي كراون وأكثر دفعها لصانعه. وسيكون خير هدية للإمبراطورة. وبعدها ستقدمون ما اقترحتهُ أنا للإمبراطور. لأن الصليب في الواقع هدية لاتقة به. وبيّن أن هذا البديل لم يتخذ إلاّ لضيق الوقت. إذ يتوقع وصول الإمبراطور خلال شهرٍ ونصف شهر أو نحوه، وقد رغب في أن تكون جلدتا الكتاب من الذهب الخالص المزخرف وأن يرصع ترصيعاً كثيفاً بالأحجار الكريمة التي تعادل قيمتها ستة آلاف كراون. ما أن تسلّمت الذهب والجواهر حتى بدأت العمل وبعد إشتغالي بدأب بضعة أيام بدأ جمال صنعتي فيه حتى أن البابا لم يكتم أعجابه وأغرقني بالثناء وأكد لي أن ذلك الحيوان (جيوفينالي) لن يزعجني بعد الآن.

كان العمل بالكتاب قد شارف التمام عند قدوم الإمبراطور. ونصبت أقواس نصرٍ كثيرة في غاية الفخامة إحتفالاً بتلك المناسبة. وبعد أن دخل روما بأبهَة وجلالٍ منقطعي النظير (أترك للآخرين وصفهما لأني أريد أن أقصر حديثي على ما يمسّني شخصياً)، أخرج البابا فوراً الماسةَ كان قد ابتاعها باثني عشر ألف كراون. وأرسل بطلبي ثم سلّمني الألماسة وطلب مني أن أصوغ لها خاتماً يناسب أصبعه. ولكنه طلب أولاً أن آتي بالكتاب إليه مهما بلغتُ فيه من تقدّم فجئته به فسرّ كثيراً ثم شاورني في أفضل ما يمكن أن نتقدم به من عذر للإمبراطور بخصوص عدم إكماله. فأجبتُ إن خير عذر نتوسل به هو مرضي، فهو تعليل معقول سيصدقه الإمبراطور لا محالةِ بعد أن يرى شحوبي وهزالي.

فقال البابا: رأيك حسنٌ ومقبول جداً. ولكن يجب عليك عند التقديم. أن تذكر بأنك تقدم نفسك هديةً له مع الكتاب. ثم شرح لي المراسيم التي سأتبعها بالضبط ولقنني العبارات التي سأقولها. فكررت الكلمات التي لقّنتها ثم سألته هل سيسّر لو تكلمت هكذا؟

فأجاب:

- لو وجدت في نفسك الإرادة للتحدث إلى الإمبراطور بالشكل الذي تخاطبني فهو غاية المنى.

فأجبت «سيكون لديّ من قوة الإرادة والثقة في حديثي مع الإمبراطور أضعاف ما عندي عند التحدث إليك. لأن الإمبراطور يرتدي ثياباً من عين الطراز الذي أرتديه وسأكون وكأني أكلم رجلاً مثلي والأمر يختلف جداً بالنسبة إلى قداستك ففيك أرى جلال الالوهية وهيبتها بسبب ثيابك الكهنوتية التي تضفي عليك هالة القداسة فضلاً عن مظهرك المهيب الموحي بالرهبة. وهو ما ليس عند الإمبراطور». عند ذلك قال البابا:

- إنصرف على بركة الله يا بنفنوتو. إنّك لداهية أريب. إرفع رأسنا وسيعود ذلك عليك بالخير العميم

هيأ البابا جوادين عربيين كانا من مقتنيات البابا كليمنت، لم يشاهد أفضل منهما في كلّ البلاد المسيحيّة. وأمر أمين سِرّه (السيد دورانتي Messer Durante) أن يقودهما عبر اروقة القصر ثم يقدمهما هدية للإمبراطور، مشفوعة بخطبة قصيرة أعدّها له البابا. فسرنا معاً وعندما صرنا في حضرة الإمبراطور أدخل الجوادان وهما يجوسان خلال الممرّات بجلال وإتساقٍ رائعين فأثارا إعجاب الإمبراطور والحاضرين كافةً.

وعند هذا تقدم (دورانتي) مضطرباً ونطق بخطبته متعلثماً متردداً مرتجاً كأن لسانه ملتصق بحلقه بلهجة تمازجها رطانة بُرشية[1] فكان مشهداً مخجلاً لم يسمع بمثله حتى أن الإمبراطور لم يتمالك نفسه من إطلاق ضحكة قصيرة. في تلك الأثناء كنت قد رفعت الغطاء عن الكتاب. وعندما لاحظت الإمبراطور قد تحول بنظره اليّ بغاية الجلال واللطف تقدمت إلى أمام وقلت:

- ياصاحب الجلالة الأقدس. إنّ أبانا الكلي القداسة البابا بولص يبعث بكتاب «سيدتنا» هذا إلى جلالتكم هديةً. إنه مستنسخ باليد. وقد حلاّه بالصور أعظم فنّان في

(1) بنسبة إلى Brescia وهي بلدة في شمال أيطاليا تقع بين فيرونا وميلان وتبعد زهاء 80 كيلومتراً شرقاً عن المدينة الأخيرة.

مجال فنه. وهذا الغلاف النفيس من الذهب المكفّت بالأحجار الكريمة لم يكمل بعد كما يراه جلالتك بسبب المرض الذي ألمّ بي. ولهذا فإن قداسته يقدمني لك مع الكتاب لأقوم بإنجازه بالقرب من شخص جلالتك. مع استعدادي للقيام بكلّ ما تكلفني به من عمل. وسأبقى طول عمري رهن إشارتك وفي خدمتك.

فكان جواب الإمبراطور على هذا قوله:

- إني لمسرور بالكتاب وبك أنت. إلاّ اني أريدك أن تنتهي منه في روما. وبعد إكماله وإبلالك من المرض إلحق بي، وجئني به.

وأخذ يجاذبني أطراف الحديث منادياً أياي باسمي المجرد مما أثار دهشتي إذ إن اسمي لم يذكر في تلك المناسبة وأخبرني بأنه شاهد عروة زنّار البابا كليمنت بكلّ الصور العجيبة التي نقشتها فيه. وامتد بنا الحديث على هذه الوتيرة حوالي نصف ساعة في شؤون فنيّة ومواضيع تتعلق به. ووجدت أني مضيت بعيداً في تحقيق النجاح المأمول فوق ما توقعْت. فانتهزت فرصة سكونٍ وانقطاع حديثٍ وانسحبت بعد أن انحنيت له. وسُمع الإمبراطور يقول:

- اعطوا بنفنوتو خمسمائة كراون في الحال.

فجاء الشخص الذي أنيط به دفع المبلغ وسأل: أين هو رسول البابا الذي كان يكلم الأمبراطور؟ فبرز إليه (دورانتي) وسطا على الكراونات الخمسمائة. فأسرعت أشكو الأمر للبابا فقال لا تبتئس فإني أعرف كل ما وقع. وكم كان تصرّفك لائقاً في حديثك مع الإمبراطور. وأكد لي أني سأتسلّم حصتي من المبلغ.

عدتُ إلى دكاني وبدأت أشتغل بالخاتم الألماسي الذي كلفني به البابا وبعث اليّ بأربعة من الجواهريّة وهم أفضل من في روما، للمداولة معي بشأنها. ذلك لأن البابا كان قد أبلغ بأن الجواهري المدعوّ(ميليانو تاركيتو Miliano Targhetto) قد كفتها في البندقية، وأنه أمهر جواهريّ في العالم. وأنه لما كانت الألماسة رقيقة بعض الشيء. فإن مثل هذا العمل الصعب فيها يحتاج إلى تبادل رأي ومشاورة. كان اغتباطي عظيماً بزيارة هؤلاء الجواهرية الأربعة ومنهم ميلانيّ يدعى (كايو Gaio) وهو من أكبر الحيوانات في الدنيا إعتزازاً بنفسه، يعرف القليل ويدّعي أنه يعرف الكثير جداً. وكان

الآخرون في غاية التواضع، ومن أكفأ ما وجدت في مجال فنهم. بدأ (كايو) هذا بالكلام قبل كلّ أحد فقال:

- بنفنوتو! عليك بمركّب (ميليانو). بل أرفع له قبعتك. فإن تظليل الألماس أدقّ وأصعب ناحية في فن الجواهري. وميليانو هو أعظم جواهرّ عرفته الدنيا. وهذه أصعب ألماسة.

وكان جوابي أنّ مباراتي لمثل هذا الصانع الكامل ستكسبني المزيد من الشهرة والمجد. ثم التفتّ إلى بقية الجواهرية وقلت:

- أنظروا، مركّب (ميليانو) في حوزتي لكني سأحاول التفوق عليه بعمل مركّب من اختراعي فإن لم أنجح فسأستعمل مركب ميليانو.

فقال ذلك الحيوان (كايو):

- لوضعت محلولاً مثل هذا فسأكون على استعداد لأرفع قبعتي له احتراماً.

فأجبت:

- فلو حضّرت أفضل منه، فسيستحقّ منك احتراماً مضاعفاً.

فأجاب أجل وهو كذلك. وبدأت أهيء مركّبي وراعيت الدقة والحذر (وسأقوم في الموضع المناسب بشرح كيفية التحضير). والحقيقة التي لا ريب فيها أن هذه الألماسة كانت صعبةً للغاية، لم ألق في غيرها ما لقيت فيها من العنت لا قبلها ولا بعدها. وقد تم مزج مركب ميليانو بأدق ما توصل إليه المفهوم العلميّ. على أني ما كنت لأخشى الفشل بسبب ثقتي الكبيرة في نفسي. وبالفعل وفّقت في عمل مركّب يتفوق على مركب ميليانو لا ان يضاهيه فحسب. بعدها باشرت في محاولة التفوق على مركبيّ نفسه فصنعته بطريقة أخرى حتى بلغت غاية ما أصبو إليه. بعد هذا دعوت الجواهريّة الأربعة وعاملت الألماسة بمركب (ميليانو) ثم أزلت الطلاء عنها بمسحها، وعدت فطليتها بمركبي الأول ثم عرضتُها عليهم فتناولها راڤايللو دل مورو، وهو واحد من أخبرهم في الصنعة وقال لكايو:

- لقدّ بذّ بنفنوتو صاحبك ميليانو.

وتناول (كايو) الألماسة وهو متردد في تصديق ذلك ثم قال:

- بنفنوتو! إن قيمة هذه الألماسة إرتفعت بمقدار الفنّ دوقية على ما كانت وهي مطلية بمركب ميليانو.

عندئذ أجبت:

- ما دمت تفوقت على مجهود ميليانو. فلئن ان كنت أستطيع التفوق على نفسي.

ورجوتهم أن ينتظروني لحظةً، ثم انسحبت إلى قبةٍ صغيرة وهناك بعيداً عن الإنظار أعدت طلاء الألماسة وجئت بها إليهم. فهتف كايو:

- لم أر أعجب من هذا في كلّ حياتي! هذه الألماسة تسوى ثمانية عشر ألف كراون وكنا قد قدرناها بإثني عشر ألفاً.

والتفت الثلاثة الآخرون إلى (كايو) وقالوا:

- إن بنفنوتو فخر صناعتنا. ومن حقه علينا أن نرفع قبعاتنا له ولما أنجزه.

وقال (كايو):

- سأذهب إلى البابا وأعلمه بهذا. وإني لأقترح أن ينال بنفنوتو ألف كراون ذهبي لقاء تركيب الألماسة.

وأسرع إلى البابا وقصّ عليه الحكاية برمّتها، فكانت النتيجة أن البابا أرسل يستفسر عن إكمالي الخاتم ثلاث مرات في ذلك اليوم. وجئته به قبل الغروب بساعةٍ وكان مسموحاً لي بالإنصراف والدخول دون عائق، ولذلك رفعت سجف الباب بكلّ لطفٍ فشاهدت البابا مع مركيز (كواستو Guasto) وكان يحاول حمل قداسته على تنفيذ مطلبٍ وسمعت قداسته يجيبه:

- قلتُ لك كلاّ: فمن واجبي أن أكون محايداً لا أكثر ولا أقل.

وفيما أنا أهمّ بالعودة من حيث أتيتُ ناداني قداسته فتقدمت وبيدي الخاتم الجميل، فإنتحى بي جانباً وارتد المركيز مبتعداً عنا مسافة. قال البابا وهو يتفحص الخاتم:

ـ بنڤنوتو! باشر معي في حديث ودعه يبدو وكأنه في أمرٍ خطيرٍ ولا تتوقف قط حتى ترى الماركيز يترك الغرفة.

ثم أخذ يتمشى ذهاباً وأياباً في الغرفة. وقد استمرأتُ هذه الفكرة بالأحرى فضلاً عن أنها قد تكون ذات فائدة لي. فبدأت أشرح الطريقة التي استخدمتها لتنظيف الألماسة ومضاعفة تأثيرها. وظلّ الماركيز واقفاً حيث هو متكئاً على سجادة حائطية مائلاً بثقله على رِجْلٍ تارة، ومنتقلاً به إلى الرِّجل الثانية تارةً أخرى.

كان موضوع حديثي بدرجة من الأهمية بحيث اقتضى للاحاطة بجوانبه ثلاث ساعات على الأقلّ. وقد اغتبط به البابا وانتعش حتى أنه نسي كم كان منزعجاً في حديثه مع الماركيز، والماركيز ما زال واقفاً وحشرت في حديثي ذلك الفرع من الفلسفة الذي يمسّ صناعتنا وبعد أن واصلت الكلام زهاء الساعة، نفد صبر الماركيز وترك الغرفة منفعلاً. عند ذلك بدأ البابا يجاملني ويحتفي بي وقال:

ـ صبراً عليّ يا بنڤنوتو وستجد المكافأة التي تحظى بها قابلياتك في أكثر من الألف كراون التي أفتى (كابر) بأنك تستحقها.

وراح البابا يمتدحني أمام رجال الحاشية بعد إنصرافي. وكان بينهم (لاتينو جوفينالي) الذي جئت إلى ذكره قبلاً. وقد جعلته من عداد أعدائي إذ حاول جهد طاقته الحاق الأذى بي. ولما رأى اللهجة الحماسية الودودة التي كان البابا يستخدمها في الحديث عني، قال:

ـ لا يشك أحدٌ قطّ في أن (بنڤنوتو) في نهاية الذكاء والكفاءة. ومع انه من الطبيعي جداً أن يميل المرء إلى أهل بلده ويخصهم بالودّ الزائد لكن عليه ان يكون حذراً فيما يقول عن الباباوات. ولقد أثر عن (بنڤنوتو) هذا قوله: إن شخصيّة البابا كليمنت الآسرة لا تدانيها أي شخصية في هذه الدنيا من الأمراء والملوك. وهو ذو مواهب خارقة وذكاء نادر إلاّ أنه سيّء الحظ. أما عن قداستك فحديثه بعكس ذلك تماماً إذ يقول إن التاج البابوي لا يدخل رأسك إلاّ بصعوبة فهو أضيق من أن يحشر. وإنك تبدو أقرب شبهاً إلى شاخص من القش مكسوّ بالثياب. وليس عندك ما تزهو به وتعتزّ غير حسن حظّك.

كان لهذه الكلمات وقع الصاعقة على البابا، لا سيّما والناطق بها يعرف كيف يلقيها بلهجةٍ مؤثرة مقنعة وقد صدّقه البابا. الله يعلم أن مثل هذا القول لم يخطر ببالي فكيف بقوله؟ كان البابا يخشى على سمعته وإلاّ لأنزلَ بي ضربةً لا قيام لي بعدها. لكنه وهو الذكي الأريب تضاحك وتظاهر بعدم الإكتراث. إلاّ أنه أسرّها في نفسه وأنمى في أحشائه حقداً عظيماً لي يقصر عنه الوصف. وقد شعرت بهذا عندما لم أعد قادراً على مواجهته إلاّ بشق الأنفس بعد أن كنت أتردد إليه بكلّ حريّة وفي أي وقت شئتهُ.

لما كنت طويل التردد في البلاط البابوي، وخبرتي به تمتدّ إلى سنوات عدة فقد خمنت بأن أحدهم قد سعى بي ودبر لي هذه الوقيعة. وبعد قيامي بتحريات دقيقة. اكتشفت كلّ شيء باستثناء إسم المفتري. ولو كنت عرفته في حينه لما مازج إنتقامي منه رحمة أو إقتصاد.

صرفت كلّ اهتمامي بإكمال غلاف الكتاب الصغير وبعد تمامه حملتُه إلى البابا الذي لم ير مناصاً والحق يقال من كيل المديح لي جزافاً. وطلبتُ منه أن يرسلني معه كما وعد فأجاب إنه سيعمل المناسب، وأن دوري في القضية إنتهى ثم أصدر أمراً بأن يُزاد في أجري. ولقد حصلت عن الأعمال التي أقتضتني أكثر من شهرين في شغلٍ متواصل، على خمسمائة كراون. منها مائة وخمسون فقط أجرة تركيبي الألماسة. والبقية عن عملي في الكتاب الذي كان يسوى أكثر من ألف كراون بالتأكيد، لكثرة ما نقشت فيه من زخرف وحشدت من الصور والانبتة وأغنيته بالحجر الكريم والطلاء بالميناء. على كلٍّ أخذت ما أمكنني الحصول عليه وصحّ عزمي على مغادرة روما. بعد هذا أرسل البابا الكتاب إلى الإمبراطور مع حفيدة (سينور سفورزا Sforza)[1] ولما قدم الهدية للإمبراطور أظهر هذا إمتنانه العظيم وسأله عني. وكان الفتى (سفورزا) قد لقّن ما يقول: فأجاب أن السبب في اعاقتي هو مرضي. وقد نبئت بهذا فيما بعد.

في عين الوقت إتخذت كامل الأهبة للرحيل إلى فرنسا مفضّلاً أن أذهب وحدي.

---

(1) ابن بنت البابا بولس الثالث. صار في ما بعد من مشاهير القادة العسكريين فخدم أولاً في جيوش الإمبراطور شارلكان. ثم في جيش فرنسا.

وقد تبيّن لي تعذّر ذلك بسبب فتى كان عندي يدعى (أسكانيو Ascanio). كان في مقتبل الشباب وخير خادم متفانٍ يحظى به المرء. كان يشتغل خلفةً عند صائغ إسباني يدعى (فرانشسكو)، فتركه وجاءني يطلب عملاً فترددت في ضمّه اليّ خوفاً من إغضاب سيده الأسبق وقلت له:

ـ لا أريدك. إذ ربما أغاظ ذلك أستاذك.

إلاّ أنه سعى حتى حمل سيده على توجيه رسالة اليّ قال فيها انه لا يمانع في استخدامه عندي. فضممتهُ اليّ واستمر يعمل في دكاني بضعة أشهر. كان هزيلاً شاحب الوجه عندما جاءني ولذلك لقبناه بـ(Il Vechino) أي «الشيخ الصغير». وكنت في الواقع أنظره بهذا المنظار فقد أثبت بأنه مساعد كفء ولأنه كان فهيماً بشكل يصعب عليك أن تتوقعه من ابن ثلاث عشرة وهو العمر الذي إدّعاه لنفسه.

أعود إلى حديثي فأقول: بعد أشهر قليلة من وجوده عندي زال عنه شحوبه وامتلأ جسمه وانتهى بأن صار من أكثر الشبان وسامةً في روما. كان مساعداً ممتازاً كما ذكرتُ، وحقق تقدماً عظيماً في الصنعة. حتى فاز بحبي فاعتبرته في مقام ابن لي وكسوته الثياب التي يختارها الأب عادة لفلذة كبده. ولما وجد النعمة التي هبطت عليه عدّ نفسه سعيد الحظّ جداً لوقوعه عَليّ. وكثيراً ما كان يتردد إلى أستاذه السابق ويشكره لأنه كان السبب في النعمة التي يرفل فيها وكان لهذا الصائغ الإسباني زوج جميلة صغيرة السنّ وفي مناسبة أحدى زياراته سألته هذه:

ـ قل لي يا (سورغيتّو Surgetto) (وهو اللقب الذي كانوا يطلقونه عليه أيام وجوده عندهم) ما الذي يجعلك تبدو بهذه الوسامة؟

فأجاب أسكانيو:

ـ مادونا فرانشسكا! هذا من فضل أستاذي. بل إن فضله يمتد إلى أكثر من هذا بكثير!

ان طبع هذه المرأة الحقود جعلها تغضب من جوابه فقد عدّته تعريضاً بهما. وكانت فضلاً عن هذا مثلومة الشرف سيئة السمعة. وصرت الحظ أن الفتى أخذ يكثر من زياراته خلافاً لمألوف عادته. ثم اتفق ذات يومٍ أنه اعتدى على واحد من صبيان

الدكان بالضرب فهرع المضروب يستقبلني عند عودتي شاكياً باكياً وقال إن (اسكانيو) إعتدى عليه دونما سبب فالتفتُّ إلى (اسكانيو) وقلت:

ـ بسببٍ أو بدون سبب. إيّاك أن تمدّ يدك على أي شخصٍ من أهل بيتي مرة أخرى. وإلاّ نالك مني ما تكره.

وجد في نفسه الجرأة في الإعتراض على قولي. فهممت به فوراً وأشبعته ضرباً ولكماً ورفساً، بشكل لم يذق مثله في حياته. وما أن تمكّن حتى فرّ هارباً دون قبعة أو سترة. ومضى يومان على فراره وأنا أجهل أين هو. كما أني لم أحاول التفتيش عنه. بعد هذا جاء لزيارتي سيد إسباني يدعى (دون دييكو) وهو من أكرم الرجال وأطيب الناس قلباً. كنت قد قمت له ببعض الأشغال في السابق. وكان بيدي شغل له في ذلك الحين ونحن على أحسن علاقة. قال لي إن (اسكانيو) عاد إلى أستاذه السابق. وسألني إن شئتُ أن أبعث إليه بقبعته وسترته وهما من جملة ما ابتعته له. فكان جوابي أن (فرانشسكو) أساء التصرف جداً كالأجلاف تماماً. إذ لو انه أعلمني حال وصول أسكانيو بيته لتركته له بكلّ سرور إلاّ انه ابقاه يومين دون أن ينطق بكلمة ولهذا فإني لا أعتزم أن اتركه يمكث هناك ولكن على حذرٍ مني إن وقع نظري على الفتى في منزله. فنقل (دون دييكو) اقوالي هذه. الاّ أن فرانشسكو جعلها مادة للتندّر والمزاح.

في صباح اليوم التالي رأيت (اسكانيو)[1] في دكان أستاذه يعالج شيئاً تافهاً مربوطاً بأسلاك. وَلـمّا مررت به ورآني نهض وانحنى لي إحتراماً. إلاّ أن فرانشسكو كشّر هازئاً. ثم أرسل بوساطة هذا النبيل الاسباني قائلاً انه يرجو مني أن اتلّطف على اسكانيو بالثياب التي منحتها له، على أنه لن يكون للموضوع تأثير في حالة إرسالها أو الإحتفاظ بها لأنه سيكفيه حاجته من الثياب.

بعد أن وعيت فحوى الرسالة قلت لـ(دون دييكو):

ـ سيدي (دون دييكو) لقد عرفتك في كلّ شيء مثالاً للإستقامة والكرم. الاّ ان

(1) سيتردد ذكر هذا الفتى في فقرات كثيرة من المذكرات. فقد رافق چلليني إلى فرنسا ومكث فيها بعد أن غادرها سيده، وصار صائغاً للملك هنري الثاني. وتزوج بنتاً من أسرة روبيا Robbia التي أشتهرت بكثرة ما أنجبت من الفنانين. ويبدو أنه عُرف فيما بعد باسم [سنيور دي بيليو Signor de Beallieu].

فرانشسكو هذا النذل السيء السمعة هو بعكسك تماماً. الأ بلّغه عنيّ هذا: إن لم يُحضر (اسكانيو) بنفسه في دكاني قبل ناقوس صلاة المساء فإني قاتله لا محالة. وقل لاسكانيو أيضاً أن لم يترك العمل عند أستاذه في عين هذا الموعد فسيلقى عين المصير.

لم يعقب (دون دييكو) على قولي إلاّ انه عاد ليشيع الخوف الهائل في أوصال فرانشسكو، حتى كاد يفقده عقله من فرط حيرته. في تلك الأثناء كان (اسكانيو) قد خرج يبحث عن ابيه الذي قدم إلى روما من مسقط رأسه (تاليا كوزو Taglia Cozzo)[1] ولما سمع ابوه عن النزاع نصح (فرانشسكو) بدوره بأن يأتيني باسكانيو فصاح فرانشسكو به:

- طيب. إذهب انت بنفسك وليرافقك أبوك.

الآ ان (دون دييكو) قال له:

- إني لأشعر يا فرانشسكو، بالعاصفة تهبّ. وأتحسس وقوع مشكلة خطيرة. وأنت تعرف جيداً أي صنف من الرجال هو بنفنوتو فاقدمْ ولا تتردد. خذ اسكانيو إليه وسأرافقكما.

كنتُ في دكاني وقد تأهبت لما أنا مقدم عليه وأخذت أذرع الأرضية جيئة وذهاباً منتظراً ناقوس صلاة المساء لأباشر أعنف وأقبح عملٍ قمت به في حياتي وفيما أنا بهذا إذ دخل عليّ (دون دييكو) وفرانشسكو واسكانيو ووالده الذي لم يسبق لي به معرفة. عندما تقدّم (اسكانيو) مني رميت الجميع بنظرة صاعقة وعيناي تقدحان شرراً. فعلت وجه فرانشسكو صفرة الموت وقال متلعثماً:

- ها أنا ذا أعيد إليك (اسكانيو)، ولم أكن أدري قطّ بأني أزعجك بإبقائه عندي.

وأعقبه (اسكانيو) قائلاً بكلّ إحترام:

- سيدي! إني أرجو صفحك. وقد جئت لأُنفذ كل أوامرك وأكون رهن إشارتك.

- أجئت لإكمال المدة التي ارتبطت بها معي؟

---

(1) بليدة تقع شمالي شرق روما بحوالى سبعين كيلومتراً.

فأجاب بالإيجاب، وأضاف أنه لن يتركني بعد الآن. عندها ألتفتُ إلى الصبي الذي كان (اسكانيو) قد إعتدى عليه وأمرته أن يسلمه صرّة ثيابه وأردفت قائلاً:

- دونك كلّ الثياب التي إبتعتها لك. فخذها وخذ معها حريتك، وأذهب أنى شئت.

كان (دون دييكو) يتوقع كلّ شيء إلاّ هذا. فبدت عليه علائم الدهشة واضحة. وبعدها راح الأب والابن يستغفران ويطلبان صفحي وإعادته إلى العمل عندي. فسألت من هو هذا الشخص الذي يلتمس لاسكانيو، فقال إنه ابوه فرحبت به وجاملته ثم قلت:

- مادمت أباه فإني سأعيده إلى العمل إكراماً لك.

كما ذكرت قبل قليل، صح عزمي على السفر إلى فرنسا، وسبب هذا يرجع أني ادركت بأن البابا لم يعد لي عنده التقدير أو المكانة ذلك لأن خدماتي المخلصة لُطخت بالافتراءات كذلك كنت أخشى أن أنال الأسوأ من كيد اعدائي لذلك كنت متحرقاً إلى اختيار بلاد أخرى قد يقبل عليّ الحظّ فيها بعد ادبار، وكنت على استعدادٍ للرحيل وحدي. وفي ليلةٍ من الليالي قررتُ أن أنطلق صباحاً. ففوضت شريكي (فيليجي) بإستعمال كل ما أملكه إلى حين عودتي. وإن لم أعد فكلّ ما أملكه هو له. وكان لديّ مساعدٌ من أهل (بيروجيا) عاونني في صنع حلى البابا هذا الشخص الحّ عليّ بإصطحابه وقال إنه سيتكفل بنفقات سفره. وإن شاءت المقادير أن أبقى في خدمة ملك فرنسا فمن الأفضل أن يكون معي مساعدون ايطاليون من بني جلدتي وخصوصاً أولئك الذين هم أهلٌ لإعتمادي. كنت قد دفعت له حسابه وصفيت كل علاقتي معه إلاّ أنه تشبّث بي وألحف وتوسّل حتى وافقت على اصطحابه بالشروط التي اقترحها هو.

وكان (اسكانيو) حاضراً أثناء ذلك فكاد يجهش بالبكاء، ثم إنه قال لي:

- عندما عدتُ إليك، قلتُ لك إني سألازمك طول العمر وأنا ثابت على قولي.

قلتُ إني لا أوافق على هذا بأيّ حالٍ من الأحوال، إلاّ أن الفتى المسكين بدأ يتأهب للحاق بي سيراً على القدم. فرقّ له قلبي وزوّدته بحصان.وضعتُ حقيبة فوق

كفل الحصان وأثقلت نفسي بمتاع يزيد عن حاجتي بكثير وتركت روما متجها إلى فلورنسا. ومن فلورنسا إلى بولونيا. ثم إلى البندقية ثم إلى بادوا. وهناك جرّني صديقي العزيز (البرتاجيو دي بينيني) من الفندق جرّاً وأنزلني في داره. وفي اليوم التالي توجهت لتقبيل يدي المونسنيور (بييترو بمبو Pietro Bembo)[1] ولم يكن قد نصب كردينالاً بعد. فرحب بي ترحيباً حاراً لا أقوى على وصفه ثم التفت إلى (البرتاجيو) وقال:

- إني أريد بنفنوتو وكلّ خدمه ان يمكثوا ضيوفاً عندي ولو بلغ عددهم المائة. وإن شئت أنت صحبته فتعال وابق هنا معي. وإلاّ فإني مصمم على الإحتفاظ به.

وهكذا قضيت أطيب الأوقات مع هذا السيد الألمعيّ. وأفرد لي حجرة فخمة حتى بالنسبة إلى كردينال وأصرّ على ان اتناول كل وجبات الطعام معه وبعدها بدأ يلمّح بكياسةٍ وبأسلوب رقيقٍ برغبته في أن أعمل له صورة. ولم يكن أحبّ اليّ من هذا فجبلت كميّةً من مسحوق باريس الأبيض الناصع في صندوق وبدأت العمل. في اليوم الأول جلست ساعتين كاملتين، أنقل رأسه الجميل بدقة أذهلت سيادته. كان أديباً المعيّاً عظيم الشأن فضلاً عن عبقرية غير عادية في قرض الشعر لكن لما كان يجهل تماماً أمور فني فقد تصوّر بأني انتهيت من الصورة، في حين اني لم أكد ابدأ. وتعذّر عليّ افهامه بأن ضبطها وإتقانها يتطلب وقتاً طويلاً. أخيراً قررت أن أصبّ فيها كلّ معرفتي وأن أوقف عليها كلّ وقتي. وكانت لحيته قصيرة، يشذبها على طريقة أهل البندقية الأمر الذي كبّدني عناءً كبيراً في تصوير الرأس حتى غدا موضع رضاي. مع كلّ ذلك فقد تمّ. واعتقدت بأن يدي أنجزت أبدع عمل وأكمله من جميع النواحي. وكان الكردينال ذاهلاً حائراً. إذ بعد أن وجدني أفرغ من النموذج الشمعي في ظرف ساعتين، حسب أني سأصبّه بالفولاذ في ظرف عشر ساعات. ولكن سرعان ما وجد أني في الحقيقة لم أنته من النموذج الشمعي الا بعد مائتي ساعة، وتعاظم قلقه عندما

---

(1) (1470 ـ 1547) نصب كردينالاً في 1539، وولد في البندقية وكان كما وصفه چلليني أديباً ضليعاً ومن أكبر مشجعي الأدب والعلم. ويشك (بلون Plon) (أحد مترجمي المذكرات إلى الفرنسية) في أن چلليني أكمل صنع الميدالية فهو لا يذكرها بشيء لا في مذكراته ولا في رسائله.

إستأذنته بالرحيل إلى فرنسا ثم أخذ يتوسل بي لأعمل على الأقل نموذجاً لظهر الميدالية يمثّل الحصان (بيكاسوس Pegasus)[1] يحيط به إكليل الغار. فعملته في ثلاث ساعات تقريباً ووقع في نفسي مضيفي أفضل موقع لدقته وجماله وعلق بقوله:

- حسبتُ أن تصوير الحصان بهذا الشكل أصعب بعشرة أضعاف من تصوير الرأس الذي كلفك هذا القدر من العناء. إني لا أدرك اين تكمن الصعوبة.

ثم بدأ يتوسّل بي لأقوم بصبّه بالفولاذ قائلاً:

- رجائي منك أن تنجزه كفضل خاص منك وبإمكانك الإستعجال به لو شئت.

أكّدت له أني سأقوم بعمل الميدالية عندما أستقرّ في موضع وأباشر عملي واني لا أنوي أن أشتغل بها هنا. وبين هذا الأخذ والردّ، كنت في سبيل شراء ثلاثة خيول للرحلة إلى فرنسا. ولم أكن على علم بالنفوذ الذي يتمتع به (بمبو) في (بادوا) إذ كان يتتبع حركاتي خفية. فلما هممت بدفع ثمن الخيول وكنا إتفقنا على خمسين دوقية قال المالك:

- نظراً لأنك من كبار الفنانين فإني أقدمها لك هدية!

فأجبته:

- ليست الهدية هديتك. ولا أريد قبولها من المُهدي الحقيقي لأني لم أتمكن من عمل أي شيء له.

وعندئذ صارحني الرجل اللطيف القول، بأني إن لم أقبل هذه الخيول فلن أجد حصاناً واحداً يُشرى في (بادوا)، وسأضطر إلى السفر سعياً على القدم، ففهمت وعدتُ إلى المونسنيور المبجل (بييترو) فتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً عن القضيّة. إلاّ انه رحب بي بحرارة وعاد يلحّ عليّ بالبقاء في (بادوا)، ولما كان هذا يخالف رغبتي وبما أني عقدت العزم على مغادرة (بادوا) فقد اضطررت إلى قبول الخيول وإنطلقت بها حال سبيلي.

---

(1) في أساطير الأغريق. هو حصان مجنح. خرج من دم (ميدوسا) بعد أن قتلها برسيوس. (أنظر الحواشي التالية).

إخترت الطريق المارة بالـ(كريسون Grisons)[1] لأن الطرق الباقية لم تكن آمنة بسبب الحرب الدائرة وقتذاك[2]. وعبرنا قمتيّ (آلبولا Albula) و(برنينا Bernina)[3] مخاطرين بأرواحنا إذ كان يغطيهما ثلج كثيف في الثامن من أيار. ثم توقفنا في محلّ يسمى (فالنشتد Wallensdadt)[4] إن لم تخني الذاكرة. فوجدنا نزلاً متواضعاً للمبيت. وفي تلك الليلة وصل ثمّة ساعٍ فلورنسي يدعى (بوسباكّا Busbacca). كنت قد سمعتُ من يمدحه ويصفه بأنه رجل ثقة وكفاءة. ولم أدر إن سلوكه المتحايل قد أفقده سمعته. ما أن وقع نظره عليّ في الفندق حتى ناداني باسمي وقال لي إنه يقصد (ليون) لأعمال في غاية الأهميّة ثم سألني إقراضه بعض المال ليستعين به على السفر. فأجبته أني لا أملك مالاً للإقراض إلاّ اني سأتكفل بنفقاته إن جاء معي حتى (ليون). وبدأ هذا النصّاب ينسج خيوطاً من الأكاذيب والدموع تنهمر من عينيه قائلاً عندما يكلّف ساعٍ مسكين فقير بمهمة خطيرة تتعلق بالدولة فيجد نفسه بحاجة إلى المال فمن الواجب على أي فلورنسي من طبقتي الإجتماعية أن يساعده. وأضاف يقول إنه يحمل معه أشياء في غاية الأهمية تعود إلى النبيل (فيليبو ستروزي). وكان معه حقيبة ذات غطاء جلدي قال وهو يهمس في أذني إن في داخلها طاساً فضيةً مملوءة بأحجار كريمة قيمتها عدة الآف من الدوقيات فضلاً عن رسائل في غاية الخطورة مرسلها (فيليبو ستروزي). عندما سمعت قوله هذا أشرتُ عليه بأن يدعني أخفي هذه الجواهر في ثيابه التي يرتديها فهو أقلّ خطراً عليها من بقائها في الحقيبة وأن يترك لي حفظ الطّاس الذي قد يسوي عشرة كراونات وإن شاء إبتعته منه بخمسة وعشرين. فأجاب الساعي يقول إنه لا يستطيع أن يعمل أكثر من المجيء معي لأن بيع الطاس يسيء إلى سمعته.

(1) من المقاطعات السويسرية.
(2) هي الحرب التي نشبت بين إسبانيا وفرنسا في بيدمونت وانتهت بمعاهدة نيس في 1537.
(3) قمتان من سلسلة جبال الألب الشرقية. يزيد إرتفاع الثانية عن ثلاث عشرة ألف قدم.
(4) بلدة تقع في الشمال الشرقي من سويسرا.

فتركنا الأمور بهذا الشكل. وفي صبيحة اليوم التالي إستأنفنا السفر فبلغنا بحيرة تقع بين (فالنشتاد) و(فيسن Wesen) وطولها يبلغ خمسة عشر ميلاً[1]، فتكون (فيسن) في نهايتها. أدركني الهلع عندما شاهدت أي نوع من القوارب تستعمل في هذه البحيرة لأنها مصنوعة من خشب الصنوبر وهي صغيرة وضيقة وغير مُجلفطة[2] أو مطلية بالقار. ولو لم أشاهد أربعة من المسافرين الألمان يركبون واحداً منها مع خيولهم لما أقدمت أنا نفسي ولعدتُ من حيث أتيت دون تردد. فعندما رأيت إستهتارهم الأحمق قلت لنفسي إن هذه البحيرات الألمانية لا تُغرق الناس مثل بحيراتنا الإيطالية. مع هذا فإن رفيقي السفر قالا:

ـ بنفنوتو! سيكون تهوراً مِنّا أن نستقلّ هذا القارب مع أربعة خيول.

فأجبتهم:

ـ أما ترون أيهّا الجبناء كيف سبقنا هؤلاء السادة الأربعة إلى قاربهم وهم يضحكون غير مبالين؟ لو كان ما في البحيرة خمر لَقلت إنهم مُبتهجون لفكرة احتمال غرقهم فيه. لكنه ماءٌ فحسب وإني لواثق بأنهم يكرهون أن يبتلعهم الماء أكثر مما نكره.

يبلغ عرض البحيرة ثلاثة أميال وطولها خمسة عشر. ويشرف على أحد شاطئيها جبلٌ أشمّ مليء بالكهوف والعديد من الأطناف والكتل الصخرية. أما الشاطئ المقابل فهو سهل منبسط ممرع أخضر. وبعد أن قطعنا أربعة أميال من الشاطئ هبت ريحٌ شديدة فطلب منا الملاحون مساعدتهم ففعلنا فترةً من الزمن، وبدأت أشير إليهم وأصيح بأن يتجهوا بنا إلى الساحل الآخر لننزله. فقالوا هذا غير ممكن لأن الشاطئ ضحلٌ رمليّ وقد يتحطم بنا القارب فنغرق جميعاً وطلبوا منا نجدتهم مرّة أخرى. وأخذ النوتيّة يهيب بعضهم ببعض للمعاونة. فتبين لي الخطر المحدق بنا من وضعهم السيء. فوضعت اللجام في عنق جوادي الذكي وأمسكت بالرّسن بيدي اليسرى. وبدا لي وكأن الحيوان أدرك بغريزة فصيلته ماذا أقصد حالما الويت برأسه إلى جهة العشب

---

(1) تدعى هذه البحيرة فالين Wallen وليس كما سمّاها جلليني.

(2) أي ليست ملتحمة الألواح بشكل يمنع دخول الماء.

الغضّ. كان هدفي أن يسبح إلى تلك الجهة ويسحبني خلفه إلى اليابسة. وفي تلك اللحظة إندفعت إلى القارب موجة عاتية وإعتلته. فصاح اسكانيو:

- أبي رحماك عَونك!

وهم بالارتماء عليّ. فجردت خنجري الصغير وأمرتهُم بأن يحذوا حذوي. وقلت بصوت جهوري إن الخيول ستنقذ أرواحهم وهذه هي الوسيلةِ التي سأستخدمها أنا للنجاة، إلاّ أني سأقتله إن حاول التشبث بي ثانية. وهكذا قطعنا أميالاً أخرى والخطر محدق بنا.

وجدنا وسط البحيرة قطعة أرض منبسطة تصلح للإستراحة. ورأيت الألمان الأربعة وقد نزلوا إليها. فطلبت من النوتية كذلك الرسوّ أيضاً. لكنهم رفضوا معاندين فقلت لأصحابي الشبان:

- حان الوقت الآن لنثبت لهؤلاء أي صنف من الرجال نحن. جرّدوا سيوفكم وسنرغمهم على إنزالنا إلى الساحل.

حققنا ما أردناه بعد أن أبوا وقاوموا ما إستطاعوا.

بلغنا الشاطئ الآخر أخيراً. وكان علينا أن نتوقل الجبل جيداً بمسافة ميلين. وهو كما وجدنا أصعب من إرتقاء سلّم. كنت مرتدياً زرداً كاملاً. وفي رجلي جزمة ركوب ثقيلة وبيدي بندقية. والله يصبّ علينا كل ما في سمائه من مطر. هؤلاء الألمان الشياطين كانوا يتقدمون بخطى حثيثة مذهلة وقد جمع كل منهم زمام حصانه الصغير بيده في حين لم تكن خيولنا ذات نفع قط. وأخذت قوانا تخور من الجهد الذي نبذله لإرغامها على الصعود الشاق. وكان (إسكانيو) في المقدمة وقد أعطى (بوسباكا) حربته ليحملها عنه. فعثر فرسه الهنغاري الممتاز وأجفل مرتداً إلى الخلف بسبب وعورة المرتقى وعجز تماماً عن الإحتفاظ بتوازنه وإرتمى على سنان الحربة التي كان الساعي النذل ممسكاً بها لم يكن من حضور الذهن في شيء ليبعدها عنه. فنفذت في عنقه. فتقدم عاملي الآخر للمساعدة فزلّت القدم بحصانه الأسحم وهوى إلى ماء البحيرة، لكنه علق بشجرة ضعيفة الساق لا تتحمل ثقله فمالت به إلى تحت. وكان هذا الحصان محملاً بخرج مزدوج، وفيهما أودعت كل نقودي وأثمن ماعندي. لكني

صحت بالفتى أن يعنى بنفسه وليذهب الحصان إلى سقر. كانت الهاوية التي استعدت لإستقبال الحصان بعمق ميل. يليها سفح شديد الإنحدار ينتهي بالبحيرة وتحت موضع السقطة مباشرة يوجد مقرّ للنوتية. فلو أكمل الحصان سقطته لهوى على أم رأسهم. توقفت قليلاً إذ كنت أتقدم الركب. ورحت أعدّ الثواني إنتظاراً للسقطة وهي كما بدا لي محتومة لا سبيل لتفاديها. ثم صحت بالجماعة:

ـ لاتهتموا بأي شيء. ودعونا ننقذ أنفسنا ونحمد الله على ذلك. إني متألم فحسب على (بوسباكا) المسكين الذي شدّ وعاء جواهره بقيمتها البالغة آلافاً من الدوقيات في سرج الحصان الساقط معتقداً انه آمن موضع لها. أمّا أنا فلن أفقد أكثر من بضع مئات من الدوقيات. ولن أشعر بخسارتها قط بعون الله.

فهتف (بوسباكا) قائلاً:

ـ لست مهتماً بمقتنياتي. إلاّ أني شديد الحزن على ما فقدت.

قلت:

ـ أتهتم بالقليل الذي عندي ولا تكترث بالكثير الذي تحمله؟

فأجاب يقول:

ـ سأصارحك بالحقيقة والله! ففي مثل هذه المآزق الخطرة يجمل بالإنسان أن يقول الصدق. أنت فقدت مقداراً من الكراونات. وهي كراونات حقيقية وأنا أعرف هذا. ولكن أتدري أن حقيبة الطاس التي زعمت لك أنها مملوءة بمقدار كبير من الحجر الكريم والتي كذبت حولها كثيراً؟ أتدري أن ليس فيها إلا كافيار!

بهذا لم أستطع مغالبة الضحك. وشاركني فيه الشابان. أما (بوسباكا) فقد أجهش بالبكاء. في تلك الأثناء ولدهشتنا جميعاً ما رأينا الحصان إلا وقد تحامل على نفسه واستوى على قوائمه بعد أن نفضنا أيدينا عنه وعددناه هالكاً. واستجمعنا قوانا ومضينا نتوقل الجبل ضاحكين. وقد سبقنا الألمان الأربعة إلى القمة ثم أرسلوا إلينا عدداً من الرجال لمساعدتنا. أخيراً بلغنا موضع الإستراحة في ذلك المستوحَش، منهكين جائعين نقطر ماءً. فأستقبِلنا بحرارة وأمكننا تجفيف ثيابنا وإصابة فترة من الراحة وإشباع بطوننا. وعالجنا خيولنا المجرّحة المخدوشة بأعشاب جبلية دلّنا عليها القوم.

كانت شقوق الصخر تعج بهذه الأعشاب. وقالوا إننا لو قمنا بوضعها على ورم أو جرح في الحيوان فإنه يبقى صالحاً للحمل والركوب فضلاً عن التئام الجرح تدريجياً بتأثيرها فطبقنا قولهم هذا وحشونا جراح حيواناتنا بها. ثم شكرنا هؤلاء السادة الألمان وانطلقنا في رحلتنا ونحن نشعر بالنشاط، لا ننفك نحمد الله على نجاتنا من هذا الخطر العظيم.

وتوقفنا في موضع يلي (فيسّن) وبتنا ليلتنا فيه. وكان صوت غناء خفير الليل الرخيم يتناهى إلينا طوال الليل. وبما أن بيوت القرية كلها من خشب الصنوبر فوظيفة خفير الليل الوحيدة هو الإنذار بالحريق. وكان (بوسباكا) يرتعد ويتنهد أثناء نومه ـ من تأثير يوم الأحد الماضي في أعصابه كلّما رفع الخفير عقيرته بالغناء ويهبّ من فراشه صارخاً:

ـ رحماك يا رب! إني أغرق.

كان بعض هذا من آثار متاعب اليوم السابق. وبعضه لمحاولته مساء اليوم نفسه مغالبة الألمان في الشراب. وقرع الكأس بالكأس مع كل من وجده منهم. فمرة كان يصرخ «إني أحترق» ومرة كان يصيح «إني أغرق». وبين هذا وذاك كان يحلم أنه يعذب في سعير جهنم والكافيار معلّق برقبته.

على كل حال كانت ليلتنا ممتعة مؤنسة وإنقلبت متاعبنا إلى مرح. ووجدنا الجو صحواً رائعاً في الصباح. وذهبنا لتناول الطعام في موضع صغير رائع يدعى (لاخن Lachen)[1] وقدّم لنا أشهى المآكل وبولغ في خدمتنا. وبعدها إستأجرنا بعض الأدلاء وكانوا في طريق عودتهم إلى مدينة تسمى (زوريخ Zuriech). سلك بنا الدليل طريقاً معبدة تحاذي البحيرة. ولم يكن ثمّة طريق غيرها. وهذا كان يغمره الماء. فأدى إلى عثار الحصان وفوقه الدليل الأبله. وسقط هو وراكبه في الماء وكنت أسير خلفه فجذبت عنان حيواني وانتظرت حتى استوى الحصان الساقط على قوائمه فنهض الدليل وشرع يغني ثانية وكأن لم يحدث شيء مشيراً علينا باللحاق به. وعند هذا

---

(1) تقع في الساحل الجنوبي الغربي لبحيرة زوريخ.

إندفعت نحو اليمين مجتازاً بعض الحواجز ومرشداً (بوسباكا) والفتية إلى الطريق. فصاح بنا الدليل قائلاً بالألمانية لو أن أحداً رآني لأطلق عليّ الرصاص. إلا أننا إحتثثنا خيلنا إلى الأمام ونجونا من الخطر.

ثم بلغنا (زوريخ) وهي مدينة ساحرة تستطع مثل جوهرة صغيرة. وإسترحنا فيها يوماً كاملاً وحططنا الرحل في اليوم التالي ببلدة جميلة أخرى إسمها (سولوثورن Solothorn)[1] ومنها إلى لوزان ومن لوزان إلى (جنيف) ومن (جنيف) إلى (ليون) ونحن نغني ونضحك طوال الطريق. ومكثت في (ليون) أربعة أيام وقضيت وقتاً ممتعاً مع بعض الأصدقاء وعُوّضت عما دفعت من نفقات لـ(بوسباكا). وبعد ختام الأيام الأربعة إنطلقت إلى باريس. وكانت رحلة طيبة خلا حادثة واحدة بالقرب من (لاباليس La Palice). عندما حاولت الفتك بنا عصابة من قطاع الطرق عرفت بإسم «المغامرين». إلاّ أننا قاتلناهم ببسالة، وإندفعنا مسرعين إلى باريس. فوصلناها بسلام نتضاحك ونغني طول الطريق ولم يقع لنا حادث يذكر.

خلدت إلى الراحة مدة من الزمن في باريس، ثم بدأت أبحث عن الرسام (روسّو) الذي كان في خدمة الملك. وكنت أعد صاحبي هذا أفضل صديق لي في الدنيا. إذ إني أريته من العطف والإكرام في روما ما يجلّ عن الوصف. إن في مقدوري إجمال فضلي الكبير عليه ببضع كلمات، ولأجل أن أظهر صفاقة الوجه ونكران الجميل الذي قابلني بهما سأثبت الوقائع. ففي (روما) أطلق لسانه الخبيث في إنتقاص أعمال رافائيل الأوربيني فوقع في ورطة. إذ حلف تلاميذ (رافائيل) على قتله. وكنت أنا منقذه من محنته بحراستي له ليلاً ونهاراً وتضحيتي براحتي في هذا السبيل. ثم أطلق لسانه في القذف والتشهير بالمهندس المعماري الممتاز (أنطونيو دا سان كالو Antonio di san Gallo)[2] وبنتيجة ذلك سُحب من يد المهندس عمل كان قد عهد به

---

(1) بينها وبين زوريخ إلى الغرب حوالى 45 ميلاً. ويبدو من هذا أن چلليني كان سريع السفر.

(2) أنطونيو الأصغر. وهو تلميذ عمه أنطونيو دبوليانو. عمل في (لوريتو) و(اوفيتو) وروما وساهم في بناء كاتدرائية بطرس المعروفة. أنظر سيرته في (ڤاساري، ج5). كلفه الكردينال فارنيزي 1514 (فيما بعد البابا بيوس الثالث) ببناء قصر فارنيزي الذي يعتبر اليوم من أجمل أبنية الرينسانس في روما، فأنجز الواجهة وطبقتين منه ثم توفي وقام ميكالنجلو بإكماله. ومما يذكر في هذا الصدد ان تصميمه لبناء كاتدرائية القديس=

إليه من قبل (أينولو دي جيزي Agnolo di Gesi). فبدأ (أنطونيو) يلاحقه ويضيق عليه حتى أوصله إلى حالة الجوع فأقرضته بضع عشر من الكراونات ستراً لخلّته. ولم يسددها لي إلى يومنا هذا. ويعلمي أنه الآن في خدمة الملك فقد قصدته كما قلت في زيارة لا لأطالبه بديني أو متوقعاً منه الوفاء به، وإنما كنت أؤمل أن يستخدم نفوذه لمساعدتي في دخول خدمة الملك أيضاً. لما وقعت أنظاره عليّ بدت عليه علائم الإرتباك والحرج فكان أول قوله:

- إنك يا بنڤنوتو أنفقت مالاً كثيراً في رحلتك هذه الطويلة ولا سيما في هذا الوقت الذي تركزت كل الأفكار في الحرب. ولم يعد أحد يكترث بمجهوداتنا التافهة.

فأجبت بقولي إن المال الذي جئت به يكفي لعودتي إلى روما سالكاً نفس الطريق التي أوصلتني إلى باريس، وهذا ليس بالرد الذي توقعته على ما صدر مني تجاهه من أياد بيضاء. وإني صرت الآن أصدق كلام (أنطونيو دي سان كالو) عنه.

أدرك مبلغ نذالته فأراد أن يلطِّف الموقف بضحكة منه إلا أني أريته حوالة مالية بمبلغ خمسمائة كراون مسحوبة لأمري على (ريجاردو دل بيني Ricciardo del Bene). فعلا هذا الحقير الخجل التام من نفسه. وبذل كلّ جهده لإبقائي إلاّ أني أطلقت ضحكة شامتة في وجهه وخرجت صحبة رسام كان واقفاً هناك. هذا الرجل يدعى (سكوازّيللاّ Squazzella) كان مواطناً فلورنسياً. وقد إتفقنا على السكنى عنده بمبلغ معين انا وثلاثة خدم وثلاثة خيول. فبالغ في رعايتنا وخدمتنا على أحسن وجه. فزدت له في الأجر المتفق عليه.

بعد ذلك حاولت الوصول إلى الملك، وقد قدمني إليه أمين خزانته المدعو (يوليانو بوناكّورزي Giuliano Buonaocorsi) وكان عليّ الإنتظار طويلاً وكنت أجهل ان روسو راح يحاول المستحيل للحيلولة دون ذلك. ولما علم (يوليانو) بالأمر أخذني في الحال إلى (فونتنبلو) وإلى الملك رأساً. وكانت مقابلة في غاية اللطف وتبسط جلالته معي فمكثت في حضرته ساعة كاملة. ولما كان الملك يتهيأ للرحيل إلى

=بطرس وهو من الخشب وبإرتفاع أكثر من (15) قدم على قاعة كبيرة مازال موجوداً وهو من محفوظات الفاتيكان، وقد رفضه ميكالنجلو بسبب الزوايا والخبايا الكثيرة فيه واتخذ التصميم الحالي.

(ليون) فقد أمر (يوليانو) أن يأخذني معه وقال إنه ليودّ ان نبحث أثناء السفر بعض الأعمال الفنية التي يفكر جلالته في تنفيذها له.

فسافرنا وراء الركب الملكي وفي الطريق بالغت في تقديم إحتراماتي لكردينال (فِرارا)[1] الذي لم يكن قد تسلم بعد قلنسوة الكردينالية. وكانت أحاديثنا تمتد بنا طويلاً في الليالي. وأشار عليّ نيافته بالبقاء في (ليون) وعرض أن أكون ضيفاً عليه في دير داخل المدينة يعود له فأتمتع بالراحة حتى يقفل الملك عائداً من ساحة القتال. وقال ان الملك سيتوجه إلى (كرينوبل Grinoble) ولو أني بقيت في ديره لنلت كل ما أريده.

بعد وصولنا (ليون) إعتلّت صحتي. وإبتلي اسكانيو بحمى الرُّبع: وبنتيجة ذلك ضقت ذرعاً بالإفرنج وبلاطهم وإنتابني حنين إلى (روما) لا قِبَل لي بمغالبته. ولما تبين الكردينال شدة شوقي إلى العودة. دفع لي مبلغاً من المال لأصنع له إبريقاً وطستاً فضييّن ما أن يستقر بي المقام هناك. وهكذا باشرنا في رحلة العودة على خيول ممتازة سالكين طريق (سامبلون Simplon)[2] ورافقنا فرنسيون شطراً من الرحلة. وكان اسكانيو يعاني من حمى الرُّبع التي لازمته دون فكاك وأنا مريض بحمى مستمرة لا تزايلني لحظة واحدة وفي معدتي غثيان شديد لا أظنني تمكنت من إبتلاع رغيف كامل خلال أسبوع واحد، طوال أربعة أشهر. بتّ متحرقاً للعودة إلى إيطاليا لأموت فيها لا في فرنسا.

بعد إجتيازنا جبال (سامبلون) جئنا إلى نهر بالقرب من موضع يسمى (انديفيرو Indevedro)[3] وكان واسع المجرى عميق الغور فوقه جسر طويل ضيق لا حاجز على جانبيه. وفي صباح ذلك اليوم كان الجسر مكسواً بطبقة سميكة من الجمد الأبيض.

---

(1) أحد أفراد الأسرة الحاكمة لدوقية فِرارا وهو (أيوليتو ديستي Ipolito Este) ابن ألفونسو دوق فِرارا عاش حيناً من الزمن في فرنسا. وكان من مشجعي الأدب والفن.

(2) مضيق جبلي بين سويسرا وإيطاليا يمتد اليوم بالقرب منه نفق طوله سبعة أميال.

(3) في بعض التراجم ثبت الإسم هكذا [VALDEVERDO: فالديفردو] وربما قصد چلليني فال دي فيدر بمقاطعة التيرول السويسري. وأراد بالنهر [دوفرين].

وصلت الجسر متقدماً على الآخرين وأدركت الخطورة التي تنطوي على عبوره فأمرت صانعي وخادمي بالترجل وقيادة الخيل باليد وقطعته أنا بسلام وكنت أثناء ذلك أتبادل الحديث مع واحد من إثنين من الإفرنج وهو من النبلاء. أما الآخر وكان مسجّل عقود فقد كان يتبعنا على مسافة وهو يهزأ بي وبالفرنسي لأننا نتكبد عناء السير في حين لا خطر ثمّ. والتفت إلى الخلف فوجدته في منتصف الجسر فرجوته أن يلتزم جانب الحذر لأنه في أخطر جزء منه. إلا أن طبيعة الفرنسيين أبت إلا أن تؤكد نفسها فيه، فقد صاح برطانته الفرنسية قائلاً إني جبان وليس هناك أقل خطر. ولم يكد ينهي قوله هذا حتى لكز جواده لكزةً خفيفة. فإنزلقت قدم الحصان إلى حافة الجسر وهوى في اللجّة وأرجله متجهة إلى السماء بالقرب من صخرة عظيمة. إن الله الذي يرحم الحمقى والمغفلين دفع الحيوان وراكبه الأكثر حيوانية منه إلى الماء العميق فغاص كلاهما. ما إن رأيت هذا حتى استدرت بأسرع ما أمكنني وقفزت معتلياً الصخرة. وانحنيت حتى استطعت الإمساك بطرف السترة التي يرتديها وسحبته إلى فوق إذ كان تحت مستوى الماء. وكان قد إبتلع كمية كبيرة منه ولم يبق بينه وبين الغرق إلا قيد شعرة. فكان كلّ ما حضره من جواب باللغة الفرنسية قوله إني لم أفعل شيئاً والمهم هو وثائقه التي تسوى عشرات من الكراونات. وكان الغضب يبدو من لهجته وهو يقطر ماءً. عندئذ توجهت إلى الدليلين اللذين يرافقانا وأمرتهما بإنجاد الأحمق وسأدفع لهما أجراً على هذا. فقام أحدهما بمساعدته وتمكن بكثير من المهارة والمجهود من إستنقاذ الوثائق ولم يفقد منها شيء. إلا أن الدليل الآخر لم يحرك إصبعاً واحدة.

والشيء بالشيء يذكر إننا إتفقنا على كيس مصرفٍ واحد أتولاه أنا. فعندما بلغنا الموضع الذي ذكرته سابقاً وانتهينا من الغداء. نفحت الدليل الذي أعانه من سقطته بدريهمات. فإعترض الفرنسي قائلاً إنه غير مسؤول عن دفعها وبإمكاني التبرع بها من مالي الخاص لأنه لا يعتزم إعطائي أي شيء أكثر من الأجر الذي إتفقنا عليه لقاء خدماته كدليل. وهذا ما إضطرني إلى الردّ عليه بحدة ومصارحته برأيي فيه. ثم أقبل الدليل الآخر علي ـ وهو الذي لم يبذل جهداً قط ـ مطالباً بمبلغ له أيضاً. فقلت له:

ـ إن من يحمل الصليب هو الذي يستحق الجزاء ولا أحد غيره.

فأجاب يقول إنه سيريني عما قريب صليباً يستدر الدموع من عيني. فقلت رداً على هذا: في هذه الحالة سأشعل قطعة صغيرة من شمعة له وليكن على يقين بأنه أول من سيبكي[1].

الموضع الذي كنا فيه هو بمثابة حدود بين الألمان والبنادقة فإنطلق الرجل ثم عاد يتبعه رهط من الرجال وهو يحمل رمحاً كبيراً. كنت فوق حصاني الممتاز فخفضت فوهة البندقية ثم إستدرت إلى رفاق السفر وقلت:

- سأتولى قتله أولاً. وعليكم أنتم أن تؤدوا واجبكم أيضاً. فهؤلاء من قطاع الطرق القتلة. وهم يتعللون بهذه الحجة التافهة للقضاء علينا.

وتدخل صاحب الفندق الذي تناولنا غداءنا عنده، فنادى واحداً من مقدّميهم وكان رجلاً طيباً كبير السّن ورجا منه ان يضع لهذا النزاع حداً وقال له (يقصدني):

- إنه رجل شجاع للغاية. وإن تمكنتم من تقطيعه أشلاء، فلن يكون ذلك إلا بعد أن يصرع منكم عدداً كبيراً. وربما يفلت منكم بعد هذا.

وخفت الضجة وإنفضّ الجمع وقال لي رئيسهم الشيخ:

- إذهب بسلام. كان بإمكاننا أن نقطع أوتار ركبتك تقطيعاً، وإن كان معك مائة رجل.

أصاب الرجل كبد الحقيقة ولم أجهل ذلك قط وكنت قد صممت على الموت ولكني رفعت رأسي بعد أن تلاشى صدى السباب والشتائم وقلت:

- لقد إنتويت أن أقدم على كل ما يسعني الإقدام عليه لأثبت بأني من الأحياء الذين لا يموتون بسهولة والرجل الذي يحسب له كل حساب.

وواصلنا السفر. وفي تلك الليلة قمنا بتسوية حساباتنا في أول موضع إستراحة وفارقت رفاق السفر وبينهم ذلك الفرنسي البغيض وإن بقيت على أحسن صفاء مع

---

(1) في ترجمة أخرى نقلت هذه العبارة على الشكل الآتي: «إني سأشعل شمعة صغيرة لذلك الصليب قد يكلف هو بحملها عندما يعاد للتكفير عن آثامه وهو مرتدٍ قميصاً أبيض». وهي من المراسيم التي تتبع عند تنفيذ حكم الموت في ذلك الزمن.

النبيل الآخر. وذهبنا لوحدنا إلى فِرارا ومعنا خيولي الثلاثة. بعد أن ترجلت قصدت بلاط الدوق حالاً للسلام على سموه، لأتمكن من إستئناف سفري صباح اليوم التالي إلى (سانتا ماريا دالوريتو Santa Maria da Loreto) إنتظرت وقد مرت ساعات على الغروب فأقبل الدوق. فلثمت يديه ورحب بي ترحيباً حاراً وأمر بجلب الماء لغسل يدي فقلت له مبتسماً:

- مولاي لي أكثر من أربعة أشهر لم أتناول خلالها من الغذاء شيئاً أكثر من مجرد إبقاء روحي في جسدي. ولإدراكي بأني لا أستطيع الإستمتاع بالطعام على مائدتك الملكية، فسأبقى أجاذبك أطراف الحديث أثناء تناول سموّك عشاءه، وسيستأنس أحدنا بالآخر في الوقت نفسه أكثر بكثير مما لو تناولناه معاً.

وهكذا صرنا نتبادل أطراف الأحاديث زهاء ثلاث ساعات ثم إستأذنت منه وإنصرفت. ولدى عودتي إلى الفندق وجدت مأدبة فخمة في إنتظاري. فقد أرسل الدوق من مائدته أصنافاً مع كثير من الخمر المعتقة. ولما كان قد مرّ على موعد عشائي الإعتيادي مقدار ساعتين فقد تفتحت شهيتي فتناولت طعامي بلذة لأول مرة بعد أربعة أشهر.

وفي صباح اليوم التالي توجهت إلى سانتا ماريا دا لوريتو. فأديت فريضة الصلاة والدعاء ثم إنطلقت نحو روما وبلغتها لأجد (فيليجي) المخلص الأمين. فتركت له دكاني بكلّ ما فيها من أثاث وبضاعة، وفتحت دكاناً آخر تجاور (سوكيرللر Sugherell) العطّار وهي أوسع وأرحب من الأولى.

حسبت أن ملك فرنسا العظيم قد نسيني تماماً. ولذلك تعهدت القيام بكثير من الأشغال لمختلف النبلاء كما كنت أشتغل أيضاً في إبريق وطاس الكردينال الذي كلفني بهما. وإستخدمت عدداً كبيراً من الشغيلة وقمت بصفقات تجارية طيبة في الحلي الذهبية والفضية. وإتفقت مع مساعدي البيروجي أن يعمل قائمة بكلّ المبالغ التي أنفقتها عليه في الرحلة مع الثياب وغيرها من المصاريف فبلغت سبعين كراوناً تقريباً وإتفقنا على إيفاء دينه هذا بدفع ثلاثة كراونات كان يكسبها من عمله عندي.

وبنهاية شهرين فرّ الوغد الزنيم وتركني مثقلاً بالعمل. قائلاً انه يرفض ان يدفع أي شيء من دينه المتبقي.

ونُصحت باللجوء إلى القضاء لإستحصال حقي. في حين كان أول ما طرأ في فكري هو قطع ذراعه وكنت سأفعل ذلك حتماً لو لم يقنعني أصدقائي بأن هذا لن يعود عليّ بالفائدة، إذ سأخسر نقودي وربما خسرت روما معها ثانية، كما إن المرء لا يدري ماذا يتأتى من القتال في حين كان بإمكاني إستحصال أمر بإعتقاله وعندي العقد المكتوب بخط يده، فعملت بنصيحتهم وإن كنت أفضل تسوية الأمر بطريقتي الخاصة. ورفعت شكوى أمام القاضي البابوي وربحتها بعد عدة أشهر. وكانت النتيجة إيداعه السجن.

وثم إكتنفتني الأشغال من كل صوب وكلها مهم ومن بينها قيامي بعمل كلّ الحلي والمصوغات الذهبية والجوهرية للسيد النبيل (جيرولامو أورسيني Grolamo Orsini)[1] وهو والد (باولو Paolo) الذي هو اليوم خَتَن الدوق كوزيمو دي ميديتشي دوقنا الحالي. ولم أكد أنتهي منها حتى تراكمت عليّ أعمال هامة أخرى هكذا دون فاصلٍ. وكان عندي ثمانية مساعدين نعمل ليلاً ونهاراً في سبيل السمعة والربح.

فيما أنا منهمك بأعمالي المتراكمة وصلتني رسالة عاجلة جداً من كردينال فِرارا، هذا نصها:

«أي بنفنوتو صديقي العزيز:

خلال الأيام القلائل الماضية تذكرك الملك العظيم القويم الدين وأبدى رغبته في ضمّك إلى خدمته. فكان جوابي له بأنك قطعت وعداً بالعودة دون تأخير متى طلبت

---

(1) أسرة أورسيني هي إحدى أشهر أسرتين في روما. تنازعتا النفوذ طوال ثلاثة قرون وكان منهما القادة والأمراء والباباوات والكرادلة. (الأخرى هي أسرة كولونا) ويرى الآن قصر آل أورسيني مشيداً فوق الملعب الروماني الأثري المعروف مارجللوس. الذي بدأ يوليوس قيصر بتشييده وأكمله أغسطس قيصر في (11 ق.م). وجيرولامو أورسيني هنا هو سيد إقطاعية براجيانو Bracaono والقائد المعروف وزوجه هي فراشسكا سفورزا، وابنه دوق براجيانو تزوج بنت كوزيمو دي مديتشي ثم قتلها. وتزوج بفكتوريا أكورامبوني وهي بطلة مأساة (الشيطان الأبيض) للقصص الدرامي (جون وبستر 1580 ـ 1625) الإنكليزي.

منك ذلك نيابة عن جلالته. فقال جلالته يجب أن يزوّد بنفنوتو والحالة هذه بما يحتاجه من نفقات السفر. على أن تكون بالشكل الذي يليق بمن هم في مكانته. ثم أمر قائد أسطوله فوراً بأن يصرف لك من بيت المال مبلغ قدره ألف كراون فانبرى (الكردينال دي كادي) الذي كان موجوداً اثناء الحديث. وتقدم من جلالته قائلاً لا حاجة تدعو إلى إستصدار مثل هذا الأمر لأنه (أي كردينال دي كادي) قد أرسل لك مبلغاً كافياً لتستعين به على السفر وإنك في طريقك الينا فعلاً. فإن كان ما زعمه الكردينال دي كادي صحيحاً ـ وهو ما أشك فيه كثيراً فأجب رسالتي حالاً. وسأمسك بطرف الخيط هنا وأعمل على إرسال المنحة التي وعدها بها ملكنا المعظم».

ألا فلتشهد الدنيا وكلّ من عليها من البشر كيف تعمل سوء الحظوظ في طوالعنا نحن أبناء البشر المساكين! لم اوجه طوال حياتي اكثر من كلمتين لهذا المغفل التافه الحقير من الكرادلة. وهذا التباهي والإدعاء لم يكن بدافع سوء النية ولا كان بقصد إيذائي وإنما هو محض فضول أحمق يريد به أن يظهر بمظهر الراعي للفنانين والمهتم بأمرهم وصاحب العلاقة بهم كابراً عن كابر، ولا سيما أولئك الذين يريد الملك ضمهم إلى خدمته ـ مقلداً بذلك كردينال (فِرارا). لقد كان بدرجة من البلادة والغباء بعد ان أقدم على هذه الفعلة، إنه لم يخبرني بها قط ولو لحقني علم بها فربما كنت سأتدبر مخرجاً وأقيله من عناده الغبيّ بها تغطية لحيلته الساذجة الخرقاء. وبذلك يمكنني على الأقل المحافظة على سمعة هذا الجرو المدلل البليد فهو على كل حال ابن بلدي.

ما أن إنتهيت من تلاوة الرسالة حتى أسرعت في الإجابة ومما قلت:

«أمّا عما زعمه الكردينال دي كادي فلا علم لي به مطلقاً. ولو كان إقترح عليّ شيئاً من هذا القبيل لما تحركت من إيطاليا من غير إعلام نيافتك الكلّي والإحترام خاصة وأن أشغالي في روما كثيرة وجسيمة بشكل ما عهدته قبلاً».

ثم إستطردت أقول مستدركاً:

« إلا أن إشارة واحدة من جلالته القويم الدين، تأتيني عن طريق مقام سامٍ كمقام الكردينال (فِرارا) تجعلني لا أتردد لحظة في ترك كل شيء».

بعد إرسال هذا الجواب. تفتق ذهن صانعي البيروجي الخائن عن عملية غادرة كتب لها النجاح في الحال، ويُعزى جانب من نجاحها إلى بخل البابا بولس فارنيزي وحرصه الشديد. إلا أن السبب الرئيس يعود إلى إبنه النغل الذي كان يُلقب وقتئذ بـ(دوق كاسترو). هذا الصانع أخبر واحداً من مقربي (سنيور بيير لويجي) بأنه كان في خدمتي سنيناً عدة وهو بحكم طول خدمته مطّلع على كل أسراري وبإمكانه أن يقسم يميناً للسنيور بيير لويجي بأن ثروتي تزيد عن ثمانين ألف دوقية. ومعظم هذه الثروة هو أحجار كريمة وجواهر من ممتلكات الكنيسة، وإني قد سرقتها في قلعة سانت أنجلو أيام حصار روما. وحثهم على إلقاء القبض عليّ بسرعة وسرية لئلا أعلم بنواياهم وأفلت من قبضتهم.

في صباح ذات يوم. وضعت معطفي على كتفي وخرجت من الدكان لأتمشى قليلاً. كنت قد إشتغلت حتى ساعة متأخرة من الليلة الفائتة ولم أتوقف إلا والساعة تشير إلى الثالثة قبيل الفجر وقد أشغلني حليّ العروس التي نوهت بها. فإنتهزت فرصة قيام العمال بفتح الدكان وتنظيفه. فقادتني قدماي إلى (يوليا سترادا) ولما بلغت منعطف كيافيكا Chiavica إعترضني (كرسبينو Chrispino) البارجللو وكلّ رجاله وقال:

- أنت سجين البابا.

قلت:

- كرسبينو إنك تعتقل شخصاً غير مطلوب إعتقاله.

فأجاب:

- كلاً، فأنت بنفنوتو الفنان. وأنا أعرفك حقّ المعرفة. ومن واجبي أن آخذك مخفوراً إلى قلعة سانت أنجلو، وهو المكان الذي يوخذ إليه النبلاء والفنانون أمثالك.

ثم ألقى أربعة من رجاله بأنفسهم عليّ محاولين إنتزاع الخنجر الصغير المشدود إلى جنبي وبعض الخواتم في أصابعي. إلا أن (كرسبينو) ردّهم قائلاً:

- إرفعوا أيديكم عنه! أدوا واجبكم فحسب بألا تدعوه يهرب منكم.

ثم تقدم وسألني بأدب تسليم سلاحي. وفيما أنا أقوم بذلك تذكرت فجأة اني قتلت (بومبيو) في هذه البقعة بالذات. إقتادوني إلى القلعة ووضعوني في غرفة مقفلة

بوصفي سجيناً، وتقع فوق السور مباشرة. وكانت هذه أول مرة في حياتي البالغة سبعة وثلاثين سنة، أذوق فيها طعم السجن[1].

عندما فكر (بيير لويجي) بجسامة المبلغ الذي إتهمت بسرقته طلب من والده في الحال أن يمنحه إياه عند إستحصاله. فوافق البابا بطيبة خاطر بل وعده أن يساعده في إستحصاله. ولهذا فبعد ان بقيت سجيناً ثمانية أيام ولأجل إنهاء القضية أرسلوا بطلبي للتحقيق. جيء بي إلى واحدة من القاعات البابوية الكبرى في القلعة ذات المنظر المهيب. والمحققون هم حاكم روما، وهو من (بستوي) ويسمى (بنديتو كونفرسيني Beneditto Conversini) رُسّم فيما بعد أسقفاً لـ(ييزي Jesi) ومدير مالية الدولة وقد نسيت إسمه. و(بنديتو دا كالي B. da Cagli) قاضي محكمة الجزاء.

بدأ الثلاثة إستجوابي بلطف زائد، ثم راحو يهددون ويتوعدون بشكل شرس لأني قلت لهم:

- سادتي! إنكم ما إنفككتم خلال أكثر من نصف ساعة تسألوني عن حكاية الثور والديك وغيرها من الحكايات العجيبة. والمرء لا يسعه إلا أن يصف كلامكم هذا بالثرثرة العشوائية. واقصد بالعشوائية إنكم تنطقون بكلام لا معنى له. واقصد بالعشوائية إنكم لا تقولون شيئاً أبداً. ولذلك أرجو منكم ان تخبروني بحقيقة مطلبكم ودعوني اسمع كلاماً معقولاً بدلاً من الثرثرة العجيبة.

عندها لم يستطع حاكم روما البستويي ان يخفي طبعه العنيف فصرخ:

- انك شديد الثقة بنفسك. في الواقع شديد الغرور والإدعاء ولأجعلنك تزحف كالجرو عندما تسمع ما سأقول. وهو ليس بالثرثرة ولا بالعشوائية كما وصفت، وإنما سلسلة من الحجج والبراهين ستزغمك على محاولة تفسير مسلكك.

وبدأ كالاتي:

«إننا نعلم بصورة مؤكدة بأنك كنت في روما عندما حوصرت هذه المدينة السيئة

---

(1) كان إعتقال جلليني في 16 تشرين الأول 1538.

الحظ. وكنت آنذاك في قلعة سانت أنجلو بوظيفة مدفعيّ، ولما كنت صائغاً وجواهرياً فإن البابا كليمنت بناء على معرفته السابقة بك ولما لم يكن هناك صائغ غيرك، وضع ثقته بك وطلب منك ان تقوم بقلع الجواهر التي يحتويها تاجاه البابويان وحلله الكهنوتية وخواتمه. ثم طلب منك بناء على ثقته بك أن تخيط هذه الجواهر في حواشيّ وبطانات ثيابه التي يرتديها هذه الجواهر. وفي أثناء قيامك بهذا العمل إحتفظت لنفسك بقسم منها في غفلة من قداسته، مما تبلغ قيمته ثمانين ألف كراون. وإنك أفشيت سرّك هذا لأحد عمالك متباهياً وهو الذي أخبرنا بالحادث. ونحن الآن نأمرك بكل صراحة بتسليم الجواهر أو قيمتها وسنخلي سبيلك».

لما سمعت هذا لم أجدني إلا وأنا أنفجر مقهقهاً. ثم وبعد ان تمالكت نفسي، قلت:

- اني اشكر الله لأنه وقد شاءت إرادته أن أسجن لأول مرة، لم يشأ أن أُخذ بجريرة تافهة مما يقع فيه الشباب عادة نتيجة نزقهم وطيشهم. ولو كان ما زعمتموه صحيحاً. فلا جناح عليّ ولا يمكن أن توقع بي عقوبة دينية لأجله، لأن القانون في ذلك الظرف كان قد أوقف العمل به ولذلك بإمكاني التخلص من المسؤولية بتقديم هذا الدفع وكموظف رأي من واجبه حراسة هذا الكنز للكنيسة المقدسة الرسولية حتى تسنح لي الفرصة لإعادته إلى بابا صالح - أو في الواقع إلى الرجل الذي طلبه مني وهو أنت، في حالة ما إذا كانت القصة صحيحة.

ولم يدعني أكمل دفاعي فقد قاطعني الحاكم البستويي المخرف بغضب:

- ضعها في أي قالب كلامي تريده يا بنفنوتو، فما نسعى إليه هو إستعادة مالنا. فعجّل به وإلا ستلقى منّا أكثر من الكلمات.

وتهيأ للنهوض والإنصراف، فقلت:

- اني ما زلت تحت الإستجواب ايها السادة. ولذلك أرجو ان تفرغوا منه، واذهبوا بعدها حيث شئتم.

فعادوا إلى مقاعدهم حالاً. إلا أنهم كانوا يتميزون غيظاً مني. واظهروا ما يفيد

بأنهم سمعوا مني الكفاية وانهم مقتنعون تقريباً بحصولهم على كل ما يريدون معرفته. إلا انني بدأت الكلام بقولي:

- ايها السادة ينبغي لكم ان تعلموا بأني عشت في روما زهاء عشرين سنة ولم ادخل سجناً لا فيها ولا في مدينة اخرى.

وهنا صاح الكلب الشرطي المسمّى حاكماً:

- لكنك إرتكبت بعض جرائم قتل.

أجبت:

- أنت تقول هذا لا أنا. وعلى أي حال لو حاول احدهم قتلك، فلا بدّ وأن تدافع عن نفسك مع أنك كاهن. فإن قتلته فالقانون الإلهي سيعذرك ويقدر ظروفك. ولذا فإن شئتم أن يطلع البابا على نتيجة تحقيقكم وإن سمحتم لي بحرية القول فدعوني أواصل دفاعي. اعيد القول إني عشت في هذه المدينة الجليلة روما زهاء عشرين سنة. وفي خلال هذه الحقبة من الزمن انجزت اعمالاً فنية رائعة. ولما كنت أدري بأن هذه المدينة هي كرسي السيد المسيح، فقد كنت دائماً أوكد لنفسي انه اذا ما اراد أمير دنيويّ ان يعتدي عليّ ظلماً فملجئي سيكون العرش المقدس وحاميّ هو نائب السيد المسيح الذي سيدافع عني. اما الآن فعونك أيتها السماء! إلى أين أذهب ولمن أشكو؟ أي أمير سيدفع عني غائلة هذه التهمة الغادرة؟ أما كان عليكم ان تكشفوا عن الموضع الذي خبأت فيه هذه الآلاف الثمانين من الدوقيات قبل القبض عليّ؟ أما كان يترتب عليكم أن تقوموا بفحص سجلات الجواهر التي تحرص دائرة التوقيعات البابوية على الإحتفاظ بها أشد الحرص طوال خمسمائة سنة؟

فإذا وجدتم بعد هذا شيئاً مفقوداً فعليكم عند ذلك أن تضعوا أيديكم على دفاتري وسجلات حساباتي ولا تكتفوا بشخصي. استطيع ان أوكد لكم أن السجلات التي تتضمن قائمة بكلّ جواهر البابا وحليته الكهنوتية ليس فيها شائبة. ولن تجدوا أياً مما يعود إلى البابا كليمنت مفقوداً إلا إذا دونت ملاحظة دقيقة عن ذلك. على ان هناك أمراً واحداً. فعندما كان هذا البابا التاعس كليمنت يفاوض الصلح مع هؤلاء اللصوص الإمبراطوريين الذين نهبوا روما وبصقوا على الكنيسة. أقبل شخص يدعى (جيزاري

اسكاتينارو Cesaro Iscatinaro)[1] إن لم تخنّي الذاكرة، ليقوم بدور المفاوض وعقد المعاهدة. وبعد أن إنتهى أو كاد من مناقشاته مع البابا المُساءة معاملته، أراد قداسته ان يظهر بعض عطفٍ تجاهه فما كان منه إلا أن أسقط من إصبعه خاتماً ألماسياً قيمته نحو أربعة آلاف كراون. فإنحنى (إسكاتينارو) وإلتقطه وأنا واقف. فرجاه البابا ان يقبله هديةً منه اكراماً لخاطره. فإذا كانت هذه الألماسة ناقصة فها إني أخبرتكم بمصيرها على اني اكاد اكون واثقاً بأنها مؤشرة هي الأخرى في السجلات. وعلى هذا يمكنكم الانصراف خجلين من الاسلوب الغاشم الذي اتبعتموه في حملتكم على رجل في وزني. رجل أدى أجلّ الخدمات للعرش البابوي وبوسعي القول: لو لم أكن ذلك الرجل الذي ترون. لسهل على جنود الإمبراطور الذين دخلوا الحوزة Borgo إقتحام قلعة سانت انجلو دون ان يلاقوا مقاومة. فكنت انا الذي اسرعت إلى المدافع التي تركها المدفعيون وجنود الحامية. (ولم انل عن ذلك اية مكافأة) مستنهضاً همة أحد رفاقي النحّات (رافايللو دا مونتيللوبو) وكان قد ترك هو الآخر موقعه وأخفى نفسه في زاوية حيث وجدته مرتعباً منهارا. فبثثت فيه الشجاعة وبتعاوننا وحدنا قتلنا الكثير من العدو وأجبرناه على التحول إلى طريق آخر.

وأنا الذي اذقت (إسكاتينارو) طعم ناري لأنه تهجم على البابا وكلمه بلهجة خلت من الإحترام كالملاحدة واللوثريين. ولما حصل هذا أمر البابا كليمنت السابع بتفتيش الحصن للعثور على مطلق النار وشنقه. انا الذي جرحت أمير أورانج في رأسه في أسفل خنادق القلعة. إلى جانب هذا كم صنعت للكنيسة المقدسة من الحلي الذهبية والفضية والتحف المكفتة بالجواهر، كم من الميداليات الجميلة والنقود الشهيرة! حسن! اذهبوا واخبروا البابا بكلّ ماقلته. وزيدوا عليه هذا: اما بخصوص جواهره فكلها موجودة عنده، واني لم أنل من الكنيسة غير الجراح والرجم بالحجارة اثناء حصار روما. وقولوا له أيضاً اني ما بنيت أي أمل على أي شيء خلا ما وعدني

---

(1) لا بد وأن يكون جيوڤاني بارتولوميو كاتينارا. وهو الشخص الذي بحث معه البابا كليمنت السابع الشروط الممهدة للصلح. وانتهت بالمعاهدة التي أدت إلى استسلامه وبقائه رهينة في قلعة سانت انجلو على نحو ما تقدم.

به البابا بولس من مكافأة صغيرة وأخال كلامي الآن واضحاً تماماً بالنسبة إلى قداسته وبالنسبة اليكم انتم كهنته».

كانوا ينتظرون نهاية اقوالي وهم مصعوقون بما سمعوا. ثم تبادلوا النظرات وخرجوا مشدوهين. ذهب ثلاثتهم جميعاً معاً إلى البابا لينقلوا إليه اقوالي. فشعر بالخجل من نفسه وامر بأن تُفحص السجلات فحصاً دقيقاً. فتبين للجميع انها كاملة لم يفقد منها شيء. إلا انهم ابقوني حبيساً في القلعة من دون ان يقولوا لي كلمة واحدة. حتى (السنيور بيير لويجي) فقد اعترف بأنه إرتكب خطأً فاحشاً. وبعدها بذلت كل الجهود الممكنة لإيرادي حتفي[1].

بينما كانت هذه الأحداث تمرّ بي ابلغ الملك فرنسوا بتفاصيل الإجراءات المتعسفة التي إتخذها البابا بولس بحقي والظلم الذي آتاه بإبقائي سجيناً. وكان قد أوفد أحد نبلائه سفيراً إلى روما وهو السيد (دي مونتلوك de Montluc)[2] فبعث يأمره بأن يتقدم بطلب إطلاق سراحي بإعتباري أحد مستخدمي جلالته. كان البابا من الدهاة إلا أنه تصرف بخصوص قضيتي تصرف الحمقى السُذّج. إذ كان جوابه لسفير الملك قوله: يجب أن لا يهتم جلالته بشخص مثلي يستفز الناس ويدفعهم إلى القتال بالسلاح دائماً. ولهذا فهو ينصح جلالته بأن يسقطني من حسابه لأنه إعتقلني لجرائم قتل وغيرها من الجرائم الكبرى التي إرتكبتها.

فردّ الملك على هذا بقوله: إن العدل يسود مملكته والقانون له الكلمة العليا. وهو لا يتردد في معاقبة الخارجين عليه مثلما لا يتردد في إكرام المشاهير والعباقرة والموهوبين، وأضاف يقول: وبما ان قداسته غير مهتم بخدمات بنفنوتو وإنه كان قد تركه يغادر روما فلما وجده (أي الملك) في مملكته سرّه أن يضمه إليه ويفيد من خدماته. ولذلك فهو يطلب تسليمي له بوصفي واحداً من اتباعه.

---

(1) نشر (برتولوتي) نص المحظر الرسمي للتحقيق، ويستفاد منه ان چلليني لم يكن بمثل الصلابة وذلاقة اللسان اللتين وصف بهما نفسه هنا.

(2) وفيما بعد اسقف ڤالنسي Vaence كان على رأس الوفد الذي أرسل بمناسبة إنتخاب الملك هنري دانجو لعرش بولونيا. وأخوه (بليتز) مارشال مشهور.

سبب لي هذا قدراً كبيراً من الأذى وكثيراً من المشاكل. مع كل ما يعكسه من الحظوة العظيمة التي يتمناها كل أمرئ من طبقتي. لقد أثير حنق البابا بهذا وكان يخشى في حالة إخلاء سبيلي ان انشر على الملأ سوء فعله وظلمه الصارخ فأفضحه فضحاً. لذلك صار يفكر في طريقة للقضاء على حياتي دون ان يلحق بسمعته ضرر.

كان محافظ قلعة سانت انجلو مواطناً فلورنسياً يدعى (جيوجيو) وهو حائز لقب فارس ومن أسرة (أوكوليني Ugolini) بذل لي هذا الإنسان الكريم كل ما في طوقه من التسهيلات وأحسن معاملتي بشكل يجلُ عن الوصف. لقد تركني حراً أتنقل في أرجاء الحصن على هواي بعد أن أعطيته كلمة شرف بألاّ أحاول الفرار. ولم يكن يجهل مقدار الظلم الذي حاق بي. رغبت منه أن يدعني اخرج من القلعة وأتدبّر شؤوني وأعمالي بعد إعطائي ضمانة. فأبى ذلك لأن البابا يأخذ قضيتي مأخذاً جدياً. وقال إنه يثق بكلمتي ثقة تامة لأن الناس أجمعوا على اني إنسان شريف. فأعطيته كلمة الشرف، وسمح لي بمواصلة عملي داخل القلعة بشكل محدود. كنت أتوقع ان يزول غضب البابا بعد تأكده من براءتي فيطلق سراحي إرضاءً للملك، لذلك أبقيت دكاني مفتوحاً. وكان مساعدي (اسكانيو) يأتيني ببعض الأشغال إلى القلعة إلا أني لم أكن في حالة نفسية تؤهلني للعمل الجدي المتواصل. ففكرة بقائي سجيناً دون وجه حق كانت تذيقني مرّ العذاب. مع هذا بثثت في نفسي الشجاعة. وشددت من عزمي وجعلت من الضرورة فضيلة.

وثّقت عرى الصداقة بالسجّانين وبعدد كبير من جنود القلعة، وكان البابا يتناول عشاءه أحياناً في القلعة. وعندئذ ينسحب السجّانون من كل مكان وتُفتح الأبواب كلها فتبدو القلعة وكأنها قصر كسائر القصور. ولهذا السبب كان المعتقلون يلازمون غرفهم طوال فترة وجوده وأبوابهم مقفلة عليهم. بإستثنائي فإني أبقى حراً أتجول في أنحاء القلعة.

كثيراً ما نصحني الجنود بالفرار. بل تعهد بعضهم بمساعدتي لعلمهم بمدى الظلم الذي لحقني. فأجيبهم بأني أعطيت كلمة شرف لمحافظ القلعة، ذلك الرجل الشهم

الذي أقدم على الكثير في مجال مساعدتي. وكان بينهم جندي مقدام ذكي جداً. قال لي:

- عزيزي بنفنوتو. ألا تدري أن أي سجين لا يمكن ان تؤخذ منه كلمة شرف. وهو غير مرغم على المحافظة عليها أو على أي شيء آخر. إفعل ما قلته لك: اهرب من هذا البابا اللئيم وابنه النغل اللذين عقدا النية على إزهاق روحك.

إلا أني صممت على تعريض نفسي لخطر الموت ولا أخون عهدي مع المحافظ الكريم. فتحملت آلامي مع رفيقٍ لسوء الحظ وهو راهب من أسرة (باللافيجيني Pallavicini)[1] واعظٌ لا يُشقُّ له غبار قُبض عليه بوصفه لوثرياً. كان من ناحية العِشرة نعم الصديق الرفيق. أما من ناحية الدين فهو شرّ وغد من الرهبان في الدنيا. لقد مارس كل رذيلة وقبيحة. وكنت معجباً بملكاته ومواهبه إلا أني كرهت رذائله الحيوانية ولطالما أنّبته عليها. لم يكن يكُفّ قط عن تذكيري بأني غير ملزم بكلمة الشرف التي قطعتها للمحافظ بإعتباري سجيناً. وكان جوابي على هذا أنه يصدق على راهب ولكن لا يصدق على رجل. فكلُّ من كان رجلاً وليس راهباً يتحتم عليه أن يحافظ على كلمته مهما كانت الظروف وأينما وجد نفسه. وبما أني رجل لا راهب، فلن أرجع عن كلمة الشرف البسيطة التي أعطيتها. وبعد أن أدرك أنه لن ينجح في إفسادي بمنطقه القوي وسفسطته الماكرة التي كان يبسطها بحذقٍ ومهارة، فكّر في إغرائي بطريقة أخرى. وإنتظر مرور بضعة أيام كان خلالها يقرأ لي مواعظ لـ(جيرولامو سافونارولا): إلا أن تعليقاته البليغة عليها كانت أجمل وأجلّ من المواعظ نفسها. فسحرتني وأسرتني بحيث أبديت له إستعدادي لتلبية أي طلب له إلا إخلالي بكلمة الشرف. وعندما وجد إنجذابي إليه بهذه الشدة فكّر في خطة أخرى. وبأسلوب إستدراجي مبطن. سألني بماذا سأتوسل لفتح أبواب زنزانتي لو أقفلوها عليّ؟ في حالة ما لو صحّ عزمي على الهروب؟

فطاب لي أن أثبت لهذا الراهب اللامع الذكاء بأني حادّ الذهن واسع الحيلة أيضاً.

---

(1) عُرف هذا الراهب بأنه أقوى الوعاظ عارضةً ومن أشهرهم. اعتقل في 1538 لمدة سبعة أشهر ولم يكن هذا إعتقاله الأخير.

فأجبته أني بالتأكيد لن أجد أيّ صعوبة في فتح أشدّ الأقفال تعقيداً. ولا سيما أقفال السجن فهي أسهل من قطعة جبن طريّة.

فتظاهر الراهب بالشكّ في إدعائي، ليدفعني إلى إفشاء السرّ وقال بلهجة ساخرة:

- إن أولئك الذين عُرفوا بالذكاء كثيراً ما أطلقوا مثل هذه الإدعاءات. إلا أنهم يفقدون سمعتهم هذه ولا يستعيدونها البتة عندما يُطلب منهم إثبات مدعياتهم عملياً.

وأضاف يقول إن ما سمعه منيّ لا يمكن تصديقه بحيث لو وضعته موضع التطبيق لخسرت ما أتمتع به من صيتٍ. لقد وضعني هذا الراهب على المحكّ فما وسعني إلا الإجابة بقولي: إني تعودت الوعد بأقل ما يمكن إنجازه وأفعالي هي أكثر بكثير من أقوالي. وإنّ ما ادعيت حول المفاتيح هو أسهل شيء في الدنيا عندي ولن أحتاج إلى أكثر من كلمات قليلة لأجعله يدرك صحة قولي. ثم إني قمت دون تفكير وتأملٍ، بإثبات زعمي بإراءته عملياً كيفية ذلك. وتظاهر بأنه لا يهتم مطلقاً إلا أنه إستوعب الموضوع بأسرع ما يمكن وبسعة حيلة لاتُدانى.

وذكرت سابقاً أن محافظ القلعة الطيب ترك لي حرية التجوال في أرجاء الحصن ولم يكن يقفل عليّ بابي كالآخرين. كذلك سمح لي بالإشتغال بما أريد سواء بالفضة أو الذهب أو الشمع. وكنت في الواقع منهمكاً بضعة أسابيع في عمل طاس وإبريق كردينال (فرارا). إلا أن جو السجن أنهكني حتى أدركني الملل مما أعمل، وعلى سبيل التسرية صرت أعمل بعض التماثيل الشمعية الصغيرة فسرق الراهب شيئاً من هذا الشمع. وأخذ يعمل منه نماذج للمفاتيح بالطريقة التي شرحتها له في ساعة غفلة. وإصطنع له صديقاً وشريكاً من أحد موظفي المحافظ يدعى (لويجي) من أهالي (بادوا). إلا أنه كلف صانع مفاتيح بعملها فقام هذا بالإخبار عنهما. وكان من عادة المحافظ ان يختلف إلى غرفتي لتفقدها. وفي إحدى المرات لاحظ الشمع الذي إشتغل به هو من نفس النوع الذي ضبطه عند الراهب. وهذا أدى به القول:

- لا شك ان بنفنوتو المسكين قد لحقه ظلم كبير. إلا أن هذا لا يبرر له الإساءة اليّ بعد عطفي عليه ومنحه إمتيازات خاصة له أكثر مما تسمح لي به وظيفتي.

وأضاف يقول: انه سيطبق أشد الإجراءات بحقي ولن يريني أي عطف مهما قلّ.

وهكذا قفل عليّ غرفتي. وكان هذا من أصعب الأمور على نفسي ومما زاد في الطين بلّة ألسنة خدم المحافظ التي تناولتني بالقذف والتجريح بعد أن كانوا شديدي الحبّ لي. فوصفوني بناكر الجميل والغادر واللئيم والمعدوم الضمير. وإنبرى لي أحدهم بوقاحة فاقت وقاحات رفاقه ودفعتني براءتي إلى إجابته بحدّة. وقلت له إني لم أغدر ولم أنكث بعهدي وإني مستعد للتضحية بنفسي لإثبات ذلك. وإن عاد هو أو غيره إلى إلقاء الشتائم في وجهي، فإني سأحاسبهم عليها حساباً عسيراً. فلم يتحمل قولي هذا وأسرع إلى غرفة المحافظ ثم عاد يحمل الشمع والنموذج المصنوع للمفاتيح منه. فما ان وقعت عيني عليه حتى أسرعت اقول له إن كلانا على حق. ومن الضروري ان يدعني اكلّم المحافظ وسأشرح له حقيقة الأمر. لأنه أهم وأخطر مما يتصورون. فأرسل المحافظ يطلبني في الحال وانهيت له بالحكاية من اولها إلى آخرها. وكانت النتيجة ان ضيّق الخناق على الراهب فإعترف هذا بكلّ شيء ونمّ عن شريكه الموظف. وكاد الموظف ان يُشنق وحاول المحافظ التستر على القضية إلا انها كانت قد وصلت إلى أسماع البابا على انه افلح في انقاذ موظفه واعاد اليّ حريتي كالأول.

عندما فكرت في القسوة والإجراءات الصارمة التي اتّبعت معي في هذه القضية. بدأت أقلب في فكري المسألة. فوازنت الموضوع وقلت لنفسي:

- لو ثارت عاصفة ثانية كهذه. وزالت ثقة الرجل بي فلن أجد نفسي ملزماً بالعهد الذي قطعته له. سأدرس الموضوع قليلاً. وإني لمتأكد بأن إجتهادي سيصيبني نجاحاً اكثر مما أصابه ذلك الراهب الوغد.

بعد هذا طلبت تزويدي من الخارج بأغطية جديدة خشنة. ولم أعد الأغطية المتسخة ولما إستفسر عنها خدمي قلت لهم أسقطوها من حسابكم لأني أعطيتها لبعض الجنود الفقراء. ولو إنكشف الأمر لتعرض خدمي هؤلاء إلى الحكم عليهم بالأشغال الشاقة في عنابر السفن. ولذلك كتم غلامي وخدمي ولا سيما (فيليجي) أمر الأغطية كتماناً تاماً. بعد هذا قمت بإفراغ فراشي من حشوة القش وإحراقه تدريجياً في الموقد الذي كانت غرفتي مزودة به لحسن الحظ وللسماح لي بإيقاده. ثم بدأت أقطع الأغطية على شرائط بعرض سبع إنشات. ولما هيأت منها ما قدّرت انه يكفي للهبوط

به من الإرتفاع العظيم للحصن إلى خارج السور. قلت لخدمي إني أعطيت أغطيتي الخشنة وما عدت بحاجة إلى أكثر وعليهم ان يزودوني الآن بأغطية ناعمة وإني من الآن فصاعداً سأعيد إليهم المتسخة منها وتنوسي الموضوع كله.

اشار الكردينالان (سانتيكواترو) و(كورنالو) على عمالي وخدمي بإقفال دكاني. وقالا لي بصراحة إن البابا ليس لديه أقلّ نية في إخلاء سبيلي. وإن الاهتمام العظيم الذي أبداه الملك فرانسوا بي قد أضرّ بي أكثر مما نفعني. ففي آخر رسالة شفوية عن الملك أبلغها (مونسيور دي مورلوك di Morluc) قال ان على البابا ان يحيل قضيتي إلى القضاة المدنيين العاديين فإن إرتكبت جرماً فبإمكانه معاقبتي وإن كنت بريئاً ولم أقترف ذنباً فالعدالة تقتضي بإطلاق سراحي. هذا القول أغاظ البابا بحيث أبعد عن رأسه أية فكرة تساوره حول إخلاء سبيلي. ولكن الذمة تقضي عليّ أن أعترف بأن المحافظ لم يأل جهداً في مساعدتي.

ولما رأى خصومي أن دكاني قد أقفلت أخذوا يتجرأون على عمالي وخدمي ولم يكن يمرّ يوم واحد دون أن يعتدوا عليهم بالسبّ والسخر منهم وبأصدقائي الذين يأتون لزيارتي في السجن. وفي واحدة من هذه المناسبات طلب مني إسكانيو الذي إعتاد زيارتي مرتين في اليوم ـ أن أسمح له بخياطة سترة صغيرة من معطفي الذي لم ألبسه إلا مرّة واحدة في مسيرة يوم العيد وهو من الساتان الأزرق. فأجبته ليس هذا بالوقت والمكان المناسب لإرتداء مثل هذه الثياب. فتألم الفتى لرفضي إعطاءه هذا الشيء التافه الحقير، وصرّح إنه يريد العودة إلى مسقط رأسه (تالياكوزا). فثار غضبي وقلت سأكون سعيداً لو تخلصت منه. فحلف انه لن يعود إلى زيارتي بعد الآن. وكنا أثناء هذه المشادة نتمشى حول سور القلعة. وإتفق ان المحافظ كان يتجول هناك وعندما إقتربنا منه قال لي (إسكانيو):

ـ إني سأتركك إذن. نهائياً.

فأجبت:

ـ أتمنى أن تكون ثابتاً على قولك وأن يكون هذا نهائياً وسأخبر الحرس أن لا يسمحوا لك بالمجيء هنا بعد الآن.

ثم إلتفتُ إلى المحافظ ورجوت منه بإلحاف أن يأمر الحرس بعدم إفساح السبيل له إلى داخل القلعة مرة أخرى وقلت:

- إنّ متاعبي تكفيني وهذا الغلام السخيف الصغير يأتيني ليزيد فيها. لذلك أرجوك يا سيدي أن تمنعه من زيارتي.

وقد تألم المحافظ جداً لهذا لأنه كان على علم ودراية بمواهب (اسكانيو) العظيمة، وإلى جانب هذا فقد كان وسيم الوجه بحيث بدا من المستحيل على من يتطلع إليه أن لا يهفو قلبه له. إنصرف الفتى والدموع تجول في عينيه. ولا يفوتني ان اذكر انه كان يحمل سيفاً قصيراً كان أحياناً يخفيه في طيات ثيابه.

بعد تركه القلعة محزوناً ووجهه مخضل بالدموع. حكمت الصدف بأن يلتقي بواحد من ألدّ خصومي وهو (جيرونيمو)[1] البيروجي الذي ذكرته سابقاً مع شخص آخر يدعى (مكيلي Michele) وكلاهما صائغ. وكان (مكيلي) هذا صديقاً للبيروجي وعدواً لإسكانيو فقال له:

- ما الذي يبكي اسكانيو؟ لعل أباه توفي؟ أنت تدري ان أباه في القلعة.

فصاح اسكانيو:

- انه حيّ! أما أنت فأبشر ان منيتك حانت الآن.

وشهر سيفه وضربه ضربتين موجهتين إلى رأسه. بأولاهما جندله على الأرض وبالثانية قطع له ثلاثة اصابع من يده اليمني وإن كان الهدف رأسه. وتركه ملقى على الأرض كأنه ميت. وأعلم البابا بالحادث فوراً، فقال وهو يتلظى غيظاً:

- مادام الملك يريد ان يُحاكم فاذهبوا بلّغوه بأن يهيء دفاعه خلال ثلاثة أيام.

وُضعت أوامر البابا موضع التنفيذ في الحال. لكن المحافظ الشهم أسرع من فوره إلى الحصن. ودافع عني دفاعاً بارعاً فجنبني سخط البابا وانقذ حياتي. وهرب (اسكانيو) إلى موطنه (تالياكوزا)، وكتب لي من هناك يستغفرني ألف مرّة. وقال انه أخطأ بحقي في زيادة متاعبي. وأقسم انه في حالة ما تمت مشيئة الله وخرجت من

---

(1) هو عين الصائغ الذي وشى به وأخذه معه إلى فرنسا.

السجن فإنه لن يتركني. فكتبت له اقول بأني سأرسل في طلبه حتماً عندما أخرج من السجن بإدارة الله. وعليه خلال ذلك ان يواصل تعلم الصنعة.

في فترة معينة من كل سنة تنتاب المحافظ إختلاطات عقلية تسلمه إلى نوبة من الجنون. وعندما تبدأ فيه يروح يتكلم ويتكلم بل ويهذي دون توقف. والوهم فيه يختلف بين سنة وأخرى. فمرّة يتخيل نفسه جرّة زيت. وفي سنة ثانية انه إستحال إلى ضفدع ويقلده بالقفز والنطّ مثله. ومرّة ثالثة يتراءى له انه ميت ويجب ان يُهال عليه التراب ويدفن. في كل سنة يستولي عليه وهم من هذه الأوهام. وفي هذه المرة الأخيرة بدأ يتصور نفسه خفاشاً وكان حين يتمشى يخرج من فمه صأصأة عالية مثل صوت الخفاش ويحرك يديه وجسمه كأنما يريد أن يطير. فإذا شعر الأطباء ومرؤوسوه بإقتراب النوبة حاولوا إلهاءه وصرفه عنها بمختلف الوسائل ولما وجدوا انه يستأنس بي ويرتاح إلى أحاديثي صاروا يستدعونني ويرجون مني ان ابقى ملازماً له. فأظلُّ مع هذا البائس أحياناً اربع أو خمس ساعات دون ان اقف لحظة عن الكلام أو اقطع مسير الحديث. وكنت اتناول طعامي على مائدته وانا أجلس قبالته. فلا يتوقف عن الكلام ولا يدعني أسكت. وكنت آكل خلال هذه المحادثات بشهية عظيمة. اما البائس فلا يأكل ولا ينام. وبنتيجة هذا أصابني إنهاك وتعب شديدين حتى لم يبق عندي طاقة. احياناً كنت الاحظ نظرة مخيفة في عينيه. واحدة تنظر إلى هذه الجهة، والأخرى إلى الجهة الأخرى.

سألني يوماً هل وجدت في نفسي هوى إلى الطيران؟ فأجبت اني حاولت وفعلت كل ماهو صعب اجراؤه على البشر. فأما بخصوص الطيران فقد قلت له بأن الله قد انعم عليّ بتكوين متين لدن ملائم للعدو والقفز مسافات كبيرة. وبإمكاني كذلك إستخدام براعة يديّ، ولذلك فإني بالتأكيد قادر على الطيران.

فراح يسألني عن كيفية ذلك وماهي وسائلي. فقلت لو تأملنا معشر الطير وما يعينه على الطيران، بفكرة تقليدها بوسائل فنية، فلست أجد في هذا المضمار خيراً من تقليد الخفاش. ما ان سمع المسكين إسم الخفاش المرتبط بأوهامه في تلك السنة حتى أخذ يصرخ:

- إنه يقول قولاً صحيحاً! هذا هو الصحيح، هذا هو بالضبط!

ثم إلتفت اليّ وقال:

- بنفنوتو! لو سنحت لك الفرصة. أتجد في نفسك الشجاعة على الطيران؟

فأجبت لو انه منحني حريتي فيما بعد فإني لقادر على الطيران حتى (براتي) بجناحين من الكتان المشمع.

فأجاب:

- وان نفسي لتهفو إلى أن أحذو حذوك. ولكن بما أن البابا قد أصدر اليّ أوامر مشددة بأن أحرسك كما لو كنت عينيه وبما انيّ أعلم أنك شيطان واسع الحيلة في تخطيط فرارك. فإني سأحبسك خلف مائة قفل لأحول بينك وبين الإفلات مني.

فبدأت أتوسل به مذكّراً إياه بأن الهروب لا يصعب عليّ ولكني أعطيته كلمة شرف بأني لن أخون ثقته. وإستصرخته بمحبة الله. وبالنظر إلى كلّ ما حباني من عطف بألاّ يزيد من بؤسي بؤساً وأن لا يضيف إلى ما أقاسي إجراء تعسفياً كهذا. وفيما انا أتكلم راح يصدر أوامره بأن أوضع في القيد وأوخذ إلى زنزانة محكمة الأبواب والمغاليق. ولما أدركت عقم محاولاتي معه وان الأمر مبتوت فيه قلت بمحضر من كلّ مرؤوسيه بأن لا يدّخر أي جهد في إحكام السجن عليّ وان يتوخى كل الدقة في تشديد الحراسة لأني سأبذل كلّ ما في طوقي لأهرب. ثم أخذوني ووضعوني في زنزانة إنفرادية وإتخذوا كل الإحتياطات الدقيقة بشأني.

بعد هذا بدأت أفكر في خطة لتحقيق فراري. ما أن أقفلوا الباب عليّ حتى بدأت أقوم بفحص الزنزانة. وبعد أن استقرّ فكري على طريقة للخروج بدأت أفكر في كيفية الهبوط من سور الحصن المرتفع وهو البرج الضخم كما يدعى، فقمت بخياطة جميع الأغطية الجديدة التي كنت قد عملتها شرائط، على هيئة حبل ثم رحت أقدّر الطول الذي يلزمني منها للبلوغ إلى الأرض. بعد هذا أخذت كلابتين من أحد حراس القلعة وهو مواطن (سافويي). هذا الرجل كان من واجبه الإشراف على المراحيض والأنابيب وكان يزاول النحت بالخشب على سبيل الهواية وعنده عدد كبير من هذه الكلاّبات وبينها كلاّبة كبيرة محكمة. وجدت أنها تفي بغرضي فإختلستها منه وأخفيتها

في قش الفراش. ولما حان وقت إستخدامها أخرجتها وأخذت أعالج قلع المسامير التي تشد مفاصل الباب بخشبة. وكان الباب مزدوجاً ولهذا لم تكن رؤوس المسامير المدببة تظهر من الجهة الثانية. وكان قلع كل مسمار منها يقتضي مني جهداً خارقاً. إلا أني حققت نجاحي. بعد أن نزعت المسمار الأول جوبهت بمشكلة الإحتيال على إخفاء الفراغ المتخلف عن عين الفاحص. ثم وفقت إلى ذلك بمزج قليل من برادة الحديد الصديء مع الشمع وعمل تقليد للمسامير الطويلة التي كنت أقلعها من هذا المزيج وقد أتقنت لونها تماماً. وهكذا رحت أقلّد كل مسمار أنزعه وأضع التقليد في محل المسمار الذي أخلعه، على أني تركت المفاصل مسمرةً بألواح الباب بمسامير عتيقة أعدت دقها في المفاصل المشدودة إلى الباب بشكل متخلخل. وقد أورثتني هذه العملية همّاً كبيراً وقلقاً لا يمكن وصفه. لأن المحافظ كان يحلم كل ليلة بأني نفذت ما إعتزمته وفررت. فيرسل رجاله بين الفينة والفينة لتفقد زنزانتي. ومن هؤلاء سجّان اسمه وأخلاقه ينطبقان على الشرطي. ويدعى (بوزّا Bozza) ولم يكن يأتي إلا ومعه آخر يدعى (جيوڤاني) ويلّقب بـ(بيدينيوني Pedignone) وكان هذا جندياً، أما (بوزّا) فهو خادم.

لم يدخل جيوڤاني زنزانتي مرةً واحدة دون إهانتي وكان من سكنة منطقة (براتو) يشتغل عند عقاقيريّ. وكان كل يوم يقوم بفحص المفاصل في الباب وكلّ أنحاء الغرفة فحصاً دقيقاً جداً. وكان من عادتي القول تعقيباً:

- أنعموا النظر وليكن فحصكم دقيقاً لأني صممت على الفرار مهما كلّف الأمر.

وقد جعلت كلماتي هذه منهم أعداء ألدّاء لذلك بالغت في إخفاء أدواتي ووسائلي في الفراش - وأعني بها الكلابتين وخنجراً كبيراً ممتازاً وما شاكل ذلك، مخفية بكلّ عناية مع الحبل داخل الفراش. وكنت أقوم فجر كل يوم بتنظيف غرفتي بنفسي وكنسها وتنظيمها بشكل مريح فأنا بطبعي أحب النظافة والنظام. بعد أن أفرغ من هذا أعمد إلى تسوية فراشي وأرتبه وأنثر فوقه أزهاراً، كان يأتي بها رجل (سافويي) وهو المكلف بالإشراف على الأنابيب والمراحيض. وله ولع شديد بالحفر على الخشب ومنه إختلست الكلاّبتين التي إستعملتها لقلع المسامير من المفاصل.

وأعود إلى الفراش فأقول عندما يدخل (بوزا) و(بيدينيوني) الغرفة أبتدرهما محذراً إياهما من الإقتراب من فراشي لئلا يلوثاه أو يوقعا الإضطراب به. في بعض الأحيان يعمدان إلى لمسه لمسةً خفيفة نكاية بي وإغاظة فأصيح:

ـ قبّحكما الله من أقذر الجبناء. سأختطف سيف أحدكما وأعمل فيكما طعناً وأثخنكما جراحاً لن تنسياها بوقت وجيز. أتظنان انكما جديران بلمس فراش رجل من وزني. لن أبالي بالمخاطرة بحياتي بعد أن أنزع حياتكما أولاً. ألا أغربا عن وجهي واتركاني لآلامي وبؤسي ولا تضيفا إلى ما أحمله منها قدراً آخر وإلا أريتكما ما يمكن أن يقدم عليه اليائس.

وينقلان أقوالي هذه للمحافظ فيصدر إليهما أمراً قاطعاً بألا يقربا فراشي وأن لا يدخلا عليّ بسيفيهما. لكن يجب ان يراقباني مراقبة دقيقة. بعد أن تأكدت ان الفراش سيبقى في مأمن أيقنت بأني إنتهيت من كل شيء. فالخطة تتوقف على ذلك.

في ليلة يوم عيد، كان المحافظ في أقصى حالات هوسه. فلم يكن يخرج كلام من فمه غير ترديده: «إنه خفاش، وإذا سمعوا ان بنفنوتو قد طار من القلعة فليدعوه يلحق بي طائراً لأنه أفضل مني بالطيران الليلي وبإمكانه أن يدركني ويمسكني. ويردد كذلك قوله:

ـ بنفنوتو خفاش مزيف وأنا الخفاش الحقيقي. وبما ان حراسته قد عُهد بها إليّ فدعوا أمره لي وسأقبض عليه.

ظل يعاني هذ الحالة عدةً من الليالي فأرهق مرؤوسيه وأنهكهم وكانت انباؤه تصلني بمختلف الوسائل. ولا سيما الرجل السافويي الذي كان صديقاً حميماً. في ليلة العيد هذه قررت تنفيذ خطتي بالهرب مهما كلّف الأمر. فتوجهت أولاً إلى الله وبكلّ حرارة دعوته إلى نصرتي وردّ الأذى عني في هذه العملية الخطرة. بعد هذا أخرجت أدواتي وبقيت أتأهب طول الليل. وقبل إنبلاج الصبح بساعتين قلعت العوارض الحديدية بأعظم مشقة إلا أن الباب والمزلاج أعجزاني وأعياني أمرهما، فاضطررت إلى أن أنشر الخشب وبالأخير نجحت. حملت الحبال التي كنت قد لففتها حول قطعتين من الخشب مثل كبّة الخيوط وتوجهت نحو مراحيض البرج. ولمحت هناك

آجرّتين في السقف فعلوتهما بكل سهولة. كنت أرتدي صداراً وسروالاً ضيقاً من قماش أبيض وحذاءً طويلاً من الجلد. وضعت خنجري في فردة منه. ثم عقلت رأس أحد الحبلين بشكل أنشوطة حول قطعة من الاجرّ القديم بارزة من الجدار بمقدار أربعة أصابع. بعد هذا رفعت انظاري إلى السماء متوجهاً إلى الله بهذا الدعاء.

- سيدي وإلهي هبني العون والقوة لأنك تعلم انيّ على حق وأني أريد لنفسي النجاة.

قلت هذا وتركت جسمي ينزلق إلى الأسفل بيسر وهوادة معتمداً على قوة ساعدي، إلى أن مسّت قدماي الأرض. لم يكن ثمّة ضوء قمر إلا أن السماء كانت صافية الأديم تماماً. ما إن إستقر جسمي على الأرض حتى رفعت ناظري إلى أعلى أتأمل في الإرتفاع الكبير الذي هبطت منه بهذه الجرأة. وخُيّل لي بأني أصبحت حراً فسرت بقلب خال من الهم إلا أني كنت واهماً. لأن المحافظ كان قد أقام في هذه الجهة جدارين عاليين يحتويان الإسطبل وبيت الدجاج. وكان الموضع مقفلاً بمزلاجين ثقيلين من الخارج. لما وجدت سبيل النجاة مسدوداً في وجهي، غلا دمي في عروقي ورحت أسير جيئةً وذهاباً أتلمس لنفسي مخرجاً وأفكر في وسيلة للخروج من المأزق، عثرت بعارضة خشبية مغطاة بالتبن فسحبتها بجهد كبير ثم أسندتها إلى الجدار وتسلقتها مستخدماً أقصى ما لديّ من طاقة حتى علوت الجدار. إلا أن الجدار كان حادّ الحافة ولذلك تعذر عليّ أن أستجمع القوة الكافية لجرّ الخشبة إلى الأعلى ورائي. لذلك قررت إستخدام كبّة الحبال ثانية. وكنت قد تركت الأولى مشدودة بأعلى البرج. ربطت قطعة من الحبل حول الدعامة وإنزلقت بها إلى الجهة الثانية من الجدار مستخدماً كل ما تبقى عندي من طاقة. شعرت بقواي تخور وأصيبت راحتا يديّ بتسلخات وأخذ الدم ينزف منهما. جلست لأصيب بعض الراحة وغسلت يدي ببولي. بعد أن إلتقطت أنفاسي وإستجمعت قواي توجهت بسرعة إلى الجدار الثاني الذي يواجه (براتي) ثم رتّبت حزمة الحبال معتزماً شدّ إحدى نهايتيها بالسور كي أستطيع الهبوط من هذا الإرتفاع الذي يقلّ عن الإرتفاع الأول ويعين الطريقة. ما إن أكملت إستعدادي بالحبال حتى لمحت أحد الحراس خلفي يقوم بواجب الخفارة. وبإدراكي ان خطتي مهددة وحياتي معرّضة للخطر، قررت مواجهته. ولما تبين عزمي

الثابت في عينيّ وأنا أتقدم منه والخنجر مشرع في يدي، نكص على عقبيه مسرعاً. لمحت حارساً آخر وبدا وكأنه لا يريد ان يراني. فعدت إلى لفّة حبالي وشددت طرفها في مسنن السور ونزلت هابطاً.

لا أدري ما حصل بالضبط لي في آخر مرحلة من الهبوط. ربما خيّل لي أني قريب جداً من الأرض ولذلك أفلتّ الحبل لأصل إليها بقفزة. أو لأن يدي قد كلّتا بحيث كان الجهد أكثر مما أتحمل. فقد سقطت وبسقطتي إصطدم قذال رأسي بالأرض الصلبة ففقدت الوعي. وبقيت كذلك منطرحاً أكثر من ساعة ونصف الساعة على ما قدّرت. وبعد تباشير الصبح عمل هواء الفجر الرقيق النقيّ على إفاقتي قبل بزوغ الشمس. إلاّ اني لم أستجمع قواي العقلية وشعرت وكأن رأسي منفصل عن بقية جسمي. وإنني في شاطئ الأعراف (المطهر) ثم بدأت أستعيد رشدي شيئاً فشيئاً. ولاحظت أني خارج القلعة فتذكرت فجأة كل ماحصل وكل ما أقدمت عليه. وأحسست بصدمة رأسي قبل إدراكي إن ساقي مكسورة. مددت يدي إلى قذالي ثم سحبتهما وهما ملطختان بدمائي. ثم فحصت نفسي بدقة، وخلصت إلى أني لم أصب بأذى كبير. إلا أنيّ لمّا حاولت النهوض وجدت الكسر في ساقي اليمنى فوق الكعب بثلاثة إنشات، أو نحوها. ولم يفزعني هذا وأخرجت خنجري وجرّدته من غمده الذي كان ينتهي بكرةٍ صلبةٍ كبيرة وكانت هي سبب كسر عظمة ساقي لأن سقطتي كانت في الجهة التي أخفيته فضغطت الكرة على العظم وفطرته.

ألقيت بالغمد جانباً وقطعت بالخنجر جزءاً من الحبل وربطت به سائقي ربطاً محكماً. ثم أخذت أزحف على أربع والخنجر في يدي قاصداً مدخل المدينة وقد وجدته موصداً. على أني لاحظت صخرة كبيرة تحت الباب الذي لم يكن قد حُشر وثُبّت بشكل محكم. فحاولت زحزحتها فإستجابت ليديّ وتحركت ثم أخرجتها من مكانها بسهولة وزحفت إلى الداخل من خلال الحفرة التي أحدثتها.

كانت المسافة بين موضع سقوطي من فوق السور وبين المدخل الذي نفذت منه إلى روما تربو على خمسمائة ياردة.

وفي داخل المدينة صرت هدفاً لهجوم عدد من الكلاب الضخمة التي أخذت

تصول عليّ بشراسة وتعضني. وتكرر ذلك عدة مرات فضويقت كثيراً وإضطررت إلى قتل أحدها بطعنة من خنجري فأطلق عواء أليماً. فلحقت به البقية مبتعدةً بحكم غريزتها، وعدت احبو مجاهداً للوصول إلى بيعة (ترانسبورتينا)[1] ثم بلغت رأس الشارع الأخير الذي يمتد إلى (سانت انجلو) إخترت الطريق الذي يؤدي إلى كاتدرائية بطرس الرسول، لأن نور النهار أخذ ينتشر حولي ولإدراكي خطورة موقفي، ثم لقيت سقّاء يسوق حماراً محملاً بفناطيس الماء فناديته ورجوته ان يحملني ويتركني عند درج الكاتدرائية وقلت له:

- اني سيء الحظ. حاولت الهبوط من النافذة بعد مغامرة غرامية. وعند سقوطي إنكسرت ساقي. إن البيت الذي تركته هو لأسرة بارزة وإن حياتي في خطر عظيم وقد أقطّع إرباً. لذا أرجو منك أن تحملني بسرعة وسأعطيك كراوناً ذهبياً.

وهززت صرّة مالي التي كانت مملوءة فهرع اليّ ورفعني وكان مسروراً جداً بحملي على ظهره حتى الدرجات العليا للبيعة. وأشرت إليه بأن يتركني حيث أنا ويذهب إلى حماره وواصلت الزحف على أربع متجهاً إلى منزل الدوقة[2] وهي زوج الدوق (أوتافيا) وبنت الإمبراطور غير الشرعية. وكانت من قبل تحت الدوق إليساندرو دوق فلورنسا.

ذهبت إليها، لأني كنت واثقاً بأني سأجد حولها عدداً كبيراً من أصدقائي الذين رافقوها من فلورنسا. كذلك كنت أتمتع بمكانة وحظوة عند هذه الأميرة العظيمة بسبب إشادة محافظ القلعة بي. فقد أخبر البابا على سبيل الشفاعة بي أني وفرت على روما ما يوازي ألف كراون من الضرر عند دخول الدوقة مدينة روما بمنعي من وقوعه. فما حصل هو هذا: إن المطر يوم قدوم الدوقة كان ينذر بعاصفة هائلة توقع بالمدينة كثيراً من الضرر وإستولى القلق على المحافظ ولم يدر ما يصنع فرفعت معنوياته بتوجيه عدة قطع من المدافع الثقيلة نحو الرقعة التي تتجمع فيها أكثف الغيوم

---

(1) كنيسة صغيرة بين سانت انجلو وكاتدرائية بطرس. وهي مكرسة لقديسة بهذا الإسم.

(2) أميرة النمسا: تزوجها الدوق أليساندرو لتقوية مركزه. وبعد إغتياله تزوجت الدوق أوتافيودي مدينشي ابن أخ البابا بولص الثالث وكان دخولها روما في الثالث من تشرين الثاني 1538.

ومن حيث ينصب المطر بغزارة فما إن أطلقت المدافع حتى توقف نزول المطر. وبعد الرشقة الرابعة إحتبس المطر تماماً وإنقشعت الغيوم وظهر قرص الشمس وبهذا كنت السبب (على حد قوله) في مواصلة الإحتفالات العامة بالمناسبة ونجاح المهرجان. ولما سمعت الدوقة بالحكاية عقبت قائلة:

- إن (بنفنوتو) كان حد الفنانين الذين يقدّرهم زوجي السابق أليساندرو وينزلهم في نفسه منزلة رفيعة. وأنا أيضاً لن أنسى أمثاله من الرجال إن وجدت مناسبة لمساعدتهم.

كما أنها ذكرتني أيضاً عند زوجها الحالي الدوق أوتافيو. ولهذا السبب قصدت سموّها مباشرة. وكانت تسكن قصراً جميلاً جداً في (بوركو فيكيو Porgo Vecchio) وقد قدّرت أني سأكون في أمان تام عندها. لأن البابا نفسه سيعجز عن مدّ يده إليّ. لكن لمّا كان ما قمت به من عمل يفوق طاقة البشر فقد شاءت إرادة الله لخيري ان يكبح جماح غروري بإنزال عقاب بي يفوق سالفه. وما حصل هو أنه فيما كنت أزحف على أربع فوق الدرج لمحني أحد خدم كردينال (كورنارو) وعرفني حالاً. وكان الكردينال يشغل القصر في تلك الفترة، فأسرع إليه وأيقظه من نومه قائلاً:

- سيدي الكلي الإحترام. إن صديقك (بنفنوتو) هنا. لقد فرّ من القلعة وهو يزحف ملطخاً بالدماء. وبحسب الظاهر إن إحدى ساقيه مكسورة. ونحن لا ندري إلى أين يريد التوجه.

فبادره الكردينال حالاً:

- اسرع. احمله اليّ.

عندما جيء بي إليه طمأنني على نفسي. ثم إستقدم حالاً أمهر الأطباء في روما فتوفروا إلى معالجتي كان أحدهم من(بيروجيا) وإسمه (جاكومو) وهو جراحي من الطبقة الأولى. فجبّر الساق بدقة وإتقان ثم شدّها. وفصدني بنفسه وكانت عروقي متورمة بشكل غير إعتيادي وأراد أن يفتح فتحةً واسعة نوعاً ما فتدفق الدم بقوة فأصاب وجهه وتلطخ بالدم الغزير حتى إضطر إلى التوقف عن علاجي وإعتبر ذلك نذير شؤم ولم يستمر إلاّ بكثير من التردد. والحق يقال انه اراد تركي اكثر من مرة

لعلمه ان العقاب يهدد من يعالجني أو من يواصل معالجتي على الأقل. ووضعني الكردينال في غرفة سريّة وإنطلق إلى البلاط حالاً وهو ينوي إلتماس البابا العفو عني وإطلاق سراحي.

كانت روما في تلك الأثناء تغلي كالمرجل، والناس في هرج ومرج وإنفعال فقد لوحظت الحبال الكتانية متدلية من مسننات البرج الكبير في القلعة. وتوافدت جموع غفيرة لمشاهدة هذا المنظر العجيب. أما المحافظ فقد إنتابته نوبة جنون شديدة. وأصرّ متحدياً موظفيه على الطيران من فوق السور إلى الأسفل بوصفه الوسيلة الوحيدة للقبض عليّ كما تخيّل. وفي اثناء ذلك سمع (روبرتو بوجي) والد (السيد باندولفو) بالنبأ. فذهب إلى القلعة ليتحقق الأمر بنفسه ثم إنقلب إلى قصر الكردينال كورنارو، فقصّ عليه هذا الحكاية برمتها. فأعلمه الكردينال بأني موجود الآن في إحدى غرف القصر والأطباء يقومون بمعالجتي. هذان الرجلان الغيوران قصدا البابا سوية وركعا أمامه فلم يدعهما ينطقان بحرف إذ إبتدرهما قائلاً:

- إني أعرف ما تريدان مني.

فقال السيد (روبرتو بوجي):

- أيها الأب الأقدس إننا نطلب حرية هذا الرجل السيء الحظ، بوصفه عملاً من أعمال البرّ والعطف. انه يستحق بعض العطف بسبب مواهبه، فضلاً عن انه اظهر من الشجاعة والإقدام والذكاء ما يندر وجوده لدى البشر. إننا لا ندري نوع الجريمة التي حملت قداستك على إلقائه في السجن هذه المدة الطويلة. فإن كانت كبيرة فقداستك ذات الجلالة والحكمة تتسع لفرض ارادتك على كل الأشياء، أما إذا كانت مما يمكن العفو عنه فإننا نلتمس ذلك إكراماً لنا.

شعر البابا بشيء من الخجل. وقال اني اعتقلت «بناءً على رجاء تقدم به أحد رجال بلاطه. فقد تحدى كل الحدود في اعتداءاته وحدة طباعه. ومع هذا ولمعرفتنا بمواهبه العظيمة وكذلك لأننا نريد إبقاءه عندنا. فقد رتبنا بأن نحبوه بعطفنا وكرمنا بحيث لا ندع له سبباً للعودة إلى فرنسا. اني لشديد الألم بسبب ما أصابه من أذى شديد، قولا له إن البابا يرجو له الشفاء فإذا تمّ له ذلك فسنعوضه خيراً عما عاناه».

أسرع الرجلان الكريمان اليّ بهذه البشرى السارة من البابا.

في أثناء ذلك بدأ وجهاء روما وأشرافها يتقاطرون لزيارتي من كلّ عمر وطبقة. وأصرّ محافظ القلعة وهو في أحد نوبات جنونه الحادة بأن يحمل إلى البابا وهناك أخذ يئن متوجعاً ويقول ان لم يعدني قداستُه إلى السجن فإنه يرتكب بحقه خطأ كبيراً واردف قائلاً:

ـ لقد هرب مني وحنث بكلمة الشرف التي قطعها لي! أنظر، أنه طار عني في حين وعدني بأنه لن يحاول ذلك.

فأطلق البابا ضحكةً عالية وقال له:

ـ إذهب، إذهب الآن، وسآتيك به مهما كلّف الأمر.

فقال المحافظ:

ـ إبعث إليه بحاكم روما ليسأله عمّن سهّل له الفرار. فإن كان واحداً من رجالي فسأتولى شنقه في الموضع الذي هبط منه (بنفنوتو).

بعد إنصراف المحافظ إستدعى البابا الحاكم وقال له باسماً:

ـ انه لشجاع حقاً. وما قام به يثير الإعجاب حتى إني أقدمت على نفس العملية من الموضع نفسه عندما كنت شاباً.

كان البابا يقول الحقيقة. فقد جيء به إلى القلعة معتقلاً لقيامه بتزوير رسالة باباوية عندما كان يتولى منصب الأستاذ المعيد في معهد (باركو ماجيوري)[1]. وقد أبقاه البابا ألكساندر معتقلاً مدة. ولما كانت جريمته مخلّة بالشرف فقد قرر قطع رأسه. إلاّ أنه أجّل إنفاذ ذلك بعد عيد القربان المقدس. وعلم (فارنيزي) بما بُيّت له. فإتصل بـ(بييترو كيافيلوزّي Pietro Chiavelluzzi) الذي هيأ له بعض الخيل ورشا حراساً من القلعة. وفي يوم عيد القربان بالذات أثناء ما كان البابا يتصدر الموكب الديني والناس

(1) هذا المعهد (Collegi degli Abreviatori di Parco Maggiore a Minori) أسسه البابا بولص الثاني (1417 ـ 1471). إن أليساندرو فارنيزي (بولص الثالث) هرب من السجن فعلاً إلا أن ذلك حصل في زمن البابا انوسنت الثامن (1432 ـ 1492) لا أليكساندر السادس بورجيا (1431 ـ 1503).

في شاغل، وُضع (فارنيزي) في سلة كبيرة وأُدلي من الحصن. ولم يكن السور الخارجي قد أُقيم بعد ولذلك لم يعان في هروبه ما عانيت من المشقة. فقد كان البرج قائماً وحده. كذلك كان إعتقاله جزاءً وفاقاً. أما إعتقالي فهو ظلم صارخ. وكان يريد من ذكر هذا التباهي أمام الحاكم بشجاعته وإقدامه على المغامرات أيام كان شاباً. غير مدرك انه يكشف بهذا عن طبيعته الإجرامية.

قال للحاكم:

- إذهب إليه واحمله على الإعتراف بإسم من عاونه وسهّل عليه سبل الفرار ولا يخشى على شريكه العاقبة مهما كانت صفة ذلك الشريك فيكفيه أننا عفونا عنه ويمكنك أن تؤكد له ذلك.

جاءني الحاكم وقد رُقّيَ قبل يومين إلى رتبة الأسقفية ونُصّب أسقفاً لـ(يزي Jesi) وقال لي:

- عزيزي (بنفنوتو) إن كانت وظيفتي تملأ الناس رعباً فإني جئت لأطمئنك. لقد جئت منفذاً أوامر البابا الصريحة الذي أخبرني بأنه هو الآخر كان قد فرّ من القلعة إلا أنه لم يحقق ذلك إلا بمساعدة العديد من الأصدقاء والشركاء الذين سهّلوا له الأمور ولولا ذلك ما نجح في مسعاه. إني أقسم لك بالأسرار المقدسة التي أمنحها بحكم وظيفتي الروحية وقد نصبت أسقفاً قبل يومين. أن البابا قد حررك وعفا عنك وهو شديد الألم للحادث الذي أصابك. فاعمل على أن تتعافى بسرعة وانظر إلى الأمور بمنظار جميل وتوقع كل الخير. أما هذا السجن الذي ذقت مرارته ظلماً والحق يقال، فسيعود عليك بالخير العميم وستطأ بقدمك على الفقر والخصاصة. ولا تعود تفكر بالسفر إلى فرنسا وتنهك كيانك بالحِلّ والترحال والتنقل. لذا أرجو ان تقصّ عليّ دون تردد كل ما وقع بالضبط ومن ساعدك. وعندها فلتكن مرتاح البال ولتحقق شفاءً عاجلاً.

فسردت عليه الوقائع من الألف إلى الياء ولم أترك صغيرة أو كبيرة، حتى لم أُغفل قصة السقّاء الذي حملني على ظهره. بعد أن سمع الحاكم كل هذا عقّب بقوله:

- إن هذه الجلائل من الأعمال لهي في الواقع أكبر من أن يأتيها إنسان بمفرده. الحق يقال انك الوحيد بين الرجال القادر عليها.

ثم انه امسك بيدي وإستطرد يقول:

- لا حاجة بك إلى القلق وعليك ان تطيب بالاً. لأني وبهذه اليد التي أمسكها أوكد لك بأنك أصبحت حراً وإن عشت فستعيش سعيداً هانئاً.

كانت زيارته قد أعاقت حشوداً من السادة العظام الذين جاؤوا لرؤيتي. لأنهم أرادوا كما كان بعضهم يقول لبعض - مشاهدة ذلك الرجل صانع المعجزات! فلما غادرني دخلوا عليّ وأطالوا البقاء وقدم لي بعضهم الهدايا وعرض بعضهم الآخر خدماته. في تلك الأثناء عاد الحاكم إلى البابا ونقل له ما قلته. وكان ابن البابا حاضراً وقد ملك العجب سائر الموجودين وقال البابا:

- إنه في الواقع عمل يجلُّ عن الوصف الكلامي.

وهنا تدخل السيد (بيير لويجي) قائلاً:

- لو أطلقته يا ابانا الأقدس لأقدم على أعمال أفظع. فهو اعتدائي الطبع مشاكس إلى آخر حدٍ. اسمح لي ان اقصّ عليك واحدة من وقائعه لم تسمعها. فقبل ان يودَع السجن اختصم صاحبكم بنفنوتو هذا مع سيّد من خاصة الكردينال (سانتا فيوري) حول ملاحظة بسيطة ذكرها عنه. هذه الملاحظة ردّ عليها بنفنوتو بوقاحة وشراسة من يريد ان يثير قتالاً. فشكا السيد الأمر إلى الكردينال فثار ثائره وقال لو انه تمكن من (بنفنوتو) لأدبه ولقنه درساً ينسيه تهوره. وعندما سمع (بنفنوتو) ما قيل عنه حشا بندقية وشرع يتدرب على إصابة الهدف بها مطلقاً ناره على قطعة من النقد. وفي ذات يوم بينما كان الكردينال يطل من الشباك. تناول (بنفنوتو) بندقيته وكان دكانه تحت قصر الكردينال - وتهيأ لإطلاقها، إلاّ ان الكردينال حُذّر فأسرع بالإنسحاب. ولكي يبدو الحادث صدفة غير متعمدة، اطلق بنفنوتو النار على حمامة غابٍ كانت قد وكّرت في تجويف في أعلى القصر وأصابها في رأسها وهي شيء يكاد يكون مستحيلاً. والآن فلقداستك ان تتصرف به كما تختار، كل ما أردت من سرد هذه الواقعة هو تقديري بأنه قد يندفع يوماً ما بشعور الإنتقام لإعتقاله ظلماً إلى إطلاق النار عليك. انه شرس

الطباع للغاية مع إعتداد بالنفس وثقة لا حدّ لها. وقتله (بومبيو) خير شاهد، فقد طعنه بخنجره طعنتين في حنجرته حين كان محاطاً بعشرة رجال يحرسونه، ثم نجا منهم سالماً ومُلحقاً بهم العار وكلّهم رجال أشدّاء.

وإتفق ان السيد المقصود من خاصة الكردينال (سانتا فيوري) كان موجوداً وهو ذاته الذي حصل بيني وبينه الخلاف فأسرع يؤيد قصة (بيير لويجي)، إلا أن البابا لم يعقّب على القصة بكلمةٍ ولو أنها ملأته حنقاً.

والآن أراني مضطراً إلى إيضاح الحقيقة بأمانة، بخصوص هذه الحادثة:

في ذات يوم جاءني هذا السيد الذي هو من خاصة سانتا فيوري بخاتم ذهبي مبقع بالزئبق وقال «نظف هذا الخاتم وإستعجل به». وكنت منشغلاً بأعمال هامة بين يدي من الحلي الذهبية والأحجار الكريمة. فبسبب هذا ولإستيائي من صلافته ولهجته الآمرة وهي تصدر من شخص لم يسبق لي به معرفة ولم أكلمه من قبل فقد قلت له اني لا أملك جَلْوةً وعليه ان يأخذ خاتمه إلى صائغ آخر فأجاب فجأة وبدون سبب:

- إنك لحمار!

فأجبته إنك لمخطئ وأنا من ناحية الآدمية أفضل منك. أمّا إذا إستفززتني فستجد ركلاتي أقوى بكثير من ركلات الحمار.

فذهب إلى الكردينال وقصّ عليه ما وقع وصوّرني له وكأني الشيطان بعينه. بعد الحادثة بيومين كنت أصوب بندقيتي إلى حمامة غاب إتخذت لها وكراً في شق جدار مرتفع خلف قصر الكردينال. وكنت قد علمت ان الصائغ (جيوفّان فرانشسكو دللاّ تاكا) الميلاني حاول إصابتها بعدة عيارات فلم يوفق. وكان بيني وبينه منافسة في الصيد. وفي هذه المناسبة عندما كنت أطلق النار لم يكن يظهر من الحمامة إلاّ رأسها فقد زاد حذرها لكثرة العيارات التي أُطلقت عليها قبلاً. وفي هذه المرّة كان يوجد في دكاني لفيف من الأصدقاء والنبلاء فإسترعوا إنتباهي إليها قائلين:

- ارفع نظرك وانظر! إنها حمامة (جيوفّان فرانشسكو دللاّتاكّا) وهو لا يكلّ من إطلاق النار عليها. انظر إلى المخلوقة المسكينة لقد بلغ بها الشك حدّاً لا تجرؤ معه على إخراج رأسها.

فشخصت ببصري إلى فوق وقلت:

- لو أنها إنتظرتني بقدر ما يقتضيني لتسديد سلاحي إليها فإن هذا الجزء الصغير الظاهر من رأسها يكفيني هدفاً.

فقال السادة النبلاء إن مخترع البندقية نفسه يعجز عن ذلك. فأجبت:

- حسن فلنراهن على قارورة من خمر بالومبو اليونانية. إن بقيت الحمامة على وضعها هذا حتى أهدّف إليها بالبروكاردو (وهو الإسم الذي أطلقته على بندقيتي) فإني سأصيب رأسها.

قلت هذا وسددت بندقيتي مستخدماً ذراعيّ لا غير كمسند. وحققت ما وعدتُ دون ان تكون لديّ فكرة عن الكردينال أو اي شخص غيره. في الواقع اني كنت اعدّ الكردينال أحد القلائل الذين اعتزّ بمكانتي عندهم. ألا فليتأمل البشر جميعاً كم تخفي الأقدار من أوراق في كمّها عندما تنوي تحطيم إنسان وها هوذا البابا يكاد ينفجر حنقاً متمتماً لنفسه مكتئباً لما سمعه من إبنه.

بعد يومين من هذا توجه الكردينال (كورنارو) ليسأل البابا إسناد أسقفية لواحد من خاصته يدعى (اندريه جنتانو Andrea Centano) وكان البابا في الواقع قد وعده بالأسقفية، وقد شغرت الآن فذكّره الكردينال بوعده. فأقرّ البابا بصحة ذلك وقال انه ينوي البرّ بوعده. إلاّ انه يريد من نيافته ان ينيله فضلاً: وما يريده هو أن يدفع إليه بـ(بنفنوتو).

فقال الكردينال:

- آه! لكن بعد أن عفا عنه قداستك ودفعت به اليّ بإعتباره مطلق الحرية؟ ماذا ترى سيقول الناس عنا؟

فردّ عليه البابا قائلاً:

- أنا اريد (بنفنوتو) وانت تريد الأسقفية، فدعهم يتقوّلون بما يشاؤون.

فأخذ الكردينال الطيب يضرع إلى البابا طالباً الأسقفية على ان يفكر في المسألة الأخرى وبعد هذا سيعمل بكل ما يريده قداسته وما هو قادر على الأمر به. إلا أن

البابا الذي كان شبه خجلان من الاسلوب الخبيث الذي اتبعه للنكول عن كلمته ردّ بقوله:

ـ سأرسل بطلب (بنفنوتو)، ولأجل إراحة نفسي قليلاً سأضعه في إحدى غرف حديقتي الخاصة بالطابق الأرضي حيث سيكون في وسعه أن يحقق شفاءه ويستعيد صحته. ولن أمنع زيارة أصدقائه كافة وسأتولى الإنفاق عليه حتى يزول هذا الهاجس الصغير عني.

عاد الكردينال إلى قصره، وبعث اليّ فوراً بالرجل الذي طلب له الأسقفية. ليقول لي ان البابا استعادني إلاّ انه سيسكنني في الطابق الأرضي من حديقته الخاصة حيث يمكن لكلّ من يريد زيارته مثلما يكون في بيته. فرجوت (أندريه) ان يتكرم ويبلغ الكردينال عني بأني أرغب أن أحمل داخل فراشٍ من هنا وانقل إلى محل مأمون خارج روما. لأنه إنما يبعث بي إلى موت أكيد اذا ما وافق على تسليمي. ورجوته أن يتركني أتدبر مصيري بنفسي. ومن المعتقد أن الكردينال عندما سمع اقتراحي رغب جداً في ان يضعه موضع التنفيذ. إلاّ أن (أندريه) الذي كان يجري وراء الأسقفية كشف المسألة. فأرسل قداسته بطلبي فوراً ووضعني في إحدى الغرف المفضية إلى حدائقه الخاصة في الطابق الأرضي. وأرسل اليّ الكردينال من يحذرني من تناول أيّ طعام يُقدم لي هناك ووعد ان يبعث بطعام من عنده. وقال انه ارغم على هذا العمل ونصحني بأن أبقي معنوياتي عاليةً وأنه سيساعدني على إستعادة حريتي.

في هذه الظروف كنت أستقبل الزائرين يومياً. مع عروض هامة بالمساعدة من كثير من النبلاء الكبار. وكان البابا يرسل طعاماً إلا أني لا أقربه واقتصرت على ما يبعث به الكردينال (كورنارو).

من بين أصدقائي فتى يوناني في الخامسة والعشرين من العمر، ذو قوة بدنية خارقة إلى جانب كونه أبرع من حمل السيف في روما. ومع أنه خائر القلب ينقصه الإقدام إلا أنه أهل للثقة عظيم السذاجة. كان قد سمع شيئاً عن وعد البابا بخصوص تعويضي عن كلّ المتاعب التي عانيتها وكانت نيته حقيقية في البداية وهذا ما قاله في

الواقع. إلا أنه رجع عن كلامه بالأخير وأظهر خلافه، ولذلك إختليت بالفتى اليوناني وصارحته بما في نفسي، وقلت:

- يا أعزّ أخ. لقد صمموا على إغتيالي. وهذا هو وقت المساعدة إنهم يعتقدون بأنهم سيخدعونني بإظهار الرعاية والإكرام الفائقين لي، وسببه الوحيد هو تغطية ما يبيّتون لي.

فأجاب الفتى الطيب بقوله:

- عزيزي بنفنوتو. الشائع في روما أن البابا قد أسند إليك منصباً يدرّ عليك مرتباً قدره خمسمائة كراون. لذا أرجوك أن لا تدع الشكوك تفقدك هذا الشيء الحسن.

فوضعت يدي على صدري متقاطعتين[1] ورحت أتوسل به لإخراجي من المكان الذي أنا فيه. وأضفت: مع أني مدرك بأن في إمكان بابا مثله ان يصلح حالي إلا أني على يقين بأنه يخطط للقضاء عليّ بشكل سرّي حفظاً للمظاهر وأنه يحاول جهده توجيه ضربة قاضية. لذلك ينبغي له ان يعمل بسرعة ويحاول إنقاذ حياتي. فإن ساعدني على الهرب بالطريقة التي شرحتها له فسأبقى إلى الأبد مديناً له بالفضل. وسأظلّ مستعداً دائماً لوضع حياتي تحت تصرفه عند الحاجة. عندما بلغت في كلامي هذه المرحلة إنحدرت الدموع من عينيه، وقال:

- أخي العزيز. إنك مصمم على تدمير نفسك. لكني لا أستطيع أن أرفض تنفيذ ما طلبته. فإشرح لي الكيفية وسأعمل بكلّ ما ترسم وإن كان ذلك خلافاً لرغبتي.

سوّينا الموضوع بهذا الشكل وشرحت له خطتي. وكان نجاحها من السهولة بمكان. على انه عدل عن الأمر في الوقت الذي كنت أتصور بأنه قد بدأ في إتخاذ الخطوات العملية لما رتّبت. وجاءني ليقول انه عزم على ان يعصيني لخيري ومصلحتي وانه على ثقة تامة من كلّ ما سمعه من أقرب المقربين للبابا أولئك الذين هم على إطلاع تام في قضيتي. فأُسقط في يدي وإستسلمت إلى اليأس والغمّ وكان ذلك في عيد القربان (عيد الجسد) في العام 1539.

---

(1) وهو أسلوب من أساليب رسم علامة الصليب.

مرّ اليوم بأكمله، وفي ليلته بالذات بعد هذه المجادلة الكلامية جيء بطعام كثير من مطابخ البابا. وبكمية أخرى فاخرة من قصر الكردينال كورنارو. وإتفق أن كان عندي عدد من الأصدقاء فإستبقيتهم لمشاركتي في العشاء وكنت أثناء ذلك في فراشي وساقي مشدودة إلى ألواح خشبية. إلا أني إستأنست بهم وطال بقاؤهم. وبعد أن مضى من الليل ساعة تركوني وإنصرفوا وقام إثنان من خدمي بإعدادي للنوم ثم إنصرفا ليناما في الغرفة الخارجية وكنت أحتفظ بكلب أسود فاحم كث الشعر مدرب على الصيد يلازمني ملازمة الظل ولا يبتعد عني أكثر من خطوة وينام تحت سريري اثناء الليل. في تلك الليلة ناديت الخدم ثلاث مرات على الأقل ليأخذوه عني لأنه كان يهرّ هريراً مريعاً. ولما دخلوا هجم عليهم وحاول أن يعضّهم فأحجموا وخافوا من أن يكون مسعوراً إذ راح يعوي بدون إنقطاع. وإنصرم من الليل أربع ساعات تقريباً وأنا على هذه الحال. ثم وبينما كانت الساعة تدق دخل (البارجلّو) غرفتي يتبعه عدد كبير من رجاله فبرز الكلب من تحت الفراش وحمل عليهم بوحشية، ممزقاً معاطفهم وجواربهم وظنوا من فرط هلعهم انه مسعور. إلا أن (البارجلّو) وهو رجل ذو خبرة قال لهم:

- إنه لشيء طبيعي أن يعرف الكلب الأصيل بغريزيته الخطر الذي يهدد صاحبه قبيل وقوعه. فليتسلح إثنان منكم بالعصي وليضرباه حتى يخرج وليقم البقية بربط (بنفنوتو) بهذا الكرسي. وليؤخذ إلى حيث أمرتم بأخذه.

كما قلت كان يوم عيد الجسد قد إنقضى والوقت يشير إلى الساعة الرابعة ليلاً تقريباً. فحملوني وأنا تحت الأغطية لا يبين مني شيء. يتقدمني أربعة منهم لتفريق قلة من المستطرقين الذين ما زالوا في الشوارع. وبها الشكل جاؤوا بي إلى موضع يدعى (توري دي نونا)[1] حيث وضعوني في غرفة المحكوم عليهم بالموت. طرحوني فوق فراش رثّ. وخلفوا معي واحداً منهم ظلّ طوال الليل يندب حظه العاثر ويلعن سوء طالعي مردداً قوله:

---

(1) كان سجن المجرمين الإعتياديين في روما وقد سبق ذكره.

ـ اسفي عليك يا بنفنوتو المسكين! ماذا فعلت بهم؟

من وجودي في هذا المكان ومن القول الذي أسمعنيه الحارس أيقنت بأني من الهالكين. وقضيت شطراً من الليل وأنا أجهد عقلي بتعليل مشيئة الله في معاقبتي بهذا الشكل. ولما لم أجد سبباً وجيهاً فقد إشتد إضطرابي وراح الحارس يبذل ما في طوقه لتهدئة روعي وتسليتي ولكني رجوته بمحبة الله أن يسكت ولا يوجّه اليّ كلاماً. إذ سيكون في وسعي وأنا بمفردي أن أعمل على إراحة نفسي وضبط أعصابي بسرعة. فوعدني بذلك.

عندئذ تحولت بكليتي إلى الله متضرعاً بحرارة لكي يقبلني في ملكوته وذكرت في صلاتي بأني كنت قد تظلمت لأني بالنظر إلى القوانين لا أستحق هذه النهاية. وإن كنت قد إرتكبت جرائم قتل فإن نائبه جلّ جلاله قد إستدعاني من مسقط رأسي وعفا عني بسلطة الشرائع البشرية وبسلطانه الروحي. فضلاً عن أن كلّ ما أقدمت عليه كان محافظة مني على الجسد الذي منحه لي عزّ وجلّ. لذلك لا أراني أستحق هذه النهاية عند النظر في أحوالنا في هذه الدنيا. وقد بدا وكأن مثلي مثل السائر السيء الحظ في شارع، تسقط على رأسه صخرة من إرتفاع كبير فتقتله. من الواضح أن هذا من تأثير طالع الإنسان. وهذا لا يعني أن الأقدار تكيد لنا معاً أو تخطط لإسعادنا. لكننا جميعاً نخضع لتأثير صدف إقتران النجوم بعضها ببعض. إني على معرفة بأني حرّ الإرادة. وأعرف عن يقين بأني لو كان إيماني كإيمان القديسين فإن ملائكة السماء ستأتي وتخرجني من هذه الزنزانة وتبسط عليّ حماية أكيدة من المحن والأرزاء التي أعانيها. ولكن ما دام لا يجدني أهلاً لهذه النعمة فمعنى هذا أن تأثير الأفلاك سيعمل عمله السيء في مصيري. إسترسلت في تأملاتي هذه بعض الوقت ثم هدأت نفسي وغلبني النوم.

أيقظني الرجل عند الفجر وقال:

ـ إنك رجل صالح ولكنك سيء الطالع!

قلت:

ـ كلما عجّلت بالخروج من سجن هذه الدنيا كلّما كان سروري كبيراً، لا سيما

وأنا واثق من خلاص نفسي وبأني أموت ضحية ظلم وعدوان. إن مخلصنا سيحشرني ضمن قديسيه وصديقيه ورسله الذين قُتلوا مثله ظلماً. والآن وقد جاء دوري لأُعدم الحياة دون حق، لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر لله مخلصاً. لماذا لا يأتي الرجل الذي سينطق بحكم الموت؟

ـ إنه مضطرب جداً وهو يبكي.

وهنا ناديته بإسمه (بنديتو دا كالي Benedetto da Cagle) وقلت:

ـ تقدم مني ياعزيزي (بنديتو) فأنا مستعد تماماً ومتمالك زمام أعصابي. إنه لممّا يكسبني مجداً وفخراً أن أموت وأنا بريء، لا أن أموت وأنا مستحق الموت. تقدم مني أرجوك وجاءني بالكاهن لأسرّه بكلمات قليلة، لا لحاجة تدعوني إلى الإعتراف. فقد سبق لي أن تقدمت بإعترافي المقدس لله تعالى. إلا أني أريد إكمال الفرائض التي سنّتها كنيستنا المقدسة، أمنا الحنون التي أقدمت على هذا الخطأ العظيم بحقي فكان من دواعي سروري أن أغفر لها. فهيا إذن ياعزيزي (بنديتو) وعجّل بما أنت في سبيله قبل أن يتغلب عليّ شعور آخر.

بعد أن إنتهيت من أقوالي هذه أمر هذا الرجل العالي الخلق، السجّان بإقفال الباب عليّ. لأن تنفيذ الحكم لا يمكن أن يجري إن لم يكن هو موجوداً. وبعد هذا أسرع إلى دار زوج السنيور (بيير لويجي) التي كانت مع الدوقة (وهي التي سبق ذكرها). وعندما صار أمامها قال:

ـ سيدتي الجليلة. تكرّمي عليّ بتحقيق رجائي محبة لله واسألي البابا إن يبعث بشخص آخر غيري ليبلغ (بنفنوتو) بحكم الموت. ويقوم بالإجراءات التي تتطلبها مني وظيفتي. لأني أتنصّل منها ولن أزاولها مرّة أخرى.

ثم إنصرف متنهداً من أعماق قلبه وهو مثقل بالهمّ.

وقالت الدوقة وكانت حاضرة وقد ظهر عليها الغضب:

ـ تلك هي العدالة التي يجدها المرء في الـ (روما) التي يحكمها نائب المسيح! إن الدوق زوجي الراحل كان عظيم التقدير لهذا الرجل بسبب سمو خلقه ومواهبه العظيمة. وكان يودّ أن يبقى إلى جانبه وقد عارض في مجيئه إلى روما.

ثم إنصرفت وهي تتمتم لنفسها بإنفعال وحنق. وعندها توجهت عقيلة السنيور (بيير لويجي) وإسمها (السنيورا جيروليما) إلى البابا وألقت بنفسها عند قدميه بمحضر من عدد من الكرادلة وراحت تتشفع بحرارة جعلته يحمرّ خجلاً ويرد بقوله:

ـ لأجلك سندعه يعيش. وإن كنا في الواقع لم نحمل ضغينة له أو نبيّت له شراً.

ولم يُضف هذه العبارة الأخيرة إلا لوجود الكرادلة هناك وسماعهم كل ما قالت تلك المرأة العظيمة الثابتة الجنان.

كنت أنتظر وأنا أرتجف رعباً وقلقاً وقلبي يدقّ دقات عنيفة وكان كلّ من أوكل لهم تنفيذ هذه المهمة الكريهة في حالة مشابهة لحالتي ينتظرون وهم في أشدّ حالات البؤس والإضطراب. ولكنهم تفرقوا بعد وقت العشاء وإنصرف كلّ لشأنه وجيء إليّ بشيء أتبلّغ به. فعجبت لهذا وقلت لنفسي:

ـ الآن تغلّبت الحقيقة على طبيعة الشرّ في نجمي. وإني لأدعو من الله بأن تقضي مشيئته بنجاتي من هذه العاصفة.

وشرعت في تناول الطعام. ولما كنت قد سلمت أمري إلى سوء طالعي فقد بدأت الان آمل بطالع حسن. أكلت بشهية وبقيت أنتظر ومرّت فترة من الليل تقارب الساعة دون أن أسمع أو أرى أحداً ثم دخل على إثرها (البارجلّو) مع ثلة من الحرس ووضعوني على نفس الكرسي التي نقلوني به ليلة أمس من ذاك المكان. ثم وبعد أن كرر عدة مرات بلطف وبلهجة عطوفة بأن ليس ثمّة ما يدعو إلى قلقي أمر رجاله بتحاشي الإصطدام برجلي المكسورة. وأن يعنوا بي عنايتهم بأعينهم فأطاعوه وحملوني إلى القلعة التي هربت منها وأصعدوني إلى آخر طبقةٍ من البرج وأقفلوا عليّ باب باحة صغيرة برهةً من الوقت. وجيء بالمحافظ محمولاً وهو مريض وفي أسوأ حال. فقال لي:

ـ أترى كيف نلتكَ ثانيةً؟

أجبت:

ـ أجل ولكن أترى كيف هربت كما عاهدتك القول؟ ولو لم أُقايَض بأسقفية مقرونة بتعهد وضمان بابوي للكردينال البندقي من فارنيزي الروماني وكلاهما خدشا

وجه الشريعة الإلهية، لما إستطعت أن تمسك بي ثانية. والآن وبعد أن سلكا هذا السبيل الشائن فلا جناح عليك أن فقتهما في سوء العمل لأني ما عدت أهتم قلامة ظفر بهذه الحياة.

فراح المسكين يصرخ بأعلى صوته قائلاً:

- الله! الله! إنه لا يهتم أعاش أو مات وهو الآن أكثر جسارة مما كان وهو معافى. ضعوه هناك تحت الجنينة وحذار أن يكلمني أحد عنه مرة أخرى إنه سيكون علة موتي.

حُملت إلى ما تحت الجُنينة أُودِعتُ غرفة حالكة الظلام شديدة الرطوبة تملؤها العناكب الكبيرة والدود المؤذي. وقذفوا بفراش بالٍ من القنب على الأرض، وتُركت دون طعام تلك الليلة خلف أبواب مقفلةٍ أربعة. وبقيت على هذه الحال حتى الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي فجيء اليّ بطعام تبلّغت به. ثم طلبت منهم أن يأتوني ببعض كتبي لأطالع. فلم يردّ عليّ أحد منهم. إلاّ أنهم أبلغوا المحافظ التاعس بطلبي الذي سألتهم أن ينقلوه له. في اليوم التالي دفعوا اليّ بكتابي المقدس الأيطالي وبكتاب آخر يتضمن «أخبار جيوڤاني ڤيلاّني» فطلبت بعضاً من كتبي الأخرى فأجابوا:

«لا يمكن تزويدك بأكثر من هذا وما لديك كاف ويزيد عن الحاجة» ولذلك أمضيت الوقت وأنا في أتعس حال فوق فراش رطب مهلهل أخذ ينزّ ماءً بعد إنقضاء ثلاثة أيام، وكنت عاجزاً تماماً عن الحركة بسبب ساقي المكسورة. فأزحف على ركبتي ويدي كلما أردت ترك الفراش لقضاء الحاجة. مقاسياً أشدّ الآلام وأنا أحاول عدم تلويث البقعة التي أنام فيها. وكان ينفذ إلى غرفتي شعاع حائل اللون لمدة ساعة ونصف ساعة كلّ يوم من ثقب ضيق فأستعين به على القراءة لهذه الفترة القصيرة من الوقت فحسب. وأما ما تبقى من ليلي ونهاري فقد كنت أمضيه صابراً في الظلام الحالك متجهاً بفكري إلى الله ومتأملاً ضعفنا البشري. وأيقنت أن حياتي الشقيّة ستنتهي خلال أيام قلائل في هذه الظروف وهذا المكان. على أني تعللت بالتصبّر والتسلّي بالمفاضلة بين الموت تحت النطع بسكّين الجلاد والعذاب الفظيع الذي يرافق تنفيذ ذلك، وبين ملاقاة الموت وأنا شبه مخدّر أثناء النوم وكيف أن هذا

سيكون أحسن نهاية بكثير لحياتي. وشعرت بقواي تخور شيئاً فشيئاً حتى غدا تكويني المتين عادةً، معتاداً عذاب (المطهر) الذي أقاسيه. ثم وبعد أن طرأ عليّ هذا الشعور وكيّفت نفسي له. صح عزمي على إحتمال محنتي العظمى ما دام فيَّ نفَس يتردد.

شرعت أقرأ الكتاب المقدس من الأول، قراءة تأمل وإيمان وقد سحرني بحيث صرت أتمنى أن أقضي كلّ وقتي فيه لولا إفتقاري إلى النور، فكانت آلامي تجيش وتهاجمني حالما ينحسر النور عنيّ. كان عذابي شديداً بحيث صممت أكثر من مرة على وضع حدّ لحياتي بيديّ. على أنهم لم يسمحوا لي بسكين ولهذا لم يكن من السهل تنفيذ ذلك. وفي أحد المرات تناولت عارضة خشبية كانت ملقاة ورفعتها وجعلتها في وضع يمكن ان تسقط به كما يسقط الفخ. أردتها أن تهوي على رأسي فتهشمه تهشيماً مرةً واحدة. وعندما هيأت كلّ شيء وهممت بكلّ تصميم أن أعدّها للضربة القاضية وتقدمت ماداً يدي لإسقاطها ما شعرت إلاّ وبقوة خفية تقبض على يدي وتقذف بي مسافة أربعة كوبيتات إلى الخلف. فإعتراني خوف عظيم وبقيت في مكاني مشلولاً جسماً وروحاً من الفجر حتى ما قبل الليل بخمس ساعات، أي عندما جاؤوني بالغداء، لا بد وأنهم جاؤوا قبل هذا عدة مرات ولم أفطن إليهم. وسمعت صوت الكابتن (ساندرينو مونالدي Sandrino Monaldi) وهو يقول:

- واسفاً على الرجل التعس، كان من العباقرة الأفذاذ؛ والآن تأملوا النهاية التي آل إليها.

فتحت عيناي عند سماعي هذا لأجد بعض الكهنة بحللهم الكهنوتية، فصاحوا:

- آه! قلت لنا إنه قضى نحبه.

فقال بوزا:

- وجدته ميتاً ولهذا قلت لكم إنه توفي!

فأسرعوا بإنهاضي، ورفعوا الفراش الذي كان أشبه بصحفة من المعكروني ورموه خارج الغرفة. وعندما أعلموا المحافظ بذلك أمر بتزويدي بآخر.

عندما فكرت بالجهة التي أحبطت محاولتي رجحت أنها قوى إلهية، إنها ملاكي

الحارس. في الليلة التي تلت رأيت حلماً عجيباً، رأيت فتىً بهيّ الطلعة تقدم مني وراح يؤنبني بقوله:

- أتدري من الذي منحك هذا الجسد الذي هممت بإتلافه قبل أن يحين أجله؟

وتراءى لي بأني أجبته بأن كلّ ما أقدمت على هو بأمرٍ من الله رب الطبيعة. فأجاب:

- إذن فأنت تستخف بأعماله وتريد تدميرها؟ دعه يرشك ولا تفقد الأمل من سلطانه المنقذ.

ونطق بالكثير من العبارات البليغة لا أتذكر واحداً بالألف منها. وبدأت أستيقن بأن هذا الكائن الملائكي قد نطق بالحق. ثم أجلتُ أبصاري بالزنزانة فإستقرت على قطع من الآجرّ المكسّر. فحككت واحدة بالأخرى وعملت معجوناً ثم تقدمت من الباب زاحفاً على ركبتي ويديّ وكسرت من حافة الباب الخشبي الحادة بأسناني شظية. بعد هذا جلست أنتظر موعد تسلل الضياء إلى محبسي، فورد أولاً قبل المغرب بثلاث ساعات ونصف الساعة، وبقي ساعة واحدة. فبدأت أكتب بخير ما يمكنني من صفحات الكتاب المقدس غير المطبوعة. أخذت ألوم قواي العقلية لأنها ضاقت ذرعاً بالحياة. فأجابت تلك القوى جسدي معتذرة بالآلام المبرّحة. ثم تمسك جسدي بالأمل في إنصلاح الأمور وقد كتبت كلّ هذا على شكل محاورة هكذا:

«يا قواي الروحية المعذبة، مالذي يجعلك بهذه القسوة لتكرهي الحياة؟» «إن شئت أن نعمل ضد إرادة السماء فمن سيعيننا في نضالنا؟» «ألا فلنذهب، نبحث عن حياةٍ أفضل». «صبراً ولا تستعجل الذهاب. فالسماء وعدت أن تسعدنا أكثر من ذي قبل». «سنبقى في الأعماق فترة». «فإذا شاء الإله الأعظم أن يشملنا بنعمائه فلن نعرف الألم بعد الآن».

عادت إليّ قواي العقلية وبعد أن هدأت نفسي بما أملك من قدرة، واصلت قراءة الكتاب المقدس، وإعتادت عيناي الظلام. فصرت أستطيع القراءة ثلاث ساعات بعد أن كنت أعجز عن ذلك في ساعة ونصف الساعة. وأخذت أفكر ملياً في قدرة الله العجيبة وقوة تأثيرها في نفوس البسطاء الذين يظلون مقيمين على أيمانهم الراسخ بأن

الله سينيلهم حتماً ما يصبون إليه وأكدت لنفسي أنا الآخر بأن الله سيساعدني أيضاً بسبب رحمته الإلهية الواسعة، ولكوني بريئاً. وبقيت بإتصال مستمر معه، أصلي له آناً، وأستغرق في تأملاتي فيه آناً. وكانت غبطتي في تأملاتي هذه بالله على هذا النحو بدرجة من الزخم بحيث أنستني كل آلامي السالفة. ورحت طول اليوم أرتّل المزامير، وقصائد من نظمي موجهةً إليه تعالى. على أنه كان ثمّة شيء واحد يورثني أعظم الألم فما حدث هو أن نَمَت أظافري وإستطالت فمنعتني من لمس جسمي دون إحداث خدش فيه. وتعذّر عليّ إرتدائي ثيابي إلا بعد طيّ الأظافر إلى أمام أو خلف وكان هذا مصدر عذاب لي. في عين الوقت بدأ التسوس ينخر أسناني ويعمل في جذورها تخريباً، وقد إنتبهت إلى ذلك عندما أصبحت الأسنان السليمة تدفع الأسنان الميتة. وأخذت تثقب لثتي شيئاً فشيئاً وبدأت الجذور تخرج من تجاويفها. لما أدركت الأمر صرت أسحبها بنفس السهولة التي أسحب بها سيفاً من غمده دون ألم أو نزف. روّضت نفسي على كل حال ـ وتحملت هذه البلايا الجديدة وتواصلت أيامي وأنا بين تراتيل المزامير والكتابة بمعجون الآجرّ الذي أتيت إلى ذكره. وشرعت أكتب قصيدة على رويّ (كابيتولو)[1] في مدح السجن. وصفت فيها كلّ ما وقع لي فيه. وسأثبتها هنا في محلها المناسب.

وكان المحافظ الطيب يتتبع أمري كثيراً وبصورة سرية ويراقب أحوالي بوساطة مرؤوسيه. وقد وجدني في آخر يوم من شهر تموز وأنا ممتلئ حبوراً، مفكراً لنفسي أنه مناسبة لإحتفال عظيم يقام في روما عادة في أول يوم من شهر آب فرحت أقول لنفسي:

ـ كنت كلّ السنين المنصرمة أقضي هذا العيد المفرح في تعاطي صنوف اللهو والعبث أما في هذه السنة فسأقضيه في التأملات بالأمور الإلهية والتهجّد لله.

ثم أردفت:

ـ لكم أحسّ الآن بالراحة والسعادة، مما يفوق ما كنت أشعر به بمراحل!

---

(1) وهي القصيدة الطويلة التي يجمع فيها الناظم وقائع كثيرة. ويطلق عليها عادة إسم (الملحمة).

وقد سُمعتْ هذه العبارة، فنُقلت إلى المحافظ فقال بلهجة الحانق المستغرب:

- رباه! إنه سعيد وسط بؤسه، وفيما هو يحقق إنتصاره هذا، أعاني أنا من العذاب وسط كثير من أسباب الراحة. إنه وحده هو الذي سيوردني حتفي أسرعوا إليه واقذفوا به إلى أعمق جبٌ. الجبّ الذي مات فيه (فوايانو Foiano)[1] الواعظ جوعاً. لعل حبوره سيزول عنه عندما يجد نفسه في هذه الحال.

وأقبل عليّ الكابتن (ساندرينو موناالدي) يصحبه حوالي عشرين من أعوان المحافظ. فوجدوني راكعاً. ولم ألتفت إليهم أو أتحرك عندما دخلوا وواصلت صلاتي. كنت أمجد الله الأب وهو محاطٌ بالملائكة، والمسيح وهو يُبعث حياً منتصراً، وهي الصورة التي كنت قد رسمتها على الجدار بقطعة فحم نبشت عليها في أرضية الغرفة. كان قد مضى عليّ أربعة أشهر وأنا مستلق على ظهري في فراشي بساقي المكسورة. وكثيراً ما حلمت بأن الملائكة جاءتني لتصلح ساقي وتشفيني. فبعد هذه الأشهر الأربعة جُبر عظم الساق وعاد كأنه لم يُكسر.

دخلوا عليّ وصليل أسلحتهم مرتفع وكأنهم يواجهون غولاً أو تنيناً يقذف ناراً وقال الكابتن:

- تعلم كم يبلغ عددنا. والضجّة الكبيرة التي أحدثها دخولنا إلاّ أنك لم تتحرك.

من كلماته أدركت البلاء العظيم الذي ينتظرني منهم. ولكن لمّا كان سوء الحظ قد صار جزءاً من وجودي فقد أجبته:

- إلى هذا الربّ الذي يرعاني، إليه ذلك الذي هو في السماء، أودعت روحي وقلبي وقوة إدراكي. تاركاً ما يعود لكم بالضبط. إنكم لا تستحقون أن تتطلعوا إلى ماهو حسن فيّ ولا يمكنكم لمسه. وإعملوا بالذي يخصكم منيّ كلّ ما تتمكنون عليه.

---

(1) هو الراهب بنديتو نيزي من مدينة فوايانو. كان منتمياً إلى رهبنة القديسة ماريا نوفيللا في فلورنسا وواحد من أنصار سافونارولا. دأب على الوعظ بحماسة وحرارة منددأ بإستبداد آل مديتشي في أيام حصار فلورنسا. سجنه كليمنت السابع وقطع عنه الطعام فمات جوعاً في سانت انجلو.

وبان الخوف على الكابتن، لأنه لم يكن يدري ما أنوي أن أصنع، فتوجه إلى أربعة من أقوى حرسه بنية وقال:

- إنزعوا أسلحتكم.

وأضاف بعد أن فعلوا ما أمرهم به:

- والآن أطبقوا عليه بسرعة وأمسكوه، ما بالكم؟ وفينا ما يكفي ليجعلنا في مأمن من الخوف حتى من الشيطان نفسه حكّموا قبضاتكم عليه كيلا يفلت منكم.

فأمسكوا بي وبدأوا يستخدمون معي الخشونة. وعندها صرت أتوقع أعظم الشرّ، فرفعت أنظاري إلى السيد المسيح وقلت:

- أيها الربّ العادل. أنت قدمت نفسك كفّارةً عن كلّ خطايانا بموتك على صليبك الجليل، فلماذا وجب على براءتي أن تدفع ديون شخص آخر لا معرفة لي به؟ إن كانت هذه مشيئتك، فما عليّ إلاّ الرضا بها.

وحملوني وساروا بي على نور مشعل ضخم وظننت أنهم سيلقون بي في ما يسمى «حفرة - سامّالو Sammalo»[1] وهو جبّ مخيف إبتلع جوفه عدداً كبيراً من الأحياء قذف بهم إلى بئر يقع في أسس القلعة الراسخة في الأرض. لكنهم جنّبوني أياه وإعتبرت نفسي سعيداً عندما ألقوا بي في الزنزانة القذرة التي ذكرتها سابقاً وفيها مات الواعظ الفواياني جوعاً. ثم إنهم تركوني من دون أن يلحقوا بي أذى آخر. ولمّا صرت وحدي بدأت أرتّل تسابيح «من الأعماق صرخت De profondis» و«الرحمن يا الله Missrere» و«رجائي بك يارب Inte domine speravi» وأمضيت عيد الأول من آب مع الرب يكاد قلبي يتفجّر بالأيمان والأمل طوال اليوم. وفي اليوم التالي أعادوني إلى زنزانتي الأولى حيث كنت قد رسمت أولى تلك الصور التخطيطية للرب. ولمّا إحتوتني الغرفة وعدت إلى رسومي لم أتمالك نفسي من البكاء لفرط فرحي وسعادتي. بعد هذا أمر المحافظ بأن يُنقل إليه يومياً كل ما أقوله وأفعله وكان البابا

(1) في طبعات وترجمات للمذكرات (روكسوني، وفاليري) أن إسم هذا المكان الرهيب مشتق من إسم القديس (سان ماروكو). لأن أيقونة أو صورة لهذا القديس قد ثبتت فوق فوهة هذا الجبّ.

مطلعاً على كلّ ظروف مرض المحافظ مع العلم ان الأطباء قد قطعوا كلّ أمل بشفائه؛ فقال تعقيباً:

- قبل أن يموت أريده ان يقضي على حياة (بنفنوتو) بأي شكل يختاره فهو سبب موته ولهذا فلن يموت إلاّ بعد أ يصيب ثأره منه.

وعندما نقل بيير لويجي قوله هذا للمحافظ، قال هذا:

- إذن فالبابا يدفع اليّ (بنفنوتو) ويريد مني أن أصيب ثأري فيه؟ دع القضية لي.

إذا كان البابا قد غصّ بحقده عليّ. فالذي يبدو لأول وهلة أن كره المحافظ لي أشد نكراً وأخبث من حقد الأول. وفي هذه المرحلة اقبلت عليّ تلك الروح غير المرئية التي حالت بيني وبين عزمي على قتل نفسي. فهزتني هزّاً ورفعتني فوقفت على قدمي وأنا لا أراها ولكني أسمعها جيداً:

- أسرع يا بنفنوتو، اسرع الآن وتوجه إلى الله وقل صلاتك. اطلقها بأعلى صوتك.

فإمتلأت رعباً وخررت راكعاً وبدأت أتلو كثيراً من أدعيتي وصلواتي بصوت جهير. ثم تلوت «من يسكن المغارة؟ Qui habitat in adjutorio» ثم تبادلت الحديث معه سبحانه وتعالى. وجاءني في التو الصوت بنفسه ـ واضحاً رائعاً:

- إذهب واسترح، ولا تخش شيئاً بعد الآن.

وما حصل هو هذا: إن المحافظ بعد أن أصدر أمراً جازماً بقتلي، عاد فجأة وألغاه وقال:

- أليس هذا هو (بنفنوتو) ذاك الذي بسطت عليه حمايتي وندبت نفسي للدفاع عنه بكلّ حرارة. والذي كنت متأكداً من براءته وبأنه يعاقب ظلماً وعدواناً؟ كيف أرجو رحمة الله ومغفرة لذنوبي ان لم أغفر للذين أساؤوا اليّ كثيراً؟ أيترتب عليّ أن أسيء الى رجل بريء فاضل خدمني وأكرمني؟ كلا ثم كلاّ فبدلاً من القضاء على حياته سأهبه الحياة والحرية وسأكتب في وصيتي بألاّ يطالبه أحد بأي شيء من المال الكثير الذي أنفقته عليه في سجنه.

وأبلغ البابا بما قاله المحافظ وإستاء كثيراً.

في تلك الأثناء كنت أديم تلاوة صلواتي المعتادة مع نظم قصيدتي وبدأت أرى أحلاماً جميلة سعيدة كلّ ليلة، تلازمني فيها تلك الروح غير المرئية التي كنت أسمعها كثيراً وما زلت. سألتها فضلاً واحداً لا غير هو أن تأخذني إلى حيث أستطيع رؤية الشمس وقلت بكل إخلاص إني لأرغب في أن أتطلع إلى الشمس مرة واحدة فقط ثم أموت سعيداً. كلّ ما قاسيت من عذاب هذا السجن، كلها أصبحت عندي ذكريات عزيزة ومفرحة ولم تعد بعد الآن تورثني الإضطراب. مع هذا كان أعوان المحافظ يلحّون عليه بشنقي من مسنن السور الذي هبطت منه. ولما وجدوا سيدهم قد عدل نهائياً عن هذه النيّة، ساءهم الأمر كثيراً وراحوا يحاولون بشتى الطرق إبقائي في حالة خوف عظيم. على أني كما بيّنت، تعودت المضايقات ولم أعد أخشى شيئاً. وكلّ ما كنت أصبو إليه هو أن أرى في حلم من أحلامي قرص الشمس فواصلت صلواتي المخلصة متوجهاً بها رأساً إلى السيد المسيح بحرارة وأنا لا أنفكّ من تلاوة هذا الدعاء:

ـ يا ابن الله الحقّ! إني أتضرع إليك بحقّ ميلادك الطاهر، وبحق موتك على الصليب وبحق قيامتك المجيدة، إجعلني مستحقاً رؤية الشمس حتى ولو كان ذلك في الحلم. فإن شاءت إرادتك أن أراها بعينيّ هاتين الفانيتين فإني ناذر الآن الحج إلى ضريحك الأقدس[1].

هذا الدعاء إلى الله والنذر كان في الثاني من شهر تشرين الأول 1539[2]. وفي اليوم التالي الثالث من تشرين إستيقظت قبل طلوع الفجر وبزوغ الشمس بساعة تقريباً فنهضت من زاويتي الحقيرة وتدثرت بقطعة رثة لأن البرد كان شديداً وبدأت وأنا واقف أصلي بحرارة أكثر من السابق طالباً من السيد المسيح أن ينعم عليّ من جوده بإيضاح الإثم الذي أقدّم عنه هذه الكفّارة الكبرى، على الأقل عن طريق الوحي

(1) أي إلى زيارة بيت المقدس أورشليم. وهو أعظم نذر في ذلك الزمن.
(2) يكون قد مرّ على إعتقال چلليني سنة واحدة تنقص أسبوعين.

الإلهي. وبما أني لم أحظ منه بفضل إراءتي الشمس ولو في أحلامي فقد رجوته، بكلّ عزته وجبروته أن يتنازل ويعرّفني بالسبب الذي من أجله نلت هذا العقاب.

ما أن نطقت بهذا القول حتى وجدت نفسي محمولاً مسافة بعيدة وكأني على بساط من الريح. نُقلت إلى غرفة حيث بدا لي ذلك الكائن الخفي واضحاً مرئياً على شكل شاب في مقتبل العمر يشع النور في محياه وهو في منتهى الجمال إلا أن جماله من النوع الوقور لا من النوع الحسّي، فدعاني للدخول بقوله:

- هؤلاء الناس الذين تراهم هم ولدوا منذ الأزل ثم توفوا.

فسألته عما حدا به إلى الإتيان بي، فأجاب:

- تعال معي ولا تلبث أن تفهم.

وجدت نفسي وأنا لابس زرداً وبيدي خنجر. وقادني بهذا الشكل خلال تلك القاعة الواسعة وهو يريني كل هؤلاء الناس يتجولون هنا وهناك بألوفهم المؤلفة. وبلغ بي باباً فولجه قبلي إلى موضع أشبه بزقاق ضيق. وعندما جذبني خلفه وجدت نفسي دون سلاح مرتدياً ثوباً أبيض وأنا حاسر الرأس أقف عن يمينه وقد ملكني العجب لما حصل. وتعذّر عليّ أن أتبين ماهية الزقاق لكني رفعت رأسي فإذا بي أرى نور الشمس ينعكس على جدار شبيهه بواجهة منزل فوق سمت رأسي تماماً. فقلت:

- أيها الصديق ماذا يترتب أن أفعل لكي أرفع نفسي بحيث يتسنى لي رؤية قرص الشمس بالذات؟

فأراني درجاً عظيم الإرتفاع عن يمين وأجاب:

- إذهب إلى هناك لوحدك.

فسرت عنه وأخذت أصعد الدرج العظيم بمفردي ووجهي يقابل الطريق الذي جئت منه وأخذت أشعر بإقترابي من الشمس شيئاً فشيئاً، فإحتثثت الخطى وصرت أرتفع وأرتفع حتى إنكشف أمامي قرص الشمس كله وبهرت أشعتها الساطعة عينيّ فأغمضتهما تلقائياً. ولكني فتحتهما عندما أدركت غلطتي وأخذت أبحلق بالشمس بنظر لا يريم وصرخت:

ـ الشمس! إنها الشمس التي طالما صبوت إليها! لن أريد شيئاً آخر غيرها بعد الآن، وإن أصابني نورها بالعمى.

بقيت وأنظاري شاخصة إليها لا تتحول وبعد أن مكثت هناك فترة وجيزة رأيت قوة تلك الأشعة الهائلة ترتمي على الجانب الأيسر من الشمس وبقيت الشمس صافية الأديم دون أشعتها. فحدقت فيها بفرح غامر متعجباً من كيفية إنحسار الأشعة عنها. بدأت أفكر في النعم الإلهية التي منحني الله أياها في صباح هذا اليوم، فهتفت:

ـ يا للقوى العظيمة! يا للفضيلة الممجدة! كم من النعم العظيمة اغدقت عليّ بما فاق مأمولي؟

بدأت الشمس الخالية من أشعتها مثل حمام مليء بأنقى الذهب الذائب. وفيما أنا واقف أفكر في هذه الرؤيا العجيبة بدأ مركز الشمس ينتفخ ويتجسم حتى أصبح بالأخير متخذاً شكل السيد المسيح وهو مسمّر على الصليب، مسبوك من مادة الشمس نفسها. وبدا بجمال يسلب اللبّ وبهيئة ساحرة بحيث يعجز تصور المرء أن يصل إلى واحد بالألف مما رأيته منه. وهتفت وأنظاري عالقة بالصورة:

ـ معجزة! معجزة! رباه، رحماك يارب. أيها القوى اللامتناهية. أي أعجوبة هذه التي سمحت لي بمشاهدتها في هذا اليوم؟

وبينما كانت أبصاري عالقة، وأنا أقول هذا، تحركت صورة المسيح وإنحازت إلى جانب من الشمس الذي تحولت إليه الأشعة. وإنتفخ مركز الشمس مرة أخرى وأخذ يكبر حتى إتخذ هيئة السيدة العذراء مريم بأكمل حسنٍ ـ وهي جالسة على عرش والطفل بين ذراعيها وهي تبتسم. وكان ثمّ ملاكان يقفان كلّ زوج على جانب منها ـ في غاية الوسامة ورأيت كذلك عن يمين الشمس شخصاً في ثياب الكهنة أولاني ظهره ووجهه وهو يقابل العذراء مريم والسيد المسيح. شاهدت كل هذا بدقة ووضوح وكحقيقة لا ريب فيها. ولم أنفكّ طوال الوقت عن التسبيح والدعاء لله بصوت جهير. بقيت هذه الرؤيا ماثلة أمامي حوالى ثُمن الساعة ثم تلاشت. وحُملت إلى زنزانتي الحقيرة وبدأت فجأة أصرخ عالياً:

ـ بنعمة الله صرت مستحقاً لرؤية مجده في أمور لم يرها أحد من أهل هذه الدنيا

الفانية على أغلب إحتمال. إذن فهذا دليل على الحرية والسعادة والحظوة عند الله. فبينما أنتم أيها الأنذال ستبقون أنذالاً على طول، تعساء يجلّلكم العار أمام الله. والآن إستمعوا لي. إني لعلى يقين بأنه في عيد جميع القديسين - وهو اليوم الذي ولدت فيه من العام(1500) والموافق للأول من تشرين وفي الساعة الرابعة بعد حلول الليل - في هذا اليوم عينه الذي سيأتي. ستُرغمون على أن تخرجوني من هذه الزنزانة المظلمة ولن يسعكم أن تفعلوا خلاف هذا، لأني قد رأيت ذلك بعينيّ على عرش الله نفسه. إن الكاهن الذي كان متوجهاً إلى الله ومديراً ظهره لي هو بطرس الرسول وقد كان يسترحم لي وهو خجلٌ من الظلم الفادح الوحشي الذي يحيق بالمسيحيين في عقر داره. قولوا لأيٍّ من أمثالكم: ليس لأحدٍ القدرة على إلحاق الأذى بي بعد الآن. وقولوا لذلك السيد العظيم الذي يمسكني هنا، لو أنه يسمح لي إما بشيء من الشمع والكاغد أو بالوسائل التي تمكنني من التعبير عن مجد الله الذي شاهدته فسأجلو تماماً ما يبدو مشكوكاً فيه.

مع أن الأطباء فقدوا آخر أمل في حياة المحافظ، فقد ظل مسيطراً على قواه العقلية. ولم يعد يرى تلك الأخيلة الجنونية التي كانت تستولي على حواسه كلّ سِنة. وكان ضميره يعذّبه بإستمرار لإعتقاده الراسخ بأن ما عانيت وما أزال أعاني هو الظلم الفادح وأنبأ البابا بالأشياء العجيبة التي تراءت لي وتحدث بها. ولكن البابا الذي ما كان يؤمن بالله ولا بأي شيء آخر قال معقباً على هذا بأني لا شك مجنون وأوصاه بأن يحاول كلّ ما في وسعه ليحقق الشفاء لنفسه. وبعد هذا الجواب أرسل المحافظ رسالة تسرية وتهدئة لي. وبعث إليّ بأدوات للكتابة ومقدار من الشمع مع الأدوات للعمل. جاءني برسالته الرقيقة واحدٌ من أعوانه الذين يكنون لي وداً. كان هذا الرجل يختلف تماماً عن عصبة الأنذال الذين تمنّوا موتي.

تسلمت الكاغد والشمع وشرعت في العمل. وكتبت أثناء ذلك هذه القصيدة مهداة إلى المحافظ:

«سيدي! لو كان في وسعي أن أثبت لك رؤيتي النور السرمدي الذي

كشفه لي الله بذاته في هذه الدنيا الفانية.

فإنك ستولي كلماتي البليغة ما تستحق من إعتبار.

إن رؤياي لمجد الله التي شاهدتها؛ تلك العجائب لم

تنكشف لأنظار أي من البشر قبل أن تزول كلّ أحزان هذا العالم المظلم

عندئذ ستنفتح أبواب العدالة المقدسة وتسقط (فيوري)[1] الرذيلة

من حالق وهي مكبّلة بالسلاسل صارخة مستعيذة بالسماء لخسارها الموجع.

لو كان لديّ ضياء فإن مواهبي الغنية ستتولى إثبات هذه الرؤيا

الإلهية. وعندئذ سيسقط عني عبء صليبي الثقيل!».

دفعت بالقصيدة إلى الخادم الصديق الذي جاءني صباح اليوم التالي يحمل فطوري. فسلمها بدوره إلى المحافظ في غفلة من أعين خصومي. كان يسرّ المحافظ ان يراني مطلق السراح لأنه تأكد بأن الظلم الشنيع الذي ألحقه بي هو السبب الرئيس في موته، فأخذ القصيدة وقرأها أكثر من مرّة ثم قال:

ـ ليس هذه بأقوال أو أفكار مجنون. بل إنها ثمرة عقل راجح وخلق قويم وأمر فوراً أحد أعوانه بأخذ القصيدة إلى البابا وأن يسلمها إليه يداً بيد وأن يرجوه إطلاق سراحي. وفي أثناء ما كان سكرتيره يسعى إلى البابا بالقصيدة، أرسل لي نوراً لليل وللنهار وزوّدني بكلّ ما يلزم من وسائل الراحة. فبدأت حالتي الصحية تتحسن بعد أن تردت إلى أسفل درك.

وقرأ البابا القصيدة عدة مرات وبعث بجواب للمحافظ يؤكد له أنه سيفعل في القريب العاجل ما يسرّه. ولولا إصرار (بيير لويجي) على إبقائي في السجن ضد رغبة البابا والده، لأطلق سراحي فعلاً.

كان الموت يدنو من المحافظ بخطئ حثيثة. وكنت في تلك الأثناء أرسم وأعمل تصاميم للرؤيا العجيبة. وفي صبيحة عيد جميع القديسين، أرسل المحافظ ابن أخيه

(1) في الأساطير اليونانية (الفيوري Furi) هي واحدة من آلهات الإنتقام.

(بيير اوكوليني) ليعرض عليّ بعض الأحجار الكريمة، فصرخت حالما شاهدت ذلك:

- هذا هو عربون تحريري.

وكان الفتى بليداً يغلب عليه بطء الفهم:

- لا تتقوّل عليّ بهذا أبداً يا بنفنوتو.

فأجبته:

- خذ جواهرك وإنصرف. لقد كانت معاملتي هنا بدرجة من الفظاظة بحيث كان الضياء الوحيد الذي أستنير به هو ما في هذا الجحر المظلم الكئيب وهو لا يصلح لتقدير قيمة الجواهر. وأمّا عن قضية تركي هذا السجن فلن ينقضي عليّ هذا اليوم إلا وقد جئت أنت بنفسك لإطلاق سراحي: هذا ما لا بد منه ولن تستطيع أن تحول دونه.

تركني وأقفل باب سجني مرة أخرى. وبعد أكثر من ساعتين عاد دون أن يصحبه حرس مسلح، بل كان برفقته فتيان اثنان لمساعدتي على السير. ونُقلت إلى الغرفة الكبيرة التي كنت أحتلها في السابق في العام 1538[1] وأُعيدت لي كل أسباب الراحة التي أردتها.

إشتدت وطأة الداء على المحافظ وبعد أيام فارق الحياة. توفي وهو يظنني مطلق السراح. وإستخلِفَ أخوه (أنطونيو أوكوليني) وهو الذي قال له إني قد خرجت من السجن. وبالقدر المتيسر لي من المعلومات رجّحت بأن البابا هو الذي أمر (أنطونيو) بإبقائي سجيناً في هذا الجناح الرحب حتى يخطره بقراره في أمري. في تلك الأثناء قام (دورانتي السيجي) الذي ذكرته سابقاً. بتدبير مؤامرة لقتلي بدسّ مادة لها أثر سمّي في الطعام الذي أتناوله بمعاونة ذلك الجندي الذي كان عقاقيرياً في (براتو) على أن لا يقضي به على حياتي حالاً بل بصورة تدريجية فلا يظهر مفعوله إلاّ بعد أربعة أو خمسة أشهر. كانا قد إتفقا معاً على وضع مقدار من مسحوق الألماس في طعامي

(1) كان ذلك في العام 1539.

وهو ليس من قبيل السموم بحد ذاته إلاّ أنه في منتهى الصلابة ومهما سُحق فإنه يحتفظ برؤوسه الحادة. إن الألماس لا يشبه المعادن والأحجار الأخرى التي تفقد أطرافها الحادة عند سحقها فتصبح ملساء كروية وبنتيجة هذا فإنها عند دخولها المعدة مع الطعام تلتصق دقائقها بجدار المعدة والأمعاء أثناء عملية الهضم. ثم تندفع شيئاً فشيئاً بما يدخل من الطعام إلى داخل الأنسجة الهضمية فتمزقها شرّ ممزق وتحدث الوفاة. في حين لو مُزج أي مسحوق آخر من الحجر أو الزجاج بالطعام فإنه سيخرج مع الفضلات، إذ ليس لديه خاصية الإلتصاق.

أعطى (دورانتي) هذا الحارس ألماسةً زهيدة الثمن وقيل إن صائغاً يدعى (ليوني الأريزي) وهو من ألدّ أعدائي كُلِّفَ بسحقها. وكان هذا الصائغ معدماً والألماسة قد تساوي بضع عشرات من الكراونات، فدفع للحارس بمسحوق مدعياً أنه مسحوق الألماسة ليوضع في طعامي. وفي صباح ذلك اليوم وكان يوم جمعة تناولت المسحوق مع طعامي. تناولته مخلوطاً بالصلصة وبالشورباء وباللحم المطبوخ مع الخضار. وكانت شهيتي منفتحة لأني صمت ليلة العيد والجمعة وهو يوم العيد وقد شعرت فعلاً بأسناني تطحن شيئاً صلباً إلا أني لم أشكّ بشيء يرقى إلى هذه المكيدة الشيطانية. وبقي قليل من الصلصة بعد فراغي، فلفت نظري ذرات دقيقة تخلفت معها. فأخذتها للنافذة حيث الضياء قوي جداً متذكراً وأنا أفحصها بأن الطعام كان يضرّس أسناني صباح هذا اليوم على غير المعتاد. وبعد فحص دقيق بقدر ما توصل إليه إستنتاجي أيقنت بأنه مسحوق الألماس، فإعتبرت نفسي في عداد الموتى، ولجأت بقلب مثقل بالهمّ إلى الصلاة، وقد إستقرّ فكري بأن القضاء قد حمّ ولات حين مناص. رحت ساعة كاملة أبتهل إلى الله وأشكره للميتة الهنيئة التي خصّني بها؛ ما دامت طوالعي قد حكمت عليّ بهذا المصير فقد رأيتُني سعيداً لأني سأغادر هذه الدنيا بهذه الطريقة السهلة ولم يسعني إلاّ أن أبارك للدنيا وللسنوات التي عشتها فيها وأنا الآن مزمع العودة إلى مملكة أخرى صرت مستحقاً لها بنعمة الله.

كانت هذه الأفكار تجول في رأسي والمسحوق البالغ الدقة في راحة يدي، ذلك المسحوق الذي كنت متأكداً بأنه ألماس. ولكن بما أن الأمل لا يموت قط، فقد أغراني بارق منه بمحاولة صغيرة. فأمسكت بسكين صغيرة ووضعت بعض المسحوق

بينها وبين أحد قضبان السجن الحديدية وضغطت برأس السكين عليها بقوة فإذا بها تتفتت. وأنعمت النظر فوجدت أنها إنسحقت فعلاً وأصبحت كالطحين. فعاد الأمل يشيع في كياني وقلت لنفسي:

- إنها ليست بحجر دوراتني الصلب، وإنما هي حجر هش رخيص لا يلحق بي ضرراً.

ومع أني قد روّضت نفسي على الهدوء والموت بسلام فقد بدأت أرسم خططاً جديدة، إلا أني شكرت الباري؛ ودعوته بالبركة لحالة الفقر التي كان لها الفضل في نجاتي من الموت وهي في كثير من الأوقات مسببة للموت. فالسيد دوراتني[1] أو كائناً من كان ـ أعطى (ليوني) ألماسة تزيد قيمتها عن مائة كراون وأمره بأن يطحنها لي، لكن فقره أقنعه بالإحتفاظ بها وطحن بدلها حجراً من البريل الأخضر لا تسوى أكثر من كارلينين. ولعله ظنّ أن مفعولها لا يختلف عن مفعول مسحوق الألماس ما دامت هي الأخرى من الأحجار الكريمة.

في تلك الفترة من الزمن سُجن في القلعة أسقف بافيا[2]، المُسنيور دي روسّي Rossi البارمي، شقيق الكونت (سان سكوندو Count San Secondo) بسبب القلاقل التي وقعت في (بافيا)، ولما كان صديقاً حميماً لي فقد حشرت رأسي من خلال كوّة زنزانتي وناديته بأعلى صوتي قائلاً إن هؤلاء المجرمين قد دسّوا لي مسحوق الألماس بغية القضاء على حياتي. كما إني أرسلت إليه صحبة أحد خدمه شيئاً من هذا المسحوق، دون أن أطلعه على أني تبينت حقيقة أمره. بل قلت إنهم قد سمّموني بعد وفاة ذلك المحافظ الكريم. وبما أنه لم يبق لي إلا القليل من الزمن في هذه الدنيا فقد رجوته أن يزودني برغيف واحد من أرغفة خبزه يومياً لأني ماعدت أقرب أي طعام

---

(1) أمين سرّ البلاط البابوي ثم أسقف برنجيا ثم كردينال. له أبحاث في العلوم والقانون. إن بنفنوتو يكيل التهم جزافاً لأناس مثل دوراتني عرفوا بحسن السمعة. أما ليوني الذي ذكره فهو نحّات وصائغ مشهور. عرف بتهور وطبع حادٍ. حُكم عليه في 1540 بالأشغال الشاقة في السفن لجريمة عنف إقترفها. تجد سيرته في (فاساري، ج8).

(2) نسبة إلى بليدة تقع جنوب ميلان تبعد عنها مسافة (30) كيلومتراً تقريباً.

يردني منهم. فوعدني بإرسال شيء من طعامه. وأحدث (السيد أنطونيو) ضجة كبيرة حول الموضوع لأنه لم يكن طرفاً في المكيدة وطلب شيئاً من المسحوق. ومع إنه توهم أيضاً بأنه مسحوق الألماس فقد أعاد التفكير في القضية وأهمل تعقيبها ظاناً بأن البابا وراءها. ومنذ ذلك الحين قصرت غذائي على ما يردني من مائدة الأسقف وواصلت نظم ملحمتي الشعرية عن السجن. ذاكراً فيها الأمور التي تحصل لي كافةً يوماً بيوم بالتفصيل والدقة. وأخذ السيد أنطونيو يبعث اليّ بطعام من مائدته أيضاً. وكان يأتيني به (جيوڤاني) العقاقيري من براتو، الذي أتيت إلى ذكره وكنت أعرف مقدار كرهه لي، فهو الذي دسّ لي مسحوق الألماس ولذلك قلت له إني لن أقرب أي طعام يأتيني به قبل أن يسبقني إلى تناول شيء منه. فأجاب هذا إمتياز ينفرد به البابوات. فأجبته لما كان من واجب النبلاء تذوق طعام البابا، فإن واجبه بوصفه حارساً وعقاقيرياً ومن سكنة (براتو) أن لا يرفض القيام بهذه الخدمة لمواطن فلورنسي في مقامي. فراح يكيل لي السباب والشتائم فكلت له الصاع صاعين.

إن السيد أنطونيو الذي صار يخجل بعض الشيء من نفسه ولا سيما إعتزامه تحميلي نفقات بقائي في السجن وهي التي أبرأ ذمتي منها المحافظ المتوفى، عمد إلى إستبدال هذا الحارس بآخر صديق وعهد إليه بإحضار طعامي. وبلغ من شهامته انه كان يتذوق طعامي من دون طلب أو تردد. وأخبرني كيف ان (مسيو مونتلوك) كان يلاحق البابا لطلب إطلاق سراحي نيابةً عن الملك الفرنسي وإن البابا يكنْ كثير ميل إلى تحقيق مطلبه، وإن الكردينال فارنيزي[1] الذي كان صديقاً سابقاً وراعياً لي، ذكر أيضاً بألاّ أمل لي في الخروج من السجن إلا بعد فترة. فعقّبت على هذا بقولي بأني سأجد وسيلة لمغادرته رغم أنفهم كافةً.

فرجاني هذا الشاب العالي الخلق بالسكوت ولا أدع أحداً يسمع بمثل هذه الأقوال التي قد يصيبني منها أذى. وأضاف يقول: «ما دمت قد وضعت ثقتك بالله

(1) هو ابن (بيير لويجي) أي حفيد البابا بولص. رئيس أساقفة بارما. كان يطمح إلى العرش البابوي إلاّ أن حزب آل مديتشي وقف حائلاً دون ذلك فلم ينجح. كان ذلك بعد وفاة البابا بولص الثالث فارنيزي.

فعليك بإنتظار مراحمه والصبر». فأجبته ان القدرة الإلهية لا تخشى من عمل الظلم الخبيث.

بعد مرور بضعة أيام على هذا قدم كردينال (فرارا) إلى روما للسلام على البابا فإستبقاه هذا لمدة من الزمن إلى أن حان وقت العشاء ذلك لأنه كان واسع الإطلاع معقباً للمعارف وقد أراد أن ينفرد مع الكردينال بحديث مبسّط حول الشؤون الفرنسية السيئة. والمعروف أنه عندما يأكل الناس في جمعية فكثيراً ما يقولون أشياء ما كانوا ليتفوهوا بها في مناسبات أخرى. ولما كان الملك الفرنسي العظيم سمحاً وكريماً للغاية في معاملاته ولما كان الكردينال يدرك هذه الخصلة في الملك إدراكاً تاماً فقد خرج عن كلّ حدٍّ في التعهد للبابا بما لم يتوقعه هذا. فطابت نفسه وبدا في أحسن حال من الإنشراح مما زاده في هذا أنه إعتاد أن يأكل بنهم شديد وشراهة عنيفة ثم يتقيأ بعدها. فلما وجد الكردينال قداسته بهذه الحالة من الإنشراح، وكم طابت نفسه وتهيأت لمنح الإنعامات، أخذ يطلبني ملحّاً بإسم الملك مؤكداً وموضحاً كم أن جلالته يرغب في تحقيق هذا الرجاء. وضحك البابا ضحكةً مجلجلة وقد شعر بأن وقت قيئه دنا كما ان تأثير الخمرة الكثيرة التي عبّها بدأ يظهر فيه. فقال[1]:

- في هذه اللحظة بالذات أريدك أن تأخذه معك إلى البيت.

ثم أصدر الأوامر العاجلة بإخلاء سبيلي وترك المائدة. فأرسل الكردينال بطلبي فوراً قبل أن يبلغ الخبر (بيير لويجي) الذي لم يكن يريد خروجي من السجن بأي حال من الأحوال. ووصل رسول البابا إلى القلعة يصحبه نبيلان من خاصة الكردينال. وفي حوالي الساعة الرابعة ليلاً أخرجوني من زنزانتي وجاؤوا بي إلى منزل الكردينال الذي حيّاني بحرارة. وإستضافني في بيته وبقيت مرتاحاً منعماً.

أرغمني السيد أنطونيو شقيق المحافظ المتوفى وخلفه على تسديد نفقات السجن وما يلحق بها من أجور الحرس والشرطة وأمثالهم. متجاهلاً وصية أخيه الميت بحقي. وقد كلّفني هذا عدة عشرات من الكراونات. ثم إن الكردينال أوصاني بإلتزام الحذر

(1) هذه أيضاً من الشائعات والمبالغات التي خصّ بها چلليني أولئك الذين كان يعدّهم من أعدائه. إذ لم يُؤثر عن البابا بولس هذه الطبيعة.

التام لو كنت أقيم لحياتي وزناً، فلو لم يضمن إطلاق سراحي في تلك الليلة لما خرجت منه قط. وقد سمع مؤخراً ما أُشيع بأن البابا أسف كثيراً على منحي حريتي[1].

عليّ أن أعود إلى الوراء قليلاً ما دام كلّ هذه الأحداث قد ذكرتها في ملحمتي الشعرية. من بين من زارني أثناء وجودي القصير في قصر الكردينال (كورنارو) وفي حدائق البابا الخاصة صديق عزيز هو السيد (برناردو كاللوّزي B. Galluzzi) أحد صرّافي السيد (بيندو آلتوفيتي Bendo Altoviti) وكنت قد أودعت لديه بضع مئات من الكراونات. عادني أثناء وجودي في حدائق البابا وأراد إعادة المبلغ المؤمّن عنده. فإحتججت بقولي لا محل لها آخر لا عند صديق أعزّ منه ولا في مكان أفضل مما هي فيه. فتردد وتمنّع وأبدى عزوفاً حتى أقنعته بما يشبه الإرغام على إبقائها لديه. وبعد أن أُطلق سراحي علمت أن هذا الفتى المسكين برناردو كاللوزي قد أفلس وهكذا فقدت مالي.

كذلك أذكر أني حلمت في السجن حلماً مرعباً. فقد خيّل إليّ أن كلمات في غاية الخطورة قد كُتبت على جبيني كأنما خُطّت بقلم: وقد قال لي كاتبها ثلاث مرات «أسكت. ولا تخبر أحداً بها». وعندما إستيقظت وجدت جبيني مُعْلَماً. وقد ذكرت في ملحمتي الشعرية عدداً من أمثال هذه الأمور. كذلك تنبأت من دون أن أدرك المغزى والأهمية ـ بكلّ ماوقع للـ(سنيور بير لويجي) بوضوح ودقة جعلتاني موقناً بأن ملاكاً من السماء كشفها لي[2].

هناك أمر يجب أن لا أغفله ـ ولعله أعظم حدث وقع لأيٍ من البشر ـ وإني لأكتب هذا إثباتاً للعناية الإلهية ولحقيقة الأسرار الربانية التي حباني الله بها. فمنذ أن حلمت بتلك الرؤيا العجيبة حتى الآن، وشعاع من النور مستقرّ فوق رأسي كان من السطوع بحيث لا تخطئه قط عيون أولئك القلائل الذين رغبت في أن يروه. وكان

---

(1) تاريخ إطلاق سراحه كما أورده باكي هو في 24 كانون الأول 1539 أو هو على الأقل التاريخ الذي يحدده له الأمر الرسمي بإطلاق سراحه. إلاّ أن (كارو) و(الأماين) يذكران ما يدلّ على أنه حُرّر في الأيام الأولى من هذا الشهر.

(2) ينوه هنا بإغتياله الذي وقع بعد هذا التاريخ بثماني سنوات.

يمكن رؤيته صباحاً فوق خيالي لمدة ساعتين بعد طلوع الشمس. وكان أوضح للعين عندما يسقط ندى خفيف على العشب. كما يرى أيضاً في السماء عند غروب الشمس. وقد إنتبهت إلى وجوده أثناء إقامتي في فرنسا وفي باريس ويعزى سبب وضوحه إلى أن هواء تلك البلاد أكثر صفاءً ونقاوة من جوّ إيطاليا حيث الضباب القاتم الكثيف يغطي سمادها غالباً. وكنت أنبه الاخرين إلى هذا النور كلما شعرت بوجوده في إيطاليا وإن كان أقل وضوحاً منه في ذلك الجزء من تلك البلاد.

سأثبت الآن الملحمة الشعرية التي نظمتها في السجن وفي مدحه وبعدها سأواصل تدوين قصة حياتي بكلّ تقلباتها والصروف التي مررت بها. وكذلك قصة ما سيأتي بعدها من أحداث.

أقدّم هذه القصيدة إلى لوكّامارتيني[1] وقد خاطبته فيها كما سيتبين منها:

من يريد معرفة قوة الله وقدرته. وكم يستطيع البشر الإستمداد منهما.

فليقض وقتاً في السجن بعيداً عن أهله، كئيباً سقيماً معذّب الفكر.

بعيداً الاف الأميال عن وطنه ومسقط رأسه.

إن شئت أن تقيم الدليل على صمودك فأدخل السجن وأنت بريء

ليمرّ بك الشهر إثر الشهر وأنت منسي لا تأمل عوناً من أحد.

وتجرّد من القليل الذي تملك وتقف مواجهاً الإهانات والموت كل يوم،

يائساً من تبدّل حالك. إن اليأس سيدفعك إلى عمل جنوني

الى كسر أبواب السجن والقفز من أسوار الحصن العالية.

ثم لتعود إليه ثانيةً وتوضع في زنزانة أضيق وأفظع من الأولى.

أي عزيزي (لوكا) اعرني سمعك فلديّ من الأنباء ما هو أدهى:

(1) هذه القصيدة هي كما سيلاحظ من قبيل الوعظ المملّ، لم يحفل أحد مترجمي المذكرات بترجمتها ترجمة دقيقة. وهي من البحر المسمى ترزاريما Truzarima الذي يستخدم لنظم قصائد الهجاء والسخر غير المبتذل أو الفاحش في كثير من الأحيان. واصل هذا البحر فلورنسي (انظر سايموندز: الرينسانس في أيطاليا ـ الأدب الإيطالي: القسم الثاني).

الساق مكسورة، والأمل خائب، وأنت ترتجف برداً بلا رداء أو غطاء وبدلاً من كلمة عطف لا تجد من الأنباء إلاّ أسوأها يحملها إليك الحارس مع طعامك. ذلك البهيمة الذي لم يمرّ عليه طويل زمن مذ كان يمزج العقاقير في (براتو).

إن المرء لا يشتهر إلاّ بتراكم المحن والأرزاء عليه.

المصطبة الخشبية مقعدك الوحيد. تجلس عليه وأنت ساهم تبدد وقتك العبقري الخلاّق في فراغٍ تام.

وللحارس قوانينه. إنه لا يسمح لك بكلمةٍ ويمنع عنك ما تطلب وقلما يفتح الباب فتحةً تكفي لحشر نفسه فيه.

وعبثاً تسأله أن يمنّ عليك بما تشغل به وقتك ويطرد عنك السأم من كاغد وحبر وقلم، وأدوات العمل، ونار تتدفأ بها.

بينما تدور أفكارك كلها في دائرة أملٍ وهو الخروج من السجن.

يؤسفني أن تكون كلماتي قاصرة عن التعبير عما أرومه إلا القليل.

إن المظالم التي إنصبّت عليها تعدُّ بالمئات. وفي وسعي أن أبسطها بتفصيل واحدة واحدة. إلا أني أعود إلى غرضي الأوّلي لأنشد ما يجب إنشاده في مدح السجن.

لست أظن أن ألسنة الملائكة قادرة على إيفائه حقه من المديح.

في السجن لا تجد من الأماجد والأكارم إلا المعتقلين. أولئك الذين حبسهم الحكام الطغاة، أو أعوانهم الأشرار بدافع الحقد والحسد والبغضاء عليهما لعنة الله.

ولكن هذه هي الحقيقة التي سأكشفها الآن. إن السجين رغم آلامه وعذابه الجهنميّ، يتوجه إلى الله بالصلاة ربما بطلب المغفرة من حياة أثيمة حفلت بالشرور. ألا أبقهِ سنتين في الأسر

القاسي فسيتطهّر ويصبح في عداد القديسين، وأخاً لكلّ
البشر. سيجد نفسه طاهراً روحاً وجسماً. وبذلك
يقترب من الذات الإلهية.
والآن أصغ إلى هذه المعجزة: ذات مرة حين حفزتني
الرغبة في الكتابة. إندفعت إلى تحقيق هذه الحاجة بكلّ قواي.
أخذت أقطع الغرفة ذهاباً وإياباً وأنا غارق في التفكير.
فوقع نظري على صدعٍ في الباب فأمنت لنفسي شظية من
خشبةٍ إنتزعتها بأسناني. ووجدت قطعة آجرّ ملقاة فطحنتها
حتى صارت دقيقاً وصببت عليه بولي لأعمل منها حبراً.
ثم شاع في حنايا أضلعي نور الوحي وناره وفاض الشعر وخرج
من فمي كما يخرج الخبز من الفرن. ولأعد الآن إلى غايتي
الأولى فأقول: على المرء ان يتوقع الشرّ الذي قدّر له قبل أن
يفكر بما سينال من خير.
في جوّ السجن تجد الفنّ، والعلم. فإن كنت في حاجة للتسرية فمارسهما
وإذ ذاك ستشيع الحرارة في عروقك فيجري دمك. وفضلاً
عن هذا ففي كلّ سجن قوى طبيعية تجعلك بليغ اللسان، جريئاً
شرساً. حسن المحادثة عن مصدر الخير والشرّ.
سعيد ذلك المرء الذي يبقيه سجّانوه معتقلاً ثم يُفرج عنه.
إنه ليعرف معنى الحرب والسلم، وكيف تُهتك العهود. وسينجح
في كلّ ما يباشر من عمل. فالسجن يمنحه قوى وملكات عظيمة.
ولن يندفع به عقله إلى مواطن العبث والمرح.
وقد تحتجّ عليّ بقولك إنك أضعت من حياتك سنوات وإن ما كتبت في
السجن غير حقيقي. فلا سجن ثمّ يُنضجك عقلاً أو روحاً.

إلا أني سأمدحه ولن أكفّ عن ذلك مطلقاً. وإن كنت سأضع
إستثناءً واحداً وهو سجن من يستحق السجن.
على كلّ أولئك الذين يمسكون بزمام السلطة أن يتعلموا دروساً من السجن
فيحكموا بتعقّل وحكمة لمصلحة رعيتهم. ويتصرفوا بالعدل ولا يحيدوا
عن ذلك طوال حياتهم ولا يسمحوا بتغلّب الأهواء والإضطراب
على النظام والإتزان. ولكني أرى وأنا جالسٌ في زنزانتي عدداً
كبيراً من الكهنة والرهبان ورجال الحرب يدخلون السجن دون
وجه حقّ. وإنه لمن المحزن أن تجد بابه يفتح لإستقبال أحدهم
ويبقى مغلقاً في وجهك. فتتألم وتتعذب حين تُترك حيث أنت ويُطلق
سراح واحد منهم. ولا يعود عندك شيء تفكر فيه غير اليأس.
إلا أني أصبحت نقياً كالذهب الإبريز وعليّ أن أعرف قيمتي
العالية ولن أضيف أكثر من هذا لأن الذهب لا يحتاج إلى ثناء
إلا أني سأصبُّ في أذنيك (يا لوكا) شيئاً تذكرته وكنت قد نسيته.
في كتاب الله المقدس دوّنت ما جرى لي. كتبت على هامشه بقلمي والألم
يغتذي من جسمي، بالحبر الذي صنعته من ذلك المعجون القذر، إن
كلّ الموتى الذين كان الجحيم مصيرهم لم يعانوا أسوأ من هذا.
كان عليّ أن أغمس قلمي فيه ثلاث مرات حتى أستطيع كتابة حرف (و)
سأكون ساكتاً، فلست أول إنسان امتُحنت بهذا دون سبب. إلاّ
أني سأكتب هنا ما قاسيت من العذاب المبرح وأمدح زنزانة السجن
بكلّ طاقتي. متوجهاً بقولي إلى أولئك الذين يجهلونها ناصحاً:
إنكم بدونها لا ترقون إلى الأعالي. ولو أن أحدكم يقول لي كما قال
الربّ عند الساحل: «قم يا بنفنوتو خذ ثيابك وانهض» فإني
سأرتّل من أعماق قلبي صلاة «السلام لك يا ملكة Saluve regina crado»

مع «أبانا الذي في السماء Paternosters» وسأوزع الصدقات على
الفقراء والعميان والمقعدين دون انقطاع.
كم من مرّة صبغت الزنابق وجنتيّ بالإصفرار وبلغن بي حافّة
الموت وأنستني سحر فلورنسا وفتنة فرنسا. وإذا ما شاهدت
وأنا أسير في المستشفى بشارة العذراء الطاهرة، فلا يسعني
إلاّ الفرار لئلا تثير زنبقة الملاك جبرائيل[1] طباع الوحش الغليظة
إني لا أجدّف على العذراء النقيّة البريئة من كلّ عيب، ولا أقصد
إهانة زنابقها البهيّة الطاهرة التي تتلألأ لتنير الدنيا والسماء فوقها
لكن أين وجهت أنظاري، فلا أرى غير العدد الكبير من تلك الزنابق ذات
التويجات المعقوفة فأرتعد فرقاً ورعباً. أين وجهت بصرك فلا ترى
إلاّ أولئك العبيد الكثيرين يرسفون في قيود شعار آل
(فارنيزي) تلك الأرواح السامية التي جاء بها الله من الفردوس.
إلا أني رأيت هذا الشعار القتّال يسقط من السماء بسرعة وينشر
الشرّ بين الناس. ثم يسقط على الحجر نور جديد
يضيء الجميع. وقبل أن أنال حريتي لا بُدّ وأن يتصدّع
ناقوس الحصن: وهذا ما أعلنه الله الخالق الذي يكشف كلّ
شيء. ثم رأيت تابوتاً قاتم اللون قرب الحجر، مع زنابق مكسّرة[2]
وصلباناً ودموعاً حزينة. وأناساً مكروبين على أسرّتهم يئنون
ورأت عيناي الموت وهو يعذّب ويمزّق الأرواح إعتباطاً

(1) يتألف شعار آل فارنيزي من سبع زنابق معقوفة التويجات. ويرى في شعار فلورنسا زنبقة واحدة. أما شعار فرنسا فيتألف من ثلاث زنابق. ويرسم الملك جبرائيل الذي بشر العذراء مريم بجنبها ممسكاً عادة بزنبقة واحدة.

(2) إدعى في رؤياه انه أنبئ بوحي من الله، بوفاة محافظ السجن وقتل بيير لويجي.

عند ذلك قالت الروح» (سآخذ كلّ من يخشاه بنقنوتو).
ثم كتب ذلك الكائن النبيل العظيم بقلم
بطرس الرسول على جبهتي الكلمات التي بدأها. وشدّد
عليّ بأن أحفظها سرّا ثلاث مرات. رأيت الحاكم الأسمى
للشمس وقد إشتمل برداء من الجلال والسلطان وحوله
الأعوان ما لم تره عين إنسان قطّ. ثم سمعت زقزقة
عصفور في أعلى السور فوثب قلبي وقلت
«هذا يعني خلاصي، وينبئ بموتك»!
فأنشدت وكتبت نداء حربتي، ولم أطلب العون
والغفران إلا من الله وحده. ذلك لأن أبصاري
تعاني سكرات الموت.
أهو نمر أم دب أو أسد أو ذئب. ليس واحد من
هذه الضواري أكثر منه ظمأ إلى الدم. وليس ثمّة أفعى
أكثر منه سمّاً[1].
ودونك هذا الكابتن القاسي، الذي حذق اللصوصية، أكبر
نذل بين شرّ مجموعة من الجنود. إلا أني سألين من كلامي
فالكلمات تخونني. تصور أولئك الكلاب من الشرطة
وهم يقتحمون منزل أحد الفقراء فيسلبونه ما عنده ويحطمون
الصور المقدسة بحثاً عن الأسلاب. بهذا الشكل جاؤوا
اليّ في أول يوم من شهر آب ليجزوني ويقذفوا بي الى
قبر أشدّ وحشة. ثم جاء تشرين الثاني[2] وولى - وإنهالت

(1) المقصود بهذه الأبيات وماقبلها: بيير لوبجي.
(2) كان قد قال لأحد حراسه بأنه سيكون مطلق السراح في شهر تشرين الثاني.

عليّ شتائمهم. وسمعت بوقاً وكأنه يطلق نداء يوم الحشر
فكشفت له معنى ذلك. وقد أرغمتني كآبتي وأحزاني
أن ألجأ إلى الشراسة والتحدي ثم جاءت الخيبة الحائرة. عندما دسّوا لي
مسحوق الألماس وجعلوني أتناوله مع طعامي قاصدين القضاء عليّ
بشكل أكيد. إلا أني طلبت من ذلكم المحتال الشرير أن يتذوقه
ولهذا الذي جلب طعامي قلت: (لن يتحقق هذا الذي يبيته
لي دوراني). وقبل هذا وجهت كل أفكاري إلى الله متضرعاً
وطالباً الغفران لكلّ ذنوبي. وتلوت تسبيحة الخلاص، برأس
منحن. فزال بعض آلامي. وبفكر ثاقب وعزم راسخ أودعت
روحي في يد الله بكل رغبةٍ ليأخذني إلى ملكوته الذي كنت
أتشوق إليه. وأقبل ملاك من عند الله بكل جلالٍ يحمل
سعفةً ووجهه يطفح بشراً. ووعدني بإطالة أمد حياتي
وقال: «إن الله سيشنّ حرباً عواناً على أعدائك ويسحقهم سحقاً.
وستنعم مرة أخرى بحياة هنيئة. وستبقى في رعاية الله الذي
له السلطان المطلق على الأرض والسماء».

الكتاب الثاني

مكثتُ في قصر كردينال (فِرارا) ضيفاً، موضع إحترام الجميع وقبلة لعدد من الزائرين يفوق بكثير ما إستقبلت في المرة الأولى وهم لا يكتمون عجبهم من نجاتي وكيف اني ما زلت حياً بعد المصائب المريعة التي حلّت بي. وكنت أثناء عنايتي بصحتي وممارسة فنّي أجني اعظم لذة في مراجعة ملحمتي الشعرية وتهذيبها. وعزمت مراعاةً لصحتي على قضاء فترة نقاهة في الهواء الطلق خارج المدينة فزوّدني صديقي الكردينال بعدد من الخيل مشفوعةً ببركته. فتركت روما برفقة صديقين شابين أحدهما صائغ مثلي. وثانيهما لا علاقة له بالمهنة وإنما رافقني للصحبة فحسب. توجهت إلى (تالياكوزّا)لزيارة خلفَتي (اسكانيو) وكانَ مع أبيه وإخوته وأخواته وزوجة أبيه. ويقصر قلمي عن وصف الحفاوة والرعاية التي أحاطوني بها. ثم ركبت بعد يومين عائداً و(اسكانيو) معي وقطعنا الطريق في أحاديث حول الفن وأنا أتحرّق شوقاً للوصول إلى روما والعودة إلى عملي. وما إن استقرّ بي المقام حتى أكملت إستعدادي للبدء في العمل. فاستعدتُ طست الفضة الذي كنت قد بدأت به للكردينال قبل إعتقالي وكنت كذلك قد بدأت بالإبريق الأنيق الصغير وكانا قد سُرقا مني مع مجموعة أخرى ثمينة.

دفعت بالطست إلى (باكولو) ليشتغل فيه وباشرت في عين الوقت بالإبريق فعملت له تصميماً جديداً ضمنته تماثيل صغيرة كاملة، ونقوشاً بنصف بروز بشكل يتسق مع الطست الذي كان يتضمن تماثيل كاملة البروز وأسماكاً بنصف بروز. وقد حاز إعجاب كلّ من شاهدهما من حيث تصميمهما المتناسق والنقوش والأشكال التي حفلا بها. كما كانوا كثيري الثناء على مهارة تلاميذي ودقة عملهم.

وكان الكردينال يمرّ عليّ مرتين يومياً على الأقل لقضاء بعض الوقت معي ويأتي

عادة برفقة السيد (لويجي آلاماني) و(كبرييل جيزانو: Gabriel Cezano)، فتمرّ بنا ساعات ممتعة معاً. ومع كثرة الأشغال التي في يدي فقد كان الكردينال يثقلني بالأشغال الكثيرة غير ملقٍ بالاً على المتراكم منها عندي. ومما عهد به اليّ صنع ختم الكردينالية وكان بحجم كفّ صبيّ في الثانية عشرة. فرسمت له صورتين مختلفتين واحدة تمثل القديس (امبروجيو St. Ambrogio) وهو يطارد الأريوسيين[1] ممتطياً جواده وبيده سوطٌ. والثانية تمثل يوحنا المعمدان وهو يعظ في القفر. وكان التصميم بالحفر الواطئ وفي غاية الإبداع بحيث أقرّ الجميع بأني تفوقت به على (لاويتزيو) العظيم المتخصص في هذا الفنّ. وكان الكردينال في الواقع يقارنه بأختام الكرادلة الاخرين في روما، وتكاد كلها تكون من صنع (لاويتزيو) فيطيب نفساً لتفوق ختمه عليها جميعاً.

بالإضافة إلى هذين العملين أمرني الكردينال بعمل تصميم لمملحة ولكنه شدد عليّ بأن تكون مختلفة عن النوع الإعتيادي. وألقى لويجي خطبةً بليغة حول ما ينبغي أن يمثله تصميم المملحة. ثم قام (كابريللو جيزانو) بدوره بإبداء ملاحظاته حول أوصافها وما يجب أن يُنقش فيها. وأصغى إليهما الكردينال بكلّ أدب. وأبدى سروره الشديد بالنموذجين اللذين إقترحهما هذان الجهبذان وأتيا إلى إعطاء صورة وصفية لهما. ثم إلتفت اليّ قائلاً:

- إني مسرور جداً ياعزيزي بنفنوتو بالنموذجين اللذين إقترحهما لويجي وكابريللو حتى صرت محتاراً في أيهما أختار. وبما أنك أنت الذي ستطبقهما فأنا أترك الأمر لك.

قلت:

---

(1) القديس امبروزيو هو شفيع مدينة ميلان. قيل إنه ظهر فجأة في ساحة معركة (باراييكو Parabiago) (1339) راكباً حصاناً لمساعدة مواطنيه الميلانيين ضد لودفيكو فيسكونتي. ومنذ ذلك الحين وهو يصوّر فارساً بثيابه الحبرية. عن هذه الميدالية أنظر (بلون، ص192). يعتبر القديس الميلاني المولد (339 ـ 397) أباً للكنيسة الكاثوليكية الغربية. سيم أسقفاً على ميلان قبل أن يتعمد. وشنّ حرباً على آريوس الأسكندري (480 ـ 336) الذي أنكر ألوهية المسيح وكان السبب الأصلي في إنقسام الكنيسة المسيحية إلى شرقية وغربية.

ـ تعلمون أيها السادة ما هي مكانة أبناء الأباطرة والملوك وكم تبلغ من الأهمية. وتعلمون أيضاً المهابة والجلال الذي يبدون فيه. ومع هذا فلو سألتم راعياً فقيراً من الدهماء: أيهم أحبّ إليه؟ أولاده أو أولاد الملوك أولئك؟ ليس من شك في أنه سيجيب بأنه يحب أولاده. كذلك أنا. فحبي عظيم أدخره لأولادي الذين أخلقهم لممارسة فنيّ. وسيكون أول نموذج تتملأه عينك يا حامي حماي ومولاي الكلّي الإحترام ـ هو من صنع يدي وإختراعي. كثير من الأشياء تبدو جميلة ساحرة. ولكنها لا تبدو كذلك إذا ما تمّ تطبيقها عملياً.

ثمّ إلتفتّ إلى الأديبين الكبيرين وأردفت قائلاً:

ـ إنكما تكلمتما أما أنا فسأعمل.

فإبتسم الأستاذ لويجي وبدأ بكل طيبة يلقي خطبة ساحرة قصيرة تتضمن الثناء عليّ. وناسبه هذا تماماً إذ كان في غاية الوسامة وتناسق الجسم. إلى جانب رخامة في الصوت. في حين كان الأستاذ (كابريللو) بعكس ذلك تماماً. فقد جمع إلى قبح الوجه غلاظة طبع. ولذلك كان كلامه شبيهاً بوجهه. في خطبة (لويجي) إقترح عليّ أن أتخذ صورة فينوس وكيوبيد مع ما يناسبهما من تهاويل وزخرفة وكانت فكرة الأستاذ (كابريللو) تتركز في إتخاذ (أمفتريتي Amphitreti)[1] والـ(تريتون Triton)[2] وأشياء كثيرة أخرى قد تبدو لطيفة عند الوصف لا العمل.

مهما يكن فقد كان تصميمي يتألف من شكل بيضيّ سعته تزيد عن أربعة عشر إنجاً (أكثر بقليل من نصف كوبيت). في هذا الشكل البيضيّ خالجتني فكرة معانقة الأرض للبحر فصممت تمثالين يزيد طولهما على طول الكف الإعتيادي بقليل ووضعتهما متقابلين على طرفي البيضة بحيث تتشابك أرجلهما في الوسط حتى لكأنك ترى أذرع البحر الطويلة تمتد إلى اليابسة ومثلث البحر برجل يحمل سفينة أثقلتها بالزخارف. هذه السفينة مجوفة لوضع الملح. وتحت جسم الرجل مباشرة صوّرت خيول البحر الأربعة. ووضعت في يد الرجل اليمنى رمحاً مثلث الشعب. أما الأرض

(1) في أساطير الإغريق هي زوجة نبتون (بوسيدون) آلهة البحر. إبنة أوقيانوس.

(2) هما إبنان لبوسيدون من أمفتريتي. ويُصوّرون عادة بذنب سمكةٍ ورأس وجذع إنسانٍ.

فمثلتها بإمرأة جميلة الوجه متناسقة الجسم بأدق ما تفتقت عنه مخيلتي. وجعلت إلى جنبها معبداً أكثرت من زخرفته ويدها مستقرة عليه. خصصت المعبد لوضع التوابل. أما يدها الثانية فقد أمسكت بـ(كورنوكوبيا Cornocopia)[1] وحشّدت ما لا يحصى من الزخارف الجميلة. وتحت هذا كله ومن الجانب الذي خصصته لليابسة صورت طائفة من مختلف الحيوانات الجميلة التي تعيش في البرّ. بينما جمعت في الجانب المائي كل أنواع الأسماك والقواقع والحيوانات البحرية قدر ما يتسع المجال. أما بقية البيضة فقد زيّنتها بالنقوش البارزة.

وبعد فراغي من التصميم رحت أنتظر مقدم الكردينال. وما لبث أن أقبل بصحبة رفيقيه الجهبذين. فسارعت بعرض التصميم عليه فسبق (كابريللو جيزانو) إذ هتف قائلاً:

- هذا عمل لا يمكن إنجازه بأقلّ من عشرة رجال متفرغين يفنون فيه حياتهم.

ثم إلتفت إلى الكردينال وقال:

- أما بالنسبة إليك يا مونسنيور، فلعلك راغب فيه إلا أنك لن تحرزه في حياتك. أراد (بنفنوتو) أن يرينا أولاده إلا أنه لم يرد ان ينزل عنهم تماماً كما أردنا نحن. كنا نتحدث عن أشياء يمكن إنجازها. وما يرينا الآن هو بكلمة مختصرة مستحيل.

وهنا إنحاز السيد (لويجي) إلى جانبي. إلا أن الكردينال لم يرد أن يربط نفسه بمثل هذا المشروع الكبير. عندئذ إلتفت إليهم وقلت:

- مولاي الكلّي الإحترام! سيّديّ العالمين الكبيرين! إسمحوا لي بهذا القول: إني آمل أن أنجز مثل هذا العمل لمن قدّر له أن يملكه. وسترونه كلكم وهو كامل أجمل بمائة ضعف وأدق من التصميم. وإني متأكد بعون الله بأن لديّ من الوقت المتوفر لأنجز أعمالاً أعظم وأسمى بكثير من هذه المملحة.

أجاب الكردينال بشيء من الغضب:

- إن لم تعملها للملك الذي سآخذك إليه. فلا أظنها تُعمل لأي شخص غيره.

(1) هو قرن عنزة مقوّس مثقل بالزخرف من فاكهة وغيرها. إستخدمه فنانو الرينسانس.

ثم أراني الرسالة التي تتضمن فقرة ذكر فيها الملك بأن الكردينال يجب أن يستعجل العودة ومعه (بنڤنوتو). فرفعت يدي إلى السماء وهتفت:

- رباه متى ستكون تلك العودة العاجلة؟

أوصاني الكردينال بأن أقوم بتصفية كلّ أعمالي في روما وأن أكون مستعداً تماماً خلال عشرة أيام.

عندما حان وقت السفر أهداني الكردينال جواداً أصيلاً حسن السمت، اسمه تورنون Tornon كان هو قد تلقاه هدية من سميه تورنون[1]. وزوّد (باكولو واسكانيو) بحصانين أيضاً. وكانت قافلة الكردينال ضخمة. فقسّمها قسمين. الأول منهما ضمّ عليه القوم، وإختار طريق رومانيا Romagna ليؤدي فريضة الحج لسيدة (لوريتو) وبعدها يتجه إلى (فيرارا) مسقط رأسه.

أما القسم الثاني فيسلك طريق فلورنسا، ويضم معظم القافلة ويتألف من مجموعة كبيرة من الرجال ويضمنهم نخبة فرسانه ونصحني بأن أرافقه إن شئت ضماناً لسلامتي وإلاّ تعرضت حياتي للخطر. أجبت نيافته أني لأرغب في هذا. إلاّ أن إرادة السماء شاءت أن أتذكر أختي المسكينة التي شفّها الحزن لما لحقني من إزراء، كذلك تذكرت إبنتي عمي الراهبتين في (ڤيتيربو Veterbo)[2] إحداهما رئيسة الدير والأخرى المسؤولة عن الإدراة. وبذا تكون مقدرات هذا الدير الغني منحصرة فيهما. آلمهما ما حصل لي جداً وصلّيتا لأجلي بحرارة. وقد جزمت أن صلاة هاتين العذرائين المسكينتين قد حننت قلب الله عليّ فنلت نعمة الحرية. كلّ هذه الأفكار خالجتني فدفعتني إلى فلورنسا دفعاً. ولو كنت في قافلة الكردينال لضمنت سفراً مجانياً في أي قسم منها لكنني قررت السفر بمفردي. ورافقني الأستاذ (كيروبينو Cherobino) صانع الساعات الشهير وهو أحد أصدقائي. إلتقينا في أول الرحلة وإتفقنا على السفر معاً وقضينا وقتاً ممتعاً للغاية.

---

(1) كردينال تورنو وزير معروف للملك فرانسوا الأول.

(2) شمال روما وعلى مسافة سبعين كيلومتراً.

خرجنا من روما نحن الثلاثة نهار الإثنين من أسبوع الآلام. والتقينا برفيق السفر المتقدم ذكره في (مونتي روسيّ Monte Russi)[1] ولما كنت قد صرّحت بأني من حاشية الكردينال ومن ضمن قافلته فما تصورت أن يجرأ أعدائي على نصب كمين لي. إلا أن الأمور كادت تنتهي بكارثة في (مونتي روسي). إذ لحقت بي عصابة من الرجال مدججة بالسلاح فسبقتني إلى (ڤيتيربو) لمهاجمتي. شاءت إرادة الله أن يعرفوا بأني سأسلك هذا الطريق وحدي لا مع قافلة الكردينال فأطبقت عليّ وأنا أتناول طعام الغداء. وفي تلك اللحظة بالذات بدأت طلائع فرسان الكردينال فحبطت خططهم وسرت برفقة الفرسان حتى (ڤيتيربو) بنفس مطمئنة وبمأمن من كلّ خطر. لا سيما وأني لم أكن أتقدم القافلة إلاّ بمسافة أميال قليلة. وصلت ڤيتيربو والحمد لله سالماً. ورحبّت بي إبنتا عمي وبقية الراهبات أحرّ ترحيب.

تركت ڤيتيربو مع الرفقة التي تقدم ذكرها نتأخر عن قافلة الكردينال مرّة ونتقدمها مرّة أخرى. وفي الساعة الثانية قبل مساء خميس الفصح وجدنا أنفسنا في مشارف (سيينا) وكان ثمّة خيول بريد عائدة والموكلون بها يرغبون في إستكرائها بأجر زهيد لمن يريد أن يستفيد منها ويسلمها إلى صاحب البريد في (سيينا). فترجلت عن (تورنون) ووضعت سرجه وخرجه على عاتق واحد من الخيول المكتراة. ونفحت صبي الإسطبل بـ(كويلو) وتركت جوادي بعهدة تلميذي وإنطلقت قبلهما إلى سيينا بنصف ساعة إذ كنت أريد زيارة بعض الأصدقاء وتصريف أشغال لي. ولم أجهد الحصان وإن كنت أحثه. وبيلوغي المدينة إستأجرت في فندق غرفة جيدة تتسع لإيواء خمسة أشخاص. وأمرت خادماً صبياً بأن يقود الحصان إلى محطة البريد التي كانت تقع خارج باب (كامولِيا Camollia) إلا أني نسيت ان أرفع عنه السرج والركاب.

قضينا أمسية عيد الفصح في أنس وسرور. وفي اليوم التالي يوم الجمعة العظيمة تذكرت سرجي وركابي. فبعثت بطلبهما لكن صاحب البريد أبى إعادتهما بحجة أني أجهدت حصانه حتى كدت أتلفه. وتبادلنا الرسائل بين آخذ وردّ وأصرّ عليّ أن لا

---

(1) تقع بين روما وڤيتيربو على طريق فلورنسا.

يعيد لي سرجي وركابي مضيفاً إلى ذلك بعض الشتائم وعبارات التحدي وقال لي صاحب الفندق الذي كنت نازلاً فيه:

- من حسن حظك أن يكون كلّ الضرر الذي أصابك منه هو فقدان سرجك والركاب.

ثم أردف يقول:

- لا يخفاك أنه أشرس مخلوق قد تقع عليه في هذه المدينة وإبناه المقاتلان الجريئان هما شرّ منه. وفي رأيي أن تعتبر سرجك وركابك في حكم المفقودين وتبتاع لنفسك ما تريد وتذهب في حال سبيلك دون أن تلفظ كلمة واحدة. فإبتعت فعلاً ركاباً. ولكنني فكرت في أنه قد ينفع معه الكلام اللطيف ويردّ لي سرجي المحكم الوثير. فضلاً عن هذا فقد كنت فوق جواد مطهّم وأنا كامل السلاح بزرد محكم مع قفازين واركبوسي[1] (بندقية ثقيلة) فوق السرج. ولذلك رغم الوصف الذي خلعه صاحب الفندق على رجل البريد فإني لم أشعر بأقلّ خوف. كنت كذلك قد عودت تلميذيّ الشابين على إرتداء الزرد مع الأكمام وكنت عظيم الثقة في الشاب الروماني الذي لم ينزع عنه زرده طوال وجودنا في روما في حين كان اسكانيو رغم حداثة سنه قد تعوّد إرتداءه أيضاً. وعلى أي حال كنت أتصور أن المجانين في يوم الجمعة العظيمة هذه قد يمنحون جنونهم إجازة ويتحلّون بشيء من العقل إحتراماً لهذا اليوم. بلغنا باب (كاموليا) وتبينت صاحب البريد لمّا أبصرته من الأوصاف التي أعطيت لي فقد كان أعور الشمال. دنوت منه وأنا على صهوة جوادي متقدماً تلميذيّ ورفاق السفر بمسافة.

ثم إبتدرته قائلاً بأدب:

- أؤكد لك يا صاحب البريد أني لم أجهد حصانك. فلمَ لا تتكرم عليّ بإعادة سرجي وركابي؟

فأجاب بعين ما قيل لي أنه سيجيب أعني إجابة وحشٍ فظّ.

---

(1) إخترعت هذه البندقية في القرن الخامس عشر ويصعب إستخدامها بغير مسند ذي قوائم.

عندئذ قلت متعجباً:

- هيا، هيّا إنك مسيحيّ. أتريد أن نسبب لأنفسنا فضيحة في يوم الجمعة العظيمة؟

فأجاب إنه لا يهتم قلامة ظفر إذا كانت الجمعة عظيمة أو صغيرة. وإنه في حالة عدم إنصرافي فسيردبني قتيلاً مع أركبوسي بالرمح الذي أسرع بتناوله. سمع هذه الكلمات الجارحة سيد سيينيّ كبير السن فتقدم نحونا. كان يرتدي لباساً مدنياً عادياً وقد عاد لتوه من صلاة الجمعة العظيمة. وقد سمع عن بعد ما دار وتبيّن مناقشتي الهادئة فإنحاز إلى جانبي وراح يؤنب صاحب البريد تأنيباً شديداً. وإنتهر إبنيه وطردهما لأنهما يسيئان التصرف تجاه الغرباء المسافرين، وقال إن في هذا التصرف تحدياً لله وإساءة لسمعة المدينة فهزّ الإبنان رأسيهما ودلفا إلى المنزل دون أن ينطقا بحرف. أثارت عبارات الشيخ الوقور ثائرة الأب فتدفق من فمه سيل من التجديف والكفر ورفع رمحه في وجهي وهو يحلف بأنه سينتزع روحي من جسدي مهما حصل.

ولما تبينت نيّة الشرّ عنده، ولكيما أبقيه بعيداً عنيّ تظاهرت بتسديد فوهة بندقيتي نحوه فزادت حركتي من ثورته وحمل عليّ حملةً عنيفة وكنت متأهباً للدفاع عن نفسي وقد أعددت البندقية لذلك، إلاّ أني لم أخفضها إلى الحدّ الذي تصير مصوبة اليه. بل كانت فوهتها متجهة إلى الأعلى. ثم انطلقت من تلقاء نفسها. واصطدمت البندقة بقوس الباب وارتدت عنه لتصيب صاحب البريد في قصبته الهوائية فسقط ميتاً. وفي الحال خرج الإبنان وقد تسلح أحدهما بما وقعت عليه يده من المشجب وإلتقط الآخر حربة أبيه ثم حملا على تلميذيّ. هاجم صاحب الحربة (باكولو) الفتى الروماني وطعنه في محلّ ما من الصدر الأيسر وإندفع الآخر إلى الميلاني الذي كان يسافر معنا، فبدا وجهه وقد فقد كلّ إمارات الحياة من فرط الخوف. وحاول عبثاً إنقاذ نفسه بالصياح متنصلاً من كلّ علاقة له بنا، ثم راح يدافع عن نفسه بالعصا الصغيرة التي يحملها ضد الحربة الضخمة المسددة إليه، إلا أن محاولته لم تحل دون إصابته بجرح طفيف في فمه.

كان (كيروبينو) يرتدي ثياب الكهنة، إذ كان ينعم بمنصب بابوي ذي دخل طيب رغم كونه أستاذاً قديراً في صناعة الساعات كما ذكرت ولذلك لم ينله أذى. وكان اسكانيو مسلحاً لا كالميلاني فثبت وقاتل ولم يصب بأذى. ولكزت جوادي فنفر بي مسافة تمكنت من خلالها من حشو بندقيتي ثم ألويت عنانه وكررت راجعاً إلى ساحة المعركة وقد فار دمي في عروقي. كنت أعالج الموضوع باستخفاف وأعده من قبيل المزاح فلما انقلب الأمر جداً صممت أن آخذه بما يستحق من جدية. تصورت أن تلميذيّ قد صُرعا، فقررت أن أموت معهما ولكن ما إن تقدم بي جوادي قليلاً حتى رأيتهما مقبلين نحوي فسألتهما هل أصيبا؟ فقال (اسكانيو) ان (باكولو) اصيب بطعنة حربة قتالة. فصرخت:

- باكولو! ولدي العزيز. إذن فقد اخترقت الحربة زردك؟

فأجاب:

- كلا فقد حزمته في أمتعتي صباح هذا اليوم.

فقلت حانقاً:

- إذن فالزرد تلبسه في روما للإختيال أمام الغواني؟ أما عند الخطر والضرورة فهو يحزم مع الأمتعة! إنك تستاهل ما حلّ بك. وها إني الآن بسبب خطئك أعود لألقى حتفي.

قلت هذا واندفعت إلى أمام فتشبث بي هو واسكانيو متوسلين بمحبة الله أن أنقذ نفسي معهما لأني بالتأكيد ذاهب إلى حتفي. ثم أقبل (كبروبينو) والميلاني الجريح. وصرخ حالاً بأن الجميع سالمون وأن (باكولو) لم يصب إلاّ بجرح سطحي كما أنبأني بمقتل صاحب البريد وأن ولديه وجمعاً من الرجال يتأهبون لتعقيبنا وسيقطعوننا إرباً إن ظفروا بنا. ثم أردف يقول:

- ما دام الحظ قد واتانا وخرجنا من العاصفة الأولى سالمين، فلا تجرّبه مرّة أخرى وإلا تخلى حظنا عنّا. ألا فلنسرع يا بنفنوتو.

فأجبته:

- إن كان هذا رأيك فأنا موافق.

ثم إلتفت إلى باكولو واسكانيو وقلت:

- اعملا ارجلكما في مهمازيكما. وجهتنا (ستاجيا Staggia)[1] دون وقفة وسنكون آمنين.

وصرخ الميلاني الجريح:

- يمحق الله ذنوبنا! السبب الوحيد لإصابتي هو أني أكلت قليلاً من الحساء إذ لم يكن لديّ ما أقتات به سواه.

في وسط متاعبنا وقلقنا لم نستطع حبس قهقهاتنا لسخافات هذا الأحمق وهرائه. وإحتثثنا خيلنا تاركين (كيروبينو) والميلاني خلفنا ليلحقا بنا على هونهما.

في تلك الأثناء أسرع إبنا القتيل إلى دوق أمالفي Amalfi[2] وطلبا منه كوكبةً من الفرسان الخفيفة للحاق بنا وإلقاء القبض علينا. إلا أنه رفض طلبهما ومنعهما من اللحاق بنا وتعقبينا لمعرفته بأننا من رجال الكردينال فِرارا. كنا في غضون ذلك قد بلغنا (ستاجيا) وأمنّا على أنفسنا. وإستدعينا خير طبيب في البلدة، وبعد فحص جرح (باكولو) تبيّن أنه لم ينفذ عميقاً ولا خطر منه. فأمرنا بإحضار الطعام. وفي أثناء ذلك لحق بنا (كيروبينو) والميلاني الأحمق الذي إستمر يصبّ اللعنات على كل من يثير الشجار. وصار يشكو بأنه أصبح في عداد المحكومين بالحرم من الكنيسة لأنه لم يتسن له تلاوة «أبانا الذي[3]» ولو مرّة واحدة طوال ذلك اليوم المبارك. كان قبيح الوجه كإبليس زاده قبحاً الجرح الذي أصابه في فمه الواسع فزاد في سعته إنجين. وبين رطانته الميلانية وثرثرته السخيفة بدا مضحكاً إلى درجة أنسانا متاعبنا وسوء حظوظنا فلم يسعنا سوى الضحك على كلّ كلمة يتفوه بها.

وبدأ الطبيب يخيط جرحه وبعد أن أكمل ثلاث دَرزات طلب منه أن يتوقف قليلاً لأنه لا يريد أن يخيط فمه كله ثم تناول ملعقة وقال له بأن عليه ان يترك من فمه فتحة تتسع لدخولها ليعود إلى أهله حياً! كان يقول هذا ويهزّ رأسه هزات مضحكة

---

(1) تقع بين سينا وبجيتزي إلى الشمال. وهي بليدة صغيرة بينها وبين سينا حوالي عشرة كيلومترات.

(2) الفونسو بيكولوميني حاكم سينا المنتدب من قبل الامبراطور شارلكان.

(3) أي الصلاة الربية وتبدأ بـ«أبانا الذي في السماوات». [وهي في مقام سورة الفاتحة عند المسلمين].

فتواصلت قهقهاتنا. وسادنا هذا الجو المرح بدل تأسّينا بما صادفناه من متاعب طوال سفرنا إلى فلورنسا.

ترجلنا أمام دار أختي المسكينة فرحبت بنا هي وزوجها أجمل ترحيب. وإنصرف (كيروبينو) والميلاني إلى شؤونهما. وبقينا في فلورنسا أربعة أيام ولما غادرناها كان (باكولو) قد تعافى. والغريب أن الضحك كان يستولي علينا كلما تذكرنا أقوال الميلاني المعتوه أو جئنا إلى ذكره بقدر ما أبكتنا معاناتنا. وهكذا كنّا نضحك ونبكي في آنٍ واحد. إندمل جرح (باكولو) دون مضاعفات فانطلقنا إلى (فِرارا) واستبقتنا الكردينال إليها. ولما وصل هو وسمع بما وقع لنا من مشاكل قال معبّراً عن ألمه لما حصل:

ـ كلّ ما أطلبه من الله هو أن أوصلك إلى الملك حياً، كما وعدته.

وخصص لي جناحاً في أحد قصوره بـ(فِرارا) وهو قصر جميل بالقرب من أسوار المدينة يعرف بـ(بلفيوري Blfiori) ووضع تحت تصرفي كلّ ما أحتاجه للعمل ثم تهيأ للرحيل إلى فرنسا بدوني. وعندما تبين مبلغ إضطرابي لهذا النبأ قال:

ـ إعلم يا بنفنوتو بأن كلّ الذي أعمله هو لصالحك. ذلك لأني أريد أن أتأكد قبل أن أخرجك من أرض إيطاليا ـ ماذا سيكون واجبك في فرنسا. وخلال هذه الفترة عجّل في إكمال الطاس والأباريق فقد ألقيت على وكيلي الأوامر بتزويدك بكلّ ما تحتاج.

وواصل سفره وتركني أحرّق الإرم غيظاً مفكراً بالعودة من حيث أتيت والعدول نهائياً عن مشروع السفر نهائياً ولم يكن يقفني عن هذا إلاّ فضله عليّ في تحريري من قبضة البابا بولص. وأما خلاف ذلك فقد تركني وأنا غير ممتن. فما فعله أدى إلى خسارة مادية كبيرة لي. إلا أني أقنعت نفسي بأن العطف الذي أظهره لي يستحق الشكر والشعور بالفضل وقررت الإنتظار متذرعاً بالصبر والتربّص بما ستؤول إليه الأمور. وبدأت في عملي يساعدني خَلفتاي وتقدمت كثيراً في الطاس والإبريق.

كان الهواء في المنطقة التي نسكنها غير صحي. وبتقدم أشهر الصيف ساءت أحوالنا الصحية جميعاً. وفي خلال إعتلالنا كنّا نقوم بجولات إستطلاع في الضيعة

وكانت جدّ واسعة والأرض مثل حرج تمتد إلى مسافة ميل لم تعمل بها يد إنسان ووجدنا عدداً كبيراً من طائر السماني قد استقرّ هناك يتوالد كالطيور البرّية. وكنت بعد اكتشافي هذا أحشو بندقيتي ببارود لا صوت لانفجاره وأصطاد طائراً منها بين يوم وآخر، مختاراً صغارها وأنا منبطح. وبذلك تزودنا بمقدار كبير من اللحم الصحي ساعد في إزالة الوعكة عنّا. وقضينا هذه الأشهر القليلة نشتغل بالطاس والإبريق وهو عمل تطلب منا كثيراً من الدقة والتركيز ـ دون أن يعكّر صفو حياتنا معكّر.

في أثناء هذه الفترة من الزمن وفق دوق (فِرارا) إلى إتفاق مع البابا بولص الروماني حول تسوية خلافات طويلة الأمد بينهما بخصوص (مودينا Modena)[1] وغيرها من المدن. ولما كانت الكنيسة صاحبة الحق فيها فقد ترتب على الدوق أن يدفع لخزينة البابا مبلغاً كبيراً من المال ثمناً للصلح والسلام. وأعتقد أنه كان يبلغ ثلاثمائة ألف دوقية بحساب العملة البابوية[2].

وكان أمين بيت مال الدوق في ذلك الحين رجل عجوز يدعى (السيد جيرولامو كيليولو G. Giliolo) نشأ في رعاية الدوق (ألفونسو) والد الدوق الحالي. هذا الرجل الشيخ صعب عليه تسليم المبلغ الطائل إلى البابا. وشفّه الحزن واعترته نوبة عاطفية فراح يدور في الشوارع شاكياً بأن الدوق ألفونسو والد الدوق الحالي كان سيستخدم هذه الأموال لإحتلال روما بدلاً من تسليمها طواعية للبابا وتعذّر إقناعه بدفعها. بالأخير أجبره الدوق على تسديدها فإنتابه نتيجة ذلك إسهال شديد كاد يقضي على حياته. وفيما هو عليل طريح الفراش إستدعاني الدوق وأمرني بعمل صورة معدنية له. فعملتها على حجر أسود دائري الشكل في حجم صحفة طعام صغيرة. وكان الدوق يجني لذة عظيمة من متابعة عملي في صورته، فضلاً عن إستمتاعه بمبادلتي الحديث طويلاً وهذا يعني في كثير من الأحيان جلوسه أمامي من أجل الصورة أربع أو خمس ساعات على الأقل. ودعاني عدّة مرات لتناول العشاء معه. أنهيت صورة الوجه خلال أسبوع فأمرني أن أعمل لها ظهراً، وكان التصميم يرمز إلى السلْم ممثلاً بإمرأة تمسك

---

(1) تقع بين بولونيا وبارما وهي على بعد حوالي (40) كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من الأولى.

(2) في الحقيقة أن المبلغ هو مائة وثمانون ألفاً. وقد ثبت للدوق مقابل هذا حقوقه في دوقية ديستي d'Este.

مشعلاً هي تحرق كَدساً من الأسلحة. صورت المرأة وهي مفترة الثغر كاملة الأنوثة مرتدية غلالة شفافة. وجعلت (فيوري) تحت قدميها يائسة مثقلة بالسلاسل في حالة بؤس شديد. وقد أجهدت نفسي في تحري الكمال والدقة في العمل وأكسبني ذلك شرفاً عظيماً وحظوة عند الدوق.

لم يتوقف الدوق لحظة عن إبداء مقدار إرتياحه ورضاه وأعطاني العبارة التي أراد كتابتها في أعلى الظهر وهي كالآتي: «شري السلم بالمال الطائل pretiosa in conspectu domini». وفيما أنا مشغول بعمل الظهر وصلتني رسالة من الكردينال يطلب التهيؤ للسفر لأن الملك قد استدعاني وأضاف يقول إنه سيعلمني في رسالته التالية بتفاصيل كلّما وعدني به. فحزمت الطاس والإبريق بعد أن شاهدهما الدوق.

كان للكردينال وكيل أعمال من أهل فِرار يدعى (ألبرتو بنديديو Alberto Bendidio) هذا الرجل كان يشكو علّة مستعصية جعلته قعيد الدار لمدة إثنتي عشرة سنة لم يبرح خلالها فراشه. وفي ذات يوم إستدعاني إليه بصورة عاجلة وأبلغني بوجوب الإنضمام فوراً إلى قافلة البريد للتوجه إلى الملك الذي كان دائم السؤال عني معتقداً اني في فرنسا وقد اعتذر الكردينال لنفسه بالقول اني كنت قد اصبت بوعكة وأنا أعيش في دير له في (ليون) لكنه سيستقدمني بدون تأخير. ولذلك أصرّ السيد (بنديديو) بالسفر مع البريد بأسرع ما يمكن.

السيد ألبرتو إنسان مستقيم إلى أبعد حدّ، إلا أن المرض الذي يعاني منه جعله حاد المزاج ضيق الصدر إلى درجة لا تطاق. وقد أمرني كما ذكرت بأن أستعد فوراً وأسافر مع البريد السريع. فكان جوابي أن فنيّ لا يمكنه السفر بالبريد السريع وإذا ما قررت السفر فسيكون ذلك على مراحل وبشكل مريح وأن يرافقني مساعداي (باكولو واسكانيو) اللذان جئت بهما من روما. وفضلاً عن هذا فإني أحتاج إلى خادم بحصان يقوم على خدمتي إلى جانب مبلغ من المال يكفيني للرحلة.

فردّ عليّ الشيخ المريض بجواب فيه من الغلظة والغطرسة ما فيه، قال:

ـ إن رحلة كهذه التي وصفتها هي لأبناء الأمراء وليس لغيرهم.

فأجبت أن أبناء مهنتي يسافرون على الشكل الذي وصفته له. ولما لم أكن إبناً

لأمير فأنا أجهل تماماً كيف يسافرون. وإن أراد أن يسترسل في صبّ مثل هذه الخطب الغريبة في أذني فسأعدل عن السفر نهائياً. وأضفت قولي:

- أخلف الكردينال وعده من جهة، وأنا الان أتلقى الإهانات بهذا الشكل من جهة أخرى؛ لهذا صممت على أن لا أتعامل مع أيّ قراري بعد الآن.

ثم أدرت ظهري وإنصرفت وهو يطلق تهديداته وأنا أردد إحتجاجاتي.

توجهت إلى الدوق وسلّمته الميدالية كاملة فطار بها فرحاً وأغرقني بالمديح حتى أخجلني وكان قد سبق له فأمر (السيد جيرولامو كيليولو) بأن يحصل على خاتم ألماسي بقيمة مائتي كراون وأن يدفعه إلى أمين السرّ (فياسكينو Fiaschino) ليقدمه هذا لي مكافأة على أتعابي. وقد جرى ذلك وجاءني (فياسكينو) بعد الغروب بساعة ودفع اليّ بخاتم ترصعه ألماسة رائعة المنظر وردد رسالة الدوق الشفوية لي «على سبيل الذكرى من سموه، فلتزدان يد الفنان الفريدة بهذه الألماسة تلك اليد التي أنجزت مثل هذا العمل الدقيق».

في صباح اليوم التالي تفحصت الألماسة فوجدتها رقيقةً «تافهة» لا تسوى أكثر من عشرة كراونات. ولقد كرهت والحق يقال أن يرفق رسالة الدوق العالية مثل هذه الهدية التافهة. ولعلمي ان الدوق قد ظنّ أنه أحسن مكافأتي ودفع اليّ بشيء حاز رضاي. ولأني قدّرت بأن هذا التصرف هو من عمل أمين خزانته النذل، فقد سلمت الخاتم إلى صديق لي ليعيده إلى (فياسكينو) بألطف ما يمكن. فقام صديقي هذا واسمه (برناردو ساليتا B. Salita) بالمهمة خير قيام. فما كان من هذا إلاّ أن أقبل مسرعاً اليّ، رافعاً عقيرته بالإحتجاج وقال لو أن الدوق علم بردّي الهدية التي قدمها اليّ بكيت وكيت من الإلتفات والتقدير لاستاء جداً وربما سأندم على عملي وألقى ما أكره. فأجبته أن هدية سموه لا تسوى أكثر من عشرة كراونات وعملي يسوى أكثر من مائتين. لكنني إظهاراً لإمتناني من الدوق أرجو ان يهديني خاتم تعويذة[1] من النوع الذي يستورد من بريطانيا ولا يسوى أكثر من درهم وسأبقيه ذكرى عزيزة لسموه إلى

(1) مازال خاتم التعويذة شائعاً وهو من الحديد ويتخذ علاجاً لبعض الأمراض.

جانب رسالته الرقيقة. معتزاً بها طوال حياتي. فإن مجرد خدمته هو أجرة لأتعابي. أما هذه الألماسة التافهة فهي إهانة لي ليس إلاّ.

آلمت كلماتي هذه الدوق فأسرع بإستدعاء أمين خزانته وإنهال عليه لوماً وتقريعاً بشكل لم يسبق من قبل. ثم أمرني بأن لا أغادر فِرارا وإلاّ تعرضت لسخطه، وأن أخبره شخصياً قبل ذلك. ثم أمر أمين خزانته بأن يقدم لي ألماسة لا تقلّ قيمتها عن ثلاثمائة كراون. إلاّ أن هذا العجوز الشحيح إنتقى ألماسة أخرى لا تزيد قيمتها عن ستين كراون زاعماً أنها تسوى أكثر من مائتين بكثير.

ما لبث (السيد ألبرتو) أن عاد إلى رشده وزودني بكلّ ما طلبت وقررت ترك فِرارا في ذاك اليوم بالذات مهما كلّفني الأمر إلاّ أن أمين سرّ الدوق المتطفل رتّب مع (ألبرتو) بأن لا أحصل على الخيول في ذلك اليوم. كنت قد حزمت فوق أحد البغال أمتعةً كثيرة جداً من ضمنها الطاس والإبريق اللذين صنعتهما للكردينال. وفيما أنا أشدّ الأمتعة دخل عليّ نبيل من أهل فرارا يدعى (ألفونسو دي تروتي A. de Trotti) كان رجلاً مسناً بالغ اللطف. شديد التعلّق بالتحف الجميلة والتقدير لها. إلاّ أنه كان من أولئك الذين يصعب إرضاؤهم، ومن الصنف الذي إتفق لهم ووقعوا على شيء أعجبهم أصرّوا بأنهم لن يقعوا على أجمل منه. الحاصل عندما جاء السيد (ألفونسو) بادره (ألبرتو) بالقول:

- يؤسفني أنك جئت متأخراً لأن الطاس والإبريق اللذين سترسلهما إلى الكردينال في فرنسا قد تم حزمهما مع الأمتعة.

فأجاب (السيد ألفونسو) لا بأس في هذا وليس مهماً. ثم نادى خادمه وأمره بأن يذهب إلى منزله ويأتي بمزهرية مصنوعة بشكل فني دقيق من جبس فايتزا[1] الأبيض. وفي أثناء إنتظار عودة الخادم قال للسيد ألبرتو:

- سأعلمك بسبب قلة اهتمامي بمشاهدة آنية أخرى، فأصل الحكاية أني رأيت مرّة إناءً فضياً أثرياً رائعاً في غاية الجمال لا يسمو إلى تصور عقل بشر مثيل له

(1) تقع هذه البلدة جنوب شرق رافنا وعلى بعد حوالي أربعين كيلومتراً.

ولذلك عزفت عن رؤية أي إناء آخر لئلا يشوّه الإنطباع العجيب الذي خلّفه عندي ذلك الإناء. لقد عرض سرّاً على نبيل عارف بدقائق الفن في روما إذ سافر إليها في مهمة خاصة فإستطاع أن يغري واضع اليد بمبلغ كبير من المال رشوةً لينزل له عنها فجلبها معه إلاّ أنه بالغ في إخفائها لئلا ينتمي خبرها إلى الدوق فيفقدها.

كان السيد (ألفونسو دي تروتي)[1] يقصّ حكايته الطويلة دون أن يكلّف نفسه عناء النظر اليّ مع أني كنت أقف بقربه إذ لم يكن يعرفني. وفي أثناء ذلك وصل الخادم بنموذجه الجبسي الثمين وأزاح عنه الغطاء بكثير من التيه والمباهاة والتعاظم. فلم أتمالك نفسي والتفتّ إلى السيد ألبرتو قائلاً:

ـ أي صدفة عجيبة لحسن الحظ إذ أراه ثانية!

ظهرت علائم الإنفعال على السيد ألفونسو وصاح بخشونة:

ـ من أنت؟ إنك لا تفقه شيئاً عما تتحدث به؟

فأجبته:

ـ الآن عليك أن تصغي اليّ لتعرف من هو أدرى من غيره بما يتكلم.

ثم توجهت إلى (السيد ألبرتو) الرجل الرزين الذكيّ. وأخبرته بأن نسخة من منقولة عن إناء فضي صغير وزنه كذا وكذا قمت بصنعه في تاريخ كذا وكذا لطبيب مشعبذ يدعى (جاكومو دا كابري) وإستطردت أقول:

ـ إنه ذلك الذي قدم إلى روما وبقي فيه ستة أشهر يخدع بعلاجه عشرات من النبلاء ووجهاء القوم المساكين معتصراً منهم آلاف الدوقيات. صنعت له أصل هذا الإناء مع إناء آخر يختلف عنه تصميماً أثناء إقامته ولم يدفع لي لقاء أتعابي إلاّ اليسير[2]. وإنك لتجد اليوم كلّ أولئك الذين عالجهم بين كسيح أو مقعد يعاني أشدّ الآلام. إنه لشرف عظيم لي أن تحظى أعمالي بمثل هذا التقدير من السادة الأغنياء

---

(1) وزير لدوق فرارا وثّق صلته فعلاً مع چلليني فيما بعد حتى انه استأجر منه منزله في شارع سانتا ماريا نوفللا (انظر حاشية لطبعة بيانكي Bianchi، ص258).

(2) هذا خلاف ما ذكره في السابق. إذ قال ان الطبيب قد دفع له أجراً طيباً.

أمثالكم. ويمكنني التأكيد لكما بأني لم أدخر وسعاً لأرتفع بفني إلى آفاق أوسع منذ ذلك الحين وفي إعتقادي ان الآنية التي أحملها معي إلى فرنسا هي أليق بالملك والكردينال من هذا الإناء الذي يملكه طبيبك المحتال.

أثار كلامي هذا شوقاً مستعراً في السيد ألفونسو لمشاهدة آنية الكردينال إلا أني تمنعت ورفضت وبعد أخذ وردّ طويلين قال انه سيذهب إلى الدوق ويطلب منه أن يأمرني بذلك وكاد يسقط ميتاً لفرط لهفته. عندئذ تدخل السيد (ألبرتو) الذي وصفته قبلاً بالغطرسة فقال بلهجة متعالية:

ـ ستراهما أيها السيد ألفونسو قبل أن تنصرف. دون حاجة إلى إستخدام نفوذ الدوق.

عند هذا تركتهما وإنصرفت. وقام (باكولو واسكانيو) بعرض الإناءين عليه، فكانت دهشته لا تحدّ حسبما أعلمني (باكولو) وابدى شوقه الكثير إلى توثيق الصلة بي. وبدا لي وكأن دهراً مرّ عليّ قبل أن أغادر فِرارا والنجاة من أهلها. كلّ حسنٍ لقيت في هذه المدينة هو صحبة الكردينال سالفياتي وكردينال (رافنّا) وبعض الموسيقيين ولا أكثر. ان أهالي فرارا شديدو البخل يجنون لذة كبيرة من سرقة الآخرين واحتلابهم ما وسعهم ذلك. وكلهم على هذه الشاكلة.

قبل حلول الليل بساعتين جاءني (فياسكينو) وسلّمني الألماسة التي لا تزيد قيمتها عن ستين كراوناً. ورجاني بكلمات مقتضبة وبوجه أكلح أن أضعها في إصبعي إكراماً لسموه. فأجبته:

ـ ثق إني سأفعل ذلك.

ووضعت رجليّ في الركاب وهو ما يزال واقفاً وإنطلقت في رحلتي دون أن أستأذن أحداً. فأبلغ الدوق بتصرفي هذا فثار ثائره لو إستطاع لقلب الأرض والسماء ظهراً لبطن في سبيل إعادتي.

قطعت في ذلك المساء ما يزيد عن عشرة أميال هذباً. وعاودني الشعور بالراحة العظيمة عند خروجي من حدود دوقية (فرارا) في اليوم التالي. ذلك لأني ـ باستثناء طائر السماني الذي كنت أقتات عليه وكان السبب في إستعادتي صحتي ـ لم أستفد

شيئاً من الموضع. وسلكنا طريق جبل جينز Genis متحاشين مدينة (ميلان) بسبب الوساوس التي كانت قد داخلتني[1] ثم بلغنا (ليون) سالمين وكنّا أربعة أنا وباكولو واسكانيو وخادم، وتحتنا خيول ممتازة قوية. مكثنا في ليون بضعة أيام في إنتظار المكاري والبغل الذي يحمل آنية الكردينال وباقي أمتعتنا. وحللنا في دير يعود للكردينال. بعد أن وصل المكاري جمعنا أمتعتنا كلها ووضعناها في عربة وأرسلناها في طريق (باريس) ثم لحقنا بها. وقد واجهتنا في الرحلة متاعب طفيفة سأضرب صفحاً عن ذكرها.

وجدنا بلاط الملك في (فونتنبلو) وهناك قدّمنا أنفسنا للكردينال الذي أمّن لنا مسكناً على الفور فقضينا فيه ليلةً مريحةً جداً. وفي اليوم التالي وصلت العربة فأنزلنا أمتعتنا ولما أبلغ الكردينال بذلك، أخبر الملك الذي ابدى رغبته في رؤيتي حالاً. فقصدت جلالته ومعي الطاس والإبريق. وأسرعت عند دخولي بتقبيل ركبته. ورحّب بي ترحيباً حاراً فشكرت جلالته على تحريري من السجن قائلاً إن أميراً مثل جلالته، رجلاً في مثل طيبته التي لا نظير لها يرى من واجباته تحرير من يملك بعض المواهب ولا سيما الأبرياء مثلي إن هذه المأثرة الكريمة تسجّل له في كتاب الله لتكون أرفع وأسمى من أي مأثرة.

كان الملك الصالح يصغي اليّ حتى نهاية أقوالي. مظهراً عطفاً ومجاملة. ومعقباً بكلمات قليلة تليق وتتفق مع طبعه الكريم. وبعد أن فرغت من أقوالي تناول الطاس والإبريق وقال:

- لعمري هذا شيء لا أعتقد أن القدماء قد عرفوه. وأنا أذكر جيداً مبلغ إطلاعي على كلّ آثار خيرة فناني إيطاليا في هذا المجال ولم أجد شيئاً أثار إعجابي كهذين.

قال الملك هذا للكردينال مستخدماً اللغة الفرنسية مضيفاً إليها الكثير من عبارات المديح والتهنئة ثم إلتفت اليّ وقال بالإيطالية:

---

(1) نسي أن يذكر طبيعة هذه الوساوس ومأتاها. ولربما كانت بسبب حادث القتل الذي ذهب ضحيته (بومبيو) وهو ميلاني. وخوفه من مطلب ثأر هناك.

- بنفنوتو! رفّه عن نفسك بضعة أيام. وأزح عن رأسك عوامل القلق. واقض وقتاً طيباً. وسنقوم أثناء ذلك بالترتيبات اللازمة لتوفير ما تحتاجه للبدء بما نعهده إليك من أشغال فنية.

تبين الكردينال فِرارا مبلغ سرور الملك بي وأدرك على ضوء الأشياء القليلة التي عرضتها عليه بأن جلالته ينوي أن يعهد لي بأعمال هامة جداً تحتلّ تفكيره. في هذا الوقت كنّا نتبع البلاط أو بالأحرى نتنقل في أعقابه ذلك لأن الركب الملكي يتحرك في رحلاته بإثني عشر ألفاً من الفرسان من الساقة خلفه. وفي وقت السلم عندما يكون البلاط كاملاً يبلغ العدد ثمانية عشر ألفاً. ولذلك كان زخم البلاط وقتذاك في حدّه الأدنى. وهكذا صرنا نتبع الركب ونجتاز بقاعاً لا نجد فيها منزلين أحياناً. وضربنا خيامنا مثل الغجر[1] ولقينا مختلف المتاعب والإزعاجات. وواصلت إلحاحي على الكردينال ليستأذن لي من الملك بإرسالي إلى حيث أباشر عملي. فأجاب إن أفضل شيء هو الإنتظار حتى يذكرني الملك من تلقاء نفسه وبدون تنبيه وان عليّ أن أظهر نفسي للملك بين الفينة والفينة أثناء تناوله طعامه. ففعلت ما أشار به. وفي صباح ذات يوم ناداني جلالته أثناء ما كان يتناول طعامه وشرع يكلمني بالإيطالية قائلاً إنه اعتزم تكليفي ببضعة أعمال هامة جداً. وإنه سيصدر اليّ في القريب العاجل التعليمات حول المحل الذي سأزاول فيه عملي وبتزويدي بكلّ ما أحتاجه. وأضاف أقوالاً لطيفة أخرى في مسائل مختلفة. وكان كردينال فِرارا موجوداً أثناء ذلك لإعتياده تناول فطوره مع الملك في أكثر الأحيان. وقد أخبرت فيما بعد أن الكردينال بعد أن نهض الملك وترك المائدة قال:

- أيها الملك الأقدس، إن بنفنوتو هذا متلهف جداً للبدء بالعمل، ومن الحيف أن يضيع وقت مثل هذا الفنان.

فأجاب الملك بأنه محق في هذا تماماً وعليه أن يتداول هو معي بخصوص تدبير

(1) هم «الكاولية» في العراق. و«النَوَر» في سوريا ولبنان. و«الغجر» في مصر.

معاش لي. فإستدعاني الكردينال مساء اليوم نفسه بعد العشاء وأخبرني عن جلالته بأنه قرر بأن أباشر في العمل إلاّ أنه اراد أن يعرف الراتب الذي سيجريه عليّ ثم أردف:

- يبدو لي أن لو أجرى عليك جلالته ثلاثمائة كراون سنوياً، فإنك ستكون في خير حال. ومهما يكن فإني أرغب في أن تترك لي تدبير الأمور فكلّ يوم يمرّ يزودني بفرصة للقيام بتحقيق شيء ما في هذه المملكة العظيمة. وإني سأكون في عونك دائماً وبدون تحفظ.

وعندها أجبته قائلاً:

- ياصاحب النيافة، عندما خلّفتني وراءك في فِرارا دون طلب مني. كنت قد وعدتني بألاّ تخرجني من إيطاليا إلا وأنا على علم تام بالشروط التي ستربطني إلى الملك. وبدلاً من إنبائي بهذه الشروط وإبلاغي بالمعلومات عن مركزي. أمر سيادتك الكلي الإحترام بأن أسافر فوراً بالبريد السريع كأن فناً كهذا الذي ملكته يمكن تسفيره بالبريد. ولو أنك أعلمتني بأن مرتبي سيكون ثلاثمائة كراون كما ذكرت لما قدْمت رجلاً واحدة ولو كان ضعف هذا المبلغ. وعلى أي حال فأنا أحمد الله ثم أشكر نيافتك أيضاً لأنه سبحانه تعالى قد سخّرك أداة لفضل عظيم عليّ وهو إخراجي من السجن. ألا إسمح لي أن أقول هذا لسيادتك: إن كلّ هذه الضربات القاسية التي تنزلها بي الآن لا تنقصُ جزءاً من الألف، من الحسنات العظيمة التي تكرّمت بها عليّ. إني أشكرك بمجامع قلبي وأستأذنك بالسفر وسأبقى أينما كنت ومهما عشت أدعو الله لك بالتوفيق.

ثار ثائر الكردينال وإنفجر يقول غاضباً:

- إذهب أنى شئت. لا يمكن أن يحسن المرء لأحد بالقوة.

وقال بعض رجال حاشيته من المتسكعين الذين لا نفع فيهم:

- يظن أنه يقوم بإتخاذ قرار صائب برفضه ثلاثمائة كراون دخلاً سنوياً!

إلا أن أفطن من فيهم قال:

- لن يقع الملك على رجل مثله. وها هنا كردينالنا يحاول المساومة عليه وكأنه حزمة حطب.

وبلغني فيما بعد أن قائلها هو (لويجي آلاماني). وقد وقع هذا كله في (الدوفينيه Douphiee)[1] وفي قلعة نسيت إسمها في آخر يوم من تشرين الأول.

تركت مجلس الكردينال وعدت إلى مخيمي الذي كان يبعد مسافة ثلاثة أميال. وكان يرافقني أحد أمناء سرّ الكردينال وهو يقصد عين الموضع. ولم يكن يكفّ طول الطريق عن سؤالي ماذا أنوي أن أفعل وأي شكل من أشكال المكافأة أتصورها لنفسي. فلم أجب بأكثر من العبارة الموجزة: «لقد توقعت كلّ هذا».

وصلت مقري فوجدت باكولو واسكانيو وقد لاحظا ما أنا عليه من ضيق الصدر. فصارا يلحّان عليّ بمصارحتهما والكشف عمّا يؤلمني. ولما أدركت مبلغ قلقهما قلت:

- غداً صباحاً سأعطيكما مالاً أكثر من الكفاية للوصول إلى إيطاليا بكلّ راحة. وأما أنا فسأذهب وحدي لمهمة بالغة الأهمية كنت أريد إنجازها منذ زمن طويل.

لم يكن يفصل بيني وبين غرفة أمين السرّ غير جدار. ومن المحتمل جداً انه كتب للكردينال بما نويته. إلا أني لم أتحقق من هذا مطلقاً.

بتّ مؤرقاً. وبدا وكأن دهراً مرّ قبل طلوع الفجر ومباشرتي في تنفيذ ما قررته. وأمرت بإخراج جوادي عند الفجر وتهيأت بسرعة وأعطيت تلميذيّ كل ما جئت به من متاع إلى جانب خمسين دوقية. وإحتفظت لنفسي بمثلها فضلاً عن ألماسة الدوق. ولم أحمل من أمتعتي غير قميصين وكانت ثياب سفري تميل إلى الرثاثة. إلاّ أنه كان من الصعوبة بمكان فراق الشابين اللذين عقدا العزم على العودة معي على كلّ حال. ولذلك لجأت إلى الخشونة فإنتهرتهما بقولي:

- أحدكما نبتت لحيته والثاني طرّ شاربه وكلاكما رجل. وقد تعلمتما منيّ أكثر ما أحاط به فني وبقدر ما تمكنت من تعليمكما فصرتما الآن في مقدمة الفنانين الشبان الإيطاليين. أفلا يدرككما الخجل من افتقاركما إلى الشجاعة للإستغناء عن الخيوط التي تحرككما؛ هيا أغربا عن وجهي. وليبارككما الله ألف مرة ووداعاً.

---

(1) مقاطعة في جنوب شرق فرنسا ومركزها مدينة ليون.

ألويت عنان جوادي وتركتهما وعيونهما تفيض دموعاً، وسلكت طريقاً لطيفاً يمتد خلال غابة وأنا عازم على قطع أربعين ميلاً على الأقل في ذلك اليوم للوصول إلى بقاع غير مطروقة بقدر ما يمكن. وفي أثناء الميلين التي قطعتها عاهدت نفسي أن لا أغشى أي مكان يعرفني فيه إنسان، وفقدت الرغبة في إنجاز أي عمل باستثناء هيئة السيد المسيح بطول ثلاثة كوبيتات محاولاً الإقتراب من الجمال الربّاني قدر إمكاني. ذلك الجمال الذي كشفه بنفسه لي. وبهذه النيّة التي إستقرّ عليها فكري تماماً لويت عنان حصاني بإتجاه القبر الأقدس[1].

وفي الوقت الذي خيّل لي أني إبتعدت مسافة يصعب معها العثور عليّ. سمعت ورائي وقع سنابك خيل، فإنشغل بالي لأن الشائع أن المنطقة التي أجتازها تسيطر عليها عصابة من قطاع الطرق تدعى بـ(عصبة المغامرين) إعتادوا الفتك بالناس في الطريق. ومع أن عدداً كبيراً كان يُشنق منهم يومياً، فإن ذلك لم يكن يردعهم كما يبدو. وعندما إقتربت الخيل مني تبينت في أحد الفارسيْن ساعي الملك يصحبه اسكانيو. وهتف أولهما عندما حاذاني:

ـ بأمر الملك عليك أن تعود إليه دون تأخير.

فأجبت إنه جاء من لدن الكردينال ولهذا السبب أرفض العودة. فقال ما دمت أرفض العودة طوعاً فإن لديه من السلطة ما يخوله دعوة السكان المحليين وتقييدي كأي سجين. وراح اسكانيو يتوسل بحرارة طالباً مني الرجوع قائلاً ان الملك ما أن يقبض على طَلَبِتِه مقيداً فإنه يبقى مسجوناً خمس سنوات على الأقل قبل أن يطلقه. وبسماعي لفظة سجين تذكرت سجني في روما فشاع الفزع والخوف في نفسي فأدرت جوادي إلى الناحية التي أومأ إليها الساعي الملكي وإنطلق بي جوادي وأنا ساكت واجم بينما ظلّ الساعي طوال الطريق يثرثر بالفرنسية على نَفَس واحد ولم يقف لسانه حتى أوصلني إلى البلاط: كان يتهددني آناً وينتقل إلى موضوع آناً، ثم يتحول إلى آخر، حتى كدت أنشق غيظاً.

---

(1) أي شرقاً إلى أورشليم القدس.

ومررنا من أمام مقر الكردينال فِرارا ونحن نتجه إلى مقرّ الملك. وكان واقفاً بالباب فناداني بقوله:

- ان الملك القويم الدين بإختياره المحض قد نسّب ان يكون مرتبك السنوي بقدر ما أجرى للرسام (ليوناردو دافنشي) اعني سبعمائة كراون. كما انه سيدفع لك أجراً عن كل عمل تنجزه له. وسيمنحك خمسمائة كراون تسديداً لنفقات سفرك إلى هنا على ان تُسلَم لك قبل رحيلك.

بعد ان إنتهى من قوله هذا أجبت إن هذه المخصصات التي ذكرها جديرة حقاً بمثل هذا الملك. ولم يكن ساعي الملك حتى تلك اللحظة يعرق هويتي. فلما سمع هذه العروض الكبيرة التي قدمت لي نيابة عن الملك بادر إلى طلب العفو مني مراراً في حين عقّب (باكوليو واسكانيو) على الأمر بقولهما:

- رأيت كيف ساعدنا الله على عودتنا على الإمساك بطرف الخيوط المحركة.

في اليوم التالي توجهت لأرفع شكري إلى الملك. فعهد اليّ بصنع نماذج لاثني عشر تمثالاً من الفضة تستخدم بمثابة شمعدانات حول مائدته ستة منها تمثل آلهة ذكوراً وستة منها آلهة إناثاً على أن يكون إرتفاعها بطول قامة جلالته بالضبط وكانت تقلّ عن أربعة كوبيتات بالقليل[1]. وبعد أن ألقى اليّ بأمره هذا إلتفت إلى أمين خزانته وسأله هل دفع لي خمسمائة كراون؟ فأجاب هذا بأنه لم يؤمر بذلك. فبان الإنزعاج على الملك لأنه كان قد أوصى الكردينال بإبلاغه بصرفها لي.

كما أنه أشار بوجوب رحيلي إلى باريس لأجد لي محلاً مناسباً للعمل الذي أناطه بي. وقال انه سيرتب لي مسكناً لإقامتي. فقبضت الكراونات الخمسمائة وتوجهت إلى باريس ونزلت في دار تعود للكردينال (فِرارا) وهناك شرعت بعون الله في عملي. فهيأت أربعة نماذج صغيرة من الشمع كلّ واحد بإرتفاع ثلثي كوبيت تمثل الآلهة: جوبتر وجونو وأبوللو، وفولكان. وفي أثناء ذلك عاد الملك إلى باريس فأسرعت لمقابلته مع النماذج الأربعة وتلميذيّ باكولو واسكانيو. فأبدى جلالته إرتياحه لما رأى

---

(1) أي حوالي (170) سنتيمتراً.

وأمرني أن أبدأ بـ(جوبتر) بالحجم الذي ذكرته آنفاً. ثم قدمت له مساعديّ وأعلمته بأني جئت بهما من إيطاليا ليكونا في خدمته، وليعاوناني في ما لا يقوى عليه أمهر الصناع في باريس لأني أشرفت على تعليمهما. فسألني أن أقترح لكلّ منهما مرتباً كافياً. فقلت إن مائة كراون لكل منهما كافية إذ إني سأعمل على أن يكسبا دخلاً من مصادر أخرى فوافق على ذلك.

بعد هذا أعلمت جلالته بأني عثرت في إعتقادي على محلّ مناسب جداً للعمل الذي عهد به اليّ وهو جزء من أملاك جلالته الخاصة ويعرف بـ(بتي نل Petit Nesle)[1] وواضع اليد عليه في الوقت الحاضر هو حاكم باريس الذي كان جلالته قد أطلق يده فيه. ولكن الحاكم لا يستفيد منه. فلو رأى جلالته أن يمكنني منه لأستغله في خدمته. فأجاب الملك على الفور:

ـ المحل محلي وهو من أملاكي الخاصة، وأنا على علم تام بأن الرجل الذي أطلقت يده فيه لا يشغله بنفسه ولا ينتفع به. لذلك خذه وإستخدمه لمشاريعنا.

ثم أصدر أمراً لمرافقه العسكري بإسكاني في القلعة ولكن هذا الضابط بدأ متردداً وأبدى عجزه عن القيام بالمهمة، فردّ الملك غاضباً إنه يريد أن يعطي ما يعود له لأي شخص يختاره وإلى من هم في خدمته ـ والرجل الآخر لم يقدم له أية خدمة. وأضاف إنه لا يريد أن يُضاف أي قول إلى ذلك. فعقّب العسكري قائلاً إنه من الضروري إستخدام قدرٍ ما من القوة فأجاب الملك:

ـ إذهب إذن وإن لم تكن القوة القليلة كافية فإستخدم الكثير منها.

فأخذني إلى الموضع حالاً ولجأ إلى القوة لتمكيني منه، وأنذرني بأن أكون على حذر وإلاّ قُتلت. وضعت يدي على العقار وإستأجرت خدماً وإبتعت حراباً ضخمة وبقيت عدّة أيام لا أعرف للراحة معنى. فالشاغل السابق حاكم باريس هو نبيل خطير

(1) هو جزء من برج أو قلعة دي نل Towr (Chateau) de Nesle كان يقع على الضفة اليسرى من نهر السين. واليوم تقوم على أرضه مديرية دار الضرب، والمعهد الفرنسي Institut de France. ووصف بالصغير تمييزاً عن الآخر الذي يقع على الضفة اليمنى وتقوم على أرضه اليوم غرفة التجارة La Bourse de Commerce. [حاشية بلون].

الشأن والبقية كانوا كلهم يناصبونني العداء. واسقط في يدي وعجزت عن الصمود تجاههم. وهنا عليّ أن لا أنسى ذكر إبتدائي بالخدمة عند الملك. فقد كان ذلك في العام 1540 وقد بلغت الأربعين من العمر.

إضطررت إزاء مهاجمتهم العنيفة لي - إلى مراجعة الملك راجياً منه تأمين حلٍ آخر. ولما تقدمت برجائي هذا إلتفتَ اليّ وقال بحدّة:

- من أنت؟ ما إسمك؟

صعقتُ وإنعقل لساني وحرت في قصده. وقفت جامداً ساكتاً وعاد الملك يكرر سؤاله كأنه منفعل. فأجبت أن إسمي هو بنفنوتو.

فأجاب الملك:

- حسن جداً! إن كنت أنت بنفنوتو الذي سمعت به ففم بما يتوقع منك عادة، إني أعطيك مطلق الحرية في التصرف.

فأجبت حسبي أن أكون متمتعاً بالحظوة لدى جلالته أمّا ما عدا ذلك فلا شيء يمكن أن يلحق بي أذىً. فإبتسم الملك إبتسامة خفيفة وقال:

- إذهب إذن ولتعتمد دائماً على مكانتك عندي.

ثم أمر فوراً وزيره (مسيو دي فيللروا di Villerois) أن يشرف على تزويدي بكلّما أحتاج. وكان (فيللروا) هذا من أصدق أصدقاء الرجل الذي يدعى بـ(الحاكم) شاغل الـ(بتي نل). وهو حصن مثلث الأضلاع ملتصق بسور المدينة، وكان حصناً عتيقاً إلا أنه خال من حامية عسكرية، وهو واسع جداً.

نصحني السيد فيللروا هذا أن أنشد لي محلاً ثانياً، وأن أتركه مهما كلفني ذلك لأن واضع اليد عليه رجل كبير النفوذ وسيعمد إلى الفتك بي بلا ريب. فأجبته إن السبب الوحيد الذي دفعني إلى ترك أيطاليا والمجيء إلى فرنسا هو خدمة هذا الملك الجليل: وأما عن الموت فإن لكلّ أجلٍ كتاباً. وسأموت يوماً ما قصر أجلي أم طال والأمر لدي سيان. كان (فيللروا) هذا شخصية قوية جداً وكل شيء فيه يدعو إلى الإعجاب وهو فاحش الغنى لم يتورع عن الأخذ بكلّ وسيلة لإقلاق راحتي، إلاّ أنه لم يظهر أي أثر لشعوره الحقيقي. فقد كان رجلاً جدياً، بهيّ الطلعة والهيئة. يتكلم

ببطء وبثقة، وقد عهد بأمر إزعاجي إلى نبيل آخر يدعى (مسيو دي مارمانيا M. di Marmagna) الذي كان مدير مال مقاطعة اللانكدونك Languedoc[1] فأول عمل قام به هذا الرجل هو انه إختار افضل الحجرات في الحصن وهيأها لسكناه. فنبهته إلى أن الملك قد سلمني الحصن لأستخدمه في إنجاز أعماله وإني لا أنوي أن أدع أحد يسكن فيه غيري وغير خدمي. وكان شخصاً متعجرفاً شديد الإعتداد بنفسه عصبيّ المزاج وقد قال لي إنه سيفعل ما يحلو له وخير لي أن أضرب رأسي في جدار من مقاومته، وإن كلّ ما يقوم به هو بتفويض من (مسيو فيللروا). فأجبته ان تفويضي مصدره الملك وليس له ولا لفيللروا أن يتصرفا بهذا الشكل. وما أن قلت هذا حتى راح الرجل الغطريس يشتمني ويهينني بلغته الفرنسية. فقلت له بالإيطالية - إنه كذاب. فثار ثائره وأتى بحركة كأنما يهمّ بإستلال خنجره الصغير. فبادرت إلى وضع قبضتي على خنجري الكبير الذي لم يكن يفارقني لغرض الدفاع عن نفسي وصحت به: «إن إستللت خنجرك فأنت هالك لا محالة».

كان يواكب (مارمانيا) خادمان له وكان معي فتياي. فتردد قليلاً وهو غير مستقرّ على نيةٍ إلا أنه كان يميل إلى الغدر وراح يتمتم لنفسه: «إني لن أتحمل هذا». وجدت الموقف يزداد سوءاً وينذر بسوء العاقبة. فإتخذت قراراً سريعاً وقلت لـ(باكوليو واسكانيو):

- ما أن تشاهداني أجرّد خنجري حتى تلقيا بنفسيكما على الخادمين وتردياهما قتيلين إن أمكنكما. وأمّا أنا فسأجندل هذا الرجل بضربة واحدة ثم ننجو بأنفسنا هاربين.

بعد أن سمع (مارمانيا) قولي آثر أن يترك القلعة شاكراً حسن حظه لخروجه حياً. فقمت بكتابة كلّ ما وقع للكردينال فِرارا مع بعض تعديل، فنقله للملك فوراً فما كان منه وقد عيل صبره إلا أن عهد بأموري إلى الفيكونت (دوربيك d'orbic) وهو من ضباط حرسه. فقام هذا الرجل بسد حاجاتي بألطف شكل متصور.

---

(1) مقاطعة جنوبية مركزها مدينة (تولوز). والإسم مركّب Langu - deoc. ومعناه الحرفي (لغة الأك) وهي لغة بروفنسالية قديمة ما زال يتداولها حتى الآن عدد محدود من سكان المقاطعة.

بعد أن قمت بترتيب مقرّ سكناي ومحل عملي وأثثتهما بما يلزم لراحتي وعملي بخير ما تسنّى لي. إنكفأت إلى تصميم ثلاثة نماذج بالحجم المطلوب لتماثيل الفضة وهي (جوبتر ومارس وفولكان) عملتها من الصلصال المسلح بالحديد. ثم أسرعت لمقابلة الملك الذي كان قد أمر بأن أسَلَّم ما زنته ثلاثمائة باوند من الفضة على ما أتذكر لأبدأ بها العمل. وكنت خلال إشتغالي بالنماذج قد أكملت العمل بالطاس والإبريق. فصقلتهما صقلاً بديعاً وطليتهما ولم يكن في فرنسا كلها ما يضاهيهما جمالاً - وحملتهما فوراً إلى كردينال (فِرارا) فشكرني بحرارة ثم أخذهما بنفسه إلى الملك وقدمهما هدية له. فسرّ بهما وأنشأ يغدق عليّ آيات المديح والثناء مما لم يحظ به أحد مثلي منه. وقابل الملك هدية الكردينال بمنحه ديراً يغلّ عليه سبعة آلاف كراون سنوياً. وهمّ بأن يقدم لي هدية كذلك إلا أن الكردينال أوقفه وحال دون ذلك بقوله اني لم أنتج له شيئاً بعد وعليه ان لا يستعجل. اما الملك المطبوع على الكرم فقد خالفه بقوله:

- لكني اريد تشجيعه وشحذ همّته ليخدمني بإخلاص.

اعترى الكردينال خجل واجاب:

- ولاي ارجوك أن تترك هذا لي، وسأجري عليه راتباً سنوياً لا يقلّ عن ثلاثمائة كراون حالما أتسلم إدارة الدير.

في الواقع لم أحصل على أي شيء منه. ويطول بي كثيراً شرح حيل هذا الكردينال في حين أريد أن أقصر حديثي على الأهم من الأمور.

عدت إلى باريس وصرت موضع إعجاب الناس للحظوة التي نلتها عند الملك، تسلمت الفضة وبدأت أشتغل بتمثال (جوبتر) وبعد أن إستخدمت عدداً كبيراً من العمال باشرت العمل بتفرغ ودأب دون توقف ووصلت الليل بأطراف النهار. فباشرت بصبّ تمثال (جوبتر) ولم ينقض طويل زمن على إكمالي نماذج التماثيل الثلاثة جوبتر ومارس وفولكان. وقطعت فيه مرحلة لا بأس بها. وبدا منظر مصنعي مهيباً. وفي تلك الأثناء عاد الملك إلى باريس فقمت بزيارته وما وقع نظره عليّ حتى ناداني هاشاً باشاً وسألني هل هناك شيء جميل في مصنعي يمكنه أن يطلع عليه، فإذا كان ذلك فسيأتي

لزيارتي. فأحطته علماً بما أنجزت فتملكته رغبة قوية لرؤيته وتوجه إلى مصنعي بعد الغداء ومعه مدام دي تامب Mme de Tempes[1] وكردينال اللورين C. de Lorraine[2] وأمراء آخرون منهم ملك النافار خَتَنه[3] وملكة النافار شقيقته. فضلاً عن (الدوفان والدوفينه)[4]. وهكذا إجتمع في مصنعي زهرة أمراء البلاط في ذلك اليوم. وكنت قبلذاك قد عدت إلى المصنع وإستأنفت عملي ففوجئت بالملك عند باب القلعة وسمع أصداء وقع المطارق وأمر من يرافقه بالسكوت. وكان جميع العمال منصرفين إلى العمل غير متوقعين زيارة الملك وقد بوغتّ أنا نفسي. دخل قاعتي وكنت أول من وقع نظره عليّ. وأنا واقف أشتغل بصفيحة من الفضة لجسم جوبتر كبيرة الحجم وآخر يضرب برأس مطرقته وثالث يشتغل في الساقين وضجة المطارق تصمّ الآذان وكان ثم صبي فرنسي إلى جانبي يساعدني في عملي وقد أتى بتصرف أزعجني فمددت رجلي وركلته. فأصبته في منفرج رجليه وأرسلته يتعثر مسافة خمس ياردات وتشاء الصدف أن يدخل الملك في تلك اللحظة فتشبث به الصبي حفظاً لتوازنه فأغرق جلالته في الضحك في حين وقفت جامداً مصعوقاً. ثم بدأ الملك يسألني عمّا أشتغل فيه ورغب في أن أستمر وقال إنه ليسره جداً أن لا أجهد نفسي بل أستأجر ما أحتاج إليه من الصنّاع وأعهد إليهم بالعمل لأنه يريد أن أحافظ على صحتي لأطيل في مدة خدمتي له. فأجبت: إني سأعتلّ فور توقفي عن العمل فضلاً عن أني لن أنجز أعماله بالشكل المطلوب الذي أريده. وظنّ قولي هذا إدعاءً ومباهاة أريد منه المجاملة وحسن الوقع فحسب. فطلب من كردينال اللورين أن يكرر لي أقواله هذه. فأوضحت

(1) هي آن دي بسّليو Anne de Pisseleu . كانت إحدى وصيفات الشرف للملكة لويز دي سافوي والدة الملك فرانسوا. وزوجها هو جان دي بروس دوق ديتامب فيما بعد وهي محظية الملك. مارست سلطاناً عظيماً وكان مصدر ذلك رجاحة عقلها وقوة إرادتها. إعتنقت المذهب الكالفني في آخر حياتها وتوفيت في 1576.

(2) ابن رينيه الثاني دوق اللورين وحامل لقب ملك أورشليم القدس.

(3) ملك النافار هنري الثاني. وزوجته مرغريت دي فالوا شقيقة الملك فرانسوا واحدة من أعظم نساء زمانها وهي مؤلفة كتاب (هبتاميرون Heptameron) وإحدى المناضلات عن حرية الفكر في كل زمان ومكان.

(4) بعدئذ هنري الثاني ابن فرانسوا وزوجته هي كاترين دي مديتشي و(الدوفان) لقب ولي العهد الفرنسي.

للكردينال بصراحة وتفصيل الأسباب التي تدعوني لإتخاذ هذا الموقف بحيث إقتنع تماماً ونصح الملك بأن يترك لي الخيار في مقدار ما أقوم به من عمل.

وعاد الملك إلى القصر وهو راضٍ تمام الرضا. وأغرقني بكرمه وألطافه ولا يتسع المجال هنا لوصف ذلك فالحديث طويل جداً عنها. وفي اليوم التالي أرسل بطلبي وقت الظهر وكان على مائدته كردينال (فِرارا) وعند وصولي كان الملك يتناول الصنف الثاني من وجبة الغداء، فتقدمت من جلالته فبادرني بالحديث فوراً وقال «لما كان يملك الآن أجمل طاس وإبريق من صنع يدي فهو يريد أن أرفقهما بـ(مملحة) جميلة». وأضاف يقول انه يريد ان اصنع له نموذجاً وبصورة مستعجلة. فأجبت:

- سيرى جلالتكم النموذج بأسرع من الطلب. وذلك لأن فكرة مناسبة المملحة للطاس والإبريق خطرت لي أثناء ما كنت أقوم بصنعهما فبادرت إلى تنفيذها وعملت نموذجاً لمملحة فعلاً. فإن شاء جلالتك عرضته عليك دون تأخير.

فالتفت الملك وهو في غاية الإنشراح إلى الحاضرين وهم ملك النافار وكردينال اللورين وكردينال (فِرارا) وقال:

- لعمري إنه يعرف كيف يظفر بحبّ وصداقة كلّ من يتصل به.

ثم قال لي انه سيكون جدّ مسرور لو أريته النموذج، فقمت بالمهمة بسرعة اذ لم يكن يقتضيني ذلك إلاّ عبور نهر السين. وعدت ومعي النموذج الذي كنت قد صنعته في روما بطلب من كردينال فِرارا. ونزعت الغطاء عنه حالما وجدت نفسي بمحضر من جلالته، فقال متعجباً:

- إنه ليفوق أروع ما سما إليه خيالي بمائة مرّة. إن الرجل لمعجزة والحق يقال وعلينا ان لا نبقيه عاطلاً أبداً.

ثم إبتسم بنفس راضية وأبدى سروره من النموذج وأشار عليّ أن أعمله من الذهب الخالص. وحدّق كردينال (فِرارا) بوجهي ليفهمني بأنه عرف في النموذج ذلك الذي صنعته في روما وعندئذ ذكرته بقولي له آنذاك: إني سأصنع هذه التحفة لمن قُدّر له ان يمتلكها، فتذكر كلماتي جيداً وبالحرف الواحد فظهر عليه الإستياء لعلمه بأني إنتصفت لنفسي منه، فخاطب الملك بقولي:

ـ مولاي! إن هذا مشروع ضخم جليل. وتحفظي الموحيد هو أني أشك في أن يبلغ مرحلة التمام. لأن هؤلاء الفنانين الفطاحل الذي يعلو بهم خيالهم الطمّاح إلى تحقيق مثل هذه الفكرة ويتلهفون للشروع فيها، لا يلقون بالاً على الوقت الذي يكفيهم لإنجازها ولا يهتمون بموضوع إكمالها. ولهذا فإني سأطلب معرفة المدة التي يستغرقها لإنجاز مثل هذا العمل لو أني رغبت في صنعها.

فأجاب الملك إن من يتعب عقله حول مسألة الإنتهاء من صنع شيء، لن يبدأ في أي عمل. وكان المعنى الذي يقصده من هذا القول إن عملاً كهذا لم يقدّر للنفوس الخائرة. وعندئذ قلت:

ـ إن الأمراء الذين يشجعون خدمهم بالشكل الذي يقدم عليه جلالته الآن قولاً وعملاً هم المفلحون في تسهيل أشق الأعمال. وما دام الله قد أنعم عليّ بمولى عظيم مثله، فإني آمل في إنجاز أبدع الأعمال له.

فقال الملك وهو ينهض تاركاً المائدة:

ـ وأنا أعتقد بأنك ستفعل حتماً.

ثم إستدعاني إلى غرفته وسألني عن مقدار الذهب الذي أحتاجه لعمل المملحة فأجبته: ألف كراون. فأرسل حالاً يستدعي أمين خزانته الفيكونت (دو أوربيك) وأمره أن يسلمني فوراً ألف كراون جيدة الوزن.

إنصرفت من لدن جلالته، وأرسلت خبراً لمسجلي العقود الذين كانا قد أمّنا لي فضة تمثال (جوبتر) إلى جانب أشياء أخرى. ثم عبرت السين وتزودت بسلة صغيرة جداً كانت بنت عمي الراهبة قد زودتني بها عند مروري بفلورنسا (من حسن الحظ اني تعوضت بهذه السلة عن الحقيبة) متصوراً اني سأتمكن من قضاء المهمة أثناء النهار، اذ كان الوقت مبكراً ولم أشأ إزعاج رجالي المنصرفين إلى أعمالهم أو آخذ خادماً معي. عندما بلغت دار أمين الخزانة وجدته قد عبّأ النقود أمامه وهو يفرز القطع بحسب تعليمات الملك. إلا أن هذا الأمين اللص[1] راح يتشبث بكلّ حيلة ووسيلة

(1) قبل برهة وصف چلليني هذا الرجل بالأمانة. وأبدى إرتياحه من تسهيل أموره بفضله.

ليؤخرني في عملية تسلّم المال ولم ينته من ذلك إلاّ بعد حلول الليل. ولم يفتني إتخاذ الإحتياطات فقد أرسلت بطلب عدد من عمالي لمرافقتي فالمسألة ليست هيّنة. ولما إستبطأتهم سألت الرسول هل بلّغ الرسالة؟ فأجاب أحد الخدّام الأنذال إنهم بحسب علمه لايقدرون على المجيء، لكنه على إستعداد تام لحمل النقود عني. قلت سأحملها بنفسي. وفي أثناء ذلك تمّت كتابة العقد وإنتهى كل شيء وأحصيت النقود ووضعتها كلها في السلة ودسست يدي في مقبضها وكان عليّ حشر ذراعي بين النقود. ولذلك أصبحت في حرز وأمان، فبات حملها على هذه الشاكلة أهون بكثير من حملها في حقيبة. كنت مسلحاً بسيف وخنجر ومرتدياً زرداً مع قفازيه. وأسرعت في سبيلي بأقصى طاقتي ثم لفت نظري بعض الخدم يتهامسون فيما بينهم وبعدها أسرعوا بالخروج من المنزل سالكين الجهة المعاكسة. فسرت بخفة وعبر جسر بونت دي شانج[1] ثم تقدمت وسرت بمحاذاة المسنّاة التي تؤدي إلى منزلي في (نِل). ثم إقتربت من دير الأوكستيين: وهي أخطر بقعة وتقع على مسافة خمسمائة ياردة فقط من منزلي، إذ كان ذلك الجزء المسكون من القلعة يقع في الجهة القصوى البعيدة فإن صوتي لن يُسمع لو ناديت مستنجداً. لكن عندما رأيت أربعة من الرجال يحملون عليّ بسيوفهم المشهرة صممت بلمح البصر على ما أنوي عمله. أسرعت فغطيت السلة بمعطفي وصرخت بهم وهم يقتربون منيّ:

- كلّما تكسبون من الجندي هو معطفه وسيفه وآمل ان تكونوا الفريق الخاسر قبل أن أسلمهما.

وقاتلتهم قتالاً عنيفاً وكنت بين الفينة والفينة أبسط ذراعي إلى الخارج ليروا بأني لا أخفي تحت عباءتي شيئاً في حالة ما لو كانوا متواطئين مع الخدم الذين رأوني أتسلّم المال. وإنتهت المعركة بسرعة فقد أخذوا يرتدون على أعقابهم خطوة خطوة وهم يقولون بلغتهم:

---

(1) هو الآن بونت نوف Pont Neuf. وهو أحد الجسور الذي يصل بين شقي باريس فوق نهر السين ويمر بجزيرة ايل دلاستي ويقع جنوب كاتدرائية نوتردام دي باريس.

ـ هذا الإيطالي من الشجعان الصناديد. ويقيناً إنه ليس الشخص الذي نريده، وإذا كان هو فلا يحمل شيئاً.

فصحت بهم بالأيطالية وواصلت الضرب والطعن. وقد كدت أهوي بضربة قتالة أكثر من مرّة ولما وجدوني أطاعن وأقاتل بحذق ومهارة حسبوني جندياً محترفاً ولا شيء آخر. فبدأوا يبتعدون عني شيئاً فشيئاً وهم منضمون متكاتفون يهمسون بالفرنسية بعضهم لبعض وكنت أنا نفسي أكرر عبارتي الأولي: «على كلّ من يطمع في معطفي وحسامي لن يجد مهمته سهلة» بكلّ لطف وثبات نفس. ثم بدأت أغذ السير وكانوا يتعقبونني ببطء. فزاد قلقي من هذا إذ خشيت كميناً آخر في إنتظاري وعندئذ سأهاجم من جهتين. ما إن صرت على مسافة مائة باردة تقريباً من منزلي حتى أطلقت ساقي للريح منادياً بأعلى صوتي «الى السلاح، إلى السلاح! أخرجوا أخرجوا إنهم يقتلونني». فخرج في الحال أربعة فتيان بحراب مشرعة وعندما همّوا بمطاردة المهاجمين الذين ما زالوا مرئيين قلت لهم بصوت جهير للغاية:

ـ هؤلاء الجبناء الأربعة فشلوا في سلب رجل واحد لا غير ألف كراون ذهبي كاد ثقلها يحطم ساعدي. ألا فلنذهب ونودعها مكاناً ثم أعود بسيفي ذي المقبضين فنطاردهم إلى حيث شئتم.

ودخلنا المنزل وتخلصت من الذهب: وراح فتياني يهنئونني على السلامة من الخطر الداهم ثم أخذوا يلومونني قائلين:

ـ ما أشدّ إعتمادك على نفسك، سيأتي يوم تعطينا منه سبباً للأسى.

فأدليت لهم برأيي إلاّ أنهم أصرّوا وزادوا، وهرب أعدائي. فعدنا إلى الدار جميعاً لتناول العشاء بمعنويات عالية جداً نضحك لتصاريف القدر العجيبة التي تتجلى لنا في الخير كما تتجلى في الشر، ثم ينتهي الأمر وكأنه لم يكن عندما تخطئ الأقدار هدفها. بالتأكيد إن المرء يقول لنفسه بعد مرور المحنة: «لقد تلقيت درسك يا هذا لأجل المرّة التالية!» إلا أن «المرة التالية» لن تكون كالأولى تماماً بل ستختلف.

أول ما بدأت العمل به صباح اليوم التالي هو (المملحة) فأوليتها جانباً كبيراً من اهتمامي فضلاً عن الأشغال الأخرى. في هذه الفترة من الوقت كنت أستخدم عدداً

كبيراً من الصنّاع والصاغة والمثالين. فيهم الفرنسي والإيطالي والألماني. وأحياناً كان عدد المستخدمين يتضاعف فأستبقي أحسنهم وكنت أعمد إلى التبديل فيهم وأبقي من هو أكثر معرفةً. وأدفع بهم إلى العمل الدائب. وكانوا يخلصون في شغلهم حرصاً على أن لا يتأخروا عني، إلا أن بُنيتي كانت أقوى منهم وأكثر تحملاً للعمل الشاق فيعجزون عن مجاراتي ويلجأون إلى الإكثار من الأكل وشرب الخمر ظنّاً أنه يزيد من قدرتهم. ولم يستطع بعض الألمان الذين هم أكثر خبرة من الاخرين الإستمرار في بذل هذا الجهد الشاق الذي نأوا به وكاد يهلكهم.

وفيما كنت أتقدّم في تمثال (جوبتر) وجدت أنه سيبقى لي مقدار من الفضة بعد صبّه فبدأت أشتغل دون علم الملك بعمل طست فضي كبير بالمتبقي إرتفاعه قدمان بعروتين متقابلتين. ومالت نفسي إلى صبّ النموذج الكبير الذي صنعته لجوبتر بالبرونز وهو عمل لم تسبق لي ممارسته من قبل، فإستشرت بعض الأساتذة الباريسيين المتخصصين في هذا المجال وشرحت لهم كلّ الطرق المستخدمة في إيطاليا لمثل هذا العمل، فقالوا إنهم لم يمارسوا هذه الطرق. وبيّنوا أنهم يصبّون التمثال بإحكام وسهولة لو تركتهم يطبقون اسلوبهم وانهم سيسلموني إياه تاماً جميلاً كأنه عمل من جبس. فعقدت صفقتي معهم وعهدت إليهم بالعمل ووعدتهم بأن أزيد مقداراً من الكراونات إلى الأجرة التي طلبوها. فبدأوا به لكنني لاحظت أنهم سلكوا سبيلاً غير صحيحة، فتركتهم وشأنهم واشغلت نفسي بتمثال نصفي لـ(يوليوس قيصر) أكبر من الحجم الطبيعي كنت قد إستنسخته عن صورة أثرية جلبتها معي من روما. كما بدأت العمل أيضاً برأس آخر بعين الحجم إلا أني في هذه المرة إستخدمت نموذجاً فتاةً جميلة جداً كنت قد ضممتها إلى منزلي لإشباع شهوتي الجنسية. وسميْت الرأس (فونتنبلو) تيمناً بإسم الموضع الذي إختاره الملك لقضاء أوقات راحةٍ وإستجمام فيه. بعد أن بُني الفرن الصغير الجميل لصهر البرونز وبعد أن هُيئَت القوالب وفُخِرَت (جوبتر يصبّه الفرنسيون، وأنا لأصبّ تمثاليْ النصفيين) قلت لهم:

ـ لا أظنكم ستنجحون في صبّ (جوبتر) لأنكم لم تتركوا منافذ تهوية كافية في الأسفل حتى يستوفي الهواء دورته. واني لأجدكم تبددون وقتكم بلا فائدة.

فأجاب: إنهم سيعيدون لي أجوري إن أخفقوا، كما سيعوضون كلّ خسارة تلحق بي. ومن الخير لي أن أهتم بالرأسين الجميلين اللذين سأستخدم لهما طريقة الصبّ الإيطالية، لئلا يكون الفشل نصيبي. وكان أمين الخزانة وعدد من رجال الحاشية حاضرين أثناء المناقشة؛ يتردد اليّ هؤلاء عادةً وينقلون إلى الملك كلّ ما يقال ويعمل في مصنعي. وأراد السبّاكان الشيخان الفرنسيان اللذان سيصبّان جوبتر أن يتوليا أمر صبّ قالبيّ الرأسين لخشيتهما أن الأسلوب الذي أطبقه قد لا يُكتب له النجاح ومن الحيف ان يكون مصير مثل هذين الأثرين الفنيين التلف. وعندما سمع الملك بهذا علّق على قولهما بهذه العبارة: من الأفضل أن ينفقا وقتهما بالتعلم لا بمحاولة تعليم أستاذهما.

وبكثير من الضحك والمرح وضعا قالب جوبتر في المسبك. ثم قمت بوضع قالبيّ كل واحد في جانب من جوبتر، غير مظهر إشارة مما يعتمل في نفسي، لم أضحك ولم أنفعل وإن شعرت بميل إلى ذلك. وبعد أن إنصهر المعدن تماماً رحنا ندفع به إلى داخل القوالب بإرتياح كبير شملنا جميعاً. فملأ جوبتر على أحسن وجه كما ملأ قالبيّ فبدت عليهما علائم الإرتياح والفرح كما كنت أنا راضياً: سررت لأني كنت مخطئاً في تقديري لعملهما وسرورهما كان أكبر لخطئهما في تقدير نتيجة طريقتي. وجرياً على عادة الفرنسيين طلبا بمرح صاخب شيئاً من الطعام والشراب. فأمرت بكلّ طيبة خاطر أن يُمدّ لهم سماط حافل بأشهى الطعام وأنفس الشراب ثم طلبا دفع المكافأة التي وعدتهم بها. فقلت لهما:

- أكثرتما الضحك وأظهرتما أعظم السرور لما أخشى أن يكون مدعاةً لبكائكما. ففي إعتقادي إن الكمية التي دخلت القالب من المعدن المنصهر أكثر بكثير مما يتطلبه. ولذلك لن أدفع لكما شيئاً يزيد عما تسلمتموه حتى صباح الغد.

بدأ الرجلان المسكينان يفكران بما قلت ثم عادا إلى منزليهما دون أن يتلفظا بكلمة واحدة. وفي اليوم التالي شرعا يفرغان المسبك بكلّ لطف وحذر ولم يكن في وسعهما إخراج (جوبتر) إلا بعد إزاحة قالبيّ. فأخرجاهما وهما في غاية الكمال ليس فيهما أقلّ عيب ونصباهما في وضع صحيح. ثم شرعا باستخراج (جوبتر) وبعد أن

بلغا عمق (كوبيتين) في الحفر أطلقا والعمال الأربعة الذين كانوا يساعدونهما في الحفر صيحةً داوية سمعتها وأنا بعيد، فأسرعت أعدو إليهما معتقداً بأنهما اطلقا هتاف فرح وإستبشار. كنت في غرفة نومي التي تبعد أكثر من خمسمائة خطوة عنهم. وعندما وصلت إليهما وجدتهما وقد علاهما الغمّ والذهول فمثلتهما بحارسيْ قبر المسيح كما يبدوان في الصور الدينية[1] وحانت مني إلتفاتة إلى تمثاليّ النصفيين فإذا بهما مصبوبان بكل إتقان فشعرت بأسف يخالطه سرور. وبدآ يعتذران لنفسيهما ملقين كلّ اللوم على سوء حظوظهما. فكان جوابي لهما قولي:

- إن الحظ محالفكما فعلاً. إلا أن السيء فيكما هو إفتقاركما إلى المعرفة. ولو كنت موجوداً أثناء وضعكما الهيكل داخل القالب فإن كلمة واحدة مني كانت تكفي لضمان حصولكما على نتيجة طيبة. وبهذا سأكون قد رفعت من سمعتي، في الوقت الذي يعود عليكما بالفائدة. إني سأحافظ على سمعتي على أي حال ولكنكما لن تخرجا من هذا إلاّ بالخسارة المادية وسوء السمعة. ولهذا عليكما أن تتعلما في المرة الأخرى كيف تتقنان العمل لا كيف تسخران من الآخرين.

فراحا يتوسلان بي راجين مساعدتي مقرّين بصواب رأيي قائلين إن لم أمدّ لهما يد العون فإنهما سيضطران مع أسرتيهما إلى الإستجداء، إذ كان عليهما أن يسددا النفقات العظيمة التي صرفناها فضلاً عن دفع الخسارة. فوعدتهما أن أسدد عنهما ما بذمتهما للخزانة إن طالبهما بها محاسبو الملك لأنهما طبّقا ما يعرفانه بأمانة وحرص وبحسن نية. وقد رفع كلّ ذلك من قدري وسمعتي عند أمناء خزانة الملك ووزرائه.وابلغ الملك بكلّ ما وقع وبكرمه المعهود أمر أن يتمّ كل شيء وفق ما وعدت.

في غضون ذلك ظهر على مرسح الأحداث ذلك الرجل الباسل الصنديد (بييرو ستروزي)[2] وذكّر الملك بوثائق تجنسه فأمر جلالته بأن تُنظَّم في الحال ثم أضاف

(1) وضع حارسان على قبر السيد المسيح بعد دفنه. وعندما بُعث حيّاً في غفلة منهما ووجدا القبر خالياً صُعقا دهشةً.

(2) هو ابن فيليو ستروزي المتقدم ذكره. خدم فرنسوا الأول الذي نصبه مارشالاً بعد هزيمة جيش المبعدين السياسيين الفلورنسيين في موقعة مونت مورلو Monte Murlo.

يقول: «ونظموا أيضاً معها وثائق (صديقي mon ami) بنفنوتو، وخذوها إليه فوراً وادفعوا بها إليه ولا تتقاضوا رسوماً عنها»[1].

هذه الوثائق كلّفت (بييرو ستروزي) العظيم عدة مئات من الدوقيات، أمّا أوراقي فقد جاءني بها السيد (انطون لوماسون Antone le Massone) وزير الملك الأول وسلّمها اليّ مشفوعة برسالة شفوية من الملك. قال:

- إن جلالته يهديك هذا حتى يدفعك هذا إلى المزيد من الحماسة والإخلاص في خدمته. هذه أوراق تجنّسك.

ثم أخبرني كيف إن السيد «بييرو ستروزي» لم ينل هذا الشرف العظيم إلا بعد مرور وقت طويل وبناءً على طلبه الخاص. في حين أن الملك شملني بهذا الإنعام من تلقاء نفسه وبدون طلب مني وان مثل هذه الإلتفاتة السامية لم يحظ بها أحد من قبل في المملكة. فبادرت إلى شكر الملك بحرارة على فضله الكبير ثم رجوت الوزير أن يتفضل عليّ بتعريفي بالأهمية التي تنطوي عليها الوثائق. كان (مسيو لوماسون) إنساناً ذكياً كيِّساً عالي الخلق يتكلم الأيطالية بطلاقة. عندما وعى سؤالي راح يقهقه ضاحكاً. ثم تحول إلى الجدّ فشرح لي باللغة الإيطالية كيف يعتبر هذا أعظم شرف يناله الأجنبي في فرنسا وعقّب في الختام قوله «إنه لأعظم شرفاً من أن تمنح درجة النبل في حكومة البندقية». وانصرف ونقل إلى الملك حديثي فأطلق ضحكة طويلة ثم قال:

- الآن أريده أن يدرك سبب إرسالي الأوراق إليه. إذهب وقم بتسجيل ملكية قلعة (بتي نِل) بإسمه، حيث يسكن وهي من أملاكي الخاصة. وسيكون فهم ذلك أسهل عليه من فهم معنى الأوراق.

وجاءني رسول يبشرني بالمنحة. فهممت بإعطائه البشارة لكنه أبى قبولها قائلاً إن هذه أوامر جلالته. أخذت وثائق الرعوية مع سندات الملكية التي جعلتني سيد القلعة عند عودتي إلى إيطاليا وسأبقى محتفظاً بها إلى آخر أيام حياتي وفي أي مكان ألفظ فيه آخر أنفاسي.

---

(1) نشر بيانكي نصّ هذه الوثيقة. كما نشر أيضاً نص كتاب الملك بتوجيه ملكية قلعة «بتي نِل» إلى جلليني (أنظر ص581).

سأعود الآن إلى إستئناف قصة حياتي. كان بين يدي العمل الذي ذكرته آنفاً، أعني تمثال (جوبتر) الفضي الذي قطعت فيه مرحلةً. والمملحة الذهبية، والطست الفضي الكبير والرأسان البرونزيان، وقد وزعت مجهودي بينها بكلّ مثابرة. كما أني إتخذت التدابير لصبّ قاعدة جوبتر وهي قطعة فنية دقيقة جداً حافلة بالتفاصيل الزخرفية من البرونز. ومن زخارفها صورت إغتصاب كانيميد[1] في جهةٍ و«ليدا والبجعة» في جهةٍ. بعدها صببتها بكلّ نجاح. ثم عملت قاعدة مشابهة لتمثال (جونو Juno)[2] الذي كنت أنتظر له ورود الفضة من الملك لأباشر به. وأكملت التمثالين النصفيين كما قطعت شوطاً كبيراً في الأعمال الأخرى. وقمت بإنجاز بعض القطع الصغيرة لكردينال (فِرارا) كما أني صنعت إناءً كثير النقش والزخارف لأقدمه هدية لـ(مدام ديتامب) وأنجزت أشغالاً كثيرة لعدد من النبلاء الإيطاليين كالسنيور بييرو ستروزي و(الكونت دانكويارا d'coont anguillara) و(الكونت دي بيتيليانو C.de Pitigliano) و(الكونت دلّلا ميراندوللاّ C.della Mirrandolla) وآخرين.

وأما بخصوص الملك العظيم فقد تقدم قولي أني قمت له بالكثير من الأعمال. ثم إنه عاد إلى باريس وفي اليوم الثالث لمقدمه زارني بصحبة عدد كبير من أرفع رجال بلاطه مقاماً. فذهل للقدر الكبير الذي أتولاه من الأعمال وللدقة التي أشتغل بها. وكانت صاحبته (مدام ديتامب) معه وبدآ يتحدثان عن (فونتنبلو) فأشارت عليه بأن يعهد اليّ بعمل زخرف جميل للنافورة هناك. فأجاب الملك في الحال:

- انه إقتراح رائع. وسأقرر في هذه اللحظة ما أريد أن يعمله.

ثم إلتفت اليّ وبدأ يسألني عن رأيي في الفكرة وتصوراتي لها بعد ان شرح لي فكرته. فأدليت بمقترحاتي ثم أبلغني بأنه سيرحل إلى (سان جرمان آن لايي Saint Germain en Laye)[3] التي تبعد بمسافة إثنتي عشرة مرحلة عن باريس وسيمكث فيها

---

(1) في الاساطير اليونانية هي إلهة النساء والأطفال. زوج جوبتر وملكة الآلهة وهي عند الاغريق (هيرا).

(2) هي الآن ضاحية من ضواحي باريس وتقع على مسافة 12 ميلاً من مركز العاصمة إلى الشمال الغربي. من هذا يبدو أن (المرحلة) هي ميل واحد.

(3) هي الآن ضاحية من ضواحي باريس وتقع على مسافة (12) ميلاً من مركز العاصمة إلى الشمال الغربي، من هذا يبدو ان (المرحلة) هي ميل واحد.

خمسة وعشرين يوماً. وإن عليّ أن أهيء خلال هذه المدة تصميماً للنافورة الجميلة. وليكن في غاية الأناقة مشحوناً بالزخارف والتهاويل. وشدد عليّ بأن أسخّر له كلّ مواهبي ليكون فريداً في بابه لأن البقعة التي ستقام النافورة عليها هي عنده أحبّ مكان في مملكته حيث يقضي فيها أوقات فراغه مستمتعاً، فوعدته. وعندما شاهد كلّ الأعمال التي أشتغل بها قال لمدام ديتامب:

ـ لم يقم رجل في صناعته بإرضائي مثله فهو يستحق اعظم الجزاء. ولذلك علينا ان نفكر في وسائل بقائه هنا. انه مبسوط اليد؛ جليس مؤنس، وعامل مجدّ. فعلينا والحالة هذه أن لا نهمل أمره وأن نفكر فيه دوماً بل وأكثر من هذا يا سيدتي، أنظري انه لم يطلب شيئاً لنفسه قط في الزيارات العديدة التي قمت بها لمصنعه، وفي جيئاته اليّ. ان فنّه هو كلّ شيء عنده وقد اوقف عليه روحه وقلبه. علينا ان نفكر في شيء له فوراً خشية أن نفقده.

فأجابته (مدام ديتامب):

ـ سأذكّرك بهذا.

وانصرفوا وواصلت عملي دؤوباً كما شرعت في عمل تصميم للنافورة بحماسة وتفرّغ. بنهاية شهر ونصف عاد الملك إلى باريس وكنت خلال ذلك أشتغل ليل نهارٍ فتوجهت للسلام عليه مصحوباً بالتصميم الذي بدا رائعاً عند تمامه دقيقاً في تفاصيله بحيث يسهل فهمه.

في تلك الأثناء نشبت الحرب اللعينة مرة أخرى بين الملك والإمبراطور[1] ولذلك وجدت جلالته مشغول البال. فما كان مني إلاّ أن بحثت الأمر مع كردينال (فِرارا) وأعلمته بأني أحمل تصاميم للملك سبق وكلّفني بها وأشرت إلى أن عرضها قد يسرّي عنه ورجوته أن يقول بضع كلمات إن وجد فرصة مناسبة تمكنني من ذلك. ففعل الكردينال ما طلبت منه. وعندما نوه لجلالته بالتصاميم أقبل الملك حالاً

(1) ساد السلم حوالى خمس سنين (1537 ـ 1542) ثم نشبت الحرب مجدداً في أيار 1542 وإستمرت حوالى السنتين وانتهت بمعاهدة كريبي Crepy في 1544.

لمشاهدتها. كان التصميم يحوي أولاً على مدخل قصر فونتنبلو بتحوير طفيف لتصحيح أبعاده إذ كان واطئاً وعريضاً على الأسلوب الفرنسي القبيح. وكانت فتحة المدخل أيضاً مربعة الشكل وفوقها العقادة بشكلٍ نصف دائري مفلطحة شبيهة بيد السلّة. في وسط هذه العقادة الدائرية رغب الملك أن أعمل تمثالاً يمثل فونتنبلو. فأدخلت تحسينات في أجزاء المدخل وجعلت العقادة بنصف دائرة كاملة أما الركنان فقد جعلت فيهما زخارف بارزة وحلّيتهما من الأعلى والأسفل بما يناسبهما من الأفاريز والكوى وإعتضتُ عن الأسطونين الجانبيين بتمثالي مسخين يرفعان كلّ منهما يداً ليسند الأسطون ويمسك باليد الثانية رمحاً كبيراً ذا شعب وصورتهما بشكل يوحي بالرهبة. والفرق الوحيد بين المسخين هو أني جعلت يد أحدهما تمسك بسوط ذي شعب ثلاث كلّ شعبة تنتهي بكرة. وقد سميتهما بالمسخين تجوازاً لأنهما لا يشبهان ذلك الكائن الخرافي إلا في القرنين الصغيرين اللذين يخرجان من الرأس الشبيه برأس الجدي. أما سائر الجسم فهو بشريّ. وجعلت في وسط العقادة نصف الدائرية إمرأة مضطجعة[1] على جنبها بهيئة لطيفة جداً. يدها اليسرى مستقرة على عنق غزال وهو واحد من الشعارات الملكية وجعلت في جانب منه ضباة صغاراً بنصف بروز وخنازير برية وغيرها من الوحوش البريّة بنصف بروز واطئ. وفي الجانب الآخر كلاب صيد وكلاب سلاقية من مختلف الأجناس، وهو ما يكثر عادة في تلك الغابة الجميلة حيث نبع الماء.

وأحطت كلّ هذا بإطار مستطيل في كلّ زاوية من زاويتيه العُليَين جعلت صورة للإلهة (فكتوري) بالحفر الواطئ ممسكة مشاعل كما ترى في النقوش التي خلّفها الأقدمون. وفوقها نقشت سحليّة وهو إقتراح الملك. ومع مجموعة كبيرة من الزخارف والزركشات الرائعة على النمط الآيوني[2] مما ينسجم مع الباقي.

---

(1) هذه الحورية لم تركّب في باب القصر. وبعد وفاة فرنسوا الأول، منحها إبنه هنري الثاني لعشيقته (ديانا دي بواتييه) فزيّنت بها باب قصرها في آنيت. وهي الآن من معروضات متحف اللوفر.

(2) آيونيا هو الاسم الذي يعرف به ساحل بحر أيجه التركي حالياً. حيث ازدهرت في مدنه حضارة يونانية مهمة جداً من الألف الأخيرة قبل الميلاد ومنها استمدت اليونان حضارتها في القرون التي تلت. وجلليني يشير هنا إلى أسلوب البناء اليوناني المتميز الذي قلده فنانو الرينسانس مع بعض تحوير.

وأشرق وجه الملك عندما وقعت أنظاره على التصميم، وانصرف فكره إلى المناقشات المتعبة أكثر من ساعتين. ولما وجدته في حالة نفسية طيبة كشفت عن التصميم الثاني الذي لم يكن يتوقعه، فقد حسب أن التصميم الأول هو كلّ ما إتسع له وقتي وكان إرتفاعه يزيد عن ثلاثة أقدام ويمثل فسقية تامة التربيع تحيط بجوانبها الأربعة مدرجات جميلة متقاطعة بشكل غير مألوف لا عندنا ولا في هذه البلاد. وجعلت بمركز الفسقية قاعدة مرتفعة بعض الشيء عن الحوض وأقمت وسط هذه القاعدة تمثالاِ عارياً متناسق الأعضاء جميل الشكل ترتفع ذراعه اليمنى إلى أقصى ما تمتد ممسكة برمح مكسور. وتستقر يده اليسرى على مقبض سيف عريض إعتنيت كثيراً بتصويره. وهو واضع ثقله على قدمه اليسرى. أما قدمه اليمنى فقد جعلتها تستقرّ على خوذة حربية كثيرة الزخارف. وفي جوانب الفسقية أقمت أربعة تماثيل تجلس فوق قواعد وكل واحد منها يرفع شعاره الخياليّ الطابع.

أنشأ الملك يستجوبني عمّا يكمن وراء هذا التصميم الجميل من فكرة، قائلاً إنه لا يحتاج إلى كلمة منيّ ليفهم كلّ ما قصدته في تصميم تفاصيل مدخل الباب. لكنه مع الجمال الظاهر في تصميم الفسقية ـ لا يستوعب قط ما أرمي إليه من فكرة فيها. وأردف يقول: انه يعلم حق العلم بأني لست من صنف أولئك الحمقى الذين يبدو عملهم أنيقاً في الظاهر ولكنه يخلو من أي معنى. وهنا تهيأت لشرح فكرتي لأني كنت أريد أن أسرّه بأقوالي قدر ما جعلته مسروراً بما أنجزت. قلت:

ـ بودّي أن يعلم جلالتك الأقدس أن عملي هذا مبني على حساب دقيق إلى حدّ العقدة. بحيث إنه سيحتفظ بكامل روعته وجماله عند إكماله. فهذا التمثال في الوسط سيكون إرتفاعه أربعة وخمسين قدماً (أبدى الملك هنا حركة تدل على الدهشة العظيمة) وهو يمثل (مارس). أما التماثيل الأربعة الأخرى فتمثل العلوم والفنون التي يشجعها جلالتك ويشملها برعايته. فالذي في الجهة اليمني يمثل دنيا المعرفة وأنت ترى كيف كان شعارها؛ مظهرةً الفلسفة ومختلف فروعها. والآخر يمثّل كلّ فنون التصميم أعني النحت والتصوير والهندسة المعمارية. والثالث للموسيقى التي ترافق كلّ فروع المعرفة هذه. يليه هذا التمثال اللطيف الجميل الذي يمثل التسامح ولولاه لإختفت كل المَلَكات النادرة التي أنعم بها الله علينا. والتمثال العظيم في المركز يمثل

شخص جلالتك (مارس) إله الحرب، الفريد في الشجاعة: أنت الذي تستخدم شجاعتك بعدلٍ وإخلاص في الدفاع عن شرفك ومجدك.

ولم يصبر على إنهاء كلامي فقاطعني قائلاً بصوت جهير:

- لعمري إني وجدت رجلاً يناسبني.

ثم إنه نادى أمناء خزانته وأمرهم بأن يزودوني بكلّ ما أحتاج مهما كلّف ذلك من مال. ثم ربت على كتفي وقال لي:

- ياصديقي (Mon Ami!) لا أدري أيهما أسعد حظاً؟ الأمير الذي وجد رجلاً يتفق وهواه أم الفنان الذي وجد أميراً مستعداً لتلبية كل طلب له للتعبير عن أفكاره العظيمة الخلاّقة؟

فأجبته قائلاً: إن كنتُ المقصود بكلام جلالته، فأنا الأسعد حظاً. فقال مبتسماً:

- فلنعتبر أنفسنا ذوي حظوظ متساوية.

ثم إستأذنت والدنيا لا تسعني فرحاً منصرفاً إلى أشغالي.

كما شاء لي حظيّ العاثر، لم ينصحني أحد بإعادة تمثيل هذه المقابلة مع (مدام ديتامب). فبعد أن سمعت من فم الملك نفسه كلّ ما وقع تجمع لها حقد مسموم في صدرها عليّ بحيث انفجرت قائلة:

- لو عرض عليّ بنفنوتو أعماله الفنيّة الجميلة لزودني بمبرر وسبب لتذكره في الوقت المناسب.

وحاول الملك الإعتذار لي من غير طائل. وقد سمعت بالقضية بعد أسبوعين لأنهما كانا قد قاما برحلة ملكية إلى نورماندي زارا خلالها مدينتي (روان Rouan) و(دييب Diepe) ثم عادا إلى (سانت جرمان آنلايي). فحملت الإناء الصغير الجميل الذي كنت قد صنعته بناء على طلب مدام ديتامب وقصدتها مؤملاً بإهدائه ان أستعيد حظوتي لديها. بلغت منزلها وعرضت على إحدى وصيفاتها ما جلبته لسيدتها فرحبت بي بلطف لامزيد عليه وقالت إنها ستكلم سيدتها التي لم ترتد ثيابها بعد. وإني سأدخل عليها حالما تخطرها بوجودي.

نقلت الوصيفة رسالتي إلى السيدة فأجابت بإستخفاف:

ـ قولوا له أن ينتظر.

ولما بلغت بذلك قلت سمعاً وطاعة وتجملت بالصبر وهو عندي أصعب الأمور. بقيت صابراً كاظماً حتى فات وقت الغداء. وتأخر بي الوقت وعمل الجوع على إثارة غيظي الشديد ولم يعد عندي طاقة للإحتمال فانصرفت وأنا أقول في نفسي إلى سقر بها وبئس المصير. قصدت كردينال اللورين وقدمت له الإناء هديةً ولم أسأله عوضاً سوى أن يذكرني بخير أمام الملك. فأجاب لا حاجة تدعو إلى هذه الوساطة ولكنه لن يتردد في إهتبال أي فرصة لتزكيتي وسيفعل ذلك بكلّ طيبة خاطر. ثم دعا وكيله وهمس في أذنه كلاماً. وانتظر الوكيل حتى خرجت من مجلس الكردينال فقال لي:

ـ هيا معي يا بڤنوتو وسأسقيك خمراً معتقة.

فأجبت وأنا غير مدرك قصده:

ـ رحماك يا سيدي الخازن. أسعفني بكأس خمر مع كسرة خبز فأنا في أمسّ الحاجة إليهما. فأنا على الطوى منذ صباح اليوم الباكر حتى الان، أنتظر على عتبة دار مدام ديتامب لأقدم لها هذا الإناء الفضي الصغير الجميل هديةً. أخطرتها بغرضي إلا أنها أشارت بالإنتظار قاصدة تحقيري. والآن أرى الجوع يقرض أحشائي فأكاد أسقط إعياءً. ولقد شاءت إرادة الله على كلّ ـ أن أقدم ثمرة عملي إلى من هو أحق به منها. وكل ما أطلبه الآن هو ما أنقع به ريقي لأني صفراوي المزاج والصوم يضرّ بصحتي. وأنا أخشى أن أسقط من شدة الضعف. وفيما أنا أنتزع الكلمات من فمي بجهد خارق ظهر بالباب طبق عليه خمر ممتازة وغير ذلك من الأطايب. فعادت اليّ روحي وإنتعشت بعد أن تناولت هذه الوجبة الخفيفة وزايلني الغضب. بعدها قدّم لي الخازن الكريم مائة كراون ذهبي فرفضت قبولها بشدة. فأبلغ الكردينال بذلك فأنّبه وأمره أن يحملني على قبولها حملاً وأن لا يريه وجهه قبل أن يفعل ذلك. فعاد الخازن وهو منفعل وقال إنه لم يُؤنّب من قبل بمثل هذا الشدّة. والحّ عليّ بقبول المال ولكني بقيت على إصراري. عندئذ حمي غضبه وقال إنه سيرغمني على ذلك بالقوة. ولم يعد

لي حيلة إلاّ القبول. وطلبت منه أن ادخل على الكردينال لأشكره. فبعث نيافته لي برسالة شفوية يقول فيها انه لن يدع فرصة تفوت إلا إنتهزها لفائدتي.

عدت مساء اليوم نفسه إلى باريس وعلم الملك بالحكاية من أولها إلى آخرها. وضحك المطلعون على المسألة سخريةً بمدام ديتامب مما ضاعف من حقدها عليّ ورغبتها في إلحاق الضرر بي وكاد سعيها يوردني حتفي وسأورد الحديث عن ذلك في موضعه المناسب.

كان عليّ قبل تسجيل هذا أن أنوّه بفوزي بصداقة أسمى وأرق وأعظم الناس ذكاء ومواهب لقيته في حياتي، ألا وهو الأستاذ (كويدو كويدي Guido Guidi)[1] الطبيب النطاسي والحكيم العالم والمواطن النبيل الفلورنسي. أنساني الكلام عنه سوء حظي القاسي بمتاعبه المستمرة التي يرميني بها. إلا أن إغفاله ليس مهماً ما دام هو قريب من القلب على طول. على اني أرى قصة حياتي ناقصة من دون التنويه به. وها أنا الآن أبرز شخصه من وسط الأعاصير والزوابع التي عانيتها، ففي أثنائها كان مصدر عون وراحةٍ لي. وإني الآن أقرّ بما أظهره لي من طيبة وكرم.

بعد أن قدم السيد (كويدو) إلى باريس وفي مبدأ تعرفي به دعوته للسكنى في قلعتي ووضعت تحت تصرفه جناحاً كاملاً منها، فإستقرّ فيه وإستمتعنا معاً بصحبةٍ إمتدت عدّة سنوات. وقدم باريس كذلك (أسقف بافيا) المونسنيور (داروسّي) أخو الكونت (سانت سكوندو). فجئت بهذا الحبر الجليل إلى قلعتي وأفردت له جناحاً فاستقرّ فيه مع خدمه وكان جدّ مرتاح من إقامته التي إمتدت بضعة أشهر. كذلك إستضفت السيد (لويجي آلاماني) وأولاده في مناسبة أخرى فأقاموا عندي أشهراً قليلة. إن الله كان برّاً حتى بي فجعل مني أداة لخدمة هؤلاء الرجال العظماء والموهوبين.

لقد آنست كثيراً بصداقة الأستاذ (كويدو) طوال المدة التي قضيتها في باريس.

---

(1) هو حفيد الرسام دونيكو دل جيرلاندايو الفلورنسي. قضى في فرنسا ست سنوات (1542 ـ 1548) طبيباً للبلاط الملكي. ثم عيّن أستاذاً للطب في جامعة بيزا. كتابه في الطب أو بالأحرى في الجراحة الذي تنوه به المذكرات. هو ترجمة لأبقراط وجالينوس. طبع في باريس (1544) وطابع هذا الكتاب هو (بير كوتيه) مستأجر چلليني المطرود كما سيأتي ذكره. [حاشية بيانكي].

وكثيراً ما هنأنا أنفسنا بالحظوة والتقدير اللذين نلناهما من ملك عظيم كلّ في مجال صناعته. ولا يسعني إلا الإقرار بأن الفضل في كلّ ما نلته من شهرة وما أنجزت من جلائل الآثار الفنية إنما يعود إلى هذا الملك المحبوب الرائع. ولكن ينبغي لي أن أواصل ما إنقطع من الحديث عنه وعن العمل العظيم الذي قمت به له.

كان في قلعتي ساحة للعب التنس أحصل على إيراد جيد جداً منها بإيجارها للاعبين. والملعب يحوي عدداً من الغرف الصغيرة يسكنها أناس من مختلف الهويات ومن بينهم طبّاع ماهر جداً كان كلّ مطبعته تقريباً داخل قلعتي وهو الذي طبع للسيد (كويدو) كتابه الأول النفيس في الطب. وبناء على حاجتي إلى الغرف التي يشغلها فقد أخرجته ولكن بعد مشقة عظيمة. وكان ثمّة أيضاً منتج لملح البارود رفض رفضاً قاطعاً أن يتحرك من مكانه عندما أردت إخراجه من غرفته لأسكِن فيها بعضاً من عمالي الألمان الحاذقين. رجوته إخلاء الغرف عدّة مرات بكلّ لطف وأدب قائلاً إني أريدها لإسكان عمالي الذين هم في خدمة الملك.

ان صلف هذا الحيوان ووقاحته كانتا تزيدان بزيادة تأدبي ولطفي. أخيراً أنذرته وحددت له مهلة ثلاثة أيام للإخلاء. فإنفجر هذا ضاحكاً وقال إنه سيبدأ في الإخلاء بعد نهاية ثلاثة أعوام. ولم أكن أعلم أنه من أحد خدم (مدام ديتامب) المقربين، ولو لم يجعلني خلافها معي حذراً متوجساً بعد تلك الحادثة لطردته في الحال. إلا أني قررت أن أصبر عليه هذه الأيام الثلاثة. وبعد أن انتهى هذا الأجل جمعت بعض عمالي الفرنسيين والألمان والإيطاليين. وكلّ سلاحه في يده ـ مع عدد من العمّال غير الماهرين وبدون أن أبادله كلمة واحدة حطمنا محلّه وقذفنا بكلّ مقتناه وأثاثه خارج القلعة. وقد قمت بهذا العمل العنيف بعض الشيء لأنه قال لي: إنه لا يعرف إيطالياً واحداً يجرؤ على قلع مسمار واحد من محلّه. وبعد أن إنتهى كلّ شيء أقبل عليّ، فقلت:

ـ إني أضعف إيطالي في كلّ إيطاليا. ولم أفعل بك إلا أقلّ ما يمكنني عمله ولو نطقت الآن بكلمة واحدة لنالك أكثر.

ثم أضفت إلى ذلك بعض الشتائم والإهانات. فصعق وركبه الخوف وأسرع

يجمع أشياءه بسرعة وانطلق حالاً إلى (مدام ديتامب) ووصف لها ما فعلت بصورة نقشها من جهنم نفسها. فقامت عدوّتي الكبرى هذه بنقل المسألة إلى الملك مستعينة بذلاقة لسانها ونفوذها وصورت عملي بأسوأ ما يمكن.

ابلغت فيما بعد أن الملك حمي غضبه حتى كاد يتخذ قراراً قاسياً بحقي مرتين لولا تدخل إبنه ولي العهد هنري (ملك فرنسا الآن) الذي واجه من هذه السيدة الغطريسة عدة تحديات فدافع عنيّ هو وأخت الملك ملكة النافار دفاعاً حاراً، فإنفثأ غضبه وإنقلب الأمر كلّه إلى مزاح. وهكذا بعون صادقٍ من الله نجوت من هذه العاصفة الكاسحة.

كان ثمّة رجل آخر إضطررت أن ألجأ معه إلى عين العمل. إلا أني لم أحطم أثاثه بل قذفت بها إلى الخارج وعلى إثر هذا بلغت الجرأة بمدام ديتامب حدّاً أن قالت للملك:

- يغلب على ظني أن هذا الشيطان سيخرّب باريس كلّها يوماً!

فأجاب الملك غاضباً: إن الرجل يستخدم حقه الكامل في الدفاع عن نفسه ضد الصعاليك الأوغاد الذين يعرقلون خدمته لي. وأخذ حقد هذه المرأة الشريرة ينمو ساعة بعد ساعة. ثم إستقدمت رساماً كان مقيماً في (فونتنبلو) حيث يقيم الملك عادة، وهو مواطن من أهل بولونيا يعرف بلقب (إل بولونيا Il Bologna) وإسمه الحقيقي (فرانشسكو بريماتيجيو F. Primaticcio)[1] ولقّنته بأن يطلب من الملك تكليفه بنفس العمل الذي عهد به اليّ جلالته بخصوص النافورة. ووعدته بإستخدام كلّ نفوذها لمساعدته على نيل هذا العمل. وهكذا إتفقا معاً على ما يترتب عمله في هذا الشأن. ولم تسع (بولونيا) الدنيا فرحاً، متصوراً أن العمل أصبح له. ومع أنه كان ماهراً في تخطيط التصاميم وقد جمع حوله عدداً من العاملين الذين كانوا عند رسّامنا (روسو) الفلورنسي الفنان العظيم، إلاّ أنه لم يكن صالحاً لمثل هذا العمل. والواقع أن كل حسن جيد في أعماله يعود إلى (روسو) الذي كان يستنسخ منه. و(روسو) الآن في عداد الأموات.

---

(1) إستخدمه فرانسوا الأول. ثم هنري الثاني ثم فرنسوا الثاني. وقد أورد فاساري (ج7) سيرة حياته.

نجحت الدسيسة الماكرة بفضل المنطق الخبيث الذي إستخدمته مدام ديتامب وبذلها أقصى ما في طاقتها من المساعي. وكانا يلاحقان الملك بالموضوع ليلاً ونهاراً مرّة (بولونيا) ومرّة (المدام) والسبب الأساسي لرضوخه قولهما:

- ياصاحب الجلالة كيف يمكن أن يقوم بنفنوتو بعمل إثني عشر تمثالاً من الفضة وهو ما تطلب منه في حين انه لم ينجز حتى الآن واحداً منها؟ فإن أنت إستخدمته لهذا المشروع الضخم فلا شك أنه يترتب عليك أن تستغني عن الأشياء التي تصبو إليها نظراً لأن مائة من الفنانين الكبار قد يعجزون عن إكمال المشاريع العظمى التي إضطلع بها هذا الرجل الداهية. واضح جداً كم هو مشوق للعمل حريص عليه والنتيجة هي إن جلالتك سيفقد الرجل ويفقد إنتاجه معاً.

عُرضت هذه الحجج وأمثالها عندما وجدا الملك في حالة إستعداد فكري لقبولها فوافق على ما طلبا؛ إلا أنه لم يشاهد أي تصميم من عمل (بولونيا).

في الوقت الذي جرى هذا، رفع المستأجر المطرود عليّ دعوى قضائية زاعماً أني عندما طردته إغتصبت مقداراً كبيراً من بضاعته وأشيائه. وسببت لي هذه الدعوى مضايقات لا نهاية لها. وإستنزفت مني وقتاً مديداً حتى ركبني اليأس من الحال وخالجتني فكرة الرحيل عن فرنسا بلا عودة. في هذه البلاد يجني الناس أرباحاً كبيرة للغاية من إقامة الدعاوى ضد أجنبي أو أي شخص يتوسمون فيه الجهل بالأصول القانونية أو قلّة الصبر. فما ان تبدو الدعوى رابحة حتى يحاول صاحبها بيعها إلى آخر. وقد أثر عن بعضهم أنهم كانوا يمهرون بناتهم بيائنات تتألف من دعاوى قضائية لمن احترف التعامل بها وجعلها مورد رزق له ومدار عيش. وثم عادة شائعة قبيحة عند كلّ أهل نورماندي أو معظمهم، وهي تلفيق الشهادات الكاذبة التي مهروا فيها. فقد يتفق أن يستعين مشتري الدعوى بأربعة أو ستة من شهود الزور حسبما تدعو إليه الحاجة. ومن يجهل هذه العادة ولا يجد من ينصحه بتأمين عدد مماثل من شهود الزور لإسقاط شهادات الخصم فسيجد قرار الحكم ضدّه.

كلّ هذا وقع لي وهو من أرذل وأحطّ أساليب الخداع والظلم. بلغت مبنى محكمة باريس الشامخ الباذخ لأدافع عن حقي. فوجدت القاضي وهو بمنصب نائب

الملك في الدعاوى المدنية، يتصدر منصةً عظيمة مرتفعة. وكان رجلاً بديناً ضخماً فارع الطول منفر الوجه إلى درجة كبيرة. وقد جلس إلى يمينه ويساره عدد من المحامين ورجال القانون. فيتوافد إليه المراجعون ليعرض كلّ منهم بدوره قضيته. وسمعت المتداعين إلى جانب منه يتكلمون جميعاً في وقت واحد. فسُمّرت في مكاني مشدوهاً أحملق في هذا الرجل العجيب الذي شبهت وجهه بوجه أفلاطون معجباً بسرعة بديهته وشدّة إنتباهه. إذ كان يرهف اذنه إلى هذا تارةً ويصغي إلى ذاك تارةً أخرى ويجيب عن كلّ سؤال بإجابات بارعة مُسكتة. كنت وما زلت أسرّ كثيراً بمشاهدة أي مظهر من مظاهر الذكاء والعبقرية يعنّ لي. وقد وجدت في هذا القاضي بغيتي من الإعجاز والفتنة، فقررت ألاّ أحرم نفسي من هذا المنظر النادر وأن أبقى متابعاً له إلى الأخير. كانت القاعة غاصّة بالناس. وقد اتخذت الإجراءات للحيلولة دون دخول أيّ شخص لا شأن لديه فيها ولا دعوى. فأغلق الباب ووقف الحاجب عنده يصدّ من يريد الدخول. فكان يشتبك بين حين وآخر مع من يريد الدخول في جدال يزعج القاضي ويقطع عليه سلسلة تفكيره بالضجة الناجمة فتثور ثائرته وينهال على الحاجب تأنيباً وتقريعاً. ووقع هذا عدة مرات فإسترعى إنتباهي وأرهفت أذني لألتقط الكلمات التي كانت تتناثر من بين شفتي القاضي. واتفق أن سيدين همّا بالدخول لمتابعة المرافعة فقاومهما الحاجب بشدّة فصرخ القاضي بصوت كالرعد «سكوتاً، سكوتاً! يا للشيطان! أخرج! أسكت!» وعبارته تبدو بالفرنسية كالآتي «Phe, Satan, Phe Phe ale Phe». وكنت ملماً باللغة، فلما سمعت هذه الكلمات خطر ببالي ما قاله (دانتي)[1] عندما إجتاز أبواب الجحيم برفقة أستاذه (فرجيل)[2]. فقلت لنفسي: إن (دانتي) والرسام (كيوتو)[3] وجدا معاً في فرنسا وفي باريس على الأخص التي تشبه الجحيم فعلاً وفق ما ذكرت. ولما كان دانتي يتقن اللغة الفرنسية فقد ضمّن

---

(1) دانتي أليغري (1265 ـ 1321) بملحمته (الكوميديا الإلهية) يعتبر أبا الشعر الإيطالي. وهي أشهر من أن يُعرّف القارئ بها.

(2) بوبليوس فرجيليوس مارو (70 ق.م ـ 19 ب.م) شاعر روماني ومسرحي صاحب ملحمة الأينياد.

(3) كيوتو دي بوندوني Gioto de Bondone (1266 ـ 1337) رسام وفسيفسائي ومعمار إيطالي معروف. آثاره ترى في بادوا وفلورنسا.

عبارة القاضي قصائده. ومن الغريب ألاّ يفهم البيت على هذا الأساس. لذلك أريد أن أوضح هنا بأن المعلقين والشرّاح قد فسّروا هذه الأبيات بمعانٍ لم تخطر ببال الشاعر مطلقاً[1].

ولأعد إلى شؤوني: عندما صار واضحاً عندي نتيجة الحكم الذي سيصدر عليّ من المحكمة ورجال القانون هذا حالهم ولم أجد سبيلاً للخروج من الورطة. توكّلت على خنجر كبير ماضٍ وأسلمته أمر الدفاع عن حقوقي (كنت أجد لذة عظيمة في إقتناء أفضل السلاح). وكان أول رجل ذاق حدّه هو اليد المحركة لتلك الدعوى الزائفة التي أقيمت ضدي. ففي ليلة من الليالي أصبته بعدة جراح في ذراعيه وساقيه (محتاطاً من عدم إصابته بمقتل) بحيث حرمته من إستخدام ساقيه الإثنتين. ثم إنثنيت إلى صاحب الدعوى الأصلي فأحدثت فيه شقّاً بليغاً بحيث جعله يترك الدعوى.

حمدت الله وشكرته على هذا وعلى كلّ شيء راجياً أن يكون فيه نهاية لمتاعبي لفترة من الزمن على الأقل. وشدّدت على فتياني الذين يشتغلون عندي ولا سيما الإيطاليين بأن يتكبّوا على أعمالهم واستحلفتهم بالله أن يكونوا صادقين في معاونتي على إنجاز الأعمال المنوطة بي بأقرب وقت ممكن. لأني عزمت على العودة إلى إيطاليا بعد أن ضقت ذرعاً بنذالة هؤلاء الإفرنج ومكرهم السيء مقدّراً أيضاً احتمال ثورة غضب مفاجئة من الملك قد تفسد عليّ حياتي، بسبب الأعمال التي قمت بها دفاعاً عن نفسي.

من الإيطاليين الذين ذكرتهم كان (اسكانيو) أحبّهم إلى قلبي، وهو من بلدة تدعى (تالياكوزا) التابعة لمملكة نابولي. والآخر (باكولو) وهو من أهل روما ذو أصل وضيع لا يعرف له أباً. كانا يسكنان عندي في روما وقد جاءا معي وثمّة أيطالي ثالث اسمه

(1) والمقصود هو البيت الآتي: Pohe Satan, Pohe Satan alleppe Convincio Pluto con la voce chioccia (الجحيم 7:1) قال (بلوتوس) عندما وقعت انظاره على كلّ من (فرجيل) و(دانتي) وهما يلجان الدائرة الرابعة. إن شرح چلليني هنا، لا يقلّ غرابة عن شرح غيره من مفسري ملحمة (دانتي) لهذا البيت ومن المحتمل ان (دانتي) قد زار باريس. لكن يشك كثيراً في ان يكون الرسام (كيوتو) قد زارها. وليس هناك اي دليل على أنهما كانا معاً. وعلى أي حال فإن ما سمعه چلليني في المحكمة هو «Paix Paix Satan. Paix Paix Satan Allez Paix» وهو قريب الجرس من بيت (دانتي) وهو مصدر وهم چلليني.

(باكولو) أيضاً وهو ابن لنبيل من روما رقيق الحال من أسرة (ماكاروني). ولم يكن هذا الفتى حسن الإلمام بالفنّ، إلاّ أنه كان مقاتلاً شجاعاً. وكان ثمّ رابع من (فِرارا) يدعى (بارتولومو كيوجيا B. Chiocia) وآخر من فلورنسا يدعى (باكولو ميجيري P. Micceri) له أخ يلقب بـ(إلّ كاتّا Il Catta) ماهرٌ في المحاسبة، لكنه أفلس عندما كان يدير أملاك (توماسّو كواديني Tomasso Guadagni) التاجر الغني جداً. وتولى (كاتّا) هذا تنظيم دفتر حساباتي المتعلقة بأموال الملك المسيحيّ الأعظم وغيره من مختلف الناس. وأشرف عليها فيما بعد أخوه باكولو ميجيري الذي تعلّم منه وكنت أدفع له أجراً سخياً. وبدا لي شخصاً مستقيماً أهلاً للثقة. ولم تفتني ملاحظة شدّة تدينه إذ كنت أشاهده دوماً وهو يتمتم بصلاة ولا تفارق مسبحة الصلاة يده فأثر بي ورعه وتقواه الظاهرين وإعتمدت عليه كلّ الإعتماد. إنتحيت به جانباً وقلت له:

- باكولو ! أي أخي العزيز. انظر إلى عيشتك المرفهة عندي وأنت لا شك مدرك بأنك رقيق الحال لا تملك ما تبدأ به عملاً، فضلاً عن هذا أنت فلورنسيّ. ومما يزيدني إعتماداً عليك هو كثرة صلاتك وعبادتك الأمر الذي يبعث في نفسي الراحة والسرور. ولذلك أرجو أن تكون في عوني لأنني لا أطمئن كثيراً إلى أي واحد من الآخرين. أرجو منك أن تهتمّ خصوصاً بأمرين كلاهما يورثاني غماً وقلقاً كثيراً: أولهما أن تحرس مقتناي ومالي بعين يقظة وتحول دون سرقته، وأن لا تمتدّ يدك إليه. والآخر هو قضية تلك الفتاة اليافعة (كاترينا) التي آويها أساساً للإفادة منها في عملي الفنيّ والتي لا يسعني الإستغناء عنها. وإلى جانب هذا ولأنني رجل فإنني أستخدمها للمتعة الجنسية، وأنا لا أريد تحمّل نفقات أطفال غيري ولن أصبر حتماً على أية إهانة تلحق بي من هذه الجهة والواقع هو أنني سأعلم حتماً بذلك إن دفع الطيش بأحد ممن هم في داري إلى إرتكاب فعلة كهذه. وبإمكاني التأكيد بأنني سأقتلهما معاً. لذلك أرجو منك أيها الأخ العزيز أن تكون لي عوناً. فإن لاحظت أي شيء فأنبئني حالاً. لو حدث شيء من هذا القبيل فسأضع حبل المشنقة في عنقها وعنق أمها مع مرتكب العمل. وعليك أنت قبل كلّ أحد أن تلتزم جانب الحذر.

فرسم النذل شارة الصليب مبتدئاً برأسه ونازلاً حتى قدميه وقال:

ـ تبارك إسم يسوع. معاذ الله أن أفكر بمثل هذا الأمر. أولاً لأني بعيد بطبعي عن هذه الغوايات والرذائل. وثانياً لأني أقدّر تماماً الدّين الذي لك عليّ.

أثرت بي بساطة لهجته ومظهر الإخلاص والتفاني فوثقت تماماً بكل ما قاله.

بعد هذا بيومين حلّ العيد ودعاني (ماتيو دل نازارو Mathio del Nazaro) وهو إيطالي كذلك يستخدمه الملك في عين عملي بجدارة ـ إلى مجلس لهو وشرب مع فتياني في الهواء الطلق. فكّرت بأنني افلحت إلى الآن في إسكات الضجة المتأتية من تلك الدعوى القضائية المزعجة ولذلك تهيأت ودعوت (باكولو) لمرافقتي وإصابة شيء من المتعة. فأجاب الفتى قائلاً:

ـ من أكبر الخطأ ان يُترك المنزل دون رقابة على هذا الشكل، أما فكرت بكميات الذهب والحلي والجواهر الموجودة عندك؟ نحن كما لا نخفاك نعيش في مدينة تعجّ باللصوص وعلينا ان نكون يقظين دوماً منتبهين ليلاً ونهاراً. وسأقوم بحراسة المنزل وأتلو صلاتي خلال ذلك. وبإمكانك ان تطمئن تماماً. فاذهب رفّه عن نفسك واقضِ وقتاً ممتعاً. وسيتاح لي ذلك في مناسبة اخرى عندما نجد مَنْ يتولى الحراسة عني.

وزايلني القلق وإطمأنت نفسي فإنطلقت إلى البساتين ومعي (اسكانيو وباكولو وكيوجيا) وأمضينا هناك الجزء الأكبر من النهار في لهو وأنس. ولما أخذ النهار يدنو من المساء ركبتني الهواجس وبدأت أفكر بكثير من الشك في كلمات ذلك الساقط وكيف وضعها لي في قالب من البساطة والإقناع. ركبت حصاني وعدت إلى القلعة مع إثنين من خدمي وهناك كدت أفاجئ (باكولو) والعاهر (كاترينا) بالجرم المشهود. إذ ما اجتزت عتبة الدار حتى سمعت أمها العجوز الشمطاء تصيح بالفرنسية:

ـ باكولو، كاترينا! السيد هنا.

عندما رأيتهما يدنوان مضطربين مرتعبين، لا يدريان وسط فزعهما ماذا يقولان وإلى أين يتوجهان. إتضح لي تماماً ما كانا يفعلان. فطاش عقلي وعلاني الغضب فجردت سيفي وأنا مصمم على قتلهما معاً. فأطلق (باكولو) ساقيه للريح وخرّت الفتاة راكعة وهي تستغيث بالسماء طالبة الرحمة. وكان أول ما طرأ لي هو أن أحمل على الرجل ولكني لم أمسك به حالاً. وكان هدفي وأنا في سبيل هذا أن أختار خير موقف

وهو أن أقذف بكليهما خارج المنزل. إذ لم يكن بوسعي إضافة عمل آخر إلى أعمال عنفي السابقة قد يتعذر عليّ الخروج منه حياً. ولذلك قلت لـ(باكولو):

ـ أيها النذل الساقط! لو أني رأيتك بأمّ عيني تعمل ما إضطررت إلى الإعتقاد بأنك قمت به لجعلت هذا السيف يخرق أحشاءك عشر مرات. والآن أغرب عن وجهي وإن صليت مرة ثانية الصلاة الربّية فلتكن موجهة للقديس كويّانو[1]!

ثم قذفت بالأم والبنت إلى الشارع مستخدماً قبضتيّ ورجليّ، فإختطتا للإنتقام مني وراجعتا محامياً نورمانياً فأشار عليهما بأن تدعي البنت بأني واقعتها من الطريق غير الطبيعي أي مثل اللواطة. وقال:

ـ عندما يبلّغ الأيطالي بشكواكما فسيخفّ إلى إعطائكما بضع مئات من الدوقيات ضماناً لسكوتكما ولمعرفة العقوبة الرهيبة التي تفرض على مرتكب هذا الفعل في فرنسا.

وهكذا إتفقا وسجّلا شكواهما ضدي وإستُدعيت إلى المحكمة.

بقدر ما كنت أتلهف إلى صفاء الفكر وأحاول إجتناب المتاعب. كانت المزعجات تلاحقني وتعلق بأذيالي فتهاجمني كل يوم بشكل جديد وأسلوب مختلف. أطلت التفكير في أيّ من السبيلين أختار: إمّا أن أترك فرنسا إلى سقرٍ. وإما أن أخوض هذه المعركة بعزم وصدقٍ معتمداً على ما يدّخره الله لي. فقلبت وجوه الرأي في المسألة طويلاً. أخيراً صحّ عزمي على الرحيل. وأن لا أستفزّ سوء حظي كثيراً لئلا ينتهي أمري وتذهب ريحي. وإتخذت كل ما أمكنني من الإستعداد وبدأت أتخلص بسرعة من الممتلكات التي يتعذر حملها وجمعت المقتنيات الخفيفة والصغيرة لنقلها معي ومع خدمي. إلاّ أن سفري صعب عليّ، وأورثني حزناً كبيراً. وجلست في مرسمي الصغير وحدي بعد أن قلت لتلميذيّ اللذين نصحاني بالرحيل ـ بأني أفضل

---

(1) القصة المشار إليها هي الحكاية الثانية لليوم الثاني من مجموعة أقاصيص كتاب (الديكامرون) للكاتب الإيطالي الشهير بوكاتشيو (1331 ـ 1375). وملخص القصة أن بطلها التاجر رينالدو كان معتاداً تلاوة الصلاة الربية والصلاة المريمية لوالدي القديس كويانو يومياً بعد نهوضه من النوم. وقد عزا إستعادته أمواله المنهوبة من قبل اللصوص الثلاثة وقضاءه ليلة غرام مع أرملة جميلة إلى هذه الصلاة. وتشيه چلليني هنا واضح.

أن أعيد النظر في المسألة على إنفراد وإن كنت أجد في رأيهما قدراً كبيراً من الإصابة. لو أمكنني النجاة من السجن وتركت العاصفة تمرّ بمرور الزمن فسأكون في موقف أحسن بكثير لإيضاح عذري للملك وإعلامه بالكتابة إليه كيف أن هذه النكاية الخبيثة كان مبعثها الحقد. وكما قلت آنفاً قررت الرحيل. وحزمت رأيي عليه. ولم أشعر وأنا أهمّ بذلك ـ إلاّ وبيد خفية تمسك كتفي وتديرني إلى الخلف وسمعت صوتاً يقول لي مشجعاً: «بنفنوتو! تصرف بالشكل الذي إعتدته ولا تخشي شيئاً». فعدلت عن رأيي حالاً وقلت لفتياني الإيطاليين:

ـ تسلّحوا بخير سلاح تجدون وهيا معي. إعملوا ما أمركم به ولا تفكروا بأي شخص اخر لأني أنوي التصدي للمسألة وخوض معركتها. فلو رحلت عنكم غداً لتشتت شملكم وذهبت ريحكم. فإعملوا بما أقول وتعالوا معي.

فأجاب الجميع بصوت واحد محرضاً بعضهم بعضاً:

ـ ما دمنا هنا. ودمنا نعيش بفضله فعلينا أن نذهب معه ونساعده على القيام بما يراه، ما دام فينا نَفَسٌ يتردد. لقد توصل إلى حلّ أفضل من حلّنا. إذ ما أن يتركنا ويرحل حتى يقوم أعداؤنا بطردنا. علينا أن نفكر ملياً بالأعمال التي بدأناها هنا وبعظمتها وأهميتها ونحن أعجز الناس عن إنجازها بدقّة وسيقول أعداؤه بأنه رحل لعجزه عن إنجاز المشاريع التي بدأها.

وإلى جانب هذا أبدوا عدداً من الملاحظات الوجيهة تتعلق بالمسألة. وكان أول من استنهض الهمم وبثّ الحماسه في النفوس، الفتى الروماني (ماكاروني) وتطوع عدد من الألمان والفرنسيين لمرافقتنا فكنا عشرة بمجموعنا. فانطلقنا وأنا ثابت الجنان شديد العزم على أن لا أؤخذ حياً.

عندما مثلت أمام قضاة محكمة الجنايات وجدت كاترينا وأمها وما أن دنوت منهما حتى شاهدتهما تضاحكان المحامي وتقدمت بجرأة من القاضي الذي كان يجلس على مقعد مرتفع وراء منصة القضاء منتفخاً بديناً كبير الجرم. لما وقعت أنظاره عليّ هزّ رأسه مهدداً وقال بصوت خفيض:

- مع أن إسمك (بنفنوتو) فأنت في هذه الساعة (مالفنوتو)[1].

سمعت ما قال وصحت مرة أخرى:

- قل لي لماذا استدعيتني، وعجّل به.

فالتفت القاضي إلى (كاترينا) وقال:

- كاترينا! حدثينا بكلّ ما جرى بينك وبين (بنفنوتو).

فأجابت إني كنت أواقعها بالطريقة التي يمارسونها في إيطاليا. فالتفت اليّ القاضي وقال:

- أتسمع ما تقوله (كاترينا) يا بنفنوتو؟

فأجبته بقولي:

- لو واقعتها على الطريقة الإيطالية، فإني أريد أن أرزق بولد ليس إلاّ مثلما تفعلون أنتم.

فأوضح لي القاضي ما تقصده بقوله: إنها تعني غير ذلك أي إنك واقعتها بغير الشكل الذي يأتي به الأطفال. فأجبت: إذن لا بد وأنه يشير إلى طريقة فرنسية لا إيطالية. ما دام هو أعرف بها مني، ثم طلبتُ منها أن تكرر عباراتها ثلاث مرات ففعلت البغي الساقطة ذلك. ثلاث مرات واحدة بعد الأخرى دون حياء. ما إن انتهت حتى صحت بأعلى صوتي:

- سيدي القاضي وأنت نائب أعظم ملك مسيحيّ. إني أطلب منك إحقاق الحقّ. فليس بخافٍ عليّ أن القانون يعاقب مرتكبي هذه الجريمة بالحرق. وهي الآن تعترف بإقدامها على هذه الفعلة فيما أصرّ أنا على أن لا شأن لي بها. وأمها الشمطاء هي الآن شريكة لها وهي لهذه الجناية وغيرها تستحق الحرق أيضاً. وإنى أطالب بإنفاذ حكم العدالة.

بقيت أردد العبارة الأخيرة بصوت جهير مطالباً بحكم الموت على المحرقة لأنها

---

(1) يعني سيء المقدم.

ولها. وقلت للقاضي إني سأذهب إلى الملك حالاً وأخبره بالظلم الذي لحقني من نائبه في محكمة الجنايات إن لم يبعث بها إلى السجن بمحضر مني. وبالصخب الذي أحدثته بدأوا يخفضون أصواتهم، فرفعت صوتي أكثر من الأول وراحت العاهر الصغيرة وأمها تبكيان وصحت بالقاضي:

ـ احرقهما! احرقهما.

بعد ان وجد القاضي الأمور لا تسير وفق الخطة التي رسمها لطّف من لهجته وأخذ يعتذر لضعف النساء وسهولة وقوعهن في الغواية. ومن هذا استخلصت بأني فزت بمعركة عظيمة. وأسرعت والدنيا لا تسعني بالخروج من المحكمة وانا اطلق عبارات التهديد. في الواقع كنت على أتم الإستعداد لأدفع خمسمائة كراون كيلا أقف في هذا الموقف. واجتزت العاصفة وشكرت الله من كلّ قلبي.

إذا ما شاءت الأقدار أو قلْ سوء الطالع كما يحلو لنا أن نسمّيه ـ ان تضطهد إنساناً فإنها لا تفتقر إلى وسائل جديدة لإعتراض سبيله. وقد حسبت أني بتغلبي على هذه المحنة العاصفة، قد سلمت من معاندة القدر لي ولو إلى حين، إلاّ أنه وقبل أن ألتقط أنفاسي وبعد هذا الخطر الماحق، هُددت بإثنين آخرين معاً. ففي خلال ثلاثة أيام واجهت محنتين كانت كل واحدة منهما كفيلة بإيرادي حتفي. وما حصل هو أني قصدت (فونتنبلو) للإتصال بالملك: اذ كان قد كتب لي رسالة يقول فيها إنه إختارني لعمل قوالب كل المسكوكات المتداولة في المملكة وأرفق بالرسالة بعض الرسوم التخطيطية لتهديني إلى ما يرغب فيه، إلا أنه أطلق لي الحرية في التصرف بالشكل الذي يحلو لي. فعلمت عدة نماذج وفقاً للجمال والأناقة اللذين يقضي بها الفن وبحسب ما تفتق عنه خيالي. وبعد أن بلغت (فونتنبلو) إبتدرني (مسيو دي لا فا M.de la Fa) وهو أحد أمناء خزائنه الذين كلفهم بالنظر في حاجاتي قائلاً:

ـ فليكن معلوماً لديك يا بنڤنوتو أن الرسام (بولونيا) قد فاز من الملك بعمل نصب النافورة العملاق: وأنه يسحب منك كل المهام التي أناطها بك ملكنا في السابق الخاصة بهذا المشروع وأن تودع اليه. وقد إعتبرنا هذا السلوك بعيداً عن اللياقة. ويخيل لنا أن هذا الإيطالي ابن بلدك قد أساء معاملتك كثيراً. لأن من حقك

أن تستأثر بالعمل وحدك نظراً لتفوقك بتصاميمك. لم ينجح الرجل في إنتزاع العمل منك إلاّ بتدخل وشفاعة (مدام دي تامب)، وها قد مضت عدة أشهر على تكليفه بالنافورة ولم تبدر إشارة منه تدل على شروعه فيه ولم يقم بأي عملٍ تحضيريٍ.

فقلت وأنا مشدوه:

- كيف إني لم أسمع شيئاً عن هذا؟

فأخبرني إن (بولونيا) قد أبقى المسألة سرّاً وانه لم ينل المهمّة إلا بعد مشقة عظيمة. إذ لم يكن الملك يريد أن يعهد بها اليه، ولكنه نزل عند إلحاح (مدام دي تامب). ولشعوري العميق بالظلم الذي حل بي بإنتزاع العمل الذي لم أنله إلا بعد الكدح والجهد، قررت أن أقوم بعمل حاسم يكون فيه فصل الخطاب. وإنطلقت حالاً إلى منزل (بولونيا) وسيفي في عاتقي. فوجدته يطالع في غرفته. دعاني إلى الدخول ورحّب بي بأسلوبه اللومباردي المعهود. وسألني عن الغرض من حظوته بزيارتي فقلت:

- غرض جيد جداً، ومهم جداً.

فأمر الرجل خادمه بإحضار الشراب وقال:

- فلنشرب معاً قبل أن نبحث في أي موضوع فهي العادة المتبعة في فرنسا.

يا سيد فرانشيسكو. اعلم ان المسألة التي يجب أن نبحثها لا يمكن ان نفتتحها بالشرب وربما أمكننا ذلك فيما بعد.

ثم بدأت أحاججه قائلاً:

- ان من يطلب لنفسه الإحترام من سائر البشر عليه ان يثبت بسلوكه انه مستقيم الخلق وأهل لذلك وبخلاف ذلك فإنه يهدر سمعته ويفقد مكانته. وإني لعلى علم بأنك لا تجهل ما كان من أمر إناطة الملك بي عمل النصب العملاق - وهو كان مطروحاً على بساط البحث طوال ثمانية عشر شهراً ولم تتقدم أنت أو أحد غيرك ليضيف كلمة واحدة إلى ما قيل حوله. لقد أثبت كفاءتي للملك العظيم بما أنجزته من آثار وقد حازت تصاميمي رضاه فأوكل اليّ القيام بهذا العمل الجليل. ولم أسمع خلال هذه الأشهر بأن العمل قد أنيط بك وانك إختلسته مني إلا في هذا اليوم. لقد

نلت التفويض بالعمل بفضل إنجازاتي الرائعة. وإنك إنتزعته بلجوئك إلى الكلام الفارغ.

فكان جواب (بولونيا) هذا قوله:

ـ لكن كلّ إنسان يجري وراء مصلحته يا بنفنوتو وهو يستخدم كلّ الطرق المتيسّرة له. فإذا كانت هذه رغبة الملك فكيف يكون بوسعك معارضتها؟ إنك تضيّع وقتك. بعد أن تمّ كلّ شيء وأصبح العمل في عهدتي. والآن قل لي ما تريده فأنا مصغ.

فقلت هذا: «الا فلتعلم يا فرانشسكو بأن لديّ الكثير مما يمكنني قوله. وبكثير من المنطق المعقول والنقاش سأرغمك على الإقرار بأن أساليبك التي استخدمتها وتحدثت عنها ليست بالتي يمارسها الناس الفضلاء والعقلاء. إلاّ أني سآتي إلى النقطة موضوع البحث بكلمات مقتضبة: فأرهف أذنيك وأصغ جيداً إلى ما أقول فهو خطير.

تحرك الرجل وكأنه يريد الوقوف إذ رأى سحنتي منقلبة ووجهي مكفهرّاً تماماً. فقلت له إن الوقت لم يحن بعد للحركة وأن عليه أن يبقى جالساً ويصغي اليّ. ثم أردفت قائلاً:

ـ تعلم يا فرانشسكو بأن العمل الأول كان قد أنيط بي. وإن الوقت قد فات على أيّ أحد لإثارة المسألة مجدداً وبشكل مقبول. والآن أقول لك إنّي سأكون راضياً لو صنعت نموذجاً وقمت أنا بعمل نموذج جديد غير ذلك الذي عملتُه أولاً. وبدون أي لغط وضجة نحملهما إلى الملك العظيم، فمن كان تصميمه أفضل حقّ له أن يتولى العمل بالنافورة. وإن قدّر لك أن تفوز في المباراة، فسأزيل من ذهني أي أثر للشعور بالضرر الذي ألحقته بي وسأبارك لك في يديك واعتبرهما أجدر من يديّ بهذا المجد والشرف المؤثل. ألا فلنتفق على هذا ولنكن أصدقاء وإلاّ فنحن أعداء بعضنا لبعض. والله الذي هو إلى جانب الحق دائماً وأنا الذي أعرف كيف أثبته، سيكشف لك عن الغلطة التي إرتكبتها.

أجاب فرانشسكو:

ـ العمل في عهدتي. وما دمت قد كُلفت به فليس في نيتي المخاطرة بما أملكه.

قلت:

- أي فرانشسكو. إنك تحيد عن الطريق السليمة؛ الطريقة العادلة والمعقولة وما دمت كذلك فإني سأريك الطريق الأخرى وهي مثل طريقك قبيحة وكريهة، فاصغ لقولي هذا. إن سمعتك تتلفظ بكلمة واحدة بشأن عملي هذا الذي ظفرت به فسأقتلك دون تردد كأني أقتل كلباً. إننا لسنا الآن لا في بولونيا ولا روما ولا فلورنسا - وحياتهم هنا تختلف - إن سمعت بأنك تكلمت مع الملك أو أي شخص آخر حول هذا الموضوع فسأنزع عنك روحك عنك بوسيلة ما أو بأخرى. فلتقرر أياً من السبيلين تسلك: السبيل الصائبة الأولى التي إقترحتها أم السبيل الثانية التي تقدمت بها الآن؟

حار الرجل فيما يقول أو يعمل، وملت إلى أن أنفذ ما صممت عليه في تلك اللحظة لا إرجاءه وترك الوقت يمرّ ويضيع مني. وكان كلّ ما إستطاع فرانشسكو قوله هو:

- إن كان تصرفي قميناً بالرجل المستقيم فلن أخشى شيئاً في هذه الدنيا.

فقلت:

- بالحق نطقت. ولكن لو فعلت العكس فهناك كلّ مبرر لخوفك، لأن القضية خطرة.

ثم إنصرفت فوراً وتوجهت لرؤية الملك ومكثت عنده طويلاً نتبادل الرأي حول مسكوكاته ولم نتوصل إلى إتفاق كامل حولها. وقد أقنعه مجلس شوراه الذي كان مجتمعاً عنده بأن النقود يجب ان تُسك على الطريقة الفرنسية مثلما كانت حتى هذا الوقت. وكان ردّي أن جلالته إستقدمني من إيطاليا لأنجز له عملاً طيباً. فإن شاء جلالته أن أعمل العكس فإن قلبي لايطاوعني عليه. ثم أرجئ البحث في القضية إلى وقت آخر. وقفلت راجعاً إلى باريس دون وقفة.

ما إن ترجلت حتى سعى اليّ أحد أولئك الخدم الذين يبحثون عن الشرّ ليقول لي إن (باكولو ميجيري) قد إستأجر منزلاً للعاهرة (كاترينا) وأمها وإنه دائم التردد إليهما وإنه كان يردد كلما تكلم عنّي قوله ساخراً متهكماً:

- وضع (بنفنوتو) الوزة لحراسة الخسّ ظاناً أني لن آكله: وهو الآن قانع بالتفاخر

في كلّ مكان بما عمله ظاناً بأني أخشاه. ولكن ها هنا سيفي وخنجري في خصري يثبتان له أنهما ماضيا الحدّ أيضاً. وإني فلورنسي مثله ومن أسرة (ميجيري) التي تعلو أسرة (چلليني) شرفاً ومحتداً.

ان الوعد الذي حمل اليّ هذه القصة أدلى بها بشكل جعل الدم يغلي في عروقي وركبتني الحمى (وأنا أستخدم كلمة الحمى بمعناها الحقيقي). إن الثورة العصبية العنيفة كفيلة بإيرادي حتفي إن لم أطّلع على الحافز وأجد الدواء في التنفيس عنها ما تيسّر لي ذلك. أمرت العالم الفراريّ (كيوجيا) الذي يشتغل عندي أن يرافقني وتبعني خادم يقود جوادي ولما بلغت منزل هذا السافل وجدت الباب موارباً، فدخلت عليه وكان مسلحاً بسيفه وخنجره جالساً فوق صندوق وذراعاه تطوقان عنق (كاترينا). وسمعته وأنا داخل يمازح أمها حولي. فإقتحمت الباب وأشهرت سيفي وسددت ذبابته إلى حنجرته من غير أن أدع له وقتاً ليتذكر بأنه يملك سيفاً أيضاً. وصحت به:

- صلّ صلاتك يا أحقر الجبناء فأنت في عداد الموتى.

بقي مسمّراً في مجلسه وصرخ عدّة مرات:

- أمي العزيزة. عونك!

كنت عازماً على قتله مهما كانت النتائج. ولكن نصف غضبي تلاشى عندما سمعت إستغاثته المخنثة. في عين الوقت أمرت (كيوجيا) أن يحول دون خروج البنت وأمّها من الدار. إذ كنت قد قررت عندما قصدته أن ألحق الأذى بالبغيتين الحقيرتين بقدر ما ألحق به من أذي. ولذا أبقيت ذبابة سيفي لاصقة بحنجرته (أنخسه بها نخسات خفيفة بين آن وآخر) وأنا أهدده وأتوعده. ثم عندما وجدته مستكيناً لا يأتي بأقل مجهود مستسلماً لا تبدر منه مقاومة حرت في أمره ولم أدر ما أصنع به. وبدا وكأني سأظل أتهدد وأتوعد إلى ما لا نهاية. ثم خطر لي خاطر فجائي وهو أن أحملهما على الزواج كأهون الشرّين ولكيما أنال ثأري فيما بعد. فقررت ذلك وقلت:

- إخلع هذا الخاتم من إصبعك أيها الجبان الرعديد وتزوجها وبهذا سأصيب إنتقامي بالشكل الذي تستحق.

فأجاب في الحال:

- إعمل ما تريد شرط ألاّ تقتلني.

فأمرته بوضع الخاتم في إصبعها. ونحيت سيفي قليلاً عن عنقه. ففعل ذلك ثم قلت:

- ليس هذا بكاف. أريد إثنين من مسجلي العقود حتى يتم ذلك بعقد صحيح.

ثم أمرت (كيوجيا) أن يذهب لإستدعاء إثنين من مسجلي العقود ثم إستدرت إلى الأم والبنت ووجهت كلامي لهما بالفرنسية:

- لن يلبث أن يأتي مسجلا العقود والشهود. وسأفتك دون تردد بأول واحدة منكما تنطق بكلمة بخصوص ما وقع واتبع الباقين بها. فلا تنسيا ذلك.

وقلت لـ(باكولو) بالإيطالية:

- إن أبديت أيّ إعتراض على ما قررته فكلمة واحدة منك ستؤدي إلى طعنات متتالية تمزق أحشاءك.

فقال:

- كلّ ما أرجوه منك هو أن لا تقتلني وسأفعل ما تريد[1].

وأقبل مسجلا العقود وتم تنظيم عقدٍ دقيق محكم الصيغة وبعدها زايلتني الحمى وإنفثأ غضبي. ودفعت أجر المسجلين ثم عدت إلى داري.

في اليوم التالي جاء (بولونيا) إلى باريس خصيصاً ليبعث اليّ بـ(ماتيو دل نازارو) وسيطاً، فذهبت لزيارته فقابلني بوجه باشّ ورجا منيّ أن أنظر إليه كصديق وأخ عزيز، وقال إنه لن يتفوه بكلمة واحدة حول العمل مرة أخرى. ولإدراكه بأني على حق[2]. لولا ماجبلت عليه من الصراحة في الإقرار بأخطائي وركوب متن الشطط في بعض المواقف. فإن القارئ قد يداخله الشك في صحة أقوالي عند روايتي لتصرفاتي الحسنة وبناء على هذا لا يسعني إلاّ الإقرار بالخطأ الشنيع الذي ارتكبته بحقّ (باكولو

---

(1) في ذلك الزمن كان يشترط لصحة هذه الزيجة المدنية مراسيم دينية مخصوصة لا تتم إلاّ بحضور كاهن إلاّ إذا كان مسجل العقود الذي جاء به چلليني كاهناً كاثوليكياً.

(2) يبدو أن (بريماجيو) فاز بالعمل أخيراً وربما كان ذلك بعد رحيل چلليني.

ميجيري) بإنتقامي هذا. ولو دريت انه على هذا القدر من الجبن وخور النفس لما فكرت قطُّ في إلباسه ثوب العار بهذا الشكل اللاإنساني. فلم يكفني إكراهه على الزواج بهذه العاهرة الوضيعة، بل جعلتها تقف فيما بعد أمامي عارية كنموذج لقاء أجرة يومية قدرها ثلاثون صولدياً كيما أبلغ ذروة إنتقامي. كنت أدفع لها مقدماً حسب طلبها ثم تطلب وجبة غداء جيدة وبعدها أقوم بإفتراشها إنتقاماً وأنا أسخر بها وبزوجها للقرون العديدة التي أركّبها له. والشيء الرابع الذي كنت أسخرها له هو حملها على إتخاذ أوضاع شاقة ساعاتٍ بطولها. وكان هذا يرهقها إلى حدّ الإنزعاج الشديد بقدر ما كان يسرّني. فقد كانت رائعة التكوين وأفادتني فائدة عظيمة في فنّي.

ولما وجدت أني لا أعاملها بالرعاية التي تعودتها مني قبلاً. ثار غضبها وبدأت تتكبّر وتفاخر بالطريقة الفرنسية بزوجها قائلة أنه رجل من حاشية حاكم كابوا Capua) بييرو ستروزي)[1] وإنه إنتظم في خدمته. وكما ذكرت راحت تتحدث عن زوجها وما أن سمعت ذكره حتى كدت أختنق غيظاً. إلاّ أني ضبطت نفسي بجهد كبير. فقد كان يصعب عليّ العثور على نموذج أنسب لعملي منها. وقلت لنفسي «إني أنال نوعين من الإنتقام بهذا الشكل: الأول إنها متزوجة وهذه القرون هي قرون حقيقية وليست مثل قرونها عندما كانت بغياً لي. ولهذا فإني أصيب ثأراً ممتازاً منه وإنتقاماً عظيماً منها بجعلها تتخذ هذه الوقفات والأوضاع المتعبة التي تكسبني سمعة وربحاً فماذا أريد أكثر من هذا؟!» وفيما أنا أقلب الأمور وأزنها بهذا الشكل ضاعفت الحقيرة اهاناتها إلى جانب مفاخرتها بزوجها وأدت أقوالها إلى تفجير كوامن حقدي وأسلمتني إلى حالة من الجنون فأمسكت بها من شعرها وجررتها جرّاً فوق أرضية الغرفة وأنا أوسعها ضرباً وركلاً حتى خارت قواي ولم يكن ثمّة أحد ليخفّ إلى إنقاذها. وبعد أن نالها ما نالها حلفت بأنها لن تأتي بعد الآن. فأدركت لأول مرّة الخطأ الذي وقعت فيه لأني سأفقد بها فرصة عظيمة للشهرة. كما أدركت إلى جانب هذا أنها أصابت مني بما

---

(1) هو ليوني ستروزي كان قائداً عسكرياً مثل أخيه (بييرو) وخدم في قوات فرنسا وقُتل في حرب سيينا (1554). وكابوا بلدة تقع على بعد (35) كيلومتراً شمال نابولي.

غطى جسمها بالرضوض والكدمات، فلو عادت فلن تكون ذات فائدة لي لمدة لا تقل عن أسبوعين.

أرسلت خادمة عجوزاً إسمها (روبرتا) لمعالجتها وتمريضها وإلباسها ثيابها وكانت إمرأة عطوفة رقيقة القلب فجاءت بطعام وشراب لها ودهنت جراحها البالغة بشحم الخنزير وتناولت طعامها معها. وأتينا على ما تبقى من الشحم. ثم إرتدت ثيابها وخرجت وهي تلعن كلّ الأيطاليين والملك الذي يأويهم وقصدت منزلها وهي تبكي وتتمتم طول الطريق، في الواقع كانت هذه المرة الأولى التي وجدت نفسي أرتكب فيها غلطة شنيعة. وراحت خادمتي (روبرتا) تعنفني أيضاً بقولها:

- ما أقساك إذ تعامل هذه الفتاة الجميلة بهذه الفظاظة.

حاولت إختلاق الأعذار لنفسي، فقصصت على (روبرتا) حكاية غدر (كاترينا) وسفالة أمّها وكيف عاملتاني أثناء سكناهما عندي. إلاّ أنها أصرّت على لومي قائلة إن ما تظلمتُ منه لا شيء، إذ هي عادة جرى عليها الفرنسيون. وإنها تعلم عن يقين بأنه ليس في فرنسا زوج واحدٌ إلاّ ومعه زوج قرونه. فقهقهت ضاحكاً لقولها ثم طلبت منها أن تذهب وتعود (كاترينا) لأني أودّ أن يكون في وسعي إستخدامها لإكمال عملي. فعنفتني (روبرتا) بقولها إني لا أعرف شيئاً عن الحياة، إذ ما أن تبدو تباشير الصبح حتى أرى (كاترينا) قادمة بمحض إختيارها. وإن أرسلتُ مستفسراً عن حالها أو ذهبت لزيارتها فسوف تترفع وتتمنع ولن تأتي مطلقاً.

في اليوم التالي وجدت (كاترينا) بالباب وهي تطرقه طرقات عنيفة وكنت بالطابق الأرضي فهرعت وخيّل لي أنه فعل مجنون، أو أحد يسكن في المنزل. ولما فتحته قابلتني المسكينة بضحكة وألقت بنفسها عليّ وطوقت عنقي وراحت تقبّلني وتضمني إليها متسائلة عمّا إذا كنت غاضباً منها؟ فقلت كلا. فقالت: إذن فقدّم لي فطوراً جيداً. فوضعت أمامها طعاماً وشاركتها فيه كدليل على المصالحة. ثم قامت واتخذت الوضع الذي أشرت به وباشرت عملي. وبعد ذلك أخذتها إلى الفراش فراحت تناكدني وتثيرني كما فعلت قبلاً وفي نفس الساعة فضربتها قليلاً وتكرر ذلك عدة أيام على نفس الحالة والوتيرة بتغيير طفيف.

في تلك الأثناء فرغت من تمثالي بصورة مرضيّة وتهيأت لصبّه بالبرونز فواجهت بعض الصعوبات سأتخطاها ولو ان شرحها قد يكون على درجة كبيرة من الفائدة من الناحية الفنية. لأن ذلك سيأخذ مني وقتاً طويلاً. وسأكتفي بالقول ان القالب كان ممتازاً جداً والسبك جرى بدقة ونجاح تام.

وفي أثناء إنشغالي بهذا العمل خصصت ساعات معينة من النهار لأشتغل في (المملحة) وساعات أخرى للعمل في (جوبتر). ولما كان عدد الرجال الذين عهدت إليهم بالعمل في المملحة أكثر من أولئك الذين أرصدتهم للعمل في (جوبتر)، فقد حققت إكمالها إلى اخر تفاصيلها. وكان الملك قد عاد إلى باريس فقصدته ومعي (المملحة) وكنت قد ذكرت أنها بيضوية الشكل إرتفاعها حوالى ثلثي قدم وكلها من الذهب الخالص وقد إشتغلتها بطريقة الحفر. وكانت كما بيّنت تمثل البرّ والبحر يجلسان متقابلين متقاطعي الأرجل ويد البحر ممتدة داخلة في البرّ والبحر يدخل في البرّ وكان منظرهما آية في الجمال. وضعت في يد البحر اليسرى حربة ذات شعب ثلاث وجعلت يده اليمنى مستقرّة على سفينة مرتفعة أكثرت من نقشها وزخرفتها وهي مجوفة ليوضع فيها الملح. وتحته صوّرت جياده البحرية الأربعة وهي تشبه الخيول المعروفة من رأسها حتى صدرها. ومن سيقانها حتى حوافرها الأمامية. أمّا أواسطها وأجزاؤها الخلفية الأخرى فهي تشبه أبدان الأسماك، أمّا ذيولها فقد ألويتها بشكل جذاب للغاية وأجلست البحر فوقها جلسة فيها كبرياء وعظمة تحيط به أنواع الأسماك وحيوانات البحر. ومثّلتُ الماء بأمواج مكفتة بالميناء الزرقاء مقلداً لون الماء بشكل أخّاذ. وأما البرّ فقد مثّلتهُ بإمرأة جميلة للغاية ووضعت في يدها اليمنى (كورنوكوبيا) وكانت عارية كزميلها البحر. ووضعت يدها اليسرى فوق معبد آيوني صغير دقيق الحفر والزخرفة وهو مجوف لوضع الفلفل. وتحت المرأة صورت نخبة من أجمل حيوانات البرّ وطليت بالميناء جانباً من الصخور وتركت الباقي ذهباً مجرداً. وثبتُّ المملحة على قاعدة من الأبنوس الأسود بالحجم المناسب وأحطتها بحاشية رفيعة مزدانة بأربعة تماثيل ذهبية بنصف بروز تمثل الليل والنهار والفجر والغسق. وبأربعة

تماثيل أخرى تمثل الرياح الأربع الرئيسة وطليت بعض الجوانب بالميناء، بدقة لامزيد عليها.[1]

عندما وضعت القطعة أمامه، خرجت من فمه صرخة إعجاب ولم يستطع تحويل نظره عنها. ثم طلب مني أن أعيدها إلى منزلي وسيخبرني في الوقت المناسب ما يقرر بشأنها. ففعلت ما أمرني ودعوت عدداً من أصدقائي الخُلّص لمأدبة عشاء قضيناها في مرح وأنس. ووضعت المملحة في وسط المائدة وكنا بذلك أول من يستعملها. ثم إني وجهت اهتماماً إلى (جوبتر) الفضي والطست الكبير الذي تقدم ذكره وكان العمل فيه شاقاً لكثرة ما حشدت فيه من زخرف ونقوش.

أفلح (بولونيا) الرسام في إقناع الملك بإرساله في بعثة إلى روما مع رسائل توصية ليستنسخ له نماذج جبسية بالحجم الطبيعي لأشهر المنحوتات والتماثيل الفنية الأثرية مثل تمثال كليوباترا، و(لاوكون Laocoon) و(فينس) و(كومّودس Commodos) و(زنكارا) و(أبوللو). وهي في الواقع أجمل وأنفس المنحوتات في روما. وقال (بولونيا) للملك ما أن يشاهد جلالته هذه الآيات المعجزة في عالم الفن حتى يكون قادراً على تكوين رأيه الخاص في فن التصميم والنحت. لأن ما شاهده من آثار الفنانين المعاصرين لا يُداني بالدقة والإبداع تلك التماثيل الأثرية. وزوّده الملك برسائل التوصية بكلّ رغبة فرحل الحيوان[2] على بركة إبليس. كان أعجز من أن ينافسني بتصميم من بنات أفكاره وإحراز قصب السبق عليّ. فعمد إلى هذه الحيلة اللومباردية المعهودة. وهي الإنتقاص من أعمالي بمضاهاتها بالتماثيل الأثرية المستنسخة. ومع أنه أتقن عمله إلاّ أن أنه خاب في إحداث الأثر الذي قصده وإرتدّ عليه، فكانت النتيجة عكس ما أمل. وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه المناسب.

قطعت صلتي بالعاهر (كاترينا). وإختفى زوجها الفتى البائس من باريس. ولما كنت أهمّ بعمل نموذج مجسم لنافورة (فونتنبلو) الذي صببته بالبرونز. وإكمال تمثاليّ

---

(1) تلك واحدة من أشهر آثار چلليني الباقية. وهي الآن في متحف فينا. كانت قد أهديت لأرشيدوق النمسا فردیناند وبقيت في قلعته (إمبراس) في التيرول، واشتراها بعد وفاته الإمبراطور رودولف الثاني.

(2) ساعده في عملية الإستنساخ الفنان ڤينيولا Vignola. وبعض هذه النسخ موجود في متحف اللوفر.

(فكتور) اللذين سيدخلان في أسفل العقادة نصف الدائرية للباب، فقد إتخذت لي نموذجاً اخر وهو فتاة فقيرة في الخامسة عشرة من العمر بديعة الجسم كستنائية الشعر تشبه الحيوان البرّي غير المدجّن بحركاتها السريعة ونظراتها الكسيرة وفمها المطبق الساكت. لذلك أطلقت عليها إسم (سكورزوني)[1] أما إسمها الأصلي فهو (جان). وأنهيت نموذجي لباب (فونتنبلو) مع الفكتورَين بكلّ نجاح بفضل إتخاذي إياها نموذجاً. وكانت عذراء باكراً وحملت مني وولدت طفلة في الساعة الثالثة عشرة من السابع من حزيران (1544) وكنت إذذاك في الرابعة والأربعين. فأطلقت على المولودة إسم (كوستانزا) ورفعها الأستاذ (كويدو كويدي) طبيب الملك وصديقي فوق جرن العماد، فكان أبا عمادها الوحيد إذ جرت العادة في فرنسا أن لا يكون للطفل أكثر من أب عماد واحد ووالدتا عماد. فإتخذت لذلك السيدة (مادلينا) زوج الأستاذ (لويجي آلاماني) النبيل الفلورنسي والشاعر الفحل مع زوج السيد (رودريكو دل بيني) أحد مواطنينا الفلورنسيين ومن تجار باريس الأغنياء، وهي سيدة فرنسية جليلة القدر وهو أول مولود من صلبي على ما أتذكر. وقد أوقفت عليها بائنة بالمقدار الذي إقترحته خالة الطفلة واليها عهدت بتربيتها والعناية بها. وبعد هذا إنقطعت لي أية علاقة بها.

إنكببت على عملي وتقدمت فيه كثيراً، وشارفت على إكمال (جوبتر)، كذلك فرغت من (الطست) وبدأت تقاسيم باب (فونتنبلو) تظهر للعيان. وفي أثناء ذلك عاد الملك إلى باريس.

أوردت تفاصيل ميلاد طفلتي الذي وقع في العام 1544. إلاّ أن الزمن الذي أروي حوادثه الآن كان العام 1543. وقد حشرت موضع الطفلة هنا عمداً، لئلا أقطع شجون حديثي عن الأمور التي تفوقها أهمية. ولن أذكر إبنتي بعد هذا إلا في الموضع المناسب. قلت عاد الملك إلى باريس وخفّ لزيارتي قبل أن يستقرّ به المقام، فوجدني قد قطعت أشواطاً بعيدة في أعمالي. وكان منظرها وهي منتصبة في المصنع مما يبهر العين ويسرّها. وطرت فرحاً للإرتياح الذي بدا في أسارير الملك وغمرتني

---

(1) Scorzone بالإيطالية معناها الأفعى الصغيرة (الصلّ).

السعادة. أنا الذي تحملت كل المشاق للوصول إلى هذه النتيجة. ومن دون تنويه مني تذكر جلالته فجأة أن كردينال (فرارا) لم يولني اهتماماً ولم يدفع لي الراتب المقرر لي أو أي شيء مما وعدني به، فإلتفت جلالته إلى الأميرال مرافقه وصار يتحدث إليه همساً معرّضاً بتصرف الكردينال ازائي. وكيف أهملني ولم يدفع لي شيئاً وأردف يقول انه سيتدارك الأمر بنفسه. بعد قلة شكواي وسكوتي الذي قد ينتهي برحيلي دون كلمة واحدة، مخلفاً كلّ أعمالي ورائي.

عاد جلالته إلى مقره وبعد أن تغذّى، طلب من الكردينال أن يصدر نيابة عنه أمراً إلى مدير الخزانة الملكية بدفع سبعة آلاف كراون ذهبي لي على جناح السرعة، بثلاثة أقساط أو أربعة حسب الظروف وأوصاه بأن لا ينسى هذا وأضاف يقول:

- عهدت إليك بـ(بنڤنوتو) لكنك نسيته.

وأجاب الكردينال أنه سينفذ كل رغبات جلالته بغاية السرور.

إلاّ أن الطبع الخبيث الذي جُبل به جعله ينسى الموضوع وفي تلك الفترة ساء الموقف الحربيّ؛ وزحف الإمبراطور بجيش جرّار نحو باريس. وكان الكردينال مدركاً بأن فرنسا هي في ضائقة مالية. في ذات يوم دار الحديث بينه وبين الملك حولي فقال:

- وجدت يا صاحب الجلالة الأقدس من الأفضل أن لا يُدفع شيء من المال لبنڤنوتو. فنحن من جهةٍ في أمسّ الحاجة إلى النقد، ومن جهة ثانية رأيت أنه مبلغ إن دُفع فقد يؤول إلى خسارة بنڤنوتو فوراً. إذ ما أن يجد نفسه عامر الجيب حتى يعمد إلى إبتياع عقار له في إيطاليا ويميل به الهوى ذات يومٍ فيتركك غير عابئ أو مبالٍ، لذلك هداني التفكير إلى خير ما يمكن أن يقدم عليه جلالتك من تدبير في هذا الشأن. وهو أن تهبه عقاراً داخل حدود مملكتك إن شئت أن تبقيه في خدمتك.

وأيد الملك هذا المنطق لأنه كان معسراً ليس إلاّ. لكنه أدرك وهو ذو العقل الراجح الجدير بمثل هذا الملك العظيم إن غرض الكردينال من هذه النصيحة هو طمعه بالحظوة عنده أكثر من ضرورة الأخذ بنظر الإعتبار حاجة هذه المملكة العظيمة إلى المال.

ومع أنّ الملك بدا وكأنه مقتنع بحجة الكردينال كما أسلفتُ، فقد قرر في سره أن لا يعمل بها، وما حصل فعلاً هو أنه عاد إلى باريس كما ذكرتُ وبادر في اليوم التالي لوصوله إلى زيارتي من تلقاء نفسه دون أن أتصل به.

إستقبلته وأخذته إلى مختلف القاعات وقد حفلت بالعديد من الأشغال المنجزة وهي بهيئة العرض. بدأت أقدم الأشغال الفرعية وعرضت عليه أعمالاً عديدة برونزية تزيد كثيراً عمّا شاهده قبلاً ثم أخذته إلى تمثال جوبتر الفضي وكدت أفرغ منه ـ بكل نقوشه البديعة. فحكم عليه بأنه أروع وأفخم من أن يفيه حقّه حكم أي شخصٍ. وقولته هذه لها علاقة بحادثة مزعجة جداً وقعت له قبل بضع سنوات.

ففي وقتها أي بعد إحتلال الإمبراطور (تونس)[1]، كان قد زار باريس لسبق دعوة من صهره الملك (فرنسوا)، ورغب هذا في أن يقدم له هدية لائقة بإمبراطورٍ عظيم مثله. فأمر بصنع تمثال فضي يمثل (هرقل) بعين الحجم الذي إتخذته أنا لجوبتر. لكنه جاء بإعتراف الملك نفسه على أقبح ما وقعت عليه العين ولم يكتم رأيه فيه عن أرباب الصنعة الباريسيين، الذين إدّعوا بأنهم أساتذة الفن من غير منافس في العالم وأوهموا الملك بأن ما أنجزوه هو أفضل ما يمكن إنجازه بمعدن الفضة وتقاضوا منه لقاء عملهم الخائب ألفين من الدوقيات، لذلك وجد الملك أن ما خرج من يدي عملٌ يكاد لا يُصدق من فرط جماله ودقته وقد أنصفني والحق يقال في الحكم عليه حين قوّم جوبتري هذا بألفي دوقية أيضاً. ثم عقّب قائلاً:

ـ لم أدفع لهم مرتباً. وقد صرفتُ لهذا الرجل حوالى ألف كراون سنوياً. فاذا أدخلنا هذا المبلغ في الحساب. فأظن أن هذا العمل يساوي ألفين من الدوقيات.

ثم صحبته إلى قطعة أخرى صنعتها من الذهب والفضة، وإنتقلت به إلى عدد

---

(1) كان الدافع الذي حمل الإمبراطور (شارل الخامس) على غزو تونس، هو تزايد غارات العمارة البحرية العثمانية بقيادة خيرالدين بن بربروسه (أي خيرالدين ذا اللحية الحمراء) وبمساندة القراصنة الذين اتخذوا من تونس منطلقاً. بغارات على سواحل إيطاليا وجزرها وتهديد أملاك الإمبراطور. وقد بلغت تلك الغارات حداً مكّن العثمانيين من إحتلال جزيرة كابري الشهيرة في العام 1535 وهي على بعد ثلاثة أميال من مدينة نابولي فحسب.

كبير من النماذج لمشاريع جديدة. وإقتدته قبل مغادرته إلى عملاق ضخم ينتصب في مرج القلعة. فزاد عجباً وإلتفت إلى الأميرال المرافق ويدعى «مونسنيور آنيبالّلا Monsignor Aniballa» قائلاً:

ـ الكردينال لم يدفع له شيئاً، وهو بطيء في الظهور وجلب الإنتباه لنفسه لذلك عزمت على تزويده بكل ما يحتاجه. هؤلاء الناس لم يتعودوا المطالبة لإعتقادهم بأن مجهوداتهم هي التي تطالب عنهم وبالكثير. أعطوه أول ديرٍ يخلو من شاغل على أن لا يقلّ إيراده السنويّ عن ألفين من الكراونات. وإن لم يوجد دير له مثل هذا الإيراد فليتقاضَ عين المبلغ من ديرين أو ثلاثة فالنتيجة واحدة بالنسبة إليه.

كنت قريباً وسمعت كلّ شيء. فأسرعت أشكر الملك وكأني تسلمت المنحة فعلاً وأردفتُ: إني سأظل قائماً على خدمته حتى اليوم الذي تكلّ فيه يدي عن العمل ومن دون أجرٍ أو عطاءٍ آخر وبأيّ شكل من الأشكال وإذ ذاك سيكون بمقدوري قضاء بقية عمري في دعة وسلام وعيش مشرّف على الدخل الذي يأتيني من هبته هذه. متذكراً دائماً حظوتي بخدمة ملك عظيم كجلالته.

إبتسم الملك إثر قولي مشجعاً وقال:

ـ هكذا فليكن.

وتركني وهو على أتمّ الرضى عني.

لما بلغ (مدام ديتامب) ما أصبته من حظوة تضاعف حقدها عليّ وقالت:

ـ ها أنا اليوم والدنيا ملك يميني، ودونك رجلاً خامل الشأن يستخفّ بي ويتحداني!

ومضت إلى أبعد حدّ في إصرارها على إيذائي والإضرار بي. وأسعدتها الظروف بخبير في تقطير العطور ركّب لها بعض العطور السائلة الممتازة مما لم يكن معروفاً في فرنسا. وقدمته للملك ليعرض عليه عطوره التي حازت رضاه، وإستغلت حالة الإنشراح فيه وحضّت عطارها هذا على الطلب من جلالته ساحة لعب (التنس) في حديقتي مع بعض الغرف الصغيرة المجاورة للساحة زاعماً أني لا أشغلها. وأدرك الملك ما وراء الأكمة فرفض طلبه، وعندها إنبرت مدام (ديتامب) لإقناعه مستخدمة

تلك الفنون المعهودة التي تمارسها النساء على الرجال وأصابت مبتغاها بسهولة حين وجدت الملك في حالة من حالات الهيام التي كثيراً ما كانت تنتابه. وحققت ما إنتوته.

جاءني هذا الرجل بصحبة كروليبه Grolier أمين الخزانة وهو من كبار النبلاء الفرنسيين وإبتدرني مداعباً ممازحاً حال وصوله مستخدماً اللغة الإيطالية التي كان يجيدها إجادة تامة حتى وجد المناسبة، فقال:

- نيابة عن الملك، إني أضع يد هذا الرجل على ساحة التنس والغرف الملحقة بها.

فأجبته بقولي:

- ملكنا الأقدس هو مصدر كلّ شيء. ولذلك كنت تملك ملء الحرية في دخول الساحة على أن إتخاذ إجراءات عن طريق الكتّاب العدول وموظفي القضاء أمور تبدو وكأنها محاولة نصب وإحتيال أكثر مما تبدو أمراً صادراً من ملك عظيم. لذا فلتكن على يقين بأنّي مصمم على حماية نفسي بالطريقة التي دلّني عليها الملك يوم أمس قبل أن أراجع جلالته. فإن لم تبرز لي أمراً خطياً صادراً من يد الملك فسأقذفُ برجلك هذا الذي جئت به من النافذة.

بعد أن وعى أمين الخزانة قولي نكص على عقبيه عائداً من حيث أتى وهو يهدد ويتوعّد وتركني مثله أحرّق الإرم. ولم يكن قصدي القيام بأيّ عملٍ لإزاحة هذا الدخيل مبدئياً بل قصدتُ مسجّلي العقود الذين أصدروا قرار وضع اليد وصك التمليك وكنت جيد الصلة بهم، فأكدوا لي أنّ الإجراءات قانونية وصحيحة فعلاً وأنّها تمّت بناءً على أوامر صادرة من الملك إلاّ أنّ ذلك ليس مهماً. ولو أنّي تظاهرت ببعض معارضة وأبديتُ مقاومةً لما إستطاع الرجل وضع يده على العقار كما فعل وشاء فهذه إجراءات وأعراف قضائية تتعلق بالمحاكم ولا تتعلق بأي وجه من الوجوه بشأن إطاعة الملك أو عصيانه. فإن أفلحتُ في رفع يد هذا الرجل بعين الطريقة التي إتبعها هو في وضع اليد على العقار فنعم العمل عملي ولن أضارّ قطّ.

كان في هذه الإشارة الكفاية وشرعتُ في اليوم التالي بإستخدام أسلحتي ووجدتُ في ذلك نوعاً من التسلية والملهاة رغم ما إقتضاني من مشقة وجهد. كنت صباح كلّ يومٍ أبدأ بشنّ هجومٍ فجائيّ بالحجارة والرماح والبندقيات فأطلق باروداً خلّباً من غير حشوة رصاصة، وأحدث عملي خوفاً عظيماً بحيث أحجم الجميع عن المبادرة إلى مساعدة الرجل. وإخترت يوماً بعد أن زايلته القدرة على الصمود فإقتحمت عليه المسكن وقذفتُ به إلى الشارع وأتبعته بأثاثه. ثم راجعت الملك وأعلمته بأني قمتُ بتطبيق النصيحة التي أسداها إليّ جلالته في الدفاع عن نفسي، بمواجهة أولئك الذين أرادوا أن يحولوا بيني وبين خدمته فإنفجر الملك ضاحكاً ثم أصدر أمراً جديداً يضمن حمايتي من أيّ تحرش آخر.

وركزت همّتي في إكمال تمثال (جوبتر) الفضيّ الجميل مع قاعدته المذهّبة وكنت قد أقمته على ركيزة خشبية لا يبدو منها إلاّ جزء صغير تستند إلى أربع كرات خشبية صلبة صغيرة يغيب أكثر من نصفها في محاجر كما تغيب البندقة في مرمى القوس الثقيل. وقد جعلتها بشكل يسهل معه على الطفل الصغير دفع التمثال إلى الأمام أو الخلف أو إدارته من غير بذل أقلّ مجهود. بعد أن سوّيتُ كلّ شيء طبق ما رسمت حملتُ جوبتر إلى (فونتنبلو) حيث يقيم الملك.

في حينه كان (بولونيا) قد عاد من روما ومعه التماثيل المستنسخة التي نوهت بها وبلغني أنه تكبد عناءً ولقي مصاعب جمّة في عملية صبها بالبرونز. لم أعلم بذلك في مبدء الأمر لأنه أحاط عمله بسرية تامة. وكذلك لأن (فونتنبلو) كانت تبعد عن باريس بما يزيد عن أربعين ميلاً.

وهكذا بقيتُ أجهلُ الناس بالحكاية. ولما طلبتُ من الملك تخصيص موضع لجوبتري، قالت (مدام ديتامب) وكانت حاضرة، ليس ثمّة موضع أفضل وأنسب له من سرادقه الجميل وهو ما ندعوه في (توسكانيا) باللوجيا Loggia أو بتعبير أدقّ بالرواق. لأن كلمة لوجيا تطلق على القاعة المفتوحة من أحد الجوانب.

كان طول هذه القاعة نحواً من مائة خطوة، حشد فيها كثير من النفائس وكسيت

جدرانها بلوحات من إبداع رسامنا الفلورنسي العبقري روسو Rosso[1] وإجتمع تحت تلك الرسوم عدد كبير من المنحوتات بعضها كاملٌ وبعضها بالنحت البارز. وكان عرض القاعة نحواً من عشرين خطوة.

أقبل (بولونيا) بكل قطعه الأثرية وقد صبت بمعدن البرونز صباً متقناً. وقام بترتيبها ترتيباً أخاذاً بارعاً كلّ قطعة منها تستوي فوق قاعدة. وكما سبق فقلت كانت نسخاً لأروع ما أبدعه الفن منقولاً عن التحف الأصلية في روما. وجوبهتُ بهذا المنظر الرائع الذي تمّ تنسيقه بكل مهارة عندما جئتُ بجوبتري ولم أتمالك من القول لنفسي:

- إنها معركة حقيقية، فعونك يا ربّ.

إخترتُ أفضل موضعٍ ممكن. ورحت أنتظر مقدم الملك.

كنت قد وضعت في يد جوبتر اليمنى «شعاع صاعقة» بشكل يبدو وكأنه يهمّ بقذفها. ووضعت في يده اليسرى كرة. وبين ألسنة النار في الصاعقة دسست فتيلة مشبعة بالشمع بيضاء، وأحكمتُ إخفاءها عن العين.

نجحت (مدام ديتامب) في إلهاء الملك وإشغاله حتى الليل وفي نيتها أن تضمن لي أحد مصيرين: إما أن لا يأتي الملك أبداً. وإما أن يخفي ظلام الليل مزايا عملي الفنية.

لكن لما كان الله يجزي أولئك الذين يضعون فيه رجاءهم خير جزاء، فقد جاءت النتيجة خلاف ما بُيِّت لي. لأني قمتُ عند حلول الظلام بإشعال الفتيلة المختفية في صاعقة جوبتر ولما رفعتها قليلاً فوق رأس التمثال وسقط نورها من الأعلى عليه بدا الجمال في التمثال يفوق ما يبدو وهو في وضح النهار. ثم دخل الملك يرافقه كل من (مدام ديتامب) والدوفان نجله (وهو اليوم ملك فرنسا). والدوفينه، وملك النافار زوج

---

(1) جيوڤاني باتستادي اياكوبو دي روسي Giovanni Batista di Iacopo de Rossi (1494 - 1540) رسام إيطالي من مواليد فلورنسا أناط به فرنسوا الأول زخرفة قصره (شاتو فونتبلو).

شقيقته، ومدام (مركريت) شقيقته، وعدد من السادة العظام الذين أوصتهم (مدام ديتامب) وشددت عليهم الوصية بأن يحاولوا الإنتقاص من عملي.

ما ان لمحت الملك مقبلاً حتى أشرت إلى مساعدي (اسكانيو) بدفع التمثال الجميل إلى أمام نحو الملك فقام بتحريكه بكل رفق ولين. ولما كنتُ قد أحكمتُ عملي فيه ليخرج دقيق الصنعة كامل الشيات من كل ناحية فقد بدا بهذه الحركة الخفيفة وكأنه ينبض بالحياة. وصارت كل التماثيل الأخرى وراءه بسبب الحركة ليكون أول ما تقع عليه أنظار الملك.

وإبتدرني جلالته فوراً:

- إنه لأبدع بكثير مما بدا قبلاً. وإستناداً إلى خبرتي فأنا ما كنتُ أتخيّل شيئاً كهذا أو ما هو قريب منه.

أما أولئك الذين كان يُنتظر منهم إنتقاص عملي. فقد بدا وكأنهم يحارون في العثور على التعابير المناسبة للإشادة به وترجمة إعجابهم. هؤلاء السادة راحوا يكيلون لي المديح جزافاً.

هتفت (مدام ديتامب) بعصبية:

- هل فقدت عينيك؟ أما ترى هذه التماثيل البرونزية النصفية في الخلفية كم هي رائعة؟ إن عبقرية النحت الأصيلة تتجلى فيها وليس في هذه الفجاجة المستحدثة.

تقدم الملك متبوعاً بالآخرين وأرسل بصره متفرساً في القطع الأثرية المنقولة ولم تكن ظاهرة بهيئة جذابة لأن النور كان يأتيها من الأسفل وليس من الأعلى.

قال:

- كل مَن قصد بهذا الرجل سوءاً فقد مَنّ عليه بفضلٍ كبير. فمقارنة عمله بهذه التحف الأثرية الرائعة لاتؤدي كما يبدو واضحاً للرائي إلاّ إلى الحكم بأن ثمرة عمله أجمل وأبدع منها بمراحل. لذلك وجب علينا أن نخصّ (بنفنوتو) بأعلى التقدير. فعمله لا يضاهي تلك فحسب بل يفوقها.

قالت (مدام ديتامب) لن يبدو التمثال بمثل هذا الجمال لو شوهد نهاراً كما يبدو

ليلاً بنسبة الواحد بالألف. وإستطردت تقول. «وفضلاً عن هذا فإنه وضع فوق التمثال حجاباً إخفاءً لعيوب فيه».

في الواقع كان هذا «الحجاب» مجرد غلالة من الخزّ شفافة للغاية وضعتها عليه بأناقة ولطف لمضاعفة مهابته. ما وعيتُ ملاحظتها حتى أمسكتُ بالغلالة وسحبتها من الأسفل كاشفاً عن الأعضاء التناسلية المتقنة الصنع ثم رفعتُ الكساء كلّه بانزعاجٍ واضح.

ظنّت (مدام ديتامب) أنّي ما كشفتُ عن هذه الأجزاء إلاّ تعريضاً بها[1]. وما ان أدرك الملك مبلغ شعوري بالإهانة وكيف أنّي وقد أعماني الغيظ أحاول إنتزاع بعض الكلمات التي عصيت في حلقي هتف هذا الإنسان العظيم الحكمة بلهجة آمرة جازمة:

- بنڤنوتو! حذارِ من أن تنطق بحرف. أسكت واهدأ وستُكافأ بألف ضعف مما ترجو من الغالي والنفيس.

كنت أرتجف حنقاً. وخانني لساني. وإرتجّ عليّ. وكلّ هذا جعلها تجمجم وقد تضاعف غضبها. وإنصرف الملك بسرعة قبل الأوان وهو يزجي إليّ عبارات التشجيع والمؤاساة بصوتٍ مرتفعٍ كقوله: إنه استقدم من إيطاليا أعظم فنان ولدتهُ أمّ.

تركتُ (جوبتر) حيث هو، وفي صباح اليوم التالي وأنا أستعد لمغادرة (فونتنبلو) دفع لي ألف كراون ذهباً تسديداً لما أنفقته من جيبي الخاص زائداً أجري المتفق عليه. وعدتُ إلى باريس راضياً منشرح النفس ولم يستقر بيَ المقام حتى أقمتُ حفلة في داري وبعد العشاء أمَرتُ بإحضار كلّ ثيابي وفيها قطع كثيرة من الحرير والفراء الثمين، ومن أنفس القماش وأدقه حياكة وقمتُ بتوزيعها هدايا لسائر العاملين في مصنعي كلٌ حسب إستحقاقه ولم أستثنِ البنات الخادمات وصبيان الإسطبل تشجيعاً وتحريضاً لهم على التفاني في خدمتي والإخلاص لي. وإندفعتُ بعظيم حماسة في إكمال تمثال (مارس) العملاق بدقةٍ وتفرّغ. وكنتُ قد فصّلته على هيكلٍ خشبيّ يناسبه

---

(1) التعريض هناك بعلاقة المحظية الجنسية واضح مقصود. وقد أصابت مدام دي تامب في تقديرها فعلاً.

تماماً. ثم كسوتُ الهيكل بطبقة من الجص سمكها ثُمنُ (كوبيت) تقومُ مقام اللحم الذي يغطي الهيكل العظميّ. ثم شرعتُ في صبِّه جزءاً جزءاً ليتمّ لحام القطع فيما بعدُ بطريقة التعشيق وكان عملاً سهلاً.

جديرٌ بي هنا أن لا أغفل ذكر حادثة مضحكة تتعلق بهذا التمثال العملاق.

كنتُ قد منعتُ كلّ المشتغلين عندي من جلب عاهراتٍ إلى المنزل أو إلى القلعة مطبّقاً أمري بكل صرامة. إلاّ أنّ (اسكانيو) مساعدي الشاب كان قد علق بهوى فتاةٍ في غاية الحُسن وبادلته هي الحبّ. فهربت من أمها ذات ليلة وأقبلت تفتش عنه وكرهت أن تتركه وحار هو في إيجاد مخبأ لها. وبعد أن أعيته الحيل هداه فكره الوقّاد إلى إخفائها داخل تمثال (مارس) ومكثت فيه ردحاً. وكان (اسكانيو) يخرجها منه في بعض الليالي سراً. واتفق أني ـ ولنزوة طارئة لا تعليل لها ثبّتّ رأس التمثال وهو كاملٌ تقريباً على الهيكل. وسرعان ما بات قبلة أنظار كلّ أهالي باريس. وهؤلاء الذين جاوروني كانوا يعتلون سطح بيوتهم لمشاهدته.

وتقاطر الناس ليتابعوا ظاهرة مخصوصة فيه فقد كانت في المدينة شائعة قديمة مؤداها أن قلعتي مسكونة بالأرواح على أني لم ألحظ ما يؤيد هذا الزعم. والعامة في باريس يطلقون على هذه الأرواح مصطلح ليمونيو بوريو Lemmonio Boreo[1] وحقيقة الأمر أن الفتاة المخبأة لم تكن تقوى على البقاء ساكنة ففي أثناء حركتها كانت تشاهد من خلال فتحتي عين التمثال. فزعم بعض السخفاء أن الروح تقمّصت التمثال وراحت تحرك عينيه وفمه وكأنها تريد الكلام. وارتدّ بعضهم على أعقابه عند رؤية الحركة وولى مذعوراً. والآخرون الأرجح عقلاً واتزاناً لم يسعهم بعد التحققِ إنكار ما رأوا من وميض في العينين يثبت أنهما تنبضان بالحياة فعلاً. وأقروا بحلول روح في التمثال غير مدركين بأنَ مَن حلّ فيه ليس روحاً فقط بل لحماً ممتازاً!

حينذاك تفرغتُ إلى تجميع وتركيب مدخل الباب الجميل بنقوشه التي أتيت إلى وصفها. ولما كنتُ زاهداً في تضمين ما أدوّن من تاريخ حياتي ـ أموراً تهمّ كتّاب

(1) يفسّر ناشرو المخطوطة والمترجمون (لا سيّما الفرنسيون) أنّ الإسم قد يكون تحريفاً لتعبير Le demon bourreau أي إبليس الجلاّد. أو ربّما قصد چللبني به Le moine bourru أي الراهب الفظّ.

التاريخ، فقد أغفلت الحديث عن دنوّ الإمبراطور على رأس جيشه اللّجب من باريس وتعبئة الملك كلّ قواته. على أنّ هذا يتفق والزمن الذي إستشارني جلالته في إقامة تحكيمات عاجلة لباريس. جاء إلى منزلي لهذا الغرض وصحبني في جولة تفقد وتفتيش حول المدينة. وما ان وجدني على إستعداد للمساهمة في تحصين باريس على مبادئ وأسس سليمة وخلال وقت قصير حتى أصدر أمراً إستثنائياً عاجلاً يقضي بتطبيق كل ما أقترحه من تدابير من دون تلكؤ. وأمر أميراله بتنبيه المواطنين كافة إلى إطاعة أوامري وإلاّ أستهدفوا لسخطه.

كان هذا الأميرال قد حصل على منصبه بتدخل ووساطة (مدام ديتامب) فحسب، لا بفضل عمل جليل صدر منه. وكان محدود القابليات والذكاء. وبسبب ما ذكرت ولأن اسمه (دا انّيبول d'Annebault) ويقابل السيد دا اينبالي بلغتنا وإنك تجد الناس ينطقون اسمه بلهجتهم الخاصة كما لو كان Ane - Bouf[1] بمختصر القول إن هذا المأفون نقل إلى (مدام ديتامب) كل ما وقع لي. فأمرتُهُ بإستقدام (جيروليمو بيللارماتو Girolimo Bellarmato) على الفور من (دييب) وهو مهندس من أهالي (سيينا) ودييب تقع بمسافة تزيد عن رحلة يوم واحد من باريس. فجاء فوراً وشرع في تطبيق خطة تحكيم في غاية التعقيد. فانسحبت من العمل كلية ولو واصل الإمبراطور زحفه لأمكنه إحتلال باريس بكل سهولة.

وقيل إنّ معاهدة صلح عقدت فيما بعد[2] كشفت عن عمل خياني لـ(مدام ديتامب) كان لها فيه اليد الطّولى ولن أطيل في هذا فهو ليس من شأني.

إنصرفتُ بكليتي إلى إنجاز المدخل البرونزي ووضع اللمسات الأخيرة على المزهرية الكبيرة، ومزهريتين متوسطتين كنت قد صببتهما من فضّتي الخاصة. وعاد الملك إلى باريس ليصيب بعض الراحة فترة بعد معاناته الكثير من المتاعب. لا بدّ ما

---

(1) لن يخفى عنصر الفكاهة على القارئ حين يعلم أن معنى Ane بالفرنسية (حمار) ومعني boeuf (ثور)!

(2) كان ذلك في 1544 إذ تمّ بين الملكين عقد معاهدة گريبي Grepy وبموجبها تنازل فرنسوا الأول عن مقاطعتي سافوي وبيدمونت وتخلى عن إدعائه بكلّ من نابولي وآرتوا والفلاندرز، مقابل حصوله على إقليم بورگُندي.

جاءت هذه المرأة اللعينة إلى هذه الدنيا إلاّ للتخريب والتدمير. وما من شكّ في أنها كانت تصتفني بين ذوي الشأن والخَطَر لتجد بي عدواً رئيساً، فقد ملأت أذنَي الملك بالخبيث السيء عنّي حتى حلف لها الملك الطيب إرضاءً لها بأنه لن يعاملني إلاّ معاملته مخلوقاً لا قيمة له وأنه لن يأبه بي وسيتجاهلني وكأنه لا يعرفني.

نقل لي هذا رأساً حاجب اسمه ڤيللا Villa مختص بكردينال (فِرارا) وقال إنّه سمع بنفسه هذه العبارات من فم الملك. فهاجت نفسي ورحت أقذف بأدواتي وما بيدي من أعمال في أرجاء الغرفة وتهيّأتُ لمغادرة باريس.

بعد أن أكملتُ إستعدادي للرحيل إنطلقتُ لمواجهة الملك.

دخلت على جلالته وكان قد فرغ لتوّه من الغداء ووجدته وحده خلا مرافقٍ واحدٍ أو إثنين. حييته بالتوقير والإحترام الحَرِيّيْن بالملوك. وما وقعت أنظاره عليّ حتى إرتسمت على وجهه إبتسامة ومالَ برأسه نحوي. فإطمأنّت نفسي وأفرخ رَوعي، فدنوتُ من جلالته رويداً رويداً. كان مرافقاهُ يعرضان عليه بعض الأشياء التي تخص صناعتي وبعد أن دار الحديث حولها برهةً سألني أيوجد في منزلي شيءٌ قمينٌ بالرؤية يمتازُ بالجمال. فأجبتُ إن شاء فأنا مستعد لعرض شيءٍ عليه الآن. فسألني متى يسعه أن يأتي قلتُ الآن، فأمرني بالعودة إلى منزلي على التوّ وإنتظار مقدمه.

عدتُ، وبقيتُ في إنتظار الملك الكريم الذي قصد (مدام ديتامب) يستأذنها في الخروج فسألته عن وجهته وأبدت رغبتها في مرافقته، ولما أخبرها بوجهته قالت إنها عدلتْ عن ذلك ورجتْ منه تأجيل ذلك والبقاء إكراماً لها. ولجأت إلى عدة محاولات أخرى في هذا المجال والخلاصة أنه لم يأت منزلي في ذلك اليوم.

في يوم الغد وعين الساعة إنطلقت أنا إليه. ما وقعت أنظاره عليّ حتى إبتدرني بالقول إنه يعتزم التوجّه إلى منزلي الآن. وكالعادة ذهب يستأذن (مدام ديتامب) وحين أدركتْ عجزها بكلّ ما تملك من دالة وتأثير عليه ـ راح لسانها السليط يسلقني مفترياً متهِماً كأني أعدى أعداء العرش. وكان جواب الملك الطيّب على هذا قوله إنّه ما قصد الزيارة إلاّ ليشبعني تقريعاً وتأنيباً بلا حدّ ووعدها بكلمة شرف بأنه سيفعل ذلك حتماً. ثم قفل إلى منزلي مباشرة.

تقدمتُه إلى بعض الغرف في الطابق الأرضي، حيث كنتُ قد فرغتُ من تركيب أجزاء المدخل الكبير برمّتها. وما ان سلّط أنظاره عليّ حتى انعقل لسانه دهشة ولم يجد سبيلاً إلى توجيه عبارة لوم أو تأنيب واحدة كما تعهّد. إلاّ أنه لم يضع مع هذا فرصته في توجيه اللوم إذ شرع بالقول:

- أي بنفنوتو! هناك أمر هامّ واحدٌ يجب عليكم أنتم أيها الفنانون الموهوبون أن تدركوه. وهو أنكم لا تتمكنون من إظهار مواهبكم دون تشجيع ومساعدة. إن عظمة فنكم لا تتجلى إلاّ بالفرص التي نتيحها لكم. وأنت بالذات عليك أن تكون أكثر إطاعة وأقل معاندة ومكابرة. أذكر مما أذكر أني أصدرتُ لك أمراً صريحاً بصنع إثني عشر تمثالاً فضياً. هذا ما كنتُ أريد منك، غير أنك أبيْتَ إلاّ أن تصنع لي «مملحة» وزهريات وتماثيل نصفية وأبواباً وحاجاتٍ أخرى كثيرة. حتى أنك أسلمتني إلى حيرة عظيمة متفكراً كيف تجاهلت رغباتي ورحت ترضي نفسك سادراً على هواك. إن ظننت بأني قادر على الإستمرار في مجاراتك، فأنت واهم وسأريك الطريق التي سأسلكها عندما أريد أن تنجز الأمور وفق رغبتي. ولذلك فإني أنذرك بوجوب الحرص على إطاعة أوامري. وإن بقيت مصراً على ركوب رأسك منفذاً ما شاءت أهواؤك، فإن حالك ستكون حالة من يضرب رأسه في جدار.

كان مرافقوه من النبلاء يصغون بكل إنتباه وأنظارهم شاخصة إليه وهو يلوح برأسه عابساً مقطباً محركاً هذه اليد تارة وتلك تارة أخرى والكل يرتجف فزعاً بإرتقاب ما سيحلّ بي. إلاّ أني كنتُ قد صمّمتُ أن لا أدع للخوف سبيلاً إليّ بأية صورة.

ما ان إنتهى من التوبيخ الذي وعد به (مدام ديتامب) حتى ركعتُ على ركبة واحدة وبعد أن لثمتُ طرف معطفه من فوق ركبته قلت:

- أيها الملك الكلي القداسة أنا أقرّ بصواب كلّ ما قلت. وكلّ ما أملك من جواب هو أني كنتُ قد ألزمتُ نفسي بطاعة وخدمة جلالتك من كلّ قلبي وبهمةٍ لا تكلّ ليلاً أو نهاراً. وإن بدا لك ما يناقض قولي فعلى جلالتك أن لا تنحو باللائمة على شخص (بنفنوتو)، بل على حظه العاثر وسوء طالعه الذي يحاول أن يجعلني غير جدير

بخدمة أعظم أمير في العالم. ولذلك فإنّي أستميحك العفو والمغفرة وليس لي إلاّ أن أضيف هذا: كنتُ أتصور أن جلالتك قد زوّدني بكمية من الفضة لا تكفي لغير التمثال الذي أنجزته. وقمت بصنع الاناء من الفضة القليلة المتخلفة قاصداً إطلاع جلالتك على الفن الجميل الذي إستطرفه الأقدمون، وفي ظني أنك لم تتطلع عليه من قبل. وأما عن المملحة فأعتقد إن لم تخنّي الذاكرة ـ أن جلالتك طلبت منّي ذات يوم أن أقوم بصنعها لك برغبة منك بعد أن بحثت مسألة مملحة أخرى عرضت عليك، وعندها عرضتُ عليك النموذج الذي كنتُ قد عملته في إيطاليا فأقدمت بكل حرية وإختيار على دفع ألف دوقية ذهبية لي فوراً وأطلقت يدي في عملها. وقد أعربتَ أنت نفسك عن إمتنانك العظيم للفكرة بل شكرتني بما لا مزيد عليه عند فراغي منها كما يغلب على ظني. وأما عن (عقادة) الباب فالإنطباع المتكوّن عندي حوله هو أن جلالتك أصدرت أمراً به لكبير أمناء السر مسيو دي فيللروا مرة عندما كنا نبحث في أمره. فقام هذا بدوره بإصدار الأوامر لكل من مسيو دي مارمانيا M. di Marmagna وموسيو ديللا فا M. della Fā لضمان إستمراري في العمل به ولمنحي علاوة من أجل ذلك، ولولاها ما كان بوسعي مواصلة العمل بهذا المشروع الكبير. وأما بخصوص التماثيل النصفية البرونزية والقاعدة التي يستقر عليها تمثال جوبتر وغيرها، فلا نكران في أنّي قمتُ بصب التماثيل النصفية من تلقاء نفسي والسبب في هذا هو أنّي أجنبيّ لم أمارس العمل من قبلُ بالصلصال الفرنسيّ، ولذا كان صبّ التماثيل النصفية بالبرونز مجرّد عملية تجريبية فما كان بوسعي أبداً صبّ التماثيل الكبرى إلاّ بعد إجراء هذا الإختبار. وأما عن القاعدة فقد صنعتها لأنها تناسب التماثيل أتمّ مناسبة. ومن هذا يجد جلالتك أنّ كلّ ما قدمت عليه كان يحدوه أسمى النيّات ولم يكن قصدي مطلقاً معارضة جلالتك. ولا أكتم أنّ نفقات هذا التمثال العملاق حتى هذه اللحظة كانت من جيبي الخاص. وقد فكرتُ أن ملكاً عظيم الشأن مثلك إستخدم فناناً ممتازاً مثلي ـ جدير بأن يخلّده ويمجّده عمل تمثالٍ لا نظير له عند الأقدمين، فضلاً عن السمعة التي سيكسبها الفنان الصانع. لكني أرى أنّ الله لا يريد أن ينيلني شرف الجدارة بخدمتك لذا أرجو جلالتك عوضاً عن المكافأة الكريمة التي كنتَ قد اعتزمتها لعملي ـ أن يسمح فيضُ كرمك بإخلاء سبيلي، فإن تفضلت بالإذن

لي بالسفر، فسأعود إلى إيطاليا وأنا ألهجُ دائماً بحمد جلالتك داعياً إلى الله لك وشاكراً تلك الساعات الهنيئة التي قضيتها في خدمة جلالتك.

أمسكَ بي وأنهضني بكلّ لطف فإستويتُ قائماً. وقال: عليك أن تقنع بالبقاء في خدمتي. وإنّ كلّ ما صنعته هو حسن وأنا به جدّ مسرور. ثم إستدار نحو جمع النبلاء الذين يحيطون به ونطق بهذه الكلمات وأنا أنقلها بالحرف الواحد:

- إني أقول جازماً لو صنع مدخل لباب الجنة لما خرج أبدع من هذا.

بعد هذا المديح السامي - بقيتُ ساكتاً برهة. ثم واصلتُ بكل إحترام فشكرته مرة أخرى مكرراً رجائي بالسماح لي بمغادرة البلاد لفرط ما كنتُ أشعر به من حنق. لم يتبيّن هذا الملك الجليل أنّ لم أتلقّ عطفه الكريم الذي طبع عليه بالشكل الجدير به صاح بي بصوتٍ مخيف راعد آمراً، ينهاني عن التفوّه بكلمة أخرى وإلاّ لحقني ضرر عظيم، ثم أردف قائلاً إنه سيغرقني بالذهب، وإنه راضٍ أتمّ الرضى عن أشغالي التي أنجزتها بمبادرة منّي، فضلاً عن تلك التي أنجزتها بأمرٍ منه وانه لن يحصل بعد هذا خلاف بيننا لأنه فهم نفسيّتي. وعليّ أنا من ناحيتي أن أحاول فهمه بالشكل الذي يرشدني إليه واجبي.

أجبته: إنّي أقدم الشكر لله ولجلالته على كلّ شيء. ثم رجوته أن يتكرّم عليّ برؤية التمثال العملاق بعد المراحل التي قطعتها فيه. فرافقني إليه وأمرت بإزاحة الأغطية عنه. فكان إعجابه به يجلّ عن الوصف وأمر أمين سرّه تواً بأن يدفع لي دون تلكؤ كلّ ما أنفقت عليه من مالي الخاص بالغ ما بلغ وبحسب القائمة التي أكتبها. ثم غادرني مودّعاً بقوله: «في أمان الله يا صديقي».

عبارة ندر أن تخرج من فم ملك.

بعد عودته إلى القصر، أخذ يستعيد في ذهنه أقوالي كلّها وكيف أنّي بدأتها متواضعاً فيها متصاغراً إلى أقصى الحدود وكيف انتقلت بها إلى نبرة فيها من التعالي والغطرسة ما لامزيد عليهما، فإنزعج كثيراً. وحصل أنه رددها مغيظاً بمحضر من (مدام ديتامب) والسيد دي سان بولو M. di San Polo وهو من كبار نبلاء الفرنسيين، وهو الذي كان فيما مضى قد تعدى كل الحدود في إظهار صداقته لي. لكنه في هذه

المناسبة بدا أخلص الأوفياء لي على الطريقة الفرنسية. وما جرى آنذاك هو أن الملك بعد نقاشٍ طويل راح يشكو من موقف كردينال (فرارا) بقوله إنّه عهد إليه بأموري فأهملها ولم يهتمّ قلامة ظفر بتصريفها وأضاف قائلاً إن الفضل في بقائي بمملكته لا يدين إلى الكردينال. وإنه سيعهد بأمري إلى شخص آخر أحسن تقديراً لي من الكردينال، لأنه لا يريد أن يزوّدني بذريعة لتركي خدمته.

وهنا عرض (مسيو دي سان بولو) خدماته فوراً وطلب من الملك أن ينيط به مسؤولية تصريف شؤوني قائلاً إنه سيتخذ كلّ حيطة لتلافي الأسباب التي قد تدفعني إلى الرحيل. فردّ الملك قائلاً: لا مانع لديه من ذلك شريطة أن يعلمه (مسيو دي سان بولو) بالوسائل التي سيتخذها ضماناً لبقائي وكانت (مدام ديتامب) تتابع الحديث مقطبةً مغيظة. فتوقف (مسيو دي سان بولو) وأمسك عن مصارحة الملك بالتدابير التي سيتخذها لإبقائي. فأعاد الملك السؤال عليه. فأجاب وقصده إرضاء (مدام ديتامب) وإدخال السرور إلى نفسها:

ـ هذا الـ(بنفنوتو) الذي ذكرته سأعلّقه من رقبته وبهذه الصورة لن تفقده.

وعندها قهقهت (مدام ديتامب) وقالت: «هذا ما يستحقه». وضحك الملك مجاراةً لها. ثم عقب قائلاً إنه ليرغب جداً في أن يقدم (مسيو دي سان بولو) على شنقي شريطة أن يجد له أولاً شخصاً من عياري ووزني بديلاً وهو عندها حرٌّ يفعل بي ما يشاء وإن لم أكن أستحق هذه النهاية.

وانقضى اليوم بهذه الصورة وبقيت قيد الحياة وحمداً لله وشكراً!!

في تلك الأثناء كان الملك قد أنهى الحرب مع الإمبراطور بعقد صلح. لكن حربه مع الإنكليز تواصلت. هؤلاء الشياطين الذين إستمروا يخلقون المتاعب والمشاكل وكان على جلالته يركّز اهتمامه في أمور أخرى لا تمتّ إلى اللهو وأسباب التسلية بسببٍ، وأناب (بييرو ستروزي)[1] قيادة حملة بحرية في المياه الإنكليزية. كانت مهمة

---

(1) هو من أسرة ستروزي Strozzi الشهيرة التي ناصبت آل مديتشي العداء. ففي العام 1537 أفلح الدوق (كوزيمودي مديتشي) في إلحاق الهزيمة بجيش الجمهوريين الذي كان بقيادة آل ستروزي وآل سالفياتي، وظفر بالقائدين فاحتزّ رأس سالفياتي وأبقى (فيليو ستروزي) والد بييرو في السجن، وأشيع أنّه اغتيل فيه وقيل إنه قتل نفسه. إلاّ أنّ بييرو تمكن من الفرار ولجأ إلى ملك فرنسا.

خطيرة عسيرة حتى بالنسبة إلى هذا العسكريّ المحنّك الذي بدا وحيد عصره في صناعة الحرب قدر ما كان الأوحد المتفرد بسوء الحظ[1].

ومرّت بضعة أشهر دون أن يصلني أيّ مبلغ أو أكلّف بعملٍ ما. فسرّحتُ كلّ صنّاعي بإستثناء الإيطاليّين الإثنين اللذين أنطت بهما العمل بإناءين كبيرين من فضتي الخاصة. إذ لم يسبق لهما الإشتغال بالبرونز. وعلى إثر فروغهما منهما حملتهما إلى مدينة إسمها (ارجنتان)[2] من أملاك ملكة النافار على مسيرة أيام قليلة من باريس. ووجدت الملك يشكو وعكة. وأنهى كردينال (فرارا) إليه نبأ مقدمي فلم يعلّق بشيء، الأمر الذي أمضّني وأورثني ضيقاً لازمني بضعة أيام، فأعصابي في الواقع لم تكن تتحمل حالات كهذه على أنّي نجحتُ بعدها في تقديم نفسي للملك وعرض الإناءين الأنيقين عليه، فسُرّ بهما أعظم السرور. ولما وجدته طيب المزاج رجوته أن يسمح لي متلطفاً بسفرة إلى إيطاليا وقلت إني مستعد للنزول عن مرتبات الأشهر السبعة الفائتة المستحقة ولا مانع من تسديدها لي فيما بعد إن شاء جلالته في حالة ما لو إحتجتُ إليها للعودة.

توسلت إليه ليتكرّم عليّ بهذه المنة. متعللاً بأن الظروف هي ظروف حرب وقتال لا ظروف إقامة أنصاب وتماثيل. وأضفتُ قائلاً إنه أسبغ على رسامه (بولونيا) مثل هذا الفضل ورجائي أن يتفضّل عليّ بمثله.

كان الملك أثناء ذلك يتفحّص الإناءين بدقة، مرسلاً اليّ بين آنٍ وآخر نظرات شزراء مخيفة. إلاّ أنّي مضيت في سؤالي ملحاً كلّ ما وسعني الإلحاح. وعلى حين غرة حمي غضبه فنهض وترك كرسيّه وقال:

- بنفنوتو! إنك لأحمق كبير. خذ هذين الإناءين إلى باريس. وعُد بهما إليّ وهما مطليان بالذهب.

---

(1) يشير جلليني هنا إلى معاكسة الحظ لـ: بييرو دائماً. فمثلما أخفق في تحقيق أي نصر على الإنكليز هنا، مُني كذلك بهزيمة أخرى في العام 1555 بالقرب من مارشيانو (سينا) أمام (كوزيمو) أيضاً وكان أيضاً على رأس جيش فرنسي.

(2) تقع هذه المدينة على مسافة 140 كيلومتراً غرب باريس.

وخرج دون أن يزيد.

دنوت من كردينال (فِرارا) الذي كان حاضراً. وصرت أرجو منه بأن يحاول التوسط لي عند الملك لتحقيق طلبي الإذن بالسفر فهو صاحب الفضل عليّ. وهو الذي منّ عليّ بالكثير وحقق إطلاق سراحي من السجن في روما إلى جانب أياديه الأخرى. ليمكنني من العودة إلى إيطاليا. أجاب الكردينال، إنه لتسرّه المحاولة وسيبذل قصاراه وبوسعي الإتكال عليه تمام الإتكال، لا بل إنّ بوسعي الرحيل الآن إنْ شئتُ دون وجل، إذ إنّه سيقف موقف المدافع الحريص على سمعتي أمام الملك.

قلت إنّي على معرفة بأن الملك قد عهد بي إليه. فإن أجازني هو فسأرحل وأنا مطمئن خالي البال، مستعداً للعودة لدى أقلّ إشارة منه. إلاّ أنّ الكردينال نصحني بالعودة إلى باريس والإنتظار أسبوعاً ريثما يسترضي الملك ويقنعه بإعطائي الإجازة. وأنّه سيخبرني دون تأخير ومن غير تردد اذا ما امتنع الملك عن منحي إياها. وإن لم يكتب لي بهذا فبوسعي الرحيل مطمئناً.

عدتُ إلى باريس بناءً على وصية الكردينال وصنعتُ خلال الفترة ثلاث علبٍ بديعة للأواني الفضية الثلاث. وبعد مضيّ عشرين يوماً بدأتُ إستعدادي للسفر وحزمتُ الأواني وحمّلتها ظهر بغلٍ إستقرضته من أسقف (بافيا) الذي كان يسكن في قلعتي. حتى مدينة (ليون).

هكذا تركتُ باريس كما شاء لي سوء حظي.

من رفاق السفر السيد (إيبوليتو كنزاكا Ippolito Gonzaga) وهو من خدام الملك ومن خاصة الكونت (كاليوتو ديللا ميراندولا Glaleoto della Mirandola) ونبلاء آخرون من بيت الكونت. ورافقنا أيضاً مواطننا الفلورنسي (ليوناردو تيدالدي Lionardo Tedaldi) تركتُ القلعة بعهدة (اسكانيو) و(باكولو) واستأمنتهما على كلّ مقتناي ومنه تلك الآنية الصغيرة التي بدأتُ بعملها، تركتها للشابين كيلا يبقيان عاطلين. ومما خلّفتُ مقدارٌ كبيرٌ من الأثاث البيتيّ الثمين فقد كان مستوى عيشي عالياً. وربما بلغ ثمن ما تركته ألفاً وخمسمائة دوقية أو أكثر.

ذكّرتُ (اسكانيو) بالجميل الذي صنعته له، ونبّهته بأن لا ينسى ما غمرته من

أفضال أو نعم. قلت له إنه كان حتى هذه الساعة نزقاً طائشاً خليع العذار، لكن عليه الآن أن يتحلى بأخلاق الرجال، من جدية ووقار ورزانة. وها أنذا أودع إليه كلّ ما لديّ، فضلاً عن شرفي وسمعتي. وأوصيته بأن يتصل بي حالاً اذا أصابه هؤلاء الفرنسيون الغلاظ بأذى لأعود على جناح الطير. فقد عاهدت نفسي على الإلتزام بكلمتي للملك الجليل إلتزاماً تاماً. فضلاً عن حرصي على شرفي.

وأجاب (اسكانيو) وقد إغرورقت عيناه بدموع الكذب والنفاق:

- إني ما عرفتُ أباً خيراً منك وسيكون موقفي معك موقف الإبن الصالح إزاء الأب الصالح.

وبعد أن رتبت أموري بهذه الصورة إنطلقتُ في سبيلي برفقة خادمٍ واحدٍ وصبيّ فرنسيّ.

بعد ظهر ذلك اليوم قصد قلعتي بعض أبناء الخزانة الملكية الذين لا يحفظون لي وداً، هؤلاء الأنذال الأوشاب طفقوا يكيلون لي التهم زاعمين أني غصبتُ فضة الملك وهربتُ بها وحثّوا السيد (كويدو) وأسقف بافيا على إرسال حملة تعقيب ورائي لإستعادة أموال الملك وإن أحجما فسيقومون هم بذلك. وسألقى ما أكره بسبب ذلك. فملك الرجلين الخوف الشديد وعجّلا بإيفاد ذلك الخائن (اسكانيو) بالبريد السريع في أعقابي فأدركني والليل يكاد ينتصف وكنتُ ساهراً مستيقظاً لم يغمض لي جفنٌ من فرط القلق أحدّث النفس بقولي:

أنظر إلى من تركتُ مقتنايَ وقلعتي، أواه! كيف يلازمني سوء الحظ ليرغمني على هذه الرحلة؟ أرجو من الله أن لا يكون الكردينال حليفاً لـ(مدام ديتامب) فما تريده هذه المرأة هو أن أفقد حظوظي عند الملك الطيب.

وفيما أنا أضرب أخماساً بأسداس وأحرق الارم غيظاً سمعتُ (اسكانيو) يناديني فهببتُ من رقدتي فوراً وإبتدرته بالسؤال أخَيْراً يحمل لي أم شراً فأجاب اللص قائلاً:

- أنباءٌ طيبة. كلّ ما عليك أن تفعل هو إعادة الآنية. لأن أمينَيْ الخزانة الوغدين قد أثارا ضجة. والسيدان كويدو وأسقف بافيا يقولان لا سبيل غير إعادتها بأية صورة،

ومن ثم لا يعود ما يوجب القلق وفي إمكانك إستئناف سفرتك بقلب مطمئن وإستمتاع.

فأسرعتُ بتسليم الآنية إليه، رغم أنّ إثنين منهما كانا ملكاً حلالاً، كما سلمتُ له الفضة وحاجاتٍ أخرى. كان قصدي أخذهما إلى دير كردينال (فِرارا) في ليون. غير أني أتهمتُ بأخذهما إلى إيطاليا؛ فالمعروف للجميع أنه من قبيل المحال إخراج نقود أو ذهب أو فضة من البلاد دون إجازة خاصة. كيف يتصور المرء إمكان إخراجي هذين الإناءين الكبيرين اللذين يعادلان حمولة بغل؟ فضلاً عن صندوقيهما، في الواقع كنتُ قلقاً على مصيرهما لفرط جمالهما ونفاسة قيمتهما في حالة وفاة الملك فقد تركت جلالته وهو في أخطر مرحلة من مرضه. قلت لنفسي:

- لو حصل شيء له. فسأكون مطمئناً إلى وجودهما في حوزة الكردينال. فلا أفقد آثارهما.

لكن وقع المقدر على كل حال. وأعدتُ البغل والآنية وأشياء هامة أخرى وفي اليوم التالي باشرتُ المرحلة التالية من سفري برفقة من نوّهت بهم، وأنا لا أقوى على حبس تنهداتي ودموعي، على أنّي كنتُ بين الفينة والفينة أستمدّ القوة والراحة من الله. وأنا أرفع دعائي اليه.

«أيها الإله القادر على كلّ شيء، أنت العارف بالحقيقة، أنت تعلم أنّ رحلتي هذه لم تكن إلاّ من أجل مساعدة ستّ بناتٍ صغيرات مسكيناتٍ شقيّات ووالدتهما شقيقتي، صحيح أنّ لديهنّ أباً لكنه شيخٌ فإن أدركه الهرم ومهنته لا تدرّ عليه شيئاً وهن معرّضات للتلف، فيا أيها العزيز المتعالي إني أركن إليك وأهتدي بك في قيامي بهذا العمل الصالح».

كان هذا ما فرّج من كربتي وأراحني خلال سفرتي.

وفي ذات يوم عندما كنا على مبعدة يوم واحد من (ليون) قبيل المغرب بساعتين تقريباً. طرق سمعنا هزيم الرعود في سماء صافية! كنت على مرمى سهم أتقدم أصحابي، ففوجئنا على إثر هزيم الرعد بصوت هائل مرعب إرتجّت له أركان السماء حتى حسبت أنه يوم القيامة. توقفت هنيهة وإذا برشقات من البَرَد تنهال فوق الرؤوس

دون أن تصاحبها قطرة ماء منها أكبر من حجم بندقة البارودة المنطلقة من سبطانة النفخ - محدثة ألماً حيثما وقعت من بدني. ثم تضاعف حجمها فصارت أشبه بحشوة القوس القذاف. وحانت مني إلتفاتة إلى حصاني فوجدته يكاد يُجنُ رعباً فلويت عنانه وكررتُ راجعاً إلى رفاقي بسرعة جنونية. وكان الخوف قد تملكهم مثلي فاحتموا في غابة صنوبر. واستمر سقوط ذلك البرد الشبيه بالصخر وزاد حجمه فغدا بقدر الليمونة الكبيرة. فشرعت في تلاوة (صلاة الإستنجاد في وقت الضيق[1] Miseree) وفي أثناء صلاتي هذه لله بكلّ خشوع سقطت واحدة كبيرة جداً بحيث كسرت فرعاً غليظاً من الصنوبرة التي كنت أحسبني آمناً تحتها. ثم سقطت رشقة أخرى من البَرَد على رأس حصاني فترنح وكاد يهوي على الأرض وأصابتني واحدة إصابة غير مباشرة ولولا ذلك لقضت عليّ. وأصابت واحدة أخرى الشيخ المسكين (ليوناردو تيدالدي) الذي اضطر إلى أن يحبو على يديه وكان راكعاً مثلي. ثم لما وجدت فرع الشجرة أعجز عن حمايتي وإن على المرء أن يفعل شيئاً آخر إلى جانب تلاوته (الميزرير)، أسرعت فجمعت أطراف ثوبي فوق رأسي وقلت لـ(ليوناردو) الذي كان يستنجد بالسيد المسيح ليكون في عونه وهو أقصر عن ذلك. وكان اهتمامي بأمره أصعب عليّ من اهتمامي بأمري. وإستمرت العاصفة ردحاً من الزمن ثم توقفت بعد أن أصابنا منها ضرّ عظيم ودقّت عظمنا دقاً، إلاّ أننا إمتطينا جيادنا بأفضل ما أمكن وانطلقنا نريد الوصول إلى محطتنا الثانية وبعضنا يكشف لبعض عن الخدوش والأورام التي نالته. وبعد نحوِ من ميلٍ طالعنا منظر خراب ودمار يفوق ما نالنا ويجلّ عن الوصف.

شاهدنا الأشجار محطمة عارية عن الأوراق. والماشية القريبة منها قد فطست فضلاً عن عدد كبير من الرعاة الذين لاقوا حتفهم. ووجدنا كتلاً من الصخر كبيرة بحيث يصعب أن تحيط بها ذراعان. من هذا أدركنا أننا خرجنا من المحنة بأقلّ الأذى وأدركنا بأن لإستنجادنا بالله وتلاوتنا (الميزرير) الفضل في حمايتنا أكثر مما كان لمجهودنا الخاص. فرفعنا الشكر لله وواصلنا السفر إلى (ليون). وفي هذه المدينة

(1) وتبدأ «إشملني يا ربّ برحمتك».

مكثنا أسبوعاً ثم استأنفنا رحلتنا نشطين وإجتزنا الجبال بيسر. وفي الجانب الثاني إبتعت فرساً لأن بعض المتاع عندي كان قد ثقل على جيادي الأخرى.

بعد مرور يوم واحد لنا في أرض إيطاليا، أدركنا الكونت (كاليوتو دللا ميراندولا) وكان يسافر بعربة البريد. فتوقف حيث كنّا ولامني على رحيلي قائلاً إني كنت مخطئاً ونصحني بألاّ أمضي قدماً وأن الأمور ستكون أفضل لي من السابق بكثير لو قفلتُ راجعاً. أما إذا أصررت على مواصلة السير فإني سأترك الميدان لأعدائي وسأمنحهم كل الفرص ليلحقوا بي الأذى، في حين إن عودتي ستحبط المؤامرة التي حاكوها ضدّي وقال:

- إن أولئك الذين خصصتهم بأكبر الثقة هم الذين خانوك.

وكلّ ما أوضحه لي هو أنه يعلم بما لا يرقى إليه الشك ان كردينال (فِرارا) هو الذي أوقع بي مستعيناً بالوغدين اللذين إستأمنتهما على مقتناي. وظلّ السيد الشاب يواصل إلحاحه عليّ بالعودة رغم كلّ شيء ثم إنه ركب عربته وانطلق بها. وأنا بدوري وبسبب رفاقي قررت مواصلة رحلتي في حين كنت بين العودة إلى فرنسا، أو التوجه رأساً إلى فلورنسا. لازمتني الحيرة وبقيت مذبذباً إلى أن رسوت أخيراً على قرار التوجه إلى فلورنسا دون تلكؤ والإنضمام إلى قافلة البريد. إلاّ أني لم أقم بتهيئة أسباب سفري بأولى القوافل إلى أن عقدت العزم على فلورنسا بصرف النظر عمّا سينتظرني فيها من متاعب.

فارقت السنيور (إيوليتو كونزاكا) الذي سلك سبيل (ميراندولا) في حين إتجهت نحو (بارما) و(بياجنزا). بعد وصولي هذه المدينة لقيت الدوق (بيير لويجي) صدفةً في أحد شوارعها. فتفرّس بي وركّز نظراً حديداً حتى عرفني، ولعلمي بأنه كان علّة ما قاسيت في قلعة سان انجلو، فقد تلاحقت أنفاسي وكدت أختنق عندما وقع نظري عليه. ولما لم أجد وسيلة للإفلات منه، رأيت أن أقصده في زيارة. دخلتُ عليه وقد فرغ لتوه من الطعام. وكان معه أفراد من أسرة لاندي Landi أولئك الذين فتكوا به فيما بعد. عندما واجهت سموّه، إلتقاني بحفاوة وترحاب ما توقعتهما. ومن حديث

كثير له توجه بخطابه للحاضرين قائلاً عني اني بلغت الآن قمة صنعتي وفني وإني قضيت مدة طويلة سجيناً في روما. ثم إلتفت اليّ قائلاً:

ـ بنفنوتو! أي صديقي العزيز ثق اني تألمت كثيراً لما لقيت من أرزاء. وكنت متأكداً من براءتك لكن لم يكن بيدي شيء أساعدك به. ذلك لأن والدي في حينه ـ أصرّ على إرضاء فريق من أعدائك الذين أقنعوه بأنك تغتابه وتشنّع به. في حين كنت موقناً بألاّ ظل لهذا من الحقيقة. ثق اني كنت شديد الألم لما أصابك.

وكرر ذلك وأعاده مرّات ضارباً على هذا الوتر حتى بدا كمن يطلب مني المغفرة. بعد ذلك إستفسر مني عن الأعمال التي قمت بها للملك المسيحي الأعظم وكان يصغي إلى شرحي باهتمام بالغ مظهراً ما لا مزيد عليه من الإلتفات والتكريم. ثم سألني عما إذا كنت راغباً في خدمته. فأجبته إن شرفي لا يسمح لي ولو أني أكملتُ كلّ الأعمال الهامة التي بدأت بها للملك الجليل، فلا شك اني أفضّل تقديم خدماتي لسموه قبل أي سيد عظيم آخر.

وهنا لا يسعني إلاّ إظهار العجب من قدرة الله اللامحدودة. فهي لا تترك ذلك الذي يبتلي البريء بشرّه وظلمه دون عقاب مهما بلغت منزلته هذا الرجل في الواقع طلب مني العفو بمحضر من كان بعد فترة قصيرة سيثأر لي وللكثيرين الآخرين الذين إصطلوا بنار إضطهاده ولؤمه. كما فعل أحد الذين أعرفهم وسأصف في الوقت المناسب موقفه العدائي مني.

في تدويني هذه الأمور الخصوصية ليس ثمّة حافز دنيوي يدفعني. وكلّ قصدي من سردها هو تقديم شكري لله الذي أنقذني من هذه الملمات العديدة. ففي وسط تلك المحن كنت أستصرخه دوماً طالباً منه أن يبسط عليّ ظل حمايته مستودعاً روحي له فكان عزّ وجلّ يظهر لي حوله وقدرته على الفور بعد اعتمادي على نفسي قدر الإمكان. فإذا خانتني قواي وتعثرت بي القدم كشفت قدرة الله عن نفسها بشكل غير منتظر وأنزلت العقاب بالظالمين المعتدين جزاءً وفاقاً أولئك الذين يسيئون إستخدام الوظائف الشريفة الرفيعة التي أناطها الله بهم.

عدت إلى الفندق لأجد الدوق وقد أرسل لي ألواناً مختلفة من نفيس المآكل

وفاخر المشرب. فأكلت بشهية. ثم إمتطيت حصاني ولويت عنانه إلى فلورنسا. وفيها وجدت شقيقتي وبناتها الصغار الستّ، وهن بين من بلغ سنّ الزواج ومن هو رضيع. وكان زوجها إنقطع عن مزاولة عمله بسبب أحداث معينة وقعت له في المدينة.

كنت قبل أكثر من عام قد أرسلت بعض الحلي الذهبية والمجوهرات المصوغة إلى فلورنسا مما يُقيّم بأكثر من ألفي دوقية. كما أني جلبت معي مقداراً آخر تبلغ قيمته زهاء ألف كراون. وكنت أرسل إليهم أربعة كراونات ذهبية شهرياً بصورة منتظمة كما كانوا عادة يصيبون ربحاً من بيع جانب من الحلي يوماً بيوم. ومع أن النقود التي كنت أرسلها لم تكن كافية، فقد تبين لي رغم ذلك ان زوج أختي كان عفّاً أميناً بحيث لم يمدّ يده إلى أموالي التي كانت في الواقع أمواله خشية إغضابي، بل راح بدل ذلك يرتهن كلّ ما لديه من متاع في الدنيا تقريباً، فأكلته أكلاً وإمتصته عظماً تلك الفائدة التي كان يدفعها للمرتهِن. وبهذا تبين لي مبلغ أمانته وعزمت على زيادة مساعدتي له كما قررت ان اكفي حاجة بناته وأسترُ خِلّتهُن قبل رحيلي عن فلورنسا.

في ذلك الزمن ـ شهر آب من العام 1545 كان دوقنا أعني دوق فلورنسا يقيم في (بوجيو كايانو Poggio a Caijano) وهو موضع يبعد عشرة أميال عن فلورنسا. فتوجهت إليه وغرضي الوحيد هو السلام عليه كما تقضي قواعد الأدب. فأنا مواطن فلورنسي وأجدادي كانوا من أخلص أصدقاء آل مديتشي. وكنت من جهتي أكنّ للدوق كوزيمو حبّاً خاصاً[1].

---

(1) في العام 1537 اختير كوزيمو دوقاً لفلورنسا على ان يعاونه في حكمها مجلس شيوخ ومجلسان استشاريان. وأيّد إختياره الامبراطور شارل الخامس (شارلكان). وفي العام نفسه تمكن جيش الجمهوريين الفلورنسيين ودحرهم. عرف بالذكاء الحاد والطموح فأعلن نفسه دوقاً وهاجم سينا (1554) ودحر جيشاً فرنسياً يقوده بييرو ستروزي بالقرب من مارشيانو. وفي العام (1555) استسلمت له المدينة بعد حصار طويل ووافق الملك الاسباني فيليب الثاني على ان يضمها كوزيمو إلى أملاكه. وقوي مركزه عندما انتخب وأحد من آل مديتشي من فرع ميلان ـ بابا بإسم بيوس الرابع. فأخضع توسكانيا لحكمه وقام بعده بإصلاحات إقتصادية وعمرانية أظهرها تجفيف المستنقعات. وكان محباً للفنون مشجعاً لأهلها. إلا أنه شقي في أواخر سنيّ حكمه وتوالت المصائب في أسرته. ففي خلال ست سنوات (1557 ـ 1562) توفي له إبنان وبنتان ثم زوجته، وقد استغل اعداؤه هذه المصائب للنيل من سمعته ونشروا الشائعات حولها. وفي العام 1564 ترك الحكم لإبنه فرانشسكو، وتزوج في العام 1570 (العام الذي توفي فيه جلليني) محظيته كاميلا مارتيللي وتوفي في 1574.

كما قلت توجهت إلى (بوجيو) للسلام عليه فحسب، لا تخالجني أية فكرة في البقاء لديه كما شاءت إرادة الله بعد ذلك. فهو المدبّر للأشياء على أحسن تقويم. ما علم الدوق بوجودي حتى أقبل عليّ وحياني بحرارة ومودة فائقتين، ثم طفق هو والدوقة يستجوباني عمّا قمت به للملك من عمل فسرّني أن أسرد عليهما الحكاية برمتها. وبعد أن فرغت قال الدوق إن ما حدثته به كان قد علم به من قبل وإني ما أنهيت إليه إلاّ بالحقيقة ثم أضاف بكلّ لطف:

ـ ما أقلّ الجزاء الذي نلته على جهودك العظيمة الفائقة؟ أي بنفنوتو العزيز لو خطر ببالك أن تنجز لي عملاً فنياً فإني سأجزيك بشكل يختلف تماماً عن الطريقة التي عاملك بها ذلك الملك الذي أفرطت في الثناء عليه مدفوعاً بطيبة نفسك ورهافة احساسك.

عندها نوهت بالواجب الكبير الذي أراني ملتزماً به إزاء الملك الذي أخرجني من سجن عانيته ظلماً وعدواناً، وأتاح لي فرصة القيام بعمل أسمى وأرفع بمراحل من أي عمل إضطلع به فنان من حرفتي. وكان الدوق أثناء كلامي يتململ ويتلفت مبدياً فروغ الصبر وكأنه لا يقوى على إنتظاري حتى أنتهي. فابتدرني قائلاً:

ـ لو قمت لي بعمل سأجزل لك العطاء بشكل لا تحلم به. شريطة ان يحوز رضائي وهو ما لا أشكّ فيه.

وأنا ذلك المسكين المنكود الحظ، رغبة مني في إطلاع مدرسة الفن الفلورنسية الرفيعة على حقيقة كوني قد كُلّفت بعد رحيلي عنها بإنجاز أعمال فنية في آفاق أخرى واسعة تفوق التصور، أجبت الدوق معرباً عن سروري العظيم في أن أصنع تمثالاً عظيماً من الرخام أو البرونز يقام في ميدانه الرائع (بيازا Piazza).

فأجاب إن أول عمل يرغب في أن يكلفني به هو تمثال (برسيوس Persius)[1] فإن

(1) برسيوس (في الأساطير الاغريقية) هو ابن جوبتر من زوجه داناي (آلهة اغريقية) جاء في الاساطير انه قطع رأس (ميدوسا) وأنقذ منها (أندروميدا) التي تزوجها.

فكرة هذا التمثال كانت تلازمه منذ زمن طويل وهو يتمنى تحقيقها على يدي. ثم طلب مني أن أصنع نموذجاً مصغراً له.

بدأت عمل النموذج راضياً مستبشراً وأكملته في أسابيع قليلة. وكان إرتفاعه يبلغ كوبيتاً واحداً تقريباً (18 إنجاً). واستخدمت له الشمع الأصفر بكلّ دقة، فبدا جميلاً بما أودعت فيه من حذق وبراعة. عاد الدوق إلى فلورنسا إلا أني لم أوفق في عرضي النموذج عليه إلاّ بعد عدة أيام. وبدا عند لقائنا وكأنه لا يعرفني لم تقع أنظاره عليّ من قبل، فشعرت بالذلّة والخيبة المرّة من علاقتي نتيجة ذلك. وفي ذات يوم أدخلت النموذج إلى قاعة الثياب فأقبل بعد تناول الغداء هو والدوقة[1] وعدد من رجال الحاشية النبلاء. وشرع يتفحصه وينعم النظر فيه وشاعت علائم الرضى في وجهه وأخذ يثني عليه دون تحفظ. وهذا ما أسلمني إلى الأمل بأنه على شيء من الألمام بدقائق الفنّ وكان إرتياحه يزداد بطول التأمل فيه. ثم إبتدرني قائلاً:

- أي بنفنوتو العزيز، لو وفقت إلى إنجاز عمل هام يمثل الدقة والإمتياز اللذين أنجزت بهما النموذج فسيكون أبدع قطعة فنية في الميدان.

فأجبته بقولي:

- ياصاحب السموّ! في الميدان آثار فنية لـ(دوناتللو Donatello)[2] العظيم وميكالنجلو الإلهي. وقد أثبت هذان الألمعيان بأنهما أعظم فنانين ظهرا منذ الزمن القديم. وبما أن سموّك الجليل متحمس جداً لنموذجي هذا. فكن على يقين بأني عقدت العزم على أن يخرج التمثال الأصلي أجمل من نموذجه بثلاثة أضعاف.

---

(1) تزوج كوزيمو (الأول) في العام 1539، بـ(ليونور دي توليدو Leonor de Toledo) إبنة بدرو دي توليدو نائب الامبراطور شارلكان في مملكة نابولي.

(2) (1386 ـ 1466) دوناتللو دي بيلتا برادي Donatello di Belta Bardi نحّات ومثّال إيطالي يعد واحداً من أعظم فناني الرينسانس. كان واقعي النزعة في تصوير الجسم البشري. تتجلي روعة فنه في تماثيله ونقوشه البارزة البرونزية وأخصها بالذكر تمثال القديس جورج المقام في الميدان بـ(فلورنسا) ـ وإلى هذا يشير چلليني هنا ـ (عمله خلال 1416 ـ 1420) وتمثال داود الشاب البرونزي وكلاهما معروض الآن. وغير ذلك من الآثار في مدن إيطالية أخرى.

وعلى إثر ذلك حصل جدال ومناقشة إستمرا زمناً غير قليل. فقد كان الدوق يردد بأنه خبير وأنه على إدراك تام بما يمكن تحقيقه. فقلت له إن ما أخرجته يديَ من أعمال يفوق ما وعدته بكثير. لكن يجب عليه أن يزودني بالوسائل والأسباب إذ إني عاجزٌ بدون مساعدته وتوفيره ما أحتاجه فطلب منيّ تقديم كشف مفصل بالمبالغ المطلوبة.. وأن أكتب له تقريراً دقيقاً بما أحتاج ثم أضاف يقول انه سيحرص على أن تُجاب طلباتي بالتمام والكمال.

لا شك في أني لو كنت من الذكاء والدهاء في تأمين ما أحتاجه لعملي، بتوقيع عقد لما عانيت كل المتاعب التي تلت، ولما قاسيت ما قاسيت نتيجة هذه الغلطة. كان الدوق يلحّ الحاحاً شديداً عليّ في إكمال التدابير وإنجاز العمل. ولم أدرك بأن هذا السيد يتعامل كتاجر أكثر منه دوقاً. في حين كان تعاملي معه بإعتباره دوقاً أكثر منه تاجراً.

نظمت طلباتي بتقرير وكان عطف سموّه عليها بالغ الكرم. قلت في تقريري:

«يا أغلى إنسان. إن المطالب والإتفاق الحقيقي يخرج عن نطاق هذه الكلمات والوثائق. لأنهما يتوقفان على درجة نجاحي في العمل الذي تعهدت به. فإن أصبت النجاح فأنا على ثقة بأن سموك الأفخم سيتذكر جيداً ما وعدني به».

سُرّ سموه بهذه العبارات وبالطريقة التي إستخدمتها للإعراب عن ذات نفسي فغمرني والدوقة بكرمهما إلى حدّ يفوق التصور.

كنت شديد اللهفة إلى الشروع في العمل. فأعلمت سموه بأني سأكون في حاجةٍ إلى دار لأرتّب شؤوني وأبني مسابكي. بعضها لفخر الطين وبعضها لصبّ البرونز، وأخرى غيرها لسبك وصبّ الفضة والذهب. وقلت إني مدرك تفهمه مبلغ شوقي لخدمته في مجالات فني هذه ولذلك سأحتاج إلى غرفٍ مناسبة لهذه الأغراض ولكيما يتحقق سموّه من مبلغ شوقي إلى خدمته أضفت قائلاً: إني عثرت على المنزل الذي يفي بأغراضي وإنه يقع في موضع ملائم للغاية. ولما كنت أكره إزعاج سموّه بموضوع ماليّ أو أي شيء آخر قبل أن تكتحل عيناه برؤية عملي، فقد رجوته أن يبتاع لي هذا المنزل بثمن جوهرتين كنت قد جلبتهما معي من فرنسا. وإن شاء ابقاهما عنده حتى أتملك المنزل بما أحققه من أعمال. كانت هاتان الجوهرتان قد صيغتا في

حليتين بديعتين من قبل مساعديّ وفق التصميم الذي صنعته لهما. وبعد أن تفحصهما ملياً قال لي مشجعاً وبأسلوبٍ أفعمني بالأمل الخادع:

ـ خذ حليتك يا بنڤنوتو. فأنا لا أريدهما بل أريدك أنت. وستفوز بمنزلك مجاناً.

ثم إنه تناول عريضتي فكتب حاشيةً في ذيلها ما زلت محتفظاً بها حتى الساعة وهذه هي حرفياً:

«فليكشف عن المنزل. ويتم التأكد من هوية بائعه والثمن الذي يطلبه له، لأننا نرغب في إرضاء بنڤنوتو»!

خيّل لي ان المنزل أصبح ملكي. ليقيني بأن عملي سيكون موضع رضى بشكل يفوق ما وعدت. ثم إن سموّه بعد ذلك أصدر أمراً واضحاً لوكيل خرج له يعرف بإسم (السيد بيير فرانتشسكو ريجيو Ser Pier Francesco Riocio) وهو من (بارتو). وكان فيما مضى معلماً أو مربيّاً للدوق. كلّمت هذا الحيوان الخشن مفصلاً جملة ما أحتاجه. ونوهت بوجود حديقة صغيرة ملحقة بالمطبخ ملاصقة للمنزل حيث كنت أريد أن أقيم فيها مصنعي. فقام فوراً بإناطة هذه الأشغال بأحد المتعهدين. وهو شخص نحيف أعجف فظّ الطباع يدعى (لاتانزيو كوريني Lattanzio Gorini). هذا الشخص التافه الحقير بيديه العنكوبيتين وصوته الشبيه بطنين البعوضة، قام كما شاءت إرادة إبليس بنقل الحجارة والرمل والجص ببطء يفوق بطء الحلزون، وبكميات لم تكن تكفي لبناء بيت للحمام الزاجل إلاّ بشيء من الصعوبة!

بدء اليأس يخامرني للبطء الشديد الذي يسير به عملي لكني شجعت نفسي بقولي «لا بأس فالبدايات الصغيرة قد تؤدي أحياناً إلى نهايات عظيمة». وإلى جانب هذا فقد وجدت مبررات لأملي برؤيتي كيف بدّد الدوق الآلاف المؤلفة من الدوقيات الذهبية في أعمال نحت فاشلة من منتوج ذلك الحيوان الأبله (باندنللو Bandinello)[1] فسرّى

(1) أو باندنللي باجيو (1493 ـ 1560) نحات معروف ولد في فلورنسا لأب صائغ من خاصة آل مديتشي المقربين. لذلك بسطت هذه الأسرة ظلها على الإبن الذي تتلمذ للنحات (جيوڤاني روستيتجي) وأصبح فيما بعد واحداً من كبار النحاتين في بلاط الدوق كوزيمو. ومن آثاره الباقية يستدل بأنه كانا نحاتاً ممتازاً لا كما اعتبره معاصروه الفنانون ومنهم چلليني.

ذلك عن نفسي قليلاً، ولكزت (لاتانزو كوريني) هذا لكزةً في دبره ليتحرك إلى أمام مثلما تصرخ في مجموعةٍ من الحمير العرج يقودها صبيٌ أعمى.

رغم كل هذه المصاعب، مضافاً إليها إنفاقي من جيبيّ الخاص. قمت برسم وتخطيط موقع المصنع وأزلت الأشجار والكروم من الأرض مواظباً بدأب ونشاطٍ كعادتي. وإعتمدت في أعمالي الأخرى على صديق حميم جداً هو (تاسّو Tasso) النجار، فقد كلّفته بإعداد بعض الأطر الخشبية للبدء في (برسيوس) كان هذا فناناً ممتازاً لا مثيل له ولا نظير في مهنته برأيي. وهو فضلاً عن هذا إنسان مرح خفيف الظلّ، كان كلما زرته يحييني بضحكة وبأغنية قصيرة على مقام (الزير). وأسرعت بي قدماي إلى درب اليأس والقنوط إذ تلقيت أنباء من فرنسا تشير إلى أن شؤوني هناك تسير من سيء إلى أسوأ. في الوقت الذي لم أكن أعلّق آمالاً بفرص طيبة هنا في فلورنسا بسبب الفتور الذي ألقاه. على أن (تاسو) كان يرغمني إرغاماً على سماع نصف قصيدة غنائية على الأقل فتنتعش نفسي في صحبته وأطرد أفكاري السوداء عني قدر الإمكان.

قطعت أشواطاً في مشاريعي التي نوهت بها وتهيأت بنشاط أكبر لإقامة الأبنية. وقد سبق لي أن استعملت كمية من الجصّ. عندما وصلتني دعوة بالحضور فجأة عن طريق أمين السرّ. فتوجهت إلى القصر وكان سموّه قد فرغ لتوه من طعام العشاء. وجدت أمين السرّ هذا في قاعة الساعة. فحييته بإحترام كبير فردّ تحيتي ببرود عظيم. ثم سألني من الذي خوّلني الحق في إشغال المنزل وبأمر من أبني وأشيّد في الموضع؟ وقال إنه منذهل لطيشي الأحمق وتهوري. أجبت: إني شغلت المنزل بأمر سموّ الدوق. وان سيادتك بالنيابة عن سموّه وباسمه أمرت (لاتانزيو كوريني) بتزويدي بما أحتاج. وان (لاتانزيو) هذا نقل لي الحجر والجصّ، وهيأ ما كنت أحتاجه زاعماً ان سيادتك كلّفه بذلك.

وعندها راح الحيوان يهاجمني بضراوة تفوق ما سبق منه قائلاً: «لا أنت تقول الصحيح ولا واحد من الذين ذكرتهم». وهنا فقدت السيطرة على نفسي وقلت:

- اصغ اليّ يا وكيل الخَرج. إني سأحترم سيادتك وأخاطبك بإحترام مثلما أكون

في حضرة الدوق إن تكلمت بالشكل اللائق برتبة النبيل التي تحملها. فإن سلكت خلاف ذلك فإني سأخاطبك بإعتبارك (سر بيير فرانشكو ريجيو) ذلك الإنسان العادي.

فاستشاط غضباً وهاج هائجه حتى خيّل لي أن روحاً من الجنّ قد ركبته. لقد كان أعجل على المقدّر مما كتب في السماء. إذ أجابني بسيل دافق من الشتائم المقذعة وتساءل باحتقار عما يحدو به إلى التنازل والسماح لرجل مثلي بمخاطبته فأثارني بذلك واستفزني، فأجبته بما يلي:

- اصغ اليّ يا (سر بيير فرانشسكو ريجيو) ريثما أعلمك بمن هم من أمثالي، ومن هم من أمثالك وأقصد أولئك السادة الذين يلقّنون الصغار الأحرف الأبجدية[1].

إنقلبت سحنته وإرتفع صوته وهو يردد بعنف أشدّ، كل ما قاله في الأول. فقابلت صلافته بموقف عدائي أشدّ وقلت له إن أمثالي من الرجال جديرون بمخاطبة الباباوات والأباطرة ناهيك عن ملك فرنسا الرفيع الشأن. وربما تعذر عليه أن يجد نظيراً لي في العالم كله. في حين نجد عشرات من أمثاله في عطفة اي شارع.

عندها نطّ واعتلى إفريزاً للجلوس عند عتبة النافذة في القاعة وطلب منفعلاً أن أعيد العبارة التي نطقتها. ففعلت بأشدّ من الأول حدّةً وأضفت إليها قولي اني الآن فقدت كلّ رغبة في الخدمة عند الدوق وسأعود إلى فرنسا حالاً وهو ما كان بوسعي تنفيذه دونما عائق. تسمّر البهيمة حيثما هو مصعوقاً بوجه كالح كالطين الأصفر وانصرفت وانا أتلظّى بنار الغيظ مصمماً على الرحيل وحبذا لو فعلت.

لم يكن بوسع الدوق أن يسمع هذه المشاذة الحاذة فوراً. وقد انتظرت عدة أيام عبثاً إذ لم يبدر شيء بهذا الخصوص. ليس ثمّة شيء يربطني بفلورنسا إلاّ موضوع أختي وبناتها، فبالمال القليل الذي جئت به كنت أنوي أن أتركهنّ على خير حال ممكن. ومن ثم أتوجه إلى فرنسا بأسرع ما في إمكاني غير عابئ برؤية إيطاليا ثانية.

وفيما أنا أستعجل أموري للسفر دون طلب الإذن من الدوق أو أي شخص آخر. فوجئت بوكيل الخرج يوسل بطلبي صباح ذات يوم دون سبق إنذار من تلقاء نفسه

---

(1) يعرّض بتفنوتو بمهنة وكيل الخرج الأساسية وهي تعليم الأطفال.

وبكلّ تواضع ومسكنة. وشرع حال اللقاء يلقي خطبة طنانة جوفاء لا أول لها ولا آخر لم أتبين منها بلاغة أو إنتظاماً أو حذاقة ولكن ما إستخلصت منها زعمه بأنه مسيحيّ صالح وأنه يكره أن يعادي أحداً. ثم سألني نيابةً عن الدوق كم يكفيني من راتب لمعيشتي؟ وكنت أثناء ذلك واقفاً غارقاً في أفكاري الخاصة. فلم أجبه بشيء لأني كنت قد قررت السفر. وعندما وجدني ساكتاً هداه ذكاؤه إلى القول:

- أي بنفنوتو. إن الأمراء يتوقعون جواباً عن أسئلتهم وإني أكلمك نيابة عن سموّه. فقلت:

- إن كان موكّلاً من سموّه حقاً فسأجيب بطيبة خاطر.

ثم أضفت: «بأن عليه أن يبلغ سموه بأني لا أعتزم إحتلال المرتبة الثانية في خدمته نسبة إلى أي فنان آخر».

فقال وكيل الخرج:

- يتقاضى (باندنللو) مائة دوقية كمرتب. فإن رضيت بمثل هذا المبلغ فالمسألة منتهية.

أجبت إني راض، شريطة أن يدفع لي كلّ ما أستحقه من علاوة «عندما تشاهد أعمالي كاملة». وأن يترك كلّ شيء لحكم سموّه المبجّل. وهكذا عدت لأمسك بالخيط مرّة أخرى دون رغبةٍ مني، وتفرغت لعملي. وكان الدوق يظهر لي ما لا مزيد عليه من دلائل الرعاية والاهتمام.

تسلمت عدداً من الرسائل كتبها لي ذلك الصديق المخلص (كويدو كويدي) من فرنسا. ولم يكن فيها حتى ذلك الوقت إلاّ الطيب من الأخبار. كما كان خِلفَتي (اسكانيو) يرسل ليّ ما يطمئنني على أموري هناك، ويوصيني بأن لا أقلق أو أهتم وأن أرفّه عن نفسي وآخذ بأسباب اللهو والتسلية وإن حصل شيء فإنه لن يتردد في إخباري. لقد أبلغوا الملك بدخولي خدمة الدوق وبما أنه أنبل إنسان على وجه البسيطة فقد ظل يردد قائلاً:

- ولِمَ لا يعود الينا بنفنوتو؟

واستجوب مساعدي كلاً على حدة. فأجابه كلاهما بأني كتبت أخبرهما بسعة العيش والرخاء الذي أصابني وإني عازف عن العودة لخدمته. فإغتاظ الملك من هذه الكلمات التي لم تخرج من فمي وعقّب قائلاً:

ـ لمّا تركنا دون سبب. فلن أطلب عودته ثانية وليبق حيث هو.

هذان المجرمان الخائنان دبّرا ما دبّرا بالشكل الذي طاب لهما ولمصلحتهما. اذ إن عودتي إلى فرنسا ستعيدهما إلى منزلتهما السابقة لا أكثر من خلفتين يأتمران بأمري ويطيعان قراراتي في حين أنهما ببقائي بعيداً سيسرحان ويمرحان في بيتي حرّين طليقين، ولذلك توسلا بكلّ حيلة ليحولا دون رجوعي.

في الوقت الذي كنت منشغلاً في بناء المصنع ليتسنى لي الشروع في (برسيوس) قمت بعمل مجسّم بالحجم الطبيعي المطلوب له من الجبس وذلك في الطابق الأرضي من المنزل ـ على أن يتمّ صبّ التمثال الأصلي عليه. ثم وبعد التأمل توصلت إلى أن هذه العملية قد تأخذ مني وقتاً طويلاً، فأطرحتها جانباً وأرسيت على فكرة أخرى. سبق وان تم بناء المصنع آجرّة فوق آجرّة، فبدا بهيئة كوخ حقير سيء البنيان وكنت أصاب برجفة كلما تمثلته في خاطري. وبدأت في (ميدوسا)[1] فصنعت هيكلاً من حديد ثم كسوته بالصلصال وبعد أن إنتهيت منه وضعته في الكور وفخرته.

لم يكن عندي من المساعدين أكثر من صبيّ أو إثنين صغيرين. أحدهما كان وسيم الصورة للغاية. وهو ابن عاهر تدعى (كامبيتّا Gambetta) إتخذته نموذجاً ـ فالطبيعة هي الكتاب الوحيد الذي نتعلم منه الفنّ. ولقد حاولت إستخدام عدد من العمال إختصاراً للوقت وتعجيلاً بالعمل، فلم أوفّق ولم يكن بوسعي أن أقوم بكلّ شيء بنفسي. كان في فلورنسا عدد من الصناع يرغبون في الخدمة عندي. إلاّ أن (باندنللو) كان يزهّدهم في ذلك ويحول بيني وبينهم. وبعد أن ضاق بي الأمر قال للدوق إني أحاول الإستيلاء على عماله لأني أفتقر إلى المهارة في صنع تمثال كبير.

(1) في أساطير الاغريق، إن ميدوسا هي إحدى ثلاث (أوركونات) شقيقات، تكسو رؤوسن أفاع بدلاً من الشعر كلّ من ينظر إليهنّ ينقلب إلى حجر. لم يوفق برسيوس إلى قتل ميدوسا وإحتزاز رأسها إلاّ بنظره إلى إنعكاس وجهها في المرآة.

وإني أنشد المعونة. وأنا بدوري شكوت للدوق المضايقة الشديدة التي يسببها لي هذا الوحش ورجوته أن يتوسط لتزويدي بعمال من الأوبرا[1] وهذا ما جعله يصدق أكاذيب (باندنللو) عني. وعندما تبين لي الأمر قررت أن أقوم بكلّ الأعمال بنفسي قدر ما يسعني وهذا ما أدى إلى بذل جهود خارقة. في تلك الأثناء إعتلّت صحة زوج أختي وفاضت روحه بعد أيام قلائل. لم تزل أختي صغيرة السنّ، وقد تركها لي مع بناتها الستّ وهنّ في أعمار متفاوتة. وكانت هذه أول صدمة أتلقاها في فلورنسا: فلقد تُركت أباً ووصياً لهاته المخلوقات البائسات.

على أي حال كنت حريصاً على أن يتمّ كلّ شيء بالصورة المطلوبة ووفق الخطة المرسومة. وكانت حديقتي قد غصّت بالمخلفات والنفايات فقد بعثت بطلب عاملين إثنين من (بونتي ڤيكيو Ponti Vecchio)[2] لإزالتها. وكان أحدهما شيخاً فوق الستين من العمر وثانيهما شاباً في الثامنة عشرة. وبعد مضي ثلاثة أيام على وجودهما قال لي الشاب ان الرجل المسنّ لا رغبة له في العمل ومن الخير لي أن أسرّحه. فهو فضلاً عن كسله وتقاعسه يمنعه (أي رفيقه هذا) عن القيام بقسطه من العمل، وأضاف يقول ان القليل المتبقي لديهم سيقوم به هو وحده ولا حاجة بي إلى تبديد مالي.

لما وجدت في هذا الشاب وكان يدعى (برناردينو مانيلليني) من (موجللي) إستعداداً للعمل وتفانياً سألته هل يرغب في البقاء عندي وفي خدمتي وإتفقنا فوراً. وكان من واجباته العناية بحصاني. ورعاية الحديقة. ثم ما لبث أن ألمّ بصناعتي وصار يساعدني فيها وبدأ بالتدريج يحذق الفن ويزاوله بشكل فيه إتقان واناقة. ففاق بذلك كل مساعديّ السابقين. وقرّ رأيي أن أكتفي به مساعداً. وبدأت أثبت للدوق كذب (باندنللو) بتقدم عملي بشكل مرضيّ جداً دون أن تلجئني الحاجة إلى صُنّاعه.

في تلك الأثناء شعرت بآلام في كليتيّ أعجزتني عن العمل. لكن كان من دواعي سروري العظيم تمضية أوقاتي في حجرة الثياب بقصر الدوق مع شابين صائغين هما

---

(1) إستحدثت أوبرا دل دومو Opera del Duomo لصيانة أبنية كاتدرائية فلورنسا. وهي لجنة إدارية فنية تتألف من مديرين ومراقبين وعمال وفنيين.

(2) أي «الجسر العتيق»، وهو حي من أحياء فلورنسا.

(جيانباكولو) و(دومينيكو) إبني (بوجيني). وقد زينت لهما صياغة أناء ذهبي صغير مزدان بنقوش بارزة ذي تهاويل جميلة أوصت الدوقة به لشرب الماء. كما طلب مني صياغة نطاق ذهبي هو الآخر كثير النقوش مكفت بعدد كبير من الأحجار الكريمة. وسائر التهاويل كالأقنعة الصغيرة فأنجزته. واعتاد الدوق القدوم إلى حجرة الثياب بين دقيقة وأخرى. إذ كان يجني أعظم اللذة من مراقبتنا ونحن نشتغل فيما هو يبادلني الحديث.

بعد أن طرأ تحسن على كليتيّ طلبت مقداراً من الصلصال وفي أثناء قضاء الدوق وقتاً في صحبتنا قمت بعمل نموذج لرأسه أكبر بكثير من حجمه الطبيعيّ، فسُرّ سروراً عظيماً بمجهودي هذا وزاد تعلقه بي. وقال إنه ليكون جدّ سعيد لو أمكن نقل مصنعي إلى القصر، وفي هذه الحالة سينظر في إخلاء جناح واسع لي هناك وسيكون عليّ أن أنقل مسابكي ومصاهري وكل ما أنا في حاجة إليه لأنه يجد متعة كبيرة في متابعة هذه الأمور. فقلت لسموّه إن هذا غير ممكن اذ انه يعني بأني لن أفرغ من أعمالي بعد مائة سنة.

راحت الدوقة تغمرني بعطفها والتفاتها. وكانت تودّ لو أني تفرغت بكليتي لأشغالها الخاصة وعدم الإنشغال بـ(برسيوس) أو ما أشبه. لكني كنت أحسّ كلما أنعمت النظر في هذا العطف والحظوة ـ بأن نكد طالعي المعاند لن يتأخر في تسديد ضربة لي أو إبتلائي بمصائب جديدة. وكنت على الدوام مدركاً كم أسأت التصرف متوهماً بأني أحسن التصرف على خير ما يكون ـ وإني أشير بهذا إلى خدمتي في فرنسا.

لم يكن بوسع الملك أن يتغاضى عن الإهانة التي ألحقها به رحيلي عنه. ومع هذا فقد كان يتمنى عودتي شريطة أن لا يخلّ ذلك بكرامته. وأما من جهتي فقد كنت أرى الحق بجانبي، لأني لم أشأ إذلال نفسي. كنت مقتنعاً بأني لو تنازلت إلى الحدّ الذي أقوم فيه بكتابة رسالة إستغفار وتصاغر فإن أولئك الناس وهم لا أبا لك فرنسيون! سيقولون إنه أقرّ بالذنوب التي إقترفها. وإن تلك التصرفات المأفونة الحقيرة التي إتهمت بها هي صحيحة. لذا بقيت محافظاً على كرامتي متمسكاً بعزّة نفسي. ورحت

أكتب بأسلوب لا يخلو من الإعتزاز بكرامة الرجل الذي يدري أنه على حق. ولم يكن ثمّة ما يدخل السرور في نفس ذينك المساعدين الخبيثين أكثر من موقفي هذا.

كتبت لهما مشيداً بالإكرام والعطف الكبير الذي ألقاه في مسقط رأسي من السيد والسيدة اللذين هما الحاكمان المطلقان لمدينة فلورنسا حيث ولدت، وكانا كلّما تسلما رسالة من هذا القبيل يهرعان إلى الملك ويرجوان منه أن يمنحهما القلعة كما فعل معي لكن الملك وهو من أنبل المخلوقات وأرفعها فضائل يأبى أن يلبي طلب هذين اللصيّن الكبيرين اللذين لايفتآن يلحان عليه بكلّ صفاقة. فقد بدأ يتحسس نياتهما الشريرة، إلاّ أنه رغبة منه في عودتي ودفعاً لإلحاحهما وتهدئة لخاطرهما، كلّف السيد (كويليانو بوناكورزي) المواطن الفلورنسي أحد أمناء سرّه بأن يكتب لي رسالة جافة يلوح فيها الغضب وكان محتواها كالآتي:

قال: إن شئت المحافظة على سمعتي بإعتباري رجلاً مستقيماً ولكوني رحلتُ دون سبب فالواجب يقتضيني أن أقدم حساباً بكلّ ما قدمت به لجلالته من أعمال».

شاع في نفسي إرتياح عظيم بتسلم هذا الخطاب ولو كان لي فيه خيارٌ لما أبدلت فيه حرفاً. جلست لأكتب ردّي وسوّدت تسع صفحات من الورق الإعتيادي. فأوردت بتفاصيل دقيقة مسهبة حساباً بكلّ ما صنعته وكلّ ما جرى لي من الأحداث أثناء عملي، وأثبتُ مقدار الأموال التي أنفقتها وكيف أني كنت أتسلم ما يدفع لي دائماً عن طريق مسجلي عقود إثنين وواحد من أمناء خزانة جلالته وكيف أني كنت دائماً آخذ وصلاً موقعاً بالتسلم من الأفراد الذين كنت أدفع لهم مقابل بضاعة لهم أو أجور عن عملهم. وأما عن نفسي فإني لم أضع في جيبي قطعة نقود واحدة. كما أني لم أُمنح شيئاً لقاء ما أنجزت من أعمال وكل ما أخذته عند رحيلي إلى إيطاليا هو بعض دلائل العطف والحظوة وبعض الوعود الملكية الجديرة بجلالته.

ومضيت أقول: لا أستطيع الإدعاء بأني نلت أي مكافأة عن أعمالي خلال المرتبات التي أمر بها جلالته لمعيشتي. وبخصوص هذه المرتبات فإني ما زلت صاحب حقٍ في أكثر من سبعمائة كراون ذهبي كانت قد تخلفت لي في فرنسا لغرض إرسالها حتى أستعين بها على العودة. ولقد علمت أن بعضاً من ذوي النفوس الشريرة.

سعوا بي وشوّهوا سمعتي. لكنني أقول: إن الحق يعلو دائماً. إني وجدت عزّتي وإرتفاع قدري عند جلالة الملك المسيحي الأعظم. ولم يكن رائدي في خدمته الحرص والطمع.

وقلت أيضاً: مع إدراكي بأني أنجزت لجلالته أشغالاً أكثر بكثير مما تعهدت له، ومع أن المكافأة التي وعدت بها لم تُصرف لي. فإن رغبتي الوحيدة في هذه الحياة هي الإحتفاظ برضا جلالته ورجائي أن ينظر اليّ كما ينظر إلى إنسان شريف مستقيم كما كنتُ وما زلتُ. وإن ساور جلالته أى شك فيما أقول فإني سأعود لدى أقل إشارة منه على أجنحة البرق لأقدّم له حساباً عن نفسي ولن يحول بيني وبين ذلك مخاطرتي بحياتي. اني زهدت في العودة وتقديم نفسي للخدمة بسبب الإهمال الذي لقيته. ولعلمي بأني قادر على الحصول على خبز يومي أينما كنت. على أي حال فإني لن أتردد قطّ في العودة إذا ما أرسل بطلبي. وضمنت الرسالة أموراً وتفاصيل أخرى كثيرة جديرة بمطالعة ذلك الملك الشهم الرائع - متصفاً فيها لشرفي وكرامتي. وبعد فراغي منها أخذتها إلى الدوق وسرّ بمطالعتها. ثم ختمها وبعث بها توا إلى فرنسا معنونةً إلى كردينال (فرارا).

في ذلك الحين كان (برناردو بالديني Bernardo Baldini) وكيل سموّه في شراء الأحجار الكريمة - يمتلك ألماسة كبيرة الحجم يزيد وزنها على خمسة وثلاثين قيراطاً جاء بها من مدينة البندقية. وكان (أنطونيو دي ڤيتوريو لاندي Antonio di Vittorio Landi) مهتماً أيضاً بحمل الدوق على شراء هذه الألماسة. ثمّ قطع الألماسة وصقلها فتبيّن انها تفتقر إلى ذلك الصفاء والبريق المشع المتوقع في أمثالها. فأزال مالكوها رأسها الحاد. لكنها لم تستقم لا بالقطع العرضاني ولا بالقطع الحادّ. والدوق الذي كان شديد الشغف بالأحجار الكريمة من غير دراية بقيمتها مهما كانت أعطى (برناردو) ذلك المحتال كلّ سبب للإعتقاد بأنه راغب فيها. ولما كان (برناردو) يريد أن يحتفظ لنفسه بشرف إرتكاب عملية النصب والإحتيال على دوق فلورنسا، فإنه لم يسرّ بكلمة واحدة عن نيته هذه لشريكه (انطونيو لاندي).

كان (انطونيو لاندي) هذا من أعز الأصدقاء على نفسي ربطتنا أيام الصبا علاقة

حميمة لا تنفصم. ولما كان على علم بعلاقتي مع الدوق، فقد استوقفني وانزوى بي يوماً في زاوية من السوق الجديد وكان الوقت ظهراً تقريباً، قال لي:

ـ أي بنفنوتو. لا أشك في أن الدوق سيعرض عليك ألماسة قد يرغب في شرائها. إنها ألماسة كبيرة الحجم وعليك أن تساعدنا في إتمام الصفقة. وأريد أن أقول لك بأني سأوافق على بيعها بمبلغ سبعة عشر ألف كراون. وأنا على ثقة بأن الدوق سيطلب منك رأيك فيها. فإن وجدته حريصاً على إقتنائها فإني سأتخذ التدابير لإتمام الصفقة.

كان يبدو في غاية الإطمئنان من نجاحه في بيعها. فوعدته بأني سأقول فيها ما أعتقده حقاً في حالة عرضها عليّ واستمزاج رأيي فيها ولن أبخس من قيمتها مطلقاً.

وكما سبق لي القول إعتاد الدوق الحضور يومياً إلى دكان الصياغة والمكوث عدة ساعات. فبعد مرور أكثر من أسبوع على حديثي مع (أنطونيو لاندي) عرض عليّ الدوق يوماً الألماسة فعرفتها من الأوصاف التي زودني بها (أنطونيو) حول شكلها ووزنها. وكما ذكرت آنفاً لما كان ماؤها عكراً (وهو السبب الذي حدا بهم إلى قطع رأسها المدبّب) فقد كنت سأنصح بالتأكيد بعدم شرائها حال عرضها عليّ. ولذا سألت سموّه بعد أن أرانيها ـ ماذا يريد مني قوله؟ لأن الأمر يختلف بين ما إذا طلب من الجوهري تقويم حجر كريم بعد أن أبتيع وبين ما إذا طلب منه التقدير قبل تمام البيع ليرى الراغب رأيه على ضوء ذلك.

أجاب الدوق إنه في الواقع قد ابتاعها وهو يريد مني إبداء رأيي فحسب. فلم يسعني إلاّ الإشارة من طرف خفيّ ملمحاً بأني لا أنزلها تلك المنزلة الكبيرة. فقال بأن عليّ أن ألاحظ جمال حواف الألماسة الطويلة. فأجبت قائلاً: إنها ليست بالجمال الفائق الذي يتصوره سموّه. وإن ما يراه من جمال بسبب حوافها الطويلة إنما كان نتيجة لقطع الرأس المدبّب من الألماسة. عند إدلائي بالحقيقة اكفهرّ وجه الدوق وقد أدرك صحة رأيي، فطلب مني الإستمرار في تقويمي وأن أخبره كم تسوى؟

وازنت الأمر في فكري: إذا كان (أنطونيو لاندي) قد عرض عليّ سبعة عشر ألف كراون، فلابد أن الدوق قد ابتاعها بخمسة عشر ألفاً على أكثر تقدير. وبما أنه

تبين لي بأنه لم يرتَح عندما أصدقته الخبر عنها وصارحته بالحقيقة. فقد ارتأيت إبقاءه على وهمه وأنا أعيد الألماسة إليه:

- لعلك دفعت ثمانية عشر ألفاً؟

فهتف مستنكراً وخرج حرف الـ(O) من فمه بشكل أكبر من فتحة البئر.

وقال معقباً:

- الآن تأكدت بأنك غير ملمٍ بهذه الأمور.

قلت:

- أخشى أن يكون إعتقادك خاطئاً ياصاحب السموّ. أنت تهتم بالإبقاء على حسن سمعة أحجارك الكريمة. وأنا سأهتم بتفهم هذه الأمور، فقل لي كم دفعت ثمناً بها حتى أتعلم كيف أفهم الأمور على ضوء خبرة سموّك.

فنهض تاركاً مجلسه وقال بصوت المزدري الهازئ:

- كلفتني خمسة وعشرين ألف كراون، بل وأكثر يا بنفنوتو.

ثم خرج.

كان الصائغان (جيانباكولو) و(دومينيكو) ولدا (بوجيني) حاضرين أثناء الحدث. وكان المطرّز (باكياكا) يشتغل في الغرفة المجاورة ولما سمع الضجة أقبل هو الآخر وانضم إلينا.

قلت للحاضرين:

- ما كنت لأنصحه قطّ بشرائها. لكن لا مناص ما دامت رغبته فيها شديدة والأمر لديه سواء. فقبل أسبوع عرضها عليّ (أنطونيو لاندي) بمبلغ سبعة عشر ألفاً وأعتقد أني كنت سأقنعه بخمسة عشر ألفاً أو أقل. لكن الدوق يقصد المحافظة على سمعة مجموعته من الأحجار الكريمة حسب إعتقادي. بعد أن عرضها عليّ (أنطونيو لاندي) بهذه القيمة، كيف سوّل الشيطان لنفس (برناردو) القيام بمثل هذا الإحتيال القذر؟

وتحولنا عن سذاجة الدوق بضحكةٍ، غير مصدقين بأن ذلك ممكن.

كما قلت كنت قد بدأت العمل في (ميدوسا) فصنعت هيكلاً جديداً غطيته

بالصلصال بتقاسيم جسدية دقيقة بسماكة نصف إصبع ثم طبخته طبخاً تاماً. ثم كسوته بالشمع وإنتهيت منه بالشكل الذي أردته. وكان الدوق دائم التردد اليّ لمشاهدته غير مخفٍ قلقه من أن لا أوفق في صبّه بالبرونز. ودفعه ذلك إلى الإقتراح عليّ بأن أستعين بخبير. في تلك الأثناء كان سموّه يلهج بمهارتي الفنيّة ويتحدث عنها بإعجاب كبير، في حين تفتق ذهن وكيل خرجه ـ وهو يتحين الفرص ليوقع بي ويدق عنقي ـ عن حيلة للوصول إلى مرامه. كانت سلطته تمتد لتشمل ضباط الشرطة وجميع موظفي تلك المدينة المنكودة فلورنسا: وإن المرء لا يسعه إلا أن يعجب لهذا الرجل الجاهل كلّ الجهل، والخصم اللدود لنا ابن صانع براميل في (بارتو) كيف يعهد إليه بهذه السلطة الكبيرة لا لشيء إلاّ لأنه كان معلماً خاملاً لكوزيمو دي مديتشي قبل أن يصير هذا دوقاً! ومهما يكن من أمر، كان هذا الرجل كما قلت يتربص بي الدوائر باحثاً عن وسيلة لأذيتي. وبعد أن أعيته الحيل ولم يجد سبباً للنيل مني أو إلصاق تهمةٍ بي لجأ إلى أسلوب آخر للفوز بمراده. هذا المعلم النذل قصد تلك العاهرة الخائنة (كامبيتا) والدة صبيّ مصنعي (جنجيو) وحبك مؤامرته معها مستهدفاً إرهابي ووضعي تحت طائلة التهديد بحيث لا يسعني غير حزم متاعي والرحيل. ونفّذت (كامبيتا) خطة ذلك المعلم المعتوه وكيل الخرج مستخدمةً أساليب من هنّ على شاكلتها، وشارك في ذلك رئيس شرطة المدينة وهو من مدينة (بولونيا) وقد نفاه الدوق فيما بعد لأعمال مشابهة.

كانت الساعة تشير إلى أكثر من الثالثة من مساء ليلة سبت عندما أقبلت (كامبيتا) مع إبنها. وقالت إنها قد سجنت إبنها عدة أيام بسببي.

قلت لها: ما كان عليها أن تسجن إبنها بسببي. ثم التفتّ إلى الصبي وأنا أضحك لحيلتها الوضيعة وقلت له أمامها:

ـ أنت تعلم يا(جنجيو) بأني لم آثم معك.

فأجاب وهو يبكي بحرقة «كلا!»

فانثنت الأم إلى إبنها وخاطبته وهي تهزّ برأسها:

ـ ويل لك أيها الوغد الصغير أتظنني أجهل بما يحدث؟

ثم التفتت اليّ وقالت: لا مفرّ لي من أن أخفيه في داري لأن رئيس الشرطة يتعقبه وهو عازم على إعتقاله ان وجده في الخارج، لكنه لن يمسّه بسوءٍ إن بقي داخل منزلي. أجبتها إن شقيقتي الأرمل مع بناتها الستّ الطاهرات يشاطرنني السكن وأنا لا أريد أحداً هنا خلافهن. فقالت إن وكيل الخرج قد أصدر الأمر لرئيس الشرطة وسيلقيان القبض عليّ حتماً. لكن ما دمت أرفض إبقاء إبنها في منزلي، فإن أعطيتها مائة كراون فلا داع للقلق من كلّ جهة. لأن وكيل الخَرج صديق حميم ويمكنني الإطمئنان التام من قدرتها على تحويله عن عزمه والقيام بما تريد، شريطة أن أدفع لها الكراونات المائة.

أترع جام غضبي وهاجت نفسي فصحت بها:

- أغربي عن وجهي أيتها القحبة الصفيقة. لولا حرصي على أن لا أسبب فضيحة ولولا خوفي على براءة هذا الصبي البائس الذي جئت به لقطعت رقبتك بهذا الخنجر.

ومددت كفيّ إلى قبضته مرتين أو ثلاثاً.

بهذه الكلمات وببعض الركلات واللكمات الموجعة دفعت بها وبإبنها إلى الخارج.

رحت أفكر ملياً بخبث هذا المعلم وسوء طويته، وبمبلغ سلطانه، فقررت بأن خير ما أعمله هو أن أترك هذه القضية الشيطانية تنفجر كالصاعقة وتتبدد كالدخان. فنهضت في الصباح الباكر وإمتطيت حصاني منطلقاً به نحو البندقية يلازمني صديقي (برناردينو الموجللّي). مستودعاً شقيقتي بعض الأحجار الكريمة وحاجات مختلفة أخرى تناهز قيمتها ألفي كراون.

بوصولي (فِرارا) كتبت لسموّ الدوق ما مفاده إني سأعود دون حاجة منه لأن يرسل في طلبي. لأني رحلت لرغبةٍ خالجتني دون أن يرغمني أحد عليها. وبعد وصولي البندقية عدت أفكر بسوء حظي، وكيف تُوجّه اليّ الضربات القاسية غدراً. وعجبت لبقائي سليماً معافى رغم ذلك كله. فقوي عزمي على المقاومة والدفاع كعادتي. واصلت التفكير في أموري على هذا المنوال ووجدت سلامي المنشود في

تلك المدينة الجميلة الحافلة بآيات الفنّ. ثم إنطلقت للسلام على (تيتيان Titian)[1] الرسام العبقري. وعلى مواطننا الفلورنسي النحات القدير والمهندس الألمعيّ (جاكوبو سانسوفينو Jacobo Sansovino) الذي كان يحظى بمنزلة كبيرة عند حاكم البندقية. تعارفنا في أيام الصبا أيام كنت في روما. وجددنا المعرفة في فلورنسا مسقط رأسه إحتفى بي هذان الفنانان العظيمان ورحّبا بعظيم مودة.

في اليوم التالي إلتقيت صدفة السيد (لورنزو دي مديتشي)[2] فأسرع فوراً يصافحني ويرحّب بي أجمل ترحيب. فقد عرف أحدنا الآخر في فلورنسا عندما كنت أشتغل في ضرب سكّة الدوق (أليساندرو)[3] وبعدها في باريس عندما كنت في خدمة الملك. وكان آنئذ ضيفاً على (كويليانو بوناكورزي Giuliano Buonaccorsi) ولما لم يكن يملك موضعاً يمضي في أوقاته دون التعرض لخطر كبير، فقد اعتاد قضاء معظم ساعات يومه في قلعتي يتابع عملي في تلك الآثار الفنيّة العظيمة. قلت انه وبسبب معرفتنا القديمة أخذ بيدي وإقتادني إلى بيته وهناك وجدت النبيل (بريور دلي ستروزي) شقيق النبيل (بييرو) وسألاني وهما يرحبان بي مسرورين كم أنوي البقاء في البندقية ظانين أني في طريقي إلى فرنسا. فصارحت هذين النبيلين بالأسباب التي حملتني على ترك فلورنسا وهو ما شرحته آنفاً. ثم قلت إني أعتزم العودة لخدمة الدوق الأكبر ـ بعد يومين أو ثلاثة. ما إن تلفظت بهذه العبارة حتى طفق كلّ من (لورنزو) و(بريور) يحدّقان بي بصرامة، فشاع في أوصالي خوف عظيم. بعدها قالا:

ـ خير لك أن تعود إلى فرنسا فأنت هناك ذائع الصيت غنيّ ولو عدت إلى فلورنسا فستخسر كلّ ما نلته في فرنسا. ولن تُكافأ إلاّ بالمتاعب.

---

(1) تيتيان فيجيللي 1490 ـ 1576. رسام بندقي ذائع الصيت. أشهر آثاره (صورة الحبل بلادنس) وترى رسومه في الكنائس الأثرية في عدة من إيطالية.

(2) (1514 ـ 1548) إنتهز لورنزو نقمة الفلورنسيين على اليساندرو فاغتاله في العام 1537، وكان صديقه وعشيره في لهوه فضلاً عن صلة القرابة ـ ظاناً ان الثورة ستعم فلورنسا وسينصب هو دوقاً بدلاً عنه. ولما لم يحصل ذلك فقد هرب إلى مدينة بولونيا ثم إلى تركيا ثم إلى فرنسا وأخيراً لجأ إلى البندقية حيث اغتيل بيد مجهول. وهذا يفسر وجوده مع آل ستروزي كما ذكر چلليني.

(3) بعد أن وقع الصلح بين كليمنت السابع البابا والإمبراطور في العام 1531 سيق جيش إلى فلورنسا وبعد حصار دام (11) شهراً إستسلمت المدينة وقُضي على الحكم الجمهوري واعيد اليساندرو دوقاً.

لم أجبهما بشيء. وفي اليوم التالي إنطلقت عائداً إلى فلورنسا سرّاً دون علم أحد بقدر إمكاني[1]. في أثناء ذلك كانت القضية الشيطانية قد شاعت، كما أني كنت قد كتبت للدوق المعظَم مطلعاً إياه على الأسباب والظروف التي حملتني على الرحيل إلى البندقية.

إستقبلني الدوق بتحفظه المعتاد وبصرامة ولكن بدون إثارة ضجة. وظلّ تعامله معي مشوباً بالبرود ساعة من الزمن ثم إستدار نحوي هاشاً باشاً وسألني أين كنت؟ فأجبته أن قلبي لم يتحول قيد أنملة عن سموّه الجليل وإن أرغمتني أسباب معينة وجيهة على إطلاق العنان لجسدي ليتجول ويدور ضمن مسافة قصيرة. بعدها شرع يسألني عن البندقية وزاد إقباله عليّ. وتبادلنا الحديث برهة. في الختام شدّد عليّ بمواصلة العمل والفراغ من (برسيوس). فعدت إلى داري سعيداً بقلب خالٍ من الهمّ. وارتاحت أسرتي أي أختي وبناتها الستّ بعد قلقٍ. وباشرت العمل وقطعت فيه أشواطاً بهمّة ونشاط.

كان أوّل ما تعيّن عليّ صبّه بالبرونز ـ التمثال النصفي الكبير الذي عملته لسموّه من الصلصال في دكان الصياغة عندما داهمتني آلام الظهر. وكان عملاً بسيطاً لا تعقيد فيه ما دفعني إليه إلاّ حرصي على إختبار الصلصال ومقدار صلاحه لصبّ البرونز. كنت قد علمت أن (دوناتللو) الملهم قد إستخدم صلصالاً فلورنسياً عندما صبّ تماثيله البرونزية. إلاّ أنه عانى منه أشدّ الصعاب حتى أصاب نجاحه. وبما أني تصورت أن المشقّة التي عاناها كانت بسبب رداءة الصلصال، فقد رأيت أن أقوم بهذه التجارب قبل شروعي بصبّ (برسيوس). على أنه إتضح لي بعد تجاربي بأن الصلصال جيد وأن (دوناتللو) العظيم لم يتفهم خواصه تفهماً تاماً ولهذا عانى ما عاناه. ومهما يكن فقد أعددت الصلصال بأحسن ما يمكن واعتنيت عناية فائقة بعجنه وخلطه فكان نجاحي فيه كبيراً، واستخدمته كما قلت في صبّ التمثال النصفي. ولما

---

(1) يستنتج من عودة چلليني السريعة. ان الخوف الشديد من إتصاله بأقطاب الجمهوريين الفلورنسيين المنفيين في البندقية قد يضعه موضع شبهة ويجرّ عليه متاعب ومشاكل تزيد بكثير عن قلقه من القضية التي ارغم على ترك فلورنسا بسببها.

لم أكن بعد قد بنيت مسبكي الخاص فقد إستخدمت له مسبك (زانوبي دي بانيو Zanobi di Pagno) صانع الأجراس.

ولما ظهر الرأس جميلاً نظيفاً لا تشوبه شائبة، شرعت فوراً في بناء مسبك صغير في الدكان الذي كان الدوق قد ملكني إياها. وتم بناؤه طبقاً لمخططي وفكرتي. وكنت أنوي بناءه في البيت الذي وُهب لي. لم أكد أفرغ من البناء حتى بدأت أستعد ـ محشداً كلّ طاقاتي ـ لصبّ مجسّم المرأة (ميدوسا) التي تتخبط تحت قدمي (برسيوس). ولما كانت العملية في غاية الصعوبة فقد حزمت أمري على الإفادة من كل المهارات والخبر التي اكتسبتها لتفادي أية هفوة ممكنة. وبنتيجة ذلك خرجت القطعة الأولى في غاية الكمال والنظافة، بحيث أشار عليّ أصدقائي بأني قد أخطئ في إجراء أي تهذيب عليها أو مسّها بتعديل. هذه الطريقة كان قد وقف عليها صنّاع ألمان وفرنسيون فادعوا إلى جانب إمتلاكهم بعض الأسرار الدفينة في هذا المجال ـ بأنهم قادرون على صبّ البرونز من غير حاجة تدعوهم إلى تهذيب أو معالجة تالية للقطعة المصبوبة. وهو في الواقع إدعاء سخيف. اذ بعد ان يصبّ البرونز ويُسبَك بالهيئة المطلوبة لا بدّ وأن يُعالج بالإزميل والمطرقة، وهو ما كان يفعله أعاظم المثالين، القدماء منهم والمحدثين أو على الأقل أولئك المحدثين الذين يشاركونني المعرفة بهذا.

سرّ سموّه بالنتيجة وتردد اليّ عدة مرات لمشاهدة هذا الجزء من التمثال مشجعاً حاثاً على تحقيقي مزيداً من النجاح. إلاّ أن الحسد الجنوني الذي كان يكنّه لي (باندنللو) ظل يلاحقني. فلم يكفّ عن صبّ إفتراءاته عليّ في أذنيّ سموّه، فأثر فيه بدرجة كبيرة حتى حمله على الظن بأني وإن نجحت في صبّ قطعة أو قطعتين من التماثيل، سأخفق إخفاقاً تاماً في صبّ المجموعة التي يتألف منها التمثال لأن هذا الفن مجهول بالنسبة اليّ. وإن على سموّه أن يحرص على أمواله لئلا تضيع. بلغ من تأثير هذه الأقوال في مسامع الدوق النبيلة حدّاً أدى إلى قطع بعض الأجور المخصصة لعمالي. فإضطررت نتيجة لذلك إلى الشكوى الشديدة لسموّه. إنتظرته يوماً في درب (سرڤي Via de Servi) وما أن أقبل حتى وجهت الكلام إليه قائلاً:

- مولاي إن طلباتي لا تُسعف وحاجاتي لا تُسدّ. وأنا أخشى أن تكون ثقة سموّك بي قليلة. دعني أكرر لك بأني قد وعدت وتعهدت بأن يكون عملي أجمل من النموذج الذي عرضته عليك بثلاثة أضعاف.

بعد تلفظي بهذه العبارات التي قوبلت منه بصمت ولم تجد رداً، أدركت أنها لم تثمر فيه. فأدركني الغضب الشديد. وكدت أختنق من فرط تغلب العاطفة.

شرعت أقول:

- لا نكران يا مولاي في ان هذه المدينة كانت دوماً مدرسة لأسمى العبقريات. لكن وبعد أن يُوفق المرء فيها إلى نيل الشهرة لنفسه وينجح في إكتساب معارف قليلة، فإنه يطمع في أن يضيف مجداً اخر إلى أمجاد مدينته وأميرها الجليل بالعمل في مجالات أخرى ولإثبات حقيقة هذا الأمر، دعني أذكّر سموّه بما هو غير خافٍ عليه. إن (دوناتللو) و(ليوناردو دافنشي) العظيم في الزمن الخالي و(ميكالنجو بوناروتي) العبقري الملهم في زمننا الحاضر، هؤلاء الرجال أضافوا بعبقريتهم مجداً إلى مجد سموّك. وإني لأرغب في أن أضرب بسهمي هذا المضمار فأجزني بالسفر يا مولاي لكن فليكن سموّك حريصاً على أن يُبقي (باندنللو) في فلورنسا ولا يغادرها بل ليمنحه سموّك أكثر مما يطلب دائماً. فلو قصد مكاناً آخر فإن جهله المطبق وغروره المفرط سيحطّ على أكثر تقدير من سمعة مدرسة فلورنسا الفنية ذات العماد الرفيع. ألا فلتسمح لي يا مولاي بالرحيل ولن أطلب شيئاً ما عن أتعابي حتى هذه اللحظة أكثر من عطف ورضا سموّكم العالي القدر.

لما وجد سموّه مبلغ تصميمي وصحّة عزمي إلتفت اليّ غاضباً وقال:

- بنفنوتو! إن كنت تريد الفراغ من أعمالك، فلن أدعك في حاجة إلى شيء.

فشكرته وقلت ان رغبتي الوحيدة هي أن أثبت لحسّادي عزمي وتصميمي على إنجاز ما وعدت به. بعد أن تركت سموّه، حملت اليّ مساعدة صغيرة، صغيرة جداً بحيث ألجأتني إلى مدّ يدي إلى جيبي لأضمن التقدم بعملي بخطىً أسرع من الزحف على أربع بقليل!

إعتدت الذهاب إلى خزانة الثياب في قصر سموّه لقضاء بعض الوقت مع

(دومينيكو) وأخيه (جيانباكولو) في الأمسيات. وكانا يشتغلان في إناء ذهبي للدوقة نوهت به سابقاً، فضلاً عن حزام ذهبي. كذلك كلّفني سموّه بعمل أنموذج لقلادة سترصع بها الألماسة الكبيرة التي جرّه إلى شرائها (برناردو) و(أنطونيو لاندي). حاولت التنصّل والإعتذار عن هذا التكليف إلا أن الدوق بكثير من الإطراء والمجاملة أقنعني بالعمل فيها دائباً منذ المساء حتى الساعة الرابعة بعد الغروب. وحاول بمعسول القول ولطف الطلب أن يحملني على الإشتغال هناك أثناء النهار أيضاً، فلم أنزل عند رغبته وبقيت مصرّاً لعلمي اليقين بأن رفضي هذا سيكون سبباً في سخط الدوق عليّ. واتفق اني جئت متأخراً مساء ذات يوم ـ على غير عادتي فإبتدرني الدوق قائلاً:

ـ إنك (مالفنوتو)[1]!

أجبت:

ـ مولاي! هذا ليس بإسمي، وأنا أدعى (بنفنوتو). لكني أعتقد أن سموك يقصد ممازحتي، ولذلك سأنسى المسألة.

فأجاب الدوق إنه جادّ كل الجدّ وإنه لا يمزح. وإن عليّ أن أراقب سلوكي، فقد بلغ سمعه بأني معتمداً على رعايته وحظوتي عنده، أخادع هذا وأستلب ذاك. ولما رجوت سموّه الجليل أن يتكرّم عليّ بإسم شخص واحد على الأقل وقع ضحية خداعي. إلتفت اليّ حالاً وقال بعصبيّة:

ـ إذهب وأعد إلى برناردو ما سلبته من أدواته. وهذا واحدٌ من الأشخاص الذين احتلتَ عليهم. فأجبتُ قائلاً:

ـ إنّي أشكرك يا مولاي وأرجو أن تتلطّف بالإصغاء إليّ وأنا في سبيل عبارتين لا غير. لانكران في أنّ برناردو أعارني سلّمين قديمين وسندانَيْن وثلاث مطارق صغيرة. وقبل أسبوعين من يومنا هذا نبّهتُ مساعده (جيورجيو دا كورتونا Giorgio da Cortona) بأن يرسل من يحمل هذه العُدد والأدوات إلى صاحبها. وأقبل (جيورجيو)

---

(1) يعني (شرّ مَقدَم) وهو معكوس المعنى المستخلص من إسم (بنفنوتو) أي (خير مَقدَم). [نوّهنا بذلك في حاشية سابقة].

نفسه فحملها. إن ثبت لسموّك بأنّي منذ جئتُ إلى هذه الدنيا حتى الآن، قد اغتصبتُ أيّ شيء من أيّ شخص أفي روما أو في فرنسا، وسواء في ذلك أعلمت ذلك من الناس الذين أبلغوك بهذه الحكاية أو من غيرهم، لو أنّك إكتشفت فيّ شيئاً من هذا القبيل فلكَ أن تُنزل بي العقاب الذي أستحقّه دون أن تأخذك بي رحمة.

عندما وجدني في حالة شديدة من الهياج، نظر اليّ ذلك الدوق المحبوب الحكيم وقال:

- إن تأنيباً كهذا لا يُقصد به الأبرياء طبعاً، وإن كانت المسألة كما تدّعي فسأستقبلك دائماً مرحباً بك ومسروراً بمقدمك كما كنت أفعل قبلاً.

فقلت:

- والآن يا صاحب السمو - نظراً إلى موقف (برناردو) الشائن أراني مرغماً على هذا السؤال: كم دفعت ثمناً لهذه الألماسة الكبيرة ذات الرأس المقطوط؟ إني لآمل في أن أثبت بالبرهان الدامغ عما حدا بهذا المحتال الزنيم والوغد الكبير إلى محاولة النيل من شرفي وسمعتي.

قال سموّه:

- كلفتني الألماسة خمسة وعشرين ألف دوقية. ما قصدك من هذا السؤال؟

عندها أخبرت سموّه، انه في يوم كذا وكذا وفي الساعة كذا في منعطف من منعطفات السوق الجديد، طلب مني (أنطونيو فيتوريو لاندي) بالتوسط له عند سموّه لشرائها. وكان الثمن المبدئي الذي رسمه لها ستة عشر ألف دوقية. ثم إستتليت:

- وها أنت تدري ياصاحب السموّ كم دفعت بها. وإن شئت دليلاً على ما أقول، فسل (دومينيكو يوجيني) وأخاه (جيانباكولو) وكلاهما موجود فقد أعلمتهما بالأمر فور وقوعه. إلاّ أنّي منذ ذلك الحين وبعد أن حكم سموّك بأني لا أفهم شيئاً في الموضوع - لم أنطق بكلمة واحدة وحفظتها في نفسي مستنتجاً بأنك تقصد المحافظة على سمعة الألماسة الحميدة. وقد وجب عليّ القول يا مولاي بأني على دراية بهذا الموضوع. وأما عن القضية الأخرى، فإني لا أخجل من الإدعاء بالإستقامة والأمانة مطاولاً أي مخلوق على وجه البسيطة مهما كانت سمعته. أنا لست بذلك

الذي يحاول سرقتك، فيختلس منك ثمانية أو عشرة آلاف دوقية صفقة واحدة. بالعكس إني أحاول كسبها بكدّ يميني وعرق جبيني. لقد إضطلعت بخدمة سموّك مثّالاً وصائغاً ومديراً لدار الضرب فحسب، وأنا أربأ بنفسي عن وظيفة الواشي والنمّام ونقل الحكايات عن أمور الآخرين الخاصة، وأقوالي هذه هي دفاعي عن نفسي فقط. وإني لأزهد الناس في المكافأة التي تعطي للمخبر الواشي. لقد قلتُ ما قلتُ بمحضر من هؤلاء الطيبين الواقفين حولنا كيلا يصدق ما يزعمه (برناردو).

نهض الدوق منتصباً وقد بان عليه الغضب وأرسل حالاً بطلب (برناردو). فاضطر هو و(أنطونيو لاندي) إلى الفرار واللجوء إلى البندقية. رحلا إليها وبعد قليل عادا وأخبرني (أنطونيو) بأنه كان في حديثي معه يقصد ألماسة أخرى غير تلك التي باعها من الدوق.

وراجعت الدوق وقلت له:

ـ مولاي إن ما قلته لك عن الأدوات المستعارة من (برناردو) هو الصحيح وما زعمه لك هو الكذب الصراح. ولتسمح بإجراء الرأي الصائب وهو أن يُفتح تحقيق رسمي، وأن تدعني أراجع رئيس الشرطة.

نظر الدوق اليّ ملياً ثم قال:

ـ أي بنفنوتو، إحرص على حياةٍ مستقيمة مثلما كنت في الماضي. ولا تدع للقلق والاهتمام بغير ذلك سبيلاً إلى نفسك.

وتنوسيت القضية. وتلاشت كما يتلاشى الدخان وكان هذا آخر عهدي بها.

تفرغت إلى القلادة. وبعد إنتهائي منها حملتها إلى الدوقة فقالت لي بالحرف الواحد بأنها تقوّم صنعتي بثمن الألماسة التي توسط (برناردو) المذكور في شرائها. وشاء لطفها أن أقوم بتثبيتها إلى صدرها وناولتني دبوساً كبيراً ففعلت. ثم عدت إلى منزلي بعد أن أغدقت عليّ الكثير من المديح والثناء.

وبعد زمن طرق سمعي بأنهم رصعوا الألماسة في حلية أخرى قام بصياغتها صائغ ألماني أو أجنبي آخر. كم هو مبلغ ذلك من الصحة؟ لا أدري. فلقد حكم

(برناردو) بأن الألماسة ستزداد ظهوراً وبروزاً إن رصعت في حلية أكثر بساطة من حليتي وأقل تعقيداً.

يخال لي أني نوهت قبلاً بقيام الصائغين الأخوين دومينيكو وجياناكولو بوجيني بالعمل في خزانة ثياب قصر سموه المعظم مستخدمين نماذجي التي صنعتها لآنية ذهبية صغيرة مزدانة بمجموعة من التهاويل البارزة ولغيرها من الحلي ذات القيمة العالية. وكنت لا أفتأ أقول للدوق:

- مولاي! لو إستأجر لي سموّك الأفخم عدداً من العمال فسأقوم بصنع سكة لك في دار الضرب فضلاً عن ميداليات ينقش عليها رأس سموّك الموقّر، وسأضاهي وأبزّ بها كل ماخلّفه الأقدمون منها. لأني إكتسبت كثيراً من الخبرة والمعرفة منذ صنعي ميداليات البابا كليمنت. سأكون قادراً على إخراج أفضل التحف ولسوف أفوق بها السكة التي ضربتها للدوق (أليساندرو)، تلك السكة التي ما زالت تعدّ نموذجاً رائعاً. كما سأعمل لك آنية من الذهب والفضة كتلك التي صنعت العديد منها للملك الجليل فرانسوا ملك فرنسا. وبسبب المعونات الكثيرة التي قدمها لي كان في وسعي أن أعجّل في صنع التماثيل العملاقة وخلافها من التماثيل أيضاً.

فقال الدوق مجيباً:

- إمضِ قدماً وسأنظر في أمر مساعدتك.

لكنه لم يزودني بأي مساعدة، ولم يسهّل أموري قط. وفي ذات يوم دفع اليّ بضع أوقيات من الفضة وهو يقول:

- هذا من فضة مناجمي. إصنع لي منها إناءً جميلاً.

لم يكن بوذّي إرجاء الإشتغال بـ(برسيوس) إلا أني كنت في الوقت نفسه أحرص على تنفيذ طلباته وخدمته، ولذلك عهدت إلى وغدٍ من الصاغة يدعى (بييرو دي مارتينو Peiro di Martino) بمهمة صناعة الإناء الفضيّ بعد أن زودته بنموذج شمعي مع تخطيط. فبدأ به بداية سيئة وتلكأ في عمله وهكذا ضيعت وقتاً كثيراً يزيد بكثير عمّا لو قمت أنا بصياغته. فبعد أن ضاعت أشهر عليّ و(بييرو) لا يقربه ولا يكلّف أحداً به، إسترجعته وعانيت مشقة عظيمة في إعادة الإناء إلى هيئته الأصلية. وكنت

كما قلت ـ قد بدأت العمل قبل دفعه إلى (بيبرو). أما الدوق الذي نما إليه طرف من الحكاية فقد أرسل بطلب الإناء والنموذجات دون أن يعرّفني بالقصد من ذلك. وكانت النتيجة أن دفع به إلى أيادٍ عديدة في مدينة البندقية، فلم يجيدوا الصنعة فيه قطّ.

دأبت الدوقة على طلب صياغة بعض الحلي لها. فكنت أجيبها بقولي:

ـ الكلّ يعلم يقيناً وإيطاليا كلّها تشهد بأني صائغ جيّد. إلاّ أن هذه البلاد لم تر منحوتة أو تمثالاً من صنعي. هناك بين أبناء حرفتي عدد من النحاتين الخبثاء الذين يهزأون بي ويصفونني بالنحّات المبتدئ، بيد أني آمل أن أريهم فيّ نحّاتاً عتيقاً متمرساً إن مكّنني الله من إكمال برسيوس وعرضه في ميدان سموّه الشريف.

عدت إلى داري وتفرغت للعمل المتواصل ليلاً ونهاراً وانقطعت عن الذهاب إلى القصر. على أني رأيت ضرورة الإبقاء على حظوتي عند الدوقة ونيل رضاها. فصنعت لها عدداً من المزهريات الفضية. وكانت بحجم تلك الآنية الرخيصة المبتذلة. وزيّنتها برؤوس وصور جميلة بأسلوب يخالف المألوف وعلى طريقة الأقدمين. أخذتها إليها فاستقبلتني بلطف لا مزيد عليه وسددت لي قيمة الفضة والذهب اللذين وضعتهما في المزهريات ثم رجوتها أن تعلم الدوق بأني لا أتلقى إلاّ أقلّ مساعدةٍ في عملي الذي كُلّفت به وأن لا يُعير كبير اهتمام لقول ذلك الشرير (باندنللو) وإفتراءاته التي حالت بيني وبين إتمام (برسيوس). بعد هذه الشكوى الباكية هزّت الدوقة كتفيها وقالت:

ـ بالتأكيد يجب على الدوق أن يسمع هذا، وهو أن صاحبه (باندنللو) هذا لا يساوي قلامة ظفر.

لازمت داري لا أرتاد القصر إلاّ في النادر وانكببت على عملي بغية الفراغ من تمثالي بأسرع وقت. ثم حان أجل دفع أجور عمالي. والذي حصل حولها إن الدوق بعد أن أمر (لاتانزيو كوريني) بدفع مبلغ يسدّ أجور العمال لثمانية عشر شهراً. أخذ هذا يتأفف ويتمنّع ثم حرمني المنحة. وقال جواباً على طلبي وهو يلوّح بيديه العنكبوتيتين وينأم بصوته الشبيه بطنين البعوضة:

ـ لماذا لا تفرغ من تمثالك؟ المعتقد الشائع أنك لن تكمله قط.

فأسرعت فوراً إلى الرد عليه مهتاجاً:

- إلى سقر بك وبكلّ من يعتقد اني لن أكمله!

وقادني يأسي إلى داري حيث (برسبوس) ذو الحظ العاثر. وتذكرت بعينين دامعتين. المركز الرفيع الذي خلّفته ورائي في باريس وأنا في خدمة ملك فرنسا الكريم الذي أعطاني الكثير من كلّ شيء في حين أنا الآن في فلورنسا خالي الوفاض لا أملك شيئاً. وبدافع اليأس خالجتني فكرة ترك كلّ شيء وفي واحدة من هذه الحالات النفسية النكدة ركبت حصاني الجميل وانطلقت به إلى (فييزولي Fiesole)[1] وفي جيبي مائة كراون قاصداً زيارة إبني الطبيعي الذي كنت قد أودعته في حضانة صديقةٍ هي زوج أحد عمالي. فوجدت الطفل في صحة جيدة جداً وقبّلته وأنا كسير القلب حزين. وعندما أزفَ وقت رحيلي تعلّق بي وأبى أن يتركني. أمسكني بيده الصغيرة وانفجر يبكي بكاءً مرّاً ويصرخ. فعجبت لصدور هذا من طفل لا يتعدى عمره السنتين:

إعتاد (باندنللو) إرتياد مزرعته الواقعة فيما يلي (سان دومينيكو) مساء كلّ يوم. فقررت في لحظة يأس أن ألقي بنفسي عليه إن إلتقيته. إنتزعت نفسي من إبني الصغير وتركته وعيناه تكادان تنفجران بكاءً. وما أن بلغت ميدان (دي سان دومينيكو)[2] وهو على الطريق المؤدية إلى المدينة، حتى لمحت (باندنللو) داخلاً من النهاية الأخرى. فقررت في الحال تنفيذ ما صمّمت عليه بهجوم قتّال فدنوت منه ونظرت إليه فإذا هو أعزل يعتلي متن بغلٍ أو حمارٍ زري الهيئة برفقة صبي في العاشرة. ما إن فطن إلى وجودي حتى علت وجهه صفرة الموت وأخذ يرتجف ويرتعش من قمة رأسه إلى اخمص قدمه. وعندها راجعت نفسي مدركاً العمل الشائن الذي كنت أهمّ بالإقدام عليه. فقلت:

- لا تخف أيها الجبان الرعديد. فإني لن أحطّ من قدر نفسي بضربك.

تطلّع اليّ بذلّة وإنكسار ولم ينبس ببنت شفة. هكذا تغلب الجانب الطيّب مني

(1) ضاحية تقع شمال فلورنسا وتبعد عنها زهاء ثمانية كيلومترات.
(2) مازال هذا الميدان محتفظاً باسمه إلى يومنا هذا. [حاشية مكداول].

وحمدت الباري الذي عصمتني قدرته وألطافه من إرتكاب مثل هذه المعصية. بعد أن تحررت من غضبي الشيطاني إرتفعت معنوياتي وقلت لنفسي:

ـ إن لطف الله بي وأعانني على إنجاز عملي فإني آمل بهذه الوسيلة قهر كلّ أعدائي الغذارين وسأنال ثأراً أعظم مما لو صببت جامه على أحدهم.

بهذا العزم الجميل عدت إلى داري. وبعد ثلاثة أيام وردني نبأ إختناق إبني الوحيد بإهمال الحاضنة. فكان حزني يفوق كلّ أحزاني السابقة ولم أجد إلا أن أركع على ركبتيّ باكياً شاكراً الباري وقلت باللهجة التي إعتدتها في مثل هذه الظروف:

ـ إلهي! أنت أعطيته وأنت أخذته وأنا أحمدك وأشكرك على كلّ حال ومن صميم قلبي.

ومع حزني الذي كاد يسحقني تحته، تجمّلت بالصبر وجعلت من الضرورة فضيلة وكعادتي روّضت نفسي على الصبر والتحمل.

في حدود ذلك الزمن، إتفق أن شاباً في مقتبل العمر يدعى (فرانتشسكو) ابن (ماتيو) الحداد. ترك العمل عند (باندنللو) وجاءني يطلب عملاً عندي. فرحبت به وكلّفته بصقل وتنظيف تمثال (ميدوسا) الذي كنت قد فرغت من صبّه. وبعد مرور أسبوعين أخبرني هذا الشاب بأن حديثاً جرى بينه وبين (باندنللو) وإن (باندنللو) هذا حمّله رسالةً لي، مجملها انه على إستعداد لإهدائي رخامة ثمينة إن كنت أرغب في نحت تمثال من الرخام. فأجبت على الفور:

ـ قل له إني أقبل. وأتعشم أن تكون شاهداً يوضع على قبره. ان الرجل لا يفتأ يستفزني. ولعله نسي الخطر الماحق الذي كان يواجهه عندما التقاني في ميدان (سان دومينيكو). أجل قل له إني أريدها على كلّ حال. أنا لا آتي إلى ذكره ولا أتحدث عنه قطّ إلا أن الحيوان يصرّ على إزعاجي وإقلاق راحتي وما أظن مجيئك اليّ وعملك عندي إلا لأنه أرسلك للتجسس على أشغالي، ومهما يكن من أمر قل له إني أقبل الرخامة رغم أنفه، فاذهب وجئني بها.

مرت عدة أيام وأنا معتكف في بيتي لا أزور القصر ثم خطر لي فجأة أن أتوجه إليه في صبيحة يومٍ. وجدت الدوق قد فرغ لتوه من تناول طعامه ومما سمعته هناك

هو أن سموّه كان في ذلك الصباح يشيد بي ويمتدحني. ومما نوه به في هذا الصدد مهارتي في التكفيت ورصع الأحجار الكريمة. الخلاصة أن الدوقة لما رأتني أرسلت النبيل ستورزا Storza تستدعيني إليها ولما قدمت نفسي لسموّها الأفخم طلبت مني أن أقوم بصنع خاتم صغير لألماسة صغيرة مقببة. قالت إنها ستضعه دوماً في خنصرها. ودفعت اليّ بالألماسة التي كانت تسوى مائة كراون تقريباً فضلاً عن المقياس المطلوب راجية مني الإستعجال فيه. فبادر الدوق الذي كان حاضراً، يناقش موضوعي مع الدوقة، إذ قال:

ـ لا شك أن بنفنوتو وحيد عصره في مجال صناعته. لكني أتصور بعد ان هجرها إن تكليفه بخاتم صغير كالذي طلبته سيتعبه كثيراً لذا ارجو ان لا تثقلي عليه به رغم تفاهته فإنه سيتضايق منه بعد ان طلّق حرفته.

شكرت الدوق على أحاسيسه ثم رجوته ان يسمح لي بتقديم هذه الخدمة الصغيرة للدوقة. وبدأت العمل دون تلكؤ فأكملته في بضعة أيام. وكانت قد قررت أن تضعه في خنصرها ولذلك جعلتُ فيه ثلاثة ملائكة صغاراً بارزة، وأربعة أقنعة صغيرة. ثم نظمت حول الألماسة بعض الثمار مطلية بالمينا وربطتها بها، فبدا الخاتم بأجمل ما تقع عليه العين. أخذته من فوري إلى الدوقة، فقالت بلطف وإستبشار إني صنعت لها أجمل حلية وأردفت تقول إنها لن تنساني. ثم إنها أرسلت الخاتم هدية إلى الملك فيليب[1]. ثم واصلت تكليفي بصنع الحلي وكان أسلوبها في الطلب رقيقاً ساحراً يضطرني مرغماً على تلبيته مع أني ما كنت أرى من مالها لقاء أتعابي إلاّ القليل. والله يدري كم كنت في حاجة إلى شيء منه. فقد أردت الفراغ من (برسيوس) واستخدمت لمساعدتي فيه عدداً من الشباب كنت أدفع أجورهم من جيبي. وعدت أتردد إلى القصر أكثر مما كنت أفعل في السابق.

---

(1) هو الملك والإمبراطور فيليب الثاني (1527 ـ 1598) ابن شارلكان ملك إسبانيا. تولي الحكم بعد وفاة ابيه وسار على نهجه في توسيع رقعة أملاك أسبانيا وفي عهده مني الأسطول الذي وجهه لغزو بريطانيا (الأرمادا) بهزيمة ساحقة في (1588).

في يوم عيدٍ أو ما أشبه قصدت القصر بعد الغداء. وما إن إحتوتني (غرفة الساعة) حتى لاحظت أن باب خزانة الثياب مفتوح فدنوت منه قليلاً وإذ بالدوق يناديني ويحييني ببشاشة قائلاً:

- مرحباً بك. الق نظرة على هذا الصندوق الصغير الذي أهداه لي السيد (ستيفانو بالسترينا Stefano Palestrina) افتحه ودعنا نرى ما فيه.

فبادرت إلى فتحه وقلت للدوق:

- مولاي. أنه تمثال من الرخام اليوناني. وهو أثر فني رائع. وأنا لا أتذكر اني شاهدت مثل هذا التمثال الاثري - الذي يمثل صبياً صغيراً منحوتاً - بهذه الدقة والجمال. وليسمح لي سموّك الأفخم بأن أعرض عليك إصلاحه، أعني بإضافة الرأس والذراعين والقدمين وسأضعه على نسر كي يصح إطلاق إسم (كانيميد)[1] عليه. ومع أن ترميم التماثيل ليس من شأني (هذا النوع من العمل يناط عادة بالمرقّعين وهم أجهل الناس) فإن مهارة هذا النحات العظيم تسوقني إلى خدمته.

سُرّ الدوق كثيراً بمعرفة قيمة التمثال وجماله. وأمطرني بالعديد من الأسئلة حوله:

- قل لي يا عزيزي بنفنوتو، ماذا حقق النحات الصانع فيه بالضبط بحيث حملك على الإعجاب بالتمثال؟

وهنا بذلت جهدي لإبراز النواحي الفنية فيه والأسلوب النادر الذي إتبعه النحات والإدراك الدقيق لأسرار الفن الذي يحتويه. وواصلت الضرب على هذا الوتر ملياً وأنا مسرور لأني كنت أعرف مبلغ إستمتاع الدوق بالإصغاء اليّ عند بحث هذه المواضيع.

وبينما أنا أنادم سموّه بهذا الشكل اللطيف. إتفق أن أحد الحجّاب خرج من غرفة الثياب وقبل ان يتوارى دخل (باندنللو) فقطّب الدوق عند رؤيته وقال بلهجة خلت من الودّ:

- عمّا تبحث؟

(1) في الأساطير اليونانية: شاب جميل حمله (جوبتر) إلى الأولمب ليكون ساقي الآلهة.

وبدلاً من الإجابة فوراً، أرسل (باندنللو) طرفه إلى الصندوق الصغير حيث التمثال قائم ظاهر وقال للدوق وهو يضحك بخبث ويهزّ رأسه:

ـ مولاي، لديك هنا واحدٌ من تلك الأشياء التي طالما حدّثتك عنها. هؤلاء الأقدمون كما ترى لا يفقهون شيئاً عن تشريح الجسم البشري. ولذلك كانت آثارهم ملأى بالأغلاط.

بقيت ساكناً غير ملقٍ بالاً إلى حديثه، بل إنني أدرت له ظهري. وما أن فرغ الحيوان من ثرثرته السمجة حتى ابتدرني الدوق قائلاً:

ـ لكن هذا يا بنفنوتو يناقض كل ما برهنته لي بمنطق ساحر للغاية. ألا دعنا نسمعك وأنت تدافع عن التمثال قليلاً.

قلت رداً على سؤال الدوق الذي وجهه بكلّ لطف:

ـ مولاي! على سموّك الأفخم أن يدرك بأن (باجيو باندنللو) هو الشرّ مجسماً وقد كان كذلك دوماً. ولهذا فإن كلّ شيء يقع عليه نظره الكريه ينقلب إلى قبح وشرّ بالغ ما بلغ من الجمال والرفعة. لكنني أنا الذي كنت دائماً أنجذب إلى كلّ ما هو جميل وطاهر ـ أرى الأشياء من زاوية صافية نقيّة ولهذا فإن ما عرضته لسموّك حول التمثال البالغ قمة الجمال، هو الحقّ الصراح وإن ما قاله عنه (باندنللو) إنما يعكس سوء طبعه.

وقف الدوق يصغي اليّ بغاية اللذة والإنشراح. وكان (باندنللو) أثناء حديثي يديم التململ والتأوّد وتنقلب سحنته لتبدو غاية في القبح على قبحه بالأصل. ثم ترك الدوق القاعة سالكاً سبيله عبر حجرات في الطابق الأسفل وسار (باندنللو) في أعقابه تابعنا الدوق والوصفاء يمسكون بطرف معطفي ويقودونني عبرها حتى بلغ سموّه غرفة فاتخذها مجلساً ووقفنا أنا و(باندنللو) كلّ إلى جانب لا ننطق بحرف والرجال يحفّون بنا وبضمنهم عدد من خدم سموّه، والجمع يوجّه إلى (باندنللو) نظراً حديداً ويتهامسون فيما بينهم حول ما قلته في الغرفة العليا. ثم بدأ (باندنللو) هراءه بالقول:

ـ مولاي. عندما أزحت الستار عن تمثالي (هرقل وكاكوس)[1] كنت متأكداً بأن أكثر من مائة قصيدة مبتذلة قد نظمت بحقي تتضمن أقذع شتائم يمكن أن تصدر من أمثال هؤلاء الرعاع.

فقلت جواباً على هذا:

ـ مولاي. عندما أزاح مواطننا (ميكالنجلو بوناروتي) الستار عن (سكرستيّه Sacristy)[2] بتماثيلها الجميلة العديدة. نظم فنانونا الموهوبون من نوابغ فلورنسا أصدقاء الحقيقة والتفوق أكثر من مائة قصيدة بحقها يسابق أحدهم الآخر في إزجاء أرفع المديح والثناء. فكما استحق عمل (باندنللو) كلّ الهجاء الذي يقول انه قُذف به كذلك كان عمل (بوناروتي) يستحق كلّ الإطراء الذي قيل فيه.

بلغ الغيظ بـ(باندنللو) حداً حسبت معه انه سينفلق. فالتفت اليّ وقال:

ـ وماهي تلك العيوب التي تأخذها عليه؟

ـ سأخبرك بها إن صبرت على سماعها.

ـ إذن فهات ماعندك.

كان الدوق والحاضرون يتطلعون إلى ما سأقول بكل شوق.

قلت أولاً:

ـ من الواجب عليّ أن أقول انه ليؤلمني الإشارة إلى عيوب تمثالك، لذلك فإني لن أتطرق إليها وسأقصر كلامي على إعلامك بأقوال شعراء فلورنسا عنها.

كان الرجل البائس تارة يتمتم بشيء سخيف، وتارة يحرك قدمه ويلوح بيديه.

---

(1) هذا التمثال الكبير مازال قائماً في (الأوفيزي) بفلورنسا. وهو ليس بالشكل الذي يصفه چلليني بطبيعة الحال. وهرقل في الأساطير اليونانية أشهر من أن يُعرّف به. أما (كاكوس) فهو ابن (فولكان) إله النار، لص وقاطع طريق سرق أبقاراً لهرقل واساقها فتعقبه هرقل واستعادها منه مهتدياً إليه بخوارها.

(2) حجرة قد تكون خارج البيعة أو خارجها. مخصصة لحفظ الآنية المقدسة والحلل الكهنوتية وغير ذلك من الآلية والحاجات الكنسية.

حتى أثارني إلى الحد الذي جعلني أبدأ بداية مهينة جارحة ما كنت لألجأ إليها لو انه تصرف بخلاف ذلك.

ـ . إن مدرسة الخبراء في فلورنسا تقول: لو أن شَعْر (هرقل) قد خُلق لما بقي من رأسه ما يكفي لإستيعاب دماغه. وإن المرء لا يدري أوجهَهُ هو وجه إنسان أم مزيج من رأس أسد وثور؟ وإن نظرته غير طبيعية، وإن إلتحام الرأس بالعنق هو على أسوأ ما يكون. إلتحام سيء قبيح لم يُشاهد مثله من قبل. وإن كتفيه القبيحتين تشبهان مقدمة ومؤخرة برذعة حمار النقل. وإن صدره وبقية عضلاته لم تستنسخ عن جسم بشري وإنما إستوحيت من غرارة عظيمة الجرم ملأى بالبطيخ ومستندة إلى حائط! وأما الحُقوان فكأنما نُقلا عن كيس من اليقطين المستطيل. وبخصوص الساقين فمن المتعذر أن يُفهم كيف تمّ وصلهما بالجذع ذي الشكل البائس. كما كان من الصعب ان يتبين المرء على أيّ من قدميه يقف أو على أيهما يوازن جسمه. ومن المؤكد أنه لا يبدو مركّزاً ثقله عليهما معاً، كما هو الحال في بعض التماثيل التي نحتها أولئك الفنانون العارفون من أسرار الصنعة. وكل ما يُشاهد منه هو أنه يميل إلى أمام بدرجة مَيل قدرها ثلث كوبيت (6 إنشات). وهذا بحدّ ذاته أسوأ خطأ يرتكبه هذا الصانع الفاشل السوقي. وهو ما لا يمكن إغتفاره له أبداً. أما عن الذراعين فقد قيل انهما يبرزان بصورة قبيحة ويفتقران إلى الأناقة حتى ليبدو وكأن النحات لم يشاهد جسماً بشرياً حيّاً عارياً. وقالوا أيضاً إن ساق هرقل اليمنى قد إلتحمت بساق (كاكوس) في الوسط بشكل لو أزيحت أية ساق منهما فإن كليهما ـ لا واحدة منهما ـ ستكون بدون ربلة[1] ويقولون كذلك إن إحدى قدمي (هرقل) قد دُفنت وإن الثانية تبدو وكأن أحدهم اشعل ناراً تحتها.

لم يطق الرجل صبراً على السكوت ولم يدعني أواصل وصف العيوب الكبرى في (كاكوس): أولاً لأني كنت أقول الحقيقة. وثانياً لأني كنت أكشف المعايب بكلّ وضوح للذوق وللحاضرين الآخرين الذين كانوا يعبّرون عن عجبهم ويكشفون عن إدراكهم بأني أصبت كبد الحقيقة.

---

(1) هي عضلة الساق الخلفية.

صرخ الرجل مقاطعاً:

- تباً لك أيها المفتري الخبيث. وما قولك عن نموذجي؟

قلت:

- من يحسن عمل النماذج لا يمكن أن يصنع تماثيل سيئة. لذلك فلي أن أحكم أن نموذجه هو من طينة عمله الرديء.

ثم ركبه الهياج لدى ملاحظته موقف الدوق والحاضرين والتعابير المرتسمة على وجوههم، فغلبت عليه صفاقته ووقاحته وأدار وجهه القذر القبيح نحوي وقال:

- اسكت أيها اللوطيّ القذر.

وقطب الدوق جبينه غاضباً. وزمّ الآخرون شفاههم وراحوا يبحلقون فيه وأنا إزاء هذه الإهانة الشنعاء كدت أختنق كمداً. لكنني وجدت الجواب المناسب في الحال، فقلت:

- أيها المجنون. إنك تعديت كلّ الحدود. على أني أرغب من صميم قلبي أن تدلني على كيفية ممارسة هذا العمل الشريف! على أي حال نحن نقرأ عن سيد الآلهة بأنه كان يمارس ذلك مع (كانيميد) في الجنّة. وأما هنا على الأرض فنحن نرى أعظم الأباطرة وملوك العالم يتعاطونه. إني إنسان خامل الذكر صغير الشأن لا قدرة لي على ممارسة هذا العمل المدهش ولا معرفة لي به.

وهنا لم يستطع أحدٌ ضبط نفسه فإنفجر الدوق وسائر الموجودين يقهقهون وتعالت صرخاتهم حتى ارتجّت لها أركان القاعة. صحيح أني اتخذت من الأمر مادة للهزل والتندر. إلاّ أن جوفي - ياقرّائي الأعزّاء - كان يحترق لبلوغ الجرأة بهذا الرجل وهو أقذر وغد ولدته أم، إلى الحد الذي يقذفني بإهانة مثل هذه بمحضر من هذا الأمير العظيم. إلا أنكم أدركتم بدون شك بأن المُهان الحقيقي هو الدوق لا أنا. اذ لو لم أكن بين جمع من النبلاء كهذا الجمع لما ترددت في إخماد أنفاسه.

لما وجد السوقي الأبله القذر أن السادة الحاضرين مسترسلون في إرسال ضحكاتهم عاجزون عن وقفها راح يغيّر الموضوع في سبيل وضع حدّ للضجة فقال:

ـ ان هذا البنفنوتو يشيع بين الناس مفتخراً بأني وعدته بقطعة رخام.

ولم أدعه يكمل عبارته فقاطعته قائلاً:

ـ ماذا؟ ألم ترسل (فرانشسكو) ابن ماتيو الحداد أحد معاونيك ليقول لي بأنك على استعداد لإهدائي قطعة من الرخام في حال إبداء رغبتي؟ أو لم أقبل عرضك هذا؟ ثق إني متمسك بوعدك ولن أدعك تنكل عنه.

فأجاب:

ـ اطمئن إنك لن تراها أبداً.

ما زال جوفي يتلظى من نار الشتائم الكاذبة التي صبّها. فما نطق بهذه العبارة حتى افلت زمامي من يدي ونسيت اني في حضرة الدوق وصحت بهياج:

ـ هذا إنذار صريح لك. إن لم ترسل الرخامة إلى بيتي فلتبحث لك عن عالم ثانٍ تعيش فيه. لن أصيب راحة في هذه الدنيا حتى أبقر بطنك وأخرج هواءها.

وصحوت على الفور مدركاً أني أواجه الدوق فاستدرت إلى سموّه بكل خشوع وقلت:

ـ مولاي! الأحمق الواحد يخرّج مائة أحمق. إن لوثة هذا الرجل أنستني بأني قائم بين يديك، كما ان حقك في التوقير واجب علينا فعفواً ومغفرة.

التفت الدوق إلى (باندنللو) وسأله:

ـ أصحيح هذا؟ هل وعدته برخامة؟

فاعترف (باندنللو). فقال لي الدوق. إذهب إلى (الأوبرا) واختر ما تريد من الرخام بحسب ذوقك.

قلت إن (باندنللو) وعد بإرسالها إلى داري. ثم وقع جدال حاد وبقيت مصراً على أن تصل الرخامة إلى داري. وفي صبيحة اليوم التالي وصلت داري قطعة من الرخام فسألت عن مرسلها، فقالوا إنها من (باندنللو) وهي التي وعدني بها. فنقلتها حالاً إلى المعمل وبدأت أعمل إزميلي بها. وفيما كنت أعالجها قمت بعمل نموذج لها إلاّ أن لهفتي إلى نحتها أفقدتني الصبر على إتقان النموذج والإعتناء به. ثم تبين لي أن

الرخامة هشّة جوفاء وندمت كثيراً على بدايتي في نحتها. على أني نحتُّ ما تيسّر منها وأقصد هيئتي (أبوللو وهياسنته)[1] اللذين ما زالا موجودين في مصنعي غير كاملين. وكان الدوق يزورني وأنا عاكف على عملي وكثيراً ما قال لي:

- دعك من البرونز الآن وابدء العمل. وخلّني أشاهدك تشتغل في الرخام.

فأتناول إزميلي وابدأ العمل بنفسية الواثق من الإجادة. وسألني يوماً عن التصميم الذي صنعته للرخامة. فأجبت:

- مولاي إن الرخامة ملأى بالصدوع إلاّ أني سأستخرج شيئاً منها. لذلك لم أشأ الإستقرار على فكرة معينة للتصميم. وإن كنت سأستمر في نحت التمثال على خير ما يمكنني.

أسرع الدوق فأرسل اليّ قطعة من الرخام كان قد جلبها من روما لإصلاح تمثال (كانيميد) الأثري سبب المشادة بيني وبين (باندنللو). وبعد أن تمثلتها وجدت من الحيف أن أقطّعها لأعمل منها رأساً وذراعين لذلك استخدمت قطعة أخرى. وقمت بعمل تصميم للرخامة اليونانية صغيرة الحجم من الشمع وأطلقت عليه إسم (نارسيوس)[2]. كان في هذه القطعة ثقبان عمقهما أكثر من ربع كوبيت (4،5 إنشات) وسعتهما قدر إصبعين. ولهذا إتخذت لتصميمي الوقفة التي يتمّ بها تحاشي الثقبين وبعدها فصلتهما. إلاّ أن الرخامة كانت قد تركت تحت المطر زهاء عشر سنوات. حيث كان الثقبان فيها لا يخلوان قطّ من ماء المطر الذي تغلغل فيها فنخرها نخراً وأبلاها. ولم ينكشف مدى التلف المتأتي من الثقب الأعلى إلاّ بعد حين أي عندما فاض نهر (الأرنو) وارتفع منسوب مياهه في مصنعي إلى ما يزيد عن كوبيت ونصف كوبيت. وكان (نارسيوس) مقاماً على كتلة من الخشب فعلاه الماء حتى غمره فانكسر

---

(1) في الأساطير الاغريقية هياسنه Hyacinthus شاب عشقه أبوللو وقتله خطأ وأنبت لذكراه زهرة الزنبق من مسقي دمه.

(2) في الأساطير الاغريقية. هو شاب بارع الحسن نظر إلى صورة وجهه المنطبعة في الماء فعشقها ومال كثيراً وهو يتأملها فسقط في الماء وغرق. ونبت في الموضع زهرة النرسيسه أو النرجسة. ومنه جاء المصطلح السايكولوجي لداء عصابي يعرف بالنرجسية أي عشق الذات.

إلى شطرين من ناحية الصدر فلحمته. ولكي أخفي موضع الإنشطار أضفت إلى التصميم قلادة من الزهر ترى مستقرة فوق الصدر. ودأبت على العمل فيه يومياً إبتداءً من الفجر وفي أيام الأعياد أيضاً حتى أكملته؛ كلّ ذلك حرصاً على أن لا أضيّع شيئاً من وقت العمل المخصص لـ(برسيوس).

ذات يوم، وأنا أقوم بسنّ عدد من الأزاميل التي استخدمها، طارت شظية دقيقة جداً من الفولاذ واستقرت عميقاً في إنسان عينيّ بحيث تعذر إخراجها. خيّل لي أني سأفقد بصر هذه العين حتماً. وبعد أيام إستدعيت الطبيب (رافايللو دي بللي Rafaello di Pilli) فجاء بحمامتين حيتين وأضجعني على نضدٍ ثم أمسك بالطائرين وفتح بسكين صغيرة عروقاً كبيرة في جناحيهما فتدفق الدم في عيني. وشعرت فوراً بالراحة، وقبل أن يمرّ يومان على ذلك خرجت الشظية وسلُم بصري وتحسّن.

وأقبل عيد القديسة (لوجي)[1] بعد ثلاثة أيام من شفائي. فقمت بصياغة عين ذهبية من قطعة تاج فرنسي وأوعزت إلى واحدة من بنات أختي الستّ وهي (ليبيراتا) البالغة عشر سنين - بتقديمها للقديسة نيابةً عنّي، عربوناً لشفائي شاكراً الله وإياها.

طال ترددي في العمل بتمثال (نارسيوس). وانقضت فترة وأنا غير مستقرّ على رأيٍ فيه. إلاّ أني واصلت الإشتغال في (برسيوس) رغم الظروف الصعبة التي أتيت إلى ذكرها. وكلّي عزم وتصميم على الفراغ منه ثم الرحيل عن فلورنسا. صببت (ميدوسا) بالبرونز فخرجت على أحسن هيئة. وأشرفت على إكمال (برسيوس) تحدوني آمال جسام. كنت قد كسوته بالشمع ومنيت النفس بالنجاح في صبّه مثلما نجحت في صبّ (ميدوسا). كان (برسيوس) المكسوّ بالشمع يبدو مهيباً رائعاً وحكم الدوق بأنه آية في الإبداع. ويغلب على ظنّي أن أحدهم أوحى إليه بأن عملية صبّه بالبرونز ستمنى بالفشل. أو لعلها كانت فكرته الخاصة. إلاّ أنه مع هذا كان يتردد إلى منزلي أكثر مما اعتاد. وفي إحدى زياراته هذه قال لي:

---

(1) قديسة عذراء ولدت في حدود (283) في سيراكيوز الصقلية واستشهدت في (304) بعد تعذيب ومن ضمنه قلع باصرتيها. وعيدها يقع في الثالث عشر من كانون الأول. وفي السويد له مقام كبير وإحتفال خاص ويدعى عيد سانتا لوجيا.

- أرى يا بنفنوتو ان صبّ التمثال بالبرونز لن يكتب له النجاح. فأصول الفن لا تسمح بذلك.

إحتججت على سموّه بشدّة وأجبت:

- ليس خفياً عني يا مولاي بأن سموك الأفخم لا تثق بي كثيراً. ويخيل اليّ أن مصدر هذا الشك هو ثقة بالغة منك بأولئك الذين دأبوا على اغتيابي وتلفيق الحكايات ضدي. أو لعلك غير واقف على حقيقة الأمر.

ما كدت أكمل عبارتي حتى هتف يقول:

- أنا لا أدّعي بالعلم حقاً. على اني أفهم المسألة خير فهم.

أجبت:

- أجل. بوصفك هاوياً لا بوصفك صانعاً ممارساً. فلو أن سموّك تتفهم الموضوع كما تعتقد انك فاهمه، لوضعت ثقتك بي بعد الدليل الواضح الذي قدمته من تمثالك النصفي الذي صببته. ذلك التمثال الكبير الذي أرسل إلى (إلبا). كما كان عليك أن تصدق قولي إثر قيامي بإصلاح (كانيميد) الجميل المرمريّ. وهو العمل الذي بذلت فيه أشق مجهود. اذ كان اسهل عليّ منه أن أقوم بنحت التمثال برمته. كذلك كان عليك أن تؤمن بقولي لا سيما بعد نجاحي في صبّ (ميدوسا) الشاخصة الآن أمام سموّك. كان صبّ هذا الجزء من أشق العمليات وقد حققت به ما لم يسبقني إليه أي أستاذ نابغة في هذا الفن المعقد الشبيه بأحبولة الشيطان. ألا أنظر يا مولاي. كيف أعدت بناء المسبك بشكل يختلف إختلافاً تاماً عن أي مسبك آخر فأقمت فيه منفذين لمعدن البرونز. وهذه هي السبيل الوحيدة الممكنة لضمان النجاح في صبّ التمثال الصعب الكثير التعاريج والإنحناءات. وقد أصبت بغيتي بسبب بعد نظري وقدرتي الإبداعية، فليس بين الفنانين من يصدّق بأن ما فعلته ممكن.

ولتتأكد أيضاً من هذا الذي سأقوله لك يا مولاي، وهو السبب الوحيد الذي يُعزى إليه نجاحي في كلّ الأعمال الشاقة الهامة التي أنجزتها في فرنسا، إنه التشجيع العظيم الذي لقيته من الملك العالي القَدر فرنسوا بمنحه السخية وبالشكل الذي كان يعالج حاجتي إلى العمال فقد جاءت أيام كنت أستخدم فيها أربعين عاملاً أقوم أنا

نفسي باختيارهم. وهذا الذي جعلني أنتج الكثير في الوقت القصير. وأنا أرجو منك الآن يامولاي أن تثق بقولي وتدعني أحصل على المساعدة التي أحتاجها، لأني عظيم الأمل بأن ما سأنجزه سيكون مدعاة لسرورك. أما إذا ثبط سموّك همّتي ورفض طلبي المساعدة التي أنا في حاجة إليها. فليس في وسعي تقديم نتائج حسنة لا أنا ولا غيري مهما كانت صفته.

أرغم الدوق نفسه على البقاء والإصغاء إلى كلامي المنطقيّ. وكان يدير وجهه إلى هذه الجهة آناً وإلى تلك آناً. أمّا أنا فقد دهمتني لجّة من اليأس وغرقت فيها واعتصرت الآلام قلبي وأنا أتذكر تلك الظروف الممتازة التي عشتها في فرنسا.

قال الدوق فجأة:

- ألا أجبني يا بنفنوتو كم تقدّر نجاحك في مثل هذا الرأس الجميل رأس ميدوسا بهذا الإرتفاع الذي يبدو ويد برسيوس تمسك به؟

فأجبت في الحال:

- تلك هي المسألة يامولاي! فلو أن سموّك مطلّع على هذا الجانب من الفن كما قلت، فإن القلق لن يداخلك حول فشل سبك الرأس، بل سيكون منصبّاً على الرِجل اليمنى وهي في الأسفل بعيدة.

فاستدار الدوق مواجهاً بعض النبلاء المرافقين وقال وهو شبه غاضب:

- في اعتقادي انّ ما يقوله هذا الرجل هو بدافع الغرور والتيه بإنكاره كلّ الحقائق.

ثم التفت اليّ حالاً وقد ارتسمت على وجهه ملامح هي أقرب إلى الإزدراء والهزء، فأسرع الآخرون يقلّدونه فيها، ثم قال:

- إني على استعداد لأصبر منصتاً إلى هذه الحجج التي قد تجدها مقنعة لي.

قلت:

- سأدلي الآن بهذه الحجج المقنعة؛ بشكل سيدركها سموّك خير إدراك، أنت تعلم يا مولاي طبيعة النار. فهي كما لا يخفاك تتصاعد إلى الأعلى ولهذا السبب خذها وعداً مني بأن رأس ميدوسا سيسبك جيداً. وبما أن النار لا تتسرب إلى أسفل

فسيكون واجباً عليّ أن أدفع بهما دفعاً إلى تحت بمسافة ستة كوبيتات (108 إنشات) بوسائل فنية. وإستناداً إلى هذا الدليل المفحم لي أن أقول لسموّك بأن (القدم) لن تظهر سليمة وسيتعيّن عليّ إعادة صبّها وهي عملية سهلة جداً.

قال الدوق:

- عال! لماذا إذن لا تتخذ التدابير لضمان صبّ القدم بالشكل الذي تخرجها فيه سليمة كما هو شأنك بالرأس حسب قولك؟

أجبتُ:

- ان هذا يتطلب مني بناء مسبك أكبر بكثير من مسبكي الحالي. ثم بناء قناة فيه سعتها تزيد عن غلظ ساقي. وعندئذ سيساعدني ثقل المعدن الذائب بالحرارة على إمراره إلى أسفل. وفي الحال الحاضر تجد القناة منحدرة إلى أسفل بمسافة الكوبيتات الستة التي نوهت بها. إلى أن تبلغ القدمين. لكنها لا تزيد عن إصبعين سمكاً، واستبدالها لا يساوي النفقات التي نتكبدها في استبدالها بسبب قدرتي التامة على إصلاح العيوب. ولكن النار كما اتوقع ستصعد إلى الأعلى تبعاً لطبيعتها عندما يمتلئ القالب بأكثر من النصف. وسيخرج رأس (ميدوسا) ورأس (برسيوس) معاً كاملين لا عيب فيهما. ولك أن تطمئن من هذا.

بعد أن عرضت هذه الحجج المفحمة وغيرها كثير مما يشقّ عليّ تدوينه هنا. غادر الدوق وهو يهزّ رأسه محتاراً.

عادت اليّ ثقتي بنفسي بعد أن تُركت وحيداً ونفضتُ عني تلك الأفكار السوداء التي دأبت على تعذيبي بين آن وآخر وكثيراً ما أسلمتني إلى الندم الباكي لتركي فرنسا وقدومي إلى مسقط رأسي فلورنسا، وإن كان سبب ذلك رسالة الخير والإحسان المترتبة في عنقي لبنات أختي الستّ. وها أني أدرك الآن بأنها علّة كلّ مصائبي. لكني عزّيت نفسي معللاً إياها بالرخاء والرفاء وزوال كلّ متاعبي بعد إكمالي تمثال (برسيوس). فباشرت المرحلة الأخيرة بقوى جديدة وبكلّ ما أملك من طاقة جسمية ومالية (ولم يكن قد بقي عندي الكثير). فابتعت كميات من الخشب أُحتطبت لي من غابة الصنوبر في (سيرّاتوري Serratori) القريبة من (مونت لوبو Mont Lupo) وفي

أثناء انتظاري لها قمت بإكساء (بوسيوس) بالصلصال الذي كنت قد أعددته له قبل أشهر لأضمن نضجه التام. وبعد إلباسه حلّته الطينية كما هو شائع القول، سلّحته تسليحاً دقيقاً وأحطته بدعائم حديدية وبدأت أزيل الشمع منه فوق نارٍ هادئة، فكان يسيل من منافذ الهواء التي عملتها فيه. إذ كلّما زاد عددها زاد القلب إمتلاءً بعد أن انتهيت من استخلاص الشمع. بنيت حول (برسيوس) مصهراً على شكل قمع من الآجرّ المرصوف واحدةً فوق أخرى. تاركاً فتحات عديدة لتسهيل خروج النار. ثم بدأت أكدّس الخشب بكميات قليلة تاركاً النار متقدةً مدة يومين وليلتين دون انقطاع.

بعد أن تخلصت من الشمع وطبخت القالب طبخاً جيداً. بدأت فوراً في حفر النقرة التي سيُدفن فيها. مطبقاً جميع القواعد التي يتطلبها فني. وبعد فراغي من ذلك جئت إلى القالب فرفعته إلى الأعلى بكلّ حيطة بواسطة بكرات وحبال قوية، فتدلى على مسافة ذراع واحد فوق المسبك. وبهذا صار معلّقاً فوق مركز النقرة مثلما قدّرت له. ثم باشرت في خفضه رويداً رويداً إلى داخل المسبك. ورتبته في الوضع الصحيح بغاية من الدقة. بعد أن انتهيت من هذا العمل الدقيق بدأت بركم التراب الذي كنت اختزنته من النقرة. وبعد أن أهلت التراب طبقةً طبقةً تركت عدداً من المنافذ الهوائية بدسّ أنابيب فخارية صغيرة من النوع الذي يستعمل لامتراء الماء وما شاكل من الأغراض. وعندما وجدت كلّ شيء قد تمّ وفق المرام بخصوص التغطية ووضع الأنابيب في أماكنها. وتفهم العمال طريقتي ـ وهي تختلف جداً عما اعتاده زملائي في الصنعة ـ شعرت بالثقة من إمكان الإعتماد على ما اتخذت من التدابير. فأوليت المسبك اهتمامي: ملأته بكتل عديدة ضخمة من النحاس وغيرها من فضلات البرونز ورتبت وضعها بحسب مبادئ الصناعة وقواعدها، أعني مكدّسة بشكل يجعل النار تتخللها وتسخّنها وتذيبها بأسرع ما يمكن. ثم أمرت بإيقاد الأتون.

كدّست قطع الصنوبر. وبفضل الصمغ اللزج المتحلّب من الخشب وإتقان مسبكي، سار كلّ شيء وفق المرام. فصرت أتنقل من موضع إلى آخر مجهداً نفسي إلى حدّ الإرهاق مرغماً إياها على الإستمرار والمتابعة، زيادة على ما واجهني من متاعب وإرهاصات سابقة.

سرت النار في المصنع نفسه وتملّكنا الخوف العظيم من سقوط سقفه علينا، في أثناء ذلك أخذ المسبك يبرد بسبب المطر والريح اللذين اندفعا من الحديقة. كافحت هذه العوارض المزعجة عدّة ساعات. إلاّ ان الإجهاد كان اكثر مما يحتمله جسمي القوي، فاعترتني فجأة نوبة من الحمّى أقسى وأشدّ نوبة متصورة. فلجأت إلى الفراش رغم أنفي.

ببعدي عن موقع العمل وبالقلق الممضّ الذي اعتراني لم أر مندوحةً من الإلقاء بتعليماتي إلى معاونيّ العشرة أو اكثر ومنهم سبّاكو البرونز ومنهم الصنّاع المهرة، ومنهم الشغيلة العاديون فضلاً عن عمال آخرين في مصنعي. ومن هذه الفئة الأخيرة أحدهم (برناردينو مانيلليني الموجلّلي) الذي تدرب عندي بضع سنوات فقد زوّدته بتعليمات خاصة إذ قلت له:

- الآن أعرني إنتباهك يا عزيزي برناردينو. نفّذ بالضبط ما كنت قد لاحظتني أقوم به وأسرع لأن المعدن سيكون جاهزاً بعد قليل، لا يمكنك أن ترتكب خطأ فهؤلاء الرجال الحاذقون سيعجّلون بالقنوات وانت نفسك ستكون قادراً بسهولة على دسّ السدادتين بهذه الخطّافات. وعندها سيمتلئ القالب على أحسن وجه.

أمّا أنا فما شعرت بوطأة المرض كما أشعر الآن. لم أشك في ان هذه الحمى ستقضي عليّ في ساعات قلائل. ثم إني تركتهم وارتميت على فراشي وأنا أشعر ببؤس لا مزيد عليه.

ما أن استلقيت على فراشي حتى أمرت أهل بيتي بإعداد طعام وشراب كافيين لكلّ من في المصنع. وزدت قائلاً إني سألفظ أنفاسي الأخيرة حتماً ولن يطول الأمر بي حتى الغد. فحاولوا تشجيعي مؤكدين بأن شدّتي لن تطول وما أحسّ به إنما هو نتيجة الإرهاق المتأتي من العمل المتواصل.

وقضيت ساعتين أصارع خلالهما الحمى التي كانت تتفاقم وأنا أصرخ:

- اني مشرف على الموت.

كان لديّ مدبّرة بيت محبوبة جداً لا نظير لها في الدنيا تدعى (فيوري) وهي من (كاستيل دل ريو). راحت هذه المرأة تؤنبني وتلومني لما أشعر به من بؤس وغمّ.

وكانت تقوم بتنفيذ أوامري بإخلاص وتفانٍ لا مزيد عليهما. وقد أدركت شدّة مرضي، ومقدار هبوط معنوياتي، فلم تستطع، مع شجاعتها الفائقة، حبس دموعها. إلا أنها حاولت جهدها إخفاءها عني.

لمحت وأنا أقاسي هذه الآلام ـ شخصاً يتجه إلى غرفتي وكان جسمه ملتوياً مثل حرف (S) الكبير. بدأ هذا الشخص يئن ويتفجع بصوت يقطر كآبة وكأنه كاهن يواسي محكوماً بالموت قبل تنفيذ الحكم فيه:

ـ واه لك يا بنفنوتو المسكين. كلُ شيء تلف ولم يبق أي أمل.

بسماعي هذا المنكود. أطلقت صيحةً راعدة رجّع صداها أبعد كوكب. ثم قفزت تاركاً فراشي وتناولت ثيابي وارتديتها أما الخدم والمساعدون وجميع من صعد إلى فوق لمعاونتي فلم يجدوا في انتظارهم غير اللكمات والرفسات والركلات وكشّرت في أوجههم جميعاً هائجاً صارخاً:

ـ أيها الخونة الحسّاد! إنها لخيانة متقصّدة. قسماً بالله اني سأميط اللثام عنها وأنفذ إلى أعماقها. وسأترك قبل موتي بيانات وحقائق عن نفسي سيذهل لها العالم بأسره!

ما أن أكملت إرتداء ثيابي حتى نزلت إلى المصنع وأنا على أسوأ حال. هناك وجدت الرجال الذين كنت قد تركتهم مستبشرين مرتفعي المعنويات. وقد وقفوا في مواضعهم مسمّرين تلوح على أوجههم علائم الحيرة والإنكسار، قلت:

ـ هيا بنا الان واصغوا اليّ. أرى أنكم عجزتم عن تطبيق تعليماتي التي زودتكم بها، فأطيعوني وانا الآن معكم لإدارة دفة العمل بنفسي، لا أريد أي اعتراض فنحن بحاجة إلى عمل لا إلى نصح وإرشاد.

وعلى إثر أقوالي هتف أحدهم وهو (أليساندرو لاستريكاتي Alessandro Lastricatti):

ـ قَدْكَ يا بنفنوتو ولا تتسرع. إن ما تطمح إلى إنجازه لا قابلية للفن به فهو بكلّ بساطة ضرب من المحال.

فالتفتُ إليه هائجاً وعيناي تقدحان بشواظ من نار ألجأتا الجميع إلى إطلاق هتاف موحّد:

ـ طيب، ألقِ إلينا بأوامرك وسنطيعك في كلّ شيء ما دام فينا نَفَس يتردد.

وأظنهم ما أظهروا هذا الولاء إلاّ لأنهم كانوا يتوقعون أن أقع على الأرض ميتاً في أية دقيقة.

باشرت حالاً بفحص المسبك فوجدت المعدن كلّه قد تصلّب وتقطّع أو كما يقولون: قد تكتّل. فأمرت عاملين بأن يقصدا بيت (كابريتا) صاحب حانوت القِصابة، وجلب قدر حِمل من خشب البلوط الفتيّ الذي تمّ يبسه خلال سنة أو أكثر. فقدمته لي زوجه (جنيفرا) بطيبة خاطر. ولما جيء بأول دفعة منه بدأت بتلقيمه المسبك من خلال المدخل. وبهذه المناسبة يجدر بي أن أذكر أن البلوط الذي استخدمته كان ذا نارٍ شديدة تفوق نار أي نوع آخر من الخشب. ولذا فُضِّل إستعمال خشب الصنوبر أو خشب (الحَرَج Alder)[1] الأبطأ إحتراقاً لأعمال معينة بصورة عامة، كصبّ المدافع وما أشبه. وليتك أيها القارئ شاهدت تلك النار الجهنمية وهي تلعق المعدن بألسنتها اللاهبة وكيف بدأ يتوهج ويسطع منصهراً.

في هذه اللحظة عجّلت إلى القنوات كما أرسلت رجالاً إلى سطح المصنع لمكافحة النار التي اشتد سعيرها بسبب تعاظم الحرارة في المسبك بالأسفل. وأخيراً أحضرت ألواحاً وأبسطة وغيرها من الستائر وجعلتها بمثابة حاجز للمطر الذي كان يندفع إلى الداخل من الحديقة. وما أن تمّت سيطرتي على الفوضى والإضطراب العظيمين واستقام الأمر حتى شرعت بإطلاق أوامري كالرعد القاصف:

ـ أنقلوا هذا إلى هنا، خذوا ذاك إلى هناك!

وعندما بدأ المعدن بالإنصهار، وشاهدته مجموعة من المساعدين وهو يتسرّب، دبّت فيهم الحماسة وملكتهم الرغبة في التعاون فغدا الواحد منهم يعمل عمل ثلاثة.

---

(1) نوع من الشجر غير مثمر ينمو في المناطق الباردة. وهو مقاوم للماء إذ لا يتسرّب اليه. ولذا أستُخدم لعمل المضخات ودواليب الماء. ولحاؤه بني اللون يستخرج منه صمغ شائع.

ثم أشرت إلى أحدهم ليأتي بكتلة من الـ(بيوتر)[1] تزن حوالي ستين باونداً، فدفعت بها إلى المسبك لتنصهر مع ما فيه من المعدن المتكتل. وبهذه الوسيلة وبتكديس الوقود وتحريكه بالقضب الحديدية والمحارك، ما لبث البرونز أن انصهر - وعندما وجدت بأني أفلحتُ في نفخ الحياة بجثة الميت - رغم اليأس الذي استولى على مساعديّ الجهلة، إنبعث نشاطي من جديد، فنسيت الحمى التي أشاعت الخوف من الموت في أوصالي.

في هذه المرحلة سُمع دوي انفجار فجائي وتوهُج ساطع حتى لكأن صاعقة إنقضّت في وسطنا. وسادنا الرعب جميعاً غير مستثنٍ نفسي. ثم لما خمدت النار الوهّاجة وتلاشت أصداء الإنفجار. راح بعض يحلق في وجه بعض، ثم تطلعنا إلى مصدر الإنفجار فإذا بغطاء المسبك قد تفجّر وانفتح البرونز الذائب ينصب خارجاً. فأسرعت بفتح منافذ القالب وفي الوقت ذاته دفعت بالسدادتين إلى الداخل. ثم إني وجدت المعدن المنصهر لا يجري بالسهولة التي يجب أن تكون، فأدركت أن البيوتر قد نفد في تلك الحرارة الفائقة. فأمرت بإحضار كلّ ما في بيتي من الصحاف والأوعية والأواني وقد بلغ عددها المائتين تقريباً ووضعتها واحداً بعد الآخر أمام القنوات. وقذفت ببعضها إلى أعماق المسبك. وأثار مظهر إنصهار البرونز السهل وإمتلاء القالب به جميع الموجودين وأخذوا يتدافعون فيرتمي بعضهم على بعض متسابقين لتلبية أوامري وهم ضاحكون مستبشرون، وكنت خلال هذا أتنقل من هنا إلى هناك بسرعة مصدِّراً الأوامر وباذلاً المساعدة لمن يريدها وأنا أهتف:

- أيها الرب الإله الذي بُعثت حياً من عالم الأموات وصعدت إلى السماء بقدرتك الصمدانيّة، إني أسأل العون منك.

بعد فترة إمتلأ القالب بصورة كاملة.

عندئذ توجهت إلى قصعة الصلصة التي كانت موضوعة فوق مقعد أو كرسيّ، فأكلت منها بشهية وشربت وشاركني الجميع في الطعام. ثم آويت إلى الفراش وأنا

---

(1) أشابة معدنية مقومها الأساسي معدن القصدير ومنه تصنع الأواني المعدنية في الغالب.

بكمال الصحة والسعادة. وكان الوقت يشير إلى مرور ساعتين على الفجر. فنمت نومةً هادئة وكأني لم أصب بأي عارض مرضي. وقامت خادمتي الأمينة دون توصيةٍ مني بتهيئة ديك مسمّن. ثم أقبلت بعد أن إستيقظت في حدود الظهيرة وهي تقول باسمة:

ـ اهذا هو الرجل الذي ظنّ انه مشرف على الموت؟ يخيّل لي ان الكلمات والرفسات التي كلتها لنا بالجملة في ثورتك الجامحة وهياجك الشيطاني قد اشاعت الرعب في الحمى. فخوفاً من ان تنال ما نلنا من الضرب، هربت لا تلوي!

انقشعت غمامة القلق عن خدمي ولم يعد عملهم يثقل عليهم فإنتشروا يريدون التعويض عن الأواني والصحاف المعدنية التي صهرتها. وعادوا بعدد مساوٍ لها من الأوعية الفخارية ثم تناولنا وجبة غداء بهناءة وراحة بال وشهية عظيمة.

بعد فراغنا من الطعام أقبل كلّ مساهم ومساعد في العمل لزيارتي وتمت فرحتنا بإجتماعنا، ورفعوا الشكر إلى الله لما جرى قائلين إنهم شاهدوا وتعلموا مسائل إعتبرها الأساتذة الآخرون ضرباً من المحال. وبعدها مددت يدي إلى صرّة مالي وسددت لهم أجورهم فخرجوا والكلّ راضٍ.

كان عدوّي اللدود وكيل خَرج الدوق (بيير فرانشسكو) حريصاً دؤوباً على تسقّط أنباء عملية السبك بكلّ مراحلها ونتائجها. وحدّثه بما جرى الشخصان اللذان شككت كثيراً في أنهما قد تسببا في تكتل المعدن. فقد قالا له:

ـ واضح ان بنفنوتو ليس من طينة البشر، بل هو عفريت من جبابرة العفاريت. فقد حقق المستحيل مع أشياء أخرى تُعجز معشر الجنّ ويقف أمامها حائراً.

وبالغا كثيراً في وصف ما جرى، ربما على سبيل الإعتذار لفشل مسعاهما. وأسرع وكيل الخَرج فكتب للدوق كلّ ما أنهي إليه حول الموضوع. وكان سموه في (بيزا) ـ وزاد فأضفى على الحكاية الكثير من الخيال، ففاق بها الشكل الذي نُقلت به اليه.

تركت التمثال المصبوب يومين ليبرد. ثم بدأت أكشف عنه ببطء شديد وبكلّ أناةٍ. كان رأس (ميدوسا) أوّل ما وقع على بصري منه وقد خرج كاملاً بديعاً والفضل يعود إلى منافذ التهوئة كما ذكرت للدوق بخصوص طبيعة النار المتصاعدة. ثم بدأت

الكشف عن بقية الأجزاء فجئت إلى الرأس الثاني رأس (برسيوس) وكان كاملاً لا تشويه شائبة. وهو المفاجأة بعينها اذ كما يلاحظ انه ادنى بكثير من رأس (ميدوسا). كنت قد جلعت فتحات القالب فوق رأس (برسيوس) وعلى محاذاة الكتفين. فوجدت ان كلّ البرونز الذي كان في المسبك قد إستوعبه رأس (برسيوس) وانه لمما يبعث الدهشة ان لا يبقى أثر للمعدن في القنوات في الوقت الذي لم يعتور التمثال اي نقصان. انه لأمر مذهل حقاً حتى ليبدو وكأنه معجزة حققها الله لي وكلأتها عنايته.

واصلت الكشف عن بقية الأجزاء وأنا سعيد منشرح الصدر فوجدتها كاملة لا عيب فيها دون إستثناء. إلى أن جئت إلى القدم اليمنى التي يقف عليها التمثال، فوجدت الكعب قد خرج كاملاً وتقدمت قليلاً فلم أجد فيه عيباً أو نقصاناً فداخلني السرور من جهة وشبه سخط من جهة أخرى لأني تكهنت للدوق بأن القدم قد لا تخرج كاملة. لكن تبين لي بعد فراغي من الكشط أن أصابع القدم ناقصة بل هناك نقص أيضاً فيما يلي الأصل اعني ان الجزء الناقص هو أقل من نصف القدم. ولم يكن يقتضي إصلاح ذلك مني عملاً كبيراً. سررت بهذه النتيجة لأنها تثبت للدوق وقوفي على أسرار حرفتي. وإذا خرج من القدم مقدار أكبر بكثير مما توقعت. فالسبب (وبادخالي في الحساب كلّ ما إعترض من عقبات)، يعود إلى ان المعدن قد سخن أكثر مما يجب وكان عليّ في الوقت نفسه أن أساعده بالقصدير بالطريقة التي وصفتها وبأواني (البيوتر) وهو أمرٌ لم يُقدم عليه أحدٌ من قبل.

بعد أن ظفرت بهذا النجاح، شددت الرحال إلى (بيزا) فوراً لأقابل الدوق. رحّب بي بحرارة غير إعتيادية وحذت الدوقة حذوه. ومع أن وكيلهما سبقني بالتفاصيل الكاملة فقد حلا لسموّهما أن يسمعا القصة من لساني إذ ستكون أدعى إلى الإستمتاع والإثارة. ولما وصلت في حديثي إلى قدم (برسيوس) وقلت إنها خرجت ناقصة، أظهر الدوق إستغراباً وتعجباً لا حدود لهما. لأن هذا ما توقعته. فراح يصف للدوقة كيف كنت قد تنبأت له به.

عندما إطمأنت نفسي باللطف والحفاوة التي استقبلت بهما طلبت من الدوق ان يأذن لي بالسفر إلى روما. فأجازني بكلّ رقة وأوصياني بالعودة السريعة للفراغ من

(برميوس). كما أنه زودني بكتب توصية لسفيره هناك السيد (إفراردو سيرّستوري Averardo Serristori) وكان ذلك في غضون السنوات الأولى لجلوس (يوليوس دي مونتي Julius di Monti)[1] على كرسي البابوية.

وقبيل رحيلي زوّدت عمالي بتعليمات حول مواصلة العمل على ضوء المبادئ والقواعد التي تلقوها منيّ. أما سبب سفري فهو كالآتي:

كنت قد نحتُّ تمثالاً نصفياً بالحجم الطبيعي لـ(بندو دا أنطونيو آلتوفيتي Bindo d' Antonio Altoviti) وأرسلته إليه وهو في روما، فوضعه في غرفة المكتبة التي كانت مؤثثة تأثيثاً أنيقاً وقد حفلت بالقطع الأثرية الفنيّة وغيرها من التحف البديعة. إلا أن الغرفة لم تكن مناسبة لوضع المنحوتات أو الرسوم واللوحات لأن نوافذها على مستوى أوطأ من تلك النفائس، فكانت إضاءتها سيئة ما يفسد التأثير العظيم الذي قد تخلفه لو سقط عليها النور الكافي.

وفي ذات يوم اتفق ان (بندو) المذكور كان واقفاً على عتبة داره فمرّ به (ميكالنجلو بوناروتي) فرجا منه ان يشرّفه بالدخول ومشاهدة غرفة المكتبة، وما ان إحتوته حتى هتف يقول متسائلاً:

ـ من هو هذا الفنان الذي صوّرك بمثل هذه الدرجة من الدقة وبهذا الأسلوب الجذّاب؟ ألا ثِق أن تمثالك النصفي هذا يعجبني قدر ما تعجبني هذه التحف الأثرية بل وأكثر، وإن كنت أرى بينها قطعاً ممتازة. لو كانت شبابيكك هذه فوق مستواها لا تحتها فإن التأثير سيتضاعف جداً. وسيحتل تمثالك النصفي موضع الصدارة بين كلّ هذه التحف الجميلة.

ما أن غادر (ميكالنجلو) الدار حتى قام بكتابة رسالة ساحرة اليّ وقد جاء فيها ما يلي:

«أيها العزيز بنفنوتو. لقد سلّمت منذ سنوات عدة بأنك أنبغ الصاغة الذين عرفناهم على الإطلاق. وإني سأسلّم الآن بأنك لا تقلّ نبوغاً عن هذا في فنّ النحت.

---

(1) هو يوليوس الثالث (1487 ـ 1555) الذي نصب بابا في (1550) وقام بدور هام في مجمع (ترنت) الديني.

وعليّ أن أعلمك بأن السيد (بندو آلتوفيتي) أطلعني على تمثاله النصفي وأنبأني بأنه من صنعك. فأعجبت به كثيراً لكن من الإساءة العظيمة ان يوضع في مكان قليل النور ولو سقط عليه نور كافٍ لبدا كما يجب أن تبدو أي صناعة بديعة كصناعته».

وحفلت الرسالة بكثير من مشاعر الودّ والمجاملة. فأطلعت عليها الدوق قبل سفري إلى روما. فقرأها قراءة متمعن وقال لي:

- أي بنڤنوتو! إن كتبت له وأثرت فيه الرغبة للقدوم إلى فلورنسا فإني سأعينه عضواً في مجلس الثمانية والأربعين[1].

فكتبت له رسالة حافلة بالمودة والتعظيم. وفيها وعدته نيابةً عن الدوق بمائة ضعف مما خوّلني التعهد به ودفعاً لأي إلتباس في المستقبل أطلعت الدوق على رسالتي قبل ختمها وقلت لسموه الأفخم:

- أخشى أن أكون قد منّيته الكثير يامولاي.

فأجاب قائلاً:

- كلا. إنه يستأهل أكثر مما وعدته. وإني بالتأكيد سأحققه له.

لم يردّ (ميكالنجلو) على رسالتي. وشعرت بغضب الدوق الشديد عليه.

بوصولي روما، حللت ضيفاً على (بندو آلتوفيتي) وبادر هذا إلى نفض الحكاية. كيف أنه قام بإراءة (ميكالنجلو) التمثال وكيف أثنى عليه. ثم بحثنا المسألة التي قصدته فيها بتفصيل.

كنت قد أودعت لديه ألفاً ومائتي كراون ذهبيّ. وهي تؤلف جزءاً من خمسة آلاف وكان قد أقرض الدوق أربعة آلاف منها تعود له، وحصتي من الدين كانت بإسمه. وأنا من جهتي كنت قد تسلّمت الفائدة عند إستحقاقها[2]، هذه العلاقة كانت السبب

(1) هو أعلى المجالس الثلاثة في فلورنسا التي تشارك دوق فلورنسا في الحكم.

(2) لا شك أن چلليني يعني أحد أمرين: إمّا ان الخمسة آلاف والمائتي كراون قد أقرضت للدوق. وإمّا أن ثلاثة آلاف وثمانمائة من أصل الخمسة آلاف كراون هي عائدة لألتوفيتي. على أن هناك صحيفة شطبت من المخطوطة تؤيد أن حصّة چلليني كانت ألفاً ومائتين. [حاشية بيانكي].

في قيامي بعمل تمثاله النصفي. فبعد أن شاهد (بندو) النموذج الشمعي، أرسل لي خمسين كراوناً عن طريق المدعو (السيد كويانو باكاللّي Ser Guiliano Paccalli) أحد وكلائه القانونيين الذين يساكنونه، لكني لم أشأ قبول المال ورددته إليه صحبة رسوله نفسه. بعد هذا قلت له اني أقنع منه بإستثماره مالي لأجني منه بعض الفائدة. لكني شعرت الآن ببروده ونفرته تجاهي، اذ بدلاً من أن يستقبلني بحرارة كما كان يفعل قبلاً ـ شابَ مسلكه الضيق والتبرّم. ومع أنه أنزلني داره إلاّ أنه لم يعاملني بمودة بل ظهر منه جفاف. وعلى أي حال فقد سوّينا المسألة بشكل مقتضب: تنازلت عن أجرى في العمل وقبلت بثمن البرونز الذي استخدمته له على أن يبقى (بندو) محتفظاً بمالي طوال حياتي بفائدة قدرها خمس عشرة بالمائة.

قمت أولاً بالتوجه إلى البابا وتقبيل قدميه. فيما كنت أحادثه وصل (أفيراردو سرّستوري) سفير دوقنا. وكنت قد أدليت للبابا بإقتراحات معينة ظننت أنها ستحظى بموافقته بسهولة وستكون نتيجتها الطيبة عودتي إلى روما وتخلصي من متاعبي وعقباتي في فلورنسا. لكني علمت فيما بعد أن السفير قد أحبط تدبيري وعمل ضد مصلحتي.

ثم إني قصدت (ميكالنجلو) وأعدت عليه ما كتبته له من فلورنسا نيابةً عن الدوق. فردّ قائلاً، إنه مكلف الآن ببناء كنيسة القديس بطرس. ولهذا يتعذر عليه القدوم. قلت له: بعد أن تمّت الموافقة على التصاميم التي عملها للبناء فبإمكانه أن يترك مساعده (أوربينو) للإشراف وتطبيق تعليماته بالضبط. وأضفت من عندي نيابةً عن الدوق كثيراً من الوعود.

حدّق (ميكالنجلو) فيّ تحديقة شديدة وقال وقد إرتسمت على وجهه إبتسامة ماكرة:

ـ وكم أنت راض من الدوق؟

قلت له إني راضٍ تماماً وانه يعاملني معاملة جيدة. إلاّ أنه أبدى لي ما أكد لي بأنه مطلّع على علّة مصاعبي. ثم اعاد القول بأنه لا يستطيع ترك روما. فأجبت انّ خير ما

يفعل هو أن يعود إلى مسقط رأسه وعلى رأسها حاكم عادل جداً يحبّ التبغاء حبّ عشق ولا يبزه في ذلك أيّ أمير ولدته أم.

ذكرت قبلاً إسم صبي مساعدٍ له (اوربينو) وكان قضى بضع سنوات في خدمته كمساعد عموميّ لا يختص بفرع معين. من الواضح أن هذا الخِلفة لم يكن على شيء من الإطلاع في أمور الفن. فبعد أن أشبعت (ميكالنجلو) حججاً ومنطقاً بحيث بدا محاذراً في جوابه، إلتفت فجأة إلى مساعده (اوربينو) هذا التفاتة من يطلب منه رأياً. فصاح (اوربينو) فجأة بأسلوبه الفظ الغليظ وبصوت شبيه بصوت الرعد:

ـ لن افترق عن خليلي (ميكالنجلو) حتى يواري القبر أحدنا.

لم يسعني غير الضحك على هذه العبارة السخيفة. ولم يساعفني اللسان في قول آخر. فأدرت وجهي دون أن أضيف كلمة واحدة.

أسأت تسوية أموري مع (بندو آلتوفيتي) فقد خرجت صفر اليدين من تمثالي البرونزي، وقبلت إيداع نقوي عنده مدى حياتي. وقد أزال هذا كلّ شبهة لديّ في معدن معشر التجار وقيمتهم الحقيقية كبشر. وقفلت راجعاً وأنا في أسوأ حالة نفسية. وما ان بلغتها حتى قصدت قصر الدوق زائراً ولم يكن سموه هناك، فقد رحل إلى (كاستيللو) الواقعة ما وراء (بونتي آريفري). لكني إلتقيت بوكيل الدار (بيير فرانشسكو ريجيو). وما ان دنوت لتحيته كالعادة حتى إبتدرني بدهشة قائلاً:

ـ آه! أعدت؟

ثم وبعد علائم الدهشة نفسها ضرب كفّاً بكف وأضاف:

ـ الدوق في (كاستيللو).

ثم دار وأدبر مسرعاً. ولم أدر ما حدا بهذا المخبول إلى مثل هذا التصرف!

توجهت فوراً إلى (كاستيللو) وولجت الحديقة حيث الدوق ورأيته من بعيد. وعندما فطن إلى وجودي صدرت منه حركة تنمّ عن الإستغراب مما أشعرني بأنه يريدني أن أنصرف. وكنت أمني النفس بأن صاحب السمو سيلقاني بعين اللطف السابق بل وبأكثر مما أظهره لي عند رحيلي. فلما وجدت هذا السلوك الشاذ، قفلت راجعاً إلى فلورنسا وأنا في أقصى درجة من الغمّ. وانكببت على العمل في التمثال

بغية إكماله بأسرع ما يمكن. لم أتوصل إلى سبب هذا التغيّر على كلّ حال وبعد أن لاحظت تغيّراً مماثلاً في سلوك (سفورزا) وغيره من خلصاء الدوق، لم أتردد في سؤال هذا الأخير عمّا يعني هذا. فقال وهو يبتسم رداً على سؤالي:

- بنفنوتو! حسبك ان تحافظ على إستقامتك ولا يقلقك أي شيء.

بعد أيام قلائل اتيحت لي فرصة الكلام مع الدوق. فحيّاني تحية عرضية وسألني عمّا حصل في روما. وحدثته بأفضل ما وسعني وسردت له حكاية تمثال (بندو آلتوفيتي) النصفي وما تلا ذلك. ووجدته يصغي بإنتباه شديد، فزدت على ما سبق حكاية (ميكالنجلو بوناروتي) بتفصيل، وبدا عليه بعض إنزعاج. ولما بلغت الحكاية مقولة مساعده (اوربينو) حول موارة أحدهما التراب انفجر مقهقهاً ثم قال:

- إنما هو الخاسر.

وإنصرفت.

لا شبهة في أن وكيل الدار (سر بيير فرانشسكو) قد حاول الإيقاع بي عند الدوق ولم يفلح. لأن الله الذي يحبّ الصدق بسط عليّ ظلّ حمايته هنا أيضاً كما كان يحميني دوماً من المخاطر المهلكة سائر حياتي واني لآمل أن أظل متمتعاً بحمايته إلى آخر أيامي مهما حفلت بالمصاعب والمتاعب. لقد زادني هذا عزماً على المضي قدماً، معتمداً على حوله وقوته تعالى غير خائف من تنكّر الحظ أو تقلّب أحوالي شريطة أن أبقى رافلاً في نعمائه.

والآن يتحتم عليّ أيها القارئ العزيز أن أطلعك على أقسى ضربة من ضربات الحظ السيء لحقت بي. كنت أواظب على عملي متفرغاً له تمام التفرغ. واعتدت قضاء أمسياتي في خزانة الثياب بقصر الدوق أعاون الصائغين اللذين كانا في في خدمة سموّه المبجّل. وكان معظم أعمالهما يرتكز على نماذجي وتصاميمي وقد وجدت الدوق يجني لذّته الكبرى في مراقبتي وأنا أشتغل وفي مبادلتي الحديث أثناء ذلك. ولذلك زيّن لي أن أغشى القصر أحياناً أثناء النهار. وإتفق مرّة اني كنت في خزانة الثياب واقبل الدوق كالعادة وقد حفّ به الخدم عندما علم بوجودي وبدأ حال

وصوله يبادلني الأحاديث في مواضيع مختلفة لطيفة وكنت أجيبه بما يقع في نفسه موقعاً حسناً، فزاد لطفاً على كلّ ما أظهره لي في السابق.

ثم أقبل أحد أمناء سره فجأة وهمس في أذنه بشيء. لابد وأن ما جاء لأجله كان ذا خطر. اذ نهض الدوق فوراً ودلف إلى غرفة ثانية مع أمين سرّه. في تلك الأثناء كانت الدوقة قد أرسلت من يستعلم عما يفعل الدوق فأبلغها الحاجب ان سموّه يتحدث إلى (بنفنوتو) ويباسطه. وإنه في أفضل حالاته. لما أبلغت الدوقة بهذا أقبلت حالاً حيث كنتُ. ولما لم تجد الدوق فقد جلست على مقربة وراحت تتابع عملنا برهةً. ثم إنها توجهت اليّ بكلّ لطف وأرتني عقداً منظوماً من حبّات اللؤلؤ الكبيرة الحجم النادرة المثال حقاً وسألتني عن رأيي فيها، فقلت انها في غاية الجمال والنفاسة فقالت سموّها:

ـ أرغب في أن يشتريها الدوق لي، ولذا أرجو منك يا بنفنوتو العزيز أن تمتدحها له بأفضل مايحضرك من المديح.

لما أدركت هدف الدوقة صارحتها برأيي الحقيقي بكلّ إحترام وتجلّة، فقلت:

ـ سيدتي، كنت أظن اللآلئ ملكاً لك، لذلك لم يكن من الأدب في شيء أن أقول مايجب عليّ قوله فيها بعد علمي أنها لا تعود لك، ينبغي لي أن أصارحك يا صاحبة السموّ بأن معرفتي بمثل هذه الأمور تكشف لي عن عيوب كثيرة في هذه اللآلي وأنا لهذا لا أنصحك بشرائها.

فأجابت قائلة:

ـ إن التاجر يعرضها عليّ بستّة آلاف كراون ولولا هذه العيوب الصغيرة لأربَت قيمتها على إثني عشر ألفاً.

وفي سبيل الرد قلت: لوكان العقد خالياً من كلّ عيب لما نصحت أحداً بشرائه بمبلغ يزيد عن خمسة آلاف. لأن اللآلئ لاتعدّ من قبيل الجواهر فهي عظام سمك تبلى بتعاقب الزمن. إلاّ أن الألماس والزمرد والياقوت ـ ولا أستثني الزفير منها لاتشيخ ولايعتورها تغيّر، وكلّها جواهر وأنا أحبّذ شراءها. هذا ما قلته للدوقة فقد كنت دائماً أعشق الصراحة وأبغض الكذب، والآن أراه يُفرض عليّ فرضاً. على اني

لم أشأ أن أفقد حظوتي عند هذه الأميرة الجليلة القدر، فتناولت تلك اللآلئ اللعينة وانا أرزح تحت همّ ثقيل. وتوجهت إلى الجناح الاخر حيث ذهب الدوق والعقد في يدي. فما وقع نظره عليّ حتى هتف:

- آه، بنفنوتو ما وراءك؟

أظهرت له اللآلئ وقلت:

- مولاي جئت أعرض عليك منظومة من اللآلئ في غاية الجمال. انها نادرة المثال في الواقع. ولا أعتقد أنه يمكن جمع مثل هذا العدد منها لقلادة خير منها. فابتعها يامولاي. ان العقد هو فلتة في الواقع.

أجاب الدوق على الفور:

- ليس في نيتي شراءها. فهي لاترقى إلى ما زعمت لها من الأوصاف والقيمة ولا هي بالنفاسة التي ذكرت، وقد سبق لي أن اطلعت عليها فلم تثر اهتمامي.

قلتُ:

- عفواً يا مولاي. فهذه اللآلئ هي أبدع بما لايقاس من أي لآلئ إنتظمها عقد.

في تلك الأثناء كانت الدوقة قد تركت مجلسها ووقفت خلف الباب تتسمع إلى ما أقول. وبعد أن ذكرت آلافاً من الأشياء الأخرى التي لم أدون هنا إلاّ القليل منها. نظر الدوق اليّ نظرة مودّةٍ ونطق بالملاحظة التالية:

- أي بنفنوتو العزيز، ليس بخفيَ عليّ مبلغ خبرتك وحسن إطلاعك على هذه الأمور. فلو كانت هذه اللآلئ تمتاز بكلّ المزايا التي عزوتها إليها لما ترددت في إقتنائها والأمر لديّ سواء أإرضاءً للدوقة أم لمجرد إقتنائها والواقع هو إني أريد أقتناء مثل هذه الأشياء لا إكراماً لخاطر الدوقة وحدها، بل لعلاقتها بما أتخذه من إحتياطات لضمان مستقبل أولادي وبناتي.

بعد أن بدأت في حشد الأكاذيب، لم أجد بأساً في أن أتبعها بأخرى وأخرى وبجرأة محاولاً جهدي إكساءها ثوب المعقول لأحمل الدوق على الإيمان بما أقول. على إني كنت متوقعاً أن تخف الدوقة إلى نجدتي عند حاجتي إليها. وكانت قد

وعدتني بمائتي كراون بعد تمام الصفقة. إلاّ أني بداعي الحيطة والأمان ـ كنت قد قررت في نفسي وعزمت عزماً أكيداً على أن لا ألمس كراوناً واحداً كيلا يتصور الدوق بأني مافعلت ذلك إلاّ بدافع الجشع.

راح الدوق يخاطبني بكلّ رقة، قال:

ـ أجل إني أعرف مبلغ خبرتك في هذا. فإن كنت رجلاً نزيهاً، وهذا رأيي فيك دائماً، فقل لي الحقيقة الآن.

إحمرّ وجهي خجلاً وقلت وعيناي مغرورقتان بدمعي:

ـ مولاي. لو قلت الحقيقة لسموّك فإني سأجعل من سموّ الدوقة خصماً لدوداً وهذا ماسيرغمني على الرحيل من فلورنسا. ولن يعتم أن يهاجمني اعدائي بخصوص (برسيوس) الذي واعدت به مدرسة فناني سموّك الشريفة. لذلك أتوسل بسموّك كي تبسط حمايتك عليّ.

بعد ان تفهم الدوق مصدر حراجتي وإضطراري إلى إتخاذ مثل هذا السلوك قال لي:

ـ إن وضعت ثقتك بي، فلا حاجة تدعوك إلى القلق أو الخوف من أي شيء.

فعدت اقول له:

ـ لكن فكّر يامولاي. مالذي يحول دون علم الدوقة بما جرى؟

رفع الدوق يده كما هو الحال في أخذ العهد والقسم وقال:

ـ ثق إن ما تقول سيبقى سرّاً دفيناً.

وعلى الإثر وإعتماداً على كلماته النبيلة أخبرته بالحقيقة من وجهة نظري وقلت إن اللآلئ لاتسوى أكثر من ألفي كراون.

حسبت الدوقة أننا فرغنا من الحديث. إذ كنا نتحدث بصوت خفيض على قدر الإمكان. فأقبلت علينا تقول للدوق:

ـ أرجو أن تتكرم عليّ ياسيدي بشراء هذا العقد اللؤلؤي. لأني أرغب فيه كثيراً. وصديقك بنفنوتو يؤيد نفاسته وقد قال انه لم ير لآلئ بمثل جمالها.

فقال الدوق:

- لا أريد شراءها.

- لماذا لايريد سموّك أن يسرّني بشراء العقد؟

- لأنه لا يسرّني أن أبدد مالي.

زادت الدوقة في إلحاحها وقالت:

- لكن ماذا تعني بقولك «أبدد مالي» بعد أن أكدّ لي صديقك بنفنوتو الذي يستحق ثقتك بجدارة - بأنها صفقة جيدة وان كلّفت أكثر من ثلاثة آلاف كراون؟

وهنا لم يسع الدوق إلاّ أن يقول:

- سيدتي، ان صديقي (بنفنوتو) هو الذي قال لي بأني أبدد مالي بشرائها لأن اللآلئ ليست كروية ولا متساوية الحجوم وإن عدداً منها قديم. وكدليل على هذا، أنظري هذه اللؤلؤة وإلى هذه. أنظري هنا. وهنا. كلا إنها لاتصلح لي.

وفيما هو في هذا، رشقتني الدوقة بنظرة شزراء حاقدة إرتعدت لها فرائصي. وبإيماءة تهديد من رأسها تركتنا ومضت.

كان الشعور العفوي الذي غشيني هو أن أفرّ بعيداً ناجياً بجلدي. وان أنفض عني غبار إيطاليا إلى الأبد. ثم لاح لي (برسيوس) وقد أشرف على التمام. فترددت في الرحيل قبل عرضه لكنك يا قارئي العزيز، لا أخالك إلاّ أدركت خطورة الموقف الذي وجدتني فيه.

أمر الدوق حرس الباب بإفساح السبيل لي إليه أينما كان موجوداً. وأمرت الدوقة الحرس نفسه بأن يطردوني كلّما شاهدوني في القصر. فكانوا نتيجة ذلك يتركون مواقع حراستهم ويطردوني خارجاً إلاّ أنهم كانوا يحاذرون من أن يحصل هذا على مرأى من الدوق، لأنه كان سيناديني لو لمحني قبل هؤلاء الأوغاد فيشير عليّ بالدنو منه.

في أثناء ذلك إستقدمت الدوقة الوسيط في محاولة إبرام صفقة العقد وهو نفس (برناردو) الرجل الذي كثيراً ماشكت لي مبلغ كسله وعدم صلاحه لأي شيء

وإستنجدت به لمساعدتها في حمل الدوق على شراء العقد، مثلما كانت قد إستنجدت بي. فقال لها مؤكداً:

ـ سيّدتي اعتمدي عليّ.

توجه العِلج إلى الدوق والعقد في يده. وما إن وقع عليه نظر الدوق حتى أمره بالإنصراف. وعندها أطلق العِلج الكبير شخيراً من أنفه القبيح الشبيه بنهيق الحمار وقال:

ـ عفواً مولاي، إني أتوسل إليك بأن تشتري العقد لتلك السيدة المسكينة المتلهفة إلى إقتنائه. إنها سوف تنفق آخر أنفاسها كمداً إن لم تظفر به.

وإستمر يضرب على هذه الوتيرة السمجة الحمقاء حتى عيل صبر الدوق، فإنتهره قائلاً:

ـ أخرج وإلاّ نلت منيّ لكمة.

فما كان من الوغد الكبير، وهو يدرك جيداً ماهو مقدم عليه وبه سيتمكن ـ سواء لديه أبتورم خديه أم بغنائه (فرانجيبنا الحلوة)[1] ـ من إقناع الدوق بعقد الصفقة فينال الحظوة عند الدوقة فضلاً عن عمولته التي قد تبلغ بضع مئات من الكراونات. فنفخ خدّيه وهم به الدوق فأهوى على وجهه القبيح بعدة لكمات القوية، وكان يريد التخلص منه ولذا كال له ضربات موجعة غير عادية، بلغت من الشدّة إن إحمرّ لها خداه وإستدرّت الدموع من عينيه. بعد هذا توجه بالقول للدوق:

ـ تأمل يا مولاي! تأمل خادمك المخلص كيف يحاول جهد إمكانه، كيف أنه إستعد لتحمّل أي شكل من سوء المعاملة في سبيل إسعاد السيدة المسكينة.

وإلى هنا كان هذا الأخرق قد استنفد كلّ صبر الدوق فعلاً، لكن بسبب اللكمات التي ذاقها منه، وللحب الذي يكنّه للدوقة بحرصه على إرضائها، قال فجأة:

ـ أخرج من هنا وإذهب إلى سقر فإبتعها. إني مستعد لتنفيذ كل طلب للسيدة.

---

(1) لم أهتدِ إلى عنصر الفكاهة في تعبير چلليني هنا ولا بدّ أنّ المقصود هو أغنية شائعة فيها توسّل وإتضاع من حبيب لحبيبه ولم تسعفني أية ترجمة من الترجمات التي اعتمدتها بالتفسير.

من هذا يتبين للمرء الأساليب التي يسلكها سوء الحظ ضد إنسان بائس والطريقة الحقيرة التي ينال بها الوغد الحظوة. لقد فقدت إعتباري عند الدوقة بالتمام. كما كدت أفقد إعتبار الدوق نتيجة ذلك. أمّا (برناردو) فقد ربح عمولة دسمة فضلاً عن رضاهما. أجل ليس بكاف نجاح المرء أن يكون نزيهاً ذا فضيلة.

* * *

في ذلك الزمن نشبت نار حرب (سيينا) وقرر الدوق تحصين المدينة. فوزع واجبات تحصين الأبواب على نحّاتيه ومهندسيه. وأنيط بي باب (براتو) والباب الصغير المؤدي إلى نهر (آرنو) والقريب من المرج على الطريق المؤدية إلى الطواحين. وكلّف (الفارس باندنللو) بواجب تحصين باب (سان فرايانو San Fraino) وأودع أمر تحصين باب (سان بيترو گاتوْلينو San Pietro Gattolino) إلى (پاسكوالينو دا انكونا Pasqualino d'Ancona). وأُعطي (گويليانو باچيو دانيولو Guiliano Baccio d'Agnolo) وهو حفار على الخشب واجب تحصين باب سان جيورجيو San Giorgio وأوكل لـ(باتريچّينو Patriccino) النقاش على الخشب باب (سانتو نيكولو Santo Nicolo) وعهد إلى (فرانشسكو دا سانگالو Francesco da Sangallo) النحّات المعروف بـ(مارگولا Margolla)[1] بباب (سانتا كروچي Santa Croce) وإلى (جيوڤانباتيستا Giovanbatista) المعروف بـ(تاسو) بباب (بنتي Pinti). إلى جانب أبواب وحصون أخرى كلّف بها مهندسون مختلفون لا أتذكرهم وليس لأسمائهم شأن هنا.

قام الدوق - وأنا أشهد للرجل بالكفاءة حقاً - بجولة تفقدية في المدينة وبعد أن أجرى تفتيشاً عاماً وإستقرّ على رأي معين إستدعى (لاتانزيو كوريني) أحد صرافيه وأمره بإعداد تصاميم لمختلف الخطط التي إرتآها لتحصين الأبواب، ولما كان (لاتانزيو كوريني) يهوى مثل هذه الأشغال فقد قام بتهيئتها. وبعث الدوق لكلّ منا بالتصاميم التي تتعلق بما يخصّه من عمل. وبتأملي التصميم الخاصّ بي حكمت بانه

(1) هو غير كوريانو دي سانكالو الذي ساهم مع رفائيل في هندسة كنيسة بطرس الشهيرة، وغير انطونيو دي سانكالو الذي ابتدأ في تشييد قصر فاريتزي. وقد ورد ذكرهما في حواشٍ سابقة وربما كان هذا إبناً للأول أو أخاً للثاني أو قريباً لهما فالثلاثة هم مواطنون فلورنسيون. [حاشية مكدونالد].

غير صحيح من كل وجه فضلاً عن كونه غير ملائم فرحت ابحث عن الدوق ومعي التصاميم وقصدي أن أشير إلى النقص والعيوب فيها. لكن ما إن هممت بالكلام حتى إلتفت الدوق اليّ هائجاً وقال:

- بنفنوتو! عندما يكون الموضوع متعلقاً بالتماثيل فأنا أنحني خاشعاً لخبرتك. أما في هذه الأمور فدعني وشأني. طبّق التصميم الذي وصلك ولا تزد.

رداً على هذه العبارات الغاضبة اجبت بألطف وأرق ماحضرني:

- لكني يامولاي تعلمت منك حتى في فن النحت. ذلك لأننا دوماً نتشاور فيه ونخوض في عبابه الرحب. فبنفس الروح وبخصوص تحصين مدينتك وهو أمر يفوق النحت أهمية، اضرع إلى سموّك المعظم ان تتنازل فتصغي اليّ. وبنتيجة المناقشة سيكون أسهل على سموك ان ترشدني إلى الطريق الذي يجب عليّ سلوكه.

بعد هذه العبارة المقتضبة الرقيقة، شرع الدوق يبحث معي بكلّ طيبة خاطر، فبرهنت لسموه بالحجج الدامغة وبكل وضوح الأسباب التي تجعل التصميم المعطى لي غير ذي فائدة.

بعد هذا قال:

- اذهب واعمل تصميماً خاصاً وسأرى رأيي فيه.

فقمت بعمل تصميمين لتحصين البابين متبعاً في ذلك المبادئ الصحيحة وجئت بها إلى سموه. وكان قادراً على التفريق بين المبدأ الصحيح وبين المغلوط، فقال بإرتياح:

- اذهب طبّق تصميمك فهو وافٍ بالغرض وسأقتصر عليه.

فأسرعت إلى الموقع وباشرت العمل بجدّ ونشاط.

كان يقوم على حراسة باب (براتو) كابتن لومباردي. رجل متين البناء شديد العضل قدر ما تتصور. إلى جانب فظاظة لاتُحدّ وجهلٍ مطبق وغطرسة لاتُطاق. خفّ هذا القائد يسألني عمّا أنا في سبيله. فبسطت أمامه تصاميمي بكلّ أدب وبذلت جهداً كبيراً في محاولة افهامه الغرض من الاجراءات التي سأقوم بها، إلاّ أن هذا الحيوان

ظلّ يهزّ رأسه ويتململ ويلتفت يمنة ويسرة واضعاً ثقل جسمه على هذه القدم مرة وعلى تلك مرّة أخرى وهو يبرم شاربيه ويجذب حافة قبعته فوق عينيه ويجمجم في الوقت نفسه:

ـ بحق الشيطان، ما الغرض من هذا كله؟

وأنا مشغول بشرحي دؤوباً. إلى أن أفقدني سلوك هذا الأهبل صبري، فقلت:

ـ حسن إذن، دع المسألة لي فأنا أعرف بالغرض من هذا كلّه.

ثم أدرت له ظهري معتزماً الإنصراف إلى عملي. فأتى الرجل بحركة من رأسه تنم عن الغيظ ومدّ يده اليسرى إلى قبضة سيفه وجرّد نصله من الغمد قليلاً ثم قال:

ـ مهلاً يا معلمي، أتريد إذن أن تثير شجاراً على هذا؟

فإستدرت إليه وقد فار دمي. في الواقع إنه إستفزني.

أجبته قائلاً:

ـ إن قتالك سيقتضي جهداً أقل من إقامة التحكيمات لهذا الباب.

وبومضة عين شدّ كلّ منا يده على قبضة حسامه لكن فوجئنا بجمع من الناس الطيبين يحيطون بنا قبل أن نستلّ سلاحينا، هم خليط من مواطنينا الفلورنسيين والسعاة والمراسلة وما إليهم. وتوجه إليه معظمهم باللوم والتوبيخ قائلين انه المذنب واني رجل معروف ذو مقام، وانه اذا سمع الدوق فسيقع في مأزق. وبنتيجة ذلك تولّى عني إلى شؤونه وتركني حراً أقوم بتحصيناتي. وبعد أن أكملتها توجهت إلى الباب الآخر وهو الباب الصغير عند نهر (آرنو)، فوجدت الضابط المشرف وهو من أهل (جسينا Cesena)[1] أطيب خلقاً وأكيس من كلّ العسكريين الذين إلتقيتهم بطباع دمثة رقيقة كطباع الفتاة. كما وجدته عندما تدعو الظروف مقداماً شديداً فوق ما تتصور. تابع هذا السيد الساحر الخلق ما أقوم به من عمل بإنتباه شديد حتى كان الخجل يعلوني أكثر من مرّة وكان حريصاً على تفهم وإستيعاب كلّ شيء، ولذلك

(1) بلدة تقع شمال شرق فلورنسا على مسافة 60 كيلومتراً.

قمت بشرح كلْ شيء له بطيبة خاطر. والنتيجة أننا صرنا نتسابق في تبادل آيات الودّ والتعاطف، ولذلك جاءت تحصينات بابه بشكل أفضل من تحصينات الباب الأول.

ما كدت أفرغ من من تحكيم البابين حتى قام بعض فصائل (بيبرو ستروزي) بهجوم مباغت فساد الرعب منطقة براتو. وهجر سكانها جميعاً بيوتهم واندفعوا إلى المدينة زرافات وقد حمّلوا كل متاعهم على عجلات، فنشأ عن ذلك فوضى عظيمة. وبدت العجلات صفاً طويلاً لا تُرى نهايته آخذاً بعضها بحُجز بعض. فشددتُ على الحرس بإلتزام اليقظة والحزم خشية وقوع الفوضى هنا كما وقع عند أبواب (تورين Turin) ذلك لأنه لو إستدعت الضرورة إلى إستخدام الباب الحديدي المشبك. فإن المحاولة في إستخدامه ستفشل بسبب تزاحم العجلات. لما سمع الكابتن ذاك الحيوان الكبير أقوالي إستدار نحوي وأخذ يشتمني فكلتُ له الصاع صاعين وكدنا نلتحم لو لم يحل الناس بيننا.

بعد فراغي من التحصينات دفع لي مبلغ لم أتوقعه من الكراونات. وعدت لإكمال (برسيوس) وأنا مرتاح جداً.

في ذلك الحين عثر المنقبون على بعض العاديات في ريف (أريزو Arezzo) وكان من بينها الـ(كميرا Chimera)[1] ذلك الأسد البرونزي الذي يشاهد في الحجرات القريبة من القاعة الكبرى في القصر. وإلى جانب هذا عُثر على مقدار من التماثيل البرونزية الصغيرة يعلوها الطين والصدأ وكلها مشوّه، هذا ينقصه رأس وذاك يدان أو رجلان وهلمّ جرّاً. وكان الدوق يسلّي نفسه بتنظيفها مستعيناً بأزاميل الصياغة. وكنت ذات مرة أتحدث إلى سموّه، فناولني مطرقة صغيرة وأشار فضربت بها الإزميل الذي كان يمسك به. وبهذا الشكل أزلنا عنها الصدأ والأتربة وأنفقنا في ذلك عدة أمسيات، ثم كلفني الدوق بإصلاح التماثيل وتركيب الأجزاء الناقصة فيها. وكان الدوق يجني من هذا غاية اللذة حتى حملني على مواصلة العمل أثناء النهار أيضاً وكان يرسل بطلبي يستعجلني كلما تأخرت.

---

(1) كائن خرافي له رأس أسدٍ وجسم خروف وذنب يشبه جسم الأفعى وينتهي برأسها.

وحاولت إقناعه أكثر من مرّة بأني قد ألقى من سوء الحظ ما أكره للوقت الطويل الذي أستغرقه من هذا التمثال خوفاً من فروغ الصبر، وقد وقع ذلك فعلاً. أضف إلى هذا مشكلة العمال الذين استخدمت عدداً منهم ووجب عليّ أن ألازمهم ملازمة الظل أثناء عملهم، وإلاّ آل الأمر إلى مضاعفات وكلّها خطير. منها أنهم قد يتلفون عملي، ومنها أنهم سيتقاعسون ويتباطأون. وعلى أية حال فقد وافق الدوق بالأخير على حضوري مساء كلّ يوم إعتباراً من وقت الغروب فما فوق. لقد بلغ إنسجامنا حداً انه كان يتلقاني بمودّة وترحاب يفوق السابق بكثير.

في تلك الأيام كان العمل يجري في تشييد البناية الجديدة بالقرب من (فيا دي ليوني Via dei Lieoni) وكان سموه يرغب في مقر أكثر إنعزالاً. لذا أعدّ لنفسه حجرة صغيرة في البناية الجديدة. وكان قد أوصاني بأن أسلك سبيلي إليه عبر خزانة الثياب. لذلك اعتدت التسلل من خلال شرفة القاعة الكبرى مجتازاً عدداً من الغرف الصغيرة ثم ادخل غرفته بسرّية تامة. إلاّ أن الدوقة بعد أيام قليلة حرمتني من هذا الطريق السهل بسدّها الممر بوجهي. وكانت النتيجة انتظاري وقتاً طويلاً كل مساء. فالدوقة قد تكون منصرفة إلى أمورها الخاصة في الغرف الجانبية التي تقع في طريقي وكذلك لأن صحتها ليست على مايرام فقد كان قدومي يزعجها دائماً. ولهذا ولغيره اشتد سخطها عليّ فلم تعد تتحمل رؤيتي لكني واظبت على زياراتي رغم المتاعب والمضايقات.

كانت أوامر الدوق صريحة وهي تقتضي بفتح الأبواب لي حالما أطرقها وان يسمح لي بالمرور دون كلام وإستفسار عن وجهتي. وقد نجم عن ذلك اني كنت احياناً وفي اثناء مروري غير المتوقع بتلك الغرف الخصوصية، أجد الدوقة منصرفة إلى شوونها الخاصة. في هذه الحالات يستبدّ بها الغيظ، فتنتهرني بكلّ حدة فيركبني الخوف. وكانت لا تفتأ تردد قائلة:

ـ متى ستفرغ من إصلاح هذه التماثيل الصغيرة؟ إن مجيئك ورواحك هذا هو السماجة بعينها.

فأجيبها بكلّ رقة ودماثة:

ـ سيدتي وحاميتي الوحيدة؛ إني لا أرغب إلاّ في خدمتك بإخلاص وفي إطاعة

أوامرك. إلاّ أن العمل الذي عهد اليّ الدوق به قد يمتد أشهراً غير قليلة. لذلك أرجو منك يا صاحبة السموّ الجليلة أن تصدقيني القول اذا كان مجيئي يثقل عليك فما عليّ إلاّ السمع والطاعة ولن تري وجهي، وإن أرسل الدوق في طلبي فإني سأعتذر له بالمرض ولن أحضر مطلقاً.

فتردّ قائلة:

- اني لا أمنعك من المجيء. لم أقل هذا ولم أطلب منك عصيان أمر الدوق لكن يخيّل لي مع هذا ان العمل الذي تقوم به لن ينتهي.

ولست أدري، أبلغ الدوق شيءٌ مما جرى أم لسبب آخر فقد عاد مجدداً يرسل في طلبي، فيصل رسوله قبيل حلول الليل ويقول لي مشدداً:

- إحرص على أن لا تتأخر فالدوق في إنتظارك.

واصلت العمل عدة أمسيات بوجه هذه المضايقات. وذات مرّة أثناء دخولي كالعادة التفت اليّ الدوق - ولعله كان مشغولاً ببعض الشؤون الخاصة مع الدوقة - وبغاية من الجِدّة قال لي فجأة وأنا مسمّر في مكاني وقد ملكني الخوف اهمّ بمغادرة المكان:

- ادخل يا بنفنوتو وواصل عملك وسألحق بك بعد قليل.

وفيما أنا ماضٍ في سبيلي لقيني سيّدنا (دون كارسيا Don Garcia) فأمسك بمعطفي وبدأ يلاعبني بشكل ظريف للغاية وكان طفلاً آنذاك فتعجب الدوق وهتف قائلاً:

- انظر إلى الصداقة والمحبّة الساحرتين اللتين يخصك بها أولادي.

اعتاد الأمير و(دون جيوفاني) ودون (ارناندو) ودون (كارسيا)[1] الوقوف قريباً منّي أثناء إنصرافي إلى العمل في هذه الأشياء التافهة الصغيرة. فيمازحونني ويلكزونني ضاحكين لاعبين كلما أدار الدوق أبوهم ظهره فأتوسل بهم ليتلطفوا ويتركوني، فيجيبون بصوت واحدٍ:

---

(1) هم أولاد الدوق والدوقة وكانوا صغاراً بين الخامسة والتاسعة.

- لا تقدر!

فأقول:

- حسن جداً، ما دمتم لا تقدرون، فأنتم لا تقدرون. إستمروا.

فينفجر الدوق والدوقة ضاحكين.

وفي مساء آخر يوم، بعد فراغي من عمل التماثيل البرونزية الأربعة الصغيرة التي كان مقرراً تركيزها في زوايا قاعدة تمثال برسيوس. وهي تمثل كلاً من (جوبتر ومارس ومنيرفا ودانايي والدة برسيوس)[1] مع إبنها الجالس عند قدميها حملتها معي إلى الغرفة التي كانت محلّ عملي ووضعتها صفّاً واحداً فوق خطّ النظر بقليل لتبدو وهي أكثر جمالاً. ولما ابلغ الدوق بهذا خفّ مسرعاً ووصل قبل موعد وصوله المعتاد. إن من أخبر سموّه بها كان قد أفرط في الثناء عليها قائلاً هي أبدع من تماثيل الأقدمين غير ذلك من عبارات الإطراء. اقبل الدوق تصحبه الدوقة وهما يتحدثان عن عملي بإنبساط، فاستويت قائماً وتقدمت مستقبلاً. فحيّاني سموّه بحرارة وبسمة الإمارة ورفع يده اليمنى التي كانت ممسكة بفرع شجرة إجاص كبيرة جداً وقال:

- دونك أيها العزيز (بنفنوتو) اليك هذا الفرع من الإجّاص فإزرعه في حديقتك.

فأجبت باسماً:

- مولاي هل لي أن أفهم أن سموّك يقصد بأن أقوم بغرسه في حديقتي الخاصة؟ حديقة البيت الذي هو ملكي؟

فأكد الدوق قائلاً:

- أجل في حديقة بيتك. بيتك الخاص. أأدركت الآن ما قلتُ؟

فبادرت إلى شكر سموه كما فعلت المثل للدوقة بخير ما حضرني من عبارات الشكر. ثم إنهم جلسا قبالة التماثيل. وبلغ من إعجاب الدوقة بها أنها أشارت قائلة:

- ليس بودّي أن تمتهن هذه التماثيل وتضيع قيمتها في قاعدة التمثال في الميدان.

---

(1) داناي Danae في أساطير الإغريق هي بنت اكرسيوس خطفها جوبتر زعيم الآلهة فولدت له برسيوس.

فقد تعطب وتبلى. لمَ لا تضعها في جناحي الخاص. فهناك ستحظى بالرعاية والتقدير الجديرين بمنزلتها الفريدة.

عارضت الفكر بطائفة من الحجج القوية. لكنني أدركت مبلغ تصميمها على منعي من وضعها في القاعدة حيث هي الآن. فإنتظرت اليوم التالي ويممت شطر القصر قبل المغرب بساعتين وكان الدوق والدوقة قد خرجا يتنزهان على ظهور الخيل. ولما كان قد كمل نصب القاعدة فقد أمرت بنقل التماثيل الأربعة إلى الميدان وقمت بلحامها في أماكنها المخصصة لها.

النتيجة! لن أطيل عليك. لما سمعت الدوقة بما فعلت إجتاحها غضب شديد ونقمت عليّ أشدّ نقمة ولو لم يخفّ الدوق إلى نجدتي بنبله وشهامته ـ لسقطت سقطةً عنيفة لا قائمة لي بعدها. مهما يكن من أمرٍ، فإن نقمتها السابقة بسبب حادثة اللآلى فضلاً عن هذه الأخرى جعلتها تدبّر الأمور بحيث عاف الدوق مصدر تسليته البسيطة وكان عليّ أن أقطع زياراتي، بل وجب عليّ أن أتحمل المضايقات السالفة كلّما أردت ولوج القصر.

عدتُ إلى الـ(لوجيا Loggia) حيث سبق لي ان نقلت (برسيوس) وحاولت الفراغ منه في تلك الظروف الصعبة التي أشرت إليها. وأنا خالي الوفاض لا أملك دانقاً موجَع القلب محزوناً. لو ابتلي رجل قُدَّ من حديد بنصف ما أُبتليت به من عثار حظ ونكدٍ لسحق تحته سحقاً. لكني واصلت السير غير مبالٍ.

في صبيحة ذات يوم، بعد أن فرغت من سماع (القُدّاس) مرّ بي صدفةً (برناردو السمسار الصائغ الغبيّ ـ ومتعهد مواد دار الضرب بفضل كرم الدوق. كان ذلك في (سان بييرو سكراجيو San Piero Scgeraggio) وما كاد يخرج من باب الكنيسة حتى افلت من دُبر هذا الخنزير القذر أربع ضرطات مجلجلة قد تُسمع في (سان ميناتو San Miniato) فصرخت به قائلاً:

ـ تباً لك أيها الخنزير القبّاع يا حيوان يا بهيمة، أهذا هو دليلك على عبقريتك؟

ثم أسرعت أفتش عن عصا فأطلق ساقيه للريح نحو دار الضرب. ووقفت خلف

باب بيتي مباشرة. وندبت أحد صبيان دكاني ليقف خارجه ويبلغني عند خروج ذلكم الخنزير من دار الضرب وبعد إنتظار سئمت وهدأت نفسي. ثم قدّرت أن كلّ شيء يمكن أن يقع أثناء القتال وقد تتطور المسألة إلى ما ليس بالحسبان. فقررت أن أثأر لنفسي بشكل آخر.

وقع هذا بعد يوم أو بعض يوم من عيد القديس يوحنا. لذلك نظمت مقطوعة شعرية والصقتها في ركن من أركان الكنيسة الخارجية حيث الموضع الذي يؤمه الناس لقضاء الحاجة. قلت:

هوذا (برناردو) الخنزير البغل
السمسار اللص، الجاسوس
تتطاير منه شرور باندورا[1] نحو
المغفل (باجيو) ذلك الأحمق الآخر.

وذاعت الحكاية والشعر في القصر وضحك الدوق والدوقة لها كثيراً وقبل أن يسمعها (المهجو) نفسه كانت العشرات تقف فتقرأ الشعر وتضحك شاخصة بأبصارها إلى دار الضرب أو تبحلق في وجه (برناردو). وفطن ابنه (باجيو) إليها فإنتزعها ومزّقها وهو يكاد ينشق غيظاً. أما (برناردو) فقد راح يهزّ قبضته مطلقاً الوعيد والتهديد من أنفه الضخم الخوّار.

لما أبلغ الدوق بأن (برسيوس) جاهز للعرض جاء لرؤيته. وأظهر رضاه التام من غير مماراة. ثم وجه كلامه إلى طائفة من النبلاء كانوا في رفقته، فقال:

ـ الواقع إني أرى التمثال آية في الجمال. ولكن يجب أن يحوز رضا عامة الناس ولذلك إسمح لي أيها العزيز بنفنوتو أن أطلب منك التكرّم عليّ برفع الستار عنه في ميداني لمدة نصف يوم قبل أن تضع اللمسات الأخيرة عليه. وإذذاك سيكون في

---

(1) في الأساطير اليونانية الباندورا Pandora هي إمرأة بعث بها جوبتر إلى البشر لعقابهم بعد أن قام (بروميثيوس) بسرقة النار. وزوّدها جوبتر بعلبة ما أن فتحتها بدافع الفضول حتى إنطلق منها جميع الشرور والرذائل فعمت البشر. والنكتة التي قصدها چلليني في شعره والتعريض بما عمله برناردو واضحان هنا. (ربما فكّر چلليني أن خصمه هذا ما أطلق الريح إلاّ بمناسبة لقائه وأنه إدّخرها له!).

وسعنا أن نسمع آراء النّاس فيه. هناك على كلٍ فرق بين رؤيته داخل قفص كما هو الآن وبين رؤيته وهو قائم لا حاجب بينه وبين العيون.

أجبته بكلّ تصاغر:

- عليّ أن أؤكد لك يا مولاي بأنه سيبدو أجمل بأضعاف. كيف نسي سموّك مشاهدته قبلاً وهو في حديقتي معروض في فناء واسع وكم بدا رائعاً لك إلى الحدّ الذي جعل (باندنللو) يسترق النظر إليه من خلال حديقة (الأنوسنتي). ولقد اضطر رغم أنفه إلى الثناء عليه مع ما جبل عليه من خبث طوية وطبع شرير وهو الذي لم يقل كلمة خير في أحدٍ طوال عمره. واني لأقول هذا لعلمي بأن سموّك يضع فيه ثقة كبيرة.

مطّ الدوق شفتيه علامة الضيق لكنه قال بلطف:

- قم بهذا يا بنفنوتو. إرضاء لي فحسب.

ثم دار على عقبيه منصرفاً. وبدأت أستعد لإزاحة الستار عنه. وكان ينقصه شيء من التهذيب وطلاء أجزاء فيه وغير ذلك. فلم يسعني إلاّ التذمر والشكوى. وأخذت ألعن اليوم النحس الذي خطر ببالي فيه أن أشدّ الرحال إلى فلورنسا. بمرور الزمن صرت أدرك الخسارة العظمى التي نكبت بها نفسي بتركي فرنسا. واسقط في يدي فلم أعد أتبين سبيلاً للأمل من خدمة أميري هذا في فلورنسا. لقد آل كلّ ما فعلته في حياتي من بدايتها حتى الآن - إلى الخسار والضرر.

بمثل هذه الأفكار السوداء أزحت الستار عن تمثالي في اليوم التالي. وكما شاءت عناية الله، ما أن عرض للملأ حتى أقبل الناس عليه بالثناء المستطاب والإعجاب غير المتحفظ مما منحني بعض العزاء. وإستمر لصق القصائد والأغاني الشعرية على أعمدة الأبواب حيث أقمت لنفسي ستائر واقية أثناء إنهماكي في وضع اللمسات الأخيرة. وأذكر عن يقين بأن أكثر من عشرين قصيدة تم لصقها في يوم العرض الذي لم يدم غير ساعات قلائل. وكلها مدح وتقريظ رفعا تمثالي إلى السماكين. ولم ينقطع سيل هذه القصائد حتى بعد ستره. ومن بينها قصائد باللغتين اليونانية واللاتينية. إذ إتفق أن العرض وقع أيام عطلة جامعة (بيزا) فتنافس مشاهير الأساتذة والعلماء فيما

نظموه وكتبوه. على أن ما ضاعف في سروري ومنحني الأمل في أن تتوثق علاقاتي بالدوق، هو أن زملائي الفنانين وأقصد النحّاتين والرسامين راحوا هم أيضاً يتبارون في الثناء على عملي. وأذكر مشفوعاً بالتقدير رأي الرسام الموهوب جاكوبو دابنتورمو Jacobo da Pontormo[1]، وبصورة خاصة رأي تلميذه الرسام (برونزينو Bronzino)[2] الذي لم يكتف بلصق عدد من القصائد على الأعمدة، بل أرسل إلى منزلي بعضها بيد مساعده (ساندرينو Sandrino)، كتبها بأسلوبه البليغ الذي لا يُدانى، وبقلم محكم فأدخلت العزاء والراحة إلى نفسي.

بعد هذا أحطتُ التمثال بالستائر ورحت أضع اللمسات الأخيرة عليه بكلّ نشاط.

إطلع الدوق على الثناء الذي أغرقني به أساتذة الفن في فلورنسا بعد معاينتهم التمثال. ومع هذا فقد علّق بقوله:

ـ اني لعظيم الإغتباط لما نال (بنڤنوتو) من بعض إرتياح، فسيدفعه هذا إلى إنجاز العمل بالتمثال بسرعة وبالشكل الصحيح. لكن عليه أن لا يحسب بإنه سيلقى عين الترحاب والثناء بعد أن يتم عرضه للملأ بصورة نهائية وتتملاه الأعين من شتى جوانبه. فمن المحتمل جداً أن يتضح كل عيوبه والكثير مما ليس فيه. ولذلك يجب عليه أن يتجمّل بالصبر ويتهيأ لإحتمال السيء.

تلك العبارات صبّها (باندنللو) في أذن الدوق. مقتبساً على سبيل المثال آثار (اندريا دل ڤيرّوكيو Andrea del Verrocchio)[3] الذي صنع ذلك التمثال الرائع للسيد المسيح ولتوما الرسول المعروض في واجهة الـ(اورزاميكيلي Orsammichele). وكذلك معرّضاً بعددٍ من الآثار الأخرى، حتى لم يسلم منه تمثال داود الرائع لميكالنجلو الخالد، الذي قال عنه أنه لا يبدو مهيباً إلاّ عندما يُنظر من أمام. ثم نوّه بالعدد الكثير

---

(1) جاكوبو كاروجي (1494 ـ 1556) المولود في بونتورمو من أعمال إيطاليا. أثرت رسومه كثيراً في إتجاهات ميكالنجلو ودوْرر.

(2) آنيو لو توري برونزيو (1503 ـ 1572) رسام فلورنسي إختصّ بآل مديتشي من أشهر لوحاته (ماري مديتشي) ورسوم دوقات وأدواق فلورنسا التي ترى في معارض ومتاحف فلورنسا الآن.

(3) صائغ ورسام ونحّات فلورنسي (1435 ـ 1488).اشتهر بالتمثال العظيم الذي يشاهد الآن في كامبو (ساحة سان زانيبولو في البندقية، للقائد (باتولومو كولبوني). وهو استاذ ليوناردو دافنشي.

من المقطوعات الهجائية الشعرية التي نظمت بحق تمثاله (هرقل وكاكوس) وراح يشتم الفلورنسيين.

مع كل هذا والدوق الذي كان يوليه الثقة الكبيرة، لم يقل ما قال عني إلاّ بوحي منه. وسموه كان متأكداً بأ ماقاله (باندنللو) سينتقل ويشيع لأن هذا الوحش الحسود كان مغرماً بالنميمة وقول السوء. وفي إحدى المناسبات أراد ذلك الوغد السمسار (برناردو) تأييد الأقوال التي تفوّه بها (باندنللو) فقال بمحضر من الدوق:

- ليس بخافٍ عنك يامولاي إن إقامة تماثيل ضخمة مسألةٌ تختلف عن صنع تماثيل صغيرة. ولست أقصد من هذا انه (يقصدني) لا ينجز الجيّد الرائع في صغير التماثيل، لكنك سترى انه لم يحسن العمل في الكبير منها.

وجرياً على عادة هذا النمّام مروج الحكايات، دس في هذا التعريض اللاذع إفتراءات عدّة، وأقام جبالاً من الأكاذيب على اني بحول الله المجيد وعونه وضعت اللمسات الأخيرة على التمثال. وفي صباح يوم خميس أزحت الستار عنه. وما كاد ينتصف النهار حتى إجتمع حوله خلق كثير يتعذر إحصاؤهم. وشرعوا في الثناء والإطراء دون تحفظ وتنافسوا في تقريظه. وكان الدوق قد أشرف على الميدان من إحدى نوافذ القصر السفلى فوق المدخل وهو شبه متخفٍ فسمع كلّ ما قيل عنه. وبعد إصغائه إلى أقوال الناس بضع ساعات نهض متحمساً وإلتفت إلى النبيل السيد (سفورزا) مرافقه وقال:

- سفورزا. أسرع إلى (بنفنوتو) وقل له إنه أرضاني وأسعدني فوق ما توقعت وقل له أيضاً إنني سأكافئه بشكل يدهشه، وإن عليه أن لا يقلق بخصوص أي شيء.

حمل لي السيد (سفورزا) هذه الرسالة الرائعة فإرتفعت بها معنوياتي إلى السماء لا بسبب ما تضمنت من أنباء طيبة فحسب بل بسبب صيرورتي حديث الناس جميعاً وإستمرارهم في الإشارة إلى تفاصيل في التمثال تارة هنا وتارةً هناك. قائلين إنها إبداعات طريفة لم يسبقني إليها أحدٌ.

من بين المعجبين، نبيلان صقليان. كان نائب الملك في صقلية[1] قد أوفدهما في

---

(1) كانت صقلية آنذاك من أملاك ملك إسبانيا.

مهمةٍ إلى الدوق. أقبل هذان النبيلان الرقيقان عليّ وأنا في الميدان (كنت ماراً فدلّهما أحدهم عليّ فأسرعا يعدوان نحوي). شرعا حالاً وكلّ منهما ممسك بقبعته ـ يلقيان خطبة رسمية حافلة بالتقريظ والتعظيم فيها إفراط بحق البابا نفسه. رحت أتوسل بهما ليتكرّما بمبارحة الميدان لأن المارة بدأوا يتسكعون حولنا لفرط ما غمراني بالمديح وأنا مُظهِر تواضعي قدر الإمكان. وأخذ الناس الواقفون يحدقون فيّ أكثر من تحديقهم بتمثال (برسيوس)، فأدركني الخجل لكنهما اندفعا بحرارة وحماسة إلى الحدّ الذي إقترحا عليّ السفر إلى (صقلية). ووعداني بشروط للعمل مناسبة جداً. حدثاني كيف ان الراهب (جيوڤانانيولو دي سرڤي Giovanagnolio de Servi) قد صنع فسقية كاملة مزدانة بعدد من التماثيل الصغيرة فجعلوا منه رجلاً ثرياً، وإن لم تكن تماثيله بالتي يمكن مقايستها بـ(برسيوس). لم أدعهما ينهيان ما أرادا قوله فقاطعتهما بقولي:

ـ إن العجب بل وأكثر منه ليتملكني لمحاولتكما إقناعي بترك الخدمة لشخص لم أجد محباً للفن مثله كأميري الدوق، لا سيما وأنا الآن في بلدتي التي هي مدرسة كلّ العباقرة. ولو كنت أطمع بالربح الكثير لبقيت في فرنسا أخدم (فرانسوا) ذلك الملك الجليل الذي أجرى عليّ ألف كراون معاشاً. فضلاً عن دفعه لي أجراً إضافياً عن كلّ عمل أكلّف به. فكنت أتسلم سنوياً طبقاً لهذا، ما يزيد عن أربعة آلاف كراون ذهبي. ومع ذلك فقد رحلت تاركاً في باريس ثمرة عمل السنوات الأربع المنصرمة.

بهذه الردود وغيرها وضعت لمقترحاتهما حداً وشكرتهما على مديحهما الجميل الذي تفضّلا به. وهو خير جزاء ينشده الذي أبدع عملاً فنياً رائعاً. وقلت إنهما ضاعفا من رغبتي في السموّ بفني، وقويا عزمي على أن أقوم خلال السنوات القليلة التالية بعرض أثر آخر قد يدخل السرور في قلوب الفنانين الفلورنسيين النبغاء أكثر مما أشاعه (برسيوس) فيهم. وهمّ النبيلان الصقليان بوصل حبل الثناء والمديح حيث انقطع، إلاّ أني رفعت قبعتي لهما وانحنيت باحترام ثم أقرأتهما السلام.

مرّ يومان، والثناء على (برسيوس) يعلو ويتضاعف. وبعدها قررت مقابلة سيّدنا الدوق فبادرني حالما لقيته قائلاً بنفس طيبة جداً:

ـ لقد سررتني وأرضيتني أي عزيزي (بنفنوتو). وأنا أعد بإرضائك على نحو

سيأخذك منه العجب. بل وأكثر من هذا؛ دعني أؤكد لك بأني لا أنوي المماطلة والإنتظار إلى يوم غدٍ.

إستقبلت هذه الوعود الضخمة بشخوصي إلى الله تعالى روحاً وجسماً وشكره من أعماق قلبي. وتقدمت في الوقت نفسه من الدوق بعينين تدمعان فرحاً وقبلت طرف عباءته، وقلت:

- مولاي المعظم. أيها الراعي الكبير للفن وللرجال الذين يمارسونه. اني أتوسل بسموّك العالي القدر لكي تمنحني إجازة مدة أسبوع، أولاً لأتمكن من تقديم شكري لله. فأنا وحدي أعرف كم من الجهد والتعب قد كلّفني التمثال. مثلما أعلم بأن ثقتي القوية به عزّ وجلّ جعلته يخفّ إلى نجدتي. فلأجل ذلك وبمقابل كل المعجزات الأخرى التي حققها أرغب في أن أقوم بحِجّة شكر أمدها أسبوع أقضيه في الصلاة والدعاء لله الحيّ ذلك الذي يخفّ لمعونة من يستجيره بإيمان خالص.

سألني أين ستكون وجهتي فأجبت:

- سأقصد (ڤالمُبروزا Vallombrosa) ثم (كامالدولي Camaldoli) ومنها إلى (إريمو Eremo) حتى حمامات سانتا ماريا Bagai de Santa Maria وربما (سستيلي Sestile) لأني أُعلمت بوجود بعض التحف الأثرية الجميلة فيها. وبعدها سأقفل عائداً بطريق (سان فرانشسكو دلاڤرنيا San Fracesco della Vernia) وأنا مرتاح النفس، لأقف في خدمتك مواصلاً شكري لله.

فأجاب الدوق فوراً وبصوت مرح:

- اذهب ثم عد اليّ. فأنا في الحقيقة راضٍ عنك كلّ الرضى. واترك لي سطرين لتذكرني بوعدي واعتمد عليّ.

فقمت في الحال بكتابة سطور قليلة شكرت فيها سموّه، ودفعت بالرقعة إلى السيد (سفورزا) الذي ناولها بدوره للدوق. فأخذها منه ثم أعادها إليه قائلاً:

- إحرص على تريني إياها كلّ يوم. اذ لو عاد بنڤنوتو ووجد اني لم أفِ بعهدي له فلا اراه إلاّ قاتلي!

وبضحكة منه أضاف قائلاً: بأن لا شيء يحول دون تذكره ولن يسمح لنفسه

بالنسيان. نُقلت لي كلمات الدوق هذه بالحرف الواحد مساء اليوم نفسه. بلسان (سفورزا) الذي أعادها على مسامعي وهو يضحك، وقال انه مندهش للحظوة العظيمة التي تفضّل بها الدوق عليّ. ثم أضاف بلطف ساحر:

ـ اذهب يا بنڤنوتو وعد، واني لأغبطك.

بارحت فلورنسا متوكلاً على الله، مواظباً على تلاوة الصلوات والمزامير تمجيداً له وتعظيماً وكانت سفرة ممتعة، فالصيف في أروع حُلّة والريف أنعش نفسي وشرح خاطري بلا حدود وأنا أجوس خلاله وأملأ منه عينيّ وهو والحق يقال بلا نظير. وكان في صحبتي أحد مساعديّ الشبّان ضممته اليّ ليكون دليلاً وإسمه (جيزاري Cesare) وهو من أهل الحمامات[1] رحّب بي والده وسائر أسرته ترحيباً حاراً. وكانَ من بين أقربائه شيخ مُسن أربى على السبعين وهو عمّ لـ(جيزاري) ويتعاطى الجراحة مهنةً، إلاّ أنه كان يزاول الكيمياء أحياناً. وقد آنستني صحبته كثيراً. ذكر لي هذا الرجل الطيب وجود مناجم لمعدني الفضة والذهب في (حمامات سانتا ماريا) كما صحبني إلى مواقع ذات مناظر طبيعية خلابة. فاستمتعت بإقامتي إستمتاعاً تاماً والحق يقال. ولقد قربته طبيعته السمحاء منيّ كثيراً، حتى إنه أسرّني ذات يوم بهذا القول:

ـ عليّ أن لا أكتمك شيئاً يتردد في خاطري، ربما كان ذا نفع عظيم لصديقك الدوق. فبالقرب من (كامالدولي) شِعْبٌ جبلي مكشوف غير محصّن يسهل جداً على (بييرو ستروزي) إجتيازه دون عائق. ليس هذا فقط بل سيتمكن بعد ذلك من إلقاء الحصار على (بوبي Poppi) دون أن يلقى في طريقه أية مقاومة.

ولم يكتف بذلك بل تناول ورقة من جيبه كان قد رسم عليها بوضوح خريطة لكلّ الناحية وثبّت فيها المعلومات التي أدلى بها بشكل يمكن الإعتماد عليه. فأخذتها وغادرت (الحمامات) فوراً مستقبلاً فلورنسا بأسرع ما أمكنني سالكاً طريق (براتو مانيو Prato Magno) و(سان فرانشسكو دلاّ فرنيا). ولم أتأخر في منزلي أكثر مما إقتضاني نزع حذاء الركوب من وقت وخففت إلى القصر مسرعاً. ما إنْ بلغت (باديا Badia) إلاّ

(1) يقصد حمامات سانتا ماريا التي ورد ذكرها.

وأنا والدوق وجهاً لوجه. إذ كان مقبلاً من قصر (البودستا Podesta). ولما وقعت أنظاره عليّ أقبل يرحب بي بحرارة تشوبها دهشة. ثم قال:

ـ ما الذي دعاك إلى العودة بهذه السرعة؟ لم أكن أتوقع مجيئك قبل أسبوع آخر.

أجبته:

ـ أجل عدت. وسبب عودتي هو خدمة سموّك. فأنا نفسي كنت مشتاقاً إلى قضاء بضعة أيام أخرى مستجماً في الريف الساحر.

فسألني الدوق:

ـ ما أخبارك الطيبة؟

قلت:

ـ هناك يا مولاي أمرٌ بالغ الخطورة أريد أن أطلعك عليه وأحدثك به.

ثم سرت في معيته إلى القصر. وبوصولنا أخذني إلى غرفة واختلى بي فأطلعته على كلّ شيء. وسلّمته الخارطة الصغيرة المرسومة بالقلم. فبدا عليه السرور الشديد ولما أشرت عليه بوجوب معالجة الموقف دون إبطاء، أطرق مفكراً فترة من الزمن ثم أجابني:

ـ أرى أن أخبرك بأننا عقدنا معاهدة مع دوق (اوربينو) وبمقتضاها ستكون المحافظة على هذا الشّعب من واجباته. وأرجو أن يبقي ما قلته سرّاً عندك.

وبعد إظهاره الكثير من المودة والرعاية عدت إلى منزلي.

وفي اليوم التالي يممت شطر القصر. وبعد حديث مع الدوق قال لي ببشاشة:

ـ غداً سأنظر في شؤونك بلا إرجاء، فلا تقلق.

إنتظرت اليوم التالي إنتظار المشوق المستهام وأنا أشعر بتمام الثقة. وعندما بزغت شمسه توجهت إلى القصر.

إن المرء عادة ما يسمع خبر السوء بأسرع مما يصله الخبر المفرح. فقد طلبني

السيد (جاكوبو كويدي) أمين سرّ سموه وقال لي بصلافته المعهودة وصوته يتسلل خارجاً من فمه الأعوج بصعوبة:

ـ الدوق يقول إن عليك أن تعرّفني بالثمن الذي تطلبه لـ(برسيوس).

وكان يقف جامداً كالقضيب أثناء ذلك.

سُمّرت في مكاني وعقلت الدهشة لساني. ثم إندفعت فجأة لأجيبه بأني ما وضعت قطّ ثمناً للعمل الذي أقوم به. وإن هذا يناقض ما وعدني به سموّه قبل يومين. فردّ حالاً بنبرة أكثر إرتفاعاً إنه يبلغني بأوامر صريحة صادرة من الدوق نفسه أن أسمّي المبلغ الذي أريده وبخلاف هذا فإني سأفقد مكانتي عند الدوق وسأكون موضع سخطه.

إن معاملة سموّ الدوق الحافلة بالمودة، فضلاً عن العطف الذي أظهره لي، ضللني كثيراً وجعلني أتوقع أشياء منه. زد على هذا فقد كان الإنطباع المتخلف عندي هو اني نلت كامل الحظوة عنده لا سيما وان كلّ ما رجوته هو ان يجعلني موضع ثقته واعتماده ليس إلاّ. لذا فإن هذا الطرز من التعامل معي ملأني غضباً لأنه لم يكن متوقعاً. وبسبب الأسلوب الذي ابلغت برسالته من قبل هذا العِلج الحاقد. قلت: لو ان الدوق اعطاني عشرة آلاف لما كان كافياً. ولو قدرت ان جزائي سيكون بهذا الشكل لما بقيت لحظة واحدة في خدمته. فما كان من الحيوان إلاّ وشرع يصبّ عليّ الشتائم صبّاً فقابلته بمثلها.

في اليوم التالي توجهت إلى القصر للسلام على الدوق فإستدعاني سموّه بإشارة منه ولما دنوت قال لي غاضباً:

ـ بلدان وقصور باذخة تُبنى بعشرات الألوف من الدوقيات.

فأجبته في الحال ان سموّه يستطيع ان يجنّد اي عدد يشاء من الرجال الذين في وسعهم بناء المدن والقصور، لكني أشكّ في ان يكون قادراً على ايجاد شخص واحد في العالم بأسره يستطيع ان يصنع تماثيل مثل (برسيوس).

قلت هذا وأسرعت بمغادرة القصر دون إضافة كلمة أخرى.

بعد أيام قلائل إستدعتني الدوقة ونصحتني بأن أدعها تتولى أمر تسوية خلافي مع

الدوق فهي تعتقد بأنها ستفلح وبالصورة التي ترضيني. قلت رداً على هذه الكلمات الرقيقة، إن المكافأة العظمى التي انشدها لقاء جهودي إنما هي رضى الدوق عني وهو ما وعدني به سموّه المعظَّم. وزدت قائلاً: لا حاجة تدعوني إلى أن أضع بين يدي سموّها ماكنت قد تنازلت عنه لهما منذ اليوم الأول لتجنيدي نفسي في خدمتهما. ولو أن سموه لم يعطني غير درهم توسكاني واحد لا يساوي أكثر من خمسة صولديات، فسأعدُّ نفسي سعيداً وأرضى به شريطة أن أبقى موضع ثقته ومقرّباً منه. وهذا ما حمل الدوقة على القول وهي تبتسم:

- بنفنوتو، نصيحتي لك هي أن تفعل ما أوصيك به.

ثم أدارت ظهرها لي وإنصرفت.

كنت قد توهمت بأن خير أسلوب أنتهجه هو أن آخذ بسبيل التذلل والإنصياع في كلامي، فظهر لي أنه أسوأ ما أقدمت عليه. لأن طبعها الدمث كان يدفعها إلى عمل الخير، وإن كانت حانقة عليّ بعض الشيء.

في ذلك الحين كانت أواصر الودّ تربط بيني وبين (جيروليمو ديلي الييزّي Girolimo Degle Allizzi) ضابط تموين عسكر الدوق وقد قال لي هذا الصديق يوماً:

- يخطر ببالي يا بنفنوتو الإشارة بأن الحكمة تقتضي منك تسوية هذا النزاع الناشب بينك وبين الدوق. وأوكد لك اني لقادر على تسوية الموضوع إن وضعت ثقتك فيّ. أقول هذا وأنا مدرك تماماً ما أقول. فالدوق يتضاعف إستياؤه، وستكون العاقبة عليك وخيمة. ولأقف في الحديث هنا اذ لا يسعني المصارحة بكل شيء.

واتفق بعد محادثتي للدوقة - أن اتصل بي أحدهم (وغدٌ ولا شك) وقال انه سمع الدوق يقول لسبب ما أو لغيره:

- ما أسهل عليّ أن أقذف بـ(بيرسيوس) إلى حيث. وبهذا أنفض يدي من المسألة وأتخلص من تبعاتها نهائياً.

فبسبب القلق الذي شاع في نفسي إثر هذا القول بادرت إلى أن أعهد بالأمر لـ(جيروليمو ديلي الييزي) قائلاً اني اوافق على أية تسوية شريطة ان استعيد ثقة الدوق.

هذا الرجل السليم القلب الملمّ حق الإلمام بفنون الحرب والجنود، الماهر

الحاذق بصورة خاصة في أمور الميليشيا وكلهم من أهل الريف، كان أجهل الناس بفن النحت، بل لا يفهم منه شيئاً. ولذلك قال للدوق عند توسطه في الأمر:

- مولاي، إن بنفنوتو قد فوّضني تفويضاً مطلقاً. وطلب مني الدفاع عن قضيته عند سموّك.

فأجاب الدوق:

- وانا أيضاً افوّضك في ايجاد حلّ ولن اعترض على الحكم الذي تصدره.

فقام (جيروليمو) بتدبيج رسالة ساذجة لصالحي. ذكر فيها ان على الدوق ان يدفع لي ثلاثة آلاف وخمسمائة كراون بالنقد الذهبي وأن هذا المبلغ ليس بالقيمة الحقيقية لعملي الفريد. وإنما هو بمثابة أمانة على نفقاتي وستراً لخلّتي ووسيلة للتصريح برضائي. اذ من الواجب قبل كلّ شيء ان اكون راضياً. ثم أضاف إلى هذا تعاليل أخرى بقصد الوصول إلى التسوية المالية[1].

اسرع الدوق يعلن موافقته بلهفة توازي إستيائي. ولما سمعت الدوقة بالنتيجة عقّبت بقولها:

- يا للرجل المسكين! لو إعتمد عليّ لنفعته. اذ كنت سأحصل له على خمسة آلاف كراون.

ورددت هذه الأقوال بعينها لي يوماً في القصر بمحضر من (آلامانو سالفياتي Alommano Salviati) وراحت تشمتُ بيْ قائلة إني أستأهل ما يصيبني من سوء حظ.

ورتّب الدوق أن يدفع لي شهرياً مائة كراون ذهبي إلى أن يتم تسديد المبلغ، فتسلمت الأقساط بإنتظام بضعة أشهر وفق ذلك، ثم بدأ الموكّل بالدفع السر أنطونيو دي نوبيلي Antonio de Nobili يسلمني خمسين فحسب ثم خمسة وعشرين، وأحياناً لا شيء.

شقّت عليّ هذه المماطلة فكلمت (أنطونيو) بكلّ أدب راجياً مصارحتي بالأسباب

---

(1) نظراً لقوة النقد الشرائية في ذلك الزمن يبدو ان المبلغ المتفق عليه ليس قليلاً وأن چلليني لم يغمط حقه كما يدعي.

التي تدفعه إلى التوقف عن الدفع. فأجاب بمثل أدبي قائلاً إن السبب في التأخر عن الدفع بإنتظام هو قلّة المال في القصر ووعد بالدفع حالما يتيسر المال، ثم زاد قائلاً «لأكون وغداً زنيماً إن لم أدفع لك» ـ وبهذا القول المتناقض فضح ما كان يريد كتمه كما سيحكم القارئ بلا شك.

عجبت لهذا القول حقاً. إلاّ أني منيت نفسي بأنه لن يتأخر عن الدفع عندما يكون قادراً. فكنت واهماً. وأخيراً بعد أن اتضح لي كم تُساء معاملتي فقدت السيطرة على أعصابي وفي لحظةٍ من حنق متفجر، انذرته وبكلّ حدّة بأنه سينزل من مكانته عندي إن امتنع عن دفع ما استحقّ. على أن الرجل ما لبث ان غادر هذه الدنيا وظلّت أجوري معلّقة. وها أنا في نهاية العام 1566 وما زال مبلغ خمسمائة كراون ذهبي موقوفاً. كان ثمّة أيضاً المتأخرات من رواتبي التي بدت بعد مرور ثلاث سنين وكأنها في عداد الديون الميتة. إلا أن الدوق اصيب بعلّة خطيرة. اذ احتبس بوله ثماني وأربعين ساعة. ولعلمه بأن الأطباء ما عادوا يجدون له في طبّهم حيلة، توجه إلى الله ضارعاً وكما يغلب على ظنّي. أمر أن تُسدد كلّ ديونه. فتم دفع المتأخر من تلك الرواتب ولكن الأقساط الباقية من ثمن (برسيوس) بقيت غير مدفوعة.

كنت قد قررت ألاّ أتطرق إلى الحديث عن (برسيوس) المنكود ولا أذكره بحرف. لكنني مرغم على ذلك لسبب لا قبل لي بدفعه ولذلك سأعود القهقرى قليلاً وأواصل الحديث من حيث انقطع. خيّل لي أني كنت مصيباً بقولي للدوقة بأني ما عدت قادراً على التوصل إلى إتفاق حول شيء خارج عن نطاق إرادتي بعد أن قررت للدوق بأني سأرضى بكلّ ما رغب في أن يدفعه لي. وقد كان هدفي من هذا القول هو إرضاء الدوق. ومحاولتي بهذا التصرف الكيّس إزالة إستيائه الشديد بشكل ما، ذلك الإستياء الذي عبّر عنه غضبه مني قبل أيام قلائل من إتفاقه مع (أليزي).

ويعود سبب غضبه إلى تظلّمي لدى سموّه من المسلك الخياني الخشن الذي عاملني به كلّ من السيد (الفونسو كوستيللو Alfonso Quistillo) والسيد (جاكوبو بولفيرينو Jacobo Polverino) المستشار. ولا سيما السيد (جيوڤانباتستا براندوني Giovanbatista Brandoni) الفولتيزي. فقد عرضت عليه قضيتي معهم بشيء من الحدّة والتوتر وكان هو يحاول ضبط نفسه، حتى إذا إنتهيت قال:

- هذا عين ما حصل حول تمثالك (برسيوس) عندما طلبت عشرة آلاف كراون ثمناً له. إنك تغلّب منفعتك الذاتية على أفضل ما فيك. سأقوم بتقدير ثمنه وسأدفع لك المبلغ الذي يُحكم لك به.

فكانت إجابتي على هذا مشوبة بشيء من الحدّة والغطرسة (ليس من الحكمة في شيء أن تستخدم هذه اللهجة في مخاطبة السادة العظام) إذ هتفت قائلاً:

- لعمري كيف يمكن أن يُقيِّم عملي، وليس في فلورنسا من هو صالح لهذا؟

فتضاعف غضب الدوق وأطلق فمه بعض العبارات المرّة. أذكر منها هذه:

- في فلورنسا اليوم رجل قادر على صنع تمثال مثله بالتأكيد. وهو لهذا يصلح للحكم عليه حكماً عادلاً.

وكان يقصد (باندنللو) فارس القديس يعقوب[1].

فأجبت:

- مولاي، إن سموّك المعظم وهو بين أعظم فناني العالم، مكنني من إنجاز عمل هام جداً دقيق للغاية. هذا الأثر مُدح وقُرّظ بشكل لم يسبقه فيه عمل آخر لمدرسة الفلورنسيين النبغاء. ومما يزيدني فخراً أن واحداً من أولئك الرجال العظام المطلعين والممارسين وأقصد به الرسام (برونزينو) خرج عن طوره في إعجابه، فكتب أربع قصائد بأسلوبه الرفيع البليغ تقريظاً له. وحذا حذوه كلّ أهالي المدينة بحماسة وضجيج غير مسبوقين. أوكد لكم لو أن هذا الفنان النابغة ركّز جهوده في النحت مثلما ركّزها في الرسم لكان في وسعه أن يصنع مثيلاً له، كما أؤكد لسموّك بأن أستاذي (ميكالنجلو بوناروتي) كان بإمكانه أن ينجز عملاً مثله وهو في شرخ الشباب باذلاً عين الجهد الذي بذلته فيه. إلاّ أنه سيقصر دونه الآن بعد أن طعن في السن. ولهذا فإني لا أجد من الأحياء الذين أعرفهم اليوم من يقوى على صنع نظير له أو يباريه. وأنا من جهتي لا أجدني طامعاً في مكافأة لعملي هذا أعظم من الجزاء الذي نلته. لا سيما وإن سموّك المعظم لم يكتف بالإعراب عن سرورك به بل أثنيت عليه

(1) لقب شرف منح لاباندنللو). والتعريض بذلك يقصد منه السخرية.

ثناء لم يطاولك فيه أحدٌ. فأي مكافأة أعظم وأبعث على الفخر يطمع بها المرء بعد هذه؟ أقول مصرّاً إن سموّك أعجز من أن تدفع لي عملةً أسمى وأرفع من هذه العملة. وليس ثمة كنز بالغ ما بلغ من النفاسة يمكن إضافته إليها. في الواقع إن ما دفعته هو أكثر من الكثير، ولذلك فأنا أشكر سموّك من أعماق قلبي.

أجاب الدوق على هذا بقوله:

ـ يغلب على ظني أنك تحسبني مفلساً لا أملك ما يكفي لتسديد ثمنه. طيب! إني سأدفع لك أكثر من القيمة الحقيقية بكثير.

فأجبت:

ـ إني لم أتوقع أي مكافأة أخرى من سموك. وأنا أعدّ نفسي بأني قد استوفيت أكبر المكافأة بما حكم لي به فنانو فلورنسا أولاً. وبهذا المكافأة في جيبي سأرحل من هنا في هذه اللحظة من غير عودة حتى إلى المنزل الذي وهبته لي سموّك. والأمر سواء أوقع نظري على فلورنسا، أم توفاني الله دونها.

كنا إذذاك قد بلغنا (سانتا فيليجيتا Santa Felicita) والدوق في طريق العودة إلى القصر. فاستدار نحوي بعد ثورتي هذه وقال وهو يتميز غيظاً:

ـ لن تبرح فلورنسا أبداً. وإحذر من إقدامك على هذا.

سرت في ركبه حتى بلغنا القصر وأنا أشعر ببعض خوف. وبعد أن استقرّ به المقام، إستدعى سموّه المطران (برتوليني Bartolini) الذي كان رئيساً لأساقفة (بيزا). كما إستدعى السيد (باندلفو دللاّ ستيفا Pandolfo della Stifa).. وأمرهما بأن يقصدا (باجيو باندنللو) ويبلغاه عنه أن يقوم بفحص (برسيوس) فحصاً دقيقاً شاملاً وتقدير ثمن له تبعاً لذلك لأنه يريد أن يدفع لي ثمناً عادلاً عنه. فانطلق الرجلان الصادقان يبحثان عن (باندللو) وأبلغاه أمر الدوق. فقال إنه دقّق التمثال ملياً وهو على علم تام بقيمته. إلاّ أنه لا يعتزم التدخل قطّ في كلّ ما يتعلق بي من شؤون بأي شكل كان بسبب جفاءٍ بيني وبينه حول مسائل قديمة.

فقال له النبيلان:

ـ قال الدوق إنك مأمور وعصيانك أمره قد يغضبه وعليك أن تضع ثمناً. وإن

إحتجت إلى يومين أو ثلاثة للتوصل إلى رأي فلا بأس. وعليك بعد هذا أن تعلمنا بالثمن الذي تراه مناسباً.

أجاب (باندنللو):

- سبق لي أن عاينتُ التمثال وفحصته فحصاً دقيقاً. وما دام الدوق قد أمر فلا يسعني إلاّ الطاعة: إن التمثال جميل للغاية، دقيق الصنعة وهو في نظري يسوى ستة عشر ألف كراون بل وأكثر.

قام هذان الشريفان الصادقان بإبلاغ الدوق بالنتيجة. فإنزعج كثيراً ثم إنهما أبلغاني الحكاية كما وقعت. فعلّقت بقولي إني زاهد تماماً في ثناء (باندنللو) الرجل الشرير الذي لم يسلم أحدٌ من لسانه الخبيث فنقلت كلماتي هذه إلى الدوق. وكان هذا هو الباعث الذي حمل الدوقة على أن تنصحني بتفويضها لحلّ القضية. تلك هي الحقيقة بلا مماراة. وحسبي أن أضيف إلى هذا انه من الخير لي لو أطلقت يد الدوقة. إذ إن ثمن التمثال في هذه الحالة سيدفع لي صفقة واحدة فوراً وبدون تقسيط فضلاً عن مكافأة أكثر بكثير من الثمن الأصلي.

أعلمني الدوق عن طريق محاسبه السيد (لوليو توريللو Lolio Torillo) بأنه يريد مني عمل عدد من المناظر المحفورة على البرونز لبهو المرتلين في كاتدرائية (سانتا ماريا دل فيوري Santa Maria del Fiore)(1) لكن لمّا كان في ذلك الجزء من الكاتدرائية أعمال من صنع (باندنللو)، فقد كرهت نفسي تجميل صناعته الخرقاء بمجهوداتي. وإن لم يكن هو مسؤولاً عن تصاميم عمله لأنه أجهل خلق الله في فن الهندسة المعمارية. كان التصميم في الواقع من بنات أفكار الحفّار على الخشب

(1) تعتبر هذ الكاتدرائية أروع صرح فني في فلورنسا وواحدة من أجل الآثار التاريخية والدينية في العالم. بدئ تشييدها في حدود العام 1296. ثم تعاورتها أيادي فطاحل المهندسين المعماريين وكان آخرهم وهو الذي أكملها في 1436 (فيليبو بروندلجي) قد سلخ فيها (14) سنة من حياته. ثم إفتتحها البابا يوجين الرابع وسمّاها بهذا الإسم. يبلغ طولها (150) متراً وعرضها في أوسع موضع (150) متراً وعرضها في أوسع موضع (96) وإرتفاعها في أعلى نقطة (90) متراً. تكاد لا تجد فناناً فلورنسياً شهيراً إلاّ وقد ترك فيها أثراً له فهي أشبه بمتحف ضخم حاشد من التماثيل والنقوش والرسوم.

(كويليانو باجيو دا انيولو Agnolo Guiliano Baccio) الذي أتلف القبّة. وحسبي القول أنها لا تنمّ عن أي إبداع ولا تمتاز بشيء من الفن مطلقاً. ولهذا كنت عازفاً عن العمل بأي صورة. غير أني كنت لا أني أوكد لسموّه المعظم إستعدادي التام لتنفيذ أي عمل يكلفني به، وبناء على هذا ابلغ مجلس ادارة صيانة (سانتا ماريا دل فيوري) بالتعاون معي على أساس ان يدفع الدوق لي معاشي السنوي وهو مائتا كراون فحسب. في حين يزودني المجلس بكلّ ما أحتاجه خلاف ذلك من مصاريف ونفقات.

بعد هذا مثلتُ أمام المجلس وأبلغت بالتعليمات التي أصدرها الدوق فخلت أني أستطيع شرح وجهات نظري بحريةٍ وبيّنت لأعضاء المجلس كيف ستضيع مقادير كبيرة من البرونز بما لا طائل تحته فضلاً عن المبالغ الكثيرة التي ستُبدد فعلاً وفصّلت الأسباب بمنطق واضح وفهموني تماماً. قلت أولاً: إن الشكل الذي بُني به بهو المرتهلين كان خاطئاً من ألفهِ إلى يائه. فهو عاطل عن الفن، مخالف للمعقول. خال من أي جمال أو سبق تصميم لا منطق فيه. وثانياً ان النقوش البرونزية البارزة يجب ان يختار لها مستوى واطئ لتكون تحت خطّ النظر بمسافة كبيرة. كما كان يجب أن يعمل محلّ لتلقي الكِلاب فضلاتها فيه إذ ستطغى القاذورات على المكان. ولهذا فإني أمتنع عن القيام بالعمل مهما بذل لي من ثمن ثم إستدرت قائلاً: إني ولأجل أن لا أبدد خير سنّي حياتي بالعبث الباطل ورغبة مني في إرضاء سموّ الدوق وخدمته من صميم قلبي بعمل شيء له. في حالة ما لوشاء الإفادة من جهودي. أرغبُ في أن يدعني أقوم بصنع الباب الرئيس لسانتا ماريا دل فيوري. إذ سيكون أثراً فنياً رائعاً تتملاه كلّ عين، فيرفع من قدر سموّه بشكل لا يدانيه فيه أي أثر آخر. وزدت على هذا قولي إني سأرتبط بعقد كتابي مشروط عليه بأني لن أتقاضى أي شيء لقاء أتعابي إن لم أتفوق في بابي على باب سان جيوڤاني[1] الذي بلغ الغاية في الجمال، فلن

(1) المقصود به ولا شك الباب الشرقي لكنيسة القديس يوحنا المعمدان المسماة الآن بالكنيسة المعمدانية. وهو الباب المواجه لكاتدرائية سانتا فيوري. إنها أعتق بناء أثري في فلورنسا. سمّاها دانتي في كوميدياه الآلهية il mio bel san jiovani وفيها تعمّد وهي مثمنة الشكل. ولا شك في ان جلليني كان يقصد مباراة هذا الباب الذي يعد آية من آيات الفن بحيث اطلق عليه ميكالنجلو عبارة (باب الفردوس).وهو الإنجاز الرئيس للفنان=

أتقاضى شيئاً عن أتعابي. أما اذا كان كما وعدت فسأرضى بأن يقدر ثمنه ثم يخصم ألف كراون من التقدير الذي سيحكم به أعضاء النقابة.

سُرّ أعضاء المجلس بما قلت. وقصدوا الدوق لبحث الموضوع. وقد خُيّل لأحدهم وهو (بييرو سالفياتي Piero Salviati) أن الإقتراح سيكون موضوع سرور الدوق فكان واهماً. إذ ردّ سموه قائلاً:

- إن (بنفنوتو) لا ينفكّ يريدني أن أفعل خلاف ما يراد منه عمله.

وبهذا إنصرف (بييرو) دون التوصل إلى قرار.

بُلّغت بما كان. فإنطلقت فوراً لمقابلة الدوق. فوجدته منفعلاً بعض الشيء. لكني رجوته أن يتفضل عليّ بالإصغاء لما سأقول، فوافق. فبدأت الحكاية من أوّلها وأوردت مجموعة كبيرة من البراهين الدامغة والجذابة، محاولاً إفهامه الحقيقة، مبيناً له كثرة النفقات وكيف أنها ستضيع هباء. ثم هدّأت من غضبه بقولي إن لم يشأ قيامي بصنع الباب. فهنالك منبران ينقصان بهو المرتلين في الكاتدرائية وهما عملان في غاية الأهمية وسيرفعان من قدر سموّه. وأردفت قائلاً إني سأعمل لهما عدداً كبيراً من المناظر البرونزية البارزة بنقوش وتهاويل بديعة دقيقة. فأمرني بعمل بعض التصاميم.

قمت بعمل عدة نماذج وإستغرق مني ذلك وقتاً ومجهوداً. وبين التصاميم واحدٌ ذو ثمانية أضلاع بذلت فيه عناية خاصة وبدا لي أنه أنسب وأوفى بالغرض. ثم حملتها إلى القصر عدة مرات دون أن أوفق في عرضها. وبعدها فهمت عن طريق السيد (جيزاري) الموكّل بخزانة الثياب ان سموّه يرغب في أن أتركها له هناك. ثم إطلع عليها وتبين لي أنه إختار أقلّ التصاميم جمالاً. بعد ذلك أرسل في طلبي ذات يوم. وفي أثناء بحثنا التصميم أشرت إلى أن التصميم المثمّن هو أليق وأنسب ودعمت قولي بالبراهين والحجج ونوهت بجماله الذي يفوق البقية. فقال انه يريد ان يكون

=(لورينزو كيبرتي) الذي أودع فيه عصارة عبقريته واشتغل فيه (27) عاماً (1425 ـ 1452). وصبه بالبرونز ويتكون من مصفقين في كلّ مصفق خمسة مناظر بارزة إقتبس مواضيعها من قصص شهيرة في التوراة. ويحيط بكل مصفق اطار تحتشد فيهما صور صغيرة للقديسين. اعيد طلاء هذا الباب مؤخراً فعادت إليه روعته السالفة. وكان لا يزال قبلة السياح وعشاق الفن وموضوع دراستهم.

مربعاً فهو المفضّل عنده. ثم واصل حديثه معي وقتاً ملياً بكل إيناس. إني لم أتردد في شرح ما وقع لي حرصاً على سمعة الفن ومكانته الرفيعة. من المحتمل أن الدوق أدرك صواب رأيي. لكنه أبى إلاّ أن يصرّ على إجراء ما يريد وقد إنتظرت طويلاً دون أن تطرح القضية على بساط البحث.

في ذلك الحين جيء بكتلة ضخمة من الرخام لنحت تمثال (نبتون) منها عن طريق نهر (آرنو) إلى (كريفي Grievi) بالطريق المحاذية لـ(بوجيو آكايانو Ppggio a Cajano) وتمّ نقلها على هذه الصورة السهلة بإختيار طريق مستوية[1] وكانت قد تُركت هناك فذهبت لمعاينتها. ومع اني علمت أن الدوقة قد منحتها (باندنللو) تكريماً خاصاً له. فقد أدركني الأسف لا حسداً لـ(باندنللو) بل إشفاقاً على الرخامة السيئة الحظّ. إن المرء لا يتمالك نفسه فيظهر التأسف والتفجع على شيء ما قُدّر له أن يؤول إلى نهاية سيئة، ويحاول إنقاذه من هذه الخاتمة فيقع بسبب ذلك في مآزق أسوأ من النهاية التي توقعها لذلك الشيء. وهذا ينطبق على المصير الذي قدّر للرخامة، عندما وقعت بالأخير من نصيب (بارتولومو آماناتي Bartolomio Ammanati)[2] الذي سأقول عنه الحق في الموضع والوقت المناسب.

بعد أن أجلت نظري في الرخامة البديعة، قمت بأخذ قياساتها من سائر جهاتها. وبعد عودتي إلى فلورنسا عملت لها عدداً من التصاميم بنسب وأبعاد صحيحة. وبعد

---

(1) كان الرخام يستخرج من المقالع في الجبال الواقعة جنوب فلورنسا حيث منابع نهر (آرنو) الذي يصدر منها وينحدر شمالاً حتى فلورنسا ويصب في بحر ليكوري بالقرب من بيزا. ويظهر أن مجرى هذا النهر كان يصلح لنقل قطع الرخام الكبيرة إلى مسافة ما وبعدها ينقل من العوّامات إلى الطرق البرية. والموضعان اللذان ذكرهما جلليني في المتن لا أثر لهما في خرائط إيطاليا الحديثة. إلا أن الموضع الأخير (بوجينو اكايانو) كما يبدو هو موضع في ضواحي فلورنسا أو قريب منها.

(2) مهندس ونحّات فلورنسي (1511 ـ 1592) فنان قدير من مبرّزي جيله ولد في (سِتّيانو). وإستخدمه أمراء آل مديتشي. وآثاره توجد اليوم في البندقية وبادوا وروما، فضلاً عن أشغاله في فلورنسا. ومن أشهر آثاره الهندسية جسر الأرنو الشهير الذي نُسف في 1944 واعيد ترميمه في 1957. مازالت نافورة (نبتون) وتمثاله من عمل هذا النحات يشاهد في فلورنسا. وهو التمثال الذي نجح في الفوز بعمله كما سيأتي في المذكرات. ومع أن جلليني يبدي هنا كثيراً من التحيّز في الحكم على مقدرة (آماناتي). إلا أن حكمه على التمثال نفسه يكاد يكون صائباً. فهو بنظر أهل الفن المعاصرين لايعتبر من الآثار المتقنة الخالية من العيوب.

ذلك شددت الرحال إلى (بوجيو آكايانو) حيث الدوق والدوقة والأمير الصغير إبنهما. وجدتهم جميعاً على مائدة الطعام، والدوق والدوقة يأكلان بمفردهما، لذا رحت أتحدث إلى الأمير وطال بنا الحديث حتى سمع الدوق صوتي من الغرفة المجاورة فإستدعاني بكلّ لطف. فدخلت عليهما وتلطفت الدوقة بالحديث معي بأسلوبها الساحر، ثم وجدت فرصتي المناسبة فأدرت الحديث تدريجاً إلى موضوع الرخامة البديعة التي عاينتها. وأخذت أذكّر الدوقة بأسلافها وكيف أنشأوا مدرستهم الرفيعة وأعلوا من شأنها بتشجيعم الفنانين وإنمائهم روح المنافسة بينهم، وبهذه الوسيلة تم إبداع القبّة الرائعة والأبواب البديعة التي تشاهد الآن في بيعة (سان جيوڤاني) فضلاً عن مختلف البيع الأخرى الممتازة والتماثيل التي اتحفوا بها المدنية منذ العصور الغابرة وظفروها على هامتها كالتاج الوهّاج. لم تدعني الدوقة أسترسل فقاطعتني وهي في أشدّ حالات الإنفعال قائلة انها تدرك جيداً ما أرمي اليه. ومنعتني منعاً باتاً من ذكر شيء عن الرخامة بمحضر منها مرّة أخرى. قائلة إن ذلك يورثها أشدّ الإنزعاج. فقلت:

ـ إذن فأنا أضايقك عندما اعلن رغبتي في مصلحة سموّكما وترتيب الأمور بشكلها الصحيح المرضي؟ الا فكّري يا سيدتي ما ضرّ سموكما المعظمين لو وافقتما على أن يقوم كلّ نحات بعمل تصميم لـ(نبتون)؟ حتى وإن كان قراركما النهائي ان تكون من نصيب (باندنللو)، فإن هذا سيدفعه إلى بذل المزيد من الجهد لعمل تصميم متقن وأكثر دقة مما لو كان على يقين بأنه سيد الميدان بلا منافس ـ يدفعه إلى ذلك حرصه على سمعته. بهذه الوسيلة ستتوصلان إلى خير النتائج ولن تخيبا آمال الفنانين العباقرة بكما. وستتبيّنان من هو المبرّز السبّاق في ممارسة هذا الفن السامي الممتاز على البقية بالمهارة والإبداع الذاتي، وبذلك سيعلم الملأ أي نصيرين للذوق السليم ومتفهمين للفن أنتما؟

أجابت الدوقة وقد بلغ الغضب بها أقصاه، إني أضايقها بكلامي واثقل عليها إلى حد كبير. وقد صممت تصميماً لا رجعة فيه على أن تكون الرخامة من حظّ (باندنللو) ثم أضافت:

- سَل الدوق عنها. فهو أيضاً عازم على إعطائها (باندنللو).

ظل الدوق لائذاً بالصمت أثناء كلام الدوقة، فلما توجهت إليه قال:

- عشرون عاماً مرّ على قطع هذه الرخامة من المقطع خصيصاً لـ(باندنللو)، فهي له.

فأسرعت أقول للدوق:

- فليسمح سموّك العظيم لي ببعض الكلمات المقصود بها خدمتك.

قال لا مانع لديه من قول ما أريد قوله وانه سيصغي اليّ.

قلت:

- إذن فعليّ إبلاغك يا مولاي بأن تلك الرخامة التي نحت منها باندنللو تمثاله (هرقل وكاكوس) كانت قد جُلبت خصيصاً (لميكالنجلو بوناروتي) الألمعي المفلِق. فوضع لها تصميماً بهيئة (شمشون) والمجموعة تتألف من أربعة شخوص بالتمام. ولو أتيحت الفرصة له وواتته الظروف لأنتج منها أعظم أثر. في حين أن صاحبكم (باندنللو) لم ينحت منها غير شخصين مشوهين قبيحين. وفنانو فلورنسا ما زالوا إلى يومنا هذا يأسفون للخطأ الفظيع الذي ارتكب بحقّ تلك الرخامة النفيسة. واعتقد أن أكثر من ألف قصيدة هجاء وسُخر علقت على هذا الإخفاق الفني الذريع. واني لعلى يقين بأن سموك يتذكر ذلك جيداً. لهذا السبب يا مولاي الأجلّ أنا أربأ بك ان تفرط بمثل هذه الرخامة التي تفوق سابقتها نفاسة أن تمنعها عن فنان خبير يجيد نحتها، وإن كانت مخصصة لـ(باندنللو) الذي سيتلفها حتماً فأنت لست كأولئك الذي كانوا في مركز المسؤولية وأدى بهم جهلهم إلى حرمان (ميكالنجلو) من تلك الرخامة التي اقتلعت له، فدفعوا بها إلى (باندنللو) فأتلفها. ألا فكر ملياً يا سيدّي. واحكم بأن يقوم كلّ من يريدها لنفسه - بعمل تصميم. وبعد ان تجتمع لك طائفة منها اعرضها على المدرسة[1]. وبعد ان يستمع سموّك إلى رأيها ستعرف بحكمك الصائب كيف تختار الأفضل. وعندها لن تبدد مالك ولن تخيب آمال عصبة الفنانين النوابغ الذين لا نظير لهم في العالم اليوم، فسيضيفون مجداً إلى مجدك.

---

(1) أي نقابة أو جمعية الفنانين الفلورنسيين.

بعد أن أنصت الدوق اليّ باهتمام ولطف نهض تاركاً المائدة وهو يقول:

ـ إذهب واعمل تصميمك يا بنفنوتو واربح القطعة الرخامية. فما قلته هو الحق واني بذلك لعليم.

أظهرت الدوقة إشارات تنمّ عن التهديد والوعيد وراحت تتمتم بغيظ وحنق ما لا أدري. أما أنا فقد استأذنت وعدت إلى فلورنسا وأنا أرى الطريق دهراً، لأتفرغ حالاً إلى التصميم.

بعد عودة الدوق قصد داري دون إخطار. فأريته نموذجين صغيرين يختلف أحدهما عن الآخر فامتدحهما لكنه خصّ أحدهما بأكثر إعجابه، وطلب مني أن أضع اللمسات الأخيرة عليه قائلاً إن ذلك سيكون من صالحي. وكان قد إطلع على نموذج (باندنللو) وعلى أخر غيره لعدد من النحاتين. إلاّ أنه خصّ تصميمي بالمزيد من الثناء. أو هذا على الأقل ما نقله العديد من الحجّاب والمرافقين الذين سمعوا ثناء الدوق.

ومما أذكر من الوقائع حول هذا الموضوع، حادث له صلة وثيقة به. إتفق أن كردينال (سانتا فيوري) قدِم إلى فلورنسا فأخذه الدوق إلى (بوجيوكايانو) وفيما هو في عرض الطريق وقع نظر الكردينال على الرخامة فامتدحها وأظهر إعجابه الشديد بها ثم سأل الدوق عمّن كلّف العمل بها من المثّالين؟

فأجاب الدوق دون توقف:

ـ بنفنوتو، فقد عمل تصميماً لها في غاية الروعة.

نقل اليّ هذا الحديث أناس موثوق بهم. وعلى إثر سماعي ذلك إنطلقت لمقابلة الدوقة حاملاً معي بعض الحلي الجميلة. فأعجبتها كثيراً ثم سألتني بما أنا مشغول. فقلت:

ـ اني أقوم الآن يا مولاتي بعمل نموذج يتفق ومزاجي. عملٌ مجهدٌ للغاية لم يسبقني إليه أحدٌ. اني أنحت مجسماً للمسيح على الصليب بالحجم الطبيعي من رخام أبيض ناصع كالثلج فوق صليب من الرخام الأسود.

فسألتني فوراً عما أنتويه له، فأجبت:

ـ بصراحة ياسيدتي. إني لا أنوي بيعه ولو بألفي دوقية ذهبية. فأنا لا أعتقد أن أحداً صرف مجهوداً مثلما صرفت فيه. كما اني لم أرغب في أن أتعهد بصنعه لشخص ما خشية أن لا أوفق به ويسيء الفشل إلى سمعتي. لقد إبتعت قطعتي الرخام من حرّ مالي. وإستخدمت لمعاونتي شاباً طوال سنتين وأجرته مع ثمن الرخام والحديد جمعت كلها ثلاثمائة كراون ذهباً. ولهذا قلت لن أتنازل عنه بأقل من ألفين. لكن لو أن سموّك أنالتني فضلاً لا غبار فيه ولا ضرر يتأتى منه، فإنه يسرّني جداً أن أقدمه هدية خالصةً لك. كل ما أطلبه من سموّك هو أن لا تقفي ضدي في قضية ترجيح التصاميم التي كلفني سموّ الدوق بها لتمثال نبتون من الرخامة الكبيرة.

فأجابت بإنفعال شديد:

ـ إذن فمعارضتي أو مساندتي لا وزن لهما عندك؟

أجبت قائلاً:

ـ بالعكس! إني لعظيم الإعتبار لكليهما يا سيدتي. وإلاّ لما عرضت عليك هدية ذات إعتبار عندي لا يقلّ ثمنها عن ألفي دوقية. غير أني واثق من الدراسات والتصاميم المضنية الدقيقة التي عملتها للتمثال بحيث صرت كبير الأمل بالفوز في هذه المسابقة حتى وإن كان مُنازلي (ميكالنجلو) العظيم الذي تعلمت منه وحده لا من غيره كلّ ما أملكه من معرفة. ولعمري إني سأغتبط لو شارك وهو الواسع الإطلاع بعمل تصميم لا أولئك الجهلة الذين لا يملكون من المعرفة إلاّ النزر فبمنافستي لأستاذي الجليل سأنال درجةً رفيعة من الشرف في حين أني لن أكسب شيئاً من مباراتي لهؤلاء الآخرين.

بعد أن فرغت من أقوالي هذه نهضت وتركت مجلسها وهي غاضبة.

عدت إلى عملي في التصميم حتى انتهيت منه. وجاء الدوق لمشاهدته يصحبه سفيران، أحدهما مرسل من دوق (فِرارا) والثاني من مجلس حكام (لوكّا). سُرّ سموه بالنموذج وقال للنبيلين المرافقين:

ـ حقاً ان (بنفنوتو) جدير بالفوز.

وشاركه السفيران وإرتفعا بالثناء إلى عنان السماء لا سيما سفير (لوكّا) الذي كان

من مشاهير العلماء. وكنت قد تأخرت عنهم مسافةً لأتيح لهما مجالاً لقول ما يريدون لكني وبعد سماعي هذا التقريظ تقدمت من فوري ووجهت كلامي إلى الدوق قائلاً:

- مولاي. إليك خطوة ممتازة أخرى يخطوها سموك: وهي أن تأمر كل راغب في الرخامة أن يصنع أنموذجاً من الطين بنفس الحجم الذي تتسع له الرخامة. وعندئذ سيكون سموك في أفضل موقف للحكم فيمن يستحقها. وإسمح لي أن أضيف: لو أعطى سموك الرخامة لمن لا يستحقها فلن يلحق ضرر بمن يستحقها قدر ما يلحق بك. لأنك ستخسر مالياً، وسيصيبك الخجل. في حين لو عكست الآية وأعطيتها لمن يستحقها، فستنال شرفاً عظيماً وستجني ربحاً من المال الذي تنفقه. كما سيدرك أهل الفنّ بأنك خبير وصاحب ذوق.

هزّ الدوق كتفيه غير مكترث وسار مبتعداً إشارة إلى نهاية الزيارة. وعندها قال له سفير (لوكّا):

- مولاي، انت رجلك (بنفنوتو) هذا رجل فظيع!

اجاب الدوق:

- بل واكثر مما تتصور بمراحل. ما كان افضل له لو هو أقلّ من هذا، اذ لحظي بالكثير مما فقده.

هذه العبارة نقلها لي السفير نفسه بالحرف الواحد كأنما يريد ان ينصحني لأغيّر من أسلوب تعاملي. فعلّقت على هذا بقولي: القضية هي اني متعلق بسيدي وخادمه المحبّ المخلص. لكني لا اتقن اسلوب الملق والمداهنة.

ما مرّت أسابيع قلائل حتى حضرت (باندنللو) الوفاة. وقيل ان العلّة التي اوردته حتفه هي الصدمة التي اصابته بعد يأسه من الحصول على الرخامة، ناهيك عن فسقه وفجوره المفرطين. كان (باندنللو) قد سمع بالصليب الذي ذكرت فيما سبق قيامي بنحته. فأسرع يباشر العمل في نحت ال(بيتا Pieta)[1] من قطعة رخام. وتشاهد الآن في

---

(1) اي تمثال العذراء مريم وهي تحتضن جسد المسيح. في الواقع ان باندنللو مدفون في كاتدرائية الأنونزياتا=

كاتدرائية (انونزياتا)[1]. أما أنا فكنت إعتزمت إهداء صليبي لكنيسة (سانتا ماريا نوفللاً Santa Maria Novella)[2] فثبتتُ الكلاليب التي سيعلّق بها. ولم أطلب لقاء هديتي إلاّ السماح لي ببناء ضريح صغير لي تحت قدمي الصليب لتثوي فيه عظامي. فأجاب الأخوة الرهبان انهم لا يستطيعون الموافقة دون قرار من مجلس الإدارة. فقلت لهم:

- إذن لماذا لم تطلبوا أيها الأخوة موافقة المجلس على السماح لي بتصب الصليب بعد أن سمحتم لي بدقّ المسامير وغير ذلك دون إجازة منهم؟

على إثر ذلك قررت ألاّ أهدي (سانتا ماريا نوفللا) ثمرة جهودي الفنية. وبقيت مصراً على هذا رغم ان اعضاء المجلس جاؤوا اليّ ورجوني بأن اعيده إليها. على اني راجعت المسؤولين عن كاتدرائية (انونزيانا) وافضيت للأخوة الرهبان المطهّرين بما في نفسي من أمنية مثلما فعلت في (سانتا ماريا نوفللا). فوافقوا بالإجماع قائلين من المؤكد أنهم يريدونني أن أهديه لكنيستهم ولا مانع عندهم من بناء ضريحي فيها بأي شكل أردته مناسباً. ولما سمع (باندنللو) بهذا بدأ يشتغل بكلّ دأب وجدْ لإنجاز تمثال العذراء (البيتا) وطلب من الدوقة أن تتوسط للحصول له على بقعة في كنيسة (پازّي Pazzi)[3]. فتمّ له ذلك بشيء من الصعوبة. وما أن تأكد من ذلك حتى أقام تمثاله بغاية من الإستعجال، لكنه توفي قبل الفراغ منه. فقالت الدوقة إنها إلتزمت (باندنللو) في حياته وستلتزمه أيضاً وهو ميت. وبخصوص الرخامة قالت:

- إني وإن اصبح في عالم الأموات، سأطرد كل فكرة تساورني لنفض يدي من أمر الرخامة.

=وعلى قبره قطعة رخام ذات كتابة بارزة تشير إلى ذلك. لقد تفنن النحاتون في نحت تماثيل للعذراء في هذا الموقف. وعلى رأسهم (ميكالنجلو) الذي يرى تمثاله (البيا) الآن في كاتدرائية (سانتا فيوري). وقد نحته ليوضع على ضريحه إلاّ أنه توفي في (1555) ولم يتمه وهو اهم أثر في الكاتدرائية.

(1) بنيت في حدود (1250) واعيد بناؤها في اوسط القرن الخامس عشر.

(2) بوشر بنائها في اواسط القرن الرابع عشر واروع ما فيها الرخام المستعمل في تزيينها من اللونين الأبيض والأخضر ويشاهد فيها أروع ما خلّفه رسامو ونحاتو الرينسانس من تماثيل وصور تمثل مناظر دينية. وهي مخصصة لأخوية الرهبان الدومينيكان وهناك دير ملحق بها. وإلى هؤلاء رجع چلليني يفوضهم في الموضوع.

(3) سانتا ماريا مادلينا دي بازّي. إحدى الكنائس الأثرية التي تعود إلى القرن الرابع عشر.

وعلمت ذات يوم من السمسار (برناردو) لذي لقيته صدفة في الريف ان الدوقة قد أعطت (آماناتي) الرخامة. فقلت:

ـ ما كان أسوأ حظها العاثر لو وقعت في يد (باندنللو) على أن مصيرها سيكون أسوأ بمائة ضعف وهي في يد (آماناتي).

كان الدوق قد كلفني بعمل نموذج بإرتفاع الرخامة وأوصى بأن أزود بالخشب والصلصال اللازمين. فضلاً عن إقامة قاطع صغير في اللوجيا الكبير حيث إنتصب (برسيوس) مع دفع أجور عامل واحد. فباشرت العمل بحماسة باذلاً قصارى جهدي وأقمت متبعاً الأصول المعتمدة ـ هيكلاً خشبياً وقطعت أشواطاً في فترة وجيزة حتى أشرفت به على النهاية غير ملقٍ بالاً على ما إذا كنت سأتولى نحته من الرخام أو أصبّه بالبرونز. أبيت أن أشغل فكري بهذا وكنت في الواقع مسروراً لإضطلاعي بمثل هذا العمل المرهق معللاً نفسي بأن الدوقة وهي المرأة الذكية الأريبة كما تبين لي فيما بعد ـ ستأسف بعد أن ترى النموذج ـ على إرتكابها هذا الخطأ الفاحش بحق نفسها وبحق الرخامة.

وعمل (جيوڤاني) الفلمنكي[1] نموذجاً آخر في دير سانتا كروجي Santa Croce[2] كما عمل (ڤنجنزيو دانتي Vencenzio Danti) البيروجي نموذجاً ثالثاً في منزل النبيل (اوتاڤيو دي مديتشي Ottavio de Medici) وباشر ابن (موسكينو Moschino) البيزي برابع. وصنع الخامس (بارتولومو آماناتي) في بهو اللوجيا الذي قسّم بيننا. وكنت قد أقمت لنموذجي حاجزاً محكماً. وهممت بالجزء الختامي من الرأس، فصورت ملامحه التقريبية ولم أكد إذ أقبل الدوق من القصر بصحبة الرسّام جيورجيّو[3] قاصداً

---

(1) ويدعي جان بولونيا. نسبة إلى المدينة التي يرى فيها تمثاله الرائع (لانبتون) الآن وهو لعين النموذج الذي عمله في فلورنسا فرفض على الأرجح. ويعد من أشهر الآثار في إيطاليا.

(2) كنيسة الأخوة الرهبان الفرنسسكان جددت في (1295) كما ترى الآن. ويقع إلى جوارها دير الرهبان وهو الذي يقصده چلليني هنا.

(3) هو جيورجيو ڤاساري Giorgio Vasari (1511 ـ 1574) المولود في أريزو، رسام ومهندس شهير من مدرسة الرينسانس. وقد نوهنا بكتابه الجليل الشهير في سير الفنانين الذي سبق ان ذكره چلليني في موضع سابق من مذكراته.

محل عمل (آماناتي) للإطلاع على نموذج (نبتون) الذي كان (ڤاساري) نفسه قد شارك آماناتي في العمل به مع كلّ مساعديه أياماً غير قليلة. وقد نُقل لي أن الدوق لم تبد عليه علائم الرضى أثناء تفقده. ولم يقع من نفسه موقع قبول. فهمّ (جيورجيو) بإلقاء خطبة طنّانة إلاّ الدوق هزّ رأسه وقال موجهاً كلامه إلى (جيانستفانو Giastefano):

- إذهب وسَلْ (بنڤنوتو) هل بلغ عملاقه مرحلة يمكن معها إلقاء نظرة عليه؟

أبلغني (جيانستفانو) برسالة الدوق بلطف وإحترام واضاف انه لن يتردد في مصارحة الدوق إن لم يكن النموذج قد بلغ المرحلة التي تمكن الدوق من تأمله، لأن سموه مدرك تماماً الظروف العصيبة التي إجتازها جراء إفتقاري إلى المعاونين. قلت: سأكون ممتناً لو تفضل عليّ بالمجيء، ومع اني لم أتقدم في عملي كثيراً لكني أركن إلى نفاذ بصيرة سموه المتناهية القادرة على الحكم بدقة عما سيكونه نموذجي عند فراغي منه.

فنقل السيد الماجد كلامي للدوق فأقبل متلهفاً، وما ان إحتوته دكاني حتى شخص بأبصاره إلى النموذج متفرساً متمعّناً فيه بشكل إستشففت منه الإرتياح والسرور. ثم أخذ يدور حوله متوقفاً بين آن وآخر مدققاً إياه من جهاته الأربع تدقيق الخبير العليم بأسرار الصنعة. ثم أظهر ما يدلّ على رضاه التام. ولم ينطق بأكثر من هذا القول:

- بنڤنوتو! ما عليك الان إلاّ أن تضع عليه كسوته الأخيرة.

ثم التفت إلى مرافقيه وأنشأ يمتدح عملي بإفراط. وانهى ذلك بقوله:

- النموذج الصغير الذي رأيته في منزله كان في نظري في غاية الإبداع إلاّ أن هذا فاقه.

شاءت إرادة الله - وهو المدبّر لسائر الكائنات والأمور لخيرنا (أقصد أولئك الذين يؤمنون به وينحنون لجبروته، فهو يدفع عنهم البلوى والضرّ دائماً) أقول شاءت إرادة الله ان يعترض سبيل حياتي وغدٌ حقير من أهل (ڤيكيو Vicchio)[1] اسمه (بييرماريا

(1) بليدة تبعد زهاء خمسة وعشرين كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من فلورنسا.

دانترکولي (Piermaria d'Antergoli) ويلقّب بـ(سبيتا Sbietta). وهو فلاح غنّام من أقرباء الطبيب (كويدو كويدي) الذي هو الآن رئيس بلدية (بسجيا Pescia)(1). جاءني هذا باقتراح: عرض أن يبيع مني منافع واحدٍ من حقوله للمدة التي بقيت لي في هذه الدنيا. لم أشأ تفقد الحقل قبل عقد الصفقة لانصرافي إلى إكمال نموذج (نبتون) العملاق، كما أني لم أر ضرورة لذلك ما دام هذا البيع هو مجرد استغلال منفعة. فقام بحساب الغلّة التي ستصيبني بمقدار كذا من بوشلات القمح، وكذا من الخمر، وكذا من الزيت والذرة والكستناء الخ. الخ. فقدرت أن كلّ هذا المحصول يسوى في يومنا ذاك مبلغ مائة كراون ذهبي. دفعت له ستمائة وخمسين كراوناً وهو الثمن المتفق عليه بضمنه الضرائب، ووضع في يدي صكّ ضمان بخط يده فيه تعهد أن يدفع لي تلك الكميات من الغلال طوال حياتي. ولذلك لم أهتم بأمر الذهاب إلى المزرعة وإلقاء نظرة عليها، ومهما يكن فالأمر لديّ سواء ما دام الوضع المالي لـ(سبيتا) وأخيه (سرڤيليبو) سيقومان بمثابة ضمان كافٍ، إذ أكد لي عدد كبير من معارفهما بأن مالي مضمون إلى آخر حدٍ. بعد هذا إتفقنا على إستقدام السيد (بيير فرانشسكو برتولدي) مسجل عقود المركاتانزيا (Mercatanzia). فبادرت بتسليمه الوثيقة التي أدرج فيها (سبيتا) تفاصيل كلّ ما أقرّ به لي من غلّة معتقداً أنها ستُدرج في صلب العقد. إلا أن مسجل العقود هذا الذي كان مسؤولاً عن صياغة العقد إنشغل بتدوين الحدود الإثنين والعشرين التي عددها له سبيتا، فغفل كما أظن عن تثبيت كميات الغلة التي أقرّ لي بها البائع. وكنت من جهتي مركّزاً إنتباهي في عملي أثناء قيام المسجل بكتابة العقد حتى إني تمكنت من إنجاز جانب كبير من رأس نبتون أثناء كتابته التي إستغرقت عدة ساعات. بعد توقيع العقد، راح (سبيتا) يجاملني فيظهر لي من الودّ ما يزيد عن المعقول. فقابلته بالمثل وأهداني جداءً وجبناً وديوكاً ولبناً خاثراً وأصنافاً من الفاكهة حتى أخجلني وأحرجني. وإزاء كرمه هذا كنت أخرجه من الفندق الذي ينزل فيه كلما إختلف إلى فلورنسا وأستضيفه في منزلي هو وقريب أو قريبان له كانا يرافقانه في كثير من الأحيان.

---

(1) بليدة تبعد زهاء خمسة وخمسين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من فلورنسا.

ثم شرع وبغاية من الكياسة والمحبة يحضني على زيارة المزرعة قائلاً انه لمن المؤسف أن لا أعتزم عملي إلى مساعدي بضعة أيام والقيام بزيارة للمزرعة بعد مرور الأسابيع الكثيرة على شرائها. وأحدث هذا الرجاء والإلحاف المنطوي على أخبث النوايا تأثيره. فشددت الرحال في ساعةٍ من ساعات النحس وإستقبلني (سببيتا) في منزله بحفاوة ودّ يقصر عن إظهار مثلهما للدوق نفسه! وبذّته زوجته في الترحيب وحسن الإستقبال. ومرّ بنا زمن ونحن على هذه الحال من المودة والتعاطف إلى أن أتمّا نسج خيوط مؤامرتهما ضدّي أعني هو وأخوه (سرڤيليو).

لم أهمل العمل الدائب في (نبتون) وقد تبينت سابقاً أني قمت بإبراز تقاسيم جسمه وتفاصيل أعضائه بأسلوب محكم جداً ومتميز لا يعرفه أحد ولم يمارس من قبل. ومع يقيني بأن القَدَرَ حكم بأن لا تكون الرخامة من نصيبي للأسباب التي فصلتُها سابقاً، فقد إستهدفت الفراغ منه بسرعة وعرضه في الميدان حالاً إرضاء لرغبة في نفسي لا غير.

ذات يوم وكان يوم أربعاء يقع فيه عيدٌ اختياريّ[1] شجعني الطقس الدافئ الجميل ومعاملة الوغدين البالغة في اللطف والمجاملة، على الخروج من منزلي الريفي في (ترسبيانو Trespiano). كنت قد أصبتُ وجبة غداء فاخرة، فلم أتأخر في طريقي إلى (ڤيكيو) كثيراً بل بلغتها في أقل من ثلاث ساعات قبل حلول المغرب. فلقيني (سرڤيليبو) عند مدخل البلد. ويبدو انه كان على علم سابق بمقدمي. غمرني بالمجاملات. وأخذني إلى دار (سببيتا) حيث رحبت بي زوجه تلك الساقطة العاهر بكلّ حرارة، فقدمت لها على سبيل الهدية قبعة من القش ظريفة جداً قالت إنها لم تر أجمل منها. ولم أجد (سببيتا) في الدار.

حلّ المساء فجيء بالعشاء وتناولناه معاً بإنسجام وإنشراح خاطر. وخصص لمبيتي مخدع ممتاز نمت فيه على فراشٍ في منتهى النظافة. وعومل خادمان كانا معي بعين المعاملة حسب مركزهما. وفي صباح اليوم التالي لقيت إثر إستيقاظي عين الحفاوة

---

(1) هو عند الكاثوليك ليس بالعيد الرسمي، وإنما يوم مخصص لذكرى قديس أو حدث ديني وللمرء الخيار في أن يتخذه عطلة أو يشتغل فيه.

والإكرام كأمس. وتوجهت لمعاينة مزرعتي فوجدتها على خير ما يرام. ودفع لي المقدار المقدّر من الحنطة والذرة. ثم إني قفلت راجعاً إلى (ڤيكيو) وبعد عودتي قال لي القسّ (سرڤيليو):

- أرجو أن لا يستبدّ بك القلق أي بنڤنوتو! قد لا تجد كلّ شيء بالشكل الذي مُنِيتَ به؛ وفي هذه الحالة لا تزعج نفسك أو تقلق اذ سرعان ما ستجد الأمور في صالحك لأنك تتعامل مع أناس أمناء. وعليّ أن أخبرك بأننا طردنا الفلاح الأجير في المزرعة لأنه من أهل الفساد.

هذا الفلاح الذي يدعى (ماريانو روزيكلي). كثيراً ما كان ينبهني بعد طرده بقوله:

- سترى في النهاية أيّنا من أهل الفساد وحسبك أن لا تغفل عن مصالحك وكن يقظاً.

وفي أثناء تحذيره هذا كان يطلق ضحكات مكتومة فيها إنذار ويميل برأسه مشيراً كأنه يريد القول «إذهب إلى هناك وستتبين الأمر بنفسك». فداخلني القلق من أقواله لكنّي لم أتوصل إلى معرفة شيء مما كان سيقع لي.

على كلٍّ، بعد عودتي من المزرعة التي كانت على نحو ميلين من (ڤيكيو) بإتجاه جبال الألب، وجدت القسّ[1] في إنتظاري. فتلقاني بسحره المعتاد هاشاً باشاً وسرنا معاً إلى المنزل لتناول الغداء. كانت وجبة خفيفة أكثر مما هي وجبة كاملة. وبعدها خرجت متجولاً في أنحاء (ڤيكيو) وكان السوق قد بدأ يكتظ بمرتاديه ووجدت نفسي فجأة وأنا محطّ أنظارهم: الكلّ يتطلعون اليّ متفرسين كأنما يجدون شيئاً غريباً فيّ ومنهم بصورة خاصة شيخ صالح طاعن في السنّ، قضى شطراً كبيراً من حياته في (ڤيكيو) وإمرأته خبازة تخبز وتبيع. وكان يملك عقاراً زراعياً جيداً يبعد عن الموقع نحو ميل واحد لكنه قنع بالبقاء حيث هو. وكان مستأجراً داراً تعود لي في (ڤيكيو) تحولت ملكيته اليّ مع المزرعة التي كانت تدعى (حقل النافورة).

فبدأ يخاطبني:

(1) يقصد سرڤيليو.

- إني أشغل دارك وسأدفع لك الإيجار عند الإستحقاق. وإن إحتجت إليه قبل الأجل فأنا طوع أمرك وسأنقدك البدل. كل ما أريد قوله هو اني أكره أن يقوم سبب للخلاف بيني وبينك.

وفيما نحن في هذا الحديث، لاحظت انه كان يركز فيَّ نظراً حديدياً.

فلم يسعني السكوت وقلت:

- اجبني ايها العزيز (جيوڤاني) لماذا تبحلق فيّ ولا تحوّل أنظارك عنيّ؟

أجاب الرجل الطيب:

- سأصارحك بكلّ سرور إن وعدتني وعد رجلٍ حر وهو ما أتوسمه فيك أن لا تدع أحداً يدري بأني القائل.

فقطعت له عهداً، فقال:

- ينبغي لي أن أخبرك بأن ذاك القسّ الجلف (سرڤيليبو) راح قبل أيام ليست ببعيدة، يدور متبجحاً مفاخراً بذكاء وسعة حيلة أخيه (سبيتا)، كيف إنه باع مزرعته من شيخ مسنّ بيعاً محدداً بما بقي من حياة الشاري الذي لن تمتد به الحياة أكثر من سنة واحدة. إنك تورطت مع عيّارين محتالين فاحذر لنفسك. واحرص على أن تعيش ما يمكنك ولتكن عيناك مفتحتين، وهو ما لاغنى لك عنه. هذا ما أردت قوله ولن أطيل.

في أثناء تجوالي في السوق إلتقيت صدفة بـ(جيوڤانباتستا سانتيني Giovanbatista Sanini) فأخذنا القسّ لتناول الغداء معاً. وكما سبق لي القول كان الوقت قبل الغروب بأربع ساعات. وقد تناولنا وجبة عاجلة متقدمة على الموعد كي يتفق ذلك مع ترتيبي العودة إلى (ترسبيانو) مساء ذلك اليوم. ولذا تمّ إعداد الوجبة بعجلة، وكانت زوج (سبيتا) تروح وتغدو وهي منشغلة بهذا وذاك يساعدها خادم يدعى (ججينو بوتي). وبعد إعداد الصلصة ونحن نهمّ بالجلوس قال القس وقد إرتسمت على وجهه الشرير إبتسامة نكراء:

- أرجو أن تتقبل إعتذاري لعدم إستطاعتي مشاركتك الطعام. فثمّة صفقة هامة لأخي (سبيتا) وعليّ أن أبرمها لأنه غير موجود وسأنوب عنه فيها.

وألححنا عليه جميعاً بالبقاء عبثاً، فقد أصرّ ثم إنصرف وشرعنا نأكل. بعد أن فرغنا من الصلصة وكانت في صحاف قُدمت لنا جميعاً. جاء دور اللحم المسلوق فقُدم لكلّ منا بقصعة على حدة. وهنا قال (سانتيني) الذي كان يجلس قبالتي:

ـ لقد خصّوك بإناء فخاري يختلف عن البقية؛ أنظر بأي شكل يحتفون بك ويكرمونك؟

قلت إني لم ألحظ هذا. ثم أشار عليّ بأن أدعو إمرأة (سبيتا) لمشاركتنا وكانت هي و(ججينو بوتي) يروحان ويغدوان بعجلة وبشكل غير عادي. أخيراً نزلت عند إصراري وجلست لمشاركتنا قائلة بلهجة الشاكي المتبرّم:

ـ إنكم لا تأكلون شيئاً. لعلكم لم تستسيغوا طبخي؟

فأسرعت أمتدح الطعام مثنى وثلاثاً مؤكداً لها بأني لم أذق أفخر منه. ولم آكل قبلاً بشهية كما أكلت الآن، وقد استوفيت حظي منه ونلت كفايتي. ولم يخطر ببالي أن أسأل نفسي عما حدا بها إلى مثل هذه اللجاجة والتأكيد على تناولي مزيداً من الطعام. عندما فرغنا كان الوقت يشير إلى أقل من ثلاث ساعات لموعد الليل. وكنت جدّ حريصٍ على الوصول إلى (ترسبيانو) في تلك الليلة لأتمكن من إستئناف عملي في اللوجيا صباح اليوم الثاني. فودّعت الحاضرين وشكرت ربّة البيت وإنطلقت.

بعد أن قطعت ثلاثة أميال بدأت أشعر وكأن ناراً كاوية تحرق معدتي، وإنتابتني آلام شديدة حتى خلت المسافة إلى (ترسبيانو) دهراً. وبعون الله بلغتها ليلاً وأنا أكاد أسقط إعياء. آويت إلى فراشي حالاً لكني لم أغمض عيناً واحدة حتى الصباح، والأنكى من هذا إن الإسهال الفظيع الذي إنتابني جعلني أشعر وكإن إستي تحترق. وحين إستدرت لأرى السبب وجدت الجزء الملاصق لها من ثيابي ملطخاً بالدم.

فطنت فوراً إلى أني أكلت شيئاً ساماً. ورحت في فكري أقلّب الحوادث مراراً وتكراراً لعلّي أتوصل إلى معرفة الشيء الذي تناولته. وتذكرت الصحاف والقصاع والأطباق الصغيرة المختلفة عن البقية التي خصّتني بها زوج (سبيتا). ثم تذكرت كيف أن القس الشرير شقيق (سبيتا) كاد يقتل نفسه من فرط الإحتفاء بي ورعايتي ثم أبى البقاء ومشاركتنا الطعام كما تذكرت أيضاً إعتذاره عن البقاء بحجة صفقة لأخيه

(سبيينا) وقوله قبلاً لبعض الناس، إن أخاه هذا قد باع مزرعة من شيخ مسنّ لمدة تنتهي بأجله ولن يتعدّى سنة واحدة. وهو ما أسرّني به الرجل الطيب (جيوڤاني ساردللو). من هذا كله توصلت إلى نتيجة واحدة. وهي أنهم وضعوا لي سبلمة[1] في قصعة الشورباء الصغيرة. وجعلوا مذاقها طيباً شهياً. أجل لا شكّ في ان السمّ هو سبلمة لأن هذا النوع يسبب عين الأعراض التي ظهرت فيّ. كان من عاداتي أن لا أتناول مع اللحم إلاّ القليل جداً من الحساء المتبّل أو المرق الكثير البهار مقتصراً على الملح. إلاّ أني تناولت ملعقتين صغيرتين من ذلك المرق لأني وجدته لذيذاً. بعدها رحت أذكر كيف ألحّت عليّ زوج (سبيينا) بمختلف الوسائل لأتناول المزيد منه. وعند ذلك أيقنت بأنهم دسّوا لي مقداراً من السبلمة في المرق.

مع شعور بثقل العلّة فقد صح عزمي على مواصلة العمل في اللوجيا ولكن وطأة المرض إشتدت بعد أيام قلائل فأرغمتني على ترك العمل والتزام الفراش. وما إن سمعت الدوقة بما حصل لي حتى أسرعت فأسندت العمل بالرخامة إلى (بارتولوميو آماناتي) وأهدتها له. فأرسل يقول لي بأن أعمل الذي أريد بنموذجي، لأن الرخامة أصبحت في حيازته. أبلغني بهذه الرسالة السيد (..) الذي يسكن في (ڤيا ديل Via del) وهو واحد من عشاق زوج (بارتولوميو آمانتي). رجل مهذب كتوم ولذا كان أكثرهم حظوة عندها. و(آماناتي) يمنحه كلّ الفرص التي يريدها للوصال بها. وبإمكاني ان أقول الكثير في هذا، على أني لا أرغب في نهج سبيل أستاذه (باندنللو) الذي لم يكن يثبت على نقطة عند بحث موضوع معين. يكفيني القول اني أجبت السيد (..) بأن هذا النبأ ليس مفاجأة لي، فقد كنت أتوقعه على الدوام. وعليه أن ينصح (بارتولوميو) عني بأن يجتهد في عمله لكي يظهر إمتنانه من حسن حظه الذي اتحفه بهذه الفرصة العظيمة، وهو غير جدير بها.

بقيت طريح الفراش وأنا في حالة من البؤس تجلّ عن الوصف. وإستدعيت الطبيب النطاسيّ (فرانشسكو دا مونتي ڤاركي Francesco da Monti Varchi) والجراحي

(1) المركب الكيميائي (كلورور الزئبق المصعد) ويدعى بالسليماني، وهو سمّ قاتل إذا اخذ بكميات كافية، وهو من السموم المعروفة منذ القدم.

(رافايللو دي بيللي Raffaello de Pilli) أيضاً للإشراف على معالجتي. فقد أحرقت السبلمة امعائي واستمرّ الإسهال دون انقطاع. وأدرك (فرانشسكو) بأن السمّ قد عمل كلّ الضرر والتخريب الذي يقوي عليه ولم تكن كميته كافية للتغلب على جسمي المتين التركيب كما ظهر له. وفي يوم ما قال لي:

- اشكر الله. يا (بنفنوتو) فقد نجوت من الموت. وعليك ان لا ترتاب لحظة واحدة في اني كنت أعمل جهدي لشفائك. فبهذه الوسيلة نرد كيد الأوغاد الذين حاولوا إيذاءك إلى نحورهم.

وعقّب (رافايللو) على هذا بقوله:

- إن الشفاء الذي حققته هو أعجب وأصعب ما عرف من حالات مشابهة. لا يخفاك يا بنفنوتو ان ما ابتلعت من السبلمة هو ملء فم.

وهنا وافقه فرانشسكو بقوله:

- ربما كانت واحدة من تلك الديدان المعوية السامة.

قلت لهما إني لعلى يقين من هوية السمّ الذي دُسّ لي.

ثم لاذ جميعنا بالصمت. وإستمر الطبيبان يعالجاني مدة تربو على الستة أشهر ولم أستعد صحتي كاملة وأتوفر على أعمالي المعتادة إلا بعد إنقضاء عام وبعض عام.

في ذلك الوقت كان الدوق قد تهيأ لدخول (سيينا) ظافراً. وقد تقدمه (آماناتي) ببضعة أشهر لإقامة أقواس النصر. وتخلّف في اللوجيا ابن سفاح له. فقام هذا برفع بعض الأغطية التي كانت تخفي (نبتون) تمثالي وقد أحكمت تغطيته لأنه لم يبلغ حدّ الكمال. فراجعت الأمير (دون فرانشسكو)[1] ابن الدوق وكان شديد الميل اليّ وشكوت له الأمر. حكيت له كيف أزاحوا الغطاء عن تمثالي قبل تمامه ولو كان كاملاً ما إكترثتُ. فأتى بحركة أو حركتين فيهما وعيد وتهديد ثم قال:

(1) في العام 1564 تنازل الدوق كوزيمو عن أملاكه لإبنه هذا محتفظاً بحكم فلورنسا وحدها، ثم خلفه في الحكم بعد وفاته في العام 1574، إلاّ أنه كان مجرد نائب لوالده في الزمن الذي ينوه به چلليني.

- بنفنوتو! لا تزعج نفسك بهذا الأمر. إنهم يحفرون قبرهم بيدهم. لكني سأصدر الأوامر بإعادة غطائه إن شئت.

وأضاف سموّه الأفخم أشياء كثيرة في صالحي بمحضر من الأشراف. فأجبتُ إن رجائي من سموّه هو تزويدي بما يلزم من وسائل لإكماله له لأني أرغب في تقديمه هدية له مع النموذج الصغير. فأجاب انه يتقبل الهديتين بكلّ سرور وسيأمر بما أحتاج. نفخت فيّ هذه الإلتفاتة الصغيرة قوة جديدة بل انقذت حياتي في الواقع، فقد انهدت قواي وأشرفت على التلف لكثرة ما ابتليت به من عللٍ ولفرط ما لقيت من بلايا سقطت عليّ كلها دفعة واحدة. إن هذا التقدير البسيط اراحني ونفخ فيّ روحاً من العزم على المضي قدماً في عملي.

كملتْ سنة واحدة على شرائي منفعة حقل النافورة من (سبيتا) وكأن لم يكفه ما ألحق بي من أذى بدسّ السم لي وارتكابه بعض عمليات إختلاس، فقد اتضح لي ان المزرعة لا تغلّ نصف المقدار الذي تعهد لي به من الغلة. اني حائز فضلاً عن العقد الرسمي، وثيقة بخطّ يده تعهد فيها أمام شهود بأن يؤمن لي الغلة التي ذكرتها لي سابقاً. وبناء عليه راجعت أعضاء مجلس القضاء. وكان السيد (ألفونسو كويستللو Alfonso Quistello) في قيد الحياة وهو المستشار ويجلس مع سائر الأعضاء ومنهم (أفيراردو سريستوري Averardo Serristori) و(فدريكودي ريجي Federigo de Ricci) وغيرهما ممن لا أتذكر أسماءهم. وكان ثمّة فرد من أسرة (اليساندري Alessandri). كانوا جماعة من ذوي الشأن والمقام الرفيع.

بعد شرح قضيتي للحكام. قرروا بالإجماع الحكم على (سبيتا) بإعادة المبلغ الذي إستوفاه مني. بإستثناء (فدريكو دي ريجي) الذي كان يستخدم (سبيتا) في ذلك الوقت. وعندها قالوا لي جميعاً انهم آسفون لأن (فدريكو دي ريجي) يحول بينهم وبين إصدار حكم في القضية. وقال لي (أفيراردو سريستوري) عين ما قاله الآخر. وابلغني انه وذاك الفرد من أسرة (اليساندري) قد أحدثا ضجة كبيرة حول المسألة وإحتجا بشدة. وبعد أن أرجأ (فدريكو) البتّ في القضية إلى أن أنهى أعضاء مجلس

القضاء فترة خدمتهم. لقيني (سريستوري) صباح يوم وهم خارجون من ميدان (الانونزيانا) فقال بصوت جهوري غير هيّاب أو مهتم بمن يسمعه:

- إن النفوذ الذي يمارسه (فدريكو دي ريجي) يفوق ما يمارسه سائرنا مجتمعاً. وهذا الذي أصابك بالدمار رغم أنوفنا.

لن أعلّق بشيء حول هذا. اذ ما سأقوله قد يعدّ قذفاً وطعناً بسلطة الحكومة العليا. وحسبي القول اني ظُلمت، وهضم حقي بمسعى وارادة مواطن ثري، لأن الراعي الجلف (سبيتا) كان من خدامه ليس إلاّ.

كان الدوق في ليفورنو Livorno[1] فقصدته في زيارةٍ لأطلب منه إعفائي من الخدمة ليس إلاّ. فبعد أن استعدت قوتي وصحتي وأدركت كم أنا مهمل لا يُستفاد منيّ. خالجني الألم والحزن على ما لحق بفنّي ومواهبي من ضرر. قصدت ليفورنو وأنا عازم على مقابلة الدوق. فرحّب بي بحرارة وأدب جمّ. وبقيت هناك أياماً عدةً أخرج فيها معه في نزهة على ظهور الخيل كلّ يوم. فكانت أحسن فرصة لقول كل ما أريد قوله. اذ اعتاد الدوق قطع مسافة أربعة أميال خارج (ليفورنو) بإمتداد الساحل حيث كان يبني قلعةً صغيرة. ولم يكن يريد أن يُضايق بالكثير من الأتباع ولهذا إختصني لمنادمته ومبادلته الحديث. وفي ذات يوم وبعد أن إستشففت منه مودّة وميلاً غير عادي تعمدت الحديث حول (سبيتا) أي (بيرماريا دانتريكولي)، فقلت:

- مولاي! إني لأرغب في إطلاعك على القضية الغريبة التي ستوضح لك سبب تخلّفي عن إكمال نموذجي العزيز على قلبي (نبتون) الذي كنت أشتغل به في اللوجيا. عليّ أن أوضح لسموّك بأني كنت قد إبتعت مزرعة لمدى الحياة من سبيتا.

ثم أنهيت إليه بالتفاصيل كافةً. دون أن أشوبها بتزييف. ولما بلغت بالحكاية مرحلة السمّ. قلت: إذا كان سموّه يعدني من خدّامه المفيدين فعليه بدلاً من عقاب (سبيتا) وكلّ من دسّ لي السمّ - أن يجزل لهم العطاء لأن السمّ الذي لم يكن كافياً

---

(1) مدينة على ساحل البحر تقع جنوب غرب فلورنسا وتبعد عنها زهاء خمسة وخمسين كيلومتراً وهي (ليكهورن) الحالية.

لقتلي، كان في الواقع بالمقدار الذي وضع لي كافياً لشفائي من داء اللزوجة المميت الذي تشكو منه معدتي وأمعائي منذ سنوات. والنتيجة فبدلاً من أن يكون حظي من الحياة ثلاث سنوات أو أربع على أكثر تقدير كان لتأثير دوائهم في جسمي من الفائدة ما يجعلني أعتقد بأني كسبت أكثر من عشرين سنة. واضفت إلى هذا قولي اني شكرت الله على ذلك بحرارة وشوق أضعاف ما فعلت قبلاً.

وختمت الحكاية بالقول:

- صحيح جداً ما كنت أسمع الناس يرددون: إن الله يريد بنا الخير حين يبتلينا بالشرور.

أصغى اليّ الدوق لأكثر من ميلين في نزهتنا مرهفاً السمع ثم قال متعجباً:

- تباً لهم من أشرار!

ولم يزد شيئاً.

قلت أخيراً إني مدين لهم بالفضل. ثم إنتقل بنا الحديث إلى مواضيع طلية أخرى. وإنتظرت يوماً مناسباً لغرضي وإتفق اني وجدته رائق المزاج، فطلبت منه أن يسرّحني من خدمته كيلا تضيع السنوات المتبقية من عمري بما لا طائل تحته ودون القيام بعمل ما. وأما ما تبقى من ثمن (برسيوس) فلا بأس من أن يتم تسديده حينما يشاء سموّه. وقد خرجت عن حدودي في شكره مختاراً أجمل العبارات إلاّ أنه لم يردّ عليّ بكلمة واحدة ولكنه بدا شديد الغيظ.

وفي اليوم التالي أقبل عليّ السيد (بارتولوميو كونجينو Bartolomio Concino) وهو أحد كبار أمناء سرّ الدوق الرفيعي المقام. فقال لي بنبرة لا تخلو من وعيد:

- يقول الدوق: إن شئت الإستعفاء فسيقبل ذلك. وإن شئت أن تواصل الخدمة فسيوكل إليك أعمالاً عساك تكون قادراً على إنجازها.

أجبتُ إن رغبتي منحصرة في التفرغ إلى عملٍ ما سيما ما يعهد اليّ به سموّه لأني أقدمه على أي إنسان آخر في العالم. وإني لمسرور في أن أعمل لسموه بدرهم واحد ما أنجزه لغيره بدوقية ذهب.

فأجاب يقول:

- إن كان شعورك هذا فالمعنى الذي أستخلصه منه أنه قبولٌ ولا حاجة إلى المزيد من الكلام. عد إلى فلورنسا لا يساورك القلق ما دام الدوق يريد بك خيراً.

وعلى هذا الأساس عدت إلى فلورنسا.

ما كاد منزلني يحتويني حتى طرقني زائراً شخص يدعى (رافايللوني سكيجيا Raffaellone Scheggia) وهو حائك للثياب المقصّبة بالذهب. قال لي:

- إني يا عزيزي (بنفنوتو) لراغب في إصلاح ذات البين. بخصوص خلافك مع (بيير ماريا سبيتا).

أجبت لا أحد يمكنه إجراء الصلح بيننا غير السادة أعضاء مجلس القضاء. وفي الدورة الحالية لهذا المجلس لن يجد (سبيتا) صاحبك هذا، (فدريكو) آخر مستعد لقاء خروفين مُسمّنين ودون اعتبارٍ لشرفه أو خوف من ربه، ليروج لدعوى مخزية. فيصيب مقدسات العدالة بطعنة نجلاء وبهذا العار الجلل.

بعد أن قلت هذا وكثير غيره. واصل (رافايللوني) مهمته قائلاً بلهجة المتملق المداهن: إن أكل القطاة بسلام أفضل من شنّ مثل هذه الحرب للفوز بديك سمين وإن كان الفوز به مضموناً. ثم زاد قائلاً إن إجراءات القضاء قد يطول أمدها، وسأتحسر على الوقت الضائع بها متمنياً لو صرفتها في انجاز عمل فنيّ بديع يكسبني المزيد من الشهرة، ويعود عليّ بالكثير من الربح.

أدركت إنه يقول الحق. وبدأت أعير أذناً صاغية لأقواله. ولم يضع وقتاً فأجرى الصلح بيننا على الوجه التالي: يقوم (سبيتا) باستئجار المزرعة مني ببدل سنوي قدره سبعون كراوناً ذهبياً لما تبقى من سني حياتي. لكن ما كدنا نأتي إلى توقيع العقد الذي قام بتنظيمه السيد (جيوڤاني ابن ماتيو أد ڤالكانو Giovani Mattio ad Valgano) حتى نوّه (سبيتا) بأن الطريقة التي نريد بها تصريف الأمور ستنجرّ إلى أن ندفع أكبر مقدار من الضريبة ومع العلم انه لن يتراجع عن الإتفاق فمن المستحسن ان نجعل الإيجار محدداً بخمس سنين متجددة. وإنه سيحافظ على تعهده ويفي به دون اللجوء إلى رفع

الدعاوى مرّة أخرى. ووعده اخوه القسّ المحتال بعين الشيء. وعلى هذا تمّ إبرام العقد لمدة خمس سنين.

كنت أريد أن أهمل الكلام عن هذه العملية الشائنة إلى حين وأتحدث عن أمور أخرى، غير أني مضطر لتدوين ما حصل بعد ختام السنوات الخمس المتفق عليها. بعد ختام المدة بدا هذان النذلان مترددين في المحافظة على الوعد الذي قطعاه. وفي الواقع أرادا إعادة المزرعة إليّ وإقالة الإيجار. فما كان منيّ إلاّ أن أخذت أجأر بالشكوى والإحتجاج، فلوحا لي بالعقد فصرت فاقد الحول أمام نكولهما واسقط في يدي. وبإدراكي قلة حيلتي هددتهما بالدوق وقلت انه لن يتسامح بمثل هذا السلوك الخياني اللاإنساني الذي يحصل في مدينته. فأرعبهما ذلك بحيث دفعهما إلى إرسال (راڤايللوني) الذي تحقق بمسعاه الإتفاق الأول. كانا قد أبديا عجزهما عن دفع مبلغ سبعين كراوناً كما فعلا طوال السنوات الخمس المنصرمة. فأجبت بأني لن أرضى بأقل. فجاءني (راڤايللوني) هذا قائلاً:

- عزيزي (بنڤنوتو). لا شك أنت مدرك اني اقف إلى جانبك، وهما الآن يضعان كلّ شيء في يدي.

ثم انه اطلعني على مقترحاتهما المكتوبة. وبجهل مني لحقيقة كونه من أقرب أقربائهما فكرت بألاّ داعي للريبة وفوّضت أمري إليه تماماً. ثم جاءني يوماً - وكان ذلك بعد الغروب بنصف ساعة في شهر آب. وأغرقني بكلامه المعسول وأرغمني على كتابة عقد فوري مدركاً بأن الحيلة التي حبكها لاتنطلي إن تأجلت القضية إلى اليوم التالي. وقضى الإتفاق أن يقوما بدفع خمس وستين كراوناً إيجاراً سنوياً على قسطين لما تبقى من عمري. وقد اعترضت بشدّة وصممت على الرجوع عن قبولي العقد. فأشار (راڤايللوني) إلى توقيعي، وأقنع الجميع بأني الجانب المعتدي. واحتجّ بأنه ما توسط في القضية وحسمها إلا متوخياً مصلحتي وإنه أحرص الناس عليها. ولم يكن مسجل العقود أو الآخرون يدرون بأنه قريب لهما فقد لامني الجميع وعذلوني. فلم يسعني إلا الرضوخ والتسليم دون تلكؤ. على أني سأبذل جهدي لأعيش أطول عمرٍ ممكن!

ثم إني إرتكبت غلطة أخرى في السنة التالية (شهر كانون الأول 1566) فقد ابتعت منهما أيضاً واقصد (سبيتا) واخاه نصف حقل (بوجيو) بمبلغ مائتي كراون وهو ملاصق لحقل النافورة. وبعد أن دفعت المبلغ نقداً أجّرته لهما لمدة ثلاث سنين عند إنقضائها يعود لي. قمت بهذا بدافع حسن النية ومصلحة الطرفين. وقد يكون مني شذوذاً عن الموضوع لو أوردت تفاصيل الحيل والنذالات التي ارتكبها هذان الشخصان بحقي. فالله الله منهما! وحسبي هو ونعم الوكيل، وإليه أشكو لأنه بسط عليّ حمايته من أولئك الذين أرادوا بي شرّاً.

فرغت من صليبي الرخامي وقررت أن أقيمه مرتفعاً عن الأرض بضعة أقدام عند وضعه في محله. اذ سيبدو اكثر مهابةً وجلالاً للناظر وإن كان يبدو وهو مستقرّ على الأرض بديعاً رائعاً. فتأثيره تضاعف بعد رفعه وكان سروري به لا يُحدّ. وعرضته لكلّ من يرغب في مشاهدته. فسمع به الدوق والدوقة وفوجئت بزيارتهما بعد عودتهما من (بيزا) إذ أقبلا على غير إخطار يصحبهما حشد من النبلاء ورجال البلاط، تحدوهما الرغبة في مشاهدة الصليب لا غير. كان إعجاب سموّها به عظيماً وأصعداني بمديحهما إلى السماوات العلى وحذا حذوهما النبلاء والأشراف المرافقون.

بعد أن وضح لي إعجابهما طفقت أشكرهما بأرقّ العبارات قائلاً إنهما رفعا عن كاهلي عبء رخامة (نبتون) اذ كان خلاصي منها العامل الرئيس لإنجازي مثل هذا العمل الذي لم يسبقني إليه أحد قط. ومع أنه لم يكلفني جهداً خارقاً فإنه في اعتقادي يساوي العناء الذي تكبّدته فيه، لا سيما بعد أن حظي بإعجاب سموّهما. ثم استتليت: وبما اني لا أرى من هو أجدر منهما به فإني أقدمه هديةً لسموّهما المعظمين ببالغ السرور. على أني رجوت منهما قبل الإنصراف أن يتكرما بزيارة الطابق الأرضي من منزلي. فنهضا في الحال وبكلّ لطف تركا المصنع ودخلا ليشاهدا النموذج الصغير الذي عملته لـ(نبتون) مع (النافورة) وكان مفاجأة للدوقة التي لم تره من قبل، فقد أثر فيهما تأثيراً عظيماً بحيث أطلقت فجأة صرخة إعجاب ودهشة. ثم إلتفتت إلى الدوق وقالت:

ـ ما تصورت قطّ بحياتي أن أرى أحداً من عشرة من هذا الجمال.

وجواباً على هذا قال الدوق:

ـ ألم أقل لك؟

وردد هذه العبارة عدة مرات.

وتجاذبا أطراف الحديث ملياً وكله إطراء وثناء عليّ. ثم استأذنتني الدوقة وغمرتني بمديح يتضمن الإعتذار أو يجري مجراه وكانت تكلمني وكأنها تطلب مني الصفح وبعدها قالت انها ستوصي لي من المقلع برخامة مناسبة لأقوم بالعمل. فقلت رداً على عبارتها اللطيفة. لو أن سموّها زودتني بالوسائل وبما أحتاج فإنني على أتم الإستعداد والرغبة للنهوض بمثل هذا التكليف حباً بهما وولاء لهما.

فأجاب الدوق في الحال:

ـ ثق يا بنفنوتو بأنك ستُزوّد بكلّ ما تريده. فضلاً عن ان ما سأعطيك دون سؤال منك سيكون أكثر بكثير وأنفس بما لايُقاس.

بهذه العبارات الساحرة انصرفا وتركاني سعيداً راضياً.

مرت عدة أسابيع دون أن أمرّ على الخاطر. ولم يخطُ أحد خطوة واحدة نحوي فتملّكني اليأس. وفي تلك الفترة من الزمن أوفدت ملكة فرنسا[1] السيد (باجيو دل بيني Baccio del Bene) إلى دوقنا بطلب قرض مستعجل. فقام الدوق بإرساله بكلّ طيبة خاطر كما قيل. ولما كانت تربطني بالسيد (باجيو) صداقة متينة العرى فقد غمرتنا السعادة عندما إلتقينا في فلورنسا ووصف لي الرعاية التي شمله بها سموّه والعطف الذي أبداه. وفيما نحن نتجاذب أطراف الحديث سألني عما إذا كنت أشتغل الآن في عمل هام؟

فلم يسعني إلا أن أحدثه بحكاية تمثال (نبتون) الكبير ونافورته والضرر الكبير الذي أصابني من الدوقة. فقال نيابة عن جلالة الملكة انها مهتمة جداً بإكمال ضريح

(1) هي كاترين دي مديتشي (1519 ـ 1589) ابنة لورنزو الثاني دوق فلورنسا وزوج هنري الثاني. وأمّ الملوك الثلاثة الذين تعاقبوا على عرش فرنسا (فرانسوا الثاني، شارل التاسع، هنري الثالث).

زوجها الملك هنري[1]. وإن (دانييللو دا ڤولترّا Daniello da Valterra) كان قد كُلّف بصبّ الحصان البرونزي الكبير. إلا أن الوقت الذي كان قد حدده لنفسه، إنقضى دون قيامه بالعمل كما أن هناك نقشاً وتهاويل مهمة جداً للضريح. فإن وجدت في نفسي الرغبة في العودة إلى فرنسا فإن الملكة ستقدم لي كلّ ما أطلب شريطة أن أتفرغ لخدمتها.

فرجوت السيد باجيو أن يتوسط لديّ عند الدوق ليمنحني الإذن بالعودة إلى فرنسا. فقال (باجيو) مستبشراً وكأن الموضوع قد بُتَّ فيه:

- إذن فسنعود معاً!

وأورد ذكري أمام الدوق في اليوم التالي وقال إن كان الدوق راغباً فإن الملكة ستفيد من خدماتي. فأسرع الدوق يجيب:

- ما زال بنڤنوتو ذلك الفنان القدير الذي تعرفه الدنيا إلاّ أنه تقاعد ولم يعد يشتغل.

وانتقل الحديث بهما إلى شؤون أخرى.

في اليوم التالي قصدت السيد (باجيو) فأطلعني على ما دار بينه وبين الدوق حولي، فلم اقو على ضبط نفسي من فرط الإنفعال وصرخت:

- بعد أن أبى سموّه أن يكلّفني بعمل وأبقاني عاطلاً. وبعد أن قمت بمبادرة شخصية مني بإنجاز عمل من أصعب أعمال النحت في أي زمان ومكان وبتكاليف زادت على مائتي كراون دفعتها من جيبي الذي يكاد يكون خالياً. أي شيء لا أقوى على إنجازه لو أناط بي سموّه عملاً؟ ألا دعني أصارحك القول: لقد أسيئت معاملتي إلى أبعد حدّ.

هذا الصديق نقل أقوالي إلى الدوق فأجاب سموّه أنه كان في الواقع يمزح وأنه

---

(1) هنري الثاني ملك فرنسا (1519 ـ 1559). تولى العرش بعد وفاة ابيه فرانسوا الأول في 1547، وتزوج كاترين دي مديتشي في 1533.

يريده لنفسه. والنتيجة؟ خامرتني فكرة النزوح عدة مرات. وتخلت ملكة فرنسا عن طلبي خشية إغضاب الدوق. وبقيت هكذا والبؤس يكتنفني من كلّ جانب.

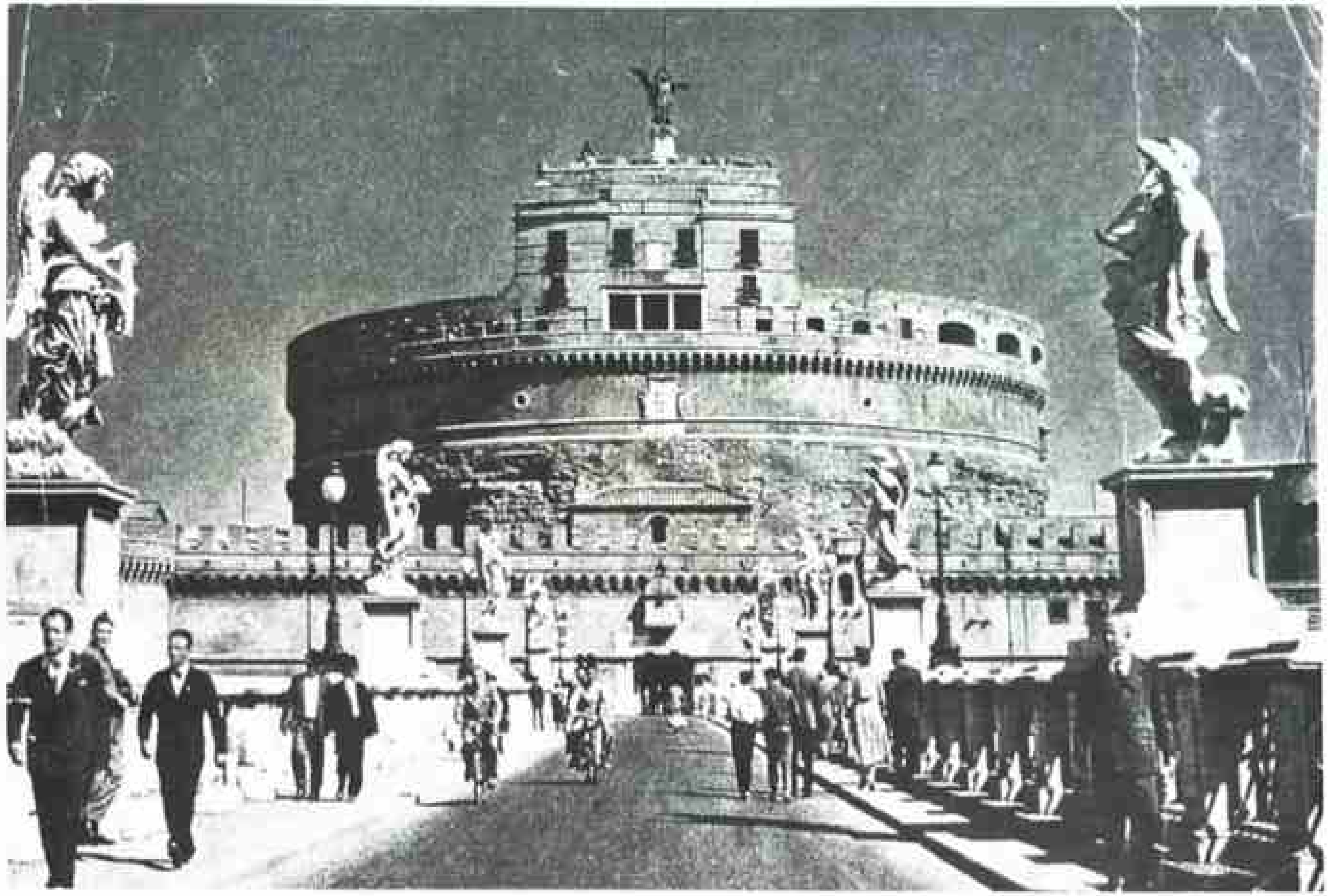
في ذلك الزمن توجه الدوق إلى (بيزا) ترافقه حاشيته كلها مع أولاده بإستثناء الأمير[1] الذي كان وقتئذ في إسبانيا. وكان طريقهم يمرّ خلال مستنقعات (سيينا) ومنها إلى (بيزا). وأثرت في صحة الكردينال[2] سموم الهواء الفاسد قبل الآخرين، فركبته حمّى خبيثة وبعد أيام وجيزة اوردته حتفه. كان الكردينال عند الدوق كعينه اليمنى. كان شاباً وسيماً عالي الخلق والذكاء وموته لا شك خسارة عظيمة.

إنتظرت بضعة أيام لتجف الدموع على الراحل بحسب تقديري. ثم انطلقت إلى بيزا.

إنتهت المذكرات

(1) أي ولي عهد الدوق.

(2) الكردينال جيوڤاني دي مديتشي ابن الدوق الثاني، توفي في روزينيانو Rosingnano في تشرين الثاني 1562.



قلعة سان انجلو في روما حيث سُجن چلليني



فرنسوا الأول ـ للرسام دان كلويه



البابا كليمنت السابع (1523 ـ 1534) والملك فرنسوا الاول ـ رسم ڤاساري



ميدالية البابا كليمنت السابع ـ محفوظة في متحف البارجللو الوطني ـ فلورنسا ـ (القطر 38 ملمتراً)



ميدالية البابا كليمنت السابع ـ من محفوظات متحف البارجللو الوطني بفلورنسا ـ (القطر 38 ملمتراً)



ميدالية فرانشسكو الأول ـ من محفوظات متحف البارجللو الوطني بفلورنسا ـ (القطر 38 ملمتراً)



ميدالية چبيترو بمبو ـ كابينتّو نوميسماتيكو ـ (القطر 56 ملمتراً)



عملة (دوقية) ذهبية للبابا كليمنت السابع ـ ميلانو ـ كابينتّو نوميسماتيكو ـ (القطر 29 ملمتراً)



عملة (40 صولدياً) للدوق اليساندرو دي مديتشي - ميلانو - (القطر 29 ملمتراً)



دوقية (عملة) لاليساندرو دي مديتشي (القطر 26 ملمتراً)



المملحة الذهبية - متحف فيينا (الطول 26 سنتمتراً)



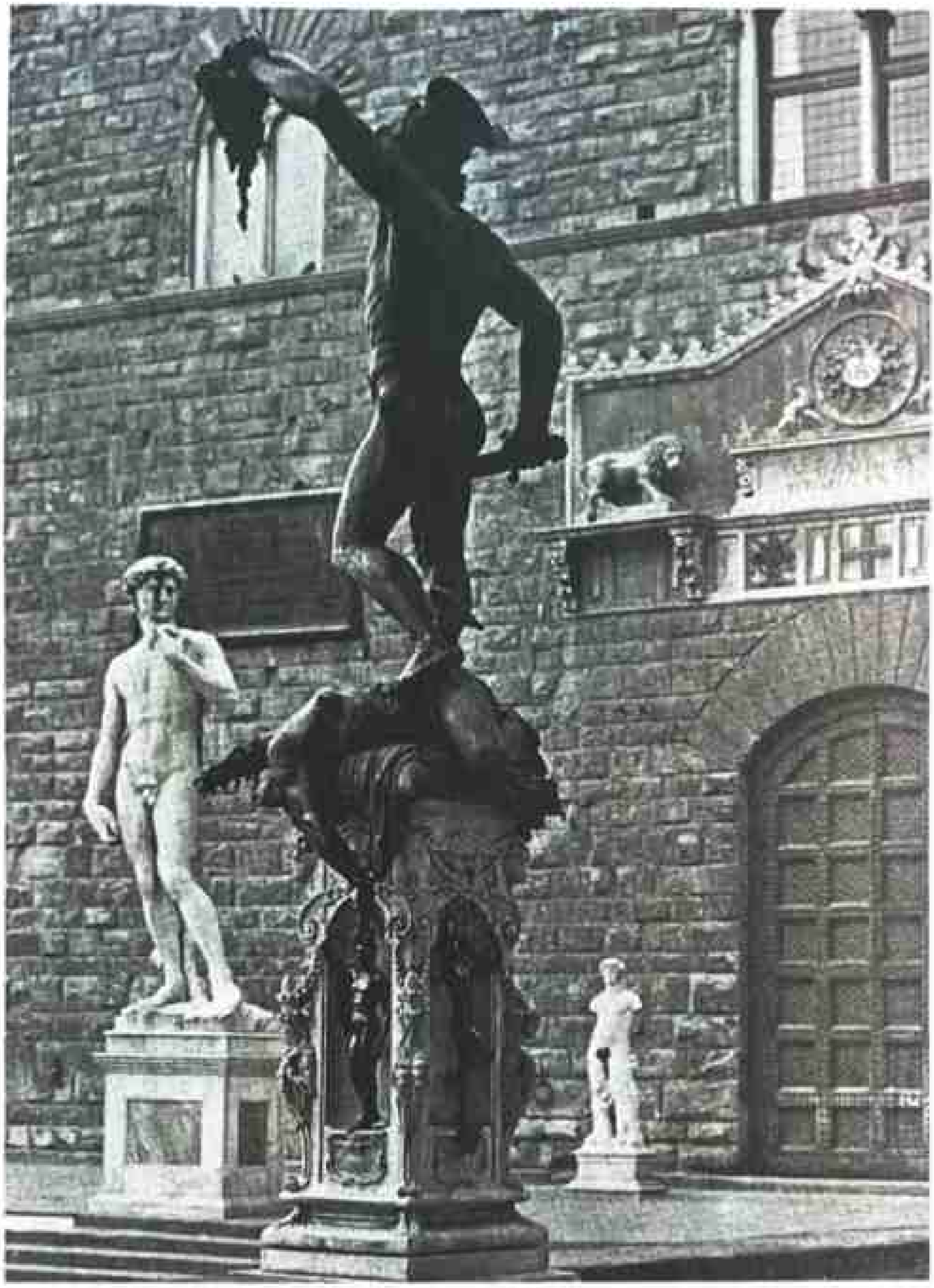
حورية فنتنبلو في متحف اللوفر - باريس (205 × 409 سنتمتراً)



الكلب: فلورنسا - متحف البارجللو الوطني (19 × 27,8 سنتمتراً)



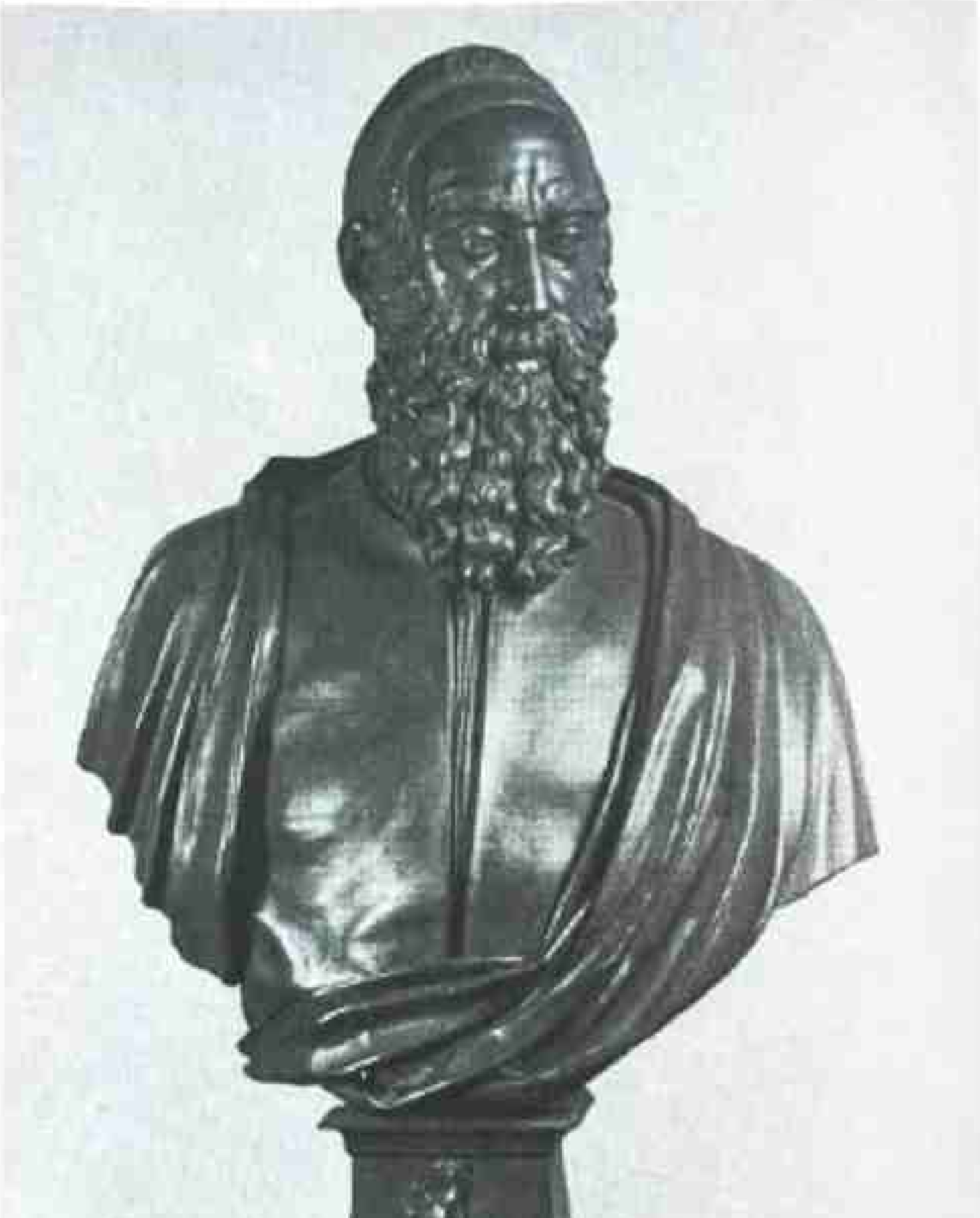
تمثال برسيوس المعروض في ميدان فلورنسا (لوجيا دل لانزي) ـ ارتفاع التمثال 320 سنتمتراً، ارتفاع القاعدة 199 سنتمتراً



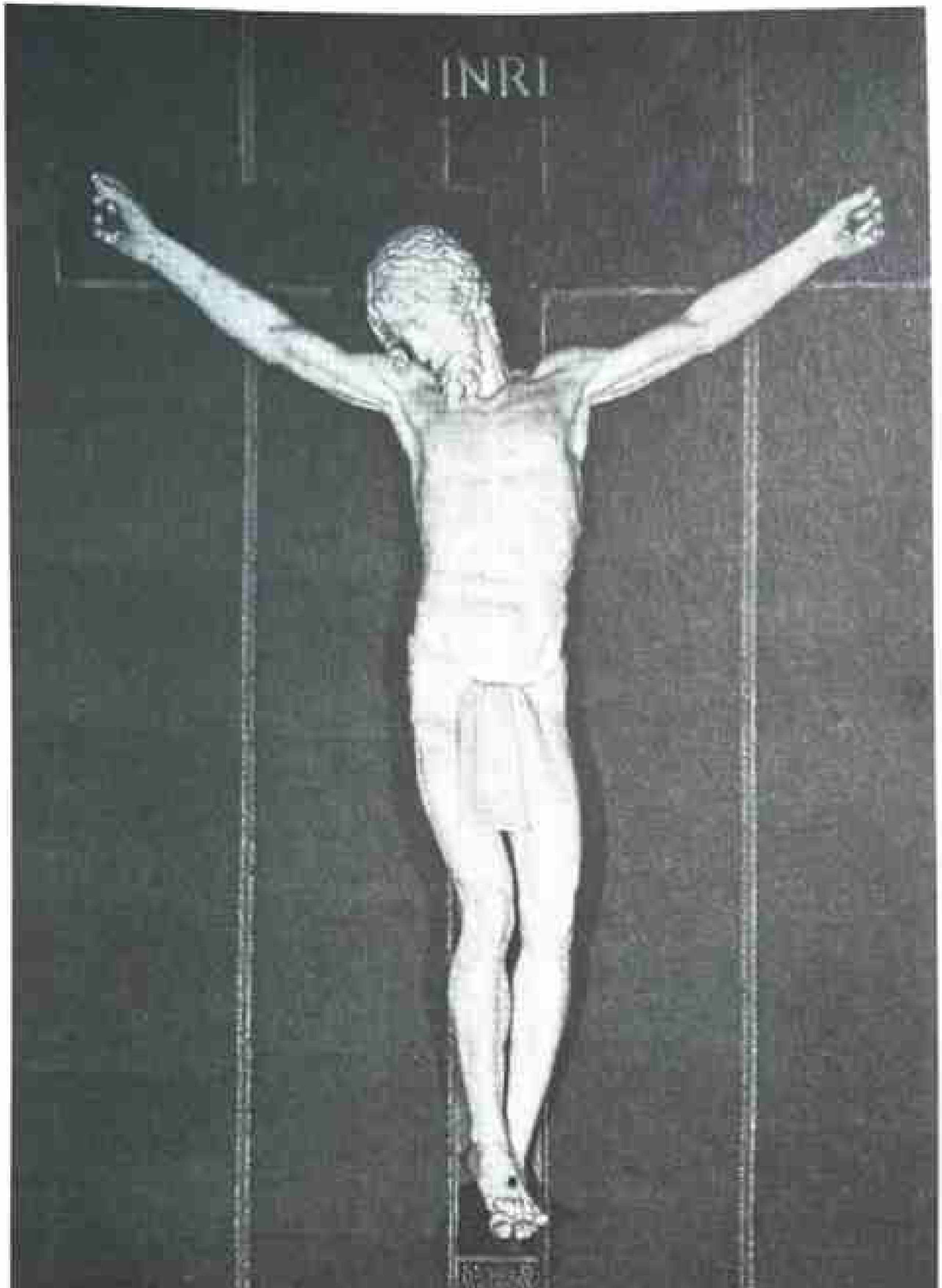
تمثال برسيوس المعروض في ميدان فلورنسا (لوجيا دل لانزي) ـ ارتفاع التمثال 320 سنتمتراً، ارتفاع القاعدة 199 سنتمتراً



التمثال النصفي لكوزيمو دي مديتشي ـ فلورنسا ـ متحف البارجللو الوطني (الارتفاع 110 سنتمترات من القاعدة)



التمثال النصفي لبندو التوفيتي في متحف إيزابيلا ستيوارت ـ بوسطن ـ ارتفاعه من القاعدة 105,5 سنتمتراً



المصلوب ـ في الإسكوريال، مدريد ـ الارتفاع 185 سنتمتراً

1 ـ فهرست الأعلام

2 ـ فهرست البلدان والأماكن والمواضع

3 ـ الفهرست

هذا الكتاب

وجدتُ في ترجمة چلليني سلوى وعزاء، فأقبلتُ بدأب وعلى ضوء المصباح الكهربائي الذي لا يُطفأ قط وأنا بين أكثر من خمسة عشر محكوماً مثلي. وفيهم القاضي، والجنرال، والأستاذ الجامعيّ، والسائق، والجزار، والعريف، والسياسي المعروف والعامل البسيط. فتتداول الأيدي ما أنجزه ثم أقوم بإرساله إلى الأهل.

ثمّ بلغتُ في الترجمة تلك المرحلة العصيبة التي مرّ بها (چلليني) سجيناً بتهمة ملفقة أيضاً. ومحكوماً بالموت أيضاً. ولا تسل عما انتابني من شعور بل ما ساد شعور المحكومين الآخرين الذين تابعوا ترجمتي، أنّ رفيقاً لهم يترجم الآن بقلمه ـ وقبل أكثر من أربعة قرون عين ما تجيش بهم أنفسهم. وأكملت الترجمة في أشهر قلائل واستقرت في أيدٍ أمينة بانتظاري.